

هَدَائِيَةُ الْحَمْدَلِيِّ
فِي حُبِّ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٧ م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم

لطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص. ب: ٤٥٢٣ - هـ: ٢٢٢٩١٧٧

دار البشائر

لطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب: ٦٥١١ - هـ: ٣١٦٩٢

طلب جميع منشوراتنا في المملكة العربية السعودية

من دار البشير بجدة

جدة: ٢١٤٦٣ - ص. ب: ٢٨٩٥ - هـ: ٦٠٨٩٠٤ - ٦٦٥٧٦٢١

هِدَى الْيَقِين

فِي حِجَّةِ الْيَهُودِ وَالنَّصْلِ

لِإِمَامِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ شَمْسِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ
الْمَعْرُوفِ بِابْنِ قَيْمَهِ الْجَوَزِيَّةِ
(المتوفى ١٧٥١ هـ)

تحقيق ودراسة

الدكتور محمد لأحمد الحام

وَقَدْ نَالَ هَذَا الْعَمَلُ دَرْجَةَ دَكتُوراه
مِنْ جَامِعَةِ إِلَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالرِّيَاضَةِ

الدار الشِّعْبِيَّةُ
بيروت

دار القِيلَاعَ
دمشق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَقَّ الْحَقَّ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَتُوَبُ إِلَيْهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ
أَنفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مِنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضَلٌّ لَهُ، وَمِنْ يَضْلِلُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا
مَرْشِدًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَاتَمَ
النَّبِيِّنَ، بَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَّ الْأُمَّةَ وَتَرَكَهَا عَلَى الْمَحْجَّةِ الْبَيْضَاءِ، لِيَلْهَا
كَنْهَارَهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالَكَ.

أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِالدِّينِ الَّذِي أَكْمَلَهُ وَرَضِيَّهُ لِلْبَشَرِيَّةِ «إِلَيْهِمْ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ
وَأَتَمَّتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَّتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا»^(١) فَكَانَ الْإِسْلَامُ دِينَ اللَّهِ الَّذِي لَا يَقْبِلُ
غَيْرُهُ «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامَ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ»^(٢).

فَصَلَواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالْتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبَعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ
الْدِينِ .

وَبَعْدَ :

فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى الَّذِي تَكْفُلُ بِحَفْظِ هَذَا الدِّينِ، يَهْمِّيُّ لَهُ فِي كُلِّ عَصْرٍ حَرَاسًا يَذَوَّدُونَ
عَنْهُ، يَحْمُونَ عَقِيدَتَهُ مِنَ الْأَنْحَرَافِ وَيَقْفُونَ فِي وَجْهِ أَعْدَائِهِ، مُبَيِّنِينَ لِلْأُمَّةِ وَسَائِلَ الْأَعْدَاءِ
وَمُخْطَطَاتِهِمْ، رَادِّيْنَ كَيْدِهِمْ إِلَى نَحْورِهِمْ، وَلَقَدْ شَهَدَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَلَا زَالَتْ تَشَهَّدُ
تَحْدِيَاتٍ مُخْتَلِفةً وَاجْهَاهَا بِهَا أُمَّةُ الْكُفَّرِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَشَكَّلُ مِلَّةً وَاحِدَةً هِيَ مِلَّةُ الْكُفَّرِ

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

المجمعة على حب الشر لل المسلمين «ما يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُم»^(١).

ولقد كان اليهود والنصارى يحملون لواء العداء للأمة المسلمة على مر العصور، فلا يقف كيدهم عند حد، ولا يقتصر على وسيلة، بل يقاتلون المسلمين بكل الوسائل المتاحة لهم، تارة يواجهونهم بالقوة والقتال إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، وتارة يلجأون إلى الكيد والمؤامرات، وتارة يقومون بقذف الشبهات محاولين تشكيك المسلمين بعقيدتهم.

وكان من حراس العقيدة هؤلاء الإمام العلامة، الذي نقوم اليوم بتحقيق كتابه، شمس الدين ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ، الذي عاش فترة كانت الأمة قد انتصرت فيها على الصليبيين عسكرياً، ولكن أفكارهم وتشكيكاتهم كانت لا تزال تدور على ألسنة الناس، فقام إمامنا رحمة الله يرد على هذه الشبهات التي يثيرها اليهود والنصارى، ووضع كتابه هذا ليقوم بواجب الحراسة الملقي على عاتقه، وقد بين ذلك في مقدمة كتابه حيث قال: «ومن بعض حقوق الله على عبده رد الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه ومجاهدتهم بالحجّة والبيان، والسيف والسانان، والقلب والجنان، وليس وراء ذلك حبة خردل من الإيمان».

فكان كتابه أجوبة لمسائلهم التشكيكية وتفنيداً لمزاعمهم، ولقد لفت هذا الكتاب الصغير في حجمه القوي في عباراته وأدائه - لفت نظري وأنا أقوم بتحضير رسالة الماجستير حيث كانت بعنوان «النصرانية من التوحيد إلى التثليث»، فرجعت إلى هذا الكتاب وإذا به كتاب جليل عظيم في أسلوبه وقوّة حجته، إلا أنه ينقصه جهد باحث يسهل الاطلاع عليه، يبرز عناوين لموضوعاته، ويزيل اللبس الذي لحق بعض العبارات من سقط بعض الكلمات، فقررت في نفسي أن أعمل مع هذا السفر الجليل وأقوم بتحقيقه.

وعندما عزمت على تسجيل رسالة الدكتوراة كان هذا الموضوع في ذهني إلا أنني كنت أفضل أن يكون عملاً خاصاً، واستشرت أحد أساتذتي من الذين نقشوني في رسالة الماجستير، ليرشدني إلى موضوع أقدمه للدكتوراة، فاختار لي أن أقوم بتحقيق هذا

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٥ .

الكتاب، فوافق قوله ما في نفسي فقبلت مباشرة قوله، و كنت من قبل قد تعرفت على أماكن وجود مخطوطات الكتاب، فعملت خطة وكان أول عمل عليّ هو الحصول على مخطوطات أربع تعرفت على أمكنته وجودها، من خلال الفهارس المختصة. فأرسلت في طلبها فكانت أول نسخة وصلت هي النسخة الأمريكية في جامعة برنستون، ثم تلتها النسخة المصرية، وبعد حوالي سنتين استطعت الحصول على النسختين التركيتين.

كما حصلت أثناء هذه المدة على النسخة المطبوعة بتحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، ولكن اطلاعي عليها لم يشن من عزيزمي على مواصلة السير لتحقيق الكتاب، والسبب واضح فيما سجلته على هذا التحقيق من ملاحظات.

وقد اشتمل بحثي على ما يلي:

١ - مقدمة: بَيَّنَتْ فيها سبب اختياري الموضوع وخطة عملي فيه.

٢ - صلب الموضوع: واشتمل على قسمين:

الأول: قسم الدراسة.

الثاني: قسم التحقيق.

٣ - خاتمة موجزة بَيَّنَتْ فيها النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث.

٤ - فهارس عامة.

* * *

هذا وقد اشتمل قسم الدراسة على أربعة أبواب:

* الباب الأول: (ترجمة ابن القيم):

واشتمل على خمسة فصول:

كان الفصل الأول منه عن عصر ابن القيم حيث تحدث بإيجاز عن الحالات السياسية والاجتماعية والعلمية لذلك العصر.

وفي الفصل الثاني تحدث عن اسمه ونسبه ولقبه وكنيته ومولده وأسرته ونشأته ورحلاته العلمية وتأثره بشيخه ابن تيمية، كما تحدث بإيجاز عن أخلاقه وعبادته وثناء العلماء عليه.

وفي الفصل الثالث تحدث عن شيوخه وتلاميذه، وقد ذكرت له اثنين وعشرين

شيخاً، ذكر تلميذه الصفدي ثمانية عشر منها، والأربعة الباقيون ذكرهم غير الصفدي، بل منهم من صرخ ابن القيم بذكر أسمائهم في بعض كتبه. وقد اكتفى الصفدي وغيره بذكر أسمائهم مع الإشارة عند قليل منهم لما أخذه ابن القيم عنهم، فرجعت إلى كتب التراجم وقامت بضبط أسمائهم، وذكر تاريخ الوفاة لكل واحد، وما أخذه ابن القيم عن كل منهم.

أما عن تلاميذه فقد ذكرت له أحد عشر تلميذاً، استطاعت أن تأييدهم بتلمساتهم على يديه، مع أن الذين أخذوا العلم عنه خلق كثير، كما أشار تلميذه ابن رجب.

ومما يلفت الانتباه أن تلاميذ ابن القيم كانوا من نوعية خاصة ممتازة أنتجوا أمهات المراجع الإسلامية.

وفي الفصل الرابع من هذا الباب تعرّضت لمؤلفاته، وقبل أن أقوم بسردها تحدثت عن منهجه في التأليف وخصائصه في ذلك. وقامت بتصنيفها حسب موضوعاتها. فكانت شاملة لمختلف موضوعات الإسلام، وأشارت في نهاية هذا الفصل إلى الكتب التي لم تثبت نسبتها إلى ابن القيم.

أما الفصل الخامس فقد خصصته للحديث عن ثقافة ابن القيم وشخصيته العلمية ببيت فيه العوامل المؤثرة في تكوين شخصيته العلمية ومدى تأثير هذه العوامل، وتحدثت فيه عن معالم ثقافته من خلال الحديث عن دوره في التفسير والحديث والفقه واللغة والعقيدة، ثم حاولت أن أبين منهجه العلمي المتميز في البحث والتأليف.

* الباب الثاني (كتاب هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى):
واشتمل هذا الباب على خمسة فصول:

كان الفصل الأول في إثبات نسبة هذا الكتاب إلى ابن القيم، وقامت بإثبات ذلك من إشارات ابن القيم لهذا الكتاب في مؤلفاته، ومما ذكره المترجمون لحياته.

وتحدثت في الفصل الثاني عن موضوع الكتاب وأسلوبه وسبب تأليفه له كما ذكر في مقدمته.

وخصصت الفصل الثالث للحديث عن المصادر التي اعتمد عليها ابن القيم في كتابه هذا، مما أشار إليه في الكتاب بنفسه أو مما عرفه من خلال النصوص التي نقلها ابن القيم عنها.

أما الفصل الرابع فكان في وصف مخطوطات الكتاب، وعدد صفحاتها ونوع خطها، وأماكن وجودها، وتاريخ كتابتها، وقد أتبعت هذا الفصل حديثاً مختصراً عما سجلته من ملاحظات على النسخة المحققة التي قام بتحقيقها الدكتور السقا بينت فيه مخالفات المحقق لقواعد التحقيق واقتصره في التحقيق على تخرير الآيات الكريمة، ونصوص العهدين القديم والجديد، وبعض التعليقات منها الصحيح ومنها الخطأ، كما أشرت إلى الأخطاء الكثيرة التي وقع فيها من حذف وتصحيف وزيادة.

وما كان هدفي من ذلك الطعن – ويعلم الله – ولكنني أردت أن أثبت أن الكتاب بعد تحقيق الدكتور السقا بقي بحاجة إلى تحقيق ودراسة.

وفي الفصل الأخير، من هذا الباب بينت أهمية هذا الكتاب من نواحٍ مختلفة.

من حيث أسلوبه المتميز في الرد والنقاش.

ومن حيث سعة موضوعاته وشمولها.

كما قمت بمقارنته مع بعض الكتب المتخصصة في موضوعه ومنها الجواب الصحيح لابن تيمية، والرد الجميل للغزالى، وشفاء الغليل للجويني، وتبيين من خلال هذه المقارنة أن هداية الحيارى: يبقى كتاباً متميزاً له منهجه وموضوعاته التي لا يستغني عن قراءتها الباحث في هذا الموضوع، وقد بينت خلال البحث ما أخذه ابن القيم عن الجواب الصحيح وما تميز به كل كتاب عن الآخر، راداً بذلك على الشبهة التي يشيرها البعض من لم يطلعوا إلا على عنوان الكتابين، وهي أن كتاب هداية الحيارى ما هو إلا ملخص لكتاب الجواب الصحيح محاولين بذلك التقليل من شأن الكتاب.

والخلاصة التي خرجت بها أن الكتابين متممان لبعضهما لا يعني أحدهما عن الآخر لأن كل كتاب بحث الموضوع من زاوية معينة.

* * *

* الباب الثالث (أصول العقيدة عند اليهود والنصارى):

وقد اشتمل هذا الباب على فصلين:

الأول: أصول عقيدة النصارى، وفيه تحدثت عن أبرز أصول المعتقدات التي

اتفقت عليها طوائف النصارى، وقد بحثت مسألة الشكليت بشيء من التفصيل بينما كان حديثي عن الأصول الأخرى مختصرًا جدًا.

الثاني: أصول عقيدة اليهود، وقد قصرت الحديث عن موضوعين من موضوعات عقيدتهم هما: النسخ والبداء، وعقيدتهم في الإله. وقد تطرق في الموضوع الثاني إلى مسألة العزير وبنوته لله وأبرزت ما قاله ابن القيم في المسألة مرجحاً ما ذهب إليه من أن عزيراً الذي ادعى اليهود أنه ابن الله هو نفسه عزرا الوراق الذي وضع لهم التوراة.

* * *

أما في قسم التحقيق فقد اشتمل عملي فيه على ما يلي:

- ١ - المقابلة بين نسخ المخطوط حيث قابلت بين أربع نسخ ، نسخة دار الكتب المصرية ، ورمضت لها بـ (الأصل) ، ونسخة مكتبة برنسنون ورمضت لها بالحرف (ب) ، ونسخة مكتبةبني جامع بتركيا ورمضت لها بالحرف (ج) ، ونسخة مكتبة آيا صوفيا ورمضت لها بالحرف (ص).
- ٢ - وضع العناوين المناسبة للموضوعات الرئيسية والفرعية في الكتاب ، وقد وضعتها بين حاضرتين بهذا الشكل [] تسهيلاً للقاريء وخدمة للكتاب.
- ٣ - تخریج الآيات القرآنية الواردة في الكتاب .
- ٤ - تخریج الأحاديث النبوية والأثار الواردة .
- ٥ - تخریج نصوص العهدين القديم والمجدید الواردة في الكتاب .
- ٦ - ترجمة للأعلام الذين ورد ذكرهم ، علمًا بأنني لم أترجم للأئماء عليهم السلام ، ولا للمشهورين جداً من الصحابة ، كالخلفاء الراشدين ، ولا للأسماء الغريبة من غير المسلمين من الرومان أو اليهود الذين لم يتم إسلامهم ، ولا لكثير من وردوا في أسانيد الأحاديث .
- ٧ - ترجمة للبلدان والأماكن الواردة .
- ٨ - توضیح معانی الكلمات الغریبة الواردة بالرجوع إلى معاجم اللغة العربية .
- ٩ - التعليق على بعض المسائل التي تحتاج إلى توضیح .

١٠ - الرجوع بالأقوال التي استشهد بها الكتاب إلى أصحابها وإلى مطانّها الأصلية.

* * *

أما القسم الثالث من عملي وهو الفهارس العامة فقد قمت بعمل فهارس شاملة للآيات القرآنية والأحاديث النبوية ونصوص الكتاب المقدس، والأعلام، والأماكن والبلدان، والأمم والقبائل والفرق، كما أثبتت قائمة بالمراجع وفهرساً للموضوعات.

هذا هو جهدي الذي قدمته لهذا الكتاب الجليل، أسأل الله تبارك وتعالى أن أكون قد وفقت في خدمته، وأن يكتب لي على عملي الأجر والثواب، ويفغر لي ما جانت فيه الصواب. وأردد ما قاله ابن القيم رحمه الله «والمنصف يهب خطأ المخطئ، لإنصافه وسيئاته لحسناته، فهذه سنة الله في عباده جزاء وثواباً، ومن ذا الذي يكون قوله كله سديداً وعمله كله صواباً، وهل ذلك إلا المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ونطقه يوحى...»^(١).

أسأل الله تعالى أن يوفقنا لخدمة هذا الدين، وأن يرزقنا الإخلاص في العمل إنه سميع مجيب.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

د. محمد أحمد الطارع

(١) انظر: روضة المحبين، ابن القيم: ص ١٥.

القِسْمُ الْأَوَّلُ

دِرْاسَةٌ حَوْلَ الْكِتَابِ



الباب الأول

ترجمة ابن القيم

عصره وحياته ومؤلفاته وشخصيته العلمية

الفصل الأول (عصر ابن القيم):

- (١) الحالة السياسية
- (٢) الحالة الاجتماعية
- (٣) الحالة العلمية

الفصل الثاني (حياة ابن القيم):

- (١) اسمه ونسبه ولقبه وكنيته
- (٢) مولده وأسرته
- (٣) نشأته ورحلته
- (٤) تأثره بابن تيمية
- (٥) أخلاقه وعبادته
- (٦) ثناء العلماء عليه
- (٧) محتته
- (٨) وفاته

الفصل الثالث (شيوخه وتلاميذه):

- (١) شيوخه
- (٢) تلاميذه

الفصل الرابع (مؤلفاته):

- (١) في علوم القرآن
- (٢) في السنة الشريفة
- (٣) في العقيدة
- (٤) في الفقه وأصوله
- (٥) في النحو واللغة
- (٦) في التصوّف
- (٧) في موضوعات متفرقة
- (٨) كتب لم تثبت نسبتها إليه
- (٩) كتب تمنى المؤلف إخراجها

الفصل الخامس (ثقافته وشخصيته العلمية):

- (١) العوامل المؤثرة في تكوين شخصيته
- (٢) معالم ثقافته
- (٣) ميزات منهجه العلمي

الفصل الأول عصر ابن القِيْم

توطئة :

وُلد شمس الدين ابن قيم الجوزية سنة ٦٩١ هـ وعاش النصف الأول من القرن الثامن الهجري ، وكانت إقامته في دمشق .

وكانت الأمة الإسلامية في تلك الفترة قد خرّجت من محتفين عظيمتين ، كل واحدة منها كفيلة بالقضاء على الأمة الإسلامية حضارة وجوداً لولا عنابة الله تعالى .

المحنة الأولى محنة الحملات الصليبية الأوروبيّة على العالم الإسلامي ، والمحنة الثانية هي الهجمات المغولية .

لَكَن ابن القيم رحْمَهُ اللَّهُ شَهَدَ الأَمَّةَ وَقَدْ أَعْدَادَتْ اعْتِبَارَهَا لِنَفْسِهَا، وَخَرَجَتْ مِنْ الضَّيْمِ الَّذِي نَالَهَا، وَأَثْبَتَتْ قَدْرَهَا عَلَى تَجاوزِ الْمَحْنِ، فَقَدْ كَسَرَتْ شَوْكَةَ الصَّلَبِيِّينَ فِي مَعرَكةِ حَطَّينِ، وَتَمَّ اسْتِرْدَادُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ أَيْدِيهِمْ سَنَةَ ٥٨٣ هـ. وَكَسَرَتْ شَوْكَةَ الْمُغْوَلِّ فِي عَيْنِ جَالُوتِ سَنَةَ ٦٥٨ هـ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ السِّيَاسِيَّةِ، وَمَا خَلَفَتْ وَرَاءَهَا، شَكَّلَتْ بَيْئَةً مَعِيَّنةً لِهَا أَثْرَهَا عَلَى مُخْتَلِفِ نَوَاحِيِّ الْحَيَاةِ.

وَفِيمَا يَلِي عَرَضُ مَوجَزِ الْحَالَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ فِي بَلَادِ الشَّامِ لِذَلِكِ الْعَصْرِ.

**

(١)

الحالة السياسية

الوضع السياسي في أي بلد له أثر كبير على الحالتين الاجتماعية والعلمية، ونحن لا نريد الخوض مفصلاً في الأحوال السياسية في هذا العصر، بل سنتحدث عن أهم الأحداث، وأجدني مضطراً للحديث عن أشياء ثلاثة هي:

الأول – الحروب الصليبية:

الحروب الصليبية هي تلك الحملات المسلحة التي شنتها أوروبا ضد الإسلام في بلاد الشام والأناضول ومصر وتونس انتقاماً وثأراً من المسلمين بهدف القضاء عليهم واسترجاع بيت المقدس وقبر المسيح – بزعمهم –، وذلك خلال الفترة بين عامي ١٠٩٦ و ١٢٩١.

ففي منتصف القرن الخامس الهجري، بينما كانت الأمة الإسلامية تعيش أقصى حالات التفرقة والتخلف، بدأت أوروبا النصرانية تفكر باستغلال هذه الأوضاع وغزو العالم الإسلامي. ذلك لأن النصارى لم ينسوا طيلة هذه القرون الخمسة ما لحقهم من هزيمة على أيدي المسلمين أدت إلى انتهاء مملكتهم في الشام.

والدارس لحالة المجتمع الإسلامي قبل إعلان هذه الحرب التي انطلقت باسم الصليب، يدرك الظروف التي اختارتها الأمم النصرانية في أوروبا للقيام بهجماتها الشرسة.

فكانت - مصر - مثلاً تعيش مأساة الحكم الفاطمي بانحرافاته وتناقضاته وكثرة الفتن الداخلية في أثناء حكمه. حتى إن بعض المؤرخين المسلمين يذكرون أن الفاطميين راسلوا الإفرنج وشجعوهم على مهاجمة السلاجقوسين، الذين تغلبوا على الفاطميين،

وأخذوا الشام من تحت أيديهم . بالإضافة إلى الخلافات المذهبية بين الفاطميين الشيعة والسلاجقة السنّيين^(١) .

فالهُوَة كانت سحقيقة بين الشام ومصر، أما في بغداد فكانت الخلافة العباسية في وضع هزيل ، فقد كثُرَ المناوئون والخارجون على سلطان الدولة ، وكثُرت الثورات والفتنة الداخلية والمذهبية ، وبرزت دويلات شكلت كيانات مستقلة عن الخلافة في بغداد ، كالبويهية والسلجوقية .

هذا بالإضافة إلى الفرق الباطنية التي بُرِزَت كالأسماعيلية والقرامطة الذين كانوا من أهم أسباب التفرقة ، كما أن إحدى فرق الإمامية وهي الحشاشية تعاونت مع الصليبيين ، وفتكَت بالكثير من قادة المسلمين^(٢) .

لقد كانت هذه الأوضاع السائدة طعمًا مغرياً للعالم الصراني ، شجعه للقيام بتلك المغامرات العسكرية ، كما أن تلك الأوضاع أتاحت له أن ينفرد بكل جزء على حدة من أجزاء العالم الإسلامي .

ويعرف بذلك المستشرق (سميل) فيقول: كشفت الأحداث التالية بشكل كبير انقسام المسلمين ، الذي كان إلى حد بعيد سبب نجاحات الإفرنج العسكرية خلال الجيل الأول للاحتلال اللاتيني ، إذ رأى حكام سوريا الإسلامية في هذه الحملات المنبعثة من بلاد ما بين النهرين ليس فقط هجوماً على الإفرنج ، بل محاولة من السلطان لإعادة توسيع سيطرته المباشرة عليهم أنفسهم^(٣) ، ونلاحظ مما قاله (سميل) انعدام الثقة فيما بين المسلمين فهم يسيئونظن حتى بحملات التحذية التي كانت تأتيهم ، بل يذكر (سميل) أنهم في سنة ١١١٥ م تحالفوا مع الإفرنج ضد جيش (برسق) الذي جاء إلى سوريا من بلاد ما بين النهرين لقتال الفرنجة^(٤) .

(١) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى : ص ١٤٧ .

(٢) انظر: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، محمد العمروسى : ص ٢٢ .

(٣) الحروب الصليبية ، ر.س. سميل ، ترجمة سامي هاشم : ص ١٤٧ .

(٤) المرجع السابق : ص ١٤٩ .

دَوْافِعُ الْحَرُوبِ الصَّلَبِيَّةِ :

تَعْدَدُ الْأَرَاءُ فِي الدَّوَافِعِ الَّتِي دَفَعَتِ الْأُورُوبِيِّينَ لِلْقِيَامِ بِهِجْمَاتِهِمْ ضَدَّ الْأَمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَتَذَكَّرُ دَوْافِعٌ كَثِيرَةٌ، لَكِنَ الدَّافِعُ الْأَسَاسِيُّ هُوَ التَّعَصُّبُ وَالْحَقْدُ الدَّفِينُ الَّذِي يَقْعُدُ فِي نُفُوسِ النَّصَارَى، وَتَنَاقُلُهُ الْأَجْيَالُ طِيلَةً خَمْسَةَ قَرْوَنَ، وَالَّذِي بَدَأَ مِنْذُ مَعرِكَةِ الْيَرْمُوكَ سَنَةَ ١٣٢ هـ حِيثُ سَقَطَ يَوْمَهَا مَمْلَكَتُهُمْ، وَوَقَفَ هَرْقُلُ عَلَى إِحْدَى تَلَالَ سُورِيَّةِ قَاتِلًا: «سَلَامٌ عَلَيْكَ يَا سُورِيَّةَ، سَلَامٌ لَا لِقَاءَ بَعْدَهُ»^(١).

أَمَّا الْعَوْمَلُ الْأُخْرَى فَتَبْقَى ثَانِيَّةً لَا يُمْكِنُ اعْتِبَارُهَا دَوْافِعَ حَقِيقِيَّةً لِلتَّلَكَ الْحَرُوبِ وَمِنْ هَذِهِ الدَّوَافِعِ الَّتِي ذُكِرَتِهَا الْمُؤْرِخُونَ:

١ - مَحَاوِلَةُ التَّوْسُعِ وَالْاسْتِعْمَارِ: فَهُنَّاكَ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْحَرُوبَ الصَّلَبِيَّةَ نَفْسُهَا مَا هِيَ إِلَّا امْتَدَادٌ طَبِيعِيٌّ لِلْحَرُوبِ التَّوْسُعِيِّ الْإِقْطَاعِيِّ الَّتِي كَانَ يَقُومُ بِهَا كُبَارُ رِجَالِ الْإِقْطَاعِ فِي الْغَرْبِ الْأُورُوبِيِّ قَبْلَ الْحَرُوبِ الصَّلَبِيَّةِ، وَمِنْ ذَهْبِ إِلَى هَذَا التَّفْسِيرِ الْمُؤْرِخُ الْفَرَنْسِيُّ رِينِيهُ جَرُوسِيُّهُ الَّذِي قَالَ: إِنَّ الْحَرُوبَ الصَّلَبِيَّةَ أَدَتَ إِلَى أَوَّلِ تَوْسُعِ اسْتِعْمَارِيِّ الْغَرْبِ الْمُسِيَّحِيِّ فِي الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ، وَزَمِيلِهِ الْإِنْجِلِيزِيِّ جُورْجُ تَرِيفِيلِيَّانُ الَّذِي قَالَ «إِنَّ الْحَرْكَةَ الصَّلَبِيَّةَ هِيَ حَرْكَةً اتسَاعَ خَارِجِيًّا قَامَتْ بِهِ أُورُوباُ الْمُسِيَّحِيَّةُ إِلِيَّةً صَدَّ الْعَرَبِ»^(٢).

٢ - الْبَاعُثُ الشَّخْصِيُّ: وَقَدْ ظَهَرَتْ كَثِيرَةً مِنِ النَّظَرِيَّاتِ الَّتِي تَسْنَدُ قِيَامَ الْحَرْكَةِ إِلَى شَخْصٍ وَاحِدٍ أَمْثَالَ بَطْرُسِ النَّاصِكِ أَوَّلَ الْأَمْبَاطُورِ الْبِيزِنْطِيِّ الْكَسِيسِ كُوْمِنِينِ، أَوْ أَنْشُودَةِ رُولَانَ أَوْ الْبَابَا أَرِيَانَ الثَّانِي^(٣).

٣ - الْعَوْمَلُ الْاِقْتَصَادِيُّ: الَّذِي فَسَرَّ الْحَمْلَاتَ الصَّلَبِيَّةَ تَفْسِيرًا اِقْتَصَادِيًّا وَهُوَ رَغْبَةُ أُورُوباِ فِي اسْتِغْلَالِ مَوَارِدِ الشَّرْقِ وَالْاِسْتِفَادَةِ مِنْ مَنْتَوْجَاتِهِ^(٤).

(١) الْحَرُوبُ الصَّلَبِيَّةُ، ر. س. سَمِيلُ: ص ١٤٧.

(٢) الْوَحْدَةُ وَحَرْكَاتُ الْيَقْظَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِيَّانَ الْحَرُوبِ الصَّلَبِيَّةِ، جُوزِيفُ نَسِيمُ: ص ٩.

(٣) الْعَرَبُ وَالْرُّومُ وَالْلَّاتِينُ فِي الْحَرْبِ الصَّلَبِيَّةِ الْأُولَى، د. جُوزِيفُ نَسِيمُ: ص ٥١ - ٥٦.

(٤) انْظُرْ: الْعَلَاقَاتُ الْاِجْتِمَاعِيَّةُ وَالْقَوْفَيَّةُ وَالْاِقْتَصَادِيَّةُ بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْإِفْرَنجِ خَلَالِ الْحَرُوبِ الصَّلَبِيَّةِ، د. زَكِيُّ الْفَناشُ: ص ١٣.

٤ - العامل التاريخي الديني: وهو العامل الحقيقي الذي أشرت إليه في البداية، فهي حروب دينية كما يبدو من تسميتها وشعاراتها، قامت للثأر من المسلمين.

ويستدل الدكتور جوزيف نسيم على أهمية هذا العامل وأولويته في تفسير الحروب الصليبية بما يلي (١):

(أ) أن المؤرخين الغربيين أنفسهم من القدامى والمحاذين نظروا إليها هذه النظرة.

(ب) أنها قامت لإنقاذ قبر المسيح والأراضي المقدسة من قبضة المسلمين.

(ج) كل الحملات الصليبية نظمت تحت إشراف الكنيسة الرومانية والبابوية نفسها.

(د) ليس أدل على ذلك مما قاله مؤرخ صليبي عاصر أحداثها هو روبرت الراهب من أنها كانت من عمل الله وليس من عمل الإنسان.

ولا شك أن كثيراً من المستشرقين غير المنصفين يحاولون تجاهل هذا العامل العقدي الديني، وإبراز العوامل الاقتصادية أو الشخصية بقصد التمويه لحقيقة الصراع، ومثل ذلك تماماً من يفسرون الصراع القائم بين المسلمين وبهود اليوم صراعاً اقتصادياً أو صراعاً سياسياً أو توسيعاً استيطانياً، متجاهلين حقيقة الصراع العقائدية التاريخية بين المسلمين واليهود.

ومما يعترف به الجميع أن هذا العامل قد وضع هدفاً أساسياً شجع الشعب في أوروبا للاشتراك في هذه الحروب، وكانت الحملات الدعائية المركزية التي قام بها الراهب الفرنسي بطرس الناسك تصرح بهذا الهدف، حيث كان يطوف على حماره، يحمل صليباً كبيراً كشعار لتلك الحروب، في البلدان الأوروبية يستحثهم على محاربة المسلمين، ويشعل نفوسهم حمية عليهم، ونادي بضرورة حماية المقدسات المسيحية، مدعياً أن زوار بيت المقدس من النصارى يواجهون مضائقات من المسلمين، مع أن ذلك لم يكن، ويكتفي أن نذكر ما قاله المؤرخ (رنسيمان) حيث يصرّح أن المسيحيين كانوا أسعد حظاً في

(١) العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى: ص ٥١ - ٦٧.

الغالب تحت حكم جماعات المسلمين منهم تحت حكم ملوك الرومان، حيث تمتعوا بحرية التجارة والعيش في ظلال الأمن^(١).

بدء الحملات الصليبية :

قبل أن تتحرك الجيوش المنظمة التي قادها الأمراء ورجال الدين، تكونت كتائب صليبية شعبية على غاية من الفوضى والاضطراب بقيادة الراهب بطرس الناسك، فسارت مخترقاً أوروبا الوسطى تسلب وتهب، وقد اشتبت مع أهالي المدن التي مررت بها وبخاصة في بلاد المجر، ومات منها الكثير، ثم وصلت بقايا هذه الحملة إلى القسطنطينية سنة ٤٨٩ هـ، فنقلهم император البيزنطي فيها على المراكب إلى الضفة الشرقية للبسفور، وما أن علم السلطان السلاجوقى بنزول هؤلاء الصليبيين بأسيا الصغرى حتى هبّ لقتالهم قرب مدينة نيقية عاصمته، وهزمهم هزيمة منكرة^(٢).

ثم بدأت الحملات الصليبية تجتمع في القسطنطينية، وكانت الحملات الأولى من فرنسا، وإيطاليا، ثم انطلقو جميعاً، ودخلوا نيقية بعد حصار دام خمسين يوماً وتابعوا طريقهم إلى إنطاكيه^(٣).

قال ابن كثير: «ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وأربعين وفيفها دخل ملك الإفرنج مدينة إنطاكيه بعد حصار شديد، بمواطأة بعض المستحفظين على بعض الأبراج^(٤)، ثم صار الإفرنج إلى معّرة النعمان وأخذوها بعد حصار»^(٥).

لقد تصدت للصليبيين قوات مختلفة من المسلمين، ولكنها بتفرقها وتعدد اتجاهاتها لم تكن قادرة على إيقاف زحف الحملات الصليبية أوردها، واحتلالات المسلمين كانت تحول دون ذلك، ويكتفي في ذلك أن نعلم أن الفاطميين في مصر انتهزوا فرصة انشغال

(١) الحروب الصليبية، رنسيمان: ص ١.

(٢) الحروب الصليبية، محمد العمروسي: ص ٤٧ - ٤٨.

(٣) المرجع السابق: ص ٤٨.

(٤) حارس البرج الخائن هو فيروز الأرمني، وقد تفاوض سراً مع أحد قادة الروم وسلمه البرج، وكانت هذه الخيانة السبب في نجاح الصليبيين. انظر: الحروب الصليبية، العمروسي: ص ٥٢.

(٥) البداية والنهاية، ابن كثير: ١٢/١١٥.

السلاجقة في مقاومة الصليبيين في إنطاكية، لافتاك بيت المقدس من أيدي السلاجقة، وبعث الخليفة الفاطمي - المستعلي بالله - وفداً إلى الصليبيين يعرض عليهم الصلح والمسالمة، وتأمين أماكنهم المقدسة، ولكن الصليبيين لم يجيبوه إلى ذلك^(١).

سقوط بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ:

توالت انتصارات الصليبيين بعد إنطاكية وهم في طريقهم إلى بيت المقدس. قال ابن كثير: ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وأربعين وأربعمائة وفيها أخذت الفرنج بيت المقدس، وقتلوا في وسطه أزيد من ستين ألف قتيل من المسلمين وأخذوا الكثير من الذهب والفضة^(٢).

وكانت قمة انتصارات الصليبيين استيلاءهم على بيت المقدس، حيث كونوا مملكة بيت المقدس ومنطقتها من شمال بيروت إلى جنوب عسقلان، وتشمل كل فلسطين وشرقي الأردن إلى خليج العقبة، وتتبعها إمارة الكرك، ومن حصونها الكرك والشوبك، وبالإضافة إلى مملكة بيت المقدس كانت لهم إمارات مثل الراها وإنطاكية وطرابلس^(٣).

جرائم الصليبيين في بيت المقدس:

لقد دخل الصليبيون بيت المقدس والحقد يملأ قلوبهم، وقد ارتكبوا من الجرائم ما يعجز اللسان عن وصفه، وندع الحديث لأحد مؤرخي الفرنجة وهو غوستاف لوبيون حيث ينقل لنا قول كاهن مدينة لوبيي - أحد المشاركين في الهجوم على بيت المقدس - فيقول: (حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها، فقطعت رؤوس بعضهم فكان هذا أقل ما أصابهم، وبقررت بطون بعضهم، فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرق بعضهم في النار فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى في شوارع القدس وعيادتها سوى أكdas من رؤوس العرب

(١) انظر: الحروب الصليبية، العمروسي: ص ٥٢ - ٥٤.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ١٥٦/١٢.

(٣) راجع: كتاب الحروب الصليبية، العمروسي: ص ٥٦ - ٥٨.

وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوه...^(١).

الحرب الصليبية الثانية :

كانت الانتصارات الصليبية المتواصلة في البلاد الشامية أشبه ما تكون بجرس إنذار دقّ على أسماع المسلمين، وما لبث الأمر طويلاً حتى استجابت الأمة لنداء الوحدة الذي أطلقه عماد الدين زنكي، حيث استطاع هذا القائد الملهم أن يكون مملكة إسلامية قوية في شمال سوريا، بدأت تُغير على الإمارات الصليبية واستطاعت أن تسترد مدينة الرها، وتابع نور الدين زنكي خطى والده، وبدأ يشكل مصدر قلق واضح للإمارات الصليبية، مما جعل أوروبا تفكّر بحرب صليبية، حيث خاف الأوروبيون من لممة العالم الإسلامي، وهبوا لنجدتهم لإنقاذهم من الصليبيين الذين استقروا في البلاد الإسلامية. والبابوية في هذه المرة أيضاً هي التي تبنت إعداد الحملة.

فقد عقد مجمع كنسي في فرنسا سنة ٤٥٠ هـ دعا إلى تشكيل حملة صليبية جديدة، فاستجاب لذلك ملك فرنسا (لويس السابع) وامبراطور ألمانيا (كونراد الثالث) وسار كل واحد بطريق والتقيا في بيت المقدس، لكن الحملة فشلت في تحقيق أي هدف، مما قوى معنويات المسلمين وجعل نور الدين زنكي يتبع انتصاراته، واستطاع أن يمتلك دمشق وكانت موالية للصلبيين متعاونة معهم^(٢).

سلطة صلاح الدين الأيوبي :

لما علم نور الدين زنكي بأن مطامع الصليبيين بدأت نحو مصر مستغلين ضعف الفاطميين، والاضطرابات الداخلية فيها، بعث إليها جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه، ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، وكان ذلك أكثر من مرة، وترك الصليبيون مصر، ودخل شيركوه القاهرة دخول القائد المنقذ، وصار وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد^(٣).

(١) حضارة العرب، غوستاف لويون: ص ٤٠٢ ، ترجمة عادل زعيتر، ط ٢ ، سنة ١٩٤٨ م.

(٢) انظر: العمروسي: ص ٦٩ - ٧٠.

(٣) المرجع السابق: ص ٧٢ - ٧٦.

وبعد وفاة أسد الدين شيركوه صار صلاح الدين وزيراً للعاصد، وبموت العاصد أصبح صلاح الدين هو المتصدر في مصر وسيدها، وتوسّع في دولته وبقي تابعاً بالاسم لنور الدين في الشام، ولما توفي نور الدين توجه صلاح الدين إلى الديار الشامية وضمّها إلى دولته، ذلك لأن الملك الصالح ابن نور الدين تولى وهو قاصر، فهاجم الصليبيون قلعة بانياس، وقد صالحهم الملك الصالح فغضب صلاح الدين لهذا الصلح، وأرسل إلى عدد من الملتفين حول الملك الصالح كتب توبیخ^(١).

لقد أدرك القائد صلاح الدين سر هزيمة المسلمين، وعرف أن فرقهم هي السبب الرئيسي لذلك، فقرر العمل على توحيد الأمة المسلمة قبل مواجهة الصليبيين، وفعلاً تم له ذلك بعد أن قضى على كل مناوئيه من الداخل، وما حلت سنة ٥٨٢هـ حتى أصبحت مملكته تشمل شمال العراق وكردستان والشام ومصر واليمن وبرقة^(٢).

وخلال هذه المدة كانت تحصل مصادمات بين صلاح الدين وبين الفرنجة، لكنه لم يكن حريصاً على ذلك من البداية حتى إنه كان يهادن بعضهم ويصالحهم حتى بني جبهته الداخلية.

ويذكر ابن كثير أن صلاح الدين في سنة ٥٨٢هـ هادن قومس طرابلس وصالحه وصافاه حتى كان يقاتل ملوك الفرنج^(٣).

بعد انتصار الوحدة الذي أحرزه السلطان صلاح الدين في البلاد الإسلامية، بدأ يجهز لدخول بيت المقدس أكبر معاقل الصليبيين ورمز وجودهم، وصار يهاجمهم هنا وهناك بجيش قوي معبأً معنوياً حتى كانت وقعة حطين سنة ٥٨٣هـ التي هزم فيها الصليبيون هزيمة نكراء قتل منهم فيها عشرة آلاف وأسر ملك بيت المقدس ثم حاصرها مباشرة بعد أن أخذ من الصليبيين مدنًا ساحلية ودخلها في رجب من نفس العام سنة ٥٨٤هـ^(٤).

(١) وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، د. محمد حمادة: ص ١١٦ - ١١٧.

(٢) الحروب الصليبية، العمروسي: ص ٨٣.

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير: ٣١٩/١٢.

(٤) الحروب الصليبية، العمروسي: ص ٨٦؛ والبداية والنهاية: ٣٢/١٢.

وكان دخول بيت المقدس نصراً عظيماً لل المسلمين ، وقد بذل صلاح الدين جهوداً طويلاً ، ولأقى من الفرنجة شراسة في الحرب ، نجد ذلك في رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الديوان العزيز يصف حالة الجيش الإسلامي المتعبة ، والجراح التي أصابت الجندي فناء الخيل والعدد والسلاح^(١) .

وفرح المسلمين كثيراً لعودة أرض الإسراء ونظمت قصائد كثيرة في مدح السلطان صلاح الدين .

ولما تسلم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب ، وكان الصليبيون قد بناوا في وجهه جداراً وتركوه للغلة هريراً (أي مخازن حبوب) وقيل: كانوا اتخذوه مستراحة بعيداً وعدواناً ، وكانتوا قد بناوا من غربي القبلة داراً واسعة وكنيسة رفيعة ، فأوزع برفع ذلك الحجاب ، وكشف النقاب عن عروس المحراب ، وهدم ما قدامه من الأبنية^(٢) .

وبفتح بيت المقدس كسرت شوكة الصليبيين ، ولم يعد لهم وجود قوي ، وإن بقوا في بعض المدن ، وتواترت لهم حملات متعددة لنصرتهم ، يقودها بعض الأمراء والملوك الحاقدين من أوروبا ، وبقيت عكا مركز تجمعهم ودخلوا مصر وبقوا هناك حتى ٥٦٥٢^(٣) .

* * *

الثاني — الغزو المغولي :

يعتبر المغول من العنصر الأصفر ، ومكانتهم الأصلي منغوليا (في الصين) ، وهم قبائل بدوية متخلفة .

وعندما فكر جنكيز خان بتوسيع إمبراطوريته تطلع إلى العالم الإسلامي ورأى فيه هدفاً مناسباً له بما فيه من ثروات وخيرات وحضارة ، إلى جانب الضعف السياسي الذي لحقه من جراء الفرقة التي يعيشها والدوليات الكثيرة التي برزت فيه .

(١) انظر: الفتح القسي في الفتح القدسي ، للعماد الكاتب الأصفهاني المتوفي سنة ٥٩٧ هـ ، تحقيق محمد محمود صبح : ص ٥٥٣ - ٥٥٤ .

(٢) الفتح القسي : ص ١٣٧ .

(٣) الحروب الصليبية ، العمروسي : ص ١٢٢ .

وكان استيلاء المغول على البلاد الإسلامية قد تم على مرحلتين: الأولى كانت بقيادة جنكيز خان مؤسس الدولة المغولية الذي تمكن من تحطيم الدولة الخوارزمية التي كانت تحكم ما وراء النهر وخوارزم وأجزاء من خراسان وغرب إيران، وقد بدأت حملات جنكيز خان على الدولة الخوارزمية سنة ٦١٦هـ، وانتهت بزوال الدولة الخوارزمية سنة ٦٢٨هـ^(١).

أما المرحلة الثانية فتلت على يد هولاكو حفيد جنكيز خان الذي هاجم بجيوشه الهمجية بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية، ومركز الحضارة الإنسانية آنذاك، وسقطت أمام هجماته سنة ٦٥٦هـ، لقد سقطت بغداد بعد حصار وبعد مفاوضات ومراسلات كثيرة بين هولاكو وال الخليفة المستعصم^(٢).

وكان للوزير الرافضي ابن العلقمي دور في تسهيل دخول المغول إلى بغداد، وكان قد كاتب التتار، وحرّضهم على قصد بغداد لأجل ما جرى على إخوانه الرافضة من النهب والخزي (في الكرخ وبغداد)، فأرسل أخاه ومملوكه إلى هولاكو، وسهل عليه فتح بغداد، وطلب أن يكون نائباً لهم عليها^(٣).

وقد أجمعوا المصادر الإسلامية على ذلك، فهذا ابن كثير يذكر في السنة التي استوزر المستعصم بها ابن العلقمي وهي سنة ٦٤٢ فيقول عنه: «المشروع على نفسه وعلى أهل بغداد، فإنه لم يكن وزير صدق، فإنه الذي أuan على المسلمين في قضية هولاكو وجنوده قبّحه الله وإياهم»^(٤).

ويصوّر لنا ابن كثير حالة الترف واللهو التي كانت تعيشها الخلافة في بغداد، بقصة يذكر فيها أن التتار - وهم حول بغداد قبل دخولها - كانوا يرشقون النبال، فأصبحت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه... جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلتها، وهي

(١) تاريخ الدولة المغولية في إيران، د. عبد السلام عبد العزيز فهمي: ص ٥٧ - ٩١.

(٢) يمكن الاطلاع على هذه المراسلات في كتاب وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للدكتور محمد حمادة: ص ٣٤٥ - ٣٥١.

(٣) انظر: العبر، للذهبي: ٢٢٥/٥.

(٤) البداية والنهاية: ١٦٤/١٣.

ترقص بين يدي الخليفة فائز عج الخليفة من ذلك^(١).

واضطر الخليفة العباسي إلى الخروج من بغداد، وتسليم نفسه وعاصمته للمغول دون قيد أو شرط، ودخل المغول بغداد، وأعملوا السيف في أهلها أربعين يوماً، وقتل الخليفة وولده الأكبر والأوسط وأسر الأصغر.

قال ابن كثير: «وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الموقعة، فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس... . وقتل أكابر الدولة واحداً واحداً، وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن»^(٢).

كان سقوط بغداد صاعقة حلّت على العالم الإسلامي كله، ورغم الخلافات السياسية والأحقاد الشخصية التي كانت سائدة في العالم الإسلامي في ذلك الوقت وكثرة الحروب بين الدوليات الإسلامية والفتن الداخلية، فإن سقوط بغداد وما أصابها من دمار، أصاب المسلمين بحسرة، إلا أن تفكükهم حال دون تقديم أي عنون لبغداد، فملاً الرعب قلوبهم، وهرع أمراء الدوليات الإسلامية إلى هولاكو يقدمون له فروض الطاعة والولاء اتقاء لشره^(٣).

ومن أبرز التداعيات السيئة على هجوم التتار على بغداد القضاء على حضارتها وحركتها العلمية، فقد أحرقت المكتبات وخربت المدارس والمعاهد العلمية وقتل العلماء، وضاع الكثير من التراث الإسلامي، لا سيما وأن المغول عمدوا بالكتب لافتقارهم إلى الحضارة والثقافة وعدم معرفتهم قيمتها، وقيل إنهم بنوا بالكتب العربية الاصطبلات للخيول والمعالف^(٤).

وقيل إنهم بنوا بالكتب جسراً مع الطين والماء بدل الأجر^(٥).

(١) البداية والنهاية: ١٣ / ٢٠٠.

(٢) المرجع السابق: ١٣ / ٢٠٣.

(٣) تاريخ الدولة المغولية: ص ١٢٧.

(٤) المرجع السابق: ص ١٣٦.

(٥) النجوم الظاهرة: ٧ / ٥١.

حملة هولاكو على الشام :

لم يكن حال المسلمين في الشام بأحسن من حالهم في بغداد فالأمراء الأيوبيون بعد صلاح الدين كانوا في نزاع دائم وخلافات مستمرة وتطاحن على السلطة. أضاف إلى ذلك أن جراحات الحروب الصليبية لم تلتئم بعد، ولا زال للصلبيين وجود في الساحل السوري، كل ذلك ساعد المغول في اجتياحهم للشام حيث دخلوا حلب بعد قتال شديد، ثم توجهوا نحو دمشق فسقطت على أيديهم سنة ٦٥٨هـ ونهبوا جميع دورها ومتاجرها وأشعلوا فيها النيران^(١).

تعاون النصارى مع المغول :

ولقد استغل النصارى الذين كانوا يعيشون أهل ذمة في ديار الإسلام بالشام، استغلوا هذه الأحداث الطامة، وأظهروا شماتة واضحة بال المسلمين، وبدأوا يتصلون بالمغول.

قال ابن تغري بردي : وذهب بعضهم إلى هولاكو، وجاءوا من عنده بفرمان يتضمن الوصيّة بهم والاعتناء بأمرهم، ودخلوا بالفرمان من باب توما (بدمشق)، وصلبانهم مرتفعة وهو ينادون بارتفاع دينهم وإيقاع دين المسلمين، ويرشون الخمر على الناس وعلى أبواب المساجد... . وقام بعضهم وخطب وفضل دين النصارى^(٢).

هزيمة المغول :

لم يستقر الأمر طويلاً للمغول في بلاد الشام، فقبل أن يتحركوا إلى مصر وكان ذلك من مخططهم لأنهم بعثوا رسالة تهديدية للسلطان قطز، إلا أن السلطان قطز قرر مواجهة المغول وقتالهم، وجهّز جيشين لذلك: جيشاً بقيادة قائد الظاهر بيبرس، وجيشاً قاده بنفسه، والتقي الجישان مع المغول في عين جالوت قرب الناصرة بفلسطين وذلك سنة ٦٥٨هـ بمعركة تعتبر من أعنف المعارك الفاصلة في التاريخ. وأنزل الجيش المملوكي

(١) تاريخ الدولة المغولية: ص ١٤٢.

(٢) انظر: النجوم الزاهرة: ٧/٨٠ - ٨١.

بهم هزيمة منكرة، ووقع القائد المغولي بالأسر، وأمر السلطان قطز بقطع رأسه، وذبح كل مغولي كان بأرض المعركة، ولحقت الفارين فرقة من الفرسان بقيادة الظاهر بيبرس فتابع فلولهم حتى تطهرت منهم كل أراضي الشام^(١).

إسلام المغول :

المغول طوائف بدائية وثنية لم يكونوا أهل حضارة أو تراث أو دين، لذلك سرعان ما تأثر كثير منهم بالإسلام، ومنهم من تأثر بال المسيحية، لكن الغالبية من المغول أعلنوا إسلامهم وبخاصة بعد هزيمتهم في الشام وموت هولاكو، ومن الذين أعلنوا إسلامهم السلطان أحمد تكودار الذي أسلم، وكان على مذهب أهل السنة والجماعة، وحكم من سنة ٦٨١ هـ حتى سنة ٦٨٣ هـ، وبذل قصارى جهده في حمل المغول على الدخول في الإسلام، وأسلم على يديه كثير منهم. وكان لإسلامه رنة فرح بين المسلمين، واستهل عهده بإظهار إخلاصه وتمسكه بالدين الإسلامي وأرسل كتاباً إلى فقهاء بغداد وإلى السلطان قلاوون، سلطان المماليك بمصر أعلن فيها رغبته في حماية الإسلام... وانشغل بنشر الإسلام وإعادة الطمأنينة للMuslimين وإصلاح ما خربه المغول. إلا أن المغول قاموا عليه بسبب إسلامه وتأمروا عليه، ونصبوا خلافه ثم قتل رحمه الله^(٢).

* * *

الثالث – المماليك :

بعد مقتل توران شاه سنة ٦٤٨ حكمت شجرة الدر ثمانية أشهر، ثم ملك بعدها الملك الأشرف وخلع نفسه، فكان آخر ملوك الأيوبيين في مصر، فورث المماليك سلطان الأيوبيين على مصر والشام عندما تولى الملك المعز أبيك التركماني كرسي السلطة في مصر^(٣).

(١) تاريخ الدولة المغولية: ص ١٤٩ – ١٥٠.

(٢) المرجع السابق: ص ١٦٧ – ١٧١؛ راجع البداية والنهاية: ٢٩٩ / ١٣.

(٣) انظر: صح الأعشى، القلقشندي: ١٤٨ / ٤ – ١٤٩.

وهم قسمان :

١ - **المماليك البحريّة** : وهم عبيد من الأتراك اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وشكل منهم جيشاً ، وجعل أمراءه منهم ، وأسكنهم قلعة الروضة الواقعة في النيل ، ومن هنا كانت تسميتهم بالبحريّة ، وقد حكموا من سنة ٦٤٨ هـ إلى سنة ٧٨٤ هـ^(١).

٢ - **المماليك البرجية** : وهم من الجراكسة الذين احتل المغول بلادهم ، وقد جلّهم السلطان قلاوون ، وكون منهم فرقة أطلق عليها اسم البرجية ، نسبة إلى أبراج القلعة التي أنزلتهم بها . وقد حكموا من سنة ٧٨٤ هـ إلى سنة ٩٢٣ هـ^(٢) . وقد حقق المماليك انتصارين عظيمين سجلهما لهم التاريخ :

الأول : هزيمة المغول وصد هجماتهم الهوجّية عن الشام ومصر على يد كل من السلطان قطز والسلطان الظاهر بيبرس .

الثاني : القضاء على بقايا الصليبيين في مصر والساحل السوري ، فطهروا البلاد الشامية من آخر قلاع الصليبيين .

ومن أشهر ملوك المماليك الذين قدموا للأمة الإسلامية خدمات جليلة :

١ - الملك المظفر قطز :

وهو الذي كسر شوكة التتار في عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ واقلع الشام منهم ، وبقي حتى قتل في منصّره بطريق الشام ، وهو عائد منه في السنة المذكورة^(٣) .

٢ - الملك الظاهر بيبرس البندقداري :

وأخذ في جهاد الفرنج واستعادة ما ارتجعوا من فتوح صلاح الدين الأيّوبي ، ففتح حصوناً وقلاعاً كثيرة ، ودخل بلاد الروم ، وجلس على كرسى بنى سلجوقد بقيسارية الروم ، ورجع إلى دمشق في آخر سنة ٦٧٥ ، وتوفي فيها سنة ٦٧٦ هـ وبنى مدرسته الظاهيرية بين القصرين^(٤) .

(١) انظر: النجوم الزاهرة: ٤٣٩/٦، ٤٣٨؛ وحسن المحاضرة، للسيوطى: ٢٨٣/٢.

(٢) انظر: النجوم الزاهرة: ٧/٣٣٠؛ وانظر: السلوك لمعرفة الملوك، المقرizi، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة: ١/٧٥٦.

(٣) من كتاب صبح الأعشى، القلقشندى، اختيار وتعليق عبد القادر زكار: ٤/١٥٠.

(٤) المصدر السابق: ٤/١٥٠.

الثانية – العلماء:

وقد لقي العلماء تكريماً في ذلك العصر، وكان لهم كلمتهم وسلطانهم عند العامة، وقد شاركوا الأمة في أحداثها السياسية، فشيخ الإسلام ابن تيمية مثلاً يشارك بنفسه في قتال المغول، وفي قتال الفرق الباطنية.

كما بُرِزَ في ذلك العصر عدد من العلماء العاملين، الذين كانوا يواجهون السلاطين بكلمة الحق من أمثال الإمام العزيز بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠ هـ، وموافقه كثيرة مع الملك الصالح إسماعيل في الشام، وقد اعترض عليه عندما هادن الصليبيين، وسمح لهم بدخول دمشق، ومكثهم من الاستيلاء على صفد والشقيف، فتال منه على المبر(١).

كما أن مواقفه في مصر مع سلاطين المماليك معروفة، ومن أبرزها قصته مع أمراء المماليك، وقد ذكر القصة معظم الذين ترجموا لحياته وعلى رأسهم السبكي في طبقاته(٢)، حيث رأى أن هؤلاء ليسوا أحراراً، وحكم الرق مستصحب عليهم بيت مال المسلمين، وبهذا يجب أن يحظر عليهم تصرفات الأحرار التي لا يجوز أن يزاولها الأرقاء، وأصدر فتاواه بعدم جواز إجراء عقودهم.

بالإضافة إلى مواقفه مع نجم الدين أيوب والملك قطز(٣). وقد تابعه على نفس المنهج تلميذه ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ هـ، الذي وقف أمام السلطان محمد بن قلاوون نفس موقف شيخه مع السلطان قطز بعدم جواز جمع الأموال من الناس للحرب، إلا إذا أنفقت كل الحلي والأسلحة الذهبية التي يملكونها النساء وأجنادهم(٤).

ومن هؤلاء العلماء الشيخ محبي الدين النووي المتوفى سنة ٦٧٦ هـ الذي قال عنه ابن كثير: «وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للملوك وغيرهم»(٥).

(١) طبقات الشافعية، السبكي: ٢١٠/٨.

(٢) المرجع السابق: ٢١٦/٨ - ٢١٧.

(٣) المرجع السابق: ٢١١/٨.

(٤) المرجع السابق.

(٥) انظر: البداية والنهاية: ٢٧٩/١٣.

وقد قال للظاهر بيبرس – عندما أفتاه مجموعة من العلماء بما يهواه – «أفتوك بالباطل»^(١).

ومن هؤلاء العلماء أيضاً شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ وقصته مع التترى قازان معروفة، وله مواقف متعددة مع سلاطين المسلمين، ومنها قصته مع الملك الناصر محمد بن قلاوون، حيث استدعاه الناصر وقال له: سمعت بأن الناس أطاعوك وأنك تفكّر في الحصول على الملك، فردد عليه الشيخ بصوت عال سمعه الحاضرون كلهم: أنا أفعل ذلك؟ والله إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فلساً^(٢).

لقد كان السلاطين يهابون العلماء ويجلونهم لما لهم من مكانة عند عامة الناس، وعندما خرج العز بن عبد السلام من مصر إثر قصته السابقة مع أمراء المماليك خرج من خلفه أهل القاهرة، وقيل للسلطان: أدرك نفسك فقد يذهب ملكك بذهب العز، واضطر إلى استرجاعه واسترضائه وإجراء حكمه^(٣).

وهذا الملك محمد بن قلاوون رغم عدم مهادنته ابن تيمية له، يذكر لنا ابن كثير أنه عند دخول السلطان إلى مصر يوم عيد الفطر لم يكن له دأب إلا طلب الشيخ تقي الدين بن تيمية من الإسكندرية معزواً ميجلاً، وعندما وصله نهض السلطان قائماً للشيخ ومشي له إلى طرف الإيوان^(٤).

الثالثة – التجار:

وكان التجار يتمتعون بمكانة مرموقة، وقد نشط السلاطين الحركة التجارية في بلادهم، وأعطوا التجار الأجانب امتيازات وتسهيلات تجارية، وقد شعر السلاطين بأن التجار هم المصدر الأول الذي يعتمدون عليه في سد حاجاتهم في الأوقات العصبية، وكانت مصر والشام في ذلك الوقت من أنشط المراكز التجارية العالمية^(٥).

(١) انظر: حسن المحاضرة: ٧٤/٢.

(٢) ابن القيم، أحمد ماهر البكري: ص ٣١.

(٣) راجع: طبقات الشافعية للسبكي: ٢١٧/٨.

(٤) راجع: البداية والنهاية، ابن كثير: ٥٣/١٤.

(٥) العصر المملوكي في مصر والشام، سعيد عاشور: ص ٢١٢.

الرابعة – العربان والبدو الرحل :

وهولاء كانوا المنافس الوحيد لفئة المماليك، ومن الصعب أن يخضعوا لسلطان الدولة، وكانوا يمتنعون عن دفع الضرائب والخروج أحياناً^(١).

وكانوا يشوروون أحياناً، ومن أشهر ثوراتهم ثورة بدر بن سلام سنة ٧٧٩ هـ الذي هاجم دمنهور وقتله بأهلها، ولم تتمكن الدولة من إخماد هذه الشورة إلا بعد ثلاث سنين^(٢).

كما ثاروا مرة أخرى وحاولوا قتل السلطان بررقة وتنصيب الخليفة المتوكل سلطاناً، لكن محاولتهم لم تفلح^(٣).

الخامسة – عامة الناس :

وتشمل الفلاحين والعمال والصناع، وكانوا على درجة كبيرة من الفقر والمجاعة والأوبئة، جرّتها الحروب الطويلة التي خاضتها الأمة، ويصف ابن كثير الحالة في دمشق عند سماعهم بتحرك المغول إليهم «... وقد غلت الأسعار بدمشق جداً، واشتد الحال»^(٤). وللحالة الفقر واحتقار التجار ألف ابن تيمية رحمه الله رسالة حرم فيها احتكار أقوات المسلمين^(٥).

كما ذكر لنا ابن كثير عن الأوبئة كالطاعون الذي حلّ سنة ٧٤٩ وزاد عدد الأموات في كل يوم عن المائة، ثم زاد على المائتين وتعطلت مصالح الناس^(٦).

من أخلاق ذلك المجتمع وعاداته :

شاعت في ذلك المجتمع أخلاق مخالفة للإسلام، نجد الحديث عنها في بعض

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون: ٤٧٠ / ٥.

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ابن إياس: ٢٤٩ / ١.

(٣) إحياء الغمر ببناء العمر، ابن حجر، تحقيق الدكتور حسن حبشي: ص ٢٠٠.

(٤) البداية والنهاية: ١٤ / ١٦.

(٥) ابن قيم الجوزية، عبد العظيم شرف الدين: ص ٥٥.

(٦) البداية والنهاية: ١٤ / ٢٢٥ - ٢٢٦.

كتب ابن القيم رحمة الله ، وقام بذكر بعضها أحمد البقرى في رسالته عن ابن القيم ومن ذلك^(١):

١ - **المحلل والمحلل له**: وهذه عادة بقيت إلى زمن قريب في بعض مناطق العالم الإسلامي ، وهي أن المرأة إذا طلت ثلاث مرات وحرمت على زوجها إلا بعد أن تتزوج زوجاً آخر ، كانوا يلحوظون إلى التحايل في ذلك فيتفقون مع رجل آخر يعقد عليها، يدخل بها ، ثم تعود إلى زوجها الأول ، ويدرك ابن القيم في إغاثة اللهفان وجود هذه الحالة في زمنه^(٢).

كما أشار للمسألة في كتابه الفروضية عند حديثه عن المحلل في السباق ، حيث جعل دخول المحلل في عقد السباق كدخول المحلل في النكاح للملك ثلاثة ، فكلما هما مستعار في العقد . وقد ثبت عن محلل النكاح أنه تيس مستعار^(٣) .

ولابن تيمية كتاب في المسألة اسمه : «إقامة الدليل في إبطال التحليل» .

٢ - **ملابس غير سترة للنساء**: ولعل ذلك أتى من الفرنجة حيث شاع بين النساء طرزاً من القمصان خرجت في كبر أكمامها عن الحد . وفي سنة ٧٥١ هـ أشهر المناداة في القاهرة بإبطال ذلك حسب أوامر السلطان فرجعت النساء عن ذلك^(٤) .

٣ - **الأغاني والطرب**: فترى تعرض ابن القيم في إغاثة اللهفان لهذه المسألة ، وذكر أن من مكائد الشيطان انتشار سماع المكاء والتصدية ، والغناء بالآلات المحرمة ، وتحدث عما كان عليه بعض المتصرفون في زمنه من كانوا يعقدون حلقات الرقص يتمايلون مع أنعام الآلات ، وبين حرمة الغناء المصاحب لهذه الآلات^(٥) .

٤ - **المخدرات**: وقد ظهر الحشيش في القرن السادس الهجري ، وكان ابن تيمية

(١) ابن القيم ، أحمد البقرى : ص ٣٦ – ٤٠ .

(٢) راجع : إغاثة اللهفان ، ١ / ٢٦٨ – ٢٨٣ .

(٣) انظر : الفروضية : ص ٢٢ .

(٤) بدائع الزهور : ١ / ١٦٥ .

(٥) إغاثة اللهفان : ١ / ٢٦٨ – ٢٢٤ . وانظر كذلك : مدارج السالكين : ١ / ١١٧ .

من أكبر المنشعين عليها، وحكم بتجاستها وبتحريمها وسماتها لقمة الرقوم^(١).

٥ - البغاء: فقد نقل الأستاذ البكري عن تاريخ المذاهب الإسلامية أنه عرف في ذلك العصر ضمان الغواني ، وهو مال تدفعه البغايا ، وتنزل البغي اسمها عند امرأة تسمى الضامنة ، فلا يقدر أحد أن يمنعها من البغاء ، وعمل الفاحشة ، وبقي هذا إلى أن أبطله الناصر محمد بن قلاوون^(٢) .

**

(١) انظر: ابن القيم، البكري: ص ٣٨.

(٢) المرجع السابق: ص ٣٩.

(٣)

الحالة العلمية

شهد العصر المملوكي بشكل عام والقرن الثامن – الذي عاش في منتصفه الأول شيخنا ابن القيم رحمه الله – بشكل خاص، نشاطاً ملماساً في الحركة العلمية. ويبدو أن السبب الرئيسي في هذا النشاط هو التحدى الحضاري الذي أوجبه الهجمات الصليبية والمغولية، التي استهدفت اجتثاث حضارة الأمة المسلمة وكيانها. فأخذت الأمة – وقد بدأت تستعيد كيانها السياسي في أواخر القرن السابع – تلقي بكل ثقلها لثبت ذاتها.

وقد أدرك سلاطين الدولتين الأيوبية والمملوكية ذلك وتسابقوا في بناء المدارس وإعمار المساجد وتشجيع العلماء، ونستطيع أن نتعرف على الحالة العلمية في ذلك العصر من خلال اطلاعنا على أوضاع المساجد والمدارس، ومن خلال تعرفنا على الشخصيات العلمية البارزة في ذلك العصر، وبعض إنتاجهم العلمي من المؤلفات القيمة التي لا يستغني عنها الدارسون حتى يومنا هذا.

أما عن أوضاع المساجد، فقد قام بعض السلاطين بعمارة بعض المساجد وإعادة كيانها، وظهرت بعض المساجد التي اعتبرت دوراً للعلم يؤمها الطلبة من كل مكان كالجامع الأزهر وجامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون وجامع الحاكم، وكلها في مصر، والجامع الأموي في الشام.

فجامع عمرو بن العاص مثلاً أعيد بناؤه وإعماره في عهد الناصر محمد بن قلاوون، وذكر المقريزي أن شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفي أدرك بجامع

عمر و بن العاص بمصر بضعاً وأربعين حلقة لـ إقراء العلم^(١).

وكان الجامع الأزهر داراً للتعليم زمن الفاطميين والأيوبيين والمماليك^(٢).

أما عن المدارس فقد أسس كثير من المدارس زمن نور الدين وصلاح الدين اللذين وجدا في المدرسة حصنًا يحفظ للأمة شخصيتها في وجه كل التحديات.

ويكفي لمعرفة مدى انتشار المدارس في دمشق، وما وصلت إليه من تقدّم أن نطلع على كتاب «الدارس في تاريخ المدارس» لمؤلفه محيي الدين أبي المفاخر عبد القادر بن محمد النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧ هـ، وقد دون هذا الكتاب لكل المدارس التي عرفتها دمشق من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري، وجمع فيه المؤلف تاريخ دور القرآن والحديث والمدارس والخوانق والتكتايا والربط والزوايا والترب، كما ذكر تراجم أصحابها، وسير من درسوا فيها^(٣)، وقد بلغ عدد دور العلم هذه في كتاب النعيمي (٣١٠) مدرسة هذا فيما عدا الجامع المعروفة، التي بلغت في دمشق وحدها دون ضواحيها (٢٧٤) حسب إحصائية النعيمي، وكان في أكثرها حلقات علمية، ولدى اطلاعه على هذه المدارس في كتابه تبيّن لي من خلال تاريخها ومشيختها أن غالبية هذه المدارس كانت موجودة في القرن الثامن الهجري الذي عاش فيه الإمام ابن القيم رحمة الله .

إن انتشار هذه المدارس واحتواها على الآلاف من الطلبة والأساتذة لخير دليل على أن دمشق في تلك الفترة كانت تعيش ثورة علمية عارمة .

ولقد كانت المدارس العلمية التي أنشئت في ذلك العصر على درجة عالية من التنظيم والإدارة وذات أهداف ومناهج محددة، وكان لكل مدرسة شيخ، وفي بعضها العدد الكبير من المدرسين والعاملين .

وكانت هذه المدارس تختلف في درجاتها من قبل من يتولون مشيختها، والتدريس

(١) خطط المقريري : ٢١/٤ .

(٢) ابن قيم الجوزية، عبد العظيم شرف الدين : ص ٣٧ .

(٣) انظر: تمهد المحقق (جعفر الحسني) لكتاب الدارس في تاريخ المدارس : ١/ ب.

فيها من الأعلام المشهورين أو من دونهم بالإضافة إلى مقدار ما رصد لها من أوقاف وأرزاق تفق على القائمين بالتدريس والمعيدين والطلبة المنقطعين للدرس.

والدراسة بهذه المدارس كانت أشبه ما تكون بالدراسة الجامعية النظرية من حيث طريقة التدريس ومستوى الدراسة^(١).

فقد عرفت هذه المدارس - في مصر والشام - نظام المحاضرات، وقد عرفت المحاضرات باسم المجالس، وهي طريقة قديمة في التعليم يقوم فيها المدرس بإملاء مجالسه على طلبه^(٢).

وأشهر هذه المدارس:

١ - المدرسة الناصرية بالقاهرة: وقد أسسها السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٢ هـ، وقد تولى عليها عدد من مشاهير العلماء في ذلك العصر^(٣).

وقد أمر السلطان ببنائها مدرسة لشافعية على قبر الشافعي رحمة الله^(٤).

ثم تطورت هذه المدرسة وصارت ذات إمكانات كبيرة، فقد ذكر ابن كثير أن السلطان الناصر - محمد بن قلاوون - زاد عدد الفقهاء فيها سنة ٧٢٤ هـ، فكان فيها من كل مذهب ثلاثون ثلاثة، فزادهم إلى أربعة وخمسين من كل مذهب^(٥).

٢ - المدرسة الكاملية بالقاهرة: وتنسب إلى الملك الكامل، وقد وقفها على المستغلين بالحديث النبوى، ومن بعدهم على الفقهاء الشافعية، وممن ولها ابن دقيق العيد والبدر ابن جماعة^(٦).

٣ - المدرسة الظاهرية بدمشق: وتنسب إلى الظاهر بيبرس، وقد بناها بين القصرين، وفرغ من عمارتها سنة ٦٦٢ هـ. وقد أنشأ فيها خزانة تشتمل على أمهات الكتب

(١) انظر: ابن قيم الجوزية: جهوده في الدرس اللغوي، د. طاهر حمودة: ص ٢٠.

(٢) المرجع السابق: ص ٢١.

(٣) حسن المحاضرة، للسيوطى: ١٤١/٢.

(٤) انظر: البداية والنهاية: ٢٩٧/١٢.

(٥) انظر: المرجع السابق: ١١٣/١٤.

(٦) انظر: ابن قيم الجوزية، عبد العظيم شرف الدين: ص ٤٠.

في سائر العلوم، وبنى بجانبها مكتباً لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى^(١)، وقد عين فيها شيخاً للحنفية وشيخاً للشافعية وشيخاً للحديث^(٢). وقد عدّها النعيمي ضمن المدارس الشافعية في دمشق، وذكر أن الظاهر بيبرس بناها مدرسة ودار حديث وتربيه^(٣)، وقد ذكر النعيمي إحدى عشرة مدرسة حنبلية.

بالإضافة إلى دور الحديث التي كان يشرف عليها في الغالب علماء الحنابلة. ومن أشهر هذه المدارس:

١ - دار الحديث السكرية: وموقع هذه المدرسة بالقصاعين داخل باب الجابية، وولي مشيختها الشيخ شهاب الدين عبد الحليم ابن تيمية المتوفى سنة ٦٨٢ هـ (والدشيخ الإسلام) كما درس فيها شيخ الإسلام ابن تيمية، والحافظ شمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ^(٤).

وقد ذكر ابن كثير في معرض ذكره لحوادث سنة ٧٣٩ هـ أن مما حدث في هذه السنة إكمال دار الحديث السكرية، وقد باشر مشيخة الحديث فيها الشيخ الإمام الحافظ مؤرخ الإسلام شمس الدين الذهبي^(٥).

ويبدو من كلام النعيمي أن هذه الدار قد تأسست قبل التاريخ الذي ذكره ابن كثير، وبوشر بالتدريس فيها قبل أن تكتمل، ودرس فيها كل من شيخ الإسلام ووالده من قبله. ثم جاءت سنة ٧٣٩ هـ لتكتمل هذه الدار وباشر مشيختها بعد هذه التوسعة الحافظ الذهبي.

ثم تحدث ابن كثير عن هذه الدار ونظامها، وما وصلت إليه من توسيع فقال: «وَقُرِّرَ فيها ثلاثون محدثاً لكل منهم جرایة، كل شهر سبعة دراهم ونصف رطل خبز، وقررت فيها ثلاثة نفراً يقرأون القرآن؛ لكل عشرة شيخ، ولكل واحد من القراء نظير ما للمحدثين.

(١) انظر: ابن قيم الجوزية، عبد العظيم شرف الدين: ص ٤١.

(٢) انظر: البداية والنهاية: ١٣/٢٤٢.

(٣) انظر: الدرس في تاريخ المدارس، النعيمي: ١/٣٤٩.

(٤) انظر: الدرس في تاريخ المدارس، النعيمي: ١/٧٤، ٧٥، ٧٨.

(٥) انظر: البداية والنهاية: ١٤/١٨٤.

ورتب لها إمام وقاريء حديث ونواب، ولقاريء الحديث عشرون درهماً وثمانين أوّل حبز، وجاءت في غاية الحسن في شكلها وبنائها (ووقف عليها عدة أماكن)^(١).

٢ - مدرسة الجوزيّة: وهي من أشهر مدارس الحنابلة في دمشق، وقد وصفها العنيمي بقوله: بل إن قضاة الحنابلة اشتهروا بها، وهي من أحسن المدارس وأوجدها^(٢)، وقد أوقفها أستاذ دار الخلافة العباسية محبي الدين بن الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي، الذي قتل مع الخليفة المستعصم عند سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ وهي من أحسن المدارس^(٣).

وتقع هذه المدرسة في آخر سوق البزورية، جوار قصر العظم وغربيه، حرقت ودرست وجدد مكانها مخازن ومصلى بسيط وكان على عتبة بايتها الكتابة الآتية:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

هذا ما وقف الصاحب محبي الدين بن الجوزي، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، وقف عليها قرية (غزارا) بالشعراء ومن قرية (فادة) باليرموك الربع والشمن، ومثله من دير ابن عصرون في الغوطة، ومن مزرعتين بأرض (المليحة) وقرية (رنكوس) تقبل الله منه، فرغ من عمل هذه المدرسة في سنة ٦٥٢ هـ^(٤).

يقول الأستاذ الغنيمي: «وقد افتتحتها جمعية الإسعاف الخيرية، وجعلتها مدرسة لتعليم الأطفال الأيتام، ثم إنها احترقت سنة ١٩٢٥ م أثناء الثورة السورية على الفرنسيين، ثم أعيد بناؤها الآن»^(٥).

وهذه هي المدرسة التي يعرف بها إمامنا ابن قيم الجوزية كما أسلفنا.

٣ - المدرسة الصدرية: واقفها صدر الدين أسعد بن عثمان بن منجا القنوجي الحنبلي المتوفى سنة ٦٥٧ هـ أحد المعدلين ذوي الأموال والمرءوات والصدقات الدارة

(١) انظر: البداية والنهاية: ١٨٤ / ١٤ .

(٢) انظر: الدارس في تاريخ المدارس، العنيمي: ٣١ / ١ .

(٣) البداية والنهاية: ٢١١ / ١٣ .

(٤) انظر: كلام المحقق (جعفر الحسني) هامش صفحة ٢٨ ، الدارس، للعنيمي .

(٥) انظر: ابن قيم الجوزية ، محمد مسلم الغنيمي: ص ١٠٠ .

البارة، وأول من درس فيها وجيه الدين محمد بن عز الدين عثمان بن منجا، ومن شيوخها فيما بعد، شمس الدين ابن عبد الهادي المتوفى سنة ٧٤٤هـ.

وقد درس فيها شيخنا ابن قيم الجوزية وأخوه زين الدين عبد الرحمن وولد أخيه عماد الدين إسماعيل.

كما درس فيها أولاده برهان الدين إبراهيم وجمال الدين عبد الله^(١).

٤ - المدرسة الضيائية المحمدية: موقعها بسفح قاسيون شرقي الجامع المظفر، وبانيها: الفقيه ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي المتوفى سنة ٦٤٣هـ. وقد وقف كتاباً كثيرة بخطه بخزانتها، ووقفها على أهل الحديث والفقهاء من أصحابهم^(٢). وكان لهذه المدرسة قيم اشتهر بلقب قيم الضيائية واشتهر ابنه بابن القيم أو ابن قيم الضيائية، - كشأن شيخنا ابن قيم الجوزية -.

وابن قيم الضيائية هو عبد الله بن محمد بن إبراهيم الدمشقي الحنبلي المتوفى سنة ٧٦١هـ^(٣).

هذه بعض المدارس المشتهرة في دمشق، ذكرتها كنموذج فقط ولا شك أن هذه المدارس وأمثالها كان لها دور كبير في إحياء الحركة العلمية في دمشق.

الميزات العلمية لهذا العصر :

لقد تميّز القرن الثامن الهجري بميزات فريدة في المجال العلمي يمكن أن نذكر منها ما يلي :

١ - كثرة المدارس ودور العلم كما أسلفنا.

٢ - كثرة المؤلفات الموسوعية :

فقد ألفت في هذا العصر كتب تعدّ الآن أمهات ومصادر رئيسة لشتي أنواع العلوم،

(١) انظر: الدارس في تاريخ المدارس، التعيمي: ٨٦/١ - ٩٠، والبداية والنهاية: ١٣/٢١٦.

(٢) انظر: الدارس: ٩١/١. وانظر: البداية والنهاية: ١٣/١٧٠.

(٣) انظر: شذرات الذهب: ٦/١٩١، وانظر: البداية والنهاية: ١٣/١٧٠.

وضعت فيه أشهر كتب اللغة والمعاجم ومنها ألفية ابن مالك، وشذور الذهب وقطر الندى لابن هشام المصري المتوفى سنة ٧٦١هـ.

وظهر من المعاجم لسان العرب لابن منظور المتوفى سنة ٧١١هـ والمصباح المنير للفيفي المتوفى سنة ٧٧٠هـ.

ومن كتب التراجم ظهرت كتب الحافظ الذهبي في التاريخ والترجمة وسير الرجال، وظهرت البداية والنهاية لابن كثير، والواافي بالوفيات للصفدي، كما ظهر كتاب وفيات الأعيان لابن خلkan المتوفى سنة ٦٨١هـ، وفوات الوفيات للكتببي المتوفى سنة ٧٦٤هـ وغير ذلك.

وقدّم هذا العصر موسوعات علمية في كل المجالات التاريخية والفقهية والحديثية والأدبية والجغرافية، ومن يستعرض بعض هذه الموسوعات يعرف أنها عنوان تحدّى كبير من هذه الأمة لأعدائها، ورد فعل للمحاولات التي بذلها الصليبيون والمغول لطمس الحضارة الإسلامية.

٣ - إنجاب كبار الشخصيات العلمية: معجزة هذا العصر أنه أنجب كبار العلماء الذين خلفوا أمهات المؤلفات الإسلامية في شتى المعارف والعلوم، ومن أشهر هؤلاء بالإضافة إلى من ذكرنا من أصحاب الموسوعات شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ، وتلميذه الإمام ابن قيم الجوزية، وتصانيفهما كثيرة معروفة.

ومنهم مؤرخ الشام الشافعي الحافظ القاسم بن محمد البرزالي المتوفى سنة ٧٣٩هـ^(١)، وسنذكر عدداً من هؤلاء الأئمة الأعلام عند حديثنا عن شيخ ابن القيم وتلاميذه.

٤ - ظهور النساء العالmas: فقد تجاوزت الحركة العلمية رجال هذا العصر إلى نسائه لنجد العالmas والمسندات والفقihات، وقد تتلمذ على كثير منهن بعض مشايخ ذلك العصر ومن هؤلاء النساء: المسندة ست العرب بنت محمد بن الفخر بن علي البخاري، المتوفاة سنة ٧٦٧هـ، التي سمع منها الحافظان العراقي والهيثمي، كما سمع

(١) البداية والنهاية: ١٤/١٨٥.

منها ابن رجب. وقد طال عمرها وانتفع بها خلق كثير^(١).

ومنهن زينب بنت إسماعيل بن الخياز وقد تلّمذ عليها العراقي وابن رجب وكثير من علماء العصر^(٢).

ومنهن: الشيحة الصالحة العابدة الناسكة أم زينب فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح البغدادية، المتوفاة سنة ٧١٤هـ وكانت من العالمات الفاضلات، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر... وقد كانت تحضر مجلس الشيخ تقى الدين ابن تيمية... وهي التي ختمت نساء كثيراً القرآن^(٣).

ومنهن المسندة المحدثة فاطمة بنت جوهر البطائحي المتوفاة سنة ٧١١هـ والتي سترد مع شيخ ابن القيم.

٥ - اشتغال التأليف لذلك العصر على جميع الأشكال الممكنة: ما بين نثري وشرح له، وحاشية على الشرح ومنظومة شعرية، وشرح لها وموشح، بالإضافة إلى الكتب التي توضع مبسوطة لا تحتاج إلى شروح^(٤).

٦ - ظهور طابع الزخرفة والتنسيق، الذي ظهر في فنون العصر، وغلب عليها. وقد ظهر أثر هذا الطابع في المؤلفات العلمية وفي طريقة وضعها وتصنيفها، بحيث نجد اهتمام المؤلف بالتنظيم والتبويب في مصنفه^(٥).

وهذه المزايا بلا شك قل أن تجدها في عصر غير هذا العصر الذي عاش فيه ابن القيم رحمه الله، واستقى من معينه واقتني من كتبه وموسوعاته مما ظهرت آثاره في كثرة مؤلفاته واحتوائها على غزير العلم ومفيده.

**

(١) شذرات الذهب: ٦/٢٠٨. وانظر: منتخبات التواريخ لدمشق: ٢/٥٤٧.

(٢) انظر: شذرات الذهب.

(٣) انظر: البداية والنهاية: ١٤/٧٢.

(٤) انظر: ابن قيم الجوزية، د. طاهر حمودة: ص ١٣.

(٥) المرجع السابق نفسه.

الفصل الثاني حياة ابن القيم

(١)

اسمه ونسبة ولقبه وكنيته

اسمه: محمد بإجماع الذين ترجموا له.

واسم والده: أبو بكر، والتسمية بالكتيبة لا زالت معروفة في بعض البلدان الإسلامية.

واسم جده: أيوب.

وي بعض المترجمين اكتفوا في نسبة باسم جده أيوب^(١).

وابن كثير ممن اكتفوا بذلك إلا أنه ذكر اسم جده سعد عند ترجمته لوالده فقال: أبو بكر بن أيوب بن سعد الزرعى^(٢).

ويقية المترجمين أكملوا نسبة إلى (حريز) فقالوا: أيوب بن سعد بن حريز^(٣).

وقد اختلف ضبطهم لبعض الأسماء فعند السيوطي: (سعيد) بدل (سعد)، وعند

(١) انظر: النجوم الظاهرة: ٢٤٩/١٠؛ والتابع المكمل: ص ٤١٦؛ والبداية والنهاية: ٢٣٤/١٤.

(٢) انظر: البداية والنهاية: ١١٠/١٤.

(٣) انظر: شذرات الذهب: ١٦٨/٦؛ وطبقات المفسرين: ٩٠/٢؛ ومعجم المؤلفين: ١٠٦/٩؛ وبغية الوعاة: ٦٢/١؛ والوافي بالوفيات: ٢٧٠/٢؛ وذيل طبقات الحنابلة: ٤٤٧/٢؛ والدرر الكامنة: ٢١/٤؛ وهدية العارفين: ١٥٨/٢.

الألوسي في جلاء العينين (أسعد) وقد اكتفى بنسبة لذلك^(١). وفي هدية العارفين والبدر الطالع (جريز) بالجيم والراء المهملة بدل (حريز) وعند ابن رجب (جريز) ولعل هذا من تصحيف النسخ أو أخطاء المطبع .

أما الشيخ بكر أبو زيد فقد وصل نسبته إلى جده (مكي) والد حريز، وذكر أنه تحصل له ذلك من ترجمة أخيه عبد الرحمن في كتاب الدرر الكامنة لابن حجر^(٢) كما ذكر النعيمي هذه النسبة لأن أخيه عبد الرحمن ووصلها إلى مكي عند حديثه عن شيخ المدرسة الصدرية^(٣) .

كنيته :

يكتنى بأببي عبد الله ، ولم يرد خلاف ذلك^(٤) .

لقبه :

ولقبه العلمي : شمس الدين ، وقد اتفق كل الذين ترجموا له على هذا اللقب .
واختصره السيوطي في بغية الوعاة فقال : الشمس^(٥) لكنه اشتهر بابن القيم أو ابن قيم الجوزية .

وقيم الجوزية هو والده الشيخ العابد أبو بكر بن أيوب بن سعد الزرعبي الحنبلي .
قال ابن كثير عند ترجمته له : كان رجلاً صالحًا متبعاً قليل التكلف وكان فاضلاً ،
وقد سمع شيئاً من دلائل النبوة عن الرشيد العامري ، توفي فجأة ليلة الأحد تاسع عشر ذي الحجة سنة ٧٢٣ هـ بالمدرسة الجوزية ، وكانت جنازته حافلة ، وأنهى عليه الناس خيراً

(١) جلاء العينين ، للألوسي : ص ٣٠ .

(٢) ابن قيم الجوزية ، بكر أبو زيد : ص ٨ .

(٣) انظر : الدارس في تاريخ المدارس ، النعيمي ، تحقيق جعفر الحسني : ٢ / ٩٠ ، مطبعة الترقى ، سنة ١٣٧٠ هـ .

(٤) ذكرت كنيته في شذرات الذهب ؛ وطبقات المفسرين ؛ ومعجم المؤلفين ؛ وهدية العارفين ؛ وذيل طبقات الحنابلة (بنفس الصفحات السابقة) .

(٥) بغية الوعاة ، السيوطي : ١ / ٦٢ .

رحمه الله ، وهو والد العلامة شمس الدين بن قيم الجوزية صاحب المصنفات الكثيرة
النافعة الكافية^(١) .

واشتهر والده بهذا اللقب لأنَّه كان قيِّماً أَيْ (ناظراً ومشرفاً) على المدرسة الجوزية
بدمشق ، التي عرَّفنا بها عند حديثنا عن الحالة العلمية لعصر ابن القِيم .

*
**

(١) البداية والنهاية: ١٤/١١٠ .

(٢) مولده وأسرته

ولد ابن القيم في السابع من صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة^(١) «٦٩١هـ»، ويعرف ابن القيم بالزرعي، حيث ينسب إلى (زرع) قرية من عمل حوران^(٢)، وهذه القرية تسمى اليوم (إزرع) ويرى المسافر من عمان إلى دمشق لائحة تشير إليها عن يمينه بين درعا والشيخ مسكنين.

ولا يحدد المترجمون مكان ولادته أهي في إزرع؟ أم هي في دمشق؟ لكن المعروف أن بلده الأصلي إزرع وقد يكون والده ارتحل به إلى دمشق ليتخذها موطنًا له، أو أن أسرته من قبل ارتحلوا إلى دمشق.

أما أسرته: فيظهر أنه يتبعي إلى أسرة متدينة، مهتمة بالعلم، وقد قدّمنا عن حياة والده، وما قاله فيه ابن كثير عن عبادته وعلمه وقيامه على أمر مدرسة الجوزية. وقد أخذ عنه ابن القيم علم الفرائض، وكان له فيها يد^(٣).

وأنجوه زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي بكر، ولد سنة ٦٩٣هـ. وشارك أخاه في أكثر شيوخه ومن تلامذته الحافظ ابن رجب توفي سنة ٧٦٩هـ^(٤).

فقد ذكره ابن رجب في مشيخته، وقال: سمعت عليه كتاب التوكيل لابن أبي الدنيا

(١) اتفق كل المترجمين لحياته على سنة ٦٩١هـ تاريخًا لمولده، وحدد اليوم والشهر كل من الداودي في طبقات المفسرين: ٩٠/٢؛ والسيوطى في بغية الوعاة؛ ٩٢/١؛ والصفدي في الواقى بالوفيات: ٢٧٠/٢.

(٢) الضوء الالمعم، السخاوي: ٢٠٤/١١.

(٣) الواقى بالوفيات: ٢٧١/٢.

(٤) انظر: الدرر الكامنة: ٤٣٤/٢.

بسماعه على الشهاب العابر وتفرد بالرواية عنه^(١).

وابن أخيه هذا عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عبد الرحمن كان من الأفضل، وقد اقتنى أكثر مكتبة عمه شمس الدين، توفي سنة ٧٩٩هـ^(٢).

قال الشيخ شهاب الدين بن حجي عنه: كان رجلاً حسناً اقتنى كتبًا نفيسة، وهي كتب عمه شمس الدين محمد، وكان لا يدخل بعاريتها، وكان خطيب جامع خليخان، توفي يوم السبت؛ خامس عشر من رجب؛ سنة ٧٩٩هـ^(٣).

ومن أبناء ابن القيم الذين اشتهروا بعلمهم: ولده الأكبر عبد الله شرف الدين، وجمال الدين المتوفى سنة ٧٥٦هـ قال عنه ابن كثير: الشيخ الشاب الفاضل المحصل جمال الدين عبد الله بن العلامة شمس الدين بن قيم الجوزية الحنبلي، كانت لديه علوم جيدة، وذهنه حاضر خارق، أتقى ودرس وأعاد وناظر وحاج مرات عديدة^(٤).

وابنه إبراهيم العلامة النحواني الفقيه المتقن برهان الدين إبراهيم بن شمس الدين، وكانت ولادته سنة ٧١٩هـ، وتوفي سنة ٧٦٧هـ، درس بالصدرية، وله في النحو اليد الطولي إذ شرح ألفية ابن مالك في كتاب سماه: إرشاد السالك إلى حل ألفية ابن مالك، وله تصدير بالجامع الأموي، وخطابة جامع خليخان بالقراءة... ودفن عند أبيه بباب الصغير، وحضر جنازته القضاة والأعيان^(٥).

ولاشك أن واقع هذه الأسرة يدل على صلتها الوثيقة بالعلم والعلماء وكل ذلك كان له أثره على ابن القيم رحمه الله.

**

(١) انظر: النعيمي: ٩١/٢.

(٢) انظر: شذرات الذهب: ٦/٣٥٨.

(٣) انظر: النعيمي: ٩١/٢.

(٤) انظر: البداية والنهاية: ١٤/٢٥٣.

(٥) الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي: ٢/٨٩.

(٣)

نشأته ورحلته

نشأ ابن القيم في بيئة علم وصلاح، وقد رأينا أن أباه كان صالحًا عابداً بالإضافة إلى كونه عالماً قيماً على مدرسة الجوزية. وكانت دمشق التي نشأ بها ابن القيم حاضرة العلماء آنذاك. هنا بالإضافة إلى ذكائه واستعداده الفطري الموهوب.

كل هذه العوامل وجهت ابن القيم في مرحلة مبكرة من عمره نحو طلب العلم، فكان يحضر مجالس العلماء قبل السادسة من عمره، ويعد المترجمون لابن القيم من جملة شيوخه، الشهاب النابلسي العابر المتوفى سنة ٦٩٧هـ أي توفي بعد ولادة ابن القيم بست سنوات فقط، وابن القيم يشير إلى ذلك في كتابه زاد المعاد: شيخنا، ورسوخه في علم التعبير، وسمعت عليه عدة أجزاء، ولم يتفق لي قراءة هذا العلم على يديه لصغر السن واحترام المنية له رحمة الله تعالى^(١).

فنشأ محباً للعلم ومجالس العلماء، وشغف باقتناء الكتب واقتنى من الكتب ما لم يحصل لغيره^(٢).

رحلته في طلب العلم :

لا يشير المترجمون له إلى رحلات علمية له إلا ما ذكروه عن حجاته الكثيرة التي كان يطيل فيها المكوث بمكة مجاوراً بالمسجد الحرام^(٣).

ويبدو أنه كان يقيم في بعض البلدان في طريقه إلى الحجاز، ونعرف ذلك من كتابه المسمي (الرسالة التبوكية) نسبة إلى مدينة تبوك، وقد سير كتابه هذا من تبوك ثامن المحرم

(١) انظر: زاد المعاد: ٦١٦/٣.

(٢) ذيل طبقات العتابلة، ابن رجب: ٤٤٩/٢.

(٣) انظر: شذرات الذهب: ١٦٨/٦.

سنة ثلاثة وثلاثين وسبعين (١).

وقد زار ابن القيم بيت المقدس في فلسطين، ويبدو أنه أعطى فيها دروساً، وقد أشار إلى ذلك في كتابه «بائع الفوائد» عند ذكره لبيت من الشعر يمكن أن ينظم من نفس كلماته أربعون ألفاً وثلاثمائة وعشرون بيتاً ثم قال: «ومثله لي قاته في القدس ثم ذكر البيت:

محب صبور غريب فقير وحيد ضعيف كتوم خمول (٢)

وقد عرف أن ابن القيم قام برحلات علمية إلى مصر، ولم يشر لذلك إلا المقرizi في سلوكه حيث قال: (وقدم القاهرة غير مرة) (٣).

كما صرّح ابن القيم في كتابه الذي بين أيدينا (هداية الحيارى) برحلته إلى القاهرة فقال: (وقد جرت لي مناظرة بمصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرئاسة) (٤).

فبعد حديثه عن علم الصحابة والتابعين، ذكر كثرة مؤلفات أئمة الفقه الأربع، ثم قال عن شيخه: «وهذا علامهم المتأخر شيخ الإسلام ابن تيمية جمع بعض أصحابه فتاواه في ثلاثة مجلداً ورأيتها في الديار المصرية» (٥).

ويتبّع من عبارته هذه أنه قام برحلته إلى القاهرة بعد سنة ٧٢٨ هـ أي بعد وفاة شيخه ابن تيمية.

كما ذكر عن رحلته إلى مصر في كتابه إغاثة اللهفان فقال: «وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر» (٦).

ولم يقلّت رحلات ابن القيم فإن ذلك عائد إلى إقامته بدمشق، مما هيأ له أن يلتقي بكتاب العلماء فيها، فلم تكن هنالك ضرورة لخروجه من دمشق طلباً للعلم.

**

(١) الرسالة التبوكية، نشر قصي محب الدين الخطيب، الطبعة الثانية: ص ٣.

(٢) انظر: بائع الفوائد: ٣/٤٥.

(٣) السلوك: ٢/٣٤، الطبعة الأولى.

(٤) انظر: ص ٣٨٤ من الرسالة.

(٥) انظر: ص ٤٥٦ من الرسالة.

(٦) انظر: إغاثة اللهفان: ١/١٧، الطبعة الأولى.

(٤)

تأثره بشيخه ابن تيمية

عاد ابن تيمية من مصر ليتخد من دمشق مقرًا له سنة ٧١٢ هـ^(١) وصاحب ابن القيم الذي كان آنذاك في ريعان شبابه وعمره إحدى وعشرون سنة، وبقي في صحبته إلى أن توفي ابن تيمية رحمه الله سنة ٧٢٨ هـ.

وقد أعجب ابن القيم بشيخه إعجاباً شديداً، وتأثر به كثيراً فلازمه باستمرار حتى صار ألمع تلاميذه وأشهرهم واقترب اسمه باسمه، فحيثما يذكر ابن تيمية يذكر بجانبه تلميذه النجيب ابن القيم، حتى عده بعض العلماء دليلاً علمياً على سعة علم ابن تيمية، ومن هؤلاء العلماء الشيخ التفهني عبد الرحمن بن علي الحنفي المتوفى سنة ٨٣٥ هـ الذي قال في معرض مدحه لابن تيمية: (ولو لم يكن من آثاره إلا ما اتصف به تلميذه ابن قيم الجوزية من العلم لكفى ذلك دليلاً على ما قلناه)^(٢).

ومثل هذا ما قاله الإمام ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ عند ثنائه على ابن تيمية، حيث يقول: (ولو لم يكن للشيخ تقى الدين إلا تلميذه الشيخ شمس الدين صاحب التصانيف النافعة السائرة التي انتفع بها الموافق والمخالف لكان غاية في الدلالة على عظم منزلته)^(٣).

كما عده السخاوي حسنة رئيس أصحاب ابن تيمية، وحسنة من حسناته^(٤)، وقد برزت بصمات الشيخ جلية على مواقف تلميذه ومؤلفاته، فقد التزم خط شيخه السلفي في

(١) انظر: البداية والنهاية: ٦٧/١٤.

(٢) انظر: الشهادة الزكية، الكرمي: ص ٨٢.

(٣) انظر: المرجع السابق: ص ٧٤.

(٤) انظر: الضوء الالامع: ٢٠٤/١١.

مسألة الأسماء والصفات، وردّ كما رد شيخه على المؤولة والنفاة، واعترف في بعض كتبه بفضل شيخه عليه في تلك الاعتقادات، ومن ذلك ما قاله في قصيده (التونية) بعد حديثه عن آراء الفلاسفة والمتكلمين^(١):

تَلِكُ الشُّبَابُوكُنْتُ ذَا طَيْرَانِ
مَنْ لَيْسَ تَجْزِيهِ يَدِي وَلِسَانِي
أَهْلًا بِمَنْ قَدْ جَاءَ مِنْ حَرَانِ
حَتَّى أَرَانِي مَطْلِعَ الإِيمَانِ

جَرِبْتُ هَذَا كَلَهُ وَوَقَعْتُ فِي
حَتَّى أَتَاحَ لِي إِلَهُ بِفَضْلِهِ
فَتَى أَتَى مِنْ أَرْضِ حَرَانِ فِيَا
أَخَذْتُ يَدَاهُ يَدِي وَسَارَ فَلْمَ يَرْمِ

ونراه في موضع آخر يمتدح شيخه ويسرد مؤلفاته مادحًا فيقول^(٢):

شِيخُ الْوُجُودِ الْعَالَمِ الرَّبَّانِيُّ
الْبَحْرُ الْمُحيَطُ بِسَائِرِ الْخَلْجَانِ
مَا فِي الْوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانِيُّ

فَاقْرَأْ تَصَانِيفَ الْإِمَامِ حَقِيقَةً
أَعْنِي أَبَا الْعَبَاسِ أَحْمَدَ ذَلِكَ
وَاقْرَأْ كِتَابَ الْعُقْلِ وَالنَّقْلِ الَّذِي

وَيَأْخُذُ بِسِرْدِ كَتَبِهِ مَعَ مَدْحَاهَا إِلَى أَنْ يَقُولُ:

وَقَرَأْتُ أَكْثَرَهَا عَلَيْهِ فَزَادَنِي - وَاللَّهُ - فِي عِلْمٍ وَفِي إِيمَانٍ

إن اتفاق ابن القيم مع شيخه على الأصول المنهجية، جعلتهما يتلقيان في غالب المسائل الفرعية، فهما متتفقان على ضرورةأخذ الدليل من الكتاب والسنة ووجوب الاستنباط منها، وترك التعصب المذهبى الذي كاد أن يستولي على كثير من علماء عصرهما. لذا فلا عجب إذا رأينا ابن القيم يدافع عن بعض الآراء الفقهية التي قال بها ابن تيمية مخالفًا لأقرانه من العلماء، وبخاصة مسألة طلاق الثلاث التي أودى بسيبهما ابن تيمية وسجين، وسُجن معه ابن القيم لنفس السبب.

هذه المحبة الملازمة، وهذه الموافقة من ابن القيم لشيخه، جعلت بعض المתרגمين لحياة ابن القيم يظنون أن ابن القيم صورة مكررة لشيخه، حتى أدى الأمر ببعضهم كالكتوري إلى اعتبار ذلك منقصة لابن القيم، إذ يقول: «ويجد القارئ في كتابنا هذا الرد على ابن تيمية كما يجد فيه الرد على ابن القيم باعتبار أن الثاني إنما يردد صدقي

(١) القصيدة التونية (الكافية الشافية)، ابن القيم: ص ١٠٦ - ١٠٧.

(٢) المرجع السابق: ص ١٦٤.

الأول في أبحاثه كلها دون أن تكون له شخصية خاصة، بل هو ظل الأول في كل آرائه وجمع أهواه»^(١).

كما قال عنه: «يقلده في كل شيء وليس له رأي خاص قطعاً على سنته في العلم»^(٢)، وهذا بلا شك مرفوض من الكوثرى جملة وتفصيلاً.

أما ما قاله ابن حجر في الدرر الكامنة حول تعلق ابن القيم بشيخه إذ يقول عنه: «وكان جريء الجنان، واسع العلم، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف وغلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ذلك، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه»^(٣).

فإن هذا القول جاء في معرض المدح لا الذم، فقد أثني على سعة علمه أولاً، ثم بين حبه لشيخه وانتصاره لآرائه وتهذيب كتبه ونشر علمه، وكل ذلك لا غبار عليه بل هو مفخرة لابن القيم.

والعبارة التي لا بد من الوقوف عندها هي قوله: حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك.

وقد نقل الشوكاني عبارة ابن حجر هذه في الدرر الطالع إلا أنه أعقبها بقوله: قلت: بل كان متقيداً بالأدلة الصحيحة معجباً بالعمل بها غير معول على الرأي صادعاً بالحق لا يحابي فيه أحداً، ونعمت الجرأة^(٤).

فقول ابن حجر: «حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله» فيه نظر، وقد ثبت اختلاف ابن القيم مع شيخه في بعض المسائل^(٥)، بل كل ما وافقه عليه لم يكن من باب التقليد الأعمى أبداً، وإنما كان من باب الاتفاق بينهما على المناهج الأصولية كما أسلفنا، وكما أوضح الشوكاني في تعليقه.

**

(١) انظر: ابن قيم الجوزية، زيد أبو بكر: ص ٨٥، نقلأ عن السيف الصغيل: ص ١٩٢.

(٢) نفس المرجع والصفحة، نقلأ عن صفات البرهان: ص ٣٢.

(٣) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر: ٢١/١٤.

(٤) الدرر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع، الشوكاني: ١٤٣/٢.

(٥) استقصى الشيخ بكر أبو زيد هذه الخلافات من كتب ابن القيم ولم أر ضرورة لذكرها. انظر: كتابه «ابن قيم الجوزية»: ص ٩٢ - ٩٧.

(٥)

أخلاقه وعبادته

عرف ابن القيم رحمه الله بأخلاقه الفاضلة، وزهره وكثرة عبادته.

فقد تحدث الذين ترجموا لحياته عن لطف معاشرته، وهدوئه حتى في الرد على خصومه، وقد امتاز بهذا عن شيخه ابن تيمية الذي عرف بحدته في معارضته مخالفيه^(١). وتحديثوا عن طول صلاته وكثرة قراءته للقرآن وكثرة حجاته وطوفاته، وعن حلمه وتواضعه.

وحسبك ما قاله تلميذه ابن كثير - الذي كان من أ أصحاب الناس له وأحب الناس إليه^(٢) - يصف أخلاقه وعبادته ف يقول: «وكان حسن القراءة والخلق، كثير التسدد، لا يحسد أحداً ولا يؤذيه ولا يستعيبه، ولا يخقد على أحد... ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جداً، ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمة الله»^(٣).

ثم يقول عنه: «وبالجملة كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله والغالب عليه الخير والأخلاق الصالحة»^(٤).

وهذه شهادة بهذه الأخلاق الطيبة الفاضلة من رجل موثوق عاصره وتلمس على يديه ورأى هذه الأخلاق منه بأم عينه.

(١) انظر: ابن قيم الجوزية، عبد العظيم شرف الدين.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ٢٣٤/١٤.

(٣) المرجع السابق: ٢٣٤/١٤ - ٢٣٥.

(٤) المرجع السابق: ٢٣٥/١٤.

أما تلميذه ابن رجب فيقول : «وكان رحمه الله ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى ، وتلأله ولهج بالذكر وشغف بالمحبة والإنابة والاستغفار والافتقار إلى الله ، والانكسار له والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته ، لم أشاهد مثله في ذلك»^(١) .

ثم يقول : «وكان في مدة حبسه مشتغلًا بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكير ففتح عليه من ذلك خير كثير ، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة»^(٢) .

وعن حاجاته ومجاوراته وكثرة طواوه يقول ابن رجب عنه : «وحج مرات كثيرة ، وجاور بمكة ، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمراً يتعجب منه»^(٣) .

ويذكر ابن حجر الشوكاني عنه أنه كان إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر الله تعالى حتى يتعالى النهار ، ويقول : هذه غدوتي لولم أفعلها سقطت قواي^(٤) .

وكان رحمه الله يقول : «بالصبر والتيسير تنال الإمامة في الدين»^(٥) . وأرى من المناسب أن أذكر في تواضعه أبياتاً أنشدتها ابن القيم بنفسه وسمعها منه تلميذه الصفدي^(٦) ومن هذه الأبيات :

بني أبي بكر كثير ذنوبي
بني أبي بكر جهول بنفسه
بني أبي بكر غدا متقدراً
بني أبي بكر غدا متمنياً
بني أبي بكر يروم ترقياً
إلى جنة المأوى وليس له عزم
فليس على من نال من عرضه إثم
جهول بأمر الله أتى له العلم
يعلم علمًا وهو ليس له علم
وصال المعالي والذنوب له هم
إلى آخر هذه الأبيات الجميلة التي بلغت أحد عشر بيتاً، بان فيها تواضعه وعدم

(١) ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب: ٤٤٨/٢.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب: ٤٤٨/٢.

(٤) انظر: الدرر الكامنة: ٢١/٤؛ والبدر الطالع: ١٤٣/٢.

(٥) انظر: البدر الطالع: ١٤٤/٢.

(٦) انظر: الوافي بالوفيات، الصفدي: ٢/٢٧٢.

اغتراره بعلمه، واحتقاره لعمله، ورجاؤه غفران ربه، وهذه سمة أهل العلم العاملين بعلمهم .

والقارئ في كتب ابن القيم يجد التواضع بارزاً فيها، حيث يعترف بتقصيره، وأنه إنسان يصيب ويخطيء، ونجد من ذلك ما قاله في مقدمة كتابه «روضة المحبيين»: (والمرغوب إلى من يقف على هذا الكتاب أن يعذر صاحبه فإنه علقه في حال بعده عن وطنه، وغيته عن كتبه، فما عسى أن يبلغ خاطره المكدوّد، وسعيه المجهود مع البضاعة المزاجة التي حقيق بحاملها أن يقال فيه: «تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه») (١) .

ويقول كذلك في كتابه أعلام المؤسقين بعد توضيح المثل الذي ضربه الله تعالى بقوله: «ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة» فهذه بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم ولعلها قطرة من بحر بحسب أذهاننا الواقفة، وقلوبنا المخطئة وعلومنا الفاقدة، وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار... (٢) .

*
**

(١) انظر: روضة المحبيين: ص ١٤ ، طبعة دار الكتب العلمية، سنة ١٣٩٧ هـ.

(٢) انظر: أعلام المؤسقين: ١٧٥ / ١.

(٦)

ثناء العلماء عليه

لقد استحق ابن القيم ثناء العلماء وتقديرهم بما كان له من الفضل والعلم، وما رأيت أحداً ترجم له إلا وأثنى عليه، حتى إن مخالفيه لم يسعهم إلا الاعتراف بسعة علمه وفضله.

وقد ذكرنا أقوال تلاميذه الثلاثة: ابن كثير وابن رجب والصفدي، وإعجابهم بزهده وعبادته وأخلاقه الفاضلة.

وعند بداية ترجمته يذكر العلماء له ألقاباً علمية تدل على مكانته العلمية وإعجابهم به.

فنجد ابن كثير مثلاً يصفه بالإمام العلامة، ويقول عنه بعد ذلك: «سمع الحديث واشتغل بالعلم وبرع في علوم متعددة لا سيما التفسير والحديث والأصلين»^(١).

ويصفه الصفدي بنفس الوصف ويعدد شيوخه، وما أخذ عنهم ثم يقول: «واشتغل كثيراً وناظر واجتهد وأكبّ على الطلب وصنف وصار من الأئمة الكبار»^(٢).

وقدم له ابن رجب بقوله: «الفقيه الأصولي المفسّر النحوي العارف، شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية، شيخنا»^(٣).

ثم قال عنه: «وتفقه في المذهب، وبرع وأفتقى، ولازم الشيخ تقى الدين وأخذ عنه، وتفنن في علوم الإسلام، وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين وإليه فيهما

(١) البداية والنهاية: ٢٣٤/١٤.

(٢) الواقفي بالوفيات: ٢٧٠/٢ — ٢٧١.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة: ٤٤٧/٢.

المتتهى ، والحديث ومعانيه وفقهه ، و دقائق الاستنباط منه ، لا يلحق في ذلك ، وبالفقه وأصوله والعربية ولها اليad الطولى ، وتعلم الكلام والنحو وغير ذلك . وكان عالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوّف وإشاراتهم ودقائقهم ، له في كل فن من هذه الفنون اليad الطولى»^(١).

ثم ذكر قول القاضي برهان الدين الزرعبي عنه : (ما تحت أديم السماء أوسع علمًا منه)^(٢).

ولقد دلت مؤلفات ابن القيم وتنوعها وشمولها مختلف فروع الشريعة ، على هذه الشهادة وعلى هذا الثناء من ابن رجب رحمة الله .

وقال فيه ابن العماد : «... الفقيه الحنبلي بل المجتهد المطلق ! المفسر النحوي الأصولي المتكلم»^(٣).

ويقول فيه الشوكاني : «... العلامة الكبير المجتهد المطلق المصنف المشهور... برع في جميع العلوم وفاق الأقران واشتهر في الآفاق ، وبحر في معرفة مذاهب السلف»^(٤).

ثم يثنى عليه فيقول : (وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف وله من حسن التصرف مع العذوية الزائدة وحسن السياق ما لا يقدر عليه غالب المصنفين ، بحيث تعيش الأفهام كلامه وتميل إليه الأذهان ، وتحبه القلوب)«^(٥).

ويقول فيه ابن حجر : (... وكان جريء الجنان ، واسع العلم ، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف)«^(٦).

وقال فيه السخاوي : «... العلامة الحجة المتقدم في سعة العلم ومعرفة الخلاف

(١) ذيل طبقات العجائب : ٤٤٨/٢.

(٢) المرجع السابق : ٤٤٩/٢.

(٣) شذرات الذهب : ١٦٨/٦.

(٤) البدر الطالع : ١٤٣/٢.

(٥) المرجع السابق بنفس الصفحة.

(٦) الدرر الكامنة : ٢١/٤.

وقوة الجنان، ورئيس أصحاب ابن تيمية الإمام، بل هو حسنة من حسناته، والمجمع عليه بين المخالف والموافق، وصاحب التصانيف السائرة والمحاسن الجمة، انتفع به الأئمة^(١).

ويشني عليه الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي المتوفى سنة ١٠٣٣هـ فيقول: «هو العلامة شمس الدين الحنبلي، أحد المحققين، علم المصنفين، نادرة المفسرين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعبي ثم الدمشقي، ابن قيم الجوزية وتلميذ ابن تيمية، له التصانيف الأنيقة، . . . فكان ذا فنون في العلوم، صاحب إدراك لسرائر المنطق والمفهوم، وبرع في علم الحديث بحيث انتهت إليه فيه الرئاسة»^(٢).

ويقول فيه الأستاذ الشيخ محمد الزفزاف وكيل كلية دار العلوم بجامعة القاهرة (سابقاً): «. . . فإنَّ ابنَ قيمَ الجوزيَّةَ مِنَ الشَّخْصيَّاتِ الإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي امْتَازَتْ بِنَفَادِ الْذَّهَنِ وَبَعْدِ الْغُورِ، وَوَفْرَةِ الْمَحْفُظِ وَالْتَّحْرِرِ مِنْ رِبْقَةِ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى»^(٣).

**

(١) الضوء اللامع: ٢٠٤/١١.

(٢) انظر: الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، مرعي بن يوسف الكرمي، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف، دار الفرقان – عمان، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٤هـ.

(٣) كلمة الشيخ الزفزاف وردت في تقديمه لكتاب: ابن قيم الجوزية، لعبد العظيم شرف الدين.

(V)

محنتہ

المحنة طريق لا بد لكل الدعاء أن يمرروا منها، وبخاصة أولئك الذين التزموا طريق الحق واتخذوه منهاجاً لهم.

وابن القيم واحد من هؤلاء الذين عرفت عنهم الجرأة، كان صادعاً بالحق لا يحابي فيه أحداً ونعمت الجرأة! (١).

قال ابن حجر: «وقد اعتقل مع ابن تيمية بالقلعة بعد أن أُهين، وطيف به على جمل مضروباً بالدربة، فلما مات (شيخه) أُفرج عنه»^(٢).

وقد ذكر العلماء أسباباً للمحنّة والإيذاء الذي تعرض له ابن القيم رحمه الله ومن هذه الأسباب:

١ - قوله بفتوى ابن تيمية في مسألة الطلاق الثالث بلفظ واحد، وقد أفتى ابن تيمية بأنها تقع طلقة واحدة، وقد استنكر ذلك كل علماء عصره، وعلى رأسهم قاضي القضاة نقي الدين السبكي ^(٣).

٢- إنكاره شدّ الرجال لزيارة قبر الخليل إبراهيم عليه السلام في مدينة الخليل بفلسطين. وقد ذكر ابن رجب أنه حبس لذلك^(٤).

(١) انظر: البدر الطالم: ٢/١٤٣.

(٢) انظر: الدرر الكامنة: ٤ / ٢١.

^(٣) انظر: البداية والنهاية: ١٤/٢٣٥.

(٤) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٢٨٤.

وكان قد اشتهر في زمه زيارة قبر الخليل عليه السلام واعتبار ذلك قربة وعبادة تشد لها الرحال وتقصد من جميع البلدان.

ولازال الظن قائماً عند بعض المسلمين بأن الارتحال لزيارة قبور الأنبياء والصالحين يعتبر قربة وعبادة، مع وضوح النصوص التي نهت عن ذلك، ومنها الحديث الذي يبين المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها.

فأنكر ابن القيم ذلك، ونعي على العلماء عدم الإنكار، وبين أن ذلك من البدع المخالفة للإسلام.

ويبدو أن إنكاره هذا أحدث صراعاً وخلافاً، بينه وبين بعض علماء عصره وبخاصة الرسميين منهم.

٣ – مسألة المسابقة بغير محلل: احتلت هذه المسألة مساحة واسعة من كتاب الفروسيّة زادت على ثلث الكتاب^(١)، فصل فيها ابن القيم رحمة الله هذه المسألة التي خالف فيها الأئمة الثلاثة الشافعى وأحمد وأبو حنيفة، وأفى فيها بخلاف رأى قاضي القضاة تقى الدين السبكي الشافعى، الذي استدعاه وأنكر عليه مخالفته للأئمة.

وملخص المسألة – كما بينها ابن القيم في الفروسيّة – هو أن الشافعى وأحمد وأبا حنيفة ذهبوا إلى أن البازل للرهن يجوز أن يكون أحد المتعاقدين ويجوز أن يكون كليهما، وأن يكون أجنبياً ثالثاً إما الإمام وإما غيره، ولكن إذا كان الرهن منهما لم يحل إلا بمحلل، وهو ثالث يدخلانه بينهما لا يخرج شيئاً، فإن سبقهما أخذ سبقيهما، وإن سبقياه أحرازا سبقيهما، ولم يغُرّ المحلل شيئاً، وإن سبق المحلل مع أحدهما اشترك والسابق في سبقيه، قالوا والعقد بدون المحلل إذا أخرجا معاً قمار^(٢).

ثم بين ابن القيم مذهب الإمام مالك وفيه روایتان: روایة يتفق فيها مع الأئمة الثلاثة، ورواية يجوز فيها أن يخرج السبق ثالث ليس من المتعاقدين^(٣)، لكن ابن القيم خالف في المسألة جمهور الفقهاء في اشتراط المحلل، بل ذهب إلى كراهية وجوده وقال: «والقول بال محلل مذهب تلقاه الناس عن سعيد بن المسيب، وأما الصحابة فلا يحفظ عن

(١) انظر: الفروسيّة، لابن القيم: ص ٢٠ - ٦٧.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٠.

(٣) المرجع السابق نفسه.

أحد منهم قط أنه اشترط المحلل، ولا راهن به مع كثرة تناقضهم ورهانهم، بل المحفوظ عنهم خلافه^(١).

ثم عرض ابن القيم أدلة المجوزين للتراهن من غير محلل، وأدلة المشترطين للمحلل، ورد على أدلة المشترطين وبين ضعف الأحاديث التي استدلوا بها، والحديث الصحيح الذي استدلوا به لا دلالة فيه مطلقاً على المحلل.

والحقيقة أن ابن القيم في هذه المسألة أفتى بقول شيخه ابن تيمية وقد صرّح بذلك في قوله: «قال شيخ الإسلام: وما علمت بين الصحابة خلافاً في عدم اشتراط المحلل»^(٢).

وقد أشار إلى ذلك أيضاً فقال: «ووقع كلام وبحث في اشتراط المحلل في السابقة، وكان سببه أن الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية صنف فيه مصنفاً من قبل ذلك^(٣)، ونصر فيه ما ذهب إليه الشيخ تقى الدين ابن تيمية، ثم صار يفتى به جماعة من الأتراك، ولا يعزوه إلى الشيخ تقى الدين، فاعتقد من اعتقاد أنه قوله، وأنه مخالف للأئمة الأربع، فحصل عليه إنكار في ذلك وطلبه القاضي الشافعي، وحصل كلام في ذلك وانفصل الحال على أن أظهر الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية الموافقة للجمهور»^(٤). وقد شبّه ابن القيم - رحمه الله - دخول المحلل في عقد السباق كدخول المحلل في عقد النكاح للملك ثلاثة، وكدخول المحلل في عقد العينة ونحوها من العقود المشتملة على العيل الربوية، فإن كل واحد منهم مستعار غير مقصود في العقد، وقد ثبت عن محلل النكاح أنه تيس مستعار^(٥).

أوذى ابن القيم من أجل الفتوى بهذه المسألة، وتعرض إلى إنكار شديد من قاضي القضاة السبكي الذي كان لا يتفق مع ابن القيم، ولا مع منهج المدرسة الحنبلية في دمشق.

(١) انظر: الفروسيّة: ص ٢٠.

(٢) المرجع السابق: ص ٢١.

(٣) هذا المصنف هو «بيان الاستدلال على بطلان اشتراط محلل السباق والنصال»، وقد أشار ابن القيم إلى هذا الكتاب في أعلام المؤعدين: ٢١/٤، كما ذكره الصفدي في الوافي بالوفيات: ٢٧١/٢؛ وain رجب في الذيل: ٤٤٩/٢.

(٤) انظر: البداية والنهاية: ٢١٦/١٤.

(٥) انظر: الفروسيّة: ص ٢٢.

ولكن، هل تراجع ابن القيم عن فتواه؟

لقد صرّح ابن حجر بذلك^(١)، وأشار ابن كثير إليه كما ذكرنا، والذي تبين لي من خلال كلام ابن القيم في الفروسيّة، أنه لا صحة لما قاله ابن حجر من تراجع ابن القيم، ويدل على ذلك أسلوبه الحاد في الفروسيّة، وتاليه كتاباً خاصاً في الموضوع، كما يظهر من خلال عرضه للمسألة رجحان رأيه لأنّه لم يثبت دليل بخلافه بل الأدلة معه.

هذه هي المسائل التي ذكرها المترجمون لحياة ابن القيم، والتي امتحن وأوذى وجنس بسيبها.

ولم يشر المترجمون إلى مواقف سياسية أو صدامات حصلت بين ابن القيم وبين السلاطين أو الأمراء، بل السبب الوحيد الذي ذكروه لمحنته هو الفتوى الفقهية التي كان يجهر بها، وكان يصطدم في ذلك مع بعض العلماء والقضاة.

حتى إنّ الشيخ سعدي أبو جيب (الذي قدم لكتاب الغنيمي) يستغرب أن تكون الفتوى الفقهية بالمسائل الفرعية غير السياسية، سبباً في السجن والإيذاء ويرى أنه قد يكون هنالك سبب سياسي لهذه المحنة لم يذكره المؤرخون^(٢).

والحقيقة أنه لو كان هنالك سبب لذكره تلاميذه الذين ترجموا له، ولكن السبب – في نظري – في عدم وجود المواجهات السياسية بين ابن القيم والسلاطين يعود إلى أمرين:

الأول: هدوء ابن القيم في طبعه، وقد أشرنا إلى أنه لم يكن ثائراً بطبعه كما كان ابن تيمية، ومن هنا فقد استطاع ابن القيم أن يحظى برضى بعض الأمراء، كما أشار إلى ذلك ابن حجر في قوله: «وكان له حظ عند الأمراء المصريين»^(٣).

والثاني: أن ابن القيم عاش فترة مستقرة نسبياً، فقد كانت مصر والشام دولة واحدة، وكانت دولة قوية انتصرت تماماً على المغول والصليبيين، وشجع سلطانها العلم والعلماء، وبنوا المدارس والمساجد، وما كان هناك من داع للاصطدام معهم.

**

(١) انظر: الدرر الكامنة: ٤/٢١.

(٢) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١٤.

(٣) الدرر الكامنة: ٤/٢١.

(٧)

وفاته

اتفقت مصادر ترجمته على أن وفاته رحمه الله كانت سنة ٧٥١ هـ ويكون بذلك قد عاش ستين عاماً.

وقد حددت لوفاته ليلة الخميس الثالث عشر من رجب^(١) سنة إحدى وخمسين وسبعمائة.

قال ابن رجب: «توفي رحمه الله وقت عشاء الآخرة، ليلة الخميس ثالث عشر من رجب، سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، وصُلِّي عليه من الغد بالجامع عقيب الظهر، ثم بجامع جراح، ودفن بمقبرة الباب الصغير، (سفع قاسيون)^(٢) وشيعه خلق كثير، ورئيت له منامات كثيرة حسنة رضي الله عنها، وكان قد رأى قبل موته بمدة الشيخ تقى الدين رحمه الله في النوم وسألة عن منزلته، فأشار إلى علوها فوق بعض الأكابر، ثم قال له ابن تيمية: وأنت كدت تلحق بنا، ولكن أنت الآن في طبة ابن خزيمة رحمه الله»^(٣).

وقد كانت جنازته رحمه الله حافلة شهدتها القضاة والأعيان والصالحون من الخاصة وال العامة، وتراحم الناس على حمل نعشة^(٤).

رحم الله شيخنا ابن القيم رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته على ما قدم للمكتبة الإسلامية من مؤلفات جليلة قيمة، فجزاه الله عنّا وعن المسلمين خير الجزاء.

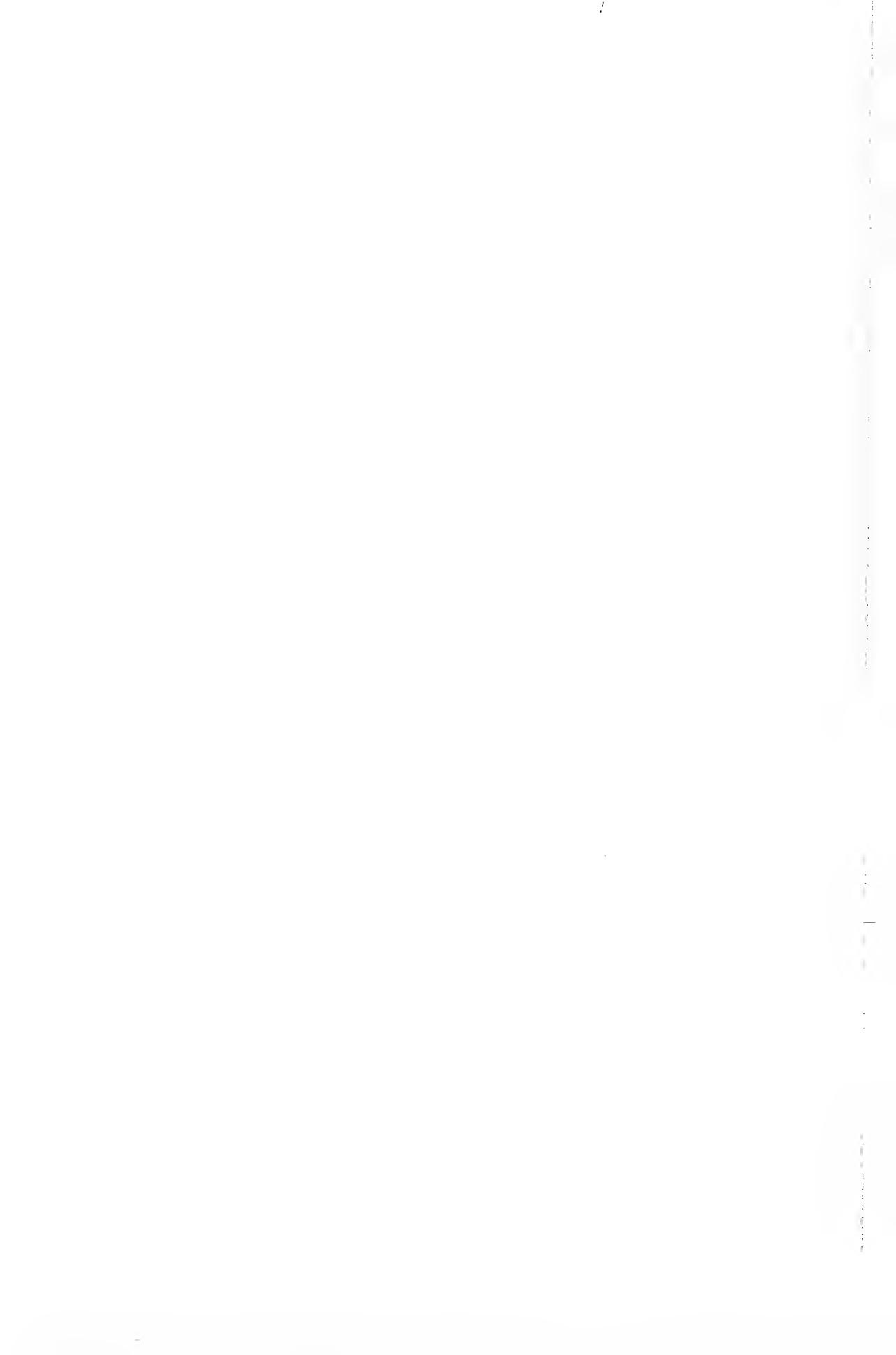
**

(١) حددت وفاته - رحمه الله - باليوم والسنة عند ابن كثير وابن رجب. انظر: البداية والنهاية: ١٤/٢٣٤. وانظر: الذيل لابن رجب: ٢/٤٥٠.

(٢) انظر: معجم المؤلفين، حالة: ٩/١٠٦.

(٣) ذيل طبقات الحتابلة: ٢/٤٥١ - ٤٥٠.

(٤) انظر: البداية والنهاية: ١٤/٢٣٥.



الفصل الثالث شيوخه وتلاميذه

(١)

شيوخه

عاش ابن القيم في دمشق في فترة مليئة حيوية ونشاطاً من الناحية العلمية، كثر فيها التأليف وتععددت فيها المدارس، وبرز فيها عدد من العلماء.

كل ذلك هيأ لابن القيم أن يلتقي بعد وافر من العلماء يتلمس على أيديهم وينهل من علمهم.

وقد عد له تلاميذه الصفدي ثمانية عشر شيخاً، وأشار إلى أن هناك جماعة سواهم لم يذكر الصفدي أسماءهم^(١).

وقد اكتفى الصفدي بذكر أسمائهم، وأشار عند قليل منهم لما أخذه عنه ابن القيم. ورجعت إلى كتب التراجم وقامت بضبط أسمائهم وذكر تاريخ الوفاة لكل واحد منهم، وما أخذه ابن القيم عن كل منهم. وهو:

١ - أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن المنعم بن نعمة (النابلسي)^(٢) الحنبلي المتوفي سنة ٦٩٧هـ. ويعرف بالشهاب العابر، لأنه كان يعبر الرؤيا^(٣)، وقد

(١) انظر: الواقي بالوقبات: ٢/٢٧١.

(٢) في زاد المعد وفي البداية والنهاية: المقدسي.

(٣) انظر: شذرات الذهب: ٥/٤٣٧؛ وانظر: البداية والنهاية: ١٣/٣٥٣.

سبقت الإشارة عند الحديث عن نشأة ابن القيم إلى أنه سمع منه بعض أحكام المرائي وهو صغير السن، حيث إن الشيخ العابر توفي وعمر ابن القيم ست سنوات فقط.

٢ - مسند الشام قاضي القضاة أبو الفضل سليمان بن حمزة بن قدامة المقدسي المتوفى سنة ٧٢٥ هـ ابن الشيخ أبي عمر صاحب المدرسة الصالحية، سمع منه الحافظ الضياء حتى قال: سمعت منه ألف كتاب وجزء، ولم يزل يقرأ عليه الناس إلى قبل وفاته، وكان إماماً محدثاً^(١) أخذ ابن القيم عنه الحديث^(٢).

٣ - أبو بكر أحمد بن عبد الدائم بن نعمة، النابلسي الصالحي المتوفى سنة ٧١٨ هـ وقد أخذ عنه الحديث^(٣).

٤ - المطعم، عيسى بن عبد الرحمن بن معالي بن أحمد، أبو محمد المقدسي ثم الصالحي، مسند الوقت المتوفى سنة ٧١٩ هـ. وقد أخذ عنه الحديث^(٤).

٥ - أبو نصر محمد بن عماد الدين الشيرازي^(٥)، وقال ابن العماد مسند الوقت شمس الدين أبو نصر محمد بن محمد الشيرازي الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٣ هـ^(٦).

٦ - صدر الدين إسماعيل بن يوسف بن مكتوم بن أحمد بن محمد بن سليم السويدي الدمشقي الشافعي المتوفى سنة ٧١٦ هـ^(٧).

٧ - البهاء بن عساكر، وهو القسم بن المظفر المتوفى سنة ٧٢٣ هـ، وإليه تنسب المدرسة البهائية التي بناها^(٨). قال عنه في الشذرات: مسند الشام بهاء الدين القسم بن المظفر ابن النجم محمود بن تاج الأماء عساكر... أجاز له مشايخ البلاد، وبلغ معجمه

(١) مختارات التواریخ لدمشق: ٥٢٥/٢.

(٢) الدرر الكامنة: ١٤١/٢.

(٣) انظر: العبر، للذهبي: ٩٨/٥؛ وشذرات الذهب: ٤٨/٦.

(٤) انظر: العبر: ١٠٨/٥؛ والدرر الكامنة: ٢٨٢/٣.

(٥) هكذا ذكره الصفدي: ٢٧١/٢، كما ذكره ضمن شیوخ ابن القیم، الداودی: ٩٠/٢؛ والسیوطی في البغية: ٦٢/١.

(٦) انظر: الشذرات: ٦٢/٦.

(٧) انظر: الدرر الكامنة: ٤١٠/١.

(٨) انظر: الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي.

سبع مجلدات . . . وكان طيباً مؤرخاً^(١).

٨ - علاء الدين علي بن المظفر بن إبراهيم بن عمر بن زيد الكندي ويعرف بكاتب ابن وداعه، المقرئ المحدث المتوفى سنة ٧١٦ هـ^(٢).

٩ - أبو عبد الله شمس الدين، محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل ابن برकات البعلبكي أو البعلبي، الحنبلي الفقيه المحدث المتوفى سنة ٧٠٩ هـ، وقد أخذ عنه الفقه والعربية^(٣).

١٠ - أبو الفتح بن أبي الفضل البعلبي (البعلبكي)، وقد ذكر الصفدي أن ابن القيم قرأ عليه العربية، فقد قرأ عليه الملخص لأبي البقاء ثم قرأ الجرجانية^(٤)، ثم قرأ ألفية ابن مالك وأكثر الكافية الشافية^(٥) وبعض التسهيل^(٦).

١١ - زين الدين أيوب بن نعمة بن أحمد بن جعفر النابلي ثم الدمشقي الحکال المتوفى سنة ٧٣٠ هـ^(٧).

١٢ - بدر الدين، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن حازم ابن صخر الكتاني الحموي البياني الشافعي الإمام المشهور المتوفى سنة ٧٣٣ هـ^(٨).

١٣ - مجد الدين أبو بكر بن محمد بن قاسم التونسي الشافعي المتوفى سنة ٧١٨ هـ قال في الشذرات: هو شيخ النحو والبحاثين . . . وتخرج به الفضلاء، وكان ديناً صيناً ذكياً، توفي في ذي القعدة عن اثنين وثمانين سنة^(٩)، وذكر الصفدي^(١٠) أن ابن

(١) انظر: الشذرات: ٦٦/٦.

(٢) انظر: شذرات الذهب: ٣٩/٦.

(٣) انظر: ذيل طبقات الحنابلة: ٣٥٦/٢.

(٤) الجرجانية هي كتاب الجمل في النحو، لعبد القاهر الجرجاني.

(٥) الكافية الشافية، لابن مالك. وهذا الكتاب غير الألفية المشهورة، (انظر: البداية والنهاية: ٢٦٦/١٣).

(٦) التسهيل في النحو، لابن مالك أيضاً. (انظر: البداية والنهاية: ٢٦٦/١٣).

(٧) انظر: الدرر الكامنة: ٤٥٤/١.

(٨) انظر: المرجع السابق: ٣٩٧/١. وانظر: البداية والنهاية: ١٦٣/١٤.

(٩) انظر: الشذرات: ٤٧/٦.

(١٠) انظر: الوافي بالوفيات: ٢٧١/٢.

القيم قرأ عليه قطعة من المقرب^(١) كما ذكر الداودي وابن حجر والسيوطى أن ابن القيم
قرأ عليه العربية^(٢).

١٤ - إسماعيل بن محمد إسماعيل الحراني، ابن الغراء مجد الدين الحنبلي،
شيخ الحنابلة في دمشق، المتوفى سنة ٧٢٩هـ. وقد أخذ عنه ابن القيم الفراغن وفقه
والأصول^(٣).

١٥ - شيخ الإسلام، تقي الدين ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام
النميري الحراني المتوفى سنة ٧٢٨هـ^(٤).

وهو أشهر شيوخ ابن القيم وأكثر من لازمه، وقد سبق الحديث عن تأثيره به.
قال الصفدي: «قرأ عليه قطعة من المحرر تأليف جده^(٥)... وقرأ عليه قطعة من
المحصول^(٦) ومن كتاب الإحکام لسیف الدین الأمدي، وقرأ عليه قطعة من الأربعين^(٧)
والمحصل^(٨) وكثیراً من تصانیفه^(٩).

١٦ - شرف الدين أبو محمد عبد الله بن عبد الحليم بن تيمية، أخو شيخ الإسلام
ابن تيمية، المتوفى سنة ٧٢٧هـ^(١٠) أخذ عنه الفقه وذكره في أعلام الموقعين قائلاً عنه:
شيخنا^(١١).

(١) المقرب في النحو لابن عصفور النحوي المتوفى سنة ٦٦٣هـ. انظر: أسماء الكتب، عبد اللطيف بن رياضي زاده: تحقيق د. محمد التونجي، ط ٢٠، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة ١٤٠٣هـ.

(٢) انظر: الدرر الكامنة: ٢٢/٤؛ والوافي بالوفيات: ٢/٩٠؛ وبغية الوعاة: ١/٦٢.

(٣) انظر: الدرر الكامنة: ١/٤٠٣.

(٤) انظر: البداية والهایة: ١٤/١٣٥.

(٥) المحرر كتاب في الفقه الحنبلي، تأليف مجد الدين بن عبد السلام بن عبد الله، ابن تيمية، جد شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٦) المحصل من أمهات كتب أصول الفقه، للرازي.

(٧) الأربعين في أصول الدين، للرازي.

(٨) المحصل، للرازي أيضاً.

(٩) انظر: الوافي بالوفيات: ٢/٢٧١.

(١٠) انظر: الدرر الكامنة: ٢/٢٧١.

(١١) انظر: أعلام الموقعين: ٤/١١٤.

١٧ - والله قيم الجوزية أبو بكر بن أيوب : وقد ذكر الصفدي أن ابن القيم أخذ عنه الفرائض وكان له فيها اليد الطولى .

هؤلاء الشيوخ الذين ذكرهم الصفدي لابن القيم.

— 1 —

وقد ذكر غير الصفدي له شيوخاً غير هؤلاء، بعضهم صرخ ابن القيم في بعض كتبه بأخذله عنهم، ومن هؤلاء الشيوخ:

١ - الحافظ أبو الحجاج يوسف بن زكي الدين عبد الرحمن القضاوي ثم الكلبي الدمشقي الشافعی إمام المحدثین المتوفی سنة ٢٧٤٢ھ^(٣)، كان عمدة الحفاظ بدمشق، سمع الكثير من الرجال ورحل، وبرع في علوم الحديث وقد جمع الكتب الستة في خمسة مجلدات^(٤).

وقد ذكره ابن القيم في أكثر من موضع منها في كتابه (جلاء الأفهام) حيث قال: وتهذيب الكمال لشيخنا أبي الحجاج المزي^(٥). وفي موضع آخر من نفس الكتاب قال: وأجاب شيخنا أبو الحجاج المزي الحافظ^(٦).

٢ - أبو المعالي كمال الدين محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصاري الشافعي الدمشقي، ابن الزمل堪ي، ولد قضاء حلب وتوفي سنة ٧٢٧هـ، كان

(١) انظر: منتخبات التواریخ لدمشق: ٢/٥٢٥.

(٢) انظر: الدرر الكامنة: ٤/١٣٢.

(٣) انظر: البداية والنهاية: ١٤/١٩١؛ وشذرات الذهب: ٦/١٣٦.

(٤) انظر: مختارات التواریخ لدمشق: ٢/٥٣٦.

(٥) انظر: جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ابن القيم: ص ١٢.

^{٦)} المرجع السابق: ص ١٤٧.

شيخ الشافعية بالشام ، وانتهت إليه رئاسة المذهب^(١) ، ذكره في شيخ ابن القيم الأستاذ عوض الله حجازي^(٢) .

٣ — شمس الدين أبو عبد الله ، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج المقدسي الحنبلي ، المتوفى سنة ٧٦٣ هـ^(٣) .

ذكره في شيوخه الشيخ بكر أبو زيد ، وقال: إن ابن القيم كان يراجعه في كثير من مسائله و اختياراته^(٤) .

٤ — بنت جوهر ، فاطمة بنت إبراهيم بن محمود بن جوهر البطائحي المسندة المحدثة ، توفيت سنة ٧١١ هـ^(٥) ، وقد ذكر ابن رجب أن ابن القيم سمع منها^(٦) .

٥ — أبو العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي . ذكره ابن القيم في شفاء العليل عند حديثه عن احتجاج آدم وموسى فقال: والذي يليق به ما ذكره شيخنا أبو العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي في شرحه ص ١٦ .

**^{*}

(١) انظر: الدرر الكامنة: ٤/١٩٣ . وانظر: البداية والنهاية: ١٤/١٣١ .

(٢) انظر: ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي: ص ٤٣ .

(٣) انظر: البداية والنهاية: ١٤/٢٩٤ . وانظر: الدرر الكامنة: ٥/٣٠ .

(٤) انظر: ابن قيم الجوزية ، بكر أبو زيد: ص ١٠٦ .

(٥) انظر: الدرر الكامنة: ٣/٣٠١ .

(٦) انظر: ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٤٤٨ .

(٢)

تلاميذه

ليس باستطاعتنا معرفة كل الذين سمعوا من ابن القيم، وتلمندو على يديه، لأنه رحمه الله، انخرط في سلك العلم والعلماء منذ سن مبكرة، وعمل بالتدريس والإمامية، فكان يدرس في المدرسة الصدرية، ويؤم في الجوزية^(١)، فتلاميذه كثراً، قال ابن رجب: «أخذ عنه العلم خلق كثير من حياة شيخه إلى أن مات، وانفعوا به، وكان الفضلاء يعظمونه ويتعلمون له، كابن عبد الهادي وغيره»^(٢).

ومما يلفت الانتباه أن تلاميذ ابن القيم كانوا من نوعية خاصة ممتازة، أنتجوا أمهات المراجع الإسلامية، وسيظهر ذلك من خلال ترجمتنا المختصرة لأشهر تلاميذه، وهم:

١ - الإمام الحافظ، أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الشافعي المتوفى سنة ٧٧٤هـ^(٣) صاحب التفسير، والتاريخ: (البداية والنهاية)، والسيرة النبوية، وغير ذلك من الكتب النافعة المعتمدة عند طلبة العلم.

وقد صرخ ابن كثير بتلميذه على ابن القيم وجبه له، وبعد أن مدحه بعلمه وأخلاقه وعبادته قال: «وكنت من أصحاب الناس له وأحب الناس إليه»^(٤).

٢ - الإمام الحجّة زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسين بن محمد بن أبي البركات مسعود السلامي البغدادي ثم الدمشقي المشهور بابن

(١) انظر: البداية والنهاية: ٢٣٤/١٤ - ٢٣٥ .

(٢) ذيل طبقات العناية: ٤٤٩/٢ .

(٣) انظر: شذرات الذهب: ٢٠٨/٦ .

(٤) البداية والنهاية: ٢٣٤/١٤ .

رجب الحنبلي، المتوفى سنة ٧٩٥هـ^(١) صاحب المصنفات القيمة، وأشهرها ذيل طبقات الحنابلة، وشرح علل الترمذى، وجامع العلوم والحكم، وغير ذلك. وقد صرّح بخلافه ابن القيم أكثر من سنة وسماعه منه بعض تصانيفه^(٢).

٣ - الإمام الحافظ، محمد بن أحمد بن عثمان، الذهبي التركمانى الشافعى المتوفى سنة ٧٤٨هـ^(٣) عالم التاريخ الموسوعي وعالم الحديث وصاحب كتاب تاريخ الإسلام، وميزان الاعتدال، وسير أعلام النبلاء وغير ذلك.

٤ - قاضي القضاة تقى الدين علي^(٤) بن عبد الكافى بن علي السبكي الشافعى، والمتوفى سنة ٧٥٦هـ، ترجم له ابن حجر، وذكر ابن القيم من شيوخه^(٥)، ولـي الحكم بدمشق نحوً من سبع عشرة سنة، وله تصانيف منتشرة كثيرة الفائدة، وما زال وهو في القضاء يكتب ويصنف إلى حين وفاته^(٦)، صنف نحو مائة وخمسين كتاباً مطولاً ومختصرأً، منها تفسير القرآن وشرح المنهاج في الفقه^(٧)، وهو والد العلامة تاج الدين السبكي صاحب طبقات الشافعية.

٥ - الإمام العلامة، الناقد شمس الدين محمد بن الشيخ عماد الدين أحمد بن عبد الهادى، المقدسى الحنبلى، وكان حافظاً جيداً لأسماء الرجال وطرق الحديث، توفى سنة ٧٤٤هـ^(٨).

وقد أشار ابن رجب إلى مشيخة ابن القيم لا بن عبد الهادى في قوله: وكان الفضلاء يعظمونه، ويتعلمون له كابن عبد الهادى وغيره^(٩).

(١) انظر: إباء الغمر لابن حجر: ٤٦٠ / ١؛ والدرر الكامنة: ٤٢٨ / ٢.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة: ٤٤٨ / ٢.

(٣) انظر: شذرات الذهب: ٦ / ١٥٣.

(٤) هكذا في الدرر الكامنة وغيرها، وفي البداية والنهاية: ابن علي. انظر: ٢٥٢ / ١٤.

(٥) انظر: الدرر الكامنة: ٢ / ١٣٤.

(٦) انظر: البداية والنهاية: ١٤ / ٢٥٢.

(٧) انظر: منتخبات التواريـخ للـمشـق: ٢ / ٥٤٠.

(٨) انظر: الـبداـية والنـهاـية: ١٤ / ٢١٠.

(٩) ذيل طبقات الحنابلة: ٢ / ٤٤٩.

٦ - صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، المتوفى سنة ٥٧٦٤^(١) صاحب الوفيات.

وقد ذكر في كتابه (الوفي) عند ترجمته لابن القيم جلوسه إليه واستماعه منه، ومما سمعه الأبيات التي ذكرناها في تواضع ابن القيم، حيث قال الصفدي: أنشدني من لفظه لنفسه^(٢).

٧ - محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر القرشي المقرى التلمساني، المتوفى سنة ٥٧٥٩^(٣)، ارحل إلى الشام ولقي ابن القيم وسمع منه^(٤).

٨ - محمد بن محمد بن محمد بن الخضر الغزي الشافعي، المتوفى سنة ٨٠٨هـ^(٥)، قال الشوكاني في ترجمته: دخل دمشق فأخذ بها عن ابن كثير والتقي السبكي وابن القيم وغيرهم^(٦).

٩ - شمس الدين أبو عبد الله، محمد بن عبد القادر، النابلسي الحنبلي المعروف بالجنة، المتوفى سنة ٧٩٧هـ^(٧)، وله مختصر طبقات الحتابة.

وقال في الشذرات عند ترجمته: «صاحب ابن قيم الجوزية فقرأ عليه أكثر تصانيفه»^(٨).

١٠ - ولده شرف الدين أو جمال الدين عبد الله بن شمس الدين محمد ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥٦هـ، وكان مفرط الذكاء والحفظ^(٩).

(١) الأعلام، الزركلي.

(٢) الوفي بالوفيات: ٢٧٢/٢.

(٣) انظر: نفح الطيب، لابن الخطيب: ٢٥٤/٥.

(٤) المرجع السابق نفسه.

(٥) انظر: شذرات الذهب: ٧٩/٧.

(٦) انظر: البدر الطالع: ٢٥٤/٢.

(٧) انظر: شذرات الذهب: ٣٤٩/٦.

(٨) المرجع السابق نفسه.

(٩) انظر: البداية والنهاية: ٢٥٣/١٤.

قال ابن حجر في ترجمته: «اشتغل على أبيه وغيره»^(١).

١١ - ولده برهان الدين إبراهيم، العالمة النحوي الفقيه المتوفى سنة ٧٦٧هـ^(٢).

قال عنه في الشذرات: «تفقه بأبيه وشارك في العربية، وسمع وقرأ وتبه وأسمعه أبوه بالحجاج»^(٣).

وقد قام بشرح ألفية ابن مالك في كتاب سمّاه: إرشاد السالك إلى حل ألفية ابن مالك^(٤)، وله رسالة مطبوعة باسم: (اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية)^(٥).

**

(١) الدرر الكامنة: ٢/٣٩٦.

(٢) انظر: شذرات الذهب: ٦/٢٠٨.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) انظر: منتخبات التواريخ لدمشق: ٢/٥٤٢.

(٥) انظر: ابن قيم الجوزية، بكر أبو زيد ص: ٢٧.

الفصل الرابع

مؤلفاته

عرف ابن القيم رحمة الله، بقلمه السيال، وبمؤلفاته الكثرة، قال ابن كثير: «وله من التصانيف الكبار والصغرى شيء كثیر، وكتب بخطه الحسن شيئاً كثيراً»^(١).

ولم يستطع من ترجموا له حتى معاصروه ضبط كتبه لكثرتها، في بينما يسرد له تلميذه ابن رجب أربعة وأربعين كتاباً^(٢)، يذكر السخاوي أن له اثنين وخمسين كتاباً^(٣).

وهي أيضاً أكثر من ذلك، فقد قاربت مؤلفاته المائة^(٤)، والجميل أن هذه الكثرة لم ترك أثراً سلبياً على نوعية ما كتبه ابن القيم، فقد أقبل الناس وما زالوا يقبلون على اقتناء كتبه، والاستفادة منها، لما حوتة من شتى صنوف المعرفة بمختلف فنون الإسلام. كانت كل تصانيفه – كما قال ابن حجر – مرغوباً فيها بين الطوائف^(٥).

واهتم كثير من المترجمين لابن القيم في سرد كتبه، وهو ما بين مقل ومكثر ولعل الشيخ بكر أبو زيد كان أكثر المهتمين بسردها مع بيان من ذكرها من المترجمين، ومكان إشارة ابن القيم لها في كتبه، مع أنه ذكر له كتاباً يبدو أنها بقيت في نية ابن القيم، وقد سرد له ستة وتسعين كتاباً^(٦).

ولدى استعراض عنوانين هذه المؤلفات تلمس شمولها لمختلف التخصصات في

(١) البداية والنهاية: ٢٣٤/١٤.

(٢) انظر: ذيل طبقات الحنابلة: ٤٤٩/٢ – ٤٥٠.

(٣) انظر: التاج المكمل، صديق خان: ص ٤١٩.

(٤) وقد ذكر ذلك الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في تحقيق المنار المنيف، لابن القيم: ص ١٠.

(٥) انظر: الدرر الكامنة: ٢١/٤.

(٦) انظر كتابه: التقرير لفقه ابن القيم: ١٦٩/١ – ٢٥٠.

الشريعة الإسلامية واللغة، مما يدل على سعة في الثقافة وعمق في التفكير.

وقد صنفت ما تعرفت عليه من كتبه حسب الموضوعات، مع أنني وجدت من الضروري أن أنهى إلى ما ذكره الدكتور صبحي الصالح في هذا المجال إذ يقول: «وقد يكون عسيراً على الباحث تسمية شيء من كتب ابن القيم باسم موضوعي خاص، فما كتبه في علم الكلام لا يخلو من المسائل الفقهية، ومن المواقع المرفقة للقلوب، وما كتبه في الفقه وأصوله لا يبرأ من الأبحاث الكلامية ومن المواقع أيضاً»^(١).

ولست مع الدكتور الصالح في نظرته هذه فإن القيم كان دقيقاً في تصنيفاته، والعناوين التي يضعها لكتبه يلتزم بها، ولا يخرج عن موضوعها إلا في استطرادات لطيفة مناسبة، وكتبه التي حوت أكثر من موضوع، رتب لها أن تكون كذلك، فكتابه زاد المعاد يشمل الفقه والحديث والسيرة، وتسميته تستلزم ذلك فاسمها «زاد المعاد في هدي خير العباد» وكذلك كتابه الفوائد، أو بدائع الفوائد فقد كان من الضروري أن يستمدلا على مجموعة من الفوائد المختلفة الموضوعات.

وقد قسمت هذه المؤلفات حسب الموضوعات الآتية:

(١) انظر: أحكام أهل الذمة، لابن القيم، تحقيق الدكتور صبحي الصالح: ص ٧٠.

(١)

في علوم القرآن

١ - التفسير: وبين أيدينا الآن ما يسمى بالتفسير القيم لابن القيم والمعروف أن ابن القيم لم يكتب تفسيراً متكاملاً، وإن كان قد تمنى ذلك^(١)، وكتب ابن القيم حوت في ثناياها تفسيراً لأيات كثيرة من القرآن الكريم، بل طبعت له رسائل في تفسير بعض السور مثل: تفسير سورة الفاتحة وتفسير المعوذتين، وقصة يوسف عليه السلام. وقد قام الشيخ محمد أweis الندوبي بجمع هذه التفسيرات في كتاب سماه «التفسير القيم»^(٢)، وذكر محمد حامد الفقي أنه قام بتحقيقه، وكان الكتاب بمجلد واحد لم يشتمل على القرآن الكريم كاملاً.

٢ - أصول التفسير: وأشار إليه ابن القيم في كتابه جلاء الأفهام^(٣).

٣ - أمثال القرآن: وهو مجلد واحد طبع بتحقيق سعيد محمد نمر الخطيب.

٤ - التبيان في أقسام القرآن: ذكره ابن عمار في الشذرات^(٤)، وهو كتاب مطبوع متداول، كانت الطبعة الأولى في مكة المكرمة سنة ١٣٢١هـ، وقد وأشار إليه ابن القيم في كتابه «الجواب الكافي» في موضوعين، وذكره في الموضوع الأول باسم أيمان القرآن^(٥).

(١) ذكر ابن القيم هذا التمني، في ختام تفسيره لسورة «الكافرون». انظر: التفسير القيم: ص ٥٣٥.
وانظر: بدائع الفوائد: ١٤١/١.

(٢) انظر: التفسير القيم لابن القيم، محمد أweis الندوبي، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية - بيروت، سنة ١٣٩٨هـ.

(٣) انظر: جلاء الأفهام: ص ٨٣.

(٤) انظر: شذرات الذهب: ص ٦/١٧٠.

(٥) انظر: الجواب الكافي: ص ٣٣.

وفي الموضع الثاني باسم أقسام القرآن^(١).

٥ - رفع التزيل: ذكره البغدادي في هدية العارفين^(٢)، وحاجي خليفة في كشف الظنون^(٣).

٦ - شرح أسماء الكتاب العزيز: ذكر بهذا الاسم عند ابن رجب^(٤) والداودي^(٥) وابن العماد^(٦) وذكره الصفدي^(٧) باسم «تفسير أسماء القرآن الكريم» كما ذكره البغدادي^(٨) باسم «أسماء القرآن الكريم».

٧ - الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان: وهو كتاب موضوع عليه متداول، كانت الطبعة الأولى منه بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٧ بتصحيح الأستاذ محمد بدر النعسانى ، ولم يذكره أحد من ترجموا لابن القيم . ويشك في نسبة له.

٨ - المهدب في القراءات: ذكره البغدادي^(٩) وحاجي خليفة^(١٠).

* *

(١) انظر: الجواب الكافي: ص ١٤٣ .

(٢) انظر: هدية العارفين: ١٥٨/٢ .

(٣) انظر: كشف الظنون: ١/٨٩ .

(٤) انظر: الذيل: ٤٥٠/٢ .

(٥) انظر: طبقات المفسرين: ٩٢/٢ .

(٦) انظر: الشذرات: ٦/١٧٠ .

(٧) انظر: الوافي بالوفيات: ٢/٢٧٢ .

(٨) انظر: هدية العارفين: ٢/١٥٨ .

(٩) المرجع السابق نفسه .

(١٠) انظر: كشف الظنون: ٢/١٩١٤ .

(٢) في السنة الشريفة

١ - تهذيب مختصر سنن أبي داود: والمختصر للحافظ المنذري، وهذا الكتاب في تهذيب المختصر وإيضاح مشكلاته، والكلام على ما فيه من الأحاديث المعلولة، أشار إليه ابن القيم في زاد المعاد^(١) وبدائع الفوائد^(٢) وذكره ابن عماد^(٣) وابن رجب^(٤). وهو مطبوع متداول مع معالم السنن للخطابي، ومختصر المنذري في ثمانية مجلدات. كما طبع مع عون المعبود شرح سنن أبي داود لأبي الطيب العظيم آبادي، وشرح ابن القيم مطبوع في هامش الكتاب، ونشر هذه الطبعة محمد عبد المحسن صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

٢ - الجامع بين السنن والآثار: وقد ذكره ابن القيم في بدائع الفوائد فقال: وقد ذكرت في الكتاب الكبير الجامع بين السنن والآثار من قال بذلك من السلف^(٥).

٣ - فوائد في الكلام على حديث الغمامنة وحديث الغزالة والضب: رسالة تقع في تسع عشرة ورقة من مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٤٨٥^(٦).

٤ - المنار المنيف في الصحيح والضعيف: طبع أكثر من مرة ويأكثر من اسم، فقد طبع بمطبعة السنة المحمدية بمصر وبتحقيق محمد حامد الفقي، باسم «المنار».

(١) انظر: زاد المعاد: ١٥٤/١.

(٢) انظر: بدائع الفوائد: ٢/١٧٧.

(٣) انظر: شذرات الذهب: ٦/١٦٩.

(٤) انظر: الذيل: ٢/٤٤٩.

(٥) انظر: بدائع الفوائد: ٤/٦٨.

(٦) انظر: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، الألباني، ١٠٠ حدث.

كما طبع بمطبعة الحرية سنة ١٣٨٣ هـ باسم نقد المنشول أو المنار المنيف، وقد ذكره ابن الحمام باسم «نقد المنشول والمحك المميز بين المردود والمقبول» وذكر أنه بمجلد واحد^(١) وقد قام الشيخ عبد الفتاح أبو غدة بتحقيقه بطبعة جيدة صدرت منها الطبعة الثانية سنة ١٤٠٢ هـ، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب.

٥ – الوابل الصيب ورافق الكلم الطيب أو الكلم الطيب والعمل الصالح: هو كتاب حوى مأثورات الأدعية والأذكار الواردة عن الرسول ﷺ، وقد طبع أكثر من مرة وحققه الشيخ إسماعيل الأنصاري، مطبع النصر الحديثة بالرياض.

**

(١) انظر: الشذرات: ٦/١٦٩.

(٣) في العقيدة

ويشمل ما كتبه الإمام ابن القيم في العقيدة الإسلامية، وما كتبه ردًا على الفرق المخالفة لعقيدة السلف، وما كتبه أيضًا في الرد على اليهود والنصارى ومن هذه المؤلفات :

- ١ - اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية : كتاب مطبوع ، طبع في الهند سنة ١٣١٤ هـ ، ثم طبع أكثر من مرة ، وقام بتصحیحه عبد الله آل الشیخ وإبراهیم الشوری .
- ٢ - اقتضاء الذکر بحصول الخیر ودفع الشر : ذکرہ الصفیدی^(١) وابن تغیری بردي^(٢) .
- ٣ - الأمالی المکیۃ أو التحفة المکیۃ في بيان الملة الإبراھیمیۃ : ذکرہ ابن القیم في بدائع الفوائد أكثر من مرة ، وهو يذکرہ أحياناً باسم الأمالی المکیۃ وأحياناً باسم التحفة المکیۃ^(٣) ، وفي طریق الھجرتین^(٤) وذکرہ ابن العماد^(٥) باسم (التحفة المکیۃ) .
- ٤ - جلاء الأفهام في فضل الصلاة على خير الأنام^(٦) : ويمكن تصنيفه مع كتب

(١) انظر: الواfi بالوفیات: ٢٧١/٢ .

(٢) انظر: المنھل الصافی : ٦٢/٣ .

(٣) انظر: بدائع الفوائد: ٢١١ ، ٦٢ ، ٨٩ ، ١٥/٢ .

(٤) انظر: طریق الھجرتین: ص ٣٧٨ .

(٥) انظر: الشذرات: ١٧٠/٦ .

(٦) ذکرہ ابن القیم في زاد المعاد بهذا الاسم ، ومدحه كثيراً وأشار إلى موضوعاته فقال: وهو كتاب فرد في معناه لم يسبق إلى مثله في كثرة فوائده وغزارتها ، بينما فيه الأحادیث الواردة في الصلاة والسلام =

ال الحديث، وذكره الصفدي باسم «حلى الأفهام...»^(١). كتاب مطبوع، طبع في الهند، ثم حرقه الشيخ طه يوسف شاهين من علماء الأزهر^(٢).

٥ - جوابات عابدي الصليبان، وأن ما هم عليه دين الشيطان: وهو نفس كتاب هداية الحيارى، وهذا الاسم (الجوابات) هو الذي ذكره الذين ترجموا لابن القيم^(٣) مع أن هداية الحيارى كتاب مشهور، والاسم من وضع المؤلف في مقدمة الكتاب وأشار إليه في زاد المعاد. ولم أجده من جمع بين الأسمين في ذكر مؤلفات ابن القيم سوى البغدادي في هدية العارفين^(٤) وهو كثير الوهم في مثل ذلك، وقد ذكر لابن القيم خمسة وستين كتاباً منها عشرة مكررة^(٥)، كما أن هداية الحيارى عبارة عن جوابات لسبع مسائل أوردتها المؤلف على لسان أهل الكتاب.

٦ - الجواب الشافى لمن سأله عن ثمرة الدعاء إذا كان ما قدر واقع: وقد ذكره الشوكاني في الدر الطالع^(٦) ولم يذكره غيره.

٧ - الجواب الكافى لمن سأله عن الدواء الشافى، أو الداء والدواء: وقد طبع بالاسمين أكثر من مرة.

٨ - حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح، أو صفة الجنة: وهو كتاب مطبوع مرغوب فيه عند الدارسين .

عليه وصححها من حسنها ومعلولها، وبيننا ما في معلولها من العلل بياناً شافياً، ثم أسرار هذا الدعاء وشرفه وما اشتمل عليه من الحكم والفوائد ثم مواطن الصلاة عليه ومحالها ثم الكلام في مقدار الواجب منها، واختلاف أهل العلم فيه، وترجيح الراجح وتزييف المزيف، ومختبر الكتاب فوق وصفه. (انظر: زاد المعاد، ابن القيم، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط: ٨٧/١).

(١) انظر: الوافي بالوفيات: ٢٧٢/٢.

(٢) الطبعة المحققة نشرتها دار الكتب العلمية - بيروت.

(٣) انظر: الشذرات: ٦/١٦٨؛ والذيل ٢/٤٥٠؛ وطبقات المفسرين: ٢/٩١.

(٤) انظر: هدية العارفين: ٢/١٥٨.

(٥) انظر: التقريب، بكر أبو زيد: ١/١٦٥.

(٦) انظر: الدر الطالع: ٢/١٤٤.

٩ - الرسالة الحلبية في الطريقة المحمدية: وهي منظومة ذكرها الداودي والصفدي^(١).

١٠ - الروح: طبع هذا الكتاب أكثر من مرة، وذكره معظم المترجمين لابن القيم^(٢)، وأشار إليه ابن القيم في كتابه جلاء الأفهام^(٣).

وقد اختصره البقاعي رحمه الله في كتابه «سرّ الروح».

١١ - الروح والنفس: وهو غير كتاب الروح، بل وأشار إليه ابن القيم في كتاب الروح نفسه^(٤)، كما أشار إليه في مفتاح دار السعادة^(٥)، وفي جلاء الأفهام^(٦).

١٢ - السنة والبدعة: ذكره أحمد عبيد في مقدمة روضة المحبين^(٧).

١٣ - شرح أسماء الله الحسنی: ذكره معظم الذين ترجموا له^(٨).

١٤ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدرة والحكمة والتعليل: كتاب مطبوع مشهور ذكره معظم المترجمين، وذكره بعضهم باسم القضاء والقدر^(٩).

١٥ - الصواعق المتنزلة على الجهمية والمعطلة: ذكره معظم المترجمين، وأشار إليه ابن القيم في إغاثة اللھفان^(١٠) ومدارج السالكين^(١١).

وقد اختصره ابن الموصلی، وكتابه المختصر هو المطبوع المتداول.

(١) انظر: طبقات المفسرين: ٢/٩١، ٢٧١/٢. وانظر: الواقي بالوفيات: ٢٧١/٢.

(٢) انظر: الشذرات: ٦/١٦٨؛ والدرر الكامنة: ٤/٢٣؛ والبدر الطالع: ٢/١٤٤.

(٣) انظر: جلاء الأفهام: ص ١٨٩.

(٤) انظر: الروح: ص ٣٨.

(٥) انظر: مفتاح دار السعادة: ص ٤٩٦.

(٦) انظر: جلاء الأفهام: ص ١٨٩.

(٧) مقدمة روضة المحبين، تحقيق أحمد عبيد.

(٨) انظر: الذيل: ٢/٤٥٠، والشذرات: ٦/١٧٠، وطبقات المفسرين: ٢/٩٣.

(٩) انظر: الدرر الكامنة: ٤/٢٣ وانظر البدر الطالع: ٢/١٤٤.

(١٠) انظر: إغاثة اللھفان: ١/٤٥.

(١١) انظر: مدارج السالكين: ٣/٣٥٣.

١٦ – طبقات المكلفين ومراتبهم في الدار الآخرة: كتاب مطبوع، نشرته مكتبة السلام العالمية بالقاهرة سنة ١٤٠١ هـ ولم يذكره المترجمون، وهو مقطع من كتاب طريق الهجرتين^(١) والناثر لم يشر إلى ذلك، وهذا تزوير تعمد إليه بعض دور النشر لأغراض تجارية.

١٧ – طريقة البصائر إلى حديقة السرائر في نظم الكبائر: وقد ورد ذكره في فهارس أوقاف بغداد^(٢)، ولعله نفس كتاب الكبائر الذي ذكره معظم المترجمين^(٣).

١٨ – الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: وهذا الكتاب هو المنظومة الشهيرة المسماة بالقصيدة النونية البالغة ستة آلاف بيت^(٤) طبعت مراراً، وشرحها عدد من العلماء، وذكراها معظم المترجمين. ومن أشهر شروحها شرح الألوسي وشرح ابن سعدي والشرح المسمى بتوضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، تأليف أحمد بن إبراهيم بن عيسى الشرقي، نشر المكتب الإسلامي سنة ١٣٨٢ هـ والمنظومة كلها على البحر الكامل.

١٩ – مشروعية زيارة القبور: كتاب مطبوع نشره عزت العطار، مؤسسة الحانجي بمصر.

٢٠ – المهدى: ذكره صاحب كشف الظنون^(٥).

٢١ – مولد النبي ﷺ: ذكره الشوكاني^(٦) وصديق الفنوجي^(٧).

(١) انظر: طريق الهجرتين، بتحقيق الأنصارى: ص ٦١٢ – ٧٣٩.

(٢) انظر: الفهارس، للجبوري: ٤٤٥/٢.

(٣) انظر: الشذرات: ١٦٨/٦؛ ٤٥٠/٢؛ والذيل: ١٥٨/٢؛ وهدية العارفين: ٩٣/٢.

(٤) هكذا ذكر ابن تغري بردي في المنهل الصافي: ٦٧/٣. وذكر الشيخ بكر أبو زيد أنه قام بعدها بلغت أبياتها ٥٩٤٩ بيتاً. (انظر: التقرير: ٢٣٥/١).

(٥) انظر: كشف الظنون: ١٤٦٥/٢.

(٦) انظر: البدر الطالع: ١٤٤/٢.

(٧) انظر: الناج المكمل: ص ٤١٩.

٢٢ – مفتاح دار السعادة و منتشر ولاية العلم والإرادة: كتاب مطبوع متداول ،
وذكره معظم المترجمين .

٢٣ – هداية الحيارى في أوجوبة اليهود والنصارى: طُبع مراراً، وكانت الطبعة
الأولى سنة ١٣٢٣ هـ، وهو الكتاب الذي بين أيدينا. وقد طبعته المكتبة القيمة سنة
١٣٩٨ هـ بتحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، وكان التحقيق اسمياً.

**

(٤) في الفقه وأصوله

لم يكن ابن القيم متعصباً لمذهب الحنبلي، ولكنه اتبع طريقة السلف التي ثبت دعائهما شيخه ابن تيمية، والتي تسير مع الدليل حيث سار، ولذلك فقد خاض ابن القيم غمار الفقه، فكتب فيه مؤلفات عدّة وكان مجتهداً، كما شهد له تلاميذه الذين ترجموا له، وخرج عن مذهبها في كثير من المسائل.

ومن كتبه في الفقه وأصوله:

- ١ - **أعلام الموقعين عن رب العالمين**: وهو من أعظم كتبه وأشهرها يقع في أربعة مجلدات، مطبوع متداول بين طلبة العلم، كانت الطبعة الأولى منه في الهند سنة ١٣١٣ هـ ثم طبع في مصر سنة ١٣٢٥ هـ^(١) ثم تبعت طبعاته.
- ٢ - **الأعلام باتساع طرق الأحكام**: أشار إليه ابن القيم في إغاثة الدهان^(٢) ولم يذكره مترجموه، وقد يكون نفس كتاب أعلام الموقعين.
- ٣ - **الاجتهاد والتقليد**: أشار إليه المؤلف في مفتاح دار السعادة^(٣)، وفي تهذيب السنن^(٤).
- ٤ - **أحكام أهل الذمة**: طبع للمرة الأولى سنة ١٣٨١ هـ بتحقيق الدكتور صبحي الصالح بتكليف من لجنة موسوعة الفقه الإسلامي في جامعة دمشق. ويقع في مجلدين كبيرين وطبع طبعة ثانية في بيروت سنة ١٤٠١ هـ.

(١) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٢.

(٢) انظر: إغاثة الدهان: ١١٩/٢.

(٣) انظر: مفتاح دار السعادة: ص ٥٧.

(٤) انظر: مدارج السالكين: ٣٠٨/٣.

٥ - إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان: ويسمى الإغاثة الصغرى، أشار إليه ابن القيم في مدارج السالكين وهو مطبوع متداول، كانت الطبعة الأولى منه في مصر سنة ١٣٢٣^(١)، ثم طبع بتحقيق محمد جمال الدين القاسمي.

٦ - بيان الاستدلال على بطلان اشتراط محلل السباق والنسال: ^(٢) ومسألة المحلل في السباق، هي إحدى الفتاوى التي أودي ابن القيم بسببها كما بينا. وقد ذكر ابن القيم هذا الكتاب في أعلام الموقعين^(٣)، وهو نفس الكتاب الذي ذكره ابن رجب وأسامي «بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل». وقد وهم صاحب هدية العارفين عندما عدّهما كتابين وله من ذلك كثير^(٤).

٧ - تحفة المودود في أحكام المولود: كتاب مطبوع متداول، كانت الطبعة الأولى منه في لاهور سنة ١٣٣٩هـ^(٥)، ثم طبع محققاً لعبد الحكيم شرف الدين الهندي سنة ١٣٨٠هـ بالمطبعة الهندية بالهند أيضاً، وفي سنة ١٣٩١هـ طبع في دمشق بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط^(٦)، كما نشرته المكتبة القيمة بمصر سنة ١٣٩٧هـ بغير تحقيق. وهو نفس كتاب أحكام المولود الذي ذكره البغدادي على أنه اسم كتاب آخر^(٧).

٨ - التحرير فيما يحل ويحرم من لبس الحرير: ذكره أكثر المترجمين^(٨) وأشار إليه ابن القيم في زاد المعاد باسم التخبير^(٩) وباسم التحبير^(١٠).

(١) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٢.

(٢) انظر: كشف الظنون: ١/ ٢٣٥.

(٣) انظر: أعلام الموقعين: ٤/ ٢٢.

(٤) انظر: هدية العارفين: ٢/ ١٥٨. وانظر: التقريب، بكر أبو زيد: ص ١٨٧.

(٥) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٢.

(٦) انظر: التقريب، بكر أبو زيد: ص ١٩٢.

(٧) انظر: هدية العارفين: ٢/ ١٥٨.

(٨) انظر: الذيل، لابن رجب: ٢/ ٤٥٠، والوافي بالوفيات: ٢/ ٢٧١؛ وطبقات المفسرين: ٢/ ٩٣.

(٩) زاد المعاد: ٣/ ٤٤٨.

(١٠) المرجع السابق: ٤/ ٧٨.

- ٩ - التعليق على الأحكام: أشار إليه المؤلف في جلاء الأفهام^(١).
- ١٠ - حرمة السماع: ذكره البغدادي وحاجي خليفة^(٢)، وذكر الصفدي كتاباً له في هذا الموضوع باسم «كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء»^(٣)، ولعله الكتاب نفسه.
- كما أشار ابن القيم إلى هذا الكتاب في إغاثة الدهان بعد حديثه: مكيدة الشيطان بتزيين السماع فقال: وقد ذكرنا شبه المعنين والمفتونين بالسماع الشيطاني ، ونقضناها نقضاً وإبطالاً في كتابنا الكبير في السماع^(٤).
- ١١ - حكم إغمام هلال رمضان: ذكره ابن رجب^(٥) والداودي^(٦) وابن عمار^(٧).
- ١٢ - حكم تارك الصلاة: كتاب مطبوع ، طبع أكثر من مرة ، وكانت الطبعة الأولى منه ، مع كتاب الصلاة وما يلزم فيها للإمام أحمد ، باسم «الصلاحة وأحكام تاركها» سنة ١٣٢٣ هـ^(٨). ثم طبعه المكتب الإسلامي سنة ١٤٠١ هـ بتحقيق تيسير زعير.
- ١٣ - حكم تفضيل بعض الأولاد على بعض في العطية: أشار إليه في تهذيب مختصر سنن أبي داود^(٩).
- ١٤ - الحامل هل تحضر أم لا: أشار إليه ابن القيم في تهذيب السنن^(١٠) وتحفة المودود^(١١).

(١) انظر: جلاء الأفهام: ٨٥.

(٢) انظر: هدية العارفين: ٢/١٥٨؛ وكشف الظنون: ١/٦٥٠.

(٣) انظر: الوافي بالوفيات: ٢/٢٧١.

(٤) انظر: إغاثة الدهان: ١/٢٦٧.

(٥) انظر: الذيل: ٢/٤٥٠.

(٦) انظر: طبقات المفسرين: ٢/٩٣.

(٧) انظر: الشذرات: ٦/١٦٩.

(٨) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٣.

(٩) انظر: تهذيب السنن: ٥/١٩٣.

(١٠) المرجع السابق: ٣/١٠٩.

(١١) انظر: تحفة المودود: ص ٢٥٠.

١٥ - رفع اليدين في الصلاة: ذكره معظم المترجمين لابن القيم^(١) وهو مخطوط توجد منه نسخة في المكتبة السعودية بالرياض نسخت سنة ١٣٣٨ هـ رقمها ٦٠٩/٨٢ مخطوطات^(٢).

١٦ - الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: كتاب مطبوع متداول، الطبعة الأولى منه كانت سنة ١٣١٧ بمصر^(٣)، ثم طبع سنة ١٣٨٠ هـ، وقدم له محمد محبي الدين عبد الحميد، وراجعه وصححه أحمد عبد الحليم العسكري، ونشرته المؤسسة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة. كما قام بتحقيقه أيضاً محمد جميل أحمد وطبع في مطبعة المدني بالقاهرة سنة ١٣٨١ هـ.

١٧ - فتاوى رسول الله ﷺ: ذكره الألوسي في جلاء العينين باسم الفتاوى^(٤) وقد طبع بتحقيق مصطفى عاشور، نشر دار بوسالمة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣. وقد أشار المحقق في مقدمته إلى أن هذا الكتاب جزء من كتاب أعلام الموقعين نظمه ابن القيم في باب خاص بعنوان فتاوى إمام المفتين عليه السلام.

١٨ - الفروسيّة الشرعية: أشار إليه ابن القيم في أعلام الموقعين بهذا الاسم^(٥) وذكره الصفدي باسم الفروسيّة المحمدية^(٦) كما طبع باسم الفروسيّة بتحقيق السيد عزت العطار الحسيني ، مكتب نشر الثقافة الإسلامية بمصر.

١٩ - المسائل الطرابلسية أو الطرابلسيات: ذكره ابن رجب^(٧) والداودي^(٨) وأشار ابن العماد إلى أنه ثلاثة مجلدات^(٩) وهو نفس كتاب الطرق الحكمية في السياسة

(١) انظر: الذيل: ٢/١٥٠؛ والوافي بالوفيات: ٢/٢٧٢؛ وطبقات المفسرين: ٢/٩٣.

(٢) انظر: التقريب، بكر أبو زيد: ١/٢٠٨.

(٣) انظر: التيمي: ص ١١٣.

(٤) انظر: جلاء العينين: ص ٣٢.

(٥) انظر: أعلام الموقعين: ٤/٢١.

(٦) انظر: الوافي بالوفيات: ٢/٢٧٢.

(٧) انظر: ذيل طبقات الحنابلة: ٢/٤٥٠.

(٨) انظر: طبقات المفسرين: ٢/٩٣.

(٩) انظر: شذرات الذهب: ٦/١٦٩.

الشرعية، وقد بين ذلك الأستاذ محمد جميل أحمد محقق كتاب الطرق الحكمية، وبين أن المخطوطة التي عشر عليها – وهي صورة عن نسخة فريدة موجودة في مكتبة أوقاف بغداد – تنص على أن هذا السؤال – الذي كان الكتاب كله توضيحاً له – ورد عليه من طرابلس الشام مع أسئلة أخرى تسمى المخطوطة (الطرابلسيات)^(١).

٢٠ - نكاح المحرم: ذكره معظم المترجمين له^(٢).

**

(١) انظر: الطرق الحكمية، تحقيق محمد جميل أحمد هامش: ص ٣ مع الصورة المرفقة للكتاب.

(٢) انظر: ذيل طبقات الحنابلة: ٤٥٠/٢؛ وانظر: شذرات الذهب: ٦٦٩/٦؛ وانظر: طبقات المفسرين: ٦٦٩/٦.

(٥)

في النحو واللغة

كان لابن القيم باع طويل في النحو واللغة، وبيدو ذلك جلياً من خلال أسلوبه في مؤلفاته، واستطراده في بعض كتبه لقضايا لغوية تبرز من خلالها مقدراته الفائقة، واطلاعه الواسع في هذا المجال. ومع أنه لم يكتب كثيراً في النحو واللغة كتباً منفصلة متخصصة إلا أن اللطائف البينية واللغوية المنشورة في كتبه تدل على أن صاحبها عالم نحوى، وقد وصفه المترجمون له بهذا الوصف، فكتابه بداعي الفوائد، مليء بالفوائد النحوية واللغوية، وتفسيراته لبعض الآيات القرآنية، يظهر فيها اهتمامه باللفظة والأسلوب والنكات النحوية والبلاغية. وفي كتابه «جلاء الأفهام» تطرق إلى بحث لطيف في التناسب بين اللفظ والمعنى، ثم قال: «وهذا أكثر من أن يحاط به، وإن مد الله في العمر، وضعت فيه كتاباً مستقلاً إن شاء الله، ومثل هذه المعاني تستدعي لطافة ذهن ورقة طبع، ولا تأتي مع غلظ القلوب والرضى بتأول المسائل في النحو والتصريف دون تأملها وتدبرها»^(١).

ومن كتب ابن القيم في هذا المجال:

١ - بداعي الفوائد: كتاب مطبوع في أربعة مجلدات، وهو كتاب بديع كما سماه صاحب كشف الظنون^(٢) وهو كتاب جامع من الصعب تصنيفه في موضوع معين، فقد احتوى على فوائد في الفقه والتفسير والنحو وغيرها من موضوعات، لكن النكات البدعية في النحو واللغة احتلت فيه مساحات واسعة. وقد ذكره السيوطي ضمن الكتب الجامعة التي عرضت للقرآن وعلومه^(٣).

(١) انظر: جلاء الأفهام: ص ٧٦.

(٢) كشف الظنون: ١/٢٣٠.

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي: ١/٣٥.

٢ - معاني الأدوات والحروف: ذكره معظم المترجمين له^(١) وذكره الغنيمي في
قائمة الكتب المخطوطة^(٢).

**

(١) انظر: الوافي بالوفيات: ٢٧١/٢؛ وطبقات المفسرين: ٩٣/٢؛ وبغية الوعاة: ٦٣/١ وهدية
العارفين: ١٥٨/٢.

(٢) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٦.

(٦)

في التصوّف والرقائق

تركيّة النّفس وترقيّ القلب سمة بارزة معاً ملهمة في كثيّر مما ألمّه ابن القيم، ونجد ابن القيم وهو يرد على مبتدعة المتتصوفة يضع البديل الإسلامي في تركيّة النّفس، وتطهير القلب. ومن مؤلفاته في ذلك:

- ١ - إغاثة اللّهفان من مصائد الشّيطان: كتاب مطبوع متداول، يقع في مجلدين، ومع أنّ ابن القيم سماه بهذا الاسم^(١)، وسمّاه كثير من المترجمين بمصائد الشّيطان^(٢) طبع سنة ١٣٢٠ هـ باسم مصائد الشّيطان، وفي المكتبة الظاهريّة بدمشق نسخة بخط المؤلّف^(٣).
- ٢ - تحفة النازلين بجوار رب العالمين: أشار إليه ابن القيم في مدارج السالكين^(٤)، وذكره البغدادي^(٥) والقونجي^(٦).
- ٣ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين: كتاب مطبوع، طبع في دمشق سنة ١٣٤٩ هـ. وحقّقه الأستاذ أحمد عبيد، وهو كتاب أدبي لطيف، حوى العبارات اللطيفة وبعض أشعاره، وفيه تهذيب وتركيّة للنفس.
- ٤ - زاد المسافرين إلى منازل السعداء في هدى خير الأنبياء: ذكره معظم

(١) انظر: مقدمة إغاثة اللّهفان: ١/٦.

(٢) انظر الرواقي بالوفيات: ٢٧١/٢؛ والبدر الطالع: ١٤٤/٢؛ والتاج المكمل: ص ٤١٩.

(٣) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٤.

(٤) انظر: مدارج السالكين: ١/٢٣٠.

(٥) انظر: هدية العارفين: ٢/١٥٨.

(٦) انظر: التاج المكمل: ص ٤١٩.

المترجمين^(١)، وذكره الغنيمي في قائمة الكتب المخطوطة^(٢).

٥ - الصبر والسكن: ذكره البغدادي^(٣)، وصاحب كشف الظنون^(٤)، وذكره الغنيمي ضمن القائمة المخطوطة^(٥).

٦ - طريق الهجرتين: كتاب مطبوع متداول، أشار إليه ابن القيم في مدارج السالكين^(٦) باسم «سفر الهجرتين».

٧ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين: كتاب مطبوع متداول، طبع أكثر من مرة، والطبعة الرابعة منه من منشورات دار الآفاق الجديدة؛ بيروت سنة ١٤٠٠ هـ. كتب عليه أنه بتحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، وتصفحت الكتاب فلم أجده أي عمل على الإطلاق لهذه اللجنة، اللهم إلا تفسير كلمة واحدة غامضة، ولم تضع اللجنة حتى ولا مقدمة للكتاب.

٨ - الفتح المكي: ذكره المؤلف في بدائع الفوائد^(٧).

٩ - الفتوحات القدسية أو الفتح القدسي: ذكره معظم المترجمين لابن القيم باسم الفتح القدسي^(٨)، كما أشار له المؤلف في بدائع الفوائد بهذا الاسم^(٩)، وذكره في مفتاح السعادة باسم الفتوحات القدسية. وقال إنه ذكر فيه مشاهد الخلق في مواجهة الذنب، وأنها تنتهي إلى ثمانية مشاهد، وذكرها جميعها^(١٠).

(١) انظر: الذيل: ٥٤٠؛ وطبقات المفسرين: ٩٣/٢؛ والشذرات: ١٦٩/٦.

(٢) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٥.

(٣) انظر: هدية العارفين: ١٥٨/٢.

(٤) انظر: كشف الظنون: ١٤٣٢/٢.

(٥) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٦.

(٦) انظر: مدارج السالكين: ٥٤/٢.

(٧) انظر: بدائع الفوائد: ١٨٦/٢.

(٨) انظر: الذيل: ٤٥٠/٢؛ وشذرات الذهب: ١٦٩/٦؛ وطبقات المفسرين: ٩٣/٢.

(٩) انظر: مفتاح دار السعادة: ١/٢٨٥.

(١٠) انظر: بدائع الفوائد: ٢/٢٤٠ - ٢١١.

١٠ – الفرق بين الخلة والمحبة ومناظرة الخليل لقومه: ذكره ابن رجب^(١) وابن عماد الحنبلي^(٢).

١١ – قرة عيون المحبين وروضة العارفين: أشار إليه ابن القيم في مدارج السالكين^(٣)، وذكره البغدادي في هدية العارفين^(٤).

١٢ – مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: وقد طبع الكتاب بهذا الاسم أكثر من مرة، وكانت الطبعة الأولى في مصر سنة ١٣٢٣هـ^(٥)، كما طبع بتحقيق محمد حامد الفقي؛ نشر دار الرشاد الحديثة – الدار البيضاء – المغرب.

ذكره ابن حجر الشوكاني باسم شرح منازل السائرين^(٦)، ومنازل السائرين كتاب معروف للشيخ أبي إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الانصاري الهروي الحنبلي المتوفى سنة ٤٨١هـ، وذكره ابن رجب والداودي وابن عماد باسم مراحل السائرين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين^(٧)، وقد قام الأستاذ عبد المنعم صالح العلي بتهذيب مدارج السالكين، ونشرته وزارة العدل والشؤون الإسلامية بدولة الإمارات سنة ١٤٠٢هـ.

١٣ – الغربة والاغتراب: رسالة صغيرة، وهي قطعة من مدارج السالكين، فصلها وصححها وعلق عليها محمد منير الدمشقي، طبعت في إدارة الطباعة المنيرية بمصر سنة ١٣٥١هـ.

١٤ – مكائد الشياطين في الوسوسة وذم الموسوسيين: وهو شرح لكتاب ذم الموسوسيين والتحذير من الوسوسه لابن قدامة^(٨)، والكتاب يقع في أربعة وتسعين صفحة،

(١) انظر: الذيل: ٤٥٠/٢.

(٢) انظر: الشذرات: ١٦٨/٦.

(٣) انظر: مدارج السالكين: ١٠٩/٣.

(٤) انظر: هدية العارفين: ١٥٨/٢.

(٥) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنمي: ١١٤.

(٦) انظر: الدرر الكامنة: ٢٢/٤؛ والبدر الطالع: ١٤٤/٢.

(٧) انظر: الذيل: ٤٤٩/٢؛ وطبقات المفسرين: ٩٣/٢؛ والشذرات: ١٩٩/٦.

(٨) وقد أشار ابن القيم إلى ذلك في نفس الكتاب حيث ذكر بعد مقدمة طويلة عن مكائد الشيطان للنفس الإنسانية: قال الشيخ أبو محمد المقدسي في ذم الوسوس، وبعد ذلك بشرح هذا الكتاب، انظر: ص ٢٤.

نشرته دار الكتب العلمية سنة ١٤٠٢ هـ دون تحقيق، وهو جزء من إغاثة اللهفان.

١٥ - المورد الصافي والظل الوافي: أشار إليه ابن القيم في طريق الهجرتين، وقال: (وقد ذكرنا مجموع هذه الطرق في كتابنا الكبير في المحبة الذي سميناه: المورد الصافي والظل الوافي)^(١) وقد ذكر البغدادي هذا الكتاب^(٢).

١٦ - نور المؤمن وحياته: ذكره ابن رجب^(٣) وابن العماد^(٤) والبغدادي^(٥) وذكره الغنيمي من ضمن الكتب المخطوطة^(٦).

**

(١) انظر: طريق الهجرتين: ص ١٠٣ .

(٢) انظر: هدية العارفين: ١٥٩/٢ .

(٣) انظر: ذيل طبقات الحنابلة: ٤٥٠/٢ .

(٤) انظر: الشذرات: ١٦٨/٦ .

(٥) انظر: هدية العارفين: ١٥٩/٢ .

(٦) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٧ .

(٧)

في موضوعات متفرقة

- ١ - أسماء مؤلفات ابن تيمية: طبع هذا الكتاب سنة ١٣٧٢هـ وعدد ما ذكر فيه ٣٤ كتاب وفي العقيدة ١٣ كتاباً، وقد طبعت هذه الرسالة أيضاً بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد؛ نشر دار الكتاب الجديد.
- ٢ - بطلان الكيمياء من أربعين وجهاً: ذكره معظم المترجمين لابن القيم^(١)، وذكره الغنيمي ضمن الكتب المخطوطة^(٢)، وكانت الكيمياء آنذاك نوعاً من الشعوذة لتحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب.
- ٣ - الطب النبوى: وقد طبع مراراً، وقام الدكتور عبد الغنى عبد الخالق بتحقيقه، وهو جزء من كتاب زاد المعاد.
- ٤ - الطاعون: ذكره ابن العماد وقال: إنه مجلد لطيف^(٣)، ولعله نفس ما ذكر في زاد المعاد ضمن كتاب الطب النبوى.
- ٥ - طب القلوب: ذكره الزركلى في الأعلام ٦: ٢٨٠ وهو مخطوط في مكتبة الأوقاف ببغداد باسم دواء القلوب رقم (٤٧٣٢) الأخلاق والتصوف.
- ٦ - تدبیر الرئاسة في القواعد الحكيمية بالذکاء والقریحة: انفرد البغدادي في ذكره^(٤)، ويترجح عندي أن الكتاب هو نفسه كتاب الطرق الحكيمية، لأن هذا هو نفس موضوع كتاب الطرق الحكيمية، كما أن البغدادي كثير الوهم في ذلك.

(١) انظر: الذيل: ٤٥٠/٢؛ وطبقات المفسرين: ٩٣/٢؛ والشذرات: ١٦٩/٦.

(٢) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٥.

(٣) انظر: الشذرات: ١٦٩/٦.

(٤) ذكره البغدادي في إيضاح المكتون في الذيل على كشف الظنون: ٢٧١/١.

٧ - تفضيل مكة على المدينة: ذكره معظم المترجمين لابن القيم^(١) وذكره الغنيمي ضمن الكتب المخطوطة^(٢).

٨ - الحاوي: ذكره أحمد عبيد في مقدمة روضة المحبين^(٣).

٩ - الرسالة التبوكية: وهي عبارة عن كتاب سيره ابن القيم من تبوك في الثامن من محرم سنة ٧٣٣ هـ^(٤) طبعت أكثر من مرة وبأكثر من اسم، فقد طبعتها مطبعة المدني باسم «زاد المهاجر إلى ربه» وهذا جوهر موضوعها فعلاً.

١٠ - رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه: بضع صفحات صغيرة لا زالت مخطوطة في المكتبة محمودية بالمدينة المنورة رقم ٣٢١/٨^(٥).

١١ - فضل العلم وأهله: ذكره ابن العماد والداودي^(٦)، وذكره ابن رجب باسم فضل العلماء^(٧)، وذكره المؤلف في مفتاح دار السعادة^(٨)، وفي طبقات المكلفين^(٩).

١٢ - الفوائد: وهو كتاب ضم مجموعة من الفوائد عن العقيدة ومعظمها في الرقائق، وقد طبع مراراً، وقد نشرته دار النفائس بيروت سنة ١٩٧٨ م الطبعة الثالثة بتخريج وحواشي أحمد راتب عمروش.

**

(١) انظر: الذيل: ٤٥٠/٢؛ وطبقات المفسرين: ٩٣/٢؛ والشدرات: ١٦٩/٦.

(٢) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٥.

(٣) انظر: مقدمة روضة المحبين، أحمد عبيد.

(٤) انظر: تعليق قصي محب الدين الخطيب في أول الرسالة.

(٥) انظر: التقريب، بكر أبو زيد: ٢٠٧/١.

(٦) انظر: الشدرات: ١٦٩/٦؛ وطبقات المفسرين: ٩٣/٢.

(٧) انظر: الذيل: ٤٥٠/٢.

(٨) انظر: مفتاح دار السعادة: ص ٣٠٧.

(٩) انظر: طبقات المكلفين: ص ٩.

(٨)

كتب منسوبة لابن القيم

نسب إلى ابن القيم مجموعة من الكتب إما عن طريق الخطأ، وإما عن طريق التزوير الذي تلجأ إليه بعض دور النشر لمصلحة تجارية، ومن هذه الكتب:

١ - أخبار النساء: طبع مراراً منسوباً لابن القيم، كانت الطبعة الأولى سنة ١٣١٩هـ، وأغلبظن أن الكتاب لابن الجوزي، كما ذهب كثير من الباحثين^(١)، بينما وأنه لم ينسبه إلى أحد من المؤرخين لترجمة ابن القيم.

٢ - المطالب السنية في قمع المراسيم البدعية: وهذه مخطوطة في المكتبة الظاهرية تنسب لابن القيم، مع أن مؤلفها ينقل عن جماعة من المتأخرین، ومنهم السيوطي المتوفى سنة ٩٦١هـ، وقد ولد بعد وفاة ابن القيم بحوالي قرن من الزمان^(٢).

٣ - شرح الشروط العمرية: وهذا ليس كتاباً لابن القيم، وإنما هو بحث تضمنه كتاب أحكام أهل الذمة، ولم يفرده في كتاب آخر، فقام الدكتور صبحي الصالح محققاً أحكاماً أهل الذمة بإفراط هذا البحث بهذا الكتاب المستقل، كانت الطبعة الأولى منه في بيروت سنة ١٣٨١هـ، نشر دار العلم للملائين، ثم نشرت الطبعة الثانية سنة ١٤٠١هـ.

٤ - الكافية الشافية في التحوى: نسبها البعض إلى ابن القيم، ومن هؤلاء الغنيمي الذي ذكرها ضمن الكتب المخطوطة^(٣)، والسباطي في كتابه منهج ابن القيم في التفسير^(٤)، وقد ذكرها باسم شرح ألفية ابن مالك، وهي في الحقيقة لإبراهيم بن الشيخ

(١) من هؤلاء الباحثين الأستاذ عبد الغني عبد الخالق رحمة الله في مقدمته لكتاب الطب النبوى، ومحمد منير آغا في كتاب (نموذج من الأعمال الخيرية): ص ٧٨.

(٢) انظر: التقرير: ٢٤٢/١.

(٣) انظر: ابن قيم الجوزية، الغنيمي: ص ١١٦.

(٤) انظر: منهج ابن القيم في التفسير: ص ٢٢.

شمس الدين بن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٦٧هـ^(١).

٥ – القول القيم مما يرويه ابن تيمية وابن القيم: وهو عبارة عن بحث يقع في ست وستين (٦٦) صفحة من القطع الصغير، نشرته دار مكتبة الحياة؛ بيروت سنة ١٩٧٥م، ويحتوي على أقوال ابن تيمية وابن القيم في فضائل أهل البيت النبوى. والكلام من جمع الناشر، وقد ذكر في مقدمته سبب جمعه لهذه الأقوال ومصدرها من كتب ابن تيمية وابن القيم.

٦ – القياس في التشريع الإسلامي: كتاب مطبوع باسم ابن القيم وشيخه ابن تيمية، ولم يذكره أحد من المترجمين له، وقد نشره محب الدين الخطيب سنة ١٣٤٦هـ، وبين في مقدمته أن الكتاب يحتوى على رسالة القياس لابن تيمية، وعلى مقوله من كتاب أعلام الموقعين، وكانت الطبعة الثالثة من الكتاب سنة ١٣٩٨هـ من منشورات دار الآفاق الجديدة؛ بيروت.

٧ – صفات المناقين: رسالة صغيرة مقتبسة من كلام ابن القيم في مدارج السالكين، وليس كتاباً له. طبعها المكتب الإسلامي في بيروت لأغراض تجارية.

**

(١) انظر: التقرير: ١/٣٧.

(٩)

كتب تمنى ابن القيم تأليفها

ولم يذكرها أحد من المترجمين له ، ولم تنشر حتى الآن . ومن هذه الكتب :

- ١ - تفسير كامل للقرآن الكريم : وقد ذكرنا أن ابن القيم تمنى ذلك في ختام تفسيره لسورة «الكافرون»^(١) .
- ٢ - فضائل النبي ﷺ: وقد وعد بتأليفه في كتابه «جلاء الأفهام»^(٢) .
- ٣ - فضل الجهاد وأهله: وقد وعد بتأليفه في كتابه «طريق الهجرتين»^(٣) .
- ٤ - فضل العسل على السكر: وعد بتأليفه في كتابه «مفتاح دار السعادة»^(٤) .
- ٥ - محاسن الشريعة: وقد تمنى تأليفه في كتابه «بدائع الفوائد»^(٥) .

**

(١) انظر: التفسير القيم: ص ٥٣٥؛ وانظر: بدائع الفوائد: ١٤١/١.

(٢) انظر: جلاء الأفهام: ص ١٦٠.

(٣) انظر: طريق الهجرتين: ص ٦٣٢.

(٤) انظر: مفتاح دار السعادة: ص ٢٦٩.

(٥) انظر: بدائع الفوائد: ١٧٩/٢.

الفصل الخامس

ثقافته وشخصيته العلمية

١ - العوامل المؤثرة في تكوين شخصيته العلمية.

٢ - عالم ثقافته.

(أ) في التفسير.

(ب) في الحديث.

(ج) في الفقه وأصوله.

(د) في اللغة.

(هـ) في العقيدة الإسلامية.

٣ - ميزات منهجه العلمي .

* * *

(١)

العوامل المؤثرة في تكوين شخصيته العلمية

من خلال ما ذكرناه عن حياة ابن القيم وشيوخه ومؤلفاته نجد أنفسنا أمام شخصية علمية لها معالمها البينة، كما أن لها استقلاليتها الواضحة، ولا شك أن هنالك عوامل كثيرة كان لها أثر في تكوين بنية هذه الشخصية. ومن هذه العوامل:

* بيئته الخاصة وال العامة :

هذه البيئة أثر فيها عواملان رئيسان هما:

(أ) أسرته وقد تحدثنا عنها، وبيننا أثر والده عليه حيث كان والده يعيش حياة علمية في ظل مدرسة عريقة من مدارس الحنابلة في دمشق، هي مدرسة الجوزية التي كان قياماً عليها، مما كان له أثر في توجيهه شيخنا ابن القيم، وأخيه زين الدين إلى العلم وطلبه والاهتمام بشؤونه من الصغر.

(ب) بلده دمشق: وقد بينا عند الحديث عن الحالة العلمية لعصره أن دمشق شهدت في ذلك العصر ثورة علمية، ظهرت معالمها في مئات المدارس المعروفة آنذاك، والتي تردد عليها مئات المدرسین الذين أحياوا الحركة العلمية في المدينة من خلال دروسهم ومؤلفاتهم، وقد درس شيخنا ابن القيم على كثير منهم، واطلع على عدد كبير من مؤلفاتهم، ومؤلفات من قبلهم، وقد رأينا مدى اهتمامه بمحالسة هؤلاء العلماء والاستفادة منهم، بل أشار ابن القيم رحمة الله إلى مسألة مهمة جداً في طريقة تلقی العلم، تلك هي مسألة التلقی عن الشیوخ مشافهة بالإضافة إلى الاطلاع على الكتب.

يقول ابن القيم في كتابه (بدائع الفوائد) بعد حديثه عن بعض المسائل اللغوية:

«ولمثل هذه الفوائد التي لا تكاد توجد في الكتب يحتاج إلى مجالسة الشيوخ والعلماء»^(١).

مع هذه المجالسة التي لا يخفى أثرها في توضيح المسائل والتعرف على كثير من اللفظات البدعة، نجد ابن القيم شغوفاً في اقتناء الكتب وقراءتها، وقد تيسّر له من ذلك ما لم يتيسّر لغيره، ولا شك أيضاً أن للحركة العلمية في دمشق أثراً كبيراً في تمكنه رحمة الله من جمع هذه الكتب.

* المذهب الحنفي :

كان ابن القيم فقيهاً حنبلياً، وقد أعجب بفقه الإمام أحمد، وقدّم للمذهب خدمات جيدة من خلال مؤلفاته الفقهية، وعلى رأسها كتابه القيم «أعلام الموقعين» الذي جدد فيه أصول مذهب الإمام أحمد.

وقد حقق فقهاء هذا المذهب نقلة نوعية رائعة وبخاصة في أواخر القرن السابع الهجري، حيث كان أتباع هذا المذهب يجدون عتتاً ومضايقة من المتعصبين للمذاهب الأخرى، ويسمونهم بالخشوية، حتى استطاع علماء هذا المذهب أن يحققوا له انتصاراً كبيراً في مجال انتشاره بين الناس، وإقبال العلماء عليه، وانتشرت مدارس الحنابلة في دمشق حتى عدّ لهم النعيمي إحدى عشرة مدرسة. من أبرزها الجوزية والصدرية والضيائية والعمريّة والصاحبية^(٢).

هذا بالإضافة إلى دار الحديث السكرية التي كانت تعد بمثابة مدرسة حنبلية، لأن كل الشيوخ الذين تعاقبوا عليها من الحنابلة. يقول الأستاذ السنباطي: «وقد تشكّلت من أفواج المتخرجين من مدارس الحنابلة ما يمكن أن يقال عنه عصبة لها شخصيتها المعنوية الخاصة، ولهذه الشخصية معالم وميزات طبعت بها آراء في الفقه والعقائد، واصطبغ بها تفسيرها لأيات القرآن الكريم، ومن أبرز هذه المعالم منهج الحنابلة الذي اشتهروا به، وهو تركيز اهتمامهم على استنباط الأحكام الفرعية من النصوص، ثم يطبقون هذه الطريقة

(١) انظر: بدائع الفوائد: ١٠١/١.

(٢) انظر: الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي: ٢٨/٢ - ١١٥.

في دراستهم للعقائد، وعند تفسيرهم لأيات الكتاب الكريم أو السنة المطهرة^(١). ثم إن المدرسة الحنبلية التزمت مذهب السلف في فهمها لقضايا العقيدة الإسلامية.

وكان على ابن القيم الذي انتوى إلى هذه المدرسة، وأدرك صحة منهجها أن يقوم بتوضيح عقيدة السلف، والرد على المخالفين لها، ونجد ذلك في كتبه واضحاً، ويحتل مساحات شاسعة من مؤلفاته سواء ما كان من ذلك في بيان عقيدة السلف، أو ما كان في الرد على الفرق المنحرفة كالجهمية وغيرهم.

* شيخه ابن تيمية :

وقد تحدثنا عن علاقته مع شيخه ابن تيمية، ولكن الذي يهمنا في هذا الموضوع هو أن هذه العلاقة كان لها أثر كبير في تكوين شخصية ابن القيم، وكان أثر ابن تيمية على ابن القيم يختلف عن أثر غيره من شيوخ ابن القيم.

ولا يشك أحد في بروز لمسات شيخ الإسلام على تلميذه ابن القيم، كيف لا وقد لازمه مدة لا تقل عن ستة عشر عاماً، وجد فيها ابن القيم نفسه أمام شخصية مليئة بالنشاط العلمي، ليس أدل من ذلك على مؤلفات ابن تيمية التي زادت على مائة وخمسين كتاباً، وهي مليئة بالمحن والمواقف القوية الصلبة التي تدل على عمق إيمان أصحابها.

كان لهذا أثره الكبير في شخصية ابن القيم العلمية، فقد حاول ابن القيم أن يتبع خطى شيخه في كثرة التأليف وفي الرد على المنحرفين، من المبتدعين والزنادقة، كما أنه أثر عليه في انتهاج مذهب السلفي، وهذا المذهب بلا شك نهج له أصوله الثابتة ومعالمه الواضحة.

**

(١) انظر: ابن القيم ومنهجه في التفسير، السناطي: ص ٣٩.

(٢)

معالم ثقافته

برزت ثقافة ابن القيم في شتى المجالات، ونجد المترجمين لحياته يصفونه بالمفسر، وبالمحدث، وبالفقية الأصولي، وبالمتكلم، وباللغوي، وغير ذلك، ويعرفون بعلمه الغزير في كل هذه الموضوعات^(١).

وبالفعل فقد ألف ابن القيم رحمة الله في كل هذه الموضوعات، وكانت مؤلفاته مراجع معتمدة في هذه العلوم، فقد تعمق فيها، وكانت له شخصيته الثقافية المستقلة ومنهجه الخاص في ذلك.

(أ) ابن القيم المفسر:

ففي مجال التفسير لم يكتف ابن القيم بتفسير الآيات التي وردت كشاهد في كتبه، والتي جُمع معظمها في «التفسير القيم»، وإنما ارتقى ابن القيم لأن يكون مفسراً حقاً، وإن لم يؤلف تفسيراً متكاملاً للقرآن الكريم^(٢).

كان مفسراً لأنه كان صاحب منهج فريد في التفسير، وقد استطاع الأستاذ محمد أحمد السنباطي أن يوضح معالم هذا المنهج في كتابه المعروف: «منهج ابن القيم في التفسير» هذا المنهج الذي سلكه ابن القيم، اخترقه من بعده جهابذة وأعلام في المشرق

(١) انظر: ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب: ٤٤٨/٢.

(٢) سبقت الإشارة إلى أن ابن القيم تمنى أن يخرج تفسيراً متكاملاً، فقال عند ختام تفسيره لسورة الإخلاص: «وعسى الله الممان بفضله... أن يعين على تعليق تفسير على هذا النمط وهذا الأسلوب» ثم يقول: «وقد كتبت في مواضع متفرقة من القرآن بحسب ما يسمح من هذا النمط وقت مقامي بمكة وبالبيت المقدس والله المرجو إتمام نعمته» انظر: بدائع الفوائد: ١٤١/١.

وال المغرب من عرب وعجم، وكان هذا المنهج متميزاً بطبع شخصيته العلمية مع احتفاظه بعض حلقات الارتباط بمدرسته السلفية الحنبلية وبأستاذه الإمام ابن تيمية^(١).

وقد تحدث الأستاذ السباطي بالتفصيل عن هذا المنهج الذي سلكه ابن القيم، وذكر أسس هذا المنهج ، ومنها:

١ – إبراز الوحدة الموضوعية المتكاملة للسورة القرآنية: ويعتبر ابن القيم في هذا المجال رائداً للمدرسة الحديثة التي تهتم بأن تقدم أمام فسir السورة الإطار العام للأهداف السامية التي جاءت السورة لمعالجتها والربط بين أجزاء هذه السورة.

٢ – تصدير النص القرآني كأصل للمعاني، وأولوية تفسيره بالنص: فابن القيم يحاول أن يعود باللفظ القرآني إلى معناه الأصلي في اللغة، ذلك المعنى الذي كان مستعملاً به في العصر الأول.

وبعد استقصاء هذه المعاني التي يمكن أن تراد من اللفظ، ينسق المعاني التي توصل إليها من استقرائه، ويلازم بيها، وبين المعاني السابقة على اللفظ، والمعنى اللاحقة له في النص القرآني ، ليتمكن من استخلاص المعنى الحقيقي الذي يقصد إليه السياق القرآني .

وابن القيم بهذه الطريقة يهدف إلى أن يكون النص أساساً لجميع المعاني التي يمكن أن تستقى منه، كما يهدف إلى ضرورة أن تكون المذاهب وتصطبغ الأفكار الإسلامية تبعاً للمعاني السليمة التي يمكن أن يدللي بها النص ، لأنه ينبغي أن يكون هو المنطلق للمفاهيم الإسلامية .

٣ – تفسير القرآن بالقرآن أو بالسنة: مما أجمل في موضع قد يكون مفصلاً في موضع آخر، وما ذكر عاماً هنا قد يكون مختصاً هناك، فإن لم يجد المعنى في القرآن لجأ إلى السنة فإنها في الغالب شارحة للقرآن .

٤ – عنايته بدراسة الصياغة القرآنية: وذلك بإبراز ما يتضمنه النظم القرآني من معان بلاغية ومفاهيم دقيقة، وبالغوص في أعماق التراكيب العربية لكشف خفايا هذا النص وأسراره التي جعلته موطن الإعجاز.

(١) انظر: مقدمة السباطي لكتابه «منهج ابن القيم في التفسير»: ص ٩.

ويساعد ابن القيم على ذلك طول باعه وسعة اطلاعه في مجال اللغة.

٥ - اهتمامه بذكر القراءات المختلفة: التي يرتبط بها معنى الآية، والاهتمام بالجانب النحوي لاختيار الرأي الإعرابي الذي يناسب المعنى الذي رآه.

٦ - في تفسير آيات الصفات والأفعال: يعتمد أسس مذهب السلف في فهم هذه النصوص، ويقوم منهجه في ذلك على إثبات صفات الكمال لله تعالى حسبما وصف به نفسه، أو وصفه به نبيه ﷺ، ونفي ما نفى سبحانه عن نفسه أو نفاه عنه نبيه ﷺ.

٧ - إعراضه الكامل عن الإسرائييليات.

هذه هي الأسس التي يقوم عليها منهج ابن القيم رحمه الله في التفسير، وقد ذكرها الأستاذ السنباطي في كتابه، وقدّم الأمثلة من تفسير ابن القيم عند كل أساس من هذه الأسس، مما لا مجال لذكره هنا^(١)، وهي بلا شك أساس قيمة تدل على مدى ما وصل إليه ابن القيم في هذا المجال، وتجعله صاحب مدرسة في التفسير، استفاد منها كثير من المفسرين من بعده.

(ب) ابن القيم المحدث :

اهتمام ابن القيم بالحديث لا يحتاج إلى دليل أو برهان، فالأدلة من الكتاب والسنة معتمده في كل آرائه وهي سمة بارزة له في كل مؤلفاته.

لذلك كان على ابن القيم أن يتضلع في علم الحديث، وكان فعلاً كذلك.

وهو يعتبره عملاً ضرورياً لا فلاح لأحد إلا به، ويدرك ذلك في مقدمة كتابه «تهذيب مختصر سنن أبي داود» فيقول: (... فإن أولى ما صرفت إليه العناية، وجرى المتسابقون في ميدانه إلى أفضل غاية، وتنافس المتنافسون فيه، وشمر إلى العاملون، العلم الموروث عن خاتم المرسلين، الذي لا نجاة لأحد إلا به، ولا فلاح له في داريه إلا بالتعلق بسيبه... فالوصول إلى الله وإلى رضوانه بدونه محال، وطلب الهدى من غيره هو عين الضلال...)^(٢).

(١) انظر: منهج ابن القيم في التفسير، محمد السنباطي: ص ٨١ - ١٥٩.

(٢) انظر: تهذيب مختصر سنن أبي داود: ١٩/١. المطبوع على هامش عون المعبود، شرح سنن أبي داود، لأبي الطيب العظيم آبادي، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان.

وكتاب ابن القيم هذا لم يقتصر على الاختصار والتلخيص لمختصر المنذري بل تعقب على أحاديثه، ولم يسلم بحكم أبي داود أو المنذري على سنته بل دق وحق وعقب.

وقد لخص ابن القيم عمله في كتابه بقوله: (... فهذبته على نحو ما هذب هو (المنذري) به الأصل، وزدت عليه من الكلام على علل سكت عنها أو لم يكملها، والتعرض إلى تصحيح أحاديث لم يصححها، والكلام على ستين مشكلة لم يفتح مقلها، وزيادة أحاديث صالحة في الباب لم يشر إليها، وبسطت الكلام على مواضيع جليلة، لعل الناظر لا يجدها في كتاب سواه، فهي جديرة بأن تثنى عليها الخناصر، وبعض عليها بالنواجز^(١)).

وبالجملة، فإن القاريء لكتاب ابن القيم هذا يجد اهتمامه بالمتن والسند معاً، فهو يورد في شرحه لفتات جميلة في المعنى ويتحدث عن سند الحديث مصححاً أو مضعفاً بكلام طويل يدل على مدى اطلاعه الواسع على علم الحديث.

وإذا رجعنا مثلاً إلى زاد المعاد، وقد رتب فيه أبواب الفقه، وبين هدي رسول الله ﷺ فيها، وجدنا أنه عندما يتعرض لأراء الأئمة والعلماء في المسألة الفقهية يستعرض أدلةهم التي استندوا إليها، ثم يستخدم علمه في الحديث عند معارضته لرأي ما.

فبعد حديثه عن صلاة الضحى واستعراضه آراء العلماء المختلفة في حكمها، وذكر أدلةهم، يرجع رأي القائلين بأنّها سنة يكره الدوام عليها. ويعتمد في حكمه على ما رجحه من الأحاديث الدالة على هذا القول، ويرد الأحاديث الأخرى، ويبين الضعف منها والموضوع. فيقول: ومن تأمل الأحاديث المرفوعة وآثار الصحابة وجدها لا تدل إلا على هذا القول.

أما الأحاديث الدالة على المداومة عليها فيقول عليها: وعامة أحاديث الباب في أسانيدها مقال، وبعضها منقطع وبعضها موضوع لا يحل الاحتجاج به، ويعقب على

(١) انظر: تهذيب مختصر سنن أبي داود: ٢٤ / ١ - ٢٥. المطبوع على هامش عون المعبد شرح سنن أبي داود، لأبي الطيب العظيم آبادي، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان.

حديث رواه الحاكم في مستدركه فيقول بعد بيان أنه موضوع: فيما عجبًا للحاكم كيف يتحقق بهذا وأمثاله^(١).

وأخيرًا لا بد من الإشارة إلى أن ابن القيم رحمة الله له كتاب خاص في هذا الباب وهو كتابه «المنار المنير في الصحيح والضعيف» وهو في كل حديث ضعيف يبين سبب ضعفه من خلال سنته.

(ج) ابن القيم الفقيه الأصولي:

ابن القيم فقيه حنفي، أعجب بمذهب الإمام أحمد، إلا أنه لم يتقيّد به تقييداً المعصبيين للمذاهب، الذين أعرضوا عن الدليل واكتفوا بقول الأئمة، وتعصب بعضهم لقول إمامه حتى لو خالف الحديث الصحيح.

ولذلك فإن ابن القيم رغم إعجابه الشديد بمذهب الإمام أحمد إلا أنه خالفه في بعض المسائل، وعلى رأس هذه المسائل المسألة المشهورة (طلاق الثلاث).

لقد بلغ ابن القيم رحمة الله مرتبة الاجتهاد، وقد وصفه كثير من مترجميه بالمجتهد المطلق^(٢).

وهذا صحيح لا شك فيه، ولا يتناقض مع كونه فقيهاً حنبلياً، لأنَّه ما قبل مسألة من فقه الإمام أحمد إلاَّ بعد دراستها ومعرفة موافقتها للدليل.

هذا بالإضافة إلى أنه كان له باع طويلاً في الفقه فقد أفتى ودرس، وكتب مؤلفات كثيرة في الفقه ذكرناها عند الحديث عن مؤلفاته.

واسميت هذه المؤلفات الفقهية باعتمادها على الأدلة من الكتاب والسنة، كما برزت فيها مقدرة ابن القيم على فهم النصوص وحسن الاستنباط منها. أما في الأصول فيكتفي دليلاً على تبحّره في هذا العلم كتابه (أعلام الموقعين).

(١) انظر: زاد المعاد: ٣٥٧/١ - ٣٥٨.

(٢) انظر: الدر الطالع، الشوكاني: ١٤٣/٢؛ وانظر: شذرات الذهب: ٦/١٦٨.

(د) ابن القيم اللغوي:

أتيح لابن القيم رحمة الله أن يتلقى علم العربية على يدي كبار علماء النحو واللغة في دمشق، وقد ذكرنا اثنين من أشهر شيوخه في هذا الموضوع، فرأى عليهما أشهر كتب النحو المعتمدة آنذاك، الأول: أبو الفتح بن أبي الفضل البعلبي، وقد ذكر الصفدي^(١) أن ابن القيم أخذ عنه العربية، فقد قرأ عليه كتاب الملخص لأبي البقاء، ثم قرأ الجرجانية (وهي كتاب الجمل في النحو لعبد القاهر الجرجاني)، كما قرأ عليه ألفية ابن مالك وأكثر الكافية الشافية وبعض كتاب التسهيل لابن مالك.

وابن مالك هو إمام النحو في عصره، وقد توفي سنة ٦٧٢ هـ في دمشق^(٢) وهو من العلماء الذين نالت كتبهم حظوة كبيرة عند الناس منذ عصره وحتى يومنا هذا.

أما الشيخ الثاني الذي أفاد منه ابن القيم في هذا الباب فهو مجد الدين التونسي المتوفى سنة ٧١٨ هـ، وكان شيخ النحو والباحثين كما قال صاحب الشذرات^(٣).

وقد ذكر الصفدي أن ابن القيم قرأ قطعة من كتاب المقرب؛ وهو كتاب في النحو لابن عصفور النحوي المتوفى سنة ٦٦٣ هـ^(٤).

فاطلاع ابن القيم على هذه الكتب التي تعدّ أمهات المراجع في العربية، وتلمذته على هذين الشيفتين العريقتين في هذا العلم وعلى غيرهما من الشيوخ جعل عنده ثراءً كبيراً في هذا الميدان.

وتطهر مقدرة ابن القيم اللغوية واضحة من خلال أسلوبه في مؤلفاته حيث تظهر عبارته القوية وتركيباته الرائعة.

والقارئ لكتاب بدائع الفوائد يجد المعلومات اللغوية الهائلة التي تضمنها هذا الكتاب، والتي تدل على العلم الوافر لصاحبه.

وقد استطاع الدكتور أحمد ماهر البكري في كتابه «ابن القيم اللغوي» أن يطلعنا

(١) انظر: الوافي بالوفيات، الصفدي: ٢٧١/٢.

(٢) انظر: البداية والنهاية: ٢٦٧/١٣.

(٣) انظر: شذرات الذهب: ٤٧/٦.

(٤) انظر: الوافي بالوفيات، الصفدي: ٢٧١/٢.

على مجالات الإبداع عند ابن القيم في هذا الموضوع، وأن يثبت لنا أن ابن القيم كان عالماً لغويًا، وإن لم تبرز شهرته وتكثر مؤلفاته في هذا المجال، كما عرفت مؤلفاته في مختلف موضوعات العلوم الإسلامية، ولعل السبب في ذلك هو أن ابن القيم كان يعتبر دراسة اللغة وسيلة لفهم نصوص الكتاب والسنّة، وخدمة للعلوم الإسلامية، وجعل مجالها التطبيقي، النصوص القرآنية والأحاديث النبوية^(١). وإذا كان الأصولي لا بد له من إماماة باللغة، فإن ابن القيم كان إماماً مجلياً في كل من الأصول واللغة على السواء.

ولا يتسع بنا المقام هنا للحديث المطول عن لغوية ابن القيم، فقد تحدث الدكتور البكري عن هذا الموضوع مفصلاً، وبين أن لابن القيم لغات لغوية وبلاعية شملت أصول النحو وفرعياته.

ونجد من المناسب أن نشير إلى منهج ابن القيم في اللغة، فقد ذكر الدكتور طاهر حمودة أن لابن القيم في درس اللغة منهجاً خاصاً متميزاً. ومن أشهر ميزات هذا المنهاج^(٢).

١ - حاول وصل اللغة بالحياة، بمعنى أن دراسة ابن القيم للغة استطاع استخدامها في العلوم المختلفة، تؤثر فيها، وتتأثر بها.

٢ - إدراكه وجوب الربط بين فروع الدرس اللغوي والاستعانة بكل منها على فهم الآخر، مع الاستعانة بها جميعها في سبيل الوصول إلى المعنى.

٣ - محاولة وصل أفكار علماء الأصول بأفكار اللغويين.

٤ - إدراكه الوعي لوظيفة النحو بخاصة واللغة بعامة وأهميتها في فهم النصوص، وذلك يتمثل في تسخيره المعنى، واستئماره في خدمة التحليل النحوي المسمى بالإعراب، لا سيما في كتابه (بدائع الفوائد).

هذه الخصائص تدلنا على المقدرة الفائقة التي وصل إليها ابن القيم في مضمون

(١) انظر: ابن القيم اللغوي، البكري: ص ٥٩.

(٢) انظر: ابن القيم وجهوده في الدرس اللغوي، د. طاهر حمودة: ص ٦٧ - ٧٢.

اللغة العربية، وهذا المنهج في الحقيقة هو الذي يهمنا في الدراسة الشرعية، بل هو الغاية الرئيسة في اهتمامنا بالدرس اللغوي.

(هـ) ابن القيم حارس عقيدة أهل السنة:

مع أن بعض المתרגمين لابن القيم يصفونه بالمتكلم^(١) إلا أنني ما أحبيت أن أعطيه هذا الوصف لأن موقف ابن القيم من علم الكلام معروف، فهو يريد للعقيدة الإسلامية أن تعود إلى فهم السلف الصالح، قبل أن تختلط بشوائب علم الكلام.

ومن الخطأ الشائع عند كثير من المصنفين إطلاق علم الكلام على كل ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية، أو الرد على خصومها من أصحاب الأهواء والملل المختلفة.

أما هذه الموضوعات فقد كان ابن القيم فارسها، فقد كتب في الأصولين، واهتم كثيراً في علم أصول الدين، وقد سار على نهج شيخه ابن تيمية في العقيدة، فكانت عقيدته وفق عقيدة السلف التي حاول جاهداً إبرازها والدفاع عنها في مؤلفاته التي ذكرناها.

لقد عرف ابن القيم بقوة حجّته، وبترتيب أدلة التي يدلّيها أمام خصمه.
وقد فرض عليه العصر الذي عاشه أن يكتب في هذا الموضوع كثيراً.

لقد أدى دخول التتار البلاد الإسلامية إلى احتدام الصراع المذهبية بين الشيعة والسنّة، وقد رأينا موقف الوزير ابن العلقمي في مؤامرة تسليم بغداد، كما رأينا استعانة الفاطميين بالفرنجة ضد السلاجقة، وهذه الأحداث من شأنها إظهار الخلافات، ولذلك رأينا اهتمام ابن القيم بالكتابة حول هذا الموضوع؛ فكان كتابه: الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، وكتابه: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية.

كما لاحظنا موقف النصارى الحاقد عند دخول المغول إلى العالم الإسلامي، وكيف أن النصارى تعاملوا مع هولاكو والذي أعطاهم وثيقة أطلق فيها الحرية لهم، ودخلوا دمشق يرفعون الصليب ويخطبون ضد الإسلام.

(١) انظر: شذرات الذهب: ١٦٨/٦؛ ومعجم المؤلفين: ١٠٦/٩.

وهذه الأجراء أيضاً كان لها علاقة وثيقة في اهتمام ابن القيم لأن يكتب في الرد على اليهود والنصارى كتابه الذي بين أيدينا، وكتابه إغاثة الملهفان الذي احتل فيه الحديث عن اليهود والنصارى مساحة لا بأس بها.

لقد كان لابن القيم ولشيخه ابن تيمية من قبله أثر كبير وفضل لا شك فيه على إحياء عقيدة السلف، في عصر كثُر فيه متعصبو المذاهب وكثُرت فيه الفرق الضاللة، وبخاصة الفرق الباطنية من الإسماعيلية والقرامطة وغيرهم من سماهم ابن القيم بالمعطلة، والنفاة، لأنّ مذهبهم كان يتضمن نفي صفات الله تعالى.

**

(٣)

مميزات منهجه العلمي

كان ابن القيم رحمة الله صاحب أسلوب متميز في منهجه العلمي، يظهر جلّياً في مؤلفاته المتنوعة، التي برزت من خلالها شخصيته العلمية القائمة على التحرر في التفكير وذم التقليد، وقد أتاحت له سعة اطلاعه على التعرّف على أقوال الأئمة والعلماء في كل مسألة كان يتعرّض لها، لكنه كان يناقش أقوال هؤلاء الأئمة دون أن يتّصّب لمذهب معين، وإنما يسير تبعاً للأدلة. ولا شك أن للمدرسة السلفية التي كان ابن القيم أحد أعمدتها في ذلك العصر أثراً بارزاً في صياغة هذه الشخصية العلمية.

ونستطيع باطلاعنا على مؤلفات ابن القيم أن نتعرّف على مميزات منهجه في التأليف والبحث، ونعرف كذلك على مميزات أسلوبه في عباراته وهو حقيقة مبدع من الوجهتين.

مميزات منهجه في التأليف والبحث :

١ - إبراز الأدلة من الكتاب والستة :

ويتضح أثر عناية ابن القيم بالنصوص الشرعية في طريقة عرضه للأبحاث الفقهية، حيث يعني غاية العناية بحشد النصوص الشرعية المتصلة بالموضوع، ويتحرى صحة ما ورد فيها من السنة، ويقوم بالترجيح بين هذه النصوص إذا كان ثمة تعارض^(١).

وقد كان هذا المنهج الذي استقاه ابن القيم من شيخه ابن تيمية، وتعود جذوره إلى الأصول التي وضعتها المدرسة السلفية الحنبلية، كان هذا المنهج مخالفًا لكثير من فقهاء ذلك العصر الذين تعصّبوا لمذاهبهم، واهتموا بالأدلة المنطقية والمناقشات الجدلية.

كان ابن القيم يتّبع هذه الأدلة ويقوم باستقصائها دون تعصّب لرأي سابق عليها،

(١) انظر: ابن قيم الجوزية، د. طاهر حمودة: ص ٥٧.

لأن المنهج الخاطئ الذي مارسه كثير من المؤلفين يقوم على وضع الرأي قبل معرفة النصوص ، وبعد أن يقرر رأيه يبحث بين النصوص عما يؤيد الرأي الذي قرّره .

٢ - التعمق في البحث وطول النفس :

فلا يطرح فكرة إلا ويشبعها بحثاً، ويقدم لها من الأدلة النقلية والعقلية ما يترکها أمام القارئ حقيقة لا مراء فيها، وقد شهد له ابن حجر بذلك فقال: «وهو طويل النفس فيها يعني الإفحاح جهده فيسبّب جداً»^(١).

ويدل هذا التعمق على السعة والشمول، وكثرة الاطلاع عند ابن القيم، وقد كان يفرد الكتاب الكامل للمسألة الواحدة، ويتبين هذا من عنوانين كتبه .

٣ - الأمانة العلمية والدقة في النقل :

قلّ من المؤلفين السابقين من اهتم بمسألة التوثيق وعزرو كل قول إلى صاحبه، ذلك لأن المسألة لم تكن في نظر أولئك العلماء تعدو نشر العلم للناس ليستفيدوا منه بغض النظر عن قائله .

لكن مؤلفات ابن القيم تشهد على اهتمامه – في الغالب – بهذه المسألة .

فبالنسبة للأحاديث النبوية قلّ ما يورد حدیثاً بغير مخرجه .

وكذلك الأمر بالنسبة لأقوال العلماء التي ينقلها، يذكر اسم أصحابها أو أسماء الكتب التي تحويها، وسندين عند الحديث عن مصادر كتاب هداية الحيارى أسماء الكتب التي ذكرها ابن القيم كمصادر نقل منها في كتابه، وهو إذا لم يذكر اسم الكتاب فإنّه على الأقل يذكر صاحب القول .

٤ - حسن الترتيب وجودة التأليف :

حتى إن البعض اعتبرها في هذه الميزة تفوق كتب شيخه ابن تيمية^(٢) .

٥ - الاستطراد التناصي :

والاستطراد هو أن يمسك الباحث عن الاسترسال في صلب الموضوع الذي يتناوله

(١) انظر: الدرر الكامنة: ٤/٢١.

(٢) من هؤلاء الأستاذ التدويني في كتابه: رجال الفكر والدعوة في الإسلام: ص ٣١٨.

إلى موضوعات أخرى ثم يعود إلى موضوعه^(١).

ولئن كان البعض يعتبرون الاستطراد عيباً من عيوب التأليف إلا أنه في الحقيقة دليل على سعة العلم والاطلاع، وهو محاولة من المؤلف لتشويق القارئ، وإفادته، وبخاصة إذا كان الاستطراد متناسباً مع الموضوع.

وفي كتاب هداية الحيارى – الذي بين أيدينا – بربت هذه الخاصية لابن القيم، فعند الرد على شبهة أخذ العلم عن الصحابة ومعظمهم من العوام، أسهب في حديثه عن فضل الصحابة وعلمهم، وكتب ما يصلح أن يكون رسالة خاصة في هذا الموضوع، وعند حديثه عن بشارات الكتب السابقة بنبأ محمد ﷺ يستطرد إلى تفصيل ما ذكره كتب أعلام النبوة من البشارات والنبوات والروايات الواردة في ذلك.

والجدير بالذكر أن ابن القيم لم يفعل ذلك عن سهو أو غفلة بل يقصده، وينبه إليه في بعض الأحيان، ففي كتابه «الروح» عند حديثه عن الفرق بين النفس الأمارة والنفس المطمئنة يستطرد في ذكر جملة من الفروق الشرعية، ثم يقول: وهذا باب من الفروق مطوى، ولعله إن ساعد القدر أن نفرد فيه كتاباً كبيراً... ولا تستطل هذا الفصل فإنه من أفعى فصول الكتاب وال الحاجة إليه شديدة^(٢).

وتكثر مثل هذه الاستطرادات في كتابه «بدائع الفوائد» ومن ذلك ما حصل معه عند حديثه عن وجه تقديم بعض الكلام على بعض في الذكر الحكيم، فقد استطرد للحديث عن معنى السمع والبصر بعد الإسهام في سبب تقديم السمع على البصر، ثم قال: «ولا تستطل هذا الفصل فإنَّه أعلم قصد بالكلام، فليعد إليه»^(٣).

٦ - الاقتباس:

والاقتباس هو أن يدخل المؤلف في كلامه بعض كلام غيره وأكثر ما يكون من كلام الله وكلام رسول الله ﷺ.

ويلاحظ هذا الأسلوب في كتابات ابن القيم، وبخاصة في مقدمات كتبه، ونلاحظ

(١) انظر: ابن القيم من آثاره العلمية، أحمد البقرى: ص ٢١٩.

(٢) انظر: الروح، ابن القيم: ص ٢٦٠.

(٣) انظر: بدائع الفوائد: ١/٧٣.

الكثير منها في كتابه «هداية الحيارى»^(١) فانظر إلى عبارته مثلاً: «وكيف لا يميز من له أدنى عقل يرجع إليه بين دين قام أساسه وارتفاع بناؤه على عبادة الرحمن... وبين دين أنس بنانيه على شفا جرف هار، فانهار بصاحبها في النار». وهذا اقتباس واضح من القرآن الكريم.

كما استعمل ابن القيم الاقتباس من السنة النبوية وفي نفس كتاب «هداية الحيارى»، وذلك عند حديثه عمن رضي بالثلثة ديناً حيث يقول عنه: «وإذا سئل في قبره من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ قال آه آه لا أدرى، فيقال له: لا دريت ولا تلقيت...». ثم يكمل مضموناً من القرآن الكريم: «إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور وقام الناس لرب العالمين، ونادي المنادي: وامتازوا اليوم أيها المجرمون».

وتدل هذه الاقتباسات على محفوظات ابن القيم الكثيرة، فهو يقتبس من القرآن والسنة والشعر والأمثال والأقوال المأثورة^(٢).

٧ - الشواهد الشعرية:

ابن القيم شاعر عريق وإن لم يكتب ديواناً خاصاً له، والسبب في ذلك هو أنه لم يتخذ الشعر صنعة له، بل استخدمه في تبسيط علمه وسرد أفكاره، ومن أكبر الأدلة على مقدراته الشعرية قصيده التونية المعروفة التي بلغت أبياتها ما يقارب ستة آلاف بيت، هذا بالإضافة إلى أشعار كثيرة غيرها له.

ومن خلال مؤلفات ابن القيم يظهر أنه كان يحفظ كثيراً من الشعر، تجده في ثنايا كتبه يستخدمه كشواهد شعرية لتوضيح المعاني اللغوية في الغالب، أو يستعمله بديلاً عن المثل في حالات أخرى.

٨ - ضرب الأمثال:

ولابن القيم كتاب خاص في أمثال القرآن، وقد ظهر ذلك في أسلوبه بالكتابة أيضاً، فكثيراً ما يستعير الأمثلة لتوضيح كلامه.

(١) انظر: مقدمة المؤلف لكتاب هداية الحيارى.

(٢) انظر: ابن قيم الجوزية، د. طاهر حمودة: ص ٥٩.

ففي كتابه روضة المحبين يقول: «إن الحديد إذا لم يستعمل غشيه الصدأ حتى يفسده، كذلك القلب إذا عطل من حبّ الله والسوق إليه وذكره غلبه الجهل حتى يمتهن وبهلكه»^(١).

٩ - عذوبة اللفظ وقوة البيان:

وهذا ما شهد له به الشوكاني حيث يقول عنه: «وله من حسن التصرف مع العذوبة الزائدة وحسن السياق ما لا يقدر عليه غالب المصنفين بحيث تعشق الأفهام كلامه ويمثل إليه الأذهان وتحبه القلوب»^(٢).

١٠ - براعته في الجدل وفن النقاش:

فهو يبسّط آراء مخالفيه ويبدأ بالرد عليها رأياً رأياً يفندها بالأدلة والبراهين.

أما عبارة ابن القيم فأهم ما تتميّز به أنها تجمع بين الواضحة والقوية، فأسلوبه بعيد عن العبارة الفاحصة والكلمات الغريبة، حتى أني لاحظت من خلال كتابه الذي بين أيدينا، أن معظم الكلمات التي احتاجت الرجوع إلى قواميس اللغة – وهي قليلة – معظمها مما نقله عن غيره.

ومما لاحظته على عبارته أنه يستعمل المحسنات اللفظية كالسجع والجناس والطباق، وبخاصة في مقدمات كتبه، وقد ظهر ذلك كله في مقدمة هداية الحيارى، وفي معظم كتبه كذلك، لكنه قلما يستعمل هذه المحسنات في صلب موضوعه وفي معرض ردّه ونقاشه.

**

(١) انظر: روضة المحبين: ص ١٦٧.

(٢) انظر: البدر الطالع: ٢ / ١٤٣.

الباب الثاني

كتاب هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى

الفصل الأول (إثبات نسبة هذا الكتاب إلى ابن القيم) :

(١) من مؤلفات ابن القيم.

(٢) من كتب المترجمين لحياة ابن القيم.

الفصل الثاني (موضوع الكتاب وأسلوبه وسبب تأليفه).

الفصل الثالث (مصادر الكتاب).

الفصل الرابع (وصف مخطوطات الكتاب).

الفصل الخامس (أهمية الكتاب).

(١) جوانب أهميته.

(٢) مقارنة بين هداية الحيارى وبين بعض المؤلفات في نفس الموضوع.



الفصل الأول

إثبات نسبة هذا الكتاب إلى ابن القيم

(١)

من مؤلفات ابن القيم

لقد أشار ابن القيم إلى كتابه هداية الحيارى في كتبه مصرياً باسم هذا الكتاب.

ففي كتابه أحكام أهل الذمة، أشار ابن القيم إلى كتاب هداية الحيارى عند حديثه عن مسألة الطريفا من الذبائح، وهو ما لصقت رئته بالجنب هل يحرم علينا لكونهم لا يعتقدون حله أم لا؟.

ويؤيد ابن القيم قول الجمهور بعدم تحريمها، لأن تحريمها إنما علم من جهة اليهود، لا بنص التوراة، فلا يقبل قولهم فيه، بخلاف تحريم ذي الظفر والشحوم المحرمة.

ثم قال: وقد ذكرنا في كتاب (الهداية) سبب هذا التحريم، ومن أين نشأ، وأن التوراة لم تحرمه، وأنهم غلطوا على التوراة في تحريمها، وذكرنا نص التوراة وأنهم حملوه على غير محله^(١).

وبالفعل فقد فصلت مسألة الطريفا في هداية الحيارى.

فقد بين ابن القيم في هداية الحيارى أن الطريفا المحرمة هي الفريسة حيث نص

(١) أحكام أهل الذمة: ١/٢٦٧ - ٢٦٩.

التوراة: «ولحم في الصحراء فريسة لا تأكلوا! للكلاب تطروحونه»^(١) وأن المفهوم الذي اختلقوا للطريفا، وهو ما لصقت رئته بالجنب، لم يؤخذ من التوراة، وإنما أخذ من كتاب اختلقوا وسموه: «هلكت شحيطاً» وتفسيره «علم الذبابة»^(٢).

وقد ذكر ابن القيم مسألة الطريفا أيضاً في إغاثة الهافنان^(٣)، ويلاحظ التشابه التام في النص، وأنه استعمل في الإغاثة نفس العبارات التي استعملها في الهدایة، مما يؤكّد نسبة الهدایة إلى ابن القيم. فالمسألة مجملة في أحكام أهل الذمة مفصلة في إغاثة الهافنان، وفي هداية الحيارى.

**

(١) سفر الخروج/٢٢.

(٢) انظر: ص ٤٧٠ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: إغاثة الهافنان: ٢ / ٣٣٣ - ٣٣٠، تحقيق محمد حامد الفقي.

(٢)

من كتب المترجمين لحياة ابن القيم

لم يشر من المؤرخين لترجمة ابن القيم إلى كتابه هداية الحيارى، سوى صاحب كشف الظنون^(١)، والبغدادي^(٢)، وأحمد عبيد^(٣) وأشار بقية المترجمين إلى كتابه «جوابات عابدي الصليبان» كما أسلفنا.

ويقيننا أن كتاب الجوابات هو نفس كتاب الهداية للأدلة التالية:

- ١ - لم يشر المترجمون الذين ذكروا كتابه الجوابات إلى كتابه هداية الحيازى، ولم يجمع بينهما ويعتبرهما كتابين إلا البغدادي في هدية العارفين، وهو كثير الوهم في ذلك، وقد أسلفنا أنه ذكر لابن القيم خمسة وستين كتاباً منها عشرة مكررة.
- ٢ - أن فهارس المخطوطات التي تبني لي أن أطلع عليها ذكرت هداية الحيارى ولم تذكر الجوابات.
- ٣ - أن كتاب هداية الحيارى هو عبارة عن جوابات لسبعة أسئلة ذكرها ابن القيم وأجاب عن كل مسألة منها.
- ٤ - أن تعدد العناوين للكتاب الواحد مألف عنده كثير من المترجمين.

**

(١) انظر: كشف الظنون: ٢٠٣٠ / ٢.

(٢) انظر: هدية العارفين: ١٥٨ / ٢.

(٣) انظر: مقدمة روضة المحبين: ت.

الفصل الثاني

موضوع الكتاب وأسلوبه وسبب تأليفه

موضوع الكتاب محدد في عنوانه «في أجوبة اليهود والنصارى»، وقد احتوى الكتاب على ما يلي :

١ - خطبة الكتاب: وقد ذكر فيها ابن القيم الأديان التي كانت معروفة في الأرض عندبعثة محمد ﷺ، وسبب تأليفه لكتابه هذا.

٢ - أجوبة المسائل: أجاب المؤلف على سبعة أسئلة أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين، وكانت بمثابة شبهة يثيرونها. وهذه الأسئلة هي :
الأول: قد اشتهر عندكم بأن أهل الكتاب ما منعهم من الدخول في الإسلام إلا الرئاسة والمأكلة لا غير.

الثاني: هب أنهم اختاروا الكفر لذلك، فهلاً اتبع الحق من لا رئاسة له ولا مأكلة إما اختياراً وإما قهراً.

الثالث: مشهور عندكم، أن نبيكم كان مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، لكنهم محوه لسبب الرئاسة والمأكلة، والعقل يستشكل ذلك، أفكلهم اتفقوا علىمحوا اسمه من الكتب المنزلة من ربهم شرقاً وغرباً وجنوبياً وشمالاً؟.

الرابع: إن قلتم: إن عبد الله بن سلام وكعب الأحبار، وغيرهما شهدوا لنا بذلك من كتبهم فهلاً أتى ابن سلام وأصحابه الذين أسلموا بالنسخة التي لهم كي تكون شاهدة علينا؟.

الخامس: إنكم نسبتم الأمتين العظيمتين المذكورتين إلى اختيار الكفر على الإيمان

للغرض المذكور، فابن سلام وأصحابه أولى بذلك الغرض لأنهم قليلون جداً، وأصداده كثيرون لا يحصيهم عدد.

السادس: إنكم قد بيتم أكثر أساس شرائعكم في الحلال والحرام والأمر والنهي على أحاديث عوام من الصحابة، ليس لهم بحث في علم ولا دراسة ولا كتابة قبل مبعث نبيكم، وابن سلام وأصحابه أولى أن يؤخذ بأحاديثهم ورواياتهم لأنهم كانوا أهل علم وبحث ودراسة وكتابة قبل مبعث نبيكم وبعده، ولا نراكم تروون عنهم من الحلال والحرام والأمر والنهي إلا شيئاً يسيراً، وهو ضعيف عندكم.

السابع: نرى في دينكم، أكثر الفواحش فيما هو أعلم وأفقه في دينكم، كالزنا واللواء والخيانة والحسد والبغض والغدر والتجرير والتكبر والخيلاء وقلة الورع واليقين، وقلة الرحمة والمرءة والحمية، وكثرة الهلع والتکالب على الدنيا والکسل في الخيرات، وهذا الحال يكذب لسان المقال.

وقد أجاب ابن القيم رحمة الله على هذه المسائل ورد هذه الشبهة بأسلوب مقنع ويتوضّح مفصّل.

٣ - اليهود: فرقهم، وتحريفهم.

٤ - النصارى: أصول عقائدهم وكيف دخلها التحريف، فرقهم واختلافاتها حول طبيعة المسيح عليه السلام، مجتمعهم، ودورها في إفراط التحريف.

٥ - نبوة محمد ﷺ، أدلة ثبوتها، وأحوال المنكري لها.

أسلوب هذا الكتاب :

لقد ظهر في هذا الكتاب أسلوب ابن القيم المميز وقد برزت من خلال هذا الكتاب الميزات الآتية:

١ - التنسيق والترتيب: ونجد ذلك في تقسيمه الكتاب فقد بدأ بخطبة الكتاب التي تعد مدخلاً مناسباً للموضوع، ثم وضع أسئلة سبعة أجاب عن كل سؤال على حدة، وقد قسم كل إجابة إلى فصول يشير بكلمة (فصل) عند بداية كل موضوع جديد.

٢ - تقديم البرهان المقنع والتوضيح المفصل: انظر مثلاً إلى جوابه على السؤال

الثالث الذي يورد تشكيكاً على إمكانية اتفاق أهل الكتاب جمِيعاً على تحريف كتبهم، وأن هذا الإجماع أمر يستشكله العقل. حيث شغلت الإجابة حيزاً كبيراً ضمّ أكثر من مائة صفحة، أعطى فيها الأدلة الواضحة على وجود ذكره عليه السلام في الكتب المتقدمة وأثبت ذلك بالأخبار التي ذكرها من أسلم منهم وبوجوه عقلية. ثم بين اختلافات كتبهم وتناقضاتها، مما يدل على التحرير والتبديل فيها، وذكر الأدلة التي قدمها القرآن الكريم على تحريفهم لكتبهم.

وبعد ذلك تحدث بتوسيع عن بشارات الكتب المتقدمة، حيث أشار إلى تسعه وثلاثين وجهاً، ذكرت تلك النبوءات والبشارات لنبوة محمد عليه السلام.

ثم ذكر الأحاديث الواردة عن صفات محمد عليه السلام في التوراة والإنجيل، واستوعب الروايات الواردة في كتب دلائل النبوة، حول هذا الموضوع.

ونجد أسلوب الإقناع والتوضيح في رده على بعض الشبهات، ونراه يورد الشبهة ويرد عليها رداً شافياً، ومن ذلك الشبهة التي ذكرها مما يوردها القوم للدلالة على إلهية المسيح عليه السلام.

٣ - الإبداع في استخدام الشواهد والنصوص: وهو لا يكتفي بالنصوص من الكتاب والسنة، بل يعرض للقوم أدلة من كتبهم يرد من خلالها على إفکهم وافتراضهم.

٤ - السهولة وعدم التعقيد في الألفاظ: فلم يكن ابن القيم في كتابه هذا يميل إلى السجع أو إلى اختيار الألفاظ الصعبة والجمل المعقدة، فكانت عباراته قوية غير معقدة.

٥ - التضمين والاقتباس: وهو أسلوبان بلاغيان معروfan، استعملهما ابن القيم في كتابه هذا وبخاصة في المقدمة.

٦ - استعمال الشواهد الشعرية: فقد ورد في الكتاب بعض الشواهد الشعرية وإن كانت قليلة لم تتجاوز عشرين بيتاً.

سبب تأليف الكتاب :

يشير ابن القيم في مقدمة كتابه إلى سبب تأليفه له فيقول: (وكان انتهى إلينا مسائل أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين، فلم يصادف عنده ما يشفيه،

ولا وقع دواؤه على الداء الذي فيه، وطن المسلم أنه بضربه يداويه، فسطا به ضرباً، وقال: هذا هو الجواب. فقال الكافر: صدق أصحابنا في قولهم: إن دين الإسلام إنما قام بالسيف لا بالكتاب، فتفرقوا وهذا ضارب وهذا مضروب، وضاعت الحجة بين الطالب والمطلوب.

فشعر المجيب (ويقصد نفسه لأنّه أجاب على تساؤلاتهم وشبيههم) عن ساعد العزم ونهض على ساق الجد، وقام لله قيام مستعين به مفوض إليه يتكل عليه في موافقة مرضاته، ولم يقل مقال العجزة الجهال: إن الكفار إنما يعاملون بالجلاّد دون الجدال، وهذا فرار من الرّحْف وإخلاد على العجز والضعف.

فمجادلة الكفار بعد دعوتهم إقامة للحجّة وإزاحة للعذر ﴿لِيَهُكَمْ مِنْ هُنَّا كُمْ عَنْ بَيْنَهُمْ وَيَحْسِنُ مِنْ حَيٍّ عَنْ بَيْنَهُمْ﴾.

والسيف إنما جاء منفذًا للحجّة مقوّماً للمعاند وحدّاً للجاد ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رَسُولًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقَسْطِ . . .﴾.

ثم يقول: (وسميته «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» وضمته أجوبة المسائل، وتقرير نبوة محمد ﷺ بجمع أنواع الدلائل).

ويظهر من كلام ابن القيم هذا أن العصر كان له أثر ملحوظ في سبب تأليف ابن القيم لكتابه هذا، وأثر الصليبيين لا زال له دوره على العامة في المجتمع الإسلامي في نفوس أهلها.

وكان على العلماء والمصنفين أن يعملوا على ردّ هذه المفتريات وتوضيح العقيدة الإسلامية السليمة من كل الشوائب التي يحاول أعداء الإسلام دسّها على العقيدة النقية، معتبرين أن عملهم هذا إقامة للحجّة وإزاحة للعذر، وقيام بواجب الحراسة للعقيدة.

**

الفصل الثالث

مصادر الكتاب

لدى قراءة هذا الكتاب نجد أن ابن القيم قد اعتمد مجموعة من المصادر استقى منها المادة العلمية التي جاء بها كتابه، وأنه قد اطلع على ما كتبه الذين سبقوه من علماء المسلمين في هذا الموضوع، وأنه رجع إلى نصوص أهل الكتاب، وسمع من بعضهم في مناظراته لهم، والتي أشار إلى إحدى هذه المناظرات بينه وبين أكبر من يشير إليه اليهود بالرئاسة والعلم في مصر.

وبإضافة إلى ذلك يظهر من خلال الكتاب: أن ابن القيم كان يعرف اللغة العبرية، فقد ذكر بعض الجمل باللغة العبرية مثل «هلكت شحيطا» ومعناه «علم الذبحة».

ورد على تسميتهم للذبيحة التي تلتصق بعض أطراف رئتها، باسم طريفاً أي نجس حرام، بأن طريفاً في العبرية تعني المفترسة، وعند حديثه عن اسم رسول الله ﷺ في التوراة يذكر بشارة «وأكثره بمود مود» ويقول إن البعض يقول: إن طائفه قالت: إن هذا صريح اسمه ﷺ، ويدل عليه أن ألفاظ العبرية قريبة جداً من ألفاظ العربية، وهي أقرب اللغات للعربية، وأخذ ابن القيم يورد بعض الكلمات العربية التي يتتشابه معناها بالعربية مع لفظها مثل شماعيل لإسماعيل، وقد شتّخا لقدسك، وישראל لإسرائيل، ويأتي بثلاث جمل عربية كاملة، ويذكر معناها بالعربية، وتتشابه فيهما الألفاظ^(١).

ومن أهم مصادر هذا الكتاب:

- ١ - القرآن الكريم، حيث استشهد كثيراً بأيات من القرآن الكريم.
- ٢ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخه ابن تيمية.

(١) انظر: بتوسع ص ٧٠ من هذا الكتاب.

وقد استفاد ابن القيم من هذا الكتاب، ونقل عنه فصولاً كثيرة حرفياً، وبخاصة بشارات الكتب السابقة بنبوة محمد ﷺ، وقد أشرنا إلى مواضع نقله على هامش الرسالة. كما سنقوم بتوضيح الفرق بين الكتابين فيما بعد.

وكان يشير إليه أحياناً عند بعض نقوله عنه فيقول: قال شيخ الإسلام، وتعقب بعض النسخ على ذلك فتقول: يعني ابن تيمية، ولعل هذا التعقيب من وضع الناسخ لا من كلام ابن القيم، ونقل عنه كثيراً دون الإشارة إليه.

كما أنه لم يذكر اسم الكتاب (الجواب الصحيح) إطلاقاً.

٣ - الكتاب المقدس: فقد حرى هذا الكتاب نصوصاً كثيرة من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد وقد قمت بتأريجها وتوضيح أماكنها في الهامش.

هذه المصادر الثلاثة استفاد منها ابن القيم في معظم موضوعات كتابه. أما بقية المصادر فكانت مختصة بموضوعاتها في الكتاب، ولذلك فستطيع أن تقسمها حسب موضوعاتها:

أولاً - في التفسير:

وال المصدر الوحيد الذي ذكره في التفسير وأشار إليه في مواطن متعددة عند تفسيره بعض الآيات هو تفسير الإمام ابن جرير الطبرى.

ثانياً - في الحديث:

وكتب الحديث التي ذكرها في كتابه هي:

- ١ - صحيح البخاري.
- ٢ - صحيح مسلم.

- ٣ - مسنن الإمام أحمد. ومعظم الأحاديث التي ذكرها كانت منه.
- ٤ - جامع الترمذى.
- ٥ - سنن الدارمى.
- ٦ - المستدرك للحاكم النيسابورى.

وقد اقتصرت على ذكر هذه الكتب التي صرح باسمها في كتابه.

ثالثاً - في السيرة وأعلام النبوة :

وقد أشار في كتابه إلى الكتب الآتية:

- ١ - سيرة ابن إسحق: وقد كثرت استشهاداته بروايات ابن إسحق، ونص عليها، مع أنني وجدت موافقة الروايات التي نقلها لما عند ابن هشام إلا رواية واحدة ذكر أنها من قول ابن إسحق ولم أجدها عند ابن هشام.
- ٢ - المغازي النبوية، لابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هـ: وهو كتاب مطبوع بتحقيق الدكتور سهيل زكار.
- ٣ - مغازي موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ هـ: وقد نص عليه وهو كتاب مخطوط^(١).
- ٤ - دلائل النبوة، لابن قتيبة عبد الله بن مسلم، المتوفى سنة ٢٧٦ هـ: وهو كتاب مخطوط^(٢)، كما أن ابن القيم في غالبظن لم يرجع إليه، لأن النقول التي ذكرها عنه موجودة في الجواب الصحيح، وبنفس النص الذي ذكره ابن القيم.
- ٥ - دلائل النبوة، لأبي بكر البهقي، أحمد بن الحسين، المتوفى سنة ٤٥٨ هـ.
- ٦ - دلائل النبوة، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، المتوفى سنة ٤٣٠ هـ.
- ٧ - الطبقات الكبرى، أو الطبقات الكبير، لمحمد بن سعد كاتب الواقدي، المتوفى سنة ٢٣٠ هـ.
- ٨ - الثقفيات، لابن سعد: أشار إليه ابن القيم في موضع واحد، ولم أثر على كتاب بهذا الاسم.
- ٩ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، ولم ينص ابن القيم على اسمه، لكنه ذكر كثيراً من الروايات في فضل الصحابة منه.

(١) ذكره الدكتور المنجد في كتابه «معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ» ص ١٣٦ ، وقال عنه: وكتابه أصح المغازي، وبين أنه مخطوط ورد ذكره في الرسالة المستطرفة: ص ١١٠ - ١١١؛ وفي عيون الأثر: ٣٤٤/٢.

(٢) ذكر المنجد أنه مخطوط في الظاهرية وهو نفس كتاب أعلام رسول الله المنزلة على رسنه.

رابعاً - في التاريخ :

وقد أشار إلى الكتب الآتية:

١ - تاريخ ابن البطريق المسمى بـ: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، تأليف البطريرك افتيشيوس المكنى بسعید بن البطريق، وقد طبع هذا الكتاب بمجلدين بمطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت سنة ١٩٠٥، ومنه نسخة في مكتبة الجامعة الأردنية، وقد اشترک ابن القیم مع ابن تیمیة فی الجواب الصحیح بالنقل عن هذا الكتاب، حيث نقلًا منه کل ما يتعلق بمجامع النصاری وظروف اضطهادهم على يد ملوك الروم. ویظهر لی أن ابن القیم اختصر ما نقله ابن تیمیة عن ابن البطريق.

٢ - تاريخ البخاري: وقد أشار إليه في موضع واحد عند حديثه عن فضل الصحابة وعلمهم.

٣ - تاريخ الواقدي: وهو غير كتاب المغازی، وقد أشار إليه في هداية الحیاری في موضعین عند ذکرہ لكتب رسول الله ﷺ إلی الملوك والأمراء .
وقد رجعت إلى مغازی الواقدي فلم أجده في الحديث عن هذه الكتب.

خامساً - في الملل والنحل :

لم يشر ابن القیم في كتابه إلى أي من كتب الملل والنحل التي سبقته، ولكنّه أشار إلى كتابين في الموضوع هما:

١ - كتاب أبي عبیدة الخزرجي، المتوفى سنة ٥٨٢ هـ «بين الإسلام والمسيحية»: فقد نقل عن هذا الكتاب دون أن يذكر اسمه أو اسم صاحبه، بل اكتفى بعد ذكره لمناظرة جرت بينه وبين أحد أخبار اليهود في مصر بقوله: «قريباً من هذه المناظرة ما جرى لبعض علماء المسلمين مع بعض اليهود ببلاد المغرب» ثم ساق جزءاً من تلك المناظرة.
وما ساقه موجود بنصه في رسالة أبي عبیدة الخزرجي التي كتبها إلى أحد القسيسين النصارى في الأندلس.

٢ - كتاب «بذل المجهود في إفحام اليهود» لمؤلفه سموئيل بن يهودا: فعند حديثه عن تبديل التوراة ذكر سبباً لذلك عزاه إلى بعض علمائهم الراسخين في العلم من

هداه الله للإسلام، ثم ساق ذلك السبب المنقول عنهم، وهذا النص الذي ساقه موجود في كتاب «بذل المجهود» ومؤلفه كان يهودياً.

وعند حديثه عن فرق النصارى وأقوالهم في طبيعة المسيح عليه السلام رأيت موافقة بعض ما كتبه لما أورده ابن حزم الظاهري المتوفى سنة ٤٥٦ هـ في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل، ولما كتبه أبو الفتح الشهري المتوفى سنة ٤٨٥ هـ في كتابه الملل والنحل .

سادساً – ما سمعه ابن القيم شخصياً من بعض أهل الكتاب الذين ناظرهم :

ومن ذلك المناظرة التي أشار إليها في مصر. أو ما سمعه من أسلم من أهل الكتاب ومن ذلك قوله: (وقد قال لي ولغيري بعض من أسلم من علمائهم...).

**

الفصل الرابع

وصف مخطوطات الكتاب

لقد حصلت على أربع نسخ مخطوطة قابلت بينها وهذه النسخ هي :

١ - نسخة الأصل التي نسختها: ورمزت لها بكلمة الأصل، وهي نسخة دار الكتب المصرية رقم (٢١٣٦٩ س)، عدد أوراقها (١٤٦) ورقة، كل ورقة من صفحتين، وتحتوي كل صفحة على ثلاثة وعشرين سطراً قياس ١٥ × ٢٠ سم.

وعلى هذه النسخة هوماوش بنفس خط الناسخ، وهي هوماوش تفسيرية لبعض الكلمات الغامضة وتوضح بعض الأفكار المبهمة.

هذه النسخة كتبت بخط نسخ جيد، ولم يكتب عليها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ.
وفي آخر هذه النسخة وجدت ورقتين احتوتا على قائمة لبعض المراجع في موضوع النصرانية، خطهما يختلف عن خط الناسخ وإن حاول تقليده.

وقد أحقتا بالنسخة حديثاً، لأن كاتبها أشار لكتاب ريحانة النفوس في أصل الاعتقادات والطقوس، وذكر أنه طبع في بيروت سنة ١٨٥٤م، كما أشار إلى كتاب إظهار الحق لمؤلفه رحمة الله الهندي المتوفى سنة ١٣٠٨هـ الموافق ١٨٩١م وقد ألف كتابه إظهار الحق سنة ١٢٨٠هـ^(١).

٢ - نسخة مكتبةبني جامع: وقد رمزت لها بحرف (ج) وهو الحرف الأول من كلمة (جامع)، وهذه النسخة موجودة في مكتبةبني جامع باستانبول ورقمها (٧٦١) وعدد أوراقها (١٩١) ورقة كل ورقة بصفحتين، ولا هوماوش عليها إلا بعض العبارات أو الكلمات الساقطة سهواً من الأصل، وبنفس خط الناسخ وقد كتبت بخط نسخ جيد.

(١) انظر: مقدمة الأنصارى على الجزء الثانى من إظهار الحق: ٢٢ - ١٥ / ٢ . تحقيق: عمر الدسوقي .

قام بنسخها قاسم بن محمد الرومي بلدًا والمصري موطنًا، وكان الفراغ من نسخها في التاسع والعشرين من شهر رمضان المعظم سنة ١٠٦٦ هـ، وقد دون الناشر ذلك في آخر النسخة.

٣ - نسخة أيا صوفيا: ورمزت لها بحرف (ص) وهي موجودة في مكتبة أيا صوفيا باسطنبول في تركيا برقم (٢٢٤٣) وعدد أوراقها (١٥٤) ورقة، كل ورقة صفتان والصفحة مكونة من (٢٥) سطراً. كتبت بخط فارسي، ولم يكتب عليها اسم الناشر ولا تاريخ النسخ.

وأرفقت بورقة فهرست لفصول الكتاب التي بلغت في هذه النسخة واحداً وسبعين فصلاً، ويدرك كلمة (فصل) وأول الكلمة فيه.

٤ - نسخة برنسون: ورمزت لها بحرف (ب) وهي موجودة في مكتبة جامعة برنسون بأمريكا رقم (١٥١٨) بمجموعة غاريت.

صفحاتها مرقمة وعددتها (٤٠٥) صفحة، وهي منسوبة عن نسخة أيا صوفيا لأنها تتفقها إلا في كلمات محددة.

والخط الغالب في هذه النسخة هو خط الرقعة، لكنها اشتتملت على كلمات كثيرة بخطوط مختلفة. ويظهر أن هذه النسخة نقلت عن نسخة كتبت في شهر ربيع الأول سنة ١٠٧٨ هـ كما يظهر على صفحة ٤٠٤ من الكتاب.

ونجد على الصفحة الأخيرة اسم الكاتب مصطفى رشدي بن أحمد فليوزي، وتاريخ الكتابة ليلة الجمعة في ٢١ ربيع الأول؛ سنة ١٢٧٥ هـ.

وبإضافة إلى النسخ فقد قام الناشر بوضع هواشم توضيحية بخط يده، فيها تخرير للآيات ولكثير من نصوص الكتاب المقدس، وإضافات توضيحية لبعض المسائل.

وقد أرفقت النسخة بفهرسة للكتاب ذكر فيها أهم الموضوعات مع أرقام صفحاتها.

وفيما يلي يجد القارئ نماذج لصحائف من المخطوطات التي رجعت إليها:

الحادي عشر

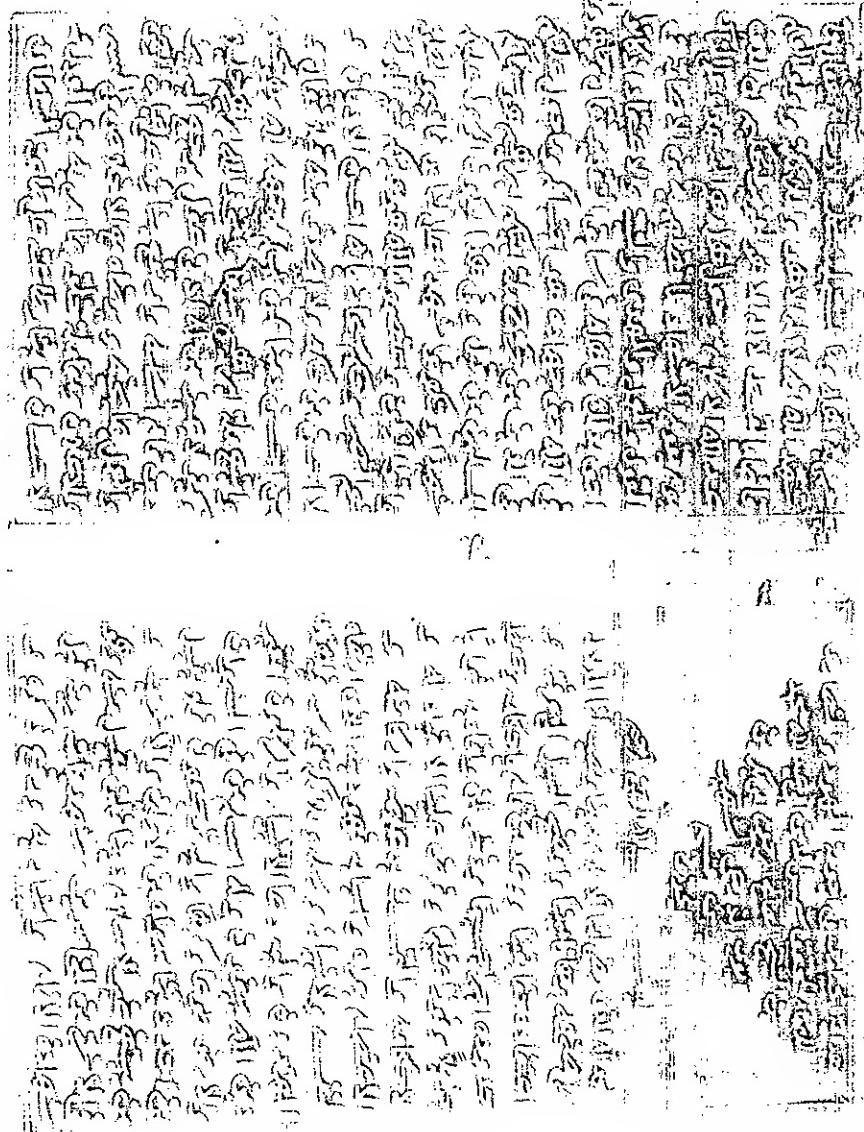
لهم إني
أنت معلم
أنا طالب
لهم اهدي

الخطيب
الطباطبائي
الطباطبائين

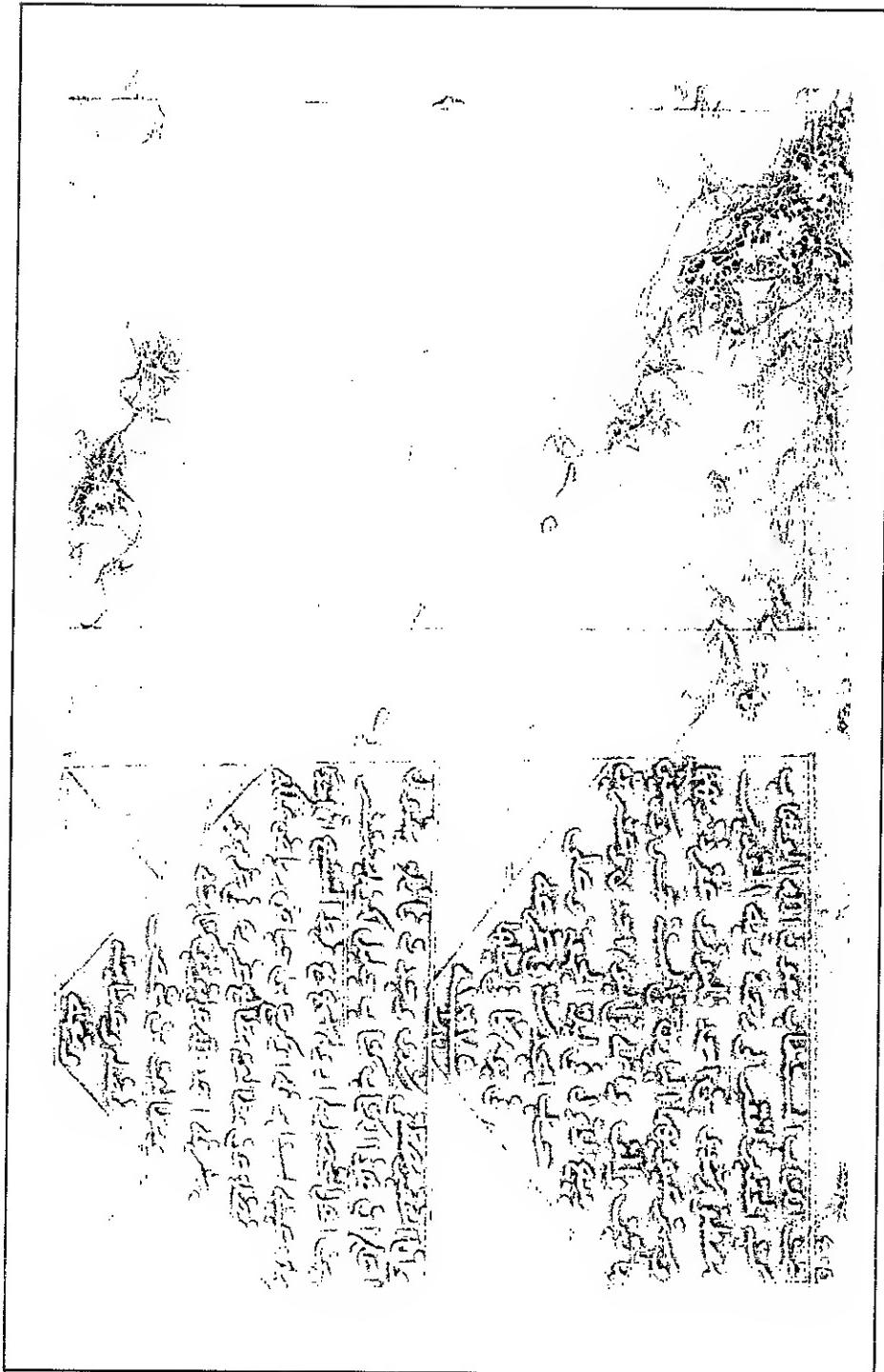
فَتَأْذِيَهُ لِيَعْمَلْ شَنَاوِرْجَهُ اللَّهُ عَنْتَ فِوَاهَ حَمَلْهُ
وَلَهُ سِرِّيْكَسْكَوكَشَلَاتْ بِيْ جَعْلَهُ بِغَاهَ مَوْجَهَهُ
فَوَنَّهُ سِرِّيْكَسْكَوكَشَلَاتْ بِيْ جَعْلَهُ بِغَاهَ مَوْجَهَهُ
يَهَلَوْكَهُ كَرْسَاهَاهَهُ لَهُ جَعْلَهُ لَهُ لَهُ لَهُ لَهُ لَهُ لَهُ
وَلَهُ أَعْلَمُ وَلَكَسْدَهُ لَهُ كَلَهُ لَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ
الَّهُ يَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ
بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ
بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ بَلَهُ

عند ذلك كلاماً واسمعه في ملائكة العرش
كثيراً طلاقه، فحق الله تعالى العرش بغيره لا يحيط
من على العرش بالعرفة والبيان ولقد أدى المساعدة الفتن
بودي الشفاعة فمن احتجاه إلى العرش أخذها سلطنة وكالة
وسعادته وصغاره يتعلّق في ملائكة بعضها فوق بعض يدعوه
طلبه وتحريجه طلاقه وقوله طلاقه وبعده رغفانة طلاقه
ومعه طلاقه في الملائكة سعادته وعلمه ووجهه طلاقه
وطلبه معلم الشهسي على الطلاقة أو صليله وبالناس
من القلائل والأفعال والأعمال والمرأة والعفة بدل المطلاقة
نحو ذلك له شئ من فوائد الشفاعة لأن عزيل الشفاعة
صر الخلق شفاعة في ملائكة طلاقه في طلاقه في طلاقه
يعصي بأفعالها الشفاعة في طلاقه في طلاقه في طلاقه
كلما ذكر النبي عليه السلام ويعلم الشفاعة في طلاقه
وقد هر إلى الطلاقات المأذون بها وجعلها إليها والمعنى
لوزنه قوله لوزنه مثله لوزنه ومحبه لوزنه وقصده لوزنه
فيه يتطلب في طلاقه في طلاقه في طلاقه في طلاقه
لوزنه السموات والسماء في طلاقه في طلاقه في طلاقه
يعينه سماكة زعيته شفاعة ولا غريبية يذكرها
يعينه ولو لم يسمعه نار نور طلاقه في طلاقه في طلاقه
ويكتفى بالسماع في طلاقه في طلاقه في طلاقه
والذين يكرهون العلماء كسر لهم تعليمه في طلاقه في طلاقه

الورقة الأولى من نسخة برونسون (بـ)



(ب) میتواند جسمی بحیثیت ایجاد کند



مکالمہ

أمين و يكن الفرج من مخزونه الشخصي



لهم إنا نسألك
الثبات والثبات
لهم إنا نسألك
الثبات والثبات

سلمه من الله ولهم مطرداً سلبه الله سبباً
ويناديه بالليل وصوفياً فخر من طلاقه سبباً
فهو ينادي دينه بغير دليل ألم يتألم في قلب
فتح كرم وسعيه أهله وماله واستحال على رحمة

شَعَّا عَلَيْنَا مِنْ فَاقِهِ الْمَدِينَةِ الْأَكْرَبِ وَ
لَمْ تَسْعُ بِالْمَدِينَةِ الْأَكْرَبِ فَنَمَّا فَنَمَّ الْمَسْعَى
وَهُنَّ حَسَّانٌ بِالْمَاصِنِ الْأَدْرِيِّ إِلَى الْمَصَنِ الْأَدْرِيِّ
وَعَسْلَانَةَ بِقِيلَانِ الْأَدْرِيِّ حَسَرَ دِيَنَهُ لِمَسْلَمَ
وَجَعَلَهُ سَهْدَهُ حَسَنَهُ أَوْلَيَّ، مَدِينَةَ مَسْنَنَهُ
وَبَلَغَهُ بَلَغَهُ شَفَّالَهُ أَكْبَرَهُ كَيْفَيَّةَ الْمَكَانِ الْأَدْرِيِّ
بَلَغَهُ بَلَغَهُ شَفَّالَهُ أَكْبَرَهُ كَيْفَيَّةَ الْمَكَانِ الْأَدْرِيِّ
فَالْمَطَافُ فِي الْمَسْرُورِ الْأَدْرِيِّ الْأَكْبَرِ
عَلَيْهِ الْمَطَافُ فِي الْمَسْرُورِ الْأَدْرِيِّ الْأَكْبَرِ
عَلَيْهِ الْمَطَافُ فِي الْمَسْرُورِ الْأَدْرِيِّ الْأَكْبَرِ
عَلَيْهِ الْمَطَافُ فِي الْمَسْرُورِ الْأَدْرِيِّ الْأَكْبَرِ

الله عنه بالفضل والشرف
وتحمّل لهم المسؤولية

نقد تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا

لكتاب

«هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى»

لقد اطلعت على كتاب (هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى للإمام العلامة شمس الدين بن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ، نشر المكتبة القيمة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ بتحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا) وما كنت أحب أن أدون انتقاداً لهذا الكتاب ضمن رسالتي، وذلك لاعتبارات شتى:

منها أن الدكتور أحمد حجازي السقا ممن لهم باع في موضوع دراسات اليهودية والنصرانية، وله فضل في إخراج مخطوطات كثيرة في هذا الموضوع إلى حيز الوجود، فله بالإضافة إلى هداية الحيارى، كتاب: الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام للقرطبي، وكتاب: شفاء الغليل للجويني، كما قام بتحقيق كتاب: إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي. وهو مختص في ذلك برسالته للماجستير والدكتوراه.

ومنها أن له وجهة نظره في إخراج كتبه بهذا الشكل، هي أن المقصود: هو ظهور هذا الكتاب بالشكل المناسب ليقدمه إلى القراء دون تركيز الاهتمام على قواعد التحقيق.

ومنها أنه يكتفي بتعليقاته مما يحفظه من نصوص كتب اليهود والنصارى.

ومنها كذلك أن لكل طريقة، ولا داعي لأن أثبت أن عملي أفضل من عمل غيري، إلا أنني رأيت أخيراً أن أدون بعض ملاحظاتي على تحقيق هذا الكتاب ليظهر الفرق وتتصبح الصورة.

إن أهم ما يلاحظه المطلع على هذا الكتاب أن تحقيقه لم يتافق إطلاقاً مع قواعد التحقيق وضبط النصوص المعروفة، وأهم هذه المخالفات ما يلي:

١ - المحقق لم يقدم بمقداره النص الذي نقله عن نسخة واحدة هي نسخة مخطوط

دار الكتب المصرية رقم ٣٠١، على النسخ الأخرى المتوفرة في عدة مكتبات، ومع أنه أشار إلى أنه قارن هذه النسخة مع نسخة خطية أخرى في دار الكتب المصرية رقمها (٢١٣٦٩ ب) إلا أن هذه المقارنة لم تظهر إطلاقاً في ثنایا التحقيق، وما يشير إليه في الهاشم أحياناً بقوله: كذا وكذا فإنما وضع عبارة من عنده مغایرة لعبارة المخطوطين لأنه استحسن هذه العبارة (انظر توضيحه لذلك ص ٦٠ - ٦١).

- ٢ - لم يخرج المحقق حديثاً واحداً من الأحاديث الواردة في الكتاب، والتي زادت على ثلاثة وأربعين حديثاً.
- ٣ - لم يترجم إطلاقاً للأعلام ولا للأماكن والبلدان.
- ٤ - لم يقم بإرجاع الأقوال إلى أصحابها ومصادرها، وهي كثيرة في الكتاب.
- ٥ - لم يقم بعمل شيء من الفهارس سوى فهرس الموضوعات.
- ٦ - لم يقم بتفسير الكلمات الغامضة الواردة في الكتاب.
- ٧ - تغيير كثير من عبارات النص واستبدالها بعبارة من عنده ينص في الهاشم على أنه استحسنها، وهذا كثير، نراه مثلاً في الصفحات ٣٨، ٣٩، ٤٢، ٥٢، ٦٠، ٦١، ٨٥، ١٤٦، ٢٠٠، ٧٨، ١٠٧.
- ٨ - لم يخرج بعض نصوص الكتاب المقدس انظر ص ١١٨ على سبيل المثال.

هذا بالإضافة إلى المؤاخذات التي استطاعت أن تعقبها عليه في عمله ومن ذلك ما يلي:

- * أولاً - إسقاط بعض العبارات أو الكلمات الغامضة في نظره، ومن أمثلة ذلك:
- ١ - ما نجلده في صفحة ٣٧ حيث أسقط عبارة طويلة للمؤلف وادعى في الهاشم أنها مبهمة، مع أنها واضحة تماماً، بل إن إسقاطها أبعهم السياق مما اضطربه بعد ذلك أن يفسر العبارة بالهاشم تفسيراً لا يمت إلى المعنى الذي ذكره المؤلف بصلة.
 - ٢ - في صفحة ١١١ أسقط كلمة (هو وكالب) لعدم وضوحها في نظره.
 - ٣ - في صفحة ١٦٥ أسقط نصاً كاملاً نقله المؤلف عن مستر حقوق.
 - ٤ - في صفحة ١٦٨ أسقط عبارة طويلة.

٥ - في صفحة ٢٠١ ألغى المؤلف عبارة طويلة، لأن فيها شيئاً من الغموض يحتاج إلى توضيح.

٦ - في صفحة ٢٠٥ حيث ألغى عبارة (ويسّمونه بلغتهم السبقين).

٧ - قام بإلغاء كلمات في الصفحات: ٣١١، ٣٠١، ٢٩٢، ٢٩١، ٢٨٩.

* ثانياً - استبدال بعض العبارات بعبارات من عنده، ومن ذلك:

١ - في صفحة ٧٨ استبدل النص التالي: «إن بشارة موسى براكب الحمار كبشرة عيسى براكب الجمل» استبدله بنص آخر هو: «إن بشارة زكريا براكب الحمار كبشرة شعيا براكب الجمل» ثم بين في الهاشم أن زكريا بشر براكب الحمار وهو عمر بن الخطاب فاتح القدس مع أن المعروف تاريخياً أن عمر كان يركب جملًا لا حماراً عند فتحه لبيت المقدس، والنص الأصلي هو الصحيح، فراكب الحمار هو عيسى عليه السلام وراكب الجمل هو محمد ﷺ.

٢ - في صفحة ١١٣ لبست عليه العبارة فخلط في ترتيبها، ثم أضاف إليها من عنده جملة (أم لم تقل) مع أنه لا داعي لها إطلاقاً، وكل ما في الأمر أن قوله: «قالت اليهود» جملة استئنافية.

٣ - في صفحة ١٥٠ بان بالحسن حجارتك وال الصحيح بان بالجص.

٤ - في صفحة ٨٢ عبارة الأصل يصير ديناً استبدلها بعبارة يصير تابعاً.

٥ - في صفحة ١٧٦ استعمل كلمة شأننا بدل كلمة شأننا الصحيحة.

٦ - في صفحة ٢٦٥ كتب: اسلكي هذه الدابة النجمة بدل النجسة ثم قال في الهاشم: في الأصل المجر الأنسية، وسبب ذلك أنه لم يرجع إلا إلى نسخة واحدة.

٧ - في صفحة ٣٢٤ العبارة عنده «ومكث بعد ذلك ثلاث سنين» والصواب: «وأمر بثلاث سنن» وهذا هو الوارد في جميع النسخ.

* ثالثاً - الخطأ في بعض التعليقات، ومن ذلك:

١ - في تعليقه صفحة ١٣١ يخالف المؤلف في فهمه ما ذهب إليه المؤلف من أن أركون العالم إشارة إلى النبي محمد ﷺ ويفسر المحقق الأركون بأنه الشيطان، وأتى

بنصوص من التوراة ولكن هذه النصوص لم تذكر أن الشيطان أركون العالم، بل الأركون بمعنى العظيم أو الرئيس.

٢ - في هامش صفحة ٢٨٩ ذكر أن المؤلف أخطأ في فهم النص الوارد في الإصلاح الرابع والعشرين من إنجيل متى ، حيث فهم المؤلف أن ابن الإنسان هو المسيح عليه السلام ، أما المحقق فقد ذهب إلى أن ابن الإنسان هو محمد ﷺ . وال الصحيح ما فهمه المؤلف ، بل إن التفسير الذي ذكره المحقق هنا لا يتفق مع النص الوارد في إنجيل متى : ١/٢٦ ونصه «وابن الإنسان يسلم ليصلب».

٣ - تعليق رقم ٢٠ صفحة ٢٨ حيث يعلق على قول المؤلف «خربيت لنبوته البشائر من عهد آدم أبي البشر إلى عهد المسيح ابن البشر، كلما قام رسول أخذ عليه الميثاق» ؛ فعلق على هذا في هامشه بقوله: «يقصد من عهد إبراهيم» ولا أدرى سبب هذا التقيد.

* رابعاً - نقص التوضيح لكثير من الأمور الغامضة:
ونذكر مثلاً واحداً فقط، ورد في صفحة ٢١٧.

فقد ذكر صوم حضا ، وال الصحيح أنه صوم الحصاد ، وذكر المؤلف صوم كدليا ، وبقية أنواع الصوم عند اليهود ، ولم يوضح لنا المحقق شيئاً من ذلك.

* خامساً - الخطأ في تحرير بعض نصوص العهد القديم:
 فهو يحيل أحياناً إلى أرقام ، وعند الرجوع إليها لم أجدها ومن ذلك ما ورد في صفحة ١٦٤ ، ١٦٧ .

وفي صفحة ١٤٥ يذكر أن النص في مزمور (٤) والصواب أنه في مزمور (٤٥).
وقد وجدت أخطاء كثيرة من هذا النوع ومن ذلك ما ورد في هامش الصفحات التالية: ١٥١ ، هامش ٧٧ ، ١٤٧ ، هامش ٦٦ و ٢٠٤ ، هامش ١٤٣ و ١٦٥ ، هامش ١٥٦ هامش ٣٠٦ .

* سادساً - الأخطاء في تحرير بعض الآيات ، ومن ذلك:
١ - هامش ١٥ صفحة ٤٤ الآية ٣٦ من سورة الشورى ، وال الصحيح أنها الآية ٥٩ من القصص .

٢ - صفحة ١١٠ البقرة ١٦٤ ، وال الصحيح آل عمران .

٣ - صفحة ٢٣٤ التحل ٥٩ ، وال الصحيح التحل .

٤ - صفحة ٣٣٨ الفرقان ٤٢ ، وال الصحيح ٤٤ .

٥ - صفحة ٣٤١ الأنعام ٩٠ ، وال الصحيح ٩١ .

* سابعاً - ذكر بعض المراجع دون ذكر الصفحة والجزء ، كما في صفحة ١٠٧ ،

. ٢٠٨

* ثامناً - عشرات الأخطاء المطبعية والإملائية وحتى في بعض الآيات .

**

الفصل الخامس أهمية كتاب هداية الحيارى

(١) جوانب أهميته

لقد تحدث ابن القيم بنفسه عن أهمية هذا الكتاب في نهاية مقدمته فقال: «وقد وضعت هذا الكتاب وسميته: هداية الحيارى في أجوية اليهود والنصارى، وقسمته قسمين:

الأول : في أجوية المسائل . والثاني : في تقرير نبوة محمد ﷺ ، بجميع أنواع الدلائل ، فجاء بحمد الله ومنه ، كتاباً ممتعاً معجباً ، لا يسام قاريه ، ولا يمل الناظر فيه ، فهو كتاب يصلح للدنيا والآخرة ، ولزيادة الإيمان ولذة الإنسان ، يعطيك ما شئت من أعلام النبوة وبراهين الرسالة وبشارات الأنبياء بخاتمهم ، واستخراج اسمه الصريح من كتبهم وذكر لقبه وصفته وسيرته من كتبهم ، والتمييز بين صحيح الأديان وفاسدها ، وكيفية فسادها بعد استقامتها ، وجملة من فضائح أهل الكتابين وما هم عليه ، وأنهم أعظم الناس براءة من أنبيائهم ، وأن نصوص أنبيائهم تشهد بکفرهم وضلالهم ، وغير ذلك من نكت بدعة لا توجد في سواه» .

ومقالة ابن القيم هذه في كتابه تسلط الأضواء على الجوانب المهمة من كتابه ، تلك الجوانب التي جعلته كتاباً ممتعاً معجباً لا يسام قاريه ولا يمل الناظر فيه . وهذه الجوانب هي :

الجانب الأول : تقرير نبوة محمد ﷺ :

والحقيقة تنطق بوضوح أن ابن القيم في كتابه هذا استطاع أن يبرهن على هذه المسألة بما لم يستطع أحد من قبله أن يجمع كل هذه البراهين والأدلة في كتاب واحد.

فقد تحدث بصفحات طويلة عن دلائل نبوة محمد ﷺ، وأحاط بها من جوانبها المختلفة حتى يظن قارئها أن الكتاب متخصص بأعلام النبوة. تحدث في القسم الأول من كتابه عن انتشار دعوته ﷺ، وانتصاره الكبير في ذلك، فهو يذكر لنا أخبار الوفود التي وصلت إلى النبي ﷺ تمثل أقوامها، ويدرك لنا عن كتبه ﷺ التي بعثها مع رسالته إلى الملوك، والرؤساء والأمراء من حوله، وأخبار من أسلم من هؤلاء، ومن غيرهم ممن لهم شأن عند أقوامهم. وتناول ابن القيم هذا الموضوع من ثلاثة زوايا:

– الزاوية الأولى: من حيث الأخبار والبشارات.

– والزاوية الثانية: من حيث إثبات التحريف في كتبهم في هذه المسألة وغيرها.

– والزاوية الثالثة: من الناحية العقلية.

أما الزاوية الأولى: فقد ذكر أخبار الرهبان والأحبار الذين بشروا به وعرفوه فمتهم من عرفه من يوم مولده: كالناجر اليهودي الذي كان بمكة. ومنهم من عرفه في صغره من أوصافه مثل بحيرا الراهب، ومنهم من آمن به بعد بعثته كعبد الله بن سلام، وأخبار من كانوا على دين الحنفية وبشروا به مثل ورقة بن نوفل وأمية بن أبي الصلت.

أما عن بشارات الكتب السابقة بنيوته ﷺ فأكاد أقول إنه استقصاها ولم يدع منها شيئاً.

والمأخذ الذي تستطيع أن تأخذه هنا على ابن القيم، وعلى غيره من علماء المسلمين الذين كتبوا في هذا الموضوع، عدم ضبط النصوص من كتب اليهود والنصارى، وظاهر أنهم في الغالب ينقلون عن بعضهم وقد أشرت عند كثير من هذه النصوص أن ابن القيم كان ينقل عن الجواب الصحيح وغيره، بل كان ابن القيم يشير إلى ذلك في بعض الأحيان.

ولم يكتف ابن القيم رحمه الله بذكر هذه البشارات بل طابق بين بعضها وبين ما يؤيدها من نصوص الكتاب والسنة.

أما الزاوية الثانية: فقد أثبت ابن القيم وقوع التحرير في الكتابين فيَّ ما فيهما من افتراءات تشهد بالتحرير، وذكر من هذه الافتراءات التي تضمنتها التوراة ما نسبوه إلى أنبيائهم – زوراً وبهتاناً – من أفعال وأوصاف خسيسة، كذلك ما وصفوا به الله تعالى كالندم والتعب والبكاء، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وذكر ما تضمنه الإنجيل من تناقضات، يستحيل أن تكون من عند العليم الخبير سبحانة.

وأراد ابن القيم أن يخلص من ذلك إلى أنه ما دام التحرير قد وقع فعلاً، فإن ذلك يعني أن القوم لا يستبعد عليهم أن يحرّفوا النصوص المبشرة بنبوة محمد ﷺ بغياناً وحسداً من عند أنفسهم.

أما الزاوية الثالثة: وهي الناحية العقلية فقد أثبت ابن القيم أن الأدلة العقلية تشير إلى أن نبينا عليه السلام مذكور في الكتب السابقة، وأنى باثنى عشر وجهًا كلها تؤكد أنه عليه السلام مذكور في تلك الكتب. وكلها أدلة تحمل حججاً واضحة مقنعة.

وفي القسم الثاني من كتابه أكد أن نبوة محمد ﷺ ثابتة بطريق العقل السليم، وأن إنكار نبوته عليه السلام إنكار لبررة جميع الأنبياء عليهم السلام، بل وإنكار لريوبنته تعالى، فالرسول ﷺ – كما يقول ابن القيم – إنما جاء بتعريف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله، والتعریف بحقوقه على عباده، فمن أنكر رسالته فقد أنكر الرب الذي دعا إليه وحقوقه التي أمر بها.

الجانب الثاني :

استعراضه للأديان التي كانت معروفة في الأرض عندبعثة محمد ﷺ، وبيانه للمتاهات والتحريفات التي مارستها هذه الأديان، ثم حديثه عن المذاهب الفلسفية التي أنكرت النبوات، وأنكرت المعاد وبيانه لضلالها.

الجانب الثالث :

النكت البدعة التي وردت في كتابه، ولا أود هنا أن أبحث عن النكت البدعة في اللغة والأسلوب، ولكنني أريد أن أقف عند بعض اللفظات البدعة التي أوردها ابن القيم في كتابه، واستنتاجتها من بحثه، ومن هذه اللفظات:

١ - قوله: «ولم يبق بأيدي النصارى إلا دين باطله أضعاف أضعف حقه، وحقة منسوخ بما بعث الله به محمداً ﷺ».

وهذا استنتاج رائع، توصل إليه ابن القيم، ومع أن معناه واضح، إلا أنه لفتة تغيب عن الأذهان.

وهو بهذا يشير إلى التحريف الذي أصاب دين النصارى، حتى شمل هذا التحريف معظمها في شتى المجالات في العقيدة والشريعة.

والنذر القليل الذي سلم من التحريف والذي لا نستطيع الجزم بتحديده منسوخ، ولذلك فلا ضرورة لأن نجهد أنفسنا بعناء البحث عن هذه النصوص التي سلمت من التحريف، لأنه لم تعد لها قيمة بعد أن نسخت برسالة نبينا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

٢ - ضمن الأدلة العقلية التي قدمها ابن القيم للاستدلال على ذكر نبينا محمد ﷺ في كتب اليهود والنصارى جاء بدليل يبدو بسيطاً لكنه عميق جداً ومقنع، حيث يقول: ومن الممتنع أن تخلو الكتب المتقدمة عن الأخبار بهذا الأمر العظيم، الذي لم يطرق العالم من حين خلق إلى قيام الساعة، أمر أعظم منه ولا شأن أكبر منه. فإن العلم به طبق مشارق الأرض وغاربها.

... ومثل هذا النبأ العظيم لا بد أن تطابق الرسال على الإخبار به، وإذا كان الدجال - رجل كاذب يخرج في آخر الزمان، وبقاوئه في الأرض أربعون يوماً - قد تطابقت الرسال على الإخبار به وأنذر به كلنبي قومه من نوح إلى خاتم الرسل صلی الله عليهم وسلم أجمعين، فكيف تتطابق الكتب الإلهية من أولها إلى آخرها على السكوت عن الإخبار بهذا النبأ العظيم، وبهذا الأمر العظيم الذي لم يطرق العالم أمر أعظم منه، فهذا مما لا يسوغه عقل، وتباه حكمة أحكم الحاكمين.

فهذا دليل واضح يعرضه ابن القيم حجّة في وجه أولئك المعاندين الذين أنكروا نبوة محمد ﷺ، وصدقوا أن كتبهم خلت من ذكر هذا النبي الذي ملأ خبره طباق الأرض. وكأنه يقول لهم: إذا كان محمد ﷺ ليسنبياً، ولا أنزل الله عليه قرآنًا، فلماذا لم تخبر كتبكم بظهور هذا المدعى وتفصل أحواله وصفاته ليحذر الناس ولا ينخدعوا به؟! .

**

(٢)

مقارنة بين «هداية الحيارى» وبين بعض المؤلفات

واستكمالاً لمبحث أهمية هذا الكتاب رأيت أن أعقد مقارنة بينه وبين بعض الكتب التي ألفت في موضوعه، لأن مثل هذه المقارنة لها علاقة واضحة في بيان أهمية هذا الكتاب.

وقد عقدت مقارنة بينه وبين كتاب الجواب الصحيح لابن تيمية رحمه الله، كان المقصود منها رد الشبهة التي يرد فيها البعض من غير اطلاع، ومفادها أن الجواب الصحيح يعني عن هداية الحيارى، وليس كتاب الهداية إلا تكراراً لما جاء في الجواب الصحيح. كما اخترت كتابين سابقين لهداية الحيارى وللجواب الصحيح هما:

شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل للإمام أبي المعالي الجوني إمام الحرمين المتوفى سنة ٤٧٨ هـ.

والرد الجميل لإلهية عيسى بتصريح الإنجيل، للإمام أبي حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ.

* * *

مقارنة

«بين هداية الحيارى» و «شفاء الغليل»

وقد وقعت في يدي نسخة من الكتاب الأول (شفاء الغليل)^(١) تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، وقرأت نص الكتاب والدراسة التي كتبها المحقق حولها، ورأيت الفرق الكبير بين هذا الكتاب وكتاب هداية الحيارى.

شفاء الغليل أولاً رسالة صغيرة مختصرة لا قياس لها مع هداية الحيارى.

كما أنها مقتصرة في موضوعها على إثبات التحريف في نصوص الكتابين، وبطريقة واحدة، هي الإitan بالنصوص المتناقضة في هذين الكتابين.

وقد اقتصر الجويuni رحمه الله على ذكر التناقضات بين التوراة التي بأيدي اليهود (العبرانية)، وبين التوراة التي بأيدي النصارى (السبعينية).

أما بالنسبة للأناجيل فقد أثبت التحريف فيها من خلال ذكره لبعض التناقضات بين الأناجيل الأربع.

والحق أن ابن القيم في هداية الحيارى ذكر ذلك كله في ثانيا كتابه، ولم يقتصر على ذلك، بل أثبت وقوع التحريف في الكتابين بالأدلة العقلية والنقلية، وبين وسائل التحريف التي اتبعها أهل الكتاب مما ذكره القرآن الكريم عنهم.

وبين التناقض بين نصوص التوراة العبرانية نفسها، وذكر ما احتوته من مستحبلات وخرافات واتهامات باطلة رموا بها أنبياءهم عليهم السلام.

وكذلك الأمر كان بالنسبة للأناجيل فقد بين متناقضاتها وخرافاتها وما أصلحته بال المسيح عليه السلام زوراً وبهتاناً.

وقد ذكر المحقق لشفاء الغليل معلومات استدل بها على أهمية الكتاب، وهذه المعلومات جاء بها ابن القيم في كتابه، ويتفصيل أفضل. ومن هذه المعلومات:

(١) انظر: شفاء الغليل، للجويuni، تحقيق د. أحمد السقا، نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء بالرياض سنة ١٤٠٣ هـ.

١ - الإشارة إلى وجود ثلاث نسخ للتوراة هي : التوراة العبرانية والتوراة السامرية والتوراة السبعينية .

وقد ذكر ابن القيم ذلك ولم تغب عنه هذه الحقيقة .

٢ - مسألة عزرا ، وأن التوراة التي بيد اليهود اليوم إنما هي من تأليفه بعد الرجوع من السببي البابلي .

وهذه أيضاً ذكرها ابن القيم في كتابه وبين أن عزرا لم يكن مُلهمًا كما ادعى اليهود وسبعين قول ابن القيم في المسألة عند حديثنا عن مسألة العزيز في الباب الثالث من هذه الدراسة .

* * *

مقارنة

بين «هدایة الحیاری» و «الجواب الصحيح»

يحاول البعض أن يقلل من أهمية كتاب هدایة الحیاری بحجۃ أن لابن تیمیة كتاباً أوسع منه في نفس الموضوع هو «الجواب الصحيح لمن بدل دین المسیح» .

إزالة لهذه الشبهة، وتقديرًا للجهد ابن القیم في كتابه، قرأت كتاب الجواب الصحيح، وعرفت المواقع التي أخذها ابن القیم منه، ثم تبین لي بعد هذه القراءة الفاحصة المقارنة من كتاب هدایة الحیاری ما يلي :

١ - لكل من الكتاين سبب خاص لتأليفه، فكتاب الجواب الصحيح كان ردًا على الرسالة القبرصية المنسوبة إلى بولس الراهب أسقف صیدا الانطاکي، فقد ذكر ابن تیمیة رحمه الله في مقدمة كتابه: أن كتاباً ورد من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصاری بما يحتاج به علماء دینهم، وفضلاً ملتهم قدیماً وحدیثاً من الحجج السمعیة والعلقیة.

فكان كتاب الجواب الصحيح ردًا على هذا الكتاب، حيث قال ابن تیمیة: «فاقتضى أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب وبيان الخطأ من الصواب»^(١).

(١) انظر: الجواب الصحيح : ١/١٩.

وقد ذكرنا أن هداية الحيارى كان أيضاً جوابات لأسئلة سبعة وردت شبههاً من بعض أهل الكتاب ولاختلاف الأسئلة اختلفت موضوعات الكتابين.

٢ - تشابه المنهج لترتيب البحث في الكتابين، فالجواب الصحيح قسم كتابه حسب الفصول الستة التي وردت في الرسالة القبرصية، وبدأ يرد على كل فصل على حدة، وكذلك كان منهج ابن القيم، فقد قسم كتابه حسب المسائل السبعة، ورد على كل سؤال على حدة.

٣ - لا شك أن ابن القيم قد اطلع على كتاب الجواب الصحيح قبل أن يشرع بتأليف كتابه، ويبدو ذلك من خلال ما نقله عنه، لكن ابن القيم طرق موضوعات لم يتطرق لها ابن تيمية، وترك كثيراً من الموضوعات التي بينها في الجواب الصحيح، ولم يشتركا إلا في موضوع نسبة محمد ﷺ، والبشارات الدالة عليها في الكتب المتقدمة، وبعض ما ذكره علماء المسلمين في ذلك، كما أشرنا في القل عن تاريخ ابن البطريق لموضوع مجتمع النصارى، وظروف الاضطهاد التي عاشها النصارى أيام الرومان، وأثر اعتناق الدولة الرومانية للنصرانية على انحرافها. وقد ذكرت أن ابن القيم لم يطلع على تاريخ ابن البطريق، وإنما اختصر ما نقله ابن تيمية.

وعلى سبيل المثال: ابن تيمية يتسع في الرد على منكري رسالة محمد ﷺ، وعلى الذين يخصونها بالعرب وحدهم، في أكثر من فصل، بينما لم يشر ابن القيم إلى ذلك، واكتفى على إثبات ذلك بذكر الكتب التي بعثها رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء، والحديث عن هذه الرسائل كان مختصراً في الجواب الصحيح، ومختصراً على النجاشي وهرقل وكسرى، بينما كان مفصلاً شاملاً للجميع عند ابن القيم.

ويتوسع ابن تيمية كثيراً في موضوع اللاهوت والناسوت عند النصارى، ويعرج على القائلين بالحلول، وتعرض إلى موضوع التفريق بين توحيد الصفات والقول بالتجسيم، كما تعرض إلى بحث مطول حول الصفات، هل هي جواهر أم أعراض؟ وذكر أقوال الفلاسفة اليونان ومن تأثر بهم من فلاسفة الملل.

ولم يتعرض ابن القيم إلى هذا الموضوع إلا في إشارات مقتضبة متفرقة في ثنایا الكتاب.

وتعرض ابن تيمية للحديث عن معجزات رسولنا محمد ﷺ الحسية والقرآن

الكريم، وشغل هذا الموضوع حيزاً كبيراً، شمل الجزء الرابع كله تقريراً، ولم يتعرض ابن القيم لهذا الموضوع إطلاقاً.

وفي المقابل فإن موضوعات كثيرة ركز عليها ابن القيم، كانت ملائمة للأسئلة المطروحة عنده، ولا مكان لوجودها في الجواب الصحيح، وبخاصة السؤال الأول والثاني، وقصة عبد الله بن سلام في السؤالين الرابع والخامس، وكذلك الحديث المطول في المسألة السادسة عن فضل الصحابة وعلمهم، لم يذكر ابن تيمية منه شيئاً.

والخلاصة أن الكتابين متممان بعضهما لا يعني أحدهما عن الآخر، لأن كل كتاب بحث الموضوع من زاوية معينة، وكل كتاب ركز على قضايا معينة.

* * *

مقارنة

بين «هداية الحيارى» و «الرد الجميل»

من علماء المسلمين الذين ألفوا في هذا الموضوع الإمام أبو حامد الغزالى، المتوفى سنة ٥٠٥ هـ، وكتابه (الرد الجميل للإلهية عيسى بتصريح الإنجيل).

وقد اكتشف مخطوطته المستشرق الفرنسي ماسينيون المتوفى سنة ١٩٣٩ مـ، وقام تلميذه الأب روبيير شدياق اليسوعي بتحقيقها ونشرها سنة ١٩٦٢ مـ.

كما قام الأستاذ عبد العزيز عبد الحق حلمى بتحقيق الكتاب، وترجمة تعلیقات الأب شدياق، ونشرها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر سنة ١٩٧٣ مـ.

وعنوان الكتاب يدل على أن موضوعه مقتصر على الرد على القائلين بإلهية عيسى عليه السلام.

يقول الغزالى : «وفي الإنجيل نصوص مصرحة بإنسانيته عليه السلام المحضة، ونصوص مصرحة بأن إطلاق إلهية عليه على ما يدعونه محال، وهذه النصوص في أوضح الأناجيل عندهم.

وها أنا ذا أذكرها نصاً ميناً فصولها المسطرة فيه حذراً من المناكرة، وقبل الشروع في ذكرها، فلا بدّ من تقديم أصلين متفق عليهما بين أهل العلم:

أحدهما: أن النصوص إذا وردت فإن وافقت المعقول تركت ظواهرها، وإن خالفت صريح المعقول وجَب تأويلها، واعتقاد أن حقائقها ليست مراده، فيجب ردّها إذ ذاك إلى المجاز.

الثاني: أن الدلائل إذا تعارضت فدلّ بعضها على إثبات حكم، وبعضها على نفيه، فلا تتركها متعارضة إلا وقد أحسستنا من أنفسنا العجز باستحالة إمكان الجمع بينها، وامتناع جمعها متضادفة على معنى واحد.

وإذا تقرر ذلك فلنشرع الآن في ذكر النصوص الدالة على التجوز في إطلاق ما يوهم الإلهية على نفسه.

ثم نتبع ذلك بذكر النصوص الدالة على إنسانيته الممحضة، ونجمع بينها وبين النصوص المشيرة لهم شبهًا نكصت أفهمُهم لتصورها عن تأويلها، فعمموا بها وضلوا^(١).

ثم ذكر ستة من هذه النصوص وردّ عليها، مستعملًا المجاز في الرد غالباً... . وذكر الستة وردّ عليها أيضًا.

هذا هو موضوع الكتاب فهو رسالة تناولت هذا الجانِب من انحراف النصرانية، وهو بلا شك أخطر جانب من جوانب الانحراف.

وابن القيم لم يتعرّض لهذه المسألة مفصلاً، كتفصيل الغزالى فيها، بل أشار إليها في مواطن متاثرة من كتابه.

ومع ذلك فهدایة الحیاری يبقى متميّزاً بسعته، وشموله، وتناوله لأبرز مسائل الانحراف عند النصارى، في عقيدتهم وحتى في شريعتهم في بعض الأحيان.

هذا من جهة الموضوع، أما من جهة الأسلوب فإن الأسلوب الفلسفی الكلامي غالب في الكتاب يظهر في كل صفحة من صفحاته.

وقد لفت هذا الأسلوب نظر محققه شدياق فنراه يقول: (وفي الحق أن مما يحيّر القارئ في قراءته الأولى للرّد الجميل، ما يجده فيها من عسر العبارة ودقة التأويل والأسلوب الذي يغلب عليه الغموض والالتواء، ومعاودات المؤلف الكثيرة، لكي يفصح

(١) انظر: الرد الجميل: ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

عن فكرة ما، حتى يتسعى له الالهتداء إلى تعبير مناسب لها) ^(١).

والحقيقة أن الأسلوب الفلسفى - الذى اعتمد الغزالى في كثير من مؤلفاته - هو الذى أورد هذا الإشكال على محقق الرد الجميل، وعلى غيره من الذين يقرأون في كتب الغزالى الفلسفية، مثل تهافت الفلاسفة، والمنقد من الضلال، وهذا الكتاب الذى اتخذ هذا المنحى في ردّه ونقاشه.

وأود أن أقدم نموذجاً من أسلوبه هذا، من مقدمة كتابه، لتعلم أن الأسلوب شمل حتى المقدمة.

يقول الغزالى: «... وهم في ذلك طائفتان: طائفة - وهم الأكثر - لم يمارسوا شيئاً من العلوم التي يقف بها الناظر على استحالة المستحيل فيجزم باستحالة وجوده، وإيجاب الواجب، فينفي عدم وقوعه وإمكان الممكّن، فلا يعتقد محالاً لطيفي وجوده وعدمه.

وطائفة لهم أدنى معقول... يعولون تارة على تقليد الفيلسوف في مسألة الاتحاد لـإعظامهم ما يؤدي إليه من هدم قواعد تضافرت على ثبوتها صرائح العقول، فارّين من هذه المعضلة إلى التقليد المحسض...» ^(٢).

ثم نراه يقول: «ثم إن مثل هذا القياس لا يسامح الفروعى نفسه في استعماله، بل هو من الأقىسة المهجورة المسماى بقياس التعقيد» ^(٣).

هذا الأسلوب لم يتبعه ابن القيم في كتابه، ولا في أي من مؤلفاته، لذلك كان أسلوبه شيئاً ممتعاً، وردة واصحاً، وعبارة سهلة، كما أوضحنا من قبل.

بعد هذه المقارنة السريعة بين هداية الحيارى وبين هذه الكتب الثلاثة، لا بد من الإشارة إلى أنه وإن ألفت كتب في موضوع الرد على اليهود والنصارى، فإن ذلك لا يعني التقليل من شأن هذا الكتاب، فلكل أسلوبه ومنهجه وظروفه التي دفعته للتأليف، وبالتالي

(١) انظر: الرد الجميل: ص ١٢٦.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٣٦.

(٣) المرجع السابق: ص ٢٣٧.

فإن موضوعات الكتاب ستختلف عن غيره تبعاً لهذه الظروف التي عاشها المؤلف، وتبعاً للشبهات أو الاستفسارات التي واجهته.

وقد ألف علماء المسلمين قبل ابن القيم، وبعده مؤلفات مختلفة عالجت هذه القضية، منها ما ألف في حادثة معينة ردًا على أحد القساوسة أو الأخبار، ومن ذلك كتاب ابن حزم: «الرد على ابن نفريلة اليهودي» وكتاب أبي عبيدة الخزرجي في الرد على أحد القساوسة الإسبان، وكتاب إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي، الذي كان في أصله مناظرة عقدت بين الشيخ وبين أحد القساوسة الإنجليز في الهند.

ومن هذه الكتب ما ألف ليعالج القضايا المعاصرة لمؤلفها، مثل كتاب: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، والمملل والنحل للشهريستاني، وكتاب: الإعلام بما في دين النصارى من أوهام للقرطبي، والأجوبة الفاخرة للقرافي، وكتاب: التخ吉يل لابن تيمية، وغير ذلك من المؤلفات القيمة، جزى الله مؤلفيها خير الجزاء.

ومع كثرة هذه المؤلفات فيبقى لكتاب ابن القيم ميزاته الخاصة، وضرورته في عصره، وفي البيئة التي خرج فيها.

**

الباب الثالث

أصول العقيدة عند اليهود والنصارى

لقد حاول ابن القيم رحمه الله في كتابه، الرد على أبرز أصول الاعتقاد المنحرفة عند اليهود والنصارى، ونظرًا لكون رده جاء متفرقًا في ثانيا الكتاب،رأيت أن أفرد هذا الباب لأن الحديث فيه عن أبرز أصول الاعتقاد عند اليهود والنصارى، مع تركيز الحديث عن عقيدة الشفاعة والأقانيم عند النصارى، وعقيدة التجسيم والتشبيه عند اليهود.

ومن هنا فقد اشتمل هذا الباب على فصلين:

الفصل الأول: أصول عقيدة النصارى.

الفصل الثاني: أصول عقيدة اليهود.

الفصل الأول

أصول عقيدة النصارى

تقوم عقيدة النصارى اليوم على أصول تتفق عليها كل الفرق والطوائفنصرانية المعاصرة ومن أبرز هذه الأصول:

- ١ - التثليث: وسندين مفهوم النصارى اليوم لعقيدة التثليث بشيء من التفصيل.
- ٢ - عقيدة الصليب والفداء: وهذه العقيدة تابعة لفكرة الخطيئة الموروثة التي يعتقد بها النصارى، وملخصها أن البشر يشاركون أباهم آدم في الخطيئة التي ارتكبها عندما أكل من الشجرة التي نهي عن الاقتراب منها، وشاء الله تعالى أن يغفر للبشر خططيتهم هذه، فاقتضى عده أن يرسل ابنه الوحيد ليعيش مع البشر، ثم يصلب تكثيراً عن خطيئة البشر^(١).

وعقيدة الفداء هذه تتفق عليها كل طوائفهم، وقد ذكرت في الأنجليل الحالية المحرفة في أكثر من موضع، ومنها ما ورد في إنجيل مرقس حيث يقول المسيح عن نفسه: «لأن ابن الإنسان أيضاً لم يأت ليُخدم بل ليُخدم ولبيذل نفسه فدية عن كثيرين»^(٢).

كما صرّح بذلك إنجيل يوحنا: «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية، لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليخلص العالم»^(٣) ومن هنا فقد قدس النصارى الصليب، ولا زالوا يعتبرونه شعارهم. وقد جاء في شرح بشارة لوفا للقس إبراهيم سعيد: «إنه من

(١) انظر: الإنجيل والصلب، عبد الأحد داود: ص ١ - ٦.

(٢) مرقس: ٤٥/١٠.

(٣) يوحنا: ٣/١٦ - ١٧.

أوجب واجبات كل مسيحي أن يحمل صليبه مختاراً طائعاً، لأن التعير بحمل صليبه مستعار من العادة التي قبضت بها الأنظمة الرومانية على المحكوم عليه بالصلب أن يحمله كل يوم، ولا بد لحمل الصليب من خطوة تسبقه وخطوة تعقبه، أما الخطوة السابقة فهي إنكار النفس، وأما الخطوة اللاحقة فهي افتقاء آثار المسيح، وليس حمل صلينا غاية، لكنه وسيلة لهذه الغاية، وهي اتباع المسيح حيث يمضي^(١). وعقيدة الصلب والفداء هذه باطلة من أصلها، وفكرة الخطيئة الموروثة لا تتفق مع العدل الإلهي مطلقاً، وآدم عليه السلام عصى ربه، ثم تاب، واستغفر فغفر الله له: «فقلتني آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم»^(٢).

ومن أبرز الشعائر والطقوس التي تعتبر أسراراً عند النصارى:

١ - التعميد: وهو من الشعائر التي تتفق عليها كل الطوائف المسيحية. ويكون التعميد برش الماء على الجبهة، أو غمس أي جزء من الجسم في الماء، والغالب تعظيس الجسم كله في الماء، ويقوم بذلك الكاهن، والكنيسة القبطية تشرط التعظيس، ولا تجيز الرش إلا لضرورة، كما تشرط أن يكون ثلاث مرات: الأولى باسم الأب، والثانية باسم الابن، والثالثة باسم الروح المقدس^(٣).

وكان نهر الأردن المكان الذي عُمِّد فيه المسيح عليه السلام على يدي يوحنا الذي سمي لذلك بالمعمدان.

وينقل الدكتور أحمد شلبي عن كتاب الأصول والفروع للقس بوطر قوله: «النعميد فريضة مقدسة يشار فيها بالغسل بالماء، باسم الأب، والابن، والروح القدس، إلى تطهير النفس من أدران الخطيئة بدم يسوع المسيح»^(٤).

كما نجد في رسالة بولس إلى غلاطية تفسيراً لهذا التعميد إذ يقول: «لأن لكم

(١) انظر: محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ص ١٢١ - ١٢٢. نقلًا عن شرح بشارة لوقا للقس إبراهيم سعيد.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٧.

(٣) انظر: تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ١/٨.

(٤) انظر: المسيحية، أحمد شلبي: ص ١٦٩.

الذين اعتمدتم بالMessiah، قد لبستم المسيح»^(١) وهذا يعني أن المسيحي بعد التعميد يتحد بالMessiah، وكما قال الأستاذ شارل جيني بير: «بالتعميد يرتدي المسيحي المسيح كما يرتدي اللباس المقدس المنجي، وهو ينزل رمياً إلى عالم الأموات بغطاؤه في النهر أو في إماء التعميد، فإذا ما خرج بعد غطسات ثلاث – تماماً كما خرج المسيح من القبر بعد أيام ثلاثة – أيقن بأنه سوف يمجد يوماً إن أراد الله له ذلك كما مجد المسيح»^(٢).

وهذه طقوس وثنية جاء بها بولس إلى النصرانية، شبّهها بطقوس التضحية بالثور التي تجعل من المؤمن بها إلهًا هو (آنيس)، ومفهوم هذا التعميد نابع من نفس وجهة النظر التي يفسر بها مفهوم التضحية بالثور^(٣).

٢ – سر الاعتراف: ويكون باعتراف المخطيء مرتكب المعصية أمام الكاهن بذنبه طالباً المغفرة، حيث يعتقدون أن التوبة تتقل عبر الكاهن إلى الرب، وتعود إلى صاحبها عبر الكاهن أيضاً، فيغفر له ذنبه.

ومن هذا السر نشأ ما سمي في العصور الوسطى بـ«صكوك الغفران». ولا يُعرف البروتستانت بهذا السر.

٣ – العشاء الرباني، أو العشاء الأخير: وأصله ما ورد في الإنجيل عن العشاء الأخير للمسيح مع تلاميذه، ففي إنجيل لوقا ما نصه: «وأخذ خبزاً وشكراً وأعطاهم قائلاً هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم، اصنعوا هذا لذكرىي، وكذلك أخذ الكأس أيضاً بعد العشاء قائلاً: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يسفك عنكم»^(٤).

فالخبز يرمز إلى جسد المسيح الذي كسر لتجاة البشرية، أما الخمر فيرمز إلى دمه الذي سفك لهذا الغرض، وهذا ما أوضحته رسالة بولس لأهل كورنثوس بما نصه: «لأنني سلمت من الرب ما سلمتكم أيضاً، إن الرب يسوع في الليلة التي أسلم فيهاأخذ خبزاً وشكراً فكسر وقال: خذوا كلوا، هذا هو جسدي المكسور، لأجلكم، اصنعوا هذا لذكرىي وكذلك أخذ الكأس أيضاً بعد العشاء قائلاً: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي، اصنعوا

(١) رسالة بولس إلى أهل غلاطية: ٢٧/٣.

(٢) انظر: المسيحية نشأتها وتطورها، شارل جيني بير: ص ١١٠.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) لوقا: ٢٢/١٩ – ٢١.

هذا كلما شربتم لذكرى فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذا الكأس تخبرون بموت
الرب إلى أن يجيء»^(١).

وهذا ما تعبّر عنه الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بالاستحالة، أي تحويل الخبز والخمر
إلى جسد المسيح ودمه الجوهريين، عندما يلفظ الكاهن بكلمات التقدیس الموهوم، مع
أنه قد يظهر لكل الحواس الخمسة أن الخبز والخمر باقيان على جوهرهما ولم يتغيّرا.

ويحاول عوض سمعان أن يبيّن العلاقة بين الخبز وجسد المسيح فيقول: «إن الخبز
مثال للمسيح من ناحيتين رئيسيتين، فالخبز قوام الحياة الجسدية، والمسيح قوام الحياة
الروحية، والخبز اجتاز في النار حتى أصبح طعامنا الجسدي، والمسيح احتمل نار دينونة
الخطيئة عوضاً عناً، لكي يكون طعامنا الروحي الذي يهبنا حياة إلى الأبد»^(٢).

ولاشك أن هذا التوفيق يبقى عاجزاً عن أي إقناع أو دليل معقول لقدمه والتکلف
ظاهر فيه.

أما الخمر فعلاقته بدم المسيح – كما يقول عوض سمعان –: «أنه أقرب مثال للدم
من ناحيتين، فكلاهما أحمر اللون وكلاهما حياة الجسم الذي يجري فيه، فالخمر هي
حياة الكرمة والدم هو حياة الجسد»^(٣).

ويقول عوض سمعان عن هذه الخمر: «ولم تكن الخمر التي تستعمل في عيد
الفصح من النوع الذي يسكر، لأنه لم يكن مسموماً بوجود أي نوع من الخمير في هذا
العيد، إذ إنها – كما يقول المؤرخون – كانت عصير العنب الطازج»^(٤).

ومع ذلك فإن النصارى اليوم خالفوا ذلك ويشربون الخمر المسكر بحجّة أن بولس
أباح لهم أن يشربوا أيّ شيء، وكل ما يدخل الفم فليس بنجس – كما يقولون –.

ويستدلّ الشيخ رحمة الله الهندي على بطلان هذه الخرافة بوجوه كثيرة منها^(٥):

(١) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس: ٢٣/١١ - ٢٦.

(٢) انظر: العشاء الرباني، عوض سمعان: ص ١٨.

(٣) المرجع السابق: ص ٢١.

(٤) المرجع السابق: ص ١٠.

(٥) انظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي: ١/٥٦٤ - ٥٦٧. (تحقيق عمر الدسوقي).

(أ) أن الكنيسة الرومانية تزعم أن الخبز وحده يتحول إلى جسد المسيح ودمه ويصير مسيحاً كاملاً، وبذلك فلا بد أن تشاهد فيه عوارض الجسم، ويوجد فيه الجلد والعظام، والحقيقة أن الخبز يبقى خبزاً تشاهد فيه عوارض الخبز لا عوارض الجسم، بدليل أنه لو ذاقه أحد أو لمسه أو نظر إليه لا يحسّ فيه شيئاً غير الخبز، وإذا حفظه يطأ عليه الفساد الذي يطأ على الخبز.

(ب) إذا فرضنا أن ملايين الكهنة في العالم قدّسوا في آن واحد، واستحال تقدمة كل إلى المسيح الذي تولد من العذراء، فلا يخلو إما أن يكون كل من هؤلاء المسيحيين الحادثين عين الآخر، أو غيره، والثاني باطل على زعمهم، والأول باطل في نفس الأمر، لأن مادة كل غير مادة الآخر.

(ج) إذا تحول هذا الخبز مسيحاً كاملاً تحت يد الكاهن فكسر هذا الكاهن هذا الخبز كسرات كثيرة، فلا يخلو إما أن يتقطع المسيح على عدد الكسرات أو تحول كل كسرة مسيحاً كاملاً.

(د) لو صاح ما أدعوه لزم أن يكونوا أخبث من اليهود، لأن اليهود ما آلموه إلا مرة واحدة، وتركوه، وما أكلوا لحمه، وهؤلاء يؤلمونه، ويدبحونه كل يوم في أمكناة غير محصورة. هذه الأوجه وغيرها تدل على أن مسألة الاستحالة هذه مسألة غير معقولة، ولا متصورة، ومن هنا فقد اختلفت طوائف النصارى في تفسيرها، وهل الاستحالة حقيقة أو غير حقيقة.

ولا بد لنا من الإشارة هنا إلى أن هذا المفهوم الجديد على النصرانية – والذي يعتبر من إضافات القديس بولس لها – إنما هو من المفهومات التي تعود في أصولها إلى جذور وثنية.

يقول الأستاذ جيني بير: «ولم يكن قد قدر لأي طقس من طقوس الأسرار الوثنية أن يذخر بمعانٍ وفيه، وبآمال جذابة مثل ما ذخرت به الطقوس الخاصة بالضربات لدى بولس، غير أنها كانت من قبيل عائلة الطقوس الوثنية، ولم تكن نابعة من روح الدين اليهودي، ولقد أدخلت في كنيسة الحواريين قطعة من الوثنية، ولكن المسيحيين تقبلوها أيضاً بصدر رحب، لأنها أضافت إلى إيمانهم درجة أخرى من التسامي»^(۱).

(۱) المسيحية: نشأتها وتطورها، شارل جيني بير: ص ۱۱۰.

٤ - المسح بالميرون المقدس: ويمسح به النصراني وفق تقليد معين بعد الخروج من المعهودية، والميرون مزيج من العقاقير عليه بقايا تحدرت من الدهن الذي صنعه الرسل - كما يدعى رجال الكهنوت - ويقوم الكهنة بهذه العملية.

٥ - وهنالك سرّ المسح على المريض لشفائه جسدياً وروحياً، وسر الزواج للربط بين الزوجين رباطاً مقدساً دائماً^(١).

التثليث والأقانيم عند النصارى:

تعرض ابن القيم رحمه الله في كتابه إلى مسألة التثليث، وبين اختلاف النصارى أنفسهم في تحديد مفهومها.

ونقل ما قاله شيخه ابن تيمية في ذلك: «فلو سألت الرجل وامرأته وأبنته وأباه وأمه عن دينهم لأجابك كل واحد منهم بغير جواب الآخر، ولو اجتمع عشرة منهم يتذكرون الدين لنفرقوا عن أحد عشر مذهبًا»^(٢).

ثم عرض ابن القيم لأقوالهم مبيناً أنها لا يمكن أن تنسجم أو تتساءل مع بعضها، بأسلوب يظهر فيه التهكم من أقوالهم، ونرى ذلك جلياً في قوله بعد نقل مقولتهم: «قالوا: والذى ولدته مريم وعاينه الناس وكان بينهم هو الله، وهو ابن الله، وهو كلمة الله».

بعد ذلك يقول ابن القيم مستهزئاً بمثل هذه المعتقدات: «القديم الأزلي خالق السموات والأرض، هو الذي جبلت به مريم وأقام تسعة أشهر، وهو الذي ولد ورضع، فطعم وأكل وشرب وتغوط، وأخذ وصلب وشد بالحبال وسمّرت يداه».

واكتفى ابن القيم بعد ذلك لبيان بطلان هذا الاعتقاد بإيراد اختلاف فريتهم في تحديد المسألة، فاستعرض أشهر الفرق التي اختلفت في طبيعة المسيح عليه السلام، وهي اليعقوبية، والملكانية، والنسطورية.

(١) راجع المسيحية، أحمد شلبي: ص ٢٤١ - ٢٤٣.

(٢) انظر: الجواب الصحيح: ١٥٥/٣.

ثم قال: «وكل من تلك الفرق الثلاث، عوامهم لا يفهم مقالة خواصهم على حقيقتها».

وأود هنا أن أجلي الحديث عن هذه المسألة التي طال الخوض فيها حتى بين فرق النصارى أنفسهم، مبيناً مناقضتها للعقل وخلوّ الأنجيل الأربعة منها، ومحاولة بعضهم لتوضيحها.

مفهوم التثليث عند النصارى:

عقيدة التثليث أو الثالوث الأقدس – كما يسمّيه النصارى – عقيدة تتفق عليها كل الطوائف المسيحيةاليوم ، وتعدّ أساساً للديانةنصرانية .

وكلمة الثالوث تطلق عند النصارى على وجود ثلاثة أقانيم معاً في اللاهوت ، تعرف بالأب والابن والروح القدس .

ويخلص قاموس الكتاب المقدس هذه العقيدة بالنقاط الست التالية^(١):

- ١ – الكتاب المقدس يقدم لنا ثلاثة شخصيات يعتبرهم شخص الله .
- ٢ – هؤلاء الثلاثة يضعهم الكتاب بطريقة تجعلهم شخصيات متميزة الواحدة عن الأخرى .
- ٣ – هذا التثليث في طبيعة الله ليس مؤقتاً أو ظاهراً بل أبدىً و حقيقيًّا .
- ٤ – هذه الشخصيات متساوية .
- ٥ – لا يوجد تناقض في هذه العقيدة بل تقدم لنا المفتاح لفهم باقي العقائد المسيحية .

والأقانيم كلمة سريانية مفردها أقونوم ، وهو الشخص أو الكائن المستقل بذاته^(٢)، ويعتقد النصارى أن الله مكون من ثلاثة أقانيم هي الأب والابن والروح القدس ، وإن اختلفوا في أقnonom الابن وطبيعته ، هل هو طبيعة واحدة ومشيئة واحدة؟ كما ذهبت الكنيسة

(١) انظر: قاموس الكتاب المقدس : ٢٣٢/١ .

(٢) انظر: الله واحد أم ثالوث ، محمد مجدي مرجان : ص ٩ .

الأرثوذكسيّة، أو أنها من طبيعتين ومشيئتين؟ كما ذهبت الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية، ولا بد عند الحديث عن الثالوث والأقانيم من إبراز قضيّتين هما:

الأولى: أن هذه العقيدة لم يأت بها الإنجيل، ولم يكن الحواريون يعرفونها، وبولس هو الذي أدخلها إلى النصرانية.

الثانية: أن هذه العقيدة لا تتفق مع العقل السوي، وفلسفه النصارى ورجال الدين عندهم يقرّون بذلك، ويعرفون أنها فوق مستوى العقل البشري، وأنه لا طاقة للعقل على استيعابها وفهمها، ولا بد من الإيمان بها دون إدراك لها.

التثلیث فی الكتاب المقدس :

أما القضية الأولى فيكتفي لإثباتها أن نعلم أن الأنجليل الأربع الحالية تخلو من كلمتي: أقانيم، وثالث.

ومع ورود الأقانيم الثلاثة كل على حدة في نصوص الأنجليل، فإننا لا نجد لها مجموعة معاً لتشكل الأقانيم الثلاثة المزعومة إلا في موضع واحد، جاء في آخر إنجيل متى: «امضوا وتلمذوا جميع الأمم باسم الأب والابن والروح القدس»^(١).

والنص مشكوك فيه، ويعتقد أنه مضاف إلى إنجيل متى في فترة متأخرة بعد استقرار مفهوم التثلیث الذي وضع مؤتمر نيقية سنة ٣٢٥ م قواعده الأولى، وأكملا بناؤه في مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ م.

والنصارى يقولون: إن تعليم الثالوث وإن لم يأت به الإنجيل بنصه إلا أنه مطابق لمجموع نصوصه.

يقول بطرس البستاني في دائرة معارفه: «ومع أن لفظة «ثالث» لا توجد في الكتاب المقدس ولا يمكن أن يؤتى بأية من العهد القديم، تصرّح بتعليم الثالوث، فقد اقتبس المؤلفون المسيحيون القدماء آيات كثيرة تشير إلى وجود صور جمعية في اللاهوت»^(٢).

كما جاء في دائرة المعارف الفرنسية أن عقيدة التثلیث وإن لم تكن موجودة في كتب

(١) متى: ١٨/١٩.

(٢) دائرة المعارف، المعلم بطرس البستاني: ٦/٣٥٠.

العهد الجديد، ولا في أعمال الآباء الرسوليين، ولا عند تلاميذهم الأقربين، إلا أن الكنيسة الكاثوليكية والمذهب البروتستانتي التقليدي يدعيان أن عقيدة التثليث كانت مقبولة عند المسيحيين في كل زمان، رغمًا من أدلة التاريخ التي ترينا كيف ظهرت هذه العقيدة، وكيف نمت، وكيف علقت بها الكنيسة بعد ذلك^(١).

رغم هذه الحقائق والأدلة فإن النصارى مصرّون على أن هذه العقيدة جاء بها الكتاب المقدس، وهم يحاولون بكل وسعهم جمع النصوص التي يجدون فيها إشارة إلى هذا الثالوث الذي يعتقدونه، ولو بطرف خفي، ليتمسكون بأية حجة، ولو كانت واهية لا تدل على المعنى الذي ينشدونه، وهم ينشرون ذلك في كتبهم ورسائلهم، يقول (رمسيس ونيس): «عقيدة التثليث ليست جديدة على الكتاب المقدس، بل هي خيط قرمزي يبدأ من التكوين إلى الرؤيا^(٢) وذلك دليل واضح على أن فكرة التثليث والتوحيد ليست حادثةً من اختراع الكنيسة الأولى، بل هو فكر الله منذ الأزل»^(٣).

التثليث في ميزان العقل :

وأما القضية الثانية التي أردنا إبرازها فهي مخالفة عقيدة الثالوث للعقل السليم. والنصارى أنفسهم لا يدركونحقيقة هذا الاعتقاد، ومن هنا جاء اختلاف طوائفهم في فهم هذه العقيدة. وهم يؤمنون بها سمعاً وتقليداً لما ورثوه من آبائهم، ولا يسمحون لعقولهم أن تتعقب في البحث عن أسرارها.

واعترافات النصارى بعدم قبول العقل لعقيدة التثليث كثيرة، وينقل لنا صاحب كتاب «الله واحد أم ثالوث» بعض هذه الاعترافات التي صرّح بها بعض كتاب المسيحية^(٤)، ومن ذلك ما ينقله عن القس (توفيق جيد) في كتابه (سر الأزل) إذ يقول فيه: «إن الثالوث سرّ يصعب فهمه وإدراكه، وإن من يحاول إدراك سرّ الثالوث تمام الإدراك كمن يحاول وضع مياه المحيط كلها في كفه».

(١) انظر: دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد جبري: ٢٠٢ / ١٠ نقلًا عن دائرة المعارف الفرنسية.

(٢) أي يشمل الكتاب المقدس كله بدءاً من سفر التكوين وانتهاءً برسالة رؤيا يوحنا الثانية.

(٣) هل الله موجود؟، رمسيس ونيس: ص ١٧ - ١٨.

(٤) انظر كتاب: الله واحد أم ثالوث، محمد مجدي مرجان: ص ٧٠ - ٧١

ويقول باسليوس إسحق في كتابه الحق: «أجل إن هذا التعليم عن الثالوث فوق إدراكنا، ولكن عدم إدراكه لا يبطله» أما الأستاذ (يس منصور) فيقول في كتابه التشليث والتوحيد: «إن من الصعب أن نحاول فهم هذا الأمر بعقولنا القاصرة».

ثم يأتي الأستاذ عوض سمعان فيقول أيضاً بصراحة في كتابه: (الله ذاته ونوع وحدانيته): «إننا لا ننكر أن التشليث يفوق العقل والإدراك، ولكنّه يتوافق مع كمال الله كل التوافق».

ويستطرد الأستاذ عوض سمعان قائلاً: «لقد حاول كثيرون من رجال الفلسفة توضيح إعلانات الكتاب المقدس عن ذات الله، أو بالأحرى عن ثالوث وحدانيته، فلم يستطعوا إلى ذلك سبيلاً، لأنهم انحرفوا عن أقواله واعتمدوا على عقولهم وحدهما».

أما القس (بطرس) صاحب رسالة الأصول والفروع فيقول بعد استعراضه عقيدة التشليث وملحوظته عمومها: «قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا، ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاءً في المستقبل، حين يكشف لنا الحجاب عن كل ما في السموات والأرض، وأما في الوقت الحاضر ففي القدر الذي فهمناه الكفاية». ويعقب الأستاذ مرجان على هذه الاعترافات التي ساقها عن كتاب النصرانية بتساؤلات مناسبة فيقول: ترى إذا كان الفلاسفة والعلماء قد عجزوا عن فهم هذا الثالوث، فمن يرى يستطيع فهمه؟ وما هو موقف البسطاء وال العامة إذا ما حاولوا الفهم؟ وإذا لم تستطع إدراك عقائدها الدينية بعقولنا، فبماذا يا ترى يمكننا إدراكتها؟ .

هل يطلب منّا دعاة التشليث أن نتخلى عن عقولنا ونسلم بالثالوث؟ وإذا كانت جميعاً نحن وهم لا ندرك هذا الثالوث، فكيف يمكن لأي منا أن يتبعه أو يسير عليه^(١)؟ .

وتحت عنوان «خلاصة العقيدة القبطية» يتحدث الأب زكي شنودة في موسوعته عن مسألة الثالوث فيقول: «وهذه حقيقة تفوق الإدراك البشري الذي لا يفهم، إلا أن الطبيعة الواحدة إنما تتضمن أقساماً واحداً، أي ذاتاً واحدة، وأن تعدد الأقانيم أو الذوات إنما يستوجب تعدد الطبائع، بيد أن هذا الحال هو بالنسبة للطبيعة المخلوقة لا الخالقة»^(٢).

(١) الله واحد، أم ثالوث: ص ٧١.

(٢) تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ٢٤١/١.

هذه الاعترافات إنما تدل على أن القوم أنفسهم لم يستطيعوا هضم هذا الاعتقاد الفلسفي الدخيل على النصرانية، مما اضطربهم إلى أن يبدأوا بالبحث عن مخرج أو تبرير يقدمونه لأتباعهم محاولة لإقناعهم وإزالة اللبس من أذهانهم.

محاولات للتوضيح :

رغم مخالفة التثليث لأبسط قواعد العقل، ولعدم استناده إلى أدلة نصية واضحة من الكتاب المقدس، إلا أن بعض كتاب النصرانية حاولوا توضيح مفهوم الأقانيم، وتبسيطه قدر استطاعتهم، ومن ذلك ما نجده عند الأب زكي شنودة في تاريخ الأقباط إذ يقول: «قد فهمنا من كلام السيد المسيح أن الأقانيم الثلاثة الذين في الله، وإن اتحدوا جوهراً وطبعاً وذاتاً وصاروا واحداً، إلا أنهم ثلاثة لا واحد من حيث الأقنية، فالآب ليس هو الابن والروح القدس ليس هو الآب ولا الابن، غير أن لكلٍّ مالآخر من الألقاب والصفات الإلهية... ذلك لأن الطبيعة واحدة ولأن الأقانيم الثلاثة هم واحد، دون تعدد أو تركيب أو تأليف وإلا كان في الذات العليَّة ثلاثة آلهة»^(١).

كما حاول الآب شنودة أن يوضح لنا طبيعة كل أقانيم، والعلاقة بينها فقال: «وقد دعي الأقانيم الأول آباً أو والداً، والثاني ابنآً أو مولوداً، وليس المقصود خروج كائن من كائن أو الانتقال من اللاوجود إلى الوجود، وإنما المقصود بها أن الأقانيم الأول هو بمثابة ينبوع أعطى الأقانيم الصادر عنه طبيعته وجوهره كله، فكان الثاني صورة كاملة للأول مساوياً له في الطبيعة والجوهر... وقد دعي الأقانيم الثالث الروح القدس، ليس لأن بيته وبين الأقانيمين الآخرين تميزاً في روحانية الجوهر، لأنهم متتساوون في ذلك، وإنما لأعماله الخاصة به. والروح القدس وإن كانت له طبيعة الآب وجوهره كالابن إلا أنه لم يدع ابنآً، بل يقال له (روح منشق) أي صادر عن الآب، وهذا سر من أسرار الlahوت الغامضة التي لا يمكن إدراك كنهها بالعقل البشري، وإنما ينبغي أن نؤمن بها كما وردت على لسان المسيح»^(٢).

ولقد حاول الأستاذ مرجان – وقد كان نصرانياً – أن يعرف بالعناصر الثلاثة التي

(١) تاريخ الأقباط، شنودة: ٢٤١/١.

(٢) المرجع السابق: ٢٤٢ – ٢٤١/١.

تكون الثالوث مستنداً في تعريفه – كما قال – إلى الكتاب المقدس. فأعطي فكرة عن حقيقة كل عنصر من هذه العناصر^(١).

وتحت عنوان «حقيقة الآب» قال الأستاذ مرجان: «الله الآب هو الأقنوم الأول في الثالوث المسيحي، وقد سمي أباً لأن له في اعتقاد فلاسفة المسيحية ابنًا، والابن هو المسيح، وبما أنه مولود من الله فهو إله مثل الله»^(٢). ويبين الأستاذ مرجان أن اعتقاد البنوة هذا ليس واضحاً بمفهومه الحالي في الكتاب المقدس، وإذا كانت بعض النصوص تطلق على المسيح (ابن الله)، فإن نصوصاً غيرها تطلق عليه ابن الإنسان وابن داود، وقد ناقش هذا الاعتقاد جيداً، وبين أن لفظ البنوة هذا لا يقصد به وجود علاقة نسب خاصة بين الله وبين المسيح، كما لم يقصد به ولادة السيد المسيح أو تناслه من الله أو انفراده وحده بنبوة الله، وإنما قصد بها فقط إبراز قرب السيد المسيح عليه السلام من الله، ويشارك معه في هذا القرب كافة أنبياء الله وعباده الصالحين^(٣).

وسرد الأستاذ مرجان مجموعة من نصوص الكتاب المقدس أطلقت لفظ (ابن الله) على عدد من الأنبياء، مثل آدم ويعقوب وداود وسليمان^(٤) عليهم السلام.

كما استعملت التوراة هذا اللقب لأفراد الشعب: «أنت أولاد الرب إلهكم»^(٥) وأطلقته على المؤمنين بالله من أتباع نوح عليه السلام^(٦).

كما صرّح العهد الجديد بذلك أيضاً في نصوص كثيرة: «طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله»^(٧)، «لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات»^(٨)، «إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم»^(٩) إلى غير ذلك من عشرات النصوص من مثل ذلك.

(١) الله واحد أم ثالوث، مجيدي مرجان: ص ٩٤.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) المرجع السابق: ص ٩٤ – ٩٥.

(٤) انظر: لوقا: ٣٨/٢، صموئيل الثاني: ١٧/١٤، أخبار الأيام الأولى: ١٠/٢٢.

(٥) انظر: التكوين: ١/١٤.

(٦) انظر: التكوين: ١/٦ – ٣.

(٧) متى: ٩/٥.

(٨) متى: ٤٥/٥.

(٩) يوحنا: ١٧/٢٠.

حقيقة الابن :

يعتقد النصارى أن الله الابن هو الكلمة التي خرجت من الذات فصارت الكلمة ابنًا للذات، وصارت الذات أباً للكلمة، وصارت كل من الذات والكلمة أقونماً قائماً بذاته يدعى الأول (الله الأب)، ويدعى الثاني (الله الابن)، ويبتدئء يوحنا إنجيله بهذه المسألة فيقول: «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله... والكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا»^(١).

وبهذا يقرر (يوحنا) أن الله الكلمة وهو الله الابن، وأن الله الكلمة تجسد وحلَّ بين البشر على الأرض، وأن الله الكلمة هو الابن الوحيد لله الأب، وهو المسيح عليه السلام. فاليسوع ابن الله وهو في نفس الوقت إله الكلمة، الذي اتخذ جسداً وحلَّ بين البشر.

ولم يتضح هذا المفهوم في الكتاب المقدس إلا في إنجيل يوحنا، وهو إنجيل مشكوك في نسبته إلى يوحنا الحواري، فقد أنكر علماء المسيحية في القرن الثاني نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا الحواري^(٢).

ونقل الأستاذ متولي شلبي عن (ستادلن) قوله: «إن كافة إنجيل يوحنا تصنيف طالب من طيبة مدرسة الاسكندرية... وكانت فرقه ألوجين في القرن الثاني تنكر لهذا الإنجيل وجميع ما استند إلى يوحنا»^(٣).

كما نقل لنا الشيخ أبو زهرة عن دائرة المعارف البريطانية ما نصه: «أما إنجيل يوحنا فإنه لا فِرْيَة ولا شُكّ كتاب مزور أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما البعض، وهما القديسان يوحنا ومتى، وقد ادعى هذا الكاتب المزور في متن الكتاب أنه هو الحواري الذي يحبه المسيح، مع أن صاحبه غير يوحنا يقيناً... وإننا لننرأف على الذين يبذلون متنهم جهدهم ليربطوا ولو بأوهى رابطة ذلك الرجل الفلسفى الذى ألف هذا

(١) يوحنا: ١/١ ، ١٤ .

(٢) انظر: أضواء على المسيحية، متولي شلبي: ص ٤٧ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

الكتاب في الجيل الثاني ، بالحواري يوحنا الصياد الجليل ، فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى لخطفهم على غير هدى»^(١) .

وقد تعرّض الأستاذ موريس بوكاي لإنجيل يوحنا ، وبين أن الشك قائم حول الكاتب ، ورجح أن له أكثر من كاتب . وينقل (كولمان) – أحد النقاد من النصارى – أن هناك إضافات لاحقة جلية في هذا الإنجيل مثل الفصل الحادي والعشرين الذي قد يكون عمل تلميذ ، أجرى بعض التقييمات في جسم هذا الإنجيل ، ثم يعقب الأستاذ بوكاي على ذلك فيقول : «هذا وإن الملاحظات الفريدة المعطاة من أكبر الكتاب المسيحيين المذكورة هنا في مسألة كاتب الإنجيل الرابع تؤكد كلها – دون عرض الافتراضات الصادرة عن الشرح – غموض الأمر حول هوبيته»^(٢) .

وال المسيح هو كلمة الله حقاً ، وقد أطلق القرآن الكريم عليه هذا الوصف : «يا مریم إن الله يشرک بكلمة منه اسمه المسيح عیسی ابن مریم»^(٣) .

إلا أن المعنى الذي يعنيه القرآن الكريم : هو أن المسيح عليه السلام خلق بكلمة من الله ، هي كلمة (كن) التي خلق بها الأشياء كلها «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون»^(٤) وأراد القرآن الكريم أن يقرب صورة خلق عيسى عليه السلام من غير أب إلى الأذهان ، فشبّهه بأدم عليه السلام ، الذي خلق من غير أب ولا أم ، فقال : «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون»^(٥) .

أما النصارى فإنهم ضلوا في فهم الكلمة ، وصاغوا بها عقيدة جديدة ، لم يسمع بها عيسى عليه السلام ولا حوارييه ، يقول القمص إبراهيم في كتابه رسالة التشليث : «إنه لا فرق بين الله وكلمته ، كما أنه لا فرق بين الإنسان وكلمته»^(٦) .

وهذا يعني عند النصارى أن الكلمة هي ذات الله تعالى ، مع أن لفظ كن الذي

(١) انظر: محاضرات في النصرانية ، محمد أبو زهرة: ص ٤٥ نفلاً عن دائرة المعارف البريطانية.

(٢) انظر: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ، مورس بوكاي: ص ٧١ - ٧٢.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٤٥.

(٤) سورة يس: الآية ٨٢.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٥٩.

(٦) انظر: الله واحد أم ثالوث ، مجدي مرجان: ص ١٠٥ نفلاً عن رسالة التشليث.

خلق الله به عيسى عليه السلام، خلق به آدم، وخلق به الكون، وكل شيء في الوجود، فهل هذه كلها ذات الله تعالى؟

حقيقة الروح القدس :

يرى المثلثة من النصارى أن الروح القدس الذي يمثل عنصر الحياة في الثالوث الأقدس يعتبر أقتماً قائماً بذاته وإلهاً مستقلاً بنفسه.

يقول الأستاذ يس منصور: «إن الروح القدس هو الله الأزلي فهو الكائن منذ البدء قبل الخلية، وهو المخالق لكل شيء، والقادر على كل شيء، والحاصل في كل مكان وهو السرمدي غير المحدود»^(١).

وقد أضيف هذا الأقتموم ليكمل الثالوث في قانون الإيمان المسيحي في مؤتمر القسطنطينية سنة ٣٨١ م.

ولا خلاف بين النصارى اليوم في الوهية الروح القدس، ولكن الخلاف في انبثاقه (فمجمع القسطنطينية حكم بأن الابن والروح القدس مساويان للأب في وحدة اللاهوت وأن الابن ولد منذ الأزل من الأب وأن الروح القدس منبتق من الابن أيضاً، وقد قبلت الكنيسة اللاتينية هذه الزيادة وتمسك بها، أما الكنيسة اليونانية فمع أنها كانت في أول الأمر ساكتة لا تقاوم إلا أنها أقامت الحجّة فيما بعد على تغيير القانون حاسبة ذلك بدعة)^(٢).

وعلى ذلك الكنيسة الأرثوذكسية ومنها القبطية حيث يقول صاحب تاريخ الأقباط: «والروح القدس منبتق من الأب وحده فالابن ليس له انبثاق»^(٣).

والحقيقة أن لفظ روح القدس يرد في الكتب المنزلة ويقصد به عدة معان منها:

١ - روح الله التي تحدث الحياة في الكائنات: ومن هذه الروح خلق آدم خلق المسيح بل خلق البشر جميعاً «إذا سوتته وفاحت فيه من روحي»^(٤).

(١) انظر: الله واحد أم ثالوث: ص ١١٦.

(٢) انظر: دائرة المعارف، بطرس البستاني: ٣٠٥/٦.

(٣) انظر: تاريخ الأقباط، زكي شنودة: ٢٤٧/١.

(٤) سورة السجدة: آية ٩.

وبهذا المعنى يورد حزقيال النبي قول الله لآلاف الموتى الذين أحياهم الله على يديه، يقول الله لهم «وأجعل روحني فيكم فتحيون»^(١) فالروح هنا هي سر الحياة وهي نفحة من روح الله وقبس ضئيل من قوته.

٢ - القوة التي يؤيد الله بها أنبياءه وأولياء المؤمنين: فالله سبحانه يؤيدهم بروح من عنده، ومن ذلك قوله تعالى: «وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكّر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس»^(٢).

ومنه قوله ﷺ لحسان: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله»^(٣).

ومن هذا المعنى قول المسيح الذي يورده لوقا في إنجيليه: «روح الرب علي لأنّه مسحني لأبشر المساكين»^(٤).

٣ - قد يأتي المعنى خاصًا بالروح الأمين جبريل عليه السلام «قل نزله روح القدس من ربك بالحق»^(٥).

هذا هو معنى روح القدس، وليس هي الله، ولا أقنوماً أو جزءاً أو عنصراً في الله، وإنما هي قوة من خلق الله، ونفحة من قواه، وقبس من نور ضياء، ينعم بها على المؤمنين والصالحين.

بطلان عقيدة التشليث:

لقد أوضحنا أن هذه العقيدة لا تملك سندًا لها من الكتاب المقدس، ولا من العقل السليم، وهذا يكفي لإثبات بطلانها إذ لا يؤيدتها المنشول، ولا المعقول، وتستطيع أن تؤكّد بطلان هذه العقيدة إذا أشرنا إلى أصولها الوثنية ، وأثر الفلسفة الوثنية عليها.

(١) حزقيال: ٣٧/٤٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ١١٠.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، فضائل الصحابة: ص ١٥٧.

(٤) لوقا: ١٨/٤.

(٥) سورة النحل: الآية ١٠٢.

الثلث عقيدة وثنية :

قبل أن نبدأ بإثبات وثنية الثلث، لا بد لنا من الإشارة إلى أنه ليس الثلث وحده من أصول النصرانية وثنية، فأكثر تعاليمها الحالية مستعار من الوثنية.

والدارس للنصرانية اليوم إذا رجع إلى كتب الديانات الوثنية القديمة يدهشه ذلك التماثل الواضح بين الشعائر والطقوس والأركان النصرانية الوثنية.

حتى إنه يمكننا أن نردد مع الأستاذ العقاد أن كل شعيرة في المسيحية كانت معروفة في ديانات كثيرة سبقتها، حتى تاريخ الميلاد وتاريخ الآلام قبل الصلب، في يوم الخامس والعشرين من ديسمبر الذي يحتفل فيه بمواليد المسيح، كان هو يوم الاحتفال بمواليد الشمس في العبادة المثانية^(١).

ويتابع الأستاذ العقاد قوله: «وقد اعترضت الكنيسة الشرقية على هذا اليوم لهذا السبب، وفضلت أن تختر لعيد الميلاد اليوم السادس عشر من شهر يناير الذي تعمد فيه المسيح، على أن هذا اليوم أيضاً كان عيد الإله (ديونسيين) عند اليونان، وكان قبل ذلك عيد (أوزيريس) عند المصريين، ولا يزالون يحتفلون به إلى عصمنا هذا باسم عيد الغطاس، وقد اتخذت المسيحية يوم الخامس والعشرين من شهر آذار تذكاراً للألم المسيح قبل الصليب، وهذا هو الموعد نفسه الذي اتخذه الرومان قبل المسيح لتذكرةً للألم الإله (أتيس) إله الرعاة المولود من (نانا) العذراء بغير ملامسة بشريّة... . وتخصيص يوم الأحد بالعبادة لأنّه كان يوم الشمس في ديانة عبادها الأقدمين، واسم هذا اليوم بالإنجليزية (Sunday)، ومعناه الحرفي يوم الشمس، يدل على بقايا هذا الدين المهجور»^(٢).

كما أن الباحثين أثبتوا بعض المعتقدات النصرانية الطارئة عليها، والتي لم يكن الجيل الأول يعرفها.

يقول الدكتور أسد رستم: «... والمسيحيون في عصرهم الأول قدّسوا السبت لا الأحد، ولم يصبح الأحد يوم الرب قبل القرن الثاني الميلادي»^(٣).

(١) المثانية: نسبة إلى الإله (مثرا) أحد آلهة قدماء الفرس.

(٢) انظر: كتاب (الله)، للعقاد: ص ٥٣.

(٣) انظر: الروم، د. أسد رستم: ٣٨/١.

وقد كتب الأستاذ (محمد طاهر تثير) كتاباً سماه (العقائد الوثنية في الديانة النصرانية)، ففصل فيه علاقة النصرانية بالعقائد الوثنية السابقة وأوضح العلاقة الوطيدة بين كل شعيرة من شعائر النصرانية، وما يماثلها من عقائد الوثنين.

والملطلع على هذا الكتاب يعلم علم اليقين أن نصرانية بولس لا تزيد على كونها مزيجاً من فلسفات وعقائد وثنية.

وستقتصر على توضيح علاقة عقيدة التثلث عند النصارى بما يماثلها عند الوثنين.

التثلث عند الوثنين:

فكرة تعدد الآلهة فكرة قديمة عند الإنسان، بدأت عند قوم نوح عليه السلام، وقد عبد الناس آلهة شتى، ولكن أبرز عقائد المعددين هي عقيدة التثلث، والمتابع لتاريخ الأديان الوثنية يجد أن الثالوث المقدس يعتبر من أصول هذه العقائد الوثنية، وقد عرف هذا التثلث قدماء المصريين والهنود، وعرفه قدماء اليونان والرومان والفرس.

التثلث عند قدماء المصريين:

يقول الأستاذ (تثير): «كان المصريون يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم مصوراً في أقدم هيكلاتهم، ويظنن أهل العلم أن الرمز الذي يصورونه، وهو جناح ووكر وأفعى، إن هو إلا إشارة إلى ذلك الثالوث واختلاف صفاته»^(١).

وقال العلامة (دوان) في كتابه (خرافات التوراة والإنجيل): (وكان قسيسو هيكل ممفيس بمصر يعبرون عن الثالوث المقدس للمبتدئين بتعلم الدين بقولهم: «إن الأول خلق الثاني، والثاني مع الأول خلقا الثالث، وبذلك تم الثالوث المقدس»^(٢)).

وسائل (توليسيو ملك مصر الكاهن (تنشوكي)) ليخبره هل كان أحد قبله أعظم منه، أو هل يكون أحد بعده أعظم منه؟ فقال له الكاهن: نعم يوجد من هو أعظم، وهو أولاً الله، ثم الكلمة ومعهما روح القدس، ولهؤلاء الشّلاة طبيعة واحدة، وهم واحد بالذات وعنهم صدرت القوة الأبدية^(٣).

(١) انظر: العقائد الوثنية في النصرانية، تثير: ص ٢٤.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٦.

(٣) المرجع السابق نفسه.

فهل نجد فرقاً جوهرياً بين هذا الثالوث والثالوث المسيحي؟ إنها نفس الأوصاف، بل نفس الكلمات.

وإنك لتحس التعمّد الواضح من واضح هذه الأقانيم في النصرانية للقضاء عليها، ولتنزيبها في متأهات الوثنية القديمة. وهذه المطابقة بين النصرانية والوثنية ليست تأثراً بسيطاً نشأت عن الجو الوثني السائد في ذلك الرمان فحسب، بل هي استعارة لأسس العقائد الوثنية ومرتكزاتها لتكون أساساً للنصرانية الجديدة.

وحتى يتضح لنا الأمر لا بد لنا أن نتعرف على الثالوث المصري وأقانيمه الثلاثة.

والأستاذ مجدي مرجان يذكر أن الثالوث الفرعوني يتكون من ثلاثة أقانيم إلهية هي :
الأقنوم الأول : الإله أو سيري (أوزيريس) ويسمى الأب أو الوالد والاعتقاد عنه أنه الإله الأعظم الأكبر علة ولادة الأقنوم الثاني (هورس) خالق المخلوقات ورب الآرباب.

الأقنوم الثاني : الإله (هورس) ويسمى الابن أو النطق أو الكلمة وهو ابن الإله (أوسيري) وهو النور والشمس المشرقة، وهو إله النطق والكلام، ولذا صوروه رافعاً أصبعه إلى فمه، كما شبهوه أيضاً بعجل ممتاز عن بقية العجول^(١)، ولد من نار الالهوت من عجلة بكر لم تلد سواه، وهو يحمل ذنوب وخطايا العالم، وهو غير الأقئومين الآخرين تشبه وحده بسانان ليكون قابلاً للموت.

الأقنوم الثالث : الإله (ايزيس) وتسمى الأم أو الوالدة. والاعتقاد عنها أنها ملكة السماء، وأنها أم الأقنوم الثاني ، وقد رمزوا لها بصورة طائر جميل وعلى رأسه صولجان، رسموا بجانبه عالمة الحياة ، وهم يشيرون بذلك إلى أن الإلهة (ايزيس) باعثة الحياة للبشر، كما صوروه امرأة جالسة على عرشهما ترضع ابنها (الأقنوم الثاني) وعلى رأسها تاج الملك وقرص الشمس^(٢).

هذا هو الثالوث المصري بأقانيمه الثلاثة لا يكاد يختلف عن الثالوث النصراني شيئاً، ونجد المطابقة الكاملة بين هذا الاعتقاد وبين ما جاء في قانون الإيمان النيقاوي، حتى في التسميات والتصاویر.

(١) وصف المسيح عليه السلام في الإنجيل بربنا بالعجل الأحمر، انظر: ربنا: ٤/٧.

(٢) انظر: الله واحد أم ثالوث ، مرجان: ص ٧٩ – ٨٠.

الثالثون عند الهندو:

عرف الهندو بكثرة ديانتهم وتعدد آلهتهم، وقد عرف عندهم أكثر من ثالوث.

وينقل الأستاذ (ماليني) عن الكتب الهندية القديمة التي ترجمت إلى الإنجليزية شارحة عقيدة الهندو القدماء ما نصه: «نؤمن بسافري أي الشمس إله واحد ضابط الكل خالق السموات والأرض وبابنه الوحيد (آني) أي النار، نور من نور، مولود غير مخلوق، تجسد من (فایو) أي الروح في بطن (مايا) العذراء، ونؤمن بـ(فایو) الروح المحيي المنبع من الأب والابن، الذي هو مع الأب والابن يسجد له ويحمده»^(١).

وقاريء هذا النص يحس أنه يقرأ وثيقة الإيمان التي وضعها مجمع نيقية وتؤمن بها الكنائس على اختلافها.

أما البراهمة فقد اعتقادوا بثالوث إلهي مكون من ثلاثة أقانيم هي: الإله (براهما) في صورة الخالق، والإله (فسن) في صورة الحافظ، والإله (سيفا) في صورة الهاشم.

فقد جاء في كتب البرهمين المقدسة المعتبرة لديهم أن هذا الثالوث غير منقسم في الجوهر، ويوضحونه بقولهم: (برهمة) الممثل لمبادئ التكوين والخلق وهو الأب، (فسن) يمثل مبدأ الحماية وهو الابن المنقلب عن الحال اللاهوتية، و(سيفا) المبتدئ المهلك والمعيد وهو (روح القدس)، ويدعونه (كرشنا) الرب المخلص والروح العظيم، حافظ العالم المنبع (أي المtower منه) (فسن) الإله الذي ظهر بالناسوت على الأرض، ليخلاص العالم، فهو أحد الأقانيم الثلاثة التي هي الإله الواحد^(٢).

وشخصية (كرشنة) في البرهمية تقابلها شخصية المسيح في النصرانية، وقد نقل لنا الأستاذ محمد طاهر تثير مقابلة رائعة بين ما يقوله البراهمة في كرشنة، وبين ما يقوله النصارى في المسيح، وقد أورد ستة وأربعين نصاً وردت في عقيدة البراهمة عن كرشنة، تقابلها بنفس المعنى، وأحياناً بنفس اللفظ نصوص وردت في كتب النصارى عن المسيح^(٣).

(١) انظر: الله واحد أم ثالوث، مرجان: ص ٨١.

(٢) انظر: العقائد الوثنية في النصرانية، محمد طاهر تثير: ص ٢٠.

(٣) المرجع السابق: ص ١٤٦.

وكذلك الأمر كان في البوذية، ثلاثة أقانيم، وشخصية بودا تقابل شخصية المسيح، والشبة بين في المعتقدات بينهم وبين النصارى.

التثليث عند الأمم الأخرى:

عرف التثليث عند أمم وثنية كثيرة كاليونان والرومان والفرس والهندوس في المكسيك وكندا، وعرفته الفلسفة الصينية.

أما اليونان القدماء فقد عرّفوا التثليث، وظهر في شعرهم؛ قال (دوان) نقلًا عن (أورفيوس) – وهو أحد كُتاب اليونان وشعرائهم الذين كانوا قبل المسيح بعده قرون ما نصه –: (كل الأشياء عملها إله الواحد مثلث الأسماء والأقانيم)^(١)، وقدماء الرومان عرّفوا التثليث، قال العلامة (فسك) في كتابه (الخرافات ومخترعوها): «وكان الرومانيون الوثنيون القدماء يعتقدون بالثالوث وهو أولاً الله ثم الكلمة ثم الروح»^(٢).

وكذلك الفرس، فإنهم عبدوا الثالوث أيضًا، ويكتون من: (أورمزد، ومتراث، واهرمات)^(٣) وقد عبد إله ذو الأقانيم الثلاثة عند الهندوس في المكسيك وكندا، يقول اللورد (كنسبرو) في كتابه (آثار المكسيك القديمة: ١٦٤/٥): والمكسيكيون يعبدون إلهًا مثلث الأقانيم ثم يستشهد على ذلك بقصة قال فيها: (لما عين (بوتولوميو) مطراناً سنة ١٤٤٥ م أرسل أحد القساوسة إلى المكسيك، ليشرّب بين الهندوس بالmessiahية، وكان هذا القس عارفًا بلغة الهندوس، وبعد مضي عام على ذهابه أرسل مكتوبًا إلى المطران المذكور يقول فيه: إن الهندوس يؤمنون بإله كائن في السماء مثلث الأقانيم، وهو: إله الأب والإله ابن وإله روح القدس، وهؤلاء الثلاثة إله واحد، واسم الأب (بزونا) واسم ابن (باكاب) مولود من عذراء، واسم روح القدس (إيكيهيا) ويعبدون صنماً اسمه (تنكا) يقولون عنه إنه واحد في ثلاثة أقانيم وإنه ثلاثة أقانيم في إله واحد^(٤).

وكان هذا القسيس يبعث إلى سيده المطران أنه لا داعي للتبرير بالنصرانية بين هؤلاء الوثنيين، فإن اعتقاداتهم لا تختلف عن اعتقاداتنا.

(١) العقائد الوثنية في النصرانية: ص ٢٩.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) المرجع السابق: ص ٣٠.

(٤) انظر: العقائد الوثنية في النصرانية: ص ٣١.

التثليث والفلسفة :

عندما ابتدأت فكرة عالمية النصرانية على يد القديس (بولس) ودخلت النصرانية إلى العالم الوثني، وخاضت معركة مع الوثنية من جهة، ومع الفلسفة من جهة أخرى، بدأت أفكار تلك الأمم تتسلل إليها (وكان منمن دخل المسيحية في أوائل عهدها رجال متلقون بالثقافة اليونانية المنتشرة حينذاك في حوض البحر المتوسط)^(١).

وقد وقعت النصرانية تحت تأثير الفلاسفة الذين راحوا يطبقون أساليب التفكير التي علموها في المدارس على مبادئ الإيمان، وعلى النظريات التي أوصت بها العاطفة الدينية للسلوك البسطاء، ونشأت عقائد معقدة مثل التثليث، وأخرى تريد أن تكون ذكية مثل تحول الخبز والخمر بطقوس القرابان إلى لحم ودم المسيح^(٢).

وأكثر فلسفة اتضحت فيها فكرة التثليث هي الأفلاطونية الحديثة في الإسكندرية وستقتصر عليها:

فقد اتضحت فكرة التثليث بارزة عند الفلاسفة في مدرسة الإسكندرية، أو ما يسمى بالأفلاطونية الحديثة، فإن التثليث فيها بأقаниمه الثلاثة لا يكاد يختلف شيئاً عن التثليث في النصرانية.

وكان شيخ مدرسة الإسكندرية (أمينوس) المتوفى سنة ٢٤٢ م اعتنق في صدر حياته المسيحية، ثم ارتد عنها إلى وثنية اليونان الأقدمين، وجاء من بعده تلميذه (أفلوطين) المترافق سنة ٢٧٠ ، وقد تعلم في مدرسة الإسكندرية أولاً، ثم رحل إلى فارس والهند، وهناك استقى ينابيع الصوفية الهندية، واطلع على تعاليم بودا، وديانة برهمة، ثم عاد بعد ذلك إلى الإسكندرية، وأخذ يلقي بآرائه على تلاميذه^(٣).

وأفلوطين هو الذي برزت في ذهنه قضية التثليث، وهي قد تسللت إلى ذهنه وتعلمتها من الديانات الهندية، وقد تحدثنا عن التثليث عند الوثنين الهنود، ولاحظنا تثليث

(١) انظر: دروس تاريخ الفلسفة، إبراهيم مذكر ويوسف كرم: ص ٩٤.

(٢) انظر: المسيحية، شارل جيني بير: ص ١٥٤ - ١٥٥.

(٣) محاضرات في النصرانية، أبو زهرة: ص ٤٠ (الهامش) عن كتاب مقدمة أو المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية، للمستشرق ليون جوتيه، طبع بباريس سنة ١٩٢٣ م.

البراهمة وتثليث البوذيين ، فعاد أفلوطين من هناك وهو يحمل في جعبته هذه الأفكار .
وتلخيص اعتقاده في منشىء الكون في ثلاثة أمور :

أولها: أن الكون قد صدر عن منشىء أزلي دائم لا تدركه الأبصار .

ثانيها: أن جميع الأرواح شعب لروح واحد، وتنتمي بالمنشىء الأول بواسطة .

ثالثها: أن العالم في تدبيره وتكوينه خاضع لهذه الثلاثة ، فالله منشىء الأشياء وهو مصدر كل شيء . . . وأول ما صدر عنه هو العقل ، صدر عنه كأنه يتولد منه ولهذا العقل قوة الإنتاج ، لكن ليس كمن تولد عنه ، ومن العقل تبثق الروح التي هي وحدة الأرواح وعن هذا الثالوث يصدر كل شيء ومنه يتولد كل شيء^(١) .

فيه هناك فرق بين هذا الاعتقاد الفلسفى وبين عقيدة الثالوث النصرانية التي أقرتها مجتمع النصارى ، فالكون عند أفلوطين صدر عن منشىء أزلي دائم ، وهو ما يطلق عليه النصارى اسم (الأب) ، والعقل هو الواسطة وهو صادر عن المنشىء الأول وهو ما يطلق عليه عند النصارى اسم (الابن) ، وعن هذا العقل تبثق الروح وهي ما يسميه النصارى (روح القدس) ، ويقول أفلوطين : وعن هذا الثالوث يصدر كل شيء ، ومنه يتولد كل شيء ، وهذا هو نفس اعتقاد النصارى في الثالوث الذي يعتبر منشىء الكون وخالقه ، يتولد منه كل شيء في الحياة

ونحن أمام ذلك نجزم بأن المسيحية قد أخذت فكرة التثليث إما عن الفلسفة مباشرة ، وذلك لأن أفكار أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ م كانت سابقة على الفترة التي أفرّ فيها التثليث في مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م ، وإنما أن تكون المسيحية قد أخذت فكرة التثليث عن الوثنية ، وهي نفس المعين الذي استقرت منه مدرسة الإسكندرية أفكارها ومعتقداتها . . . المهم أن عقيدة التثليث دخلة على النصرانية . . . ما كانت إلا انعكاساً للدراسات الأفلاطونية الحديثة والأوهام السائدة في المجتمع الروماني اليوناني .

واللاهوتيون المسيحيون يتغاهلون الترتيب الزمني ويحاولون أن يعززوا القول بأن التفسيرات التالية في الحدوث حسب الترتيب الزمني هي أصل المسيحية أو جوهرها الذي

(١) محاضرات في النصرانية ، أبو زهرة : ص ٤ (الهامش) عن كتاب مقدمة أو المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية ، للمستشرق ليون جوتية ، طبع بباريس سنة ١٩٢٣ م .

لم يكشف عنه الغطاء، إلاّ بعد تطور معين، ويدرك الباحث اللاهوتي (لين) في كتابه (حقيقة يسوع) الذي ظهر مؤخراً سنة ١٩٧٥، تاريخ تدمير معبد اليهود في أورشليم على أيدي الرومان سنة ٧٠ م كحد فاصل في تاريخ الكتابات الإنجيلية، إذ بدأ بعد هذا التاريخ إضفاء الألوهية على المسيح بوضوح، وهو لا يرى ذلك مجرد مصادفة، بل يرى أن تدمير الهيكل قد استلزم أن تكسر المسيحية تماماً عنها طوق اليهودية بتوحيدها المتشدد^(١).

وهكذا فإن العقيدة المسيحية لم تبق على حالها، وبدأ تطور هذه العقيدة كما أوضح الأستاذ شارل جيني بير كالتالي :

١ - لم يكن الإيمان من حيث المبدأ يقبل أي جدل في عقيدته الأساسية الخاصة بالتوحيد.

٢ - كانت النهاية لكل الإضافات الإيمانية الخاصة بدور المسيح وشخصيته تقريرية من الله إلى درجة الوحدة.

٣ - كانت هناك نزعة عكسية تسعى إلى إبراز الألفاظ من رمز الأب والابن وروح القدس في شخصيات ثلاث تتحدد معالمهما، أن تميز يوماً بعد يوم^(٢). وبذلك تكون المسيحية قد وقعت أمام هذا المأزق (ولم يكن لها إن أرادت الخروج سوى حلين، إما التخلّي صراحة عن التوحيد والتسلیم بالثلث، وإما التخلّي عن التمييز بين الشخصيات الثلاث في الله، والقول بأن كلاً من هذه الشخصيات ليس سوى جانب جوهرى من جوانب الذات الإلهية الواحدة، ولكن غالبية المسيحيين أرادت أن تبقى على وحدة الله التي لا تتجزأ)^(٣).

وهكذا تناولت الفلسفة ولادة المسيح دون أب، وألفاظ (ابن الإنسان) (معلم) (سيد) (كلمة) وروح المسيح أو قيامه عند المسيحية، وبدأت تفسر وتحلل هذه العبارات كما شاءت. وبذلك تكون الفلسفة قد دخلت إلى أعماق عقيدة النصارى، تشوّهها بأفكارها الوثنية في أصلها، وتفرض عليها ثقافة البيئة الرومانية اليونانية... تلك الثقافة

(١) من مقال الدكتور فتحي عثمان في مجلة (هذه سبلي) : ص ٣٥٨.

(٢) المسيحية، جيني بير: ص ١٥٧.

(٣) المرجع السابق نفسه.

التي تعتبر خليطاً من أوهام وتصورات شتى، جمعتها من الأفكار الوثنية واليهودية، والأوضاع السياسية في الدولة الرومانية التي كانت تحكمها. إن كل هذه العوامل كان لها أثر كبير على الفلسفة وعلى مجالات بحوثها... وتنعكس هذه كلها في النهاية على الديانة النصرانية، ونقول أخيراً مع العلامة ول ديورانت في «قصة الحضارة»: (إننا نحس في هذه الفلسفة بما نحس به في المسيحية المعاصرة من جور ووحشى، نحس بابتعاد العقول الغضة عن مطالب الحياة الدينية...) وليس عجياً أن يكون أفلوطينس وأرجن تلميذين وصديقين... وأفلوطينس هو آخر الفلاسفة الوثنيين العظام، وهو مسيحي بلا مسيح... ولقد قبلت المسيحية كل سطر من أسطره تقريباً، وما أكثر صحائف أغسطين التي تردد نشوة هذا الصوفي الجليل...^(١).

**

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت: مجلد ١١ / ص ٣٠٤.

الفصل الثاني

أصول عقيدة اليهود

لقد وصف الله تعالى التوراة بقوله: «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور»^(١) وبقوله سبحانه: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ»^(٢). لكن اليهود رفضوا البقاء على الهدى والنور، وأبوا إلَّا أن يحرّفوا ويبدلوا ويتدعوا في دينهم.

فقد حرفوا التوراة أولاً، ولم يكتفوا بذلك، بل أضافوا لأنفسهم كتاباً مقدسة غيرها مثل التلمود.

لذلك فقد رأينا عقائدهم تتطور وتبدل من عصر لآخر، ورأينا العائدين من السبي عادوا يحملون معتقدات الوثنية البابلية معهم، لتبقى رواسب هذه الوثنية متصلة في معتقدات اليهود.

بل نستطيع القول: «إن فكرة الإيمان بالله الواحد ربّاً أو سيداً لكلّ ما في الكون تقبلتها وتعلقت بها شعوب كثيرة إلا جماعات إسرائيل، فقد كانوا بدعاً دون غيرهم من الأمم، فقد ظلوا وثنين قبل موسى، وظلوا على وثنيتهم بعده، ولم ترق عقائدهم إلى الإيمان بالله الواحد أبداً»^(٣) فرغم دعوات الأنبياء المتواصلة لهم إلَّا أن الوثنية كانت تعيش في قلوبهم لا يكادون يغادرونها، وهذا واضح فيما قصه القرآن الكريم عنهم عند خروجهم من مصر التي كانوا مستعبدين فيها، وقبل أن تجف أقدامهم من البحر الذي أنجاهم الله تعالى منه طلبوا من موسى أن يجعل لهم وثناً يعبدونه: «وَجَاوَزْنَا بَيْنِ إِسْرَائِيلَ

(١) سورة المائدة: الآية ٤٤.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٥.

(٣) التاريخ اليهودي العام، د. صابر طعيمة: ١٠٦ / ٢.

البحر، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، قال : إنكم قوم تجهلون^(١).

ومع أننا نجد في التوراة الحالية نصوصاً تصرّح بالتوحيد، وتنهى عن اتخاذ الأصنام ، إلا أن تصورها لهذا الإله الواحد تشوهه الوثنية.

فالإله في العقيدة اليهودية يقوم بأعمال الإنسان وحركاته ، بل إنه يأكل ويشرب ويصارع التنين^(٢)! كما تصوره التوراة في مواضع أخرى بالندم والبكاء والضعف وغير ذلك .

بل يصوّره أحد أسفار التوراة وهو يتحسّر الماً على شعبه ، ويقول : أحشائي أحشائي ، توجعني جدران قلبي ، يئن في قلبي لا أستطيع السكوت لأنّه قد خربت كل الأرض ... لأنّ شعبي أحمق إياتي لم يعرفوا ، هم بنون جاهلون ، وهم غير فاهمين^(٣).

وتنسب له التوراة الألام مرة أخرى في سفر أشعيا حيث يقول : (لذلك امتلأت حقواي^(٤) وجعاً وأخذني مخاضن والدة تلويت حتى لا أسمع ، اندھشت حتى لا أنظر ، تاه قلبي ، بعثني رعب)^(٥) وهذه صفات ما أظن أن أحداً حتى من الوثنين قالها في معبوده وخالقه .

وقد عرّض ابن القيم رحمة الله إلى هذه المسألة ، فتحدث عن افتراءات اليهود الواردة في كتبهم ، وما رماوا به رب العالم من العظام ، وذكر منها ما ورد في توراتهم : «إن الله استراح في اليوم السابع من خلق السموات والأرض»^(٦) وذكر قول الله تعالى فيهم : «إن الله فقير ونحن أغنياء»^(٧) وقوله سبحانه : «وقالت اليهود يدُ الله مغلولة ، غلَّتْ

(١) سورة الأعراف: الآية ١٣٨.

(٢) التاريخ اليهودي العام ، د. صابر طعيمة : ١٠١ / ٢.

(٣) انظر: أرميا: ١٩ / ٤ - ٢٢ .

(٤) الحقوان: مثنى الحقو وهو الخضر ومشد الإزار من الجنب (انظر: مختار الصحاح).

(٥) انظر: أشعيا: ٣ / ٢١ - ٤ .

(٦) انظر: التكوير: ص ١ - ٢ .

(٧) سورة آل عمران: الآية ١٨١ .

أيديهم ولُعْنُوا بما قالُوا^(١)، وذكر مناجاتهم له سبحانه بقولهم له: انتبه كم تنام يا رب، استيقظ من رقدتك^(٢).

كما ذكر ما ورد في توراتهم: «إن موسى صعد الجبل مع مشايخ أمنته فأبصروا الله جهراً، وتحت رجليه كرسي منظره كمنظر البلور»^(٣).

وكان رد ابن القيم على كل هذه الافتراضات والترهات أن التوراة التي حوت مثل ذلك إنما هي توراة محّقة وضعها لهم عزرا الوراق.

وهو بذلك يبطل الدليل الذي يعتمدون عليه من أساسه، ونؤدّ هنا أن نلقي ضوءاً على أبرز معتقدات اليهود ومسائلهم:

واخترت من هذه المعتقدات الحديث عن المسألتين التاليتين:

١ - النسخ والبداء.

٢ - عقيدتهم في الإله.

* *

(١) سورة المائدة: الآية ٦٤.

(٢) انظر: مزامير: ٢٣/٣٥.

(٣) انظر: الخروج: ١٠/٩.

(١) النسخ والبداء

قال الشهريستاني: «واليهود تدعى أن الشريعة لا تكون إلا واحدة، وهي ابتدأت بموسى، وتمت به، فلم يكن قبله شريعة إلا حدود عقلية وأحكام مصلحية، ولم يجيزوا النسخ أصلاً. قالوا: فلا يكون بعده شريعة أخرى، لأن النسخ في الأوامر «بداء» ولا يجوز البداء على الله»^(١).

والنسخ في اللغة يأتي بمعنى الإزالة^(٢)، ومنه قوله تعالى: «فَيُنسخُ اللَّهُ مَا يَلْقَى
الشَّيْطَانُ ثُمَّ يَحْكُمُ اللَّهُ أَيْمَانَهُ»^(٣).

ويأتي بمعنى التبديل، ومنه قوله تعالى: «وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةً»^(٤).

قال الزركشي^(٥): لا خلاف في جواز نسخ الكتاب بالكتاب بقوله تعالى: «مَا نَسْخَ
مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسَّهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا»^(٦).

وقد استبعد اليهود وقوع النسخ في الشريعة، فمنهم من أبطله ولم يجعله ممكناً،
ومنهم من أجازه إلا أنه لا يمكن وقوعه. قال ابن حزم: وعمدة حجة من أبطل النسخ أن
قالوا: إن الله عز وجل يستحيل منه أن يأمر بالأمر ثم ينهى عنه، لو كان كذلك لعاد الحق
باطلاً والطاعة معصية^(٧).

(١) الملل والنحل، الشهريستاني: ٥٠/٢.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي: ٢٩/٢.

(٣) سورة الحج: الآية ٥٢.

(٤) سورة النحل: الآية ١٠١.

(٥) انظر: البرهان، الزركشي: ٣٢/٢.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٠٦.

(٧) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم: ١٠٠/١.

وقد رد ابن حزم على هذه الحجة، واعتبرها حجة واهية لا تقوم على ساق فقال: «من تدبر أفعال الله كلها وجميع أحكامه وأثره تعالى في هذا العالم، تيقن بطلان قولهم هذا، لأن الله تعالى يحيي، ثم يميت ثم يحيي، وينقل الدولة من قوم أعزه، فيذلهم إلى قوم أذلة فيعزهم»^(١).

وليس معنى النسخ أن الله عندما أمر أو نهى ما كان يعلم العاقبة، ثم بدا له رأي آخر أصوب فأتبى به ناسخاً للحكم الأول، بل معناه أن الله عز وجل يأمر بعمل ما مدة يعلمه، ثم ينهى عنه بعد انقضاء المدة، فالحكم الناسخ جاء في وقته.

ويحاول الشيخ رحمة الله الهندي تبسيط المسألة بضرب بعض الأمثلة فيقول: «ونظيره بلا تشبيه، أن تأمر خادمك الذي تعلم حاله، لخدمة من الخدمات ويكون في نيتك أن يكون على هذه الخدمة إلى سنة مثلاً، وبعد السنة يكون على خدمة أخرى، لكن ما أظهرت عزتك ونيتك عليه، فإذا مضت السنة وعيّنته على خدمة أخرى، فهذا بحسب الظاهر عند الخادم وعند غيره الذي ما أخبرته عن نيتك تغيير، وأماماً في الحقيقة وعندك فلا تغيير»^(٢).

ثم يورد الشيخ رحمة الله الهندي نصوصاً من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، استدل بها على وقوع النسخ فيه، واستخرج من هذه الأمثلة أموراً منها^(٣):

الأول: أن النسخ ليس بمختص بشريعتنا بل وجد في الشرائع السابقة.

الثاني: أن الأحكام العملية للتوراة نسخت بالشريعة العيساوية.

الثالث: أن لفظ النسخ موجود في كلامهم المقدس بالنسبة إلى التوراة وأحكامها.

وجملة القول: أن اليهود أنكروا إمكانية وقوع النسخ حتى لا يقع البداء الذي لا يجوز على الله تعالى، إلا أن توراتهم مليئة بالبداء، وذلك أن فيها أن الله تعالى قال لموسى: «رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة، فالآن اتركتني أفيهم فأصيّرك

(١) الفصل، ابن حزم: ١٠٠/١.

(٢) إظهار الحق، رحمة الله الهندي: ٥١٠/١.

(٣) المرجع السابق: ٥٢٩/١.

شعباً عظيماً، فتضرع موسى أمام الرب إلهه^(١)، «وما زال يتضرع إلى ربّه في أن لا يفعل ذلك، حتى أجابه وأمسك عنهم، وندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه»^(٢).

قال ابن حزم: «وهذا هو البداء بعينه والكذب، المنفيان عن الله تعالى لأنّه ذكر أن الله أخبر أنه سيهلكهم ويقدمه على غيره ثم لم يفعل»^(٣).

وفي سفر أشعيا أن الله سبحانه سيرتب في آخر الزمان من الفرس خداماً لبيته^(٤).

قال ابن حزم: «وهذا هو النسخ بعينه لأن التوراة موجبة أن لا يخدم في البيت المقدس أحد غيربني لاوي بن يعقوب على حسب مراتبهم في الخدمة، فعلى أي وجه أنزلوا هذا القول من أشعيا، فهو نسخ لما في التوراة على كل حال، وأما في الحقيقة فهو إنذار بالملة الإسلامية التي صار فيها الفرس والعرب وسائر الأجناس في المساجد بيت المقدس وغيره»^(٥).

هذه بالإضافة إلى عشرات النصوص المثبتة في أسفار العهد القديم، والتي يفهم منها البداء.

**

(١) الخروج: ٩/٣٢ - ١١.

(٢) الخروج: ٣٢/٢٢ - ١٤٠.

(٣) الفصل، ابن حزم: ١٠١/١ - ١٠١.

(٤) أشعيا: ٦٠/١٠ بلفظ الغريب بدل الفرس.

(٥) الفصل، ابن حزم: ١٠١/١ - ١٠٢.

(٢)

عقيدة اليهود في الإله

لا شك أن العقيدة الأصلية لبني إسرائيل كانت الإيمان بالله الواحد، وهذه هي العقيدة التي جاء بها رسلهم الكرام عليهم السلام، وتعاقبوا فيهم لتشييدها: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والتبين من بعده، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسلمان﴾^(١).

لكن اليهود لم يستقرروا على عبادة الإله الواحد الذي دعا له الأنبياء، بل كانوا يتوجهون دائمًا إلى الوثنية والبدائة الدينية وتقليد الأمم الوثنية المجاورة في العبادة.

يقول الدكتور أحمد شلبي نقلًا عن (ويلز): «إن اليهود كانوا في مطلع ظهورهم على مسرح التاريخ بدؤاً رحلاً، تسيطر عليهم الأفكار البدائية كالخوف من الشياطين، والاعتقاد في الأرواح، وكانوا يعبدون الحجارة والأغنان والأشجار»^(٢).

ويصور لنا القرآن الكريم محاولات موسى عليه السلام لتشييده أركان التوحيد عند بني إسرائيل، وخروجهم على هذه العقيدة أكثر من مرة في حياته.

ويبدو حتى من خلال نصوص العهد القديم أن موسى – عليه السلام – كان أكثر أنبيائهم جهداً لتشييده عقيدة التوحيد في نفوسهم.

والغريب أن بعض كتاب المسلمين ذهباً مع المؤرخين الغربيين الذين اعتقدوا أن موسى قد استعار القول بالوحدةانية من أختهاتون، وأول من نادى بهذه الفكرة من الغربيين الفيلسوف اليهودي فرويد، ويعتمد فرويد وغيره من الباحثين في ذلك على التشابه بين

(١) سورة النساء: الآية ١٦٣.

(٢) اليهودية، أحمد شلبي: ص ١٨٠ – ١٨١.

كلمة (أتون) وكلمة (آدون)، أو (أدوناي) بالعبرية التي تعني الرب أو السيد. كما أن تشابه الأسمين ليس الشيء الوحيد الذي يعتمد عليه هؤلاء الباحثون لتحديد الصلة الوثيقة بين الديانتين اليهودية والمصرية القديمة، فإن سفر الخروج في تعاليمه ووصاياته المدققة يكاد يتبع نموذج التعاليم والوصايا الدينية المصرية (كما جرى اكتشافها في القرن الماضي) وليس فقط تعاليم أختناتون التوحيدية، ومعظم هذه التعاليم والوصايا نقل إلى العبرية في العهد القديم كما هو تقريباً، والوصايا الشهيرة ليست النموذج الوحيد من ذلك^(١).

ومن الذين ذكروا هذه النظرية، الدكتور أحمد سوسة في كتابه القيم (العرب واليهود والتاريخ)، وقد قام بجمع الواقع التاريخي التي يستند إليها الباحثون في اعتبار النبي موسى مصرياً، وأن ديانته التوحيدية إنما هي ديانة أختناتون بعينها، حيث بلغت هذه الواقع اثنية عشرة واقعة^(٢). لكننا رغم كل هذا التشابه نعتقد أن عقيدة التوحيد التي جاء بها موسى عليه السلام كان مصدرها الوحيد: هو الوحي، وهي عقيدة لم ينفرد بها موسى وحده دون غيره من الأنبياء والمرسلين.

إن التشابه قد يكون ناتجاً عن تسرب بعض المعتقدات، أو حتى الألفاظ والمصطلحات الأخناتونية لأسفار التوراة بعد موسى عليه السلام، كالذي نشاهد في ذلك الشبه الواضح بين ترتيلة أختناتون إلى قرص الشمس (أتون)، والمزمور الرابع بعد المائة من سفر المزامير من العهد القديم، بحيث يكاد يكون المزمور المذكور نسخة طبق الأصل لترتيلة أختناتون. وكما قال الأستاذ سهيل ديب بعد ذكره للنصرين المتماثلين: (والظاهر هو أن شخصاً ما حفظ النشيد الأخناتوني لفترة من الزمن، ثم حاول إعادة كتابته لإعجابه به بلغة جديدة، وبشروط دينية جديدة لها طقوسها واستعمالاتها الخاصة، فلم تسعفه شاعريته كثيراً)^(٣).

اسم إله اليهود:

يبدو من خلال النصوص المقدسة عند اليهود أن الإجماع غير حاصل على تحديد اسم إله الذي يعبده اليهود.

(١) انظر: التوراة بين الوثنية والتوحيد، سهيل ديب: ص ٤٦.

(٢) انظر: العرب واليهود والتاريخ، أحمد سوسة: ص ٤٧٠ – ٤٧٣.

(٣) انظر: التوراة بين الوثنية والتوحيد، سهيل ديب: ص ٥٩.

ويعلل الأستاذ سهيل ديب لذلك بسبعين هما^(١):

الأول: الزمن الطويل جداً بين تأليف التوراة وتحريرها بشكلها النهائي.

الثاني: أن فترة المخاض الطويلة جداً بين التعددية والتوحيد، وقد دامت ما لا يقل عن أربعمائة سنة، جعلت اسم الإله مسألة ثانية، ريشما يتم الإجماع على التوحيد. وهذا هو السبب الذي يرجحه الأستاذ سهيل ديب، وقد رأى أن الصعوبة قد وقعت في تحديد الاسم عند الذين تعودوا على التعدد، وعبدوا آلهة شتى قبل أن يصلوا إلى التوحيد، فكانت المسألة لا تتعذر في نظرهم انتصار أحد الآلهة على الآخرين^(٢).

وقد ذكر الأستاذ ديب بعض هذه الأسماء، ومنها^(٣):

١ - إيل: ومعناه بالعبرية (الله)، وهو التسمية التي استخدمها الموحدون الحقيقيون، وهم أقلية بين واضعي الشريعة بنصها الذي نعرفه اليوم.

٢ - إيلوهيم: أي الآلهة بصيغة الجمع، ولعلها التسمية التي أطلقها التعدديون الذين اعتبروا أن التوحيد إنما هو انصرار جميع الآلهة مع بعضها لتشكيل إلهًا واحداً. وهذا هو الاسم الدارج عند اليهود اليوم.

٣ - آدوناي: أي سيد باللغات السامية، وهو اللقب الذي كان الكنعانيون يطلقونه على الإله (تموز)، والذي أصبح (آدونيس) عندما انتقل إلى اليونانيين، ولعله الإله الذي اعتبره القادمون من شمالي سوريا أنه هو الذي انتصر.

٤ - يهوه: وهو اسم الإله القبلي لليهود، إذ يعتقد اليهود أن هذا الإله ربهم وحدهم، وليس للأمم (الجوبيم) الحق بتسميته إلهًا لها، إنه رب إسرائيل وحدها، وقدوس إسرائيل الأوحد^(٤)، ولذلك يرد في سفر التثنية (لأنك شعب مقدس للرب إلهك وإياك اصطفى الرب إلهك أن تكون له أمة خاصة من جميع الأمم التي على الأرض)^(٥).

(١) انظر: التوراة بين الوثنية والتوحيد: ص ١٥.

(٢) المرجع السابق: ص ١٦.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) انظر: التوراة تاريخها وغاياتها، ترجمة وتعليق سهيل ديب: ص ٩٤.

(٥) التثنية: ٦/٧.

وكذلك ما ورد في سفر الخروج (أنا الرب إلهكم الذي فرزكم من بين الأمم) ^(١).

ومن هنا فقد صور (يهوه) بأنه مقاتل باطش ينادي بالسحق والتشريد، ولا يؤمن بترك أي من الأعداء حياً. ولذلك خاطب العابرين نهر الأردن قائلاً لهم (إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان، فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم، تملكون الأرض، وتسكنون فيها لأنني قد أعطيتكم الأرض لكي تملكونها... وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستيقنون منهم أشواكاً في أعينكم، ومناخس في جوانبكم، ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها) ^(٢).

كما يصور بالرب الحاقد الغاضب، فقرأ في سفر أشعيا: (هذا الرب يأتي من بعيد غضبه مشتعل، والحريق عظيم، شفاته ممليئة سخطاً، ولسانه كنار آكلة، ونفخته كنهر غامر يبلغ إلى الرقبة، لغربلة الأمم بغربال السوء) ^(٣).

والقاريء لهذه النصوص وأمثالها – وهي كثيرة في العهد القديم – يعلم أن اليهود صاغوا إلههم بأيديهم، وحددوا له صفات موافقة لصفاتهم واتجاهاتهم.

وفي ذلك يقول ول ديورانت: (يبدو أن الفاتحين اليهود عمدوا إلى أحد آلهة كنعان، فصاغوه في الصورة التي كانوا هم عليها، وجعلوا منه إلهًا، ويفيد ذلك أن من بين الآثار التي وجدت في كنعان سنة ١٩٣١م قطعاً من الخزف من بقايا عصر البرونز (٣٠٠ ق.م) عليها اسم إله كنعان يسمى: ياه أو راهن) ^(٤).

آلهة أخرى لليهود:

لقد عبد اليهود خلال تاريخهم الطويل آلهة متعددة بالإضافة إلى الإله الواحد الذي لم يتفقوا على اسمه، وتعارضت نصوصهم في تحديد صفتة.

وقد تأثروا في ذلك بالشعوب التي كانت من حولهم، حيث عبدوا آلهتها، ومن هذه

(١) الخروج: ٢٤/٢٠.

(٢) العدد: ٥١/٣٣ - ٥٦.

(٣) أشعيا: ٢٧/٣٠ - ٢٨.

(٤) قصة الحضارة، ول ديورانت: ٣٤٠/٢.

الإلهة المستعارة التي عبدها اليهود، والتي ذكرها الدكتور اليهودي رافائيل باتاي في كتابه «آلهة اليهود» ما يلي^(١):

١ - الإلهة عشرية: وقد عبدها العبرانيون اعتباراً من احتلال أرض كنعان، وحتى النفي إلى بابل سنة ٥٧٦ ق.م. ، واسمها الآخر هو اللة أو الالتو.

وكانت الإلهة الرئيسية لدى كنעניي أوغاريت في رأس شمرا.

٢ - الإلهة عشتروت: آناة أو مناة، وهي ابنة الإلهة عشرية، وكان الكنعنيون يعبدونها إلى جانب (اشتر) نجمة الصبح أو العزى.

وقد أتى ذكر هذه الإلهة في التوراة مرات متعددة، كإلهة عبدها العبرانيون حتى عام ٦٦٢ ق.م.

وهذه الأسماء (اللات والعزى ومناة) تذكرنا دون ريب بالأية الكريمة: «أفرأيت اللات والعزى ومنة الثالثة الأخرى»^(٢).

فهل هي الإلهات الوثنيات التي استمر العرب على عبادتها حتى ظهور الإسلام^(٣)؟

٣ - الكروبيم: وهي صور أو منحوتات ذات أشكال بشرية مجنة تشكل جزءاً من الهيكل قبل تحريم عبادتها. ورغم تحريمهما فقد بقيت هذه الصور آلة لها عبادها ممن سموا «بالقبليين»، ومن الذين ساعدوها علىبقاء هذه العبادة الفيلسوف الأندلسي اليهودي موسى بن ميمون في القرن الثاني عشر للميلاد.

٤ - الشخينة: من (شخن) بمعنى سكن، أي مسكن الله. وقد جعل منها التلموديون ومن بعدهم القبليون، إلهة أنثى.

٥ - ماترونيث: وهي مشتقة من (ماترون) أي السيدة أو الشفيعة، وهي الابنة أي الإلهة الرابعة لدى القبليين، وهي تمثل الطهارة والاختلاط الجنسي والأمومة وال الحرب.

(١) انظر: التوراة بين الوثنية والتوحيد، سهيل ديب: ص ٤٧ - ٥١.

(٢) سورة النجم: الآيات ١٩ - ٢٠.

(٣) انظر هامش كتاب التوراة بين الوثنية والتوحيد، سهيل ديب: ص ٤٩.

٦ - ليليت: وهي مأخوذة من مجتمع آلهة السومريين، وهي تمثل الشر، وقد دامت عبادتها، أو الاعتقاد بها لدى (القبليين) واليهود (الحسيديم)، أي المترمتن حتى قرتنا هذا. والاعتقاد بها اليوم هو نفسه تماماً، كما كان لدى السومريين في العام ٢٥٠٠ ق.م دون اختلاف يذكر، كما يقول الدكتور (باتاي).

٧ - السبت أو السابات: أي نهار الراحة الأسبوعي، وقد جعل بعض فئات اليهود منه إلهة تمثل الجنس والعلاقات الجنسية.

فالمعاصرة الجنسية تكتسب قيمة دينية خاصة، إن تمت بعد دخول يوم السبت، فتقام وليمة مساء يوم الجمعة تتخللها ألوان مختلفة من الطعام والمشروبات وصلوات وأناشيد موجهة إلى الإلهة (سابات) التي تمثل العروس بها، وتنتهي هذه الوليمة عند منتصف الليل، وهو الوقت المحدد تلمودياً للمعاصرة.

ويذكر الدكتور (باتاي) أن بعض كتب التعاليم الدينية المعاصرة تحوي نماذج عن هذه الصلوات، والأناشيد الموجهة إلى الإلهة (سابات). ويذكر أن هناك فئات من اليهود ما زالت تعتقد بهذه الإلهة، وتقيم الشعائر عبادة لها، ومن هذه الفئات التلاموديون والقبليون والفلاشة، والفلاشة هي فئة اليهود الأحباش ذوي البشرة السوداء^(١).

مسألة العزير:

لقد أشار القرآن الكريم في موضع واحد إلى أن اليهود قد ضلوا، كما ضل النصارى عندما اعتبروا أن الله ابننا.

وإذا كان النصارى يزعمون أن المسيح ابن الله، فإن اليهود كذلك يزعمون أن عزيراً ابن الله (وقالت اليهود عزيراً ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله)^(٢).

ومما يستوقف الباحث هنا أن مسألة بنوة المسيح لله معروفة، ما تزال طوائف النصارى تعتقداً حتى اليوم منذ أن ضلّت على يدي بولس.

(١) انظر: التوراة بين الوثنية والتوحيد، سهيل ديوب: ص ٥١. نقلًا عن كتاب آلهة اليهود للدكتور باتاي: ص ٢٤٠ – ٢٦٤.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣٠.

وأما قول اليهود «عزيز ابن الله» فليس شائعاً، ولا معروفاً اليوم عند طوائف اليهود، ولا هو مدون في كتبهم الحاضرة، بل إن العهد القديم الموجود حالياً لا يشير إطلاقاً إلى مسألة البنوة.

ولكن حكاية هذا القول عن اليهود في القرآن دليل قاطع على أن بعضهم على الأقل اعتقد ذلك، وأن يهود المدينة بصفة خاصة كان عندهم علم بذلك، وإلا فإن القرآن الكريم لا يمكن أن يواجههم بما ليس فيهم^(١). ويؤكد الشيخ رشيد رضا رحمه الله أن بعض يهود المدينة هم الذين كانوا يقولون ذلك، ويؤيد ذلك بما رواه ابن إسحق وغيره عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وأبو أنس، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف تتبعك، وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيزاً ابن الله؟^(٢).

وقد عدَّ الشيخ الزرقاني رحمه الله هذه الإشارة القرآنية معجزة تاريخية من معجزات القرآن التي يكشف عنها التاريخ الحديث.

وقد نقل عن صاحب مجلة الفتح الغراء بعد أن ساق هذه الآية الكريمة قوله: «فصل در هذه الآية وهو جملة: «وقالت اليهود عزيز ابن الله» يتضمن من وقائع التاريخ وحقائق العلم أمراً لم يكن أحد يعرفه على وجه الأرض في عصر نزول القرآن».

ثم بين أن الاعتقاد بأن العزيز ابن الله إنما هو اعتقاد وثني مأخوذ من الوثنية المصرية القديمة، واسم (عزيز) هو (أوزيرس) كما ينطق به الإفرنج أو (عوزر) كما ينطق به قدماء المصريين.

وقد كان قدماء المصريين يعتقدون أن (أوزيرس) هو الله، وبعد عبادتهم للشمس صاروا يعتقدون أنه ابن الله، وفي هذا الطور أخذ اليهود هذا الاسم. وقد عرف اليهود ذلك واعتقدوه بعد دخولهم مصر واحتلاطهم بأهلها واتصالهم بعقادتها ووثنيتها.

ففي دور من أدوار حلول اليهود في مصر القديمة استحسنوا عقيدة أن (أوزيرس) ابن الله، وصار اسم أوزيرس أو عوزر (عزيز) من الأسماء المقدسة التي طرأة عليهم من

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب: ١٦٥٠/١٠.

(٢) انظر: تفسير المنار: ٣٢٧/١٠.

ديانة قدماء المصريين، وصاروا يسمون أولادهم بهذا الاسم الذي قدسوه كفراً وضلالاً، فعاب الله عليهم في القرآن الحكيم، ودلّهم على هذه الواقع من تاريخهم الذي نسيه البشر جمِيعاً^(١).

من هو عزيز؟

ولا يرد اسم (عزيز) بهذا اللفظ في العهد القديم، بل يرد اسم (عزرا) حيث يفرد لهذا المذكور سفر خاص باسمه ضمن أسفار العهد القديم.

ويذكر هذا السفر أن عزرا هذا كان في زمان (أرتاحستا) ملك فارس، وبعد ذكر سلسلة نسبه، يبين لنا هذا السفر أن عزرا هذا صعد من بابل، وهو كاتب ماهر في شريعة موسى التي أعطاها رب إسرائيل، وأعطاه الملك حسب يد رب إلهه عليه كل سؤله. كما يسرد هذا السفر قصة خروجه من بابل ومعه اليهود الذين كانوا في السبي، بعد أن هيأ قلب الملك (أرتاحستا) لطلب شريعة رب العمل بها، ولتعليم إسرائيل فريضة وقضاء.

ورضي الملك بذلك وأعطاه رسالة يمكنه فيها من السفر إلى القدس ليعيد اليهود من السبي، ويسمح لهم بممارسة شعائر عبادتهم، كما شاؤوا. وتبرع له الملك بذهب وفضة ليشتري بها ذبائح يقربها على المذبح هناك. كما مكنه من الحكم وتعيين القضاة والحكام لجميع الشعب الذي عبر النهر^(٢).

كما يوصف عزرا في الإصلاحين التاسع والعشر من هذا السفر بالناسك المصلي المبتلى الباهي على ذنوب قومه أمام رب^(٣).

وقد ترجم قاموس الكتاب المقدس لعزرا ترجمة وافية، فقال: عزرا: اسم عبري معناه (عون)^(٤)، وهو كاهن عاد من بابل إلى القدس معاصر لنحريا، لقب بالكاتب، كان موظفاً في بلاط امبراطور الفرس (أرتاحستا)، ومستشاراً له في شؤون الطائفة اليهودية

(١) انظر: مناهل العرفان، الزرقاني: ٢٧٩/٢.

(٢) انظر: عزرا: ١/٧ - ٢٦.

(٣) انظر: عزرا: ٣/٩ - ١٥ و ٥٢١/١٠ - ١٢.

(٤) ويستعمل اليهود اليوم كلمة عزير بمعنى المساعد.

التي كانت تقيم في بلاد ما بين النهرين منذ أيام السبي، وقد تمكّن (عزرا) من أن ينال عفو الإمبراطور عن اليهود، وسمّاهم لهم بالعودة إلى القدس، وإقامة حكم ذاتي لهم في فلسطين^(١).

ويؤرخ قاموس الكتاب المقدس لعزرا ويبيّن أنه عاصر (نحوميا) في القدس، فتكون عودته إلى القدس في سنة ٤٥٨ أو ٤٥٧ ق.م. أي في حكم (أرتاخستا الأول) أو في سنة ٣٩٨ م. أي في حكم أرتاخستا الثاني^(٢).

وقد احتل (عزرا) مرتبة دينية مرموقة عند اليهود في القدس بالإضافة إلى مرتبته في الحكم والإدارة، وحاز على ثقة الشعب وإعجابه به لأخلاصه ونشاطه. ويدل على هذه الثقة أنهم قبلوا أن يكتب لهم الشريعة، ويجمع لهم الأسفار المقدسة وينظمها. وهذا ما جعل اليهود المتأخرین عنه عدة أعصر يعتبرونه زعيماً لهم بعد موسى الذي أخرجهم من مصر، ويعتبرونه أيضاً مؤسس نظم اليهود المتأخرة، ولقبوه بالكافن وبالكاتب لأنه كان دارساً مجتهداً، ومفسراً عميقاً لوصايا الله وعهده لبني إسرائيل^(٣).

وقد أشار ابن القيم رحمه الله إلى حكاية عزرا، والمنزلة التي احتلها عند اليهود، وأنه قد وضع لهم التوراة من محفوظاته، ومما وجده من فصول عند بعض الكهنة، وكان ذلك عندما قتل حفظة التوراة من الهارونين على يد بختنصر.

وقد ذكر ابن القيم أن اليهود بالغوا في تعظيم عزرا غاية المبالغة، وقالوا فيه ما حكاه الله عنهم في كتابه، مشيراً إلى قوله تعالى: «وقالت اليهود عزير ابن الله».

كما يستبعد ابن القيم أن يكون عزرا الوراق واضح التوراة، هو الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها أو أنهنبي، ويقول: إنه لا دليل على هاتين المقدمتين، ويجب التشكيك في ذلك نفياً وإثباتاً، فإن كان نبياً واسمه عزير فقد وافق صاحب التوراة في الاسم لا في النبوة^(٤).

(١) قاموس الكتاب المقدس: ٦٢١/٢.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) انظر: ص ٤٢٢ من هذا الكتاب.

كما أشار ابن القيم إلى هذه المسألة في كتابه إغاثة اللهفان^(١).

وذكر من علماء المسلمين الذين ألفوا في الموضوع أشاروا إلى مسألة عزرا، ووضعه للتوراة، ومنهم ابن حزم في (الفصل). حيث يقول: إن عزرا الوراق كتب التوراة بعد رجوع اليهود إلى بيت المقدس، ويدرك أن هذا مما يتفق عليه علماؤهم، وتجمع عليه كتبهم دون خلاف^(٢).

ومنهم الإمام الجويني في شفاء الغليل كما أسلفنا.

هذه هي المكانة التي يحتلها (عزرا) عند اليهود، وفي أسفارهم، وهي بلا شك مكانة مرموقة، جعلته مساوياً لموسى عليه السلام، ولم يصل أحد إلى هذه المرتبة، وهذا يرجح عندنا أن يكون عزرا هذا هو (عزير) الذي أشار إليه القرآن الكريم.

يقول الشيخ رشيد رضا رحمة الله عند تفسيره للآلية الكريمة: «وقالت اليهود عزير ابن الله^(٣): عزير هذا هو الذي يسميه أهل الكتاب (عزرا)، والظاهر أن يهود العرب هم الذين صنّفوه بالصيغة العربية للتحبيب وصرفوه، وعنهم أخذ المسلمون. والتصرف في أسماء الأعلام المنقولة من لغة إلى أخرى معروف عند جميع الأمم، حتى إن اسم يسوع قلبته العرب فقالت: عيسى».

ويشير الشيخ رشيد رضا إلى هذه المكانة التي تبواها عزرا عند اليهود، ويقف وقفه طويلة عند مسألة كتابته للشريعة وإحيائها مبيناً أن ما ي قوله أهل الكتاب بأن التوراة التي كتبها موسى قد فقدت، وأن عزرا كتبها كما كانت بوجي أو باليهام من الله، أمر لا يسلمه لهم غيرهم، وعليه اعترافات كثيرة تدل على إثبات التحرير لهذه الأسفار. وبين الشيخ أن بعض كتب النصارى أنفسهم لها اعترافات كثيرة على ذلك، وأشار إلى كتاب ذخيرة الألباب للكاثوليكي وأصله فرنسي.

كما أشار الشيخ إلى ما كتبه الشيخ رحمة الله الهندي حول هذا الموضوع، حيث

(١) انظر: إغاثة اللهفان: ٣٥٩/٢.

(٢) انظر: الفصل في الملل والأهواء والتحلل، ابن حزم: ١/٨٧.

(٣) تفسير المنار، رشيد رضا: ١٠/٣٢٢.

نقل أقوال المؤرخين الذين قالوا: إن الكتب السماوية قد ضاعت فألهم عزرا أن يكتبها مرة أخرى، ومنها قول تهيوفلكت: إن الكتب الإلهية انعدمت رأساً فأوجدها عزرا مرة أخرى بإلهام^(١).

وبعد هذه النقولات يقول الشيخ رشيد رضا: «نكتفي بهذا البيان هنا ولنا فيه فرضان: أحدهما: أن جميع أهل الكتاب مدينون لعزيز هذا في مستند دينهم وأصل كتبهم المقدسة عندهم.

وثانيهما: أن المستند واهي البيان متداعي الأركان، وهذا هو الذي حققه علماء أوروبية الأحرار، ومن ذلك ما جاء في دائرة المعارف البريطانية، حيث اعتبرت مسألة كتابة عزرا للشريعة أسطورة، كتبها من كتبها من المؤرخين بأقلام من تلقاء أنفسهم، ولم يستندوا في شيء منها إلى كتاب آخر.

فكتاب هذا العصر يرون أن أسطورة عزرا قد اختلفت بها أولئك الرواة اختلافاً^(٢).

وجملة القول أن اليهود كانوا وما زالوا يقدسون عزيزاً حتى إن بعضهم أطلق عليه لقب ابن الله، ولا ندري أكان إطلاقه عليه بمعنى التكريم الذي أطلق على إسرائيل وداود وغيرهما، أم بالمعنى الفلسفى الذى ذهبت إليه النصرانية المفلسفة^(٣).

وعلى أية حال فسواء أكان (عزيز) هو أوزيرس أو عوزر، كما رأينا عند الزرقاني، أو أنه عزرا المعروف عند اليهود بالكافن، وبالكاتب الملهم مررم الأسفار، ومحبى الشريعة ومنقذها بعد الضياع، كما بين لنا صاحب المنار: فإن مما لا شك فيه أن اليهود قد اتخذوا عزيزاً ابنَ الله.

وللتوفيق بين ما ذهب إليه الزرقاني، وما ذهب إليه الشيخ رشيد رضا، ييدو لي أن عزيزاً هو عزرا، وقد بلغ من المكانة الدينية عند اليهود حد التقديس كما أشرنا، ولما رأى بعض اليهود ما عليه المصريون من تقدير أوزيرس أو عوزر وعبادته، واتخاذه إلهًا ثم ابنَ الله، أعجبهم هذا الاعتقاد، ورأوا أن ينسبوه إلى عزرا كاتب الأسفار ومرممها،

(١) تفسير المنار: ٣٢٤/١٠.

(٢) المرجع السابق: ٢٢٦/١٠.

(٣) المرجع السابق نفسه.

ومخلصهم من الأسر البالي . فاعتقد هؤلاء فيه ما اعتقده الوثنيون المصريون في أوزيرس ،
سيما وأن اليهود قد تأثروا أكثر من مرة بعقائد الوثنين من الساليين والكنعانيين وغيرهم ،
مما أشرنا إليه عند حديثنا عن عقيدة اليهود في الإله .

* * *

القسم الثاني
تحقيق الكتاب





مقدمة المؤلف (*)

بسم الله الرحمن الرحيم (وبه نستعين) (١)

الحمد لله الذي رضي لنا الإسلام ديناً، ونصب لنا الدلالة (على) صحته برهاناً مبيناً، وأوضح السبيل (إلى) (٢) معرفته واعتقاده حقاً يقيناً، ووعد من قام بأحكامه وحفظ حدوده أجرًا جسيماً، وذخر لمن وفاته به ثواباً جزيلاً وفوزاً عظيماً، وفرض علينا الانقياد له ولأحكامه، والتمسك بدعائمه وأركانه، والاعتراض بعراه وأسبابه، فهو دينه الذي ارضاه لنفسه ولأنبيائه ورسله وملائكته قدسه، فيه (أهتدى) (٣) المهددون وإليه دعا الأنبياء والمرسلون ﴿أَفَغَيْرِ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ، وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (٤) فلا يقبل من أحد ديناً سواه من الأولين والآخرين، ﴿وَمَنْ يَتَّخِذُ غَيْرَ إِلَهًا مِنْ دِينِهِ فَلَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٥).

شهد بأنه دينه قبل شهادة الأنام، (وأشاد به) (٦) ورفع ذكره، وسمى به أهله وما اشتملت عليه الأرحام، فقال تعالى: ﴿شَهَدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾

(*) تسهيلاً على القارئ وخدمة للكتاب وضعت له عناوين مناسبة لفصوله وموضوعاته، ووضعتها بين حاصلتين بهذا الشكل [].

(١) سقطت من ص، ب.

(٢) في ص: على إلى.

(٣) في ص: أهتدى.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٨٣ وفي ص، ج: ترجعون (بالناء).

(٥) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

(٦) سقطت من ص.

قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، إنّ الدين عند الله الإسلام^(١) وجعل أهله هم الشهداء على (الناس)^(٢) يوم يقوم الأشهاد، لما فضلهم به من الإصابة في القول والعمل والهدي والآية والاعتقاد، إذ كانوا أحقاً بذلك وأهله في سابق التقدير، فقال: «وجاهدوا في الله حقّ جهادكم وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة واتّروا الزكوة واعتصموا بالله هو مولاكم، فنعم المولى ونعم النصير»^(٣).

وحكمة سبحانه بأنّه أحسن الأديان، ولا أحسن من حكمه ولا (أصدق)^(٤) منه قيلاً فقال: «ومن أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه لله وهو محسن، واتّبع ملة إبراهيم حنيفاً، واتّخذ الله إبراهيم خليلاً»^(٥).

وكيف لا يميز من له أدنى عقل يرجع إليه بين دين قام أساسه وارتفاع بناؤه على عبادة الرحمن، والعمل بما يحبه ويرضاه مع الإخلاص في السر والإعلان، ومعاملة خلقه بما أمر به من العدل والإحسان، (مع إيثار)^(٦) طاعته على طاعة الشيطان، وبين دين أسس بنائه على شفاعة جُرفٍ هار فانهار (ب أصحابه)^(٧) في النار، أسس على عبادة النيران، وعقد الشركة بين الرحمن والشيطان، وبينه وبين الأوّلان^(٨)، أو دين أسس بنائه على عبادة الصليب، والصور المدهونة في السقوف والحيطان^(٩)، وأنّ (رب العالمين)^(١٠) نزل عن كرسيّ عظمته فالتحم ببطن أثني، وأقام هناك مدة من الزمان بين دم الطمث في ظلمات

(١) سورة آل عمران: الآياتان ١٨ ، ١٩.

(٢) سقطت من ص ب.

(٣) سورة الحج: الآية ٧٨.

(٤) في ص، ب: ولا أحد أصدق.

(٥) سورة النساء: الآية ١٢٥.

(٦) في ح، ص: وإثار.

(٧) في ص، ب: بأصحابه.

(٨) إشارة إلى المجرومية.

(٩) إشارة إلى النصرانية.

(١٠) في ص: وإن رب العالمين جل جلاله وتترهت صفاته عما قيل وما يقال من جميع الشهادات.

الأحساء تحت ملتقى الأعکان^(١)، ثم خرج صبياً رضيعاً شبّ شيئاً فشيئاً، وي يكن ويأكل ويشرب ويبول وينام ويتنقل مع الصبيان^(٢)، ثم أودع في المكتب بين صبيان اليهود يتعلم ما ينبغي للإنسان^(٣)، هذا وقد قطعت منه القلفة^(٤) حين الختان^(٥).

ثم جعل اليهود يطربونه ويشردونه من مكان إلى مكان، ثم قبضوا عليه وأحلوه أصناف الذل والهوان، فعقدوا على رأسه من الشوك تاجاً أقبح التيجان، وأركبوه قصبة ليس لها لجام ولا عنان^(٦)، ثم ساقوه إلى خشبة الصليب مصفعواً مبصقاً في وجهه، وهم خلفه وأمامه وعن شمائله وعن الأيمان، ثم أركبوه ذلك المركب الذي تقشعر منه القلوب مع الأبدان، ثم شدت بالحبال يداه «والرجلان»^(٧) ثم خالطها تلك المسامير التي تكسر العظام وتمزق اللحمان^(٨) وهو يستغيث: يا قوم ارحموني ! فلا يرحمه منهم إنسان^(٩).

هذا وهو (مدبر)^(١٠) العالم العلوى والسفلى الذي «سأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن»^(١١).

(١) الأعکان: جمع عکنة، وهي الطيّ الذي في البطن من السمّن. (مختر الصاحب).

(٢) هذا كله على رأي القائلين بأنّ المسيح هو الله، وهم القائلون بالطبيعة الواحدة من اليعاقبة ومن وافقهم من الأرثوذكس اليوم.

(٣) اقرأ في إنجيل لوقا ما نصه: «وبعد ثلاثة أيام وجده في الهيكل جالساً في وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم» لوقا: ٤٦/٢.

(٤) القلفة: بضم القاف وفتحها، جلد الذكر التي ألبستها الحشفة، وهي التي تقطع من ذكر الصبي. (لسان العرب).

(٥) مع أن الختان ملغى عند النصارى اليوم، إلا أن الأنجلترا تذكر أن المسيح قد اختن. (انظر: لوقا: ٢١/٢).

(٦) العنان: سير اللجام. (لسان العرب: ١٣/٢٩٤).

(٧) في ب، ج، ص: مع الرجال.

(٨) اللحمان: بضم اللام، جمع اللحم بالشديد والفتح. (مختر الصاحب: ص ٥٩٤).

(٩) هذه الأوصاف التي ذكرها المؤلف رحمة الله لل المسيح عليه السلام وهو يُساق إلى خشبة الصليب ويصلب كما يزعم النصارى كلها مثبتة في الأنجلترا الحاضرة. (انظر: متى: ٢٦/٦٧، مرقس: ١٠/٢٧ - ٣٠، ماركوس: ١٥/١٧ - ٢٠؛ لوقا: ٢٢/٦٣ - ٦٤؛ يوحنا: ١٩/١٧، ٤/١٨ - ١٠).

(١٠) في ص: مدبر.

(١١) سورة الرحمن: الآية ٢٨.

ثم مات ودفن في التراب تحت صم الجنادل^(١) والصوان^(٢)، ثم قام من القبر وصعد إلى عرشه (وملكه)^(٣) بعد أن كان ما كان^(٤).

فما ظنك بفروع هذا أصلها الذي قام عليه البنيان، أو دين أسس بنائه على عبادة الإله المنحوت بالأيدي^(٥) بعد نحت الأفكار من سائر الأجناس على (اختلاف)^(٦) الأنواع والأصناف والألوان، والخاضع له والتذلل والخرور سجوداً على الأذقان، لا يؤمن من يدين به بالله (ولا)^(٧) ملائكته ولا كتبه ولا رسالته ولا لقائه يوم يجزي المسيء بإساءاته والمحسن (بالإحسان)^(٨). أو دين الأمة الغضبية^(٩) الذين انسلخوا من رضوان الله كأنسلاخ الحية من قشرها، وباؤوا بالغضب والخزي والهوان، وفارقوا أحكام التوراة ونبذوها وراء ظهورهم، واشتروا بها القليل من الإيمان، فترحل عنهم التوفيق (وقارنهم)^(١٠) الخذلان، واستبدلوا بولاه الله وملائكته ورسله وأوليائه ولالية الشيطان. أو دين أسس بنائه على أن رب العالمين وجود مطلق في الأذهان^(١١)، لا حقيقة له في الأعيان، ليس بداخل في العالم ولا خارج عنه، ولا متصل به ولا منفصل عنه، ولا محابيث ولا مباین له، لا يسمع ولا يرى، ولا يعلم شيئاً من الموجودات، ولا يفعل ما يشاء، لا حياة له ولا قدرة، ولا إرادة

(١) الجنادل: جمع جندل وهو المكان الغليظ فيه حجارة وقيل: هو الحجر كله والواحدة جندلة. (لسان العرب).

(٢) الصوان: بفتح الصاد مشدداً ضرب من الحجارة، الواحدة: صوانة. (مختر الصحاح).

(٣) سقطت من ص.

(٤) ذكرت الأنجليل دفنه في القبر. (انظر: متى: ٢٧ - ٦٠ - ٦١، مرقس: ١٥ / ٤٦، لوقا: ٢٣ / ٥٣، يوحنا: ١٩ / ٤١).

كما ذكرت الأنجليل مسألة قيامه من قبره وصعوده إلى عرشه أيضاً، (انظر: متى:

٢٨ / ١٠ - ١٩ / ٦، مرقس: ١٢ - ٢٤ - ١٢ - ٦٠، لوقا: ٢٠ / ١ - ١٨ - ١٩).

(٥) إشارة إلى الوثنين.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) سقطت من ج، ص.

(٨) في ص: بإحسانه.

(٩) إشارة إلى اليهود.

(١٠) في ج، ص: وقاربهم.

(١١) إشارة إلى المذاهب الفلسفية عامة؛ ومنذهب الجهمية بشكل خاص.

ولا اختيار، ولم يخلق السموات والأرض في ستة أيام، بل لم تزل السموات والأرض معه، وجودها مقارن لوجوده، لم يحدثها بعد عدمها، ولا له قدرة على إفائها بعد وجودها، ما أنزل على بشر كتاباً، ولا أرسل إلى الناس رسولاً، فلا شرع يتبع ولا رسول يطاع، ولا دار بعد هذه الدار، ولا مبدأ للعالم ولا معاد، ولا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار، إن هي إلا تسعه أفلالك^(١) وعشرة عقول^(٢) وأربعة أركان^(٣) وأفلالك تدور، ونجوم تسير وأرحام تدفع وأرض تبلغ، و«ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيانا وما يهلكنا إلا الدهر، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون»^(٤) وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ضدّ له ولا نذل له ولا صاحبة له ولا ولد له، ولا كفؤ له، تعالى عن إفك المبطلين (وخرص)^(٥) الكاذبين، وتقديس عن شرك المشركين وأباطيل الملحدين، كذب العادلون به سواه وضلوا ضلالاً بعيداً، وخسروا خسراناً مبيناً: «ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله، إذا لذهب كل إله بما خلق ولعل بعضهم على بعض، سبحانه الله

(١) الأفلال التسعة هي: كرة السماء الأولى أو الفلك المحيط، فكرة الكواكب الثابتة، فكرة زحل، فالمشتري، فالمريخ، فالشمس، فالزهرة، فطارد، فالقمر. وكان أرسطو أول من رتبها هذا الترتيب، ثم جاء الفارابي وأنشأ عنها نظرية الفيض الإلهي، حيث ربط هذه الأفلال بالعقل، وقال بأن لكل فلك نفساً تحركه فيدور، وهو مركز العقل مفارق تستمد منه نفس الفلك قوتها، والعقل المفارقة التسعة التالية لواجب الوجود مع هذه الأجرام السماوية التسعة تؤلف درجة الوجود الثانية.

(انظر: دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وأثار رجالها، عبد الشمالي: ص ٢٧٨).

(٢) العقول العشرة هي: العقل الأول واجب الوجود كمال مطلق يعقل نفسه ويعيشها، ويكتفي بها فيفيض عنه عقل ثان هو جوهر غير متجسم ممكّن الوجود بنفسه؛ واجبه بالعقل الأول، يعقل نفسه فيفيض عنه فلك، ويحن إلى مصدره الكامل فيعقله فيفيض عن عقله الأول عقل ثالث، ويتوالى ذلك في العقول التي تليه حتى العقل الفعال الحادي عشر الذي يسميه الفارابي باللغوس الإنسانية التي تعني بما دون فلك القمر بعالم الكون والفساد. فهي عشرة عقول مفارقة لواجب الوجود، وتفيض منها تباعاً تسعه أفلالك آخرها فلك القمر. (انظر: دراسات في تاريخ الفلسفة العربية، عبد الشمالي: ص: ٢٧٦ – ٢٧٧).

(وانظر: السلسلة الرمزية التي توضح مسلسلة الفيض عند الفارابي في الكتاب).

(٣) الأركان الأربع: هي ما يسميها أفلاطون بالعناصر الأربع وهي: الماء، والهواء، والتراب، والنار.

(انظر: قصة الفلسفة اليونانية، أحمد أمين: ص ١٧٤).

(٤) سورة العجاشية: الآية ٢٤.

(٥) في ب، ج، ص: وخوض.

عما يصفون! عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشرون^(١).

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفوته من خلقه وخيرته من برئته، وأميته على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده، (ابتعثه بخير)^(٢) ملة وأحسن شرعة، وأظهر دلالة وأوضح حجة، وأبين برهان إلى جميع العالمين إنسهم وجنّهم، عربهم وعجمهم، حاضرهم وباديهم، الذي بشرت به الكتب السالفة، وأخبرت به الرسل الماضية، وجرى ذكره في الأعصار في (القري والأمسكار)^(٣) والأمم الخالية، ضربت لنبوته البشائر الميثاق بالإيمان به والبشرة بنبوته^(٤) حتى انتهت النبوة إلى كليم الرحمن موسى بن عمران، فأذن بنبوته على رؤوس الأشهاد بينبني إسرائيل معلناً بالأذان: « جاء الله من طور سيناء، وأشرف من ساعير، واستعلن من جبال فاران»^(٥).

إلى أن ظهر المسيح ابن مريم عبد الله ورسوله وروحه وكلمته (التي)^(٦) ألقاها إلى مريم، فأذن بنبوته أذاناً لم يؤذنه أحد مثله قبله، فقام فيبني إسرائيل مقام الصادق الناصح، وكانوا لا يحبون الناصحين، فقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مَصْدِقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ
مِنَ التُّورَةِ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمَهُ أَحْمَدُ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا
سُحْرٌ مُّبِينٌ﴾^(٧) تالله لقد أذن المسيح أذاناً (أسمع)^(٨) الباقي والحاضر، فأجابه المؤمن
المصدق، وقامت حجة الله على الجاحد والكافر. (الله أكبر)^(٩) عما يقول فيه المبطلون،
ويصفه الكاذبون، وينسبه إليه المفترون والجاحدون، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله

(١) سورة المؤمنون: الآياتان ٩١، ٩٢.

(٢) في ص: أبتعثه خير.

(٣) سقطت من ص.

(٤) قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَخْذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّنَ لِمَا أَتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مَصْدِقًا لِمَا
عَمِّكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتُتَصْرِّنَهُ . . .﴾ سورة آل عمران: الآية ٨١.

(٥) الشنبية: ٢/٣٣.

(٦) سقطت من ب، ج.

(٧) سورة الصاف: الآية ٦.

(٨) في ج: سمعه.

(٩) في ص: الله أكبر الله أكبر.

وحده لا شريك له، ولا ينذر له، ولا كفؤ له، ولا صاحبة ولا ولد له، ولا والد له بل هو الأحد الصمد الذي: «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كَفُواً أَحَدٌ» ثم رفع صوته بالشهادة لأنخيه^(۱) وأولى الناس به بأنه عبد الله ورسوله، وأنه أركون العالم^(۲)، وأنه روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه، إنما يقول ما يقال له، وأنه يخبر الناس بكل ما أعدد الله لهم، ويصوّسهم بالحق، ويخبرهم بالغيب، (ويحييهم)^(۳) بالتأويل، ويوبخ العالم على الخطيئة، ويخلصهم من يد الشيطان، وتستمر شريعته وسلطانه إلى آخر الدهر^(۴) وصرح في أذانه باسمه ونعته، وصفته وسيرته، حتى كأنهم ينظرون إليه عياناً، ثم قال: حي على الصلاة خلف إمام المرسلين، وسيد ولد آدم أجمعين، حي على الفلاح باتباع من السعادة في اتباعه، والفالح في الدخول في (جملة)^(۵) أشياعه. فاذن وأقام وتولى وقال: «لست أدعكم كالأيتام، وسأعود وأصلبli وراء هذا الإمام، هذا عهدي إليكم إن حفظتموه دام لكم الملك إلى آخر الأيام»^(۶) فصلى الله عليه من ناصح بشر برسالة أخيه عليهم أفضل الصلاة والسلام، (وصدقه)^(۷) أخوه ونzechه عما قال فيه وفي أمّه أعداؤه المغضوب عليهم من الإفك والباطل وزور الكلام. كما نزه ربه وخالقه ومرسله عما قال فيه المثلثة عباد الصليب (ونسبوه)^(۸) إليه من النقص والعيب والذم.

أما بعد:

فيإن الله عزوجل، جل ثناؤه وقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره، جعل الإسلام عصمة لمن لجأ إليه، وجنة لمن استمسك به، وعرض بالنجاد عليه، فهو حرمه الذي من دخله كان من الآمنين، وحصنه الذي من لجأ إليه كان من الفائزين،

(۱) يقصد محمداً ﷺ.

(۲) أركون: بمعنى عظيم، وعبر عنه إنجليل يوحنا بلغط «رئيس العالم». (انظر: يوحنا: ۱۴ / ۳۰).

(۳) في الأصل: ويحييهم.

(۴) ورد هذا النص بمجمله في أكثر من موضع يكمل بعضها بعضاً. (انظر: يوحنا: ۱۶ / ۷ – ۱۴ / ۲۶).

(۵) في ب، ج، ص: زمرة.

(۶) النص بمعناه في يوحنا: ۱۴ / ۱۸ – ۱۹، دون الإشارة إلى الصلاة وراء هذا الإمام.

(۷) في ج، ص: وصدق به.

(۸) في ص، ب: وسموه.

ومن انقطع دونه كان من الهاكين، وأبى أن يقبل من أحد ديناً سواه ولو بذل في المسير إليه جده واستفرغ قواه، وأظهره على الدين كله حتى طبق مشارق الأرض وغاربيها، وسار مسيرة الشمس في الأقطار وبلغ إلى حيث انتهى الليل والنهار^(١). وعلت الدعوة الإسلامية وارتقت غاية الارتفاع والاعلاء، بحيث صار أصلها ثابتًا وفرعها في السماء، فتضاءلت لها جميع الأديان، وخررت تحتها الأمم (منقادة)^(٢) بالخضوع والذلة والإذعان، ونادي المنادي بشعاراتها في جو السماء بين الخافقين، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صارخاً بالشهادتين حتى بطلت دعوى الشياطين، وتلاشت عبادة الأوثان، وأضمحلت عبادة النيران، وذلت المثلثة عباد الصليبان، وتقطعت الأمة الغضبية في الأرض كتقطع السراب في القيعان^(٣)، وصارت كلمة الإسلام هي العليا، وصار (لها)^(٤) في قلوب الخلائق المثل الأعلى، وقامت براهيته وحججه على سائر الأمم في الآخرة والأولى، وبلغت منزلته في العلو والرفة الغاية القصوى، وأقام له وليه ومصطفاه أعواناً وأنصاراً نشروا ألويته وأعلامه، وحفظوا من التغيير والتبدل حدوده وأحكامه وبلغوا إلى (نظائرهم)^(٥) كما بلغ إليهم من قبلهم حلاله وحرامه فعظموا شعائره، وعلموا شرائعه وجاهدوا أعداء بالحجّة والبرهان^(٦)، حتى استغلظ واستوى على سوقه يعجب الزرع ويغيط الكفار، وعلا بنائه المؤسس على تقوى من الله ورضوان (إذ كان بناء غيره مؤسساً على شفا جرف هار)^(٧) فبارك الذي رفع منزلته وأعلى كلمته وفخم شأنه وأشاد بنائه، وأدلى مخالفيه ومعانديه وكبت من يبغضه ويعادييه، ووسّعهم بأنهم شر الدواب، وأعد لهم إذا قدموا عليه أليم العذاب والعقاب، وحكم لهم بأنهم أضل سبيلاً من الأنعام، إذ استبدلوا الشرك بالتوحيد والضلال بالهدى والكفر بالإسلام، وحكم سبحانه لعلماء الكفر وعباده حكماً يشهد ذovo العقول بصحته ويرونه شيئاً حسناً فقال تعالى : «قل

(١) وهذا إشارة إلى ما ورد في الحديث «ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل». رواه ابن حبان في صحيحه.

(٢) سقطت من ص.

(٣) القيعان: جمع قيعة، وهي المستوي من الأرض. (مختر الصحاح).

(٤) في ج، ص: له.

(٥) في الأصل: نظر أبيهم.

(٦) في ج، ص: والبيان.

(٧) سقطت من الأصل.

هل نبئكم بالأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيمة وزناً، ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً^(١).

(فصل): فأين يذهب من تولى عن توحيد ربه وطاعته، ولم يرفع رأساً بأمره ونهيه، وكذب رسوله، وأعرض عن متابعته، وحاد عن شريعته، ورغم عن ملته، واتبع غير سنته، ولم (يتمسك)^(٢) بعهده، ومكّن الجهل من نفسه، والهوى والعناد من قلبه، والجحود والكفر من صدره، والعصيان والمخالفة من جوارحه، فقد قابل خبر الله بالتكذيب، وأمره بالعصيان، ونهيه بالارتكاب، يغضب رب وهو راض، ويرضى وهو غضبان، يحب ما يبغض ويبغض ما يحب، ويتوالي من يعاديه ويعادي من يواليه، يدعوا إلى خلاف ما يرضى، وينهى عبداً إذا صلى، فقد اتخذ إلهه هواه وأصله الله على علم فأصمه وأبكمه وأعماه، فهو ميت الدارين، فاقد السعادتين، قد رضي بخزي الدنيا، وعداب الآخرة، وباع التجارة الرابحة بالصفقة الخاسرة، فقلبه عن رب مصود، وسيط الوصول إلى جنته ورضاه وقربه عنه مسدود، فهو ولی الشيطان وعدو الرحمن، وحليف الكفر والفسق والعصيان، قد رضي المسلمون بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، ورضي المخدول بالصلب والوثن إليها، وبالشillet والكفر ديناً، وبسيط الضلال والغضب سبيلاً، أعصى الناس للخالق الذي لا سعادة له إلا في طاعته، وأطوعهم للمخلوق الذي ذهب دنياه وأخراء في طاعته، وإذا سئل في قبره من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ قال: آه آه لا أدرى، فيقال له: لا دريت ولا تليت^(٣)، وعلى ذلك حيت وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء الله، ثم يضرم عليه قبره ناراً، ويضيق عليه كالزج في الرمح^(٤) إلى قيام الساعة^(٥)، فإذا «بُعثِرَ ما في القبور وحُصِّلَ ما في الصدور»، وقام

(١) سورة الكهف: الآيات: ١٠٣ - ١٠٦.

(٢) في ب، ح: يستمسك.

(٣) لا دريت ولا تليت: قال ثعلب: قوله «تليت» أصلها تلوت، أي لا فهمت ولا قرأت والمعنى: لا دريت ولا اتبعت من يدري. (انظر: فتح الباري: ٢٣٩/٣).

(٤) الزج في الرمح: الزج بالضم الجديدة التي في أسفل الرمح. (مختر الصحاح).

(٥) هذا الحديث مروي في أكثر كتب السنة، لكنني لم أعثر على نفس اللفظ والترتيب الذي جاء به المؤلف، ويتضح من السياق أن المؤلف قد أورد هذا من مجموعة الأحاديث، ولم يرد التقيد بحديث =

الناس لرب العالمين، ونادى المنادي ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾^(١) ثم رفع لكل عابد (معبوده الذي كان)^(٢) يعبد ويهواه، وقال رب تعالى وقد أنصت له الخلاق: ليس عدلاً مني أن أولي كل إنسان منكم ما كان في الدنيا يتولاه، فهناك يعلم المشرك حقيقة ما كان عليه، (وبين)^(٣) له سوء منقلبه وما صار إليه، ويعلم الكفار أنهم لم يكونوا أولياءه ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾^(٤) ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون﴾^(٥).

**
*

معين. فقد رواه البخاري ونصه: «ما كنت تقول في هذا الرجل؟» فيقول: لا أدرى، فيقال: لا دريت ولا تلقيت، ويضرب بمطارق من حديد» ورواه أبو داود وذكر فيه: «فيقول: هاه هاه لا أدرى» ورواه الإمام أحمد في مسنده في أكثر من رواية وذكر في إحداها: «يسيق عليه قبره» وفي رواية أخرى ذكر أنه يقال له: «وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله» وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وذكر فيه: «على هذا حيث وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله ويسيق عليه قبره» وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في الأوسط وإنسناه حسن». (انظر: فتح الباري: ٢٢٣/٢؛ سنن أبي داود مع حاشية عن المعبود ٤/٣٨٥، الفتح الرباني ١١٣/٧، مجمع الزوائد للهيثمي ٣/٥٢).

(١) سورة يس: الآية ٥٩.

(٢) في ج: ما كان.

(٣) في ج، ص: وبين.

(٤) سورة الأطفال: الآية ٣٤.

(٥) سورة التوبة: الآية ١٠٥.

[الحالة الدينية للمجتمع البشري عند بعثة محمد ﷺ]

(فصل) ولماً بعث الله محمداً ﷺ كان أهل الأرض (صفيين)^(١): أهل كتاب وزنادقة لا كتاب لهم، وكان أهل الكتاب أفضل (الصفيين)^(٢)، وهم نوعان: مغضوب عليهم وضالون.

[اليهود]: فالآمة الغضبية هم اليهود أهل الكذب والبهت والغدر والمكر والحيل، قتلة الأنبياء وأكلة السحت والربا والرشا، أخبث الأمم طوية، وأرداهم سجية، وأبعدهم من الرحمة، وأقربهم من النعمة، عادتهم البغضاء، (ودينهم)^(٣) العداوة والشحناه، بيت السحر والكذب والحيل، لا يرون لمن خالفهم في كفرهم وتكذيبهم (ولونبياً)^(٤) حرمة، ولا يرقبون في مؤمن إلّا ولا ذمة، ولا لمن وافقهم عندهم حق ولا شفقة، ولا لمن شاركهم عندهم عدل ولا نصفة، ولا لمن خالطهم طمأنينة ولا أمنة، ولا لمن استعملهم عنده نصيحة، بل أخبطهم أعقلاهم وأصدقهم أغشهم، وسليم الناحية – وحاشا أن يوجد فيهم وبينهم – ليس بيهودي على الحقيقة، أضيق الخلق صدوراً، وأظلمهم بيوتاً، وأنتمهم أفنيه^(٥)، وأوحشهم سحنة^(٦)، تحيتم لعنة ولقاوهم طيرة، شعارهم الغضب ودثارهم المقت^(٧).

(١) في ص: صفين.

(٢) في ص: الصفيين.

(٣) في ص: ودأبهم.

(٤) في ج، ص: الأنبياء.

(٥) إشارة لقوله عليه السلام: (نظروا أفننتكم ولا ت شبّهوا باليهود).

آخرجه الترمذى في كتاب الأدب: ص ٤١. انظر: عارضة الأحوذى: ٢٤٠ / ١٠.

(٦) السحنة: الهيئة (مختار الصحاح): ص ٢٨٩.

(٧) الشعار هو الثوب الذي يلي اللحم، والدثار كل ما كان من الثياب فوق الشعار (مختار الصحاح): ص ١٩٨. ومعنى هذا الوصف، أنهم يُحيطهم وبعدهم الغضب والمقت من الله تعالى.

[النصارى]: (والنوع)^(١) الثاني: المثلثة (أمة الصلال) (أو عباد الصليب)^(٢) الذين (نسبوا الله الخالق مسبة ما سببه)^(٣) إياها أحد من البشر، ولم يقروا بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كَفُواً أَحَد﴾، ولم يجعلوه أكبر من كل شيء بل قالوا ما: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرُنَّ مِنْهُ وَتَنْشَقُ الْأَرْضُ وَتَخْرُّ الْجَبَالُ هَذَا﴾^(٤) فقل ما شئت في طائفة أصل عقيدتها أن الله ثالث ثلاثة، وأن مريم صاحبته، وأن المسيح ابنه، وأنه نزل عن كرسي عظمته، والتحم ببطن الصاحبة، وجرى له ما جرى إلى أن قتل ومات ودفن، ودينها عبادة الصليبان، وداعء الصور المنقوشة بالأحمر والأصفر في الحيطان، يقولون في دعائهم: «يا والدة الإله ارزقنا واغفري لنا وارحمينا»^(٥).

فدينهما شرب الخمور وأكل الخنزير، وترك الختان، والتعبد بالتجاسات، واستباحة كل خبيث من الفيل إلى البعوضة، (ورفض نصوص الكتب الإلهية والعمل بقول جاهل من رهابتهم، واتباع أمره وأن الحق معه)^(٦) والحلال ما أحله، والحرام ما حرم، والدين ما شرعه وهو الذي يغفر لهم الذنب وينجيهم من عذاب السعير.

[الوثنيون والملاحدة]: فهذا حال من له كتاب، وأما من لا كتاب له، فهم عابدواثان وعابدو (صوان)^(٧)، وعابدو شيطان وصابيء حيران، يجمعهم الشرك وتكميم الرسل

(١) في ص: والنصف.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) في الأصل: نسبوا الله الخالق نسبة ما نسبة.

(٤) سورة مريم: الآية ٩٠.

(٥) يشير إلى الذين يؤلهون مريم ويترقبون إليها بالعبادة، ويسمون بالمربيمين، وقد ذكر القمص زكريا بطرس أن هذه الفرق ظهرت في القرن الخامس الميلادي، وكان أصحاب هذه البدعة من الوثنين الذين اعتنقوا المسيحية، وكانت في وثنיהם يعبدون الزهرة ويقولون عنها ملكة السماء، وعندما اعتنقوا المسيحية حاولوا التقريب بين ما كانوا يعبدون وبين العقيدة المسيحية فأعتبروا مريم ملكة السماء أو إلهة السماء بدلاً من الزهرة.

(انظر كتاب: الله واحد في الثالوث القدس، القمص زكريا إبراهيم: ص ٤١، الطبعة الرابعة، مركز الشبيبة، السويس).

(٦) سقطت من ج، ص.

(٧) في ب، ج، ص: نيران.

وتعطيل الشرائع، وإنكار المعاد وحشر الأجساد، لا يدينون (للحق)^(١) بدين ولا يعبدونه مع العبادين، ولا يوحدونه مع الموحدين.

[المجوس]: وأمة المجوس منهم تستفرش الأمهات والبنات والأخوات مع العمات والخالات، دينهم (الزمرة)^(٢) وطعامهم الميتة وشرابهم الخمر ومعبودهم النار، ووليهم الشيطان، فهم أخبثبني آدم نحلة (أرذلهم)^(٣) مذهبًا، وأسوؤهم اعتقاداً.

[الصابئة والفلسفه]: وأما زنادقة الصابئة وملحدة الفلسفه، فلا يؤمنون بالله ولا ملائكته ولا كتبه ولا رسالته ولا لقائه، ولا يؤمنون بمبدأ ولا معاد، وليس للعالم عندهم رب فعال بالاختيار لما يريد، قادر على كل شيء، عالم بكل شيء، أمر ناهٍ مرسلاً من الرسل، ومنزل الكتب، ومثيب المحسن، ومعاقب المسيء، وليس عند نظائرهم إلا تسعه أفلال، وعشرة عقول، وأربعة أركان، وسلسلة ترتبت فيها الموجودات هي بسلسة المجانين أشبه منها بمجوزات العقول.

[دين الحنيفية]: وبالجملة فدين الحنيفية الذي لا دين الله غيره بين أهل هذه الأديان الباطلة - التي لا دين في الأرض غيرها - أخفى من السها^(٤) تحت السحاب، وقد نظر الله تعالى إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب^(٥)، فأطلع الله تعالى شمس الرسالة في حنادس^(٦) تملك الظلم سراجاً منيراً، وأنعم (الله)^(٧) بها على أهل الأرض نعمة لا يستطيعون لها شكرأ، «وأشرفت الأرض بنور ربها»^(٨)، أكمل إشراق،

(١) في ب، ج، ص: للخلق.

(٢) في ج، ص: الزمر، والزمرة: صوت الرعد، قال الجوهري: الزمرة كلام المجوس عند أكلهم، وفي حديث عمر رضي الله عنه، كتب إلى أحد عماله في أمر المجوس: «وانههم عن الزمرة» (انظر لسان العرب).

(٣) في ج، ص: وأرادهم.

(٤) السها: كوكب خفي يمتحن الناس به أبصارهم (مختر الصداح: ص ٣١٩).

(٥) هذا الحديث جزء من خطبة لرسول الله ﷺ، أخرجه الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن عياض بن حمار (صحيح مسلم: كتاب الجنّة وصفة نعيمها حديث رقم ٢٨٦٥).

(٦) حنادس: جمع حندس بكسر الحاء والدال: الليل الشديد الظلمة (مختر الصداح).

(٧) سقطت من ب، ج، ص.

(٨) سورة الزمر: الآية ٦٩.

وفاض ذلك حتى عَمَ النواحي والأفاق ﴿وَانشقَ القمر أَتَمِ الْاِشْقَاق﴾^(١)، وقام دين الله الحنيف على ساق، فلله الحمد الذي أنقذنا بِمُحَمَّدٍ ﷺ من تلك الظلمات، وفتح لنا به (باب)^(٢) الهدى فلا يغلق إلى يوم الميقات، وأرانا في نوره أهل الضلال وهم في ضلالهم يتخطبون، وفي سكرتهم يعمهون، وفي جهالتهم يتقلبون، وفي ربهم يتربدون، يؤمنون^(٣) ويعدلون ولكن بربهم يعدلون، ويعلمون ولكن ﴿ظاهراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ غَافِلُون﴾، ويُسجدون ولكن للصلب، والوثن والشمس يُسجدون، ويمكرون وما يمكرون إلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ، ﴿لَقَدْ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُبِين﴾^(٤) ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيْهِمْ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيَعْلَمُهُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ، فَإِذَا ذَكَرُوكُمْ أَذْكُرْنَاكُمْ وَاشْكُرُوكُمْ وَلَا تَكْفُرُوكُمْ﴾^(٥).

والحمد لله الذي أغنانا بشرعيته التي تدعو إلى الحكمة والموسطة الحسنة، وتتضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بالعدل والإحسان، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغى، فله المنة والفضل على ما أنعم به علينا، وأثثنا به على سائر الأمم، وإليه الرغبة أن يوزعنا شكر هذه النعمة، وأن يفتح لنا أبواب التوبة والمغفرة والرحمة، فأحببوا الوسائل إلى المحسن التوسل إليه بإحسانه، والاعتراف له بأن الأمر كله محض فضله وامتنانه، فله علينا النعمة السابعة، كما له علينا الحجة البالغة، نبوء له بنعمه علينا، ونبوء بذنبينا وخطايانا، وجهلنا وظلمنا، وإسرافنا في أمرنا، فهذه بضاعتنا التي لدينا، لم تبق لنا، ونعمه وحقوقها وذنبنا حسنة (نرجو بها)^(٦) الفوز بالثواب والتخلص من أليم العقاب. بل بعض ذلك (ينفذ)^(٧) جميع حسناتنا، ويستوعب كل (طاعتنا)^(٨)، هذا لـو خلاصت من

(١) في ج، ص: وانتشق قمر الهدى أتم الاتساق.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) زاد في ص: ولكن بالجبن والطاغوت.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

(٥) سورة البقرة: الآيات ١٥١ - ١٥٢.

(٦) سقطت من ص، وفي ج: يزكي لها.

(٧) في ج، ص: يستنفذ.

(٨) في ج: طاعاتنا.

الشوائب، وكانت خالصة لوجهه (وَاقِعَة)^(١) على وَقْتِ أمره، وما هو والله إلَّا التعلق بأذى بالعفوه، وحسن الظن به (واللُّجَايَة)^(٢) إليه (والاستعانة)^(٣) به منه، والاستكناة والتذلل بين يديه، ومدَّ يد الفاقة والمسكنة إليه بالسؤال، والافتقار إليه في جميع الأحوال، فمن أصابته نفحة من نفحات رحمته، (وأوقعت)^(٤) عليه (قطرة من قطرات)^(٥) رأفتة انتعش (بين)^(٦) الأموات، وأناخت بفنائه وفود الخيرات، وترحلت عنه جيوش الهموم والغموم والحسرات.

(شعر):

وإذا نظرت إلى نظرة راحم في الدهر يوماً إنني لسعيد

*
**

(١) في ب، ج، ص: واقعة.

(٢) في ج، ص: اللُّجَايَة.

(٣) في ب والأصل: الاستعاذه.

(٤) في ب، ج، ص: أوقعت.

(٥) في ب، ج، ص: نظرة من نظرات.

(٦) في ب، ج، ص: من بين.

[سبب تأليف الكتاب]

(فصل) ومن بعض حقوق الله على عبده رد الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه، ومجاهمتهم بالحججة والبيان، والسيف والستان، والقلب والجتان، وليس وراء ذلك حبة خردل (من الإيمان)^(١).

وكان انتهى إلينا مسائل أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين، فلم يصادف عنده ما يشفيه، ولا وقع دواهه (على الداء)^(٢) الذي فيه، وظن المسلم أنه بضربه يداويه فسطا به ضرباً، وقال هذا هو الجواب، فقال الكافر: صدق أصحابنا في قولهم: إن دين الإسلام إنما قام بالسيف لا بالكتاب، فتفرقا وهذا ضارب وهذا مضروب، وضاعت الحجة بين الطالب والمطلوب، فشمر المجبib ساعد العزم، ونهض على ساق الجد، وقام الله قيام مستعين (به)^(٣)، مفوض إليه متوكلاً في موافقة مرضاته عليه، ولم يقل (مقال العجزة)^(٤) الجهال إن (الكافر)^(٥) إنما يعاملون بالجlad دون الجدال، وهذا فرار من الزحف، وإخلاد إلى العجز والضعف. (فمجادلة)^(٦) الكافر بعد دعوتهم إقامة للحججة (وإزالة)^(٧) للعذر لـليهلك من هلك عن بيته، ويحيى من حيّ عن بيته^(٨)، والسيف إنما جاء منفذًا للحججة، مقوماً للمعائد، وحداً للجاحظ.

(١) سقطت من ج، ص.

(٢) سقطت من ص.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في ج، ص: مقالة الفجرة.

(٥) زاد في ج: دائمًا.

(٦) في ج: وقد أمر الله بمجادلة.

(٧) في ج، ص: إزاحة.

(٨) سورة الأنفال: الآية ٤٢.

قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رَسُولًاٰ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ
بِالْقَسْطِ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرَسُولُهُ بِالْغَيْبِ
إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(١).

فدين الإسلام قام بالكتاب الهادي ، ونفذه السيف الناصر.

(شعر) :

فَمَا هُوَ إِلَّا الْوَحْيُ أَوْحَدَ مَرْهَفَ
يَقِيمُ ضِيَاهُ أَخْدُعِي كُلَّ مَائِلَ
فَهُذَا شَفَاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ عَاقِلَ
وَهُذَا دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ جَاهِلَ
وَإِلَى اللَّهِ الرُّغْبَةُ فِي التَّوْفِيقِ، فَإِنَّهُ الْفَاتِحُ مِنَ الْخَيْرِ أَبْوَابُهُ، وَالْمَيْسُرُ لَهُ أَسْبَابُهُ.

*
**

(١) سورة الحديد: الآية ٢٥ .

[خطة الكتاب]

(وقد وضعت هذا الكتاب)^(١) وسميتها: «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى».

وقسمته قسمين:

القسم الأول: في أجوبة المسائل.

القسم الثاني: في تقرير نبوة (سيدنا ومولانا)^(٢) محمد ﷺ (ابن عبد الله)^(٣) (بن عبد المطلب بن هاشم)^(٤) بجميع أنواع الدلائل، فجاء بحمد الله ومتنه وتوفيقه كتاباً ممتعاً معجباً، لا يسام قاريه ولا يمل الناظر فيه، فهو كتاب يصلح للدنيا والآخرة، ولزيادة الإيمان ولذلة الإنسان، يعطيك ما شئت من أعمال النبوة، وبراهين الرسالة، وبشارات الأنبياء بخاتمهم، واستخراج اسمه الصريح من كتبهم، وذكر نعمته وصفاته وسيرته من كتبهم، والتمييز بين صحيح الأديان وفاسدتها، وكيفية فسادها بعد استقامتها، وجملة من فضائح أهل الكتابين، وما هم عليه، وأنهم أعظم الناس براءة من أنبيائهم، وأن نصوص أنبيائهم تشهد بكفرهم وضلالهم وغير ذلك من نكت بدعة، لا توجد في سواه، والله المستعان وعليه التكلال، فهو حسبنا ونعم الوكيل.

**

(١) سقطت من ج، ص.

(٢) سقطت من ج، ص.

(٣) سقطت من ج.

(٤) سقطت من ج، ص.

[القسم الأول : في أجوبة المسائل]

[المسألة الأولى]

فنقول أما المسألة الأولى ، وهي قول السائل : (قد اشتهر عندكم أن أهل الكتابين^(١) ما منعهم من الدخول في الإسلام إلّا الرئاسة والمأكلة لا غير) فكلام جاهل بما عند المسلمين (وبيّن عند الكفار^(٢) ، أما المسلمين فلم يقولوا : إنه لم يمنع أهل الكتاب (من الدخول)^(٣) في الإسلام إلّا الرئاسة والمأكلة لا غير، وإن قال هذا بعض عوامتهم^(٤) فلا يلزم (جماعتهم)^(٥) ، والممتنعون من الدخول في الإسلام من أهل الكتابين^(٦) وغيرهم جزء يسير جداً بالإضافة إلى الداخلين فيه (منهم)^(٧) ، بل أكثر الأمم دخلوا في الإسلام طوعاً ورغبة و اختياراً لا كرهاً واضطراراً .

[التوزيع الجغرافي لأصحاب الديانات]

وإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً ﷺ رسولاً إلى أهل الأرض ، وهم خمسة أصناف ، قد طبقو الأرض : يهود ، ونصاري ، ومجوس ، (وصابرون)^(٨) ، وشركون .

وهذه الأصناف هي التي كانت قد استولت على الدنيا من مشارقها إلى مغاربها .

(١) في الأصل : الكتاب .

(٢) في ج : والكافر .

(٣) سقطت من الأصل .

(٤) في الأصل : أعوامتهم .

(٥) في الأصل : جملتهم .

(٦) في الأصل : الكتاب .

(٧) سقطت من الأصل .

(٨) في ب ، ج ، ص : وصابئة .

فاما اليهود فأكثر ما كانوا في اليمن وخمير والمدينة وما حولها، وكانوا بأطراف الشام مستذلين مع النصارى، (وكان منهم بأرض فارس مستذلة مع المعوس)^(١)، وكان منهم بأرض المغرب^(٢) فرقة، وأعز ما كانوا بالمدينة وخمير (وما حولها)^(٣). وكان الله سبحانه وتعالى قد قطعهم في الأرض أمماً، وسلبهم الملك والعز.

وأما النصارى فكانوا طبق الأرض، فكانت الشام (كلها)^(٤) نصارى، وأرض المغرب كان الغالب عليهم النصارى، وكذلك (أرض)^(٥) مصر والحبشة والنوبة^(٦) والجزيرة^(٧) والموصل وأرض نجران وغيرها من البلاد.

وأما المعوس فهم أهل مملكة فارس وما اتصل بها.
وأما الصابئة^(٨) فأهل حران^(٩) وكثير من بلاد الروم.

(١) موجودة في حج، وعلى هامش بـ.

(٢) في الأصل: العرب.

(٣) زيادة في الأصل فقط.

(٤) في الأصل: كلها.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) النوبة: بضم أوله وسكون ثانية، بلاد واسعة عريضة في جنوب مصر، وهم نصارى، أهل شدة في العيش أول بلادهم بعد أسوان، وكان عثمان بن عفان صالح النوبة على أربعين رأس في السنة (معجم البلدان).

(٧) الجزيرة: لعله يقصد منطقة الجزيرة في سوريا، والتي تقع ما بين دجلة والفرات، تشمل على ديار مصر وديار بكر وهي صاححة الهواء جيدة الربيع والنماء، ومن أمهات مدنها حران والرها والرقة وبصيّن، افتتحها عياض بن غنم سنة ١٧ هـ (معجم البلدان).

(٨) الصابئة: أطلق هذا الاسم على فرتين متميزتين تماماً وهما: المندية أو الصبوة وهي فرق يهودية نصرانية تمارس شعيرة التعميد في العراق، وصابئة حران وهي فرقه ثانية بقيت أمداً طويلاً في ظل الإسلام... ومن الواضح أن الصابئة الذين ذكرهم القرآن في ثلاثة مواضع هم اليهود والنصارى من أهل الكتاب، ولا شك أن اسم الصابئة مشتق من الأصل العربي (صبع) أي غطس ثم أسقطت العين، وهو يدل بلا ريب على المعبدانيين الذين يمارسون شعيرة التعميد أو الغطاس (دائرة المعارف الإسلامية: ١٤/٨٩).

(٩) حران: مدينة عظيمة مشهورة على طريق الموصل والشام، وكانت منازل الصابئة وهم الحرانيون، وفتحت في أيام عمر بن الخطاب على يد عياض بن غنم صلحًا (معجم البلدان: ٢/٢٣٥).

وأما المشركون فجزيرة العرب جميعها وببلاد الهند وببلاد الترك وما جاورها . . .
 وأديان أهل الأرض لا تخرج عن هذه الأديان الخمسة، ودين الحفباء لا يعرف فيهم
 البة، وهذه الأديان (الخمسة)^(١) كلها للشيطان كما قال ابن عباس رضي الله عنهم
 وغيره: «الأديان ستة: واحد للرحمون وخمسة للشيطان»^(٢) وهذه الأديان الستة مذكورة في
 آية الفصل^(٣) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى
 وَالْمُجْسَوسُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا، إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 شَهِيدٌ﴾^(٤) فلما بعث الله رسوله ﷺ، استجاب له ولخلفائه بعده أكثر الأديان طوعاً
 واحتياراً، ولم يكره أحداً قط على الدين، وإنما كان يقاتل من يحاربه، وأما من سالمه
 وهادنه فلم يقاتله، ولم يكرهه على الدخول في دينه امتثالاً لأمر ربه سبحانه وتعالى حيث
 يقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيْرِ﴾^(٥).

وهذا نفي في معنى النهي، أي: لا تكرهوا أحداً على الدين، نزلت هذه الآية في
 رجال من الصحابة كان لهم أولاد، قد تهودوا وتنصرروا قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام
 أسلم الآباء، وأرادوا إكراه الأولاد على الدين، فنهى الله سبحانه وتعالى عن ذلك حتى
 يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام^(٦).

والصحيح: الآية على عمومها في حق كل كافر، وهذا ظاهر على (قول من)^(٧)
 يجوز أحد الجزية من جميع الكفار، فلا يكرهون على الدخول في الدين، بل إنما أن
 يدخلوا في الدين، وإنما أن يعطوا الجزية كما تقوله أهل العراق، وأهل المدينة، وإن
 استثنى هؤلاء بعض عبادة الأواثان.

(١) سقطت من الأصل.

(٢) هذا النص ذكره الطبرى بنصه دون أن ينسبه لأحد (٢٧/١٧) وذكره النيسابورى عن مقاتل بنص
 «الأديان ستة واحد لله تعالى وهو الإسلام، وخمسة للشيطان» (تفسير غرائب القرآن، مطبوع بهامش
 الطبرى: ١٧/٧٤).

(٣) سماها آية الفصل لأن في آخرها (إن الله يفصل بينهم يوم القيمة).

(٤) سورة الحج: الآية ١٧.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم: ١/٣١٠.

(٧) سقطت من الأصل.

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ تبيّن أنَّه لم يكره أحداً على دينه فقط، وأنَّما قاتل من قاتله، وأما من هادنه فلم يقاتلها ما دام مقيماً على هدنته، لم ينقض عهده، بل أمره الله تعالى أنْ يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له، كما قال تعالى: «فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ»^(١).

فلما قدم المدينة صالح اليهود وأقرُّهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدأوه بالقتال قاتلهم، فمنَّ على بعضهم، وأجلَّى بعضهم، وقاتل بعضهم، وكذلك لما هادن قريشاً عشر سنين^(٢)، لم يبدأهم بقتال حتى (بدأوا هم بقتاله)^(٣) ونقض عهده، فحيثُ غزاهم في ديارهم، وكانوا يغزونه قبل ذلك، كما قصدوه يوم الخندق، ويوم بدر أيضاً هم جاؤوا لقتاله، ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم.

والملخص أنَّه ﷺ لم يكره أحداً على الدخول في دينه البتة، وإنما دخل الناس في دينه اختياراً وطوعاً، فأكثر أهل الأرض (دخلوا في دعوته لما تبيّن لهم الهدى)، وأنَّه رسول الله حقاً، فهو لاءُ أهل اليمن^(٤) كانوا على دين اليهودية، وأكثراهم كما قال النبي ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما (تدعوهم)^(٥) إليه شهادة أن لا إله إلا الله...» وذكر الحديث^(٦). ثم دخلوا الإسلام من غير رغبة ولا رهبة، وكذلك من أسلم من يهود المدينة، وهم جماعة كثيرون غير عبد الله^(٧)، مذكورون في كتب السير والمغاربي، لم يسلموا رغبة في الدنيا ولا رهبة من السيف، بل أسلموا في حال حاجة المسلمين وكثرة أعدائهم، ومحاربة أهل الأرض لهم

(١) سورة التوبة: الآية ٧.

(٢) وذلك في صلح الحديبية سنة ٥٦هـ.

(٣) في الأصل: بدأوه بقتالهم.

(٤) هذه الجملة سقطت من الأصل.

(٥) في الأصل: تدعوه.

(٦) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين: ١/٧ - ٢٩.

(٧) عبد الله: هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي، أبو يوسف حليفبني عوف بن الخزرج أسلم عند قدوة النبي ﷺ بالمدينة، قيل: كان اسمه الحصين، وسماه النبي ﷺ عبد الله، وشهد له بالجنة، أقام بالمدينة إلى أن مات، (الأعلام، الزركلي: ٤/٢٢٣).

من غير سوط ولا نوط^(١)، بل تحملوا معاداة أقربائهم وحرمانهم **نَعْهُمْ** بالمال والبدن مع (ضعف)^(٢) شوكة المسلمين وقلة ذات أيديهم، فكان أحدهم يعادى أبوه وأمه وأهل بيته وعشيرته، ويخرج من الدنيا رغبة في الإسلام، لا لرئاسة ولا مال بل ينخلع من الرئاسة والمال، ويتحمل أذى الكفار من ضربهم وشتمهم وصنوف أذاهם ولا يصرفه عن دينه.

فإن كان كثير من الأحبار والرهبان والقسيسين ومن ذكره هذا السائل قد اختار الكفر، فقد أسلم جمهور أهل الأرض من (فرق)^(٣) الكفار، ولم يبق إلّا الأقل بالنسبة إلى من أسلم، فهؤلاء نصارى الشام كانوا (ملء)^(٤) الشام، ثم صاروا مسلمين إلّا النادر، فصاروا في المسلمين كالشجرة السوداء في الثور الأبيض.

وكذلك المجوس كانت أمة لا يحصي عددهم إلّا الله تعالى، فأطبقوا على الإسلام ولم يختلف منهم إلّا النادر، وصارت بلاد إسلام، وصار من لم يسلم منهم تحت الجزية (والذلة)^(٥)، وكذلك اليهود أسلم أكثرهم ولم يبق منهم إلّا شرذمة قليلة مقطعة في البلاد.

قول هذا الجاهل إن (هاتين)^(٦) الأمتين (التي) لا يحصي عددهم إلّا الله تعالى، كفروا بـمحمد ﷺ، كذب ظاهر وبهت مبين، حتى لو كانوا كلهم قد (أطبقوا على اختيار)^(٧) الكفر لكانوا في ذلك أسوة قوم نوح، وقد أقام فيهم نوح **سَلَطَة** ألف سنة إلّا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى، ويريهم من الآيات ما يقيم حجة الله عليهم، وقد أطبقوا على الكفر إلّا قليلاً منهم، كما قال تعالى: «وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلّا قَلِيلٌ»^(٨).

(١) النوط: من ناط الشيء ينوطه نوطاً: علقه، والنوط ما علق سمي بالمصدر، وكل ما علق من شيء فهو نوط، والأنواط: المعاليق، وفي المثل: عاط بغير أنوط: أي يتناول وليس هناك شيء معلق، وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه أتي بمال كثير، فقال: إني لأحسبكم قد أهلكتم الناس فقالوا: والله ما أخذناه إلّا عفواً بلا سوط ولا نوط أي بلا ضرب ولا تعليق. (لسان العرب: ٤١٨/٧).

(٢) في ج: قلة.

(٣) سقطت من ج.

(٤) في ب، ج: أهل.

(٥) سقطت من ج.

(٦) في الأصل: هذين.

(٧) في جميع النسخ: التي.

(٨) في ص: أجمعوا على.

(٩) سورة هود: الآية ٤٠.

وهم كانوا أضعاف أضعاف هاتين الأمتين الكافرتين، أهل الغضب وأهل الضلال، (وقوم عاد)^(١) أطبقوا على الكفر، وهم أمة عظيمة عقلاً حتى استؤصلوا بالعذاب، (وقوم ثمود)^(٢) أطبقوا جميعهم على الكفر بعد رؤية الآية العظيمة التي يؤمن على مثلها البشر، ومع هذا فاختاروا الكفر على إيمان كما قال تعالى: ﴿وَمَا ثُمُودٌ فَهُدِينَا هُمْ فَاسْتَحْبَوْا الْعُمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثُمُودٌ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزِينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْرِينَ﴾^(٤).

فهاتان أمتان عظيمتان من أكبر الأمم قد أطبقتا على الكفر مع البصيرة، (فأمتا)^(٥) الغضب والضلال إذا أطبقتا على الكفر فليس ذلك ببدع، وهؤلاء قوم فرعون مع كثريهم قد أطبقوا على جحد نبوة موسى عليه الصلاة والسلام مع ظاهر الآيات الباهرة آية بعد آية، فلم يؤمن منهم إلا رجل واحد كان يكتمن إيمانه^(٦).

وأيضاً فيقال للنصارى: هؤلاء اليهود مع كثريهم في زمان المسيح عليه الصلاة والسلام حتى كانوا قد ملأوا بلاد الشام كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَضْعِفُونَ مُشَارِقَ الْأَرْضِ وَمُغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾^(٧) وكانوا قد أطبقوا على تكذيب المسيح وجحد نبوته، وفيهم الأخبار (والرهبان)^(٨)، والعباد والعلماء، حتى آمن به

(١) في ص: عاد.

(٢) في ص: ثمود.

(٣) سورة فصلت: الآية ١٧.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٣٨.

(٥) في جميع النسخ: فاتحة.

(٦) هو مؤمن آل فرعون الذي ذكرته سورة غافر التي سميت باسمه (المؤمن) بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فَرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتَلُونَ رَجُلًاٌ أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ . . .﴾ [غافر: ٢٨].

والحقيقة أنه آمن مع موسى عليه السلام غير هذا الرجل كما قال تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذرِيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَى خُوفٍ مِّنْ فَرْعَوْنَ وَمِلْئِهِمْ أَنْ يُفْتَنُوهُمْ﴾ [يونس: ٨٣].

ولعل المؤلف رحمة الله ذهب إلى ما نقل عن مجاهد، واختاره ابن جرير الطبرى في الذريعة أنها من بنى إسرائيل لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكورين.

(تفسير ابن كثير: ٤٢٧/١ - ٤٢٨).

(٧) سورة الأعراف: الآية ١٣٧.

(٨) سقطت من ب، ج، ص.

الحواريون، فإذا جاز على اليهود – وفيهم الأخبار والعباد والزهاد وغيرهم – الإطباقي على جحد نبوة المسيح، والكفر به مع ظهور آيات صدقه كالشمس، جاز عليهم إنكار نبوة محمد ﷺ، ومعلوم أن جواز ذلك على أمة الضلال الذين هم أضل من الأنعام، وهم النصارى أولى وأحرى.

فهذا السؤال الذي أورده هذا السائل وارد بعينه في حق كلنبي كذبته أمة من الأمم، فإن صوب هذا السائل رأي تلك (الأمم)^(١) كلها، فقد كفر بجميع الرسل، وإن قال إن الأنبياء كانوا على الحق، وكانت تلك الأمم مع كثرتها ووفور عقلها على الباطل، فلأن يكون المكذبون بمحمد ﷺ – وهم الأقلون (الأرذلون)^(٢) من هذه الطوائف – على الباطل أولى وأحرى. وأيّ أمة من الأمم اعتبرتها وَجَدْتَ المصدقيين بنبوة محمد ﷺ جمهورها، وأقلها وأرذلها هم الجاحدون لنبوته، فرقعة الإسلام اتسعت في مشارق الأرض وغاربها غاية الاتساع بدخول هذه (الأمم)^(٣) في دينه، وتصديقهم برسالته، وبقي من لم يدخل منهم في دينه، وهم من كل أمة أقلها.

وأين يقع النصارى المكذبون برسالته اليوم من أمة النصرانية الذين كانوا قبله، وكذلك اليهود والمجوس (والصابئون)^(٤)؟ لا نسبة للمكذبين برسالته بعد بعثه إلى جملة تلك الأمم قبل بعثه.

وقد أخبر تعالى عن الأمم التي أطبقت على تكذيب الرسل ودمراها الله تعالى، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَنُوحِدُكُمْ بِرَبِّكُمْ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَغَنِيمٌ وَّلَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٥).

فأخبر عن هؤلاء الأمم أنهم تطابقوا على تكذيب رسليهم، وأنه عمّهم بالإهلاك وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَوْ تَوَاصَوْا بِهِ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغِيونَ﴾^(٦).

(١) في ب، ص والأصل: الأمة.

(٢) في ب، ص: الأذلون الأرذلون.

(٣) في الأصل: الأمة.

(٤) في ب، ج، ص: والصابئة.

(٥) سورة المؤمنون: الآية ٤٤.

(٦) سورة الذاريات: الآيات ٥٢ – ٥٣.

ومعلوم قطعاً أن الله تعالى لم يهلك هذه (الأمم) الكثيرة إلا بعد ما تبين لهم الهدى، فاختاروا عليه الكفر، ولو لم يتبيّن لهم الهدى و اختاروا خلافه (لم يهلكوا)^(١) كما قال تعالى : «وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون»^(٢) وقال تعالى : «فَلَوْلَا كَانَتْ قُرْيَةً أَمْنَتْ فَنَفَعَهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونَسٌ ، لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عذابَ الْخَزِيرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْدِنِيَّةِ وَمَتَعَاهُمْ إِلَى حِينٍ»^(٣) أي : فلم تكن قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس . (أو: فهلا قرية آمنت فنفعها إيمانها ، لكن قوم يونس لما آمنوا... الآية)^(٤) .

ومعلوم قطعاً أنه لم يُصدق نبي من الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ولم يتبعه من الأمم، ما صدّق محمد بن عبد الله عليه السلام.

والذين اتبعوه من الأمم أضعاف أضعاف هاتين الأمتين المكذبتين بما لا يحصيهم (إلا الله)، ولا يستریب من له مسکة من عقل أن الضلال والجهل والغي وفساد العقل إلى من خالقه وجحد نبوته أقرب منه إلى أتباعه ومن أقرّ بنبوته.

وحيثئذٍ فيقال: كيف جاز على هؤلاء الأئم - (الذين)^(١) لا يحصيهم إلا الله، الذين قد بلغوا مشارق الأرض وغاربها على اختلاف طبائعهم وأغراضهم وتبانين مقاصدهم - الإلطاف^(٢) على اتباع من يكذب على الله (وعلى العقل)^(٣) ويحل ما حرم الله (ورسله وبحرم ما أحل ، وعلمون أن الكذاب على الله تعالى)^(٤) في دعوى (الرسالة هو)^(٥) شر خلق الله (وأفجرون)^(٦) وأظلمتهم وأكذبهم؟ ولا يشك من له أدنى عقل أن إلطاف أكثر الأمم على

(١) في ب، ج، ص: لم يهلكهم.

٥٩ - الآية : سورة القصص (٢)

(٣) سورة يونس: الآية ٩٨.

(٤) زيادة في الأصا...

(٥) سقطت من ح.

(٧) في بـ، ص: بلا وقف على العقا، وفي جـ: وسله وعله العقا.

(٨) سقطت من حـ والأصـ

(٩) سقطت نسخة الأصل.

(١) سقطت من الأعلى بغير قيادة.

۱۷) سنت میں ادھل، ویسی میں۔ وہ بیرسم:

متابعة هذا (النبي ﷺ)^(١) وخروجهم عن ديارهم وأموالهم، ومعاداتهم آباءهم وأبناءهم وعشرائهم في (متابعة)^(٢)، وبذلهم نفوسهم بين يديه من محل المحال.

فتحجيز اختيار الكفر بعد تبين الهدى على شرذمة قليلة حقيرة لها أغراض عديدة من هاتين الأمتين أولى من تجحيز ذلك على المسلمين الذين طبقوا مشارق الأرض وغاربها، وهم أعقل الأمم (وأكملها)^(٣) في جميع خصال الفضل. وأين عقول عباد العجل والصلب الذين أضحكوا سائر العقلاء على عقولهم، ودلولهم على مبلغها بما قالوه في معبدتهم، من عقول المسلمين؟.

وإذا جاز اتفاق أمة — فيها من قد ذكره هذا السائل — على أن رب العالمين خالق السموات والأرضين، نزل عن (عرش عظمته وكرسي رفعته)^(٤) ودخل في بطن امرأة في محل الحيض والطمث عدة شهور، ثم خرج من فرجها طفلاً يمتص الشדי، ويبكي ويكبر شيئاً فشيئاً، ويأكل ويشرب، ويبول ويصح ويمرض، ويفرح ويحزن ويلد ويألم، ثم دبر حيلة على عدوه إبليس بأن مكن أعداء اليهود من نفسه، فأمسكوه وساقوه إلى خشبتين يصلبونه عليهما، وهم يحررونه إلى الصليب، والأوبياش^(٥) والأراذل قدامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله، وهو يستغيث ويبكي، (فقربوه)^(٦) من الخشبتين ثم توجوه بتاج من الشوك (وصفعوه)^(٧) صفعاً (شديداً)^(٨) ثم حملوه على الصليب، وسمّروا يديه ورجليه وجعلوه بين لصين^(٩)، وهو الذي اختار هذا كله لتسلمه الحيلة على إبليس، ليخلص آدم وسائر الأنبياء من سجنه، فقد لهم بنفسه حتى خلصوا من سجن إبليس.

(١) سقطت من ج والأصل.

(٢) في الأصل: مبaitته.

(٣) في ص: واعقلها.

(٤) في ب، ج، ص: عرشه وكرسي عظمته.

(٥) الأوبياش من الناس الأخلاط (مختار الصحاح: ص ٧٠٧).

(٦) في الأصل: فضربوه، وفي ص، ب: فقدم.

(٧) في ب، ص: وأوجعوه.

(٨) سقطت من ب، ج، ص.

(٩) ذكر ذلك كله في العهد الجديد عند الحديث عن الصليب، وقد أشرنا إلى موضعها في أناجيلهم الأربع ص ١٧١.

فإذا جاز اتفاق هذه الأمة – وفيهم الأخبار والرهبان والقسيسون والزهاد والعباد والفقهاء ومن ذكرتهم - على هذا القول في معبدهم وإلههم ، حتى قال قائل منهم وهو من أكابرهم عندهم : (اليد التي خلقت آدم هي التي باشرت المسامير ونالت الصليب)^(١) فكيف يجوز عليهم الاتفاق على تكذيب من جاء بتکفيرهم وتضليلهم ، ونادي سراً وجهاً بكذبهم على الله تعالى ، وشتمهم له أقبح شتم ، وكذبهم على المسيح وتبذيلهم دينه ، وعاداهم (وقاتلهم)^(٢) ويرأه من هم ، وأخبر أنهم وقود النار وحصب جهنم ؟ فهذا أحد الأسباب التي اختاروا لأجلها الكفر على الإيمان وهو من أعظم الأسباب .

قولكم : إن المسلمين يقولون إنهم لم يمنعهم من الدخول في الإسلام إلا الرئاسة والمأكلة لا غير ، كذب على المسلمين ، بل الرئاسة والمأكلة من جملة الأسباب المانعة لهم من الدخول في الدين ، وقد ناظرنا نحن وغيرنا جماعة منهم ، فلما تبيّن لبعضهم فساد ما هم عليه قالوا : لو دخلنا في الإسلام لكننا من أقل المسلمين ، لا يؤبه لنا ، ونحن متحكمون في أهل ملتنا في أموالهم ومناصبهم ، ولنا بينهم أعظم الجاه ، وهل منع فرعون وقومه من اتباع موسى إلا ذلك ؟

[الأسباب المانعة من قبول الحق]

والأسباب المانعة من قبول الحق كثيرة جداً :

فمنها : الجهل به ، وهذا السبب هو الغالب على أكثر النفوس ، فإن من جهل شيئاً عاده وعادى أهله . فإن انضاف إلى هذا السبب بغض من أمره بالحق ، ومعاداته له ، وحسده ، فكان المانع من القبول أقوى ، فإن انضاف إلى ذلك إلْفَهُ عادته ومرتابه على ما كان عليه آباؤه ، ومن يحبه ويعظمه قوي المانع . فإن انضاف إلى ذلك توهمه أن الحق (الذي)^(٣) دعي إليه يحول بينه وبين جاهه وعزه وشهواته وأغراضه قوي المانع من القبول جداً .

(١) هذا الكلام يقوله العياقبة ومن تابعهم من الأرثوذكس الذين يقولون بالطبيعة الواحدة وأن الله هو المسيح .

(٢) في الأصل ، ص : وقبائلهم .

(٣) سقطت من الأصل .

فإن انصاف إلى ذلك (خوفه)^(١) من أصحابه وعشيرته وقومه على نفسه وماله وجاهه، كما وقع لهرقل ملك النصارى بالشام على عهد رسول الله ﷺ، ازداد المانع من قبول الحق قرة، فإن هرقل^(٢) عرف الحق وهُم بالدخول في الإسلام فلم يطأوه قومه وخافهم على نفسه، واختار الكفر على الإسلام بعدهما تبين له الهدى، كما سيأتي في ذكر قصته إن شاء الله تعالى.

ومن أعظم هذه الأسباب «الحسد»، فإنه داء كامن في النفس، ويرى الحاسد المحسود قد فضل عليه، وأوتى ما لم يؤت نظيره، فلا يدعه الحسد أن ينقاد له، ويكون من أتباعه، وهل منع إبليس من السجود لأدَم إِلَّا الحسد، فإنه لما رأه قد فضل عليه ورفع فوقه، غص بريقه واختار الكفر على الإيمان بعد أن كان بين الملائكة.

وهذا الداء هو الذي منع اليهود من الإيمان بعيسى ابن مریم، وقد علموا علمًا لا شك فيه أنه رسول الله جاء بالهدي والبيانات، فحملهم الحسد على أن اختاروا الكفر على الإيمان، وأطبقوا عليه، وهم أمة منهم الأجرار والعلماء والزهاد والقضاة والملوك والأمراء.

هذا وقد جاء المسيح (بحكم التوراة)^(٣) ، ولم يأت بشريعة تخالفها، ولم يقاتلهم، وإنما أتى بتحليل ما (حرّم)^(٤) عليهم تخفيفاً ورحمة وإحساناً، وجاء مكملاً لشريعة التوراة، ومع هذا فاختاروا الكفر كلهم على الإيمان. فكيف يكون حالهم معنبي جاء بشريعة مستقلة ناسخة لجميع الشرائع، مبكّتاً لهم بقبائحهم ومنادياً على فضائحهم، ومخرجاً لهم من ديارهم، وقد قاتلوه وحاربوه وهو في ذلك كله ينصر عليهم ويظفر بهم، ويعلو هو وأصحابه، وهم معه دائمًا في (سفال)^(٥)? فكيف لا يملك الحسد والبغى قلوبهم؟ وأين يقع حالهم معه من حالهم مع المسيح، وقد أطبقوا على الكفر به من

(١) سقطت من الأصل.

(٢) هرقل عظيم الروم.

(٣) في الأصل: بالتوراة.

(٤) في ج: حرم الله تعالى.

(٥) في الأصل: سفال والصحيح سفال وهو من السفول عكس العلو ويقال: أمرهم في سفال (لسان العرب).

بعد ما تبين (لهم)^(١) الهدى؟ وهذا السبب وحده كاف في رد الحق، فكيف إذا انضاف إليه زوال الرئاسات والمأكولات كما تقدم؟

وقد قال المسور بن مخرمة^(٢) – وهو ابن أخت أبي جهل: يا خال: هل كتم تهمنون محمداً قبل أن يقول ما قال؟ فقال: يا ابن (أختي)^(٣) والله لقد كان محمد فينا صادقاً وهو شاب، يدعى الأمين، فما جربنا عليه كذباً قط، قال: يا خال: فما لكم لا تتبعونه؟ قال: يا ابن (أختي)^(٤)، تنازعنا نحن وبني هاشم الشرف، فأطعمنا وأطعمونا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبغي، فمتى ندرك مثل هذه^(٥).

وقال الأخنس بن شريق^(٦) يوم بدر لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد، أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك والله إن محمدأً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بني قصبي باللواء والحجابة والسفراة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش^(٧).

وأما اليهود فقد كان علماؤهم يعرفون كما يعرفون أبناءهم. قال ابن إسحق: حدثني عاصم بن عمر عن قتادة عن شيخ من بني قريطة قال: هل تدري ما كان إسلام أسد وثعلبة ابني (سعية)^(٨) وأسد بن عبيد^(٩)، لم يكونوا من بني قريطة ولا النضير، كانوا فوق ذلك،

(١) في الأصل: له.

(٢) المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب القرشي الزهراني أبو عبد الرحمن من فضلاء الصحابة وفقهائهم، أدرك النبي ﷺ وهو صغير وسمع منه، روى عن الخلفاء الأربع وغيرهم من أكبر الصحابة، كان مع ابن الزبير فأصابه حجر من حجارة المنجنيق في الحصار بمكة قُتِّل. (الأعلام، للزرکلي: ٢٢٥/٧).

(٣) و (٤) في الأصل: أخي.

(٥) الأخنس بن شريق: حليف بني زهرة، له صحبة، واسمها أبي، قد يم الوفاة (التجريد: ١١/١).

(٦) هذا جزء من قصة حوار كان بين أبي جهل وأبي سفيان والأخنس بن شريق، ذكرها البيهقي في دلائل النبوة: ٤٥٣/١. وذكرها السيوطي في الخصائص الكبرى: ٢٨٥/١.

(٧) أسد بن سعية في ب، ص: شعبة وفي ج: سعيد وفي سيرة ابن هشام أسد، هو أسد بن سعية القرطي، أسلم، ذكره ابن منده وأبو نعيم (التجريد: ١٤/١) وثعلبة بن سعية، وقيل ابن يامين، أسلم فيما قبل مع ابن سلام (التجريد: ٦٧/١).

(٨) أسد بن عبيد: القرطي، ذكره ابن حبان في الصحابة، أسلم مع ابن سلام (الإصابة: ٥٢/١).

فقلت: لا، قال: فإنه قدم علينا رجل من الشام من يهود، يقال له ابن الهبيان، فأقام عندنا، والله ما رأينا رجلاً قط (لا)^(١) يصلـي الخمس^(٢) خيراً منه، فقدم علينا قبل بعث رسول الله ﷺ بستين، فكنا إذا قحطنا وقلنا عـنا المطر نقول: يا ابن الهبيان، اخرج فاستـقـلـ لنا، فيقول: لا والله حتى تقدـمـوا أمامـ مخرـجـكمـ صـدـقةـ، فـنـقـولـ: كـمـ؟ فـيـقـولـ: صـاعـ منـ (تمـ)^(٣) أو مدـيـنـ منـ الشـعـيرـ، فـنـخـرـجـهـ ثـمـ يـخـرـجـ إـلـىـ ظـاهـرـ حـرـّتـناـ وـنـحـنـ مـعـهـ نـسـتـقـيـ، فـوـالـلـهـ ماـ يـقـومـ مـنـ مـجـلـسـهـ حـتـىـ نـمـطـرـ وـنـمـرـ بـالـشـعـابـ. قـدـ فـعـلـ ذـلـكـ غـيـرـ مـرـةـ وـلـاـ ثـلـاثـةـ، فـحـضـرـتـ الـوـفـةـ وـاجـتـمـعـنـاـ إـلـيـهـ فـقـالـ: يـاـ مـعـشـرـ يـهـودـ، مـاـ تـرـوـنـ أـخـرـجـنـيـ مـنـ أـرـضـ الـخـمـرـ وـالـخـمـيرـ إـلـىـ أـرـضـ الـبـؤـسـ وـالـجـوعـ؟ فـقـالـواـ: أـنـتـ أـعـلـمـ، قـالـ: إـنـماـ خـرـجـتـ أـتـوـقـعـ خـرـوجـ نـبـيـ قدـ أـظـلـ زـمـانـهـ، هـذـهـ الـبـلـادـ مـهـاجـرـهـ، فـاتـبـعـوـهـ (وـلـاـ تـسـبـقـنـ إـلـيـهـ)^(٤)، إـذـاـ خـرـجـ يـاـ مـعـشـرـ يـهـودـ إـنـهـ يـعـثـ بـسـفـكـ الدـمـاءـ، وـسـبـيـ الـذـارـيـ وـالـنـسـاءـ مـمـنـ يـخـالـفـهـ، فـلـاـ يـمـنـعـكـمـ ذـلـكـ مـنـهـ، ثـمـ مـاتـ. فـلـمـ كـانـ الـلـيـلـةـ الـتـيـ فـتـحـتـ فـيـهـ قـرـيـظـةـ قـالـ أـوـلـىـكـ الـلـاـثـةـ الـفـتـيـةـ – وـكـانـوـ شـبـابـاـ أـحـدـاـنـاـ – يـاـ مـعـشـرـ يـهـودـ إـنـهـ ذـكـرـهـ لـكـمـ يـاـ بـنـ الـهـبـيـانـ فـقـالـواـ: مـاـ هـوـ بـهـ، قـالـواـ: بـلـىـ وـالـلـهـ إـنـهـ لـصـفـتـهـ، ثـمـ نـزـلـوـاـ وـأـسـلـمـوـاـ، وـخـلـوـاـ أـمـوـالـهـمـ وـأـهـلـهـمـ^(٥).

قال ابن إسحاق: وكانت أموالهم في الحصن مع المشركين، فلما فتح ردت عليهم^(٦).

وقال ابن إسحاق: حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف^(٧) عن

(١) سقطت من النسخ، وهي هكذا في السيرة وبها يستقيم المعنى.

(٢) يصلـي الخمس: يعني مسلماً.

(٣) في الأصل: بر.

(٤) في ص: ولا يسكن إلى غيركم.

(٥) سيرة النبي ﷺ، ابن هشام: ٢٣٢ / ١ - ٢٣٣.

(٦) هذا لم أجده في سيرة ابن هشام.

(٧) صالح بن إبراهيم: هو أبو عبد الرحمن المدني، صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف روى عن أبيه وأخيه سعد وأنس بن مالك، وروى عنه الزهرى وابن إسحاق وابن الماجشون، قال ابن سعد: كان قليل الحديث ومات بالمدينة وذكره ابن حبان في الثقات، أخرج له الشيخان حديثاً واحداً، وقال العجلي: مدنى تابع ثقة (تهذيب التهذيب: ٤ / ٣٧٩).

محمد بن لبيد^(١) قال^(٢): كان بين أبنائنا يهودي^(٣)، فخرج على نادي قومهبني عبد الأشهل^(٤) ذات غداة، فذكر البعث والقيمة والجنة والنار والحساب والميزان، فقال ذلك لأصحاب الوثن الذين لا يرون بعثاً كائناً بعد الموت قبل مبعث النبي ﷺ، فقالوا: ويحك يا فلان، وهذا كائن أن الناس يعيشون بعد موتهم إلى داركم فيها جنة ونار، ويجزون من أعمالهم؟ فقال نعم، والذي يحلف به لوددت أن حظي من تلك النار أن توقدوا إلى أعظم نور عندكم في داركم تحمونه ثم تقدفوني فيه، وتطبقونه علي، وأن أنجو من النار غداً، فقيل: يا فلان ما علامتك ذلك؟ قال:نبي يبعث من ناحية هذه البلاد وأشار بيده نحو مكة واليمين، قالوا: فمتى نراه؟ فرمق بطرفه فرآني، وأنا مضطجع بفناء بباب أهلي، وأنا أحدث القوم، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه فما ذهب الليل والنهار، حتى بعث الله رسوله ﷺ، وأنه لحي بين أظهرنا، فآمنا به وصدقناه، وكفر به بغياً وحسداً، فقلنا: يا فلان ألسنت قلت ما قلت، وأخبرتنا به، قال: ليس به^(٥).

قال ابن إسحق: وحدثني عاصم بن عمر عن قتادة قال: حدثني أشياخ منا قالوا: لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ (منا)^(٦) كان معنا يهود، وكانوا أهل كتاب، وكنا أصحاب وثن، وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون، قالوا: إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم قتل عاد وإرم، فلما بعث الله عز وجل رسوله ﷺ اتبعناه وكفروا به، ففيما وفيهم أنزل الله عز وجل ﷺ و كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين^{(٧)(٨)}.

وذكر الحكم وغيره عن ابن أبي نجيح عن علي الأزدي قال: كانت اليهود تقول:

(١) محمد بن لبيد بن رافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل الأنصاري الأوسي الأشلهي. قال البخاري: له صحابة (الإصابة في تمييز الصحابة: ٣٨٧/٣).

(٢) في سيرة ابن هشام: محمود بن لبيد عن سلمة بن سلامة (وكان من أصحاب بدر).

(٣) في سيرة ابن هشام: كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل.

(٤) بني عبد الأشهل: قبيلة من قبائل الأوس.

(٥) سيرة النبي ﷺ، ابن هشام: ٢٣١/١ - ٢٣٢. وانظر: عيون الأثر: ٧١/١.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) سورة البقرة: الآية ٨٩.

(٨) سيرة النبي ﷺ، ابن هشام: ١/٢٣١. كما ذكر الرواية ابن سيد الناس في عيون الأثر: ١/٧٢.

اللهم ابعث لنا هذا النبي يحكم بيننا وبين الناس^(١).

وقال سعيد بن جحير عن ابن عباس: كانت يهود خير تقاتل غطفان^(٢)، وكلما التقوا هزمت يهود خير، فدعت بهذا الدعاء: اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم، قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان، فلما بعث النبي ﷺ كفروا به، فأنزل الله تعالى: «وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا» (يعني بك يا محمد، فلعنة الله على الكافرين)^(٣) يستفتحون أي يستنصرون^(٤).

وذكر الحاكم وغيره أن بني النضير لما أجلوا من المدينة قبل (عمرو بن سعد)^(٥) فأطاف بمنازلهم^(٦) فرأى خرابها، ففكرا ثم رجع إلى بني قريطة فوجدهم في الكنيسة، فنفح في بوقهم فاجتمعوا، فقال الزبير بن باطا^(٧): يا أبا سعيد أين كنت منذ اليوم فلم نرئك؟ وكان لا يفارق الكنيسة وكان (يتآله)^(٨) في اليهودية، قال: رأيت اليوم عبراً اعتبرنا بها، رأيت إخواننا قد جلو بعد ذلك العرّ والخلد والشرف الفاضل والعقل البارع، قد تركوا أموالهم وملكتها غيرهم، وخرجوا خروج ذل، فلا والتوراة ما سلط هذا على قوم

(١) هذه الرواية لم أجدها في مستدرك الحاكم.

(٢) غطفان بفتح الغين المعجمة والطاء المهملة، قبيلة من قيس بن عيلان، نزلت الكوفة (انظر: الأنساب للسمعاني: ١٦١/٩).

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) هذه الرواية أوردها القرطبي في تفسيره: ٢٧/٢، وأخرجها الحاكم في مستدركه: ٢٦٣/٢.

(٥) عمرو بن سعد: هو عمرو بن سعد القرطبي، الذي ذكرت كتب السيرة أنه رفض أن يدخل مع بني قريطة في غدرهم برسول الله ﷺ وقال: لا أغدر بمحمد أبداً، فخلى المسلمين سبيلاً في حصارهم لبني قريطة فخرج على وجهه ثم ذهب فلم يدر أين توجه إلى الأرض من يومه هذا فذكر رسول الله ﷺ شأنه فقال: ذاك رجل نجاه الله بوفائه. (انظر: سيرة النبي ﷺ، ابن هشام: ٣/٢٥٧).

(٦) في ج: سعد بن باطا بالطائف.

(٧) الزبير بن باطا: من اليهود الذين لم يسلموا.

(٨) في ص: نبالة، وفي الأصل تياله.

قطّل الله فيهم حاجة، وقد أوقع قبل ذلك بابن الأشرف^(١) (في عزة بنائه)^(٢) في بيته آمناً. وأوقع بابن (شيبة)^(٣) سيدهم، وأوقعبني قييقاع فأجلهم وهم حُرّ يهود، وكانوا أهل عدة وسلاح ونجدة، فحصরهم فلم يخرج إنسان منهم رأسه حتى سباهم، فكلم فيهم فتركهم على أن أجلاهم من يشرب. يا قوم: قد رأيتم مارأيتم فأط夷عني وتعالوا تبعي محمداً، فوالله إنكم لتعلمون أنهنبيٌّ، وقد بشروا به ويأمره ابن الهيّان أبو عمير وابن حواس^(٤)، وهما أعلم يهود، جاءا من بيت المقدس يتوكفان^(٥) قدومه، وأمرانا باتباعه، وأمرانا أن نقرئه منها السلام، ثم ماتا على دينهما، ودفناهما بحرتنا. فأسكت القوم ولم يتكلم منهم متكلم، فأعاد هذا الكلام ونحوه، وخوفهم بالحرب والسباء والجلاء، فقال الزبير بن باطا: قد — والتوراة — قرأت صفتة التي أنزلت على موسى، ليس في المثاني^(٦) التي أحدثنا، فقال له كعب بن أسيد^(٧): ما يمنعك يا أبا عبد الله من اتباعه؟ قال: أنت، قال: ولم؟ فالتوراة ما حلت بينك وبينه فقط. قال الزبير: أنت صاحب عهدها وعهدنا، فإن اتبعته اتبعناه، وإن أبيت أبيناه، فأقبل عمرو بن سعد على ذكر ما تقروا به في ذلك إلى أن قال كعب: ما عندي في ذلك إلا ما قلت، ما تطيب نفسى أن أصير تابعاً^(٨).

وهذا المانع هو الذي منع فرعون من اتباع موسى عليه الصلاة والسلام، فإنه لما تبين له الهدى عزم اتباع (موسى)^(٩)، فقال وزيره هامان: بينما أنت إله تعبد تصبح رباً تعبد غيرك؟ قال: صدقت.

(١) كعب بن الأشرف من زعماء اليهود، وقد قتله محمد بن مسلمة رضي الله عنه بإذن من الرسول ﷺ، وقصة قتلها رواها الشیخان ومعظم كتب السیرة. انظر: صحيح مسلم: ١١٩/٣٢.

(٢) في ب، ج، ص: في غيره بناته.

(٣) في ب، ج: شيبة، وفي ص: سنية.

(٤) ابن حواس: أو ابن هواس كما في الأصل.

(٥) يتوكفان: التوكف التوقع والانتظار، وتوكف الأثر: تتبعه وتقول: ما زلت أتوكفه حتى لقيته (لسان العرب).

(٦) المثاني: يقصد به التلمود، ومنه المنشأة.

(٧) كعب بن أسيد من اليهود الذين لم يسلموا.

(٨) انظر: البداية والنهاية: ٤ / ٨٠.

(٩) في الأصل: وزيره.

وذكر ابن إسحق عن عبد الله بن أبي بكر قال: حدثت عن صفية بنت حبي(١) بن أخطب أنها قالت: كنت أحب ولد أبي إلى عمي أبي ياسر، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة غدوا عليه، ثم جاءها من العشي فسمعت عمي يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم (قال: أتعرفه وتبته؟ قال: نعم)(٢) قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت(٣). فهذه الأمة الغضبية معروفة بعداوة الأنبياء قدّيماً، وأسلافهم وأخبارهم قد أخبر الله سبحانه وتعالى عن أذاهم لموسى ، ونهاانا عن التشبه بهم في ذلك فقال: «يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آدوا موسى فبرأ الله مما قالوا، وكان عند الله وجيهها»(٤).

وأما خلفهم فهم قتلة الأنبياء، فقتلوا زكريا، وابنه يحيى ، وخلقاً كثيراً من الأنبياء حتى قتلوا (في يوم)(٥) سبعين نبياً، وأقاموا السوق في آخر النهار كأنهم لم يصنعوا شيئاً. واجتمعوا على قتل المسيح وصلبه فصانه الله تعالى وأكرمه أن يهينه على أيديهم ، وألقى شبهه على غيره فقتلوه وصلبوه، ورموا قتل خاتم النبيين مراراً عديدة والله يعصم منه(٦).

ومن كان هذا شأنهم، لا يكثرون عليهم اختيار الكفر على الإيمان لسبب من الأسباب التي ذكرنا بعضها، أو سببين أو أكثر، وقد ذكرنا اتفاق أمة الضلال وعباد الصليب على مسبة رب العالمين أقبح مسبة، وعلى ما يعلم بطلانه من أول وهلة، لم يكثروا على (ذلك)(٧) العقول السخيفة أن تسب بشراً أرسله الله تعالى ، وتتجحد نبوته ، وتتكابر ما دل عليه صريح العقل من صدقه وصحة رسالته . فلو قالوا فيه ما قالوا لم يبلغ بعض قولهم في رب الأرض والسموات الذي صاروا فيه ضحكة بين جميع (بني آدم)(٨).

(١) في الأصل: حيين، وفي ج، ص: حي ، وصفية بنت حبي بن أخطب من بنى التضرير، كانت تحت سلام بن مشكم ثم خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق، فقتل كنانة يوم خير، فصارت صفية مع النبي ﷺ فأخذها دحية ثم استعادها النبي ﷺ فأعترضها وتزوجها (الإصابة: ٧٣٨/٧).

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام: ٢/١٤٠.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٦٩.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) ومن ذلك قصة محاولةبني قريظة قتلها ﷺ.

(٧) في الأصل ذلك.

(٨) في ب، ج، ص: أصناف بني آدم.

فأمة أطبت على أن (الإله)^(١) الحق – سبحانه وتعالى عما يقولون – صلب وصفع وسمّر ووضع الشوك على رأسه، ودفن في التراب، ثم قام في اليوم الثالث، وصعد وجلس على (كرسيه)^(٢) يدبر أمر السموات والأرض، لا يكثّر عليها أن تطبق على جحد نبوة من جاء بسبّها ولعنها ومحاربتها، وإبداء معایيها والنداء على كفرها بالله ورسوله والشهادة على براءة المسيح منها، ومعاداته لها، ثم قاتلها وأذلّها وأخرجها من ديارها وضرب عليها الجزية وأخبار أنها من أهل الجحيم خالدة مخلدة لا يغفر الله لها، وأنها شر من الحمير، بل هي شر الدواب عند الله.

وكيف ينكر على أمّة أطقت على صلب معبودها وإلهها ثم عمدت إلى الصليب فعبدته وعظمته، وكان ينبغي لها أن تحرق كل صليب تقدر على إحراقه وأن تهينه غاية الإهانة إذ صلبت عليه إلهها^(٣). الذي يقولون (تارة^(٤) إنه الله، وتارة يقولون إنه ابنه، وتارة يقولون إنه ثالث ثلاثة^(٥) فجحدت حق خالقها وكفرت به أعظم كفر، وسبته أقبح مسبة أن تجحد حق عبده ورسوله وتکفر به.

وكيف يكثّر على أمّة قالت في رب الأرض والسموات، إنه نزل من السماء ليكلّم الخلق بذاته ليكون لهم حجة عليه، فأراد أن يقطع حجتهم بتكلمه لهم بذاته (لتترفع المعاذين)^(٦) عن ضيّع عهده بعد ما كلامه بذاته، فهبط بذاته من السماء، والتجم في بطن مريم فأخذت منه حجاباً. وهو مخلوق من طريق الجسم، وخلق من طريق النفس. وهو الذي خلق جسمه وخلق أمّه، وأمه كانت من قبله بالناسوت، وهو كان من قبلها باللاهوت. وهو الإله التام والإنسان التام. ومن تمام رحمته تبارك وتعالى على عباده أنه رضي بيارقة دمه عنهم على خشبة الصليب، فمكّن أعداء اليهود من نفسه، ليتم سخطه

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ب، ج، ص: عرشه.

(٣) هذه الجملة كلها سقطت من الأصل.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) بذلك أشار إلى الطوائف المسيحية الثلاث، فقوله: إنه الله إشارة إلى الأرثوذكس الذين يقولون بالطبيعة الواحدة. (وأنه ابنه) إشارة إلى جميع النصارى (وأنه ثالث ثلاثة) إشارة إلى الكاثوليك والبروتستانت.

(٦) في ج: لم يرجع المعاد.

عليهم، فأخذوه وصلبوه وصفعوا في وجهه وتوجوه بتاج من الشوك على رأسه. (وغار)^(١) دمه في إصبعه لأنّه لوقع منه شيء إلى الأرض ليس كل ما في وجهها، فثبت في موضع صلبه التوار^(٢).^(٣)

ولما لم يكن في الحكمة (الإلهية)^(٤) الأزلية أن ينتقم الله من عبده العاصي الذي ظلمه، واستهان بقدره، لاعتلاء منزلة الرب، وسقوط منزلة العبد، أراد سبحانه أن يتصرف من الإنسان الذي هو إله مثله، فانتصف من خطيئة آدم بصلب عيسى المسيح، الذي هو إله مساوٍ له في الإلهية، فصلب ابن الله الذي هو الله في الساعة التاسعة من يوم الجمعة^(٥)، هذه الفاظهم في كتبهم.

فأمة أطبقت على هذا في معبدوها، كيف يكثر عليها أن تقول في عبده ورسوله أنه ساحر كاذب وملك مسلط ونحو هذا؟

ولهذا قال بعض ملوك الهند: «أما النصارى فإن كان أعداؤهم من أهل (الممل)^(٦) يجاهدونهم بالشرع (فأنا أرى)^(٧) جهادهم بالعقل، وإن كنا لا نرى قاتل أحد، لكن استثنى هؤلاء القوم من جميع العالم، لأنهم قصدوا مضادة العقل وناصبوه (العداوة وشذوا عن جميع مصالح العالم الشرعية والعقلية الواضحة)^(٨)، واعتقدوا كل مستحيل ممكناً، وبنوا من ذلك شرعاً لا يؤدي إلى صلاح نوع من أنواع العالم، ولكنه يصير العاقل إذا شرع به

(١) في ص: وفار.

(٢) في ص والأصل: النور.

(٣) يرد هذا الكلام من كتاب قسيس إسباني إلى أبي عبيدة الأنباري الخزرجي المتوفى سنة ٥٨٢هـ. انظر: بين الإسلام والمسيحية، كتاب أبي عبيدة الخزرجي ، تحقيق د. محمد شامة: ص ٢٠٩ وهو يتعارض مع ما ورد في إنجيل يوحنا: «لكن وحداً من العسكر طعن جنبه بحربة وللوقت خرج دم وماء» (انظر: يوحنا: ١٩/٣٤).

(٤) سقطت من ب، ج، ص.

(٥) متى: ٤٦/٢٧؛ مرقس: ١٥/٣٣.

(٦) في ص: الملك.

(٧) في ج: فأنا نرى.

(٨) سقطت من الأصل.

آخر(١)، والرشيد سفيهاً، والحسن قبيحاً، والقبيح حسناً، لأن من كان في أصل عقيدته التي جرى نشوء عليها الإساءة إلى الخلاق، والنيل منه وسبه أقبح مسبة، ووصفه بما يغير صفاتـه الحسـنى، وأخـلـقـ بهـ أنـ يـسـتـهـلـ الإـسـاءـةـ إـلـىـ مـخـلـوقـ وـأـنـ يـصـفـهـ بـمـاـ يـغـيرـ صـفـاتـهـ الجـمـيلـةـ.

ولو لم تجب مجاهدة هؤلاء القوم إلا لعموم أضرارهم الذي لا تحصى وجوهـهـ، كما يجب قتلـ الحـيـوانـ المؤـنـيـ بطـبـعـهـ، لـكـانـواـ أـهـلـاـ لـذـلـكـ(٢).

والمقصود أن الذين اختاروا هذه المقالة في رب العالمين، على تعظيمـهـ وتزييهـهـ وإجلالـهـ ووصفـهـ بما يليـقـ بهـ، (الـذـينـ)ـ(٣)ـ اختارـواـ الـكـفـرـ بـعـدـهـ وـرـسـوـلـهـ (ـوـجـحدـوـاـ)ـ(٤)ـ نـبـوـتـهـ، (ـوـالـذـينـ)ـ(٥)ـ اختارـواـ عـبـادـةـ صـورـ خـطـوـهـاـ بـأـيـدـيـهـمـ فـيـ الـحـيـطـانـ مـزـوـقـةـ بـالـأـحـمـرـ وـالـأـصـفـرـ وـالـأـزـرـقـ، لـوـدـنـتـ مـنـهـ الـكـلـابـ لـبـالـتـ عـلـيـهـاـ، فـأـعـطـوـهـاـ غـاـيـةـ الـخـضـوـعـ وـالـذـلـ وـالـخـشـوـعـ وـالـبـكـاءـ، وـسـأـلـوـهـاـ الـمـغـفـرـةـ وـالـرـحـمـةـ وـالـرـزـقـ وـالـنـصـرـ «ـهـمـ الـذـينـ اـخـتـارـواـ التـكـذـيـبـ بـخـاتـمـ الرـسـلـ عـلـىـ الـإـيمـانـ بـهـ وـتـصـدـيقـهـ وـاتـبـاعـهـ»ـ(٦)ـ وـالـذـينـ نـزـهـوـاـ (ـمـطـارـنـتـهـمـ وـبـتـارـكـتـهـمـ)ـ(٧)ـ عـنـ الـصـاحـبـةـ وـالـوـلـدـ، وـنـحـوـهـمـ لـلـفـرـدـ الصـمـدـ، هـمـ الـذـينـ أـنـكـرـوـاـ نـبـوـةـ عـبـدـهـ وـخـاتـمـ رـسـلـهـ، وـالـذـينـ اـخـتـارـواـ صـلـاـةـ يـقـومـ أـعـبـدـهـمـ وـأـزـهـدـهـمـ إـلـيـهـاـ وـالـبـولـ عـلـىـ سـاقـهـ وـأـفـخـادـهـ، فـيـسـتـقـبـلـ الشـرـقـ ثـمـ يـصـلـبـ عـلـىـ وـجـهـهـ، وـيـعـبدـ إـلـهـ الـمـصـلـوبـ وـيـسـتـفـتحـ الـصـلـاـةـ بـقـوـلـهـ: «ـيـاـ أـبـانـاـ أـنـتـ (ـالـذـيـ)ـ(٨)

(١) آخرـقـ: منـ الـخـرـقـ وـهـوـ نـقـيـضـ الرـفـقـ، وـخـرـقـ بـالـشـيـءـ يـخـرـقـ: جـهـلـهـ وـلـمـ يـحـسـنـ عـمـلـهـ. . . وـفـيـ الـحـدـيـثـ: «ـتـعـيـنـ صـانـعـاـ أوـ تـصـنـعـ لـأـخـرـقـ»ـ أيـ لـجـاهـلـ (ـلـسانـ الـعـربـ).

(٢) هذا القول لأحد ملوك الهند أورده أبو عبيدة الخزرجي في رسالته إلى القيسىس. (انظر: كتاب أبي عبيدة الخزرجي - بين الإسلام والمسيحية، تحقيق الدكتور محمد شامة، ص ١٥٠).

(٣) فيـ جـ: هـمـ الـذـيـ.

(٤) فيـ صـ: وـجـحدـ.

(٥) فيـ جـ: وـالـذـيـ.

(٦) سقطـتـ مـنـ الأـصـلـ.

(٧) فيـ الأـصـلـ، بـ، صـ: بـطـارـقـتـهـمـ وـبـتـارـكـتـهـمـ وـمـطـارـنـتـهـ جـمـعـ مـطـرـانـ، وـبـتـارـكـةـ هيـ نفسـ الـبـطـارـقـةـ وـهـيـ جـمـعـ بـطـرـيرـكـ.

(٨) سقطـتـ مـنـ بـ، جـ، صـ.

في السموات تقدس اسمك (وليات)^(١) ملوك ولتكن إرادتك في السماء مثلها في الأرض، أعطنا خيرنا الملائم لنا»^(٢).

ثم يحدث إلى من هو إلى جانبه، وربما سأله عن سعر الخمر والخنزير، وعما كسب في القمار، وعما طبخ في بيته، وربما أحدهم وهو في صلاته، وهو لو أراد ليالٍ في موضعه (إن أمكنه)^(٣)، ثم يدعوه تلك الصورة التي هي صنعة يد الإنسان، (فالذين)^(٤) اختاروا هذه الصلاة على صلاة من إذا قام إلى صلاته ظهر أطراقه وثيابه وبذنه من النجاسة، واستقبل بيت الله الحرام، وكبّر الله وحمده وسبحه، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ناجاه بكلامه المتضمن لأفضل الثناء عليه، وتحميده وتمجيده وتوحيده وإفراده بالعبادة والاستغاثة، وسؤاله أجل مسؤول، وهو الهدایة إلى طريق رضاه، التي خص بها من أنعم عليه، دون طريق الأمتیّن المغضوب عليهم وهم اليهود، والنصارى، والصالين وهم النصارى، ثم أعطى كل جارحة من الجوارح حظها من الخشوع والخضوع والعبودية مع غایة (التحميد والثناء)^(٥) لله رب العالمين. لا يلتفت عن معبده بوجهه، ولا قلبه، ولا يكلم أحداً كلمة، بل قد فرغ قلبه لمعبدوه، وأقبل عليه بقلبه ووجهه، لا يحدث في صلاته، ولا يجعل بين عينيه صورة مصنوعة يدعوها ويتصرّع إليها. فالذين اختاروا تلك الصورة التي هي في الحقيقة استهزاء بالمعبد، لا يرضاهما المخلوق لنفسه، فضلاً أن يرضى بها الخالق على هذه الصلاة، التي لو عرضت على من له أدنى مسكة من عقل لظهور له التفاوت بينهما، وهم الذين اختاروا (التکذیب بخاتم الرسل محمد رسوله)^(٦) وعبده على الإيمان به وتصديقه (وابتعاه)^(٧).

والعقل إذا وازن بين ما اختاروه ورغبوا فيه، وبين ما رغبوا عنه، تبين له أن القوم

(١) في ج: آيات.

(٢) متى: ١١/٦.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) في ب، ج، ص: الثناء والتمجيد.

(٦) في ب، ج، ص: تکذیب رسوله.

(٧) سقطت من ب، ج، ص.

اختاروا الضلال على الهدى، والغى على الرشاد، والقيح على الحسن، والباطل على الحق، وأنهم اختاروا من العقائد أبطلها، ومن الأعمال أفحها، وأطبق على ذلك أساقفهم وبتاركتهم ورعبانهم، فضلاً عن عوامهم وسقطهم.

(فصل) ولم يقل أحد من المسلمين إن من ذكرتم من صغير وكبير وذكر وأنثى وحر وعبد وراهب وقسيس، كلّهم تبين لهم الهدى، بل أكثرهم جهال بمنزلة الدواب السائمة، معرضون عن طلب الهدى، فضلاً عن تبيّنه لهم، وهم مقلدون لرؤسائهم وكبارائهم وعلمائهم وهم أقل القليل، وهم الذين اختاروا الكفر على الإيمان بعد تبيّن الهدى.

وأي (إشكال)^(١) يقع للعقل في ذلك فلم يزل في الناس من يختاره (حسداً مع علمه ببطلانه كبراً)^(٢)، والباطل منهم يختاره جهلاً وتقليداً لمن يحسن الظن به، ومنهم من يختاره حسداً وينجحاً (ومنهم من يختاره طمعاً ورغبة، في مأكل أو جاه ورئاسة)^(٣)، ومنهم من يختاره محبة في صورة وعشقاً، ومنهم من يختاره خشية، (ومنهم من يختاره علواً)^(٤)، ومنهم من يختاره راحة ودعة، فلم تحصر أسباب اختيار الكفر في حب الرئاسة والمأكلة.

(فصل وأما) (المسألة الثانية)^(٥)

وهي قولكم: هب أنهم اختاروا الكفر لذلك، فهلاً اتبع الحق من لا رئاسة له ولا مأكلة، إما اختياراً وإما قهراً؟

فجوابه من وجوه:

(أحدها)^(٦) أنا قد بينا أن أكثر (من ذكرتم)^(٧) (قد آمن بالرسول وصدقه اختياراً

(١) في الأصل: شكل.

(٢) سقطت من ص والأصل.

(٣) سقطت من ص والأصل.

(٤) سقطت من ص والأصل.

(٥) هكذا في ب، ج، ص وفي الأصل: فصل: قولكم.

(٦) في الأصل: أولها.

(٧) في ب، ج: ما قد ذكرتم.

لا اضطراراً، وأكثرهم أولو العقول والأحلام والعلوم^(١) ممن لا يحصيهم إلا الله.

فرقة الإسلام إنما انتشرت في الشرق والغرب بإسلام أكثر الطوائف، فدخلوا في دين الله تعالى أفواجاً، حتى صار (الكفر)^(٢) معهم تحت الذلة والصغار، وقد بینا أن الذين أسلموا من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين أكثر من الذين لم يسلموا، وأنه إنما يقى منهم أقل القليل، وقد دخل في الإسلام من ملوك الطوائف ورؤسائهم في حياة رسول الله ﷺ خلق كثير.

وهذا ملك النصارى على إقليم الحبشة^(٣) في زمن النبي ﷺ لما تبين له أنه رسول الله آمن به، ودخل في دينه، وآوى أصحابه، ومنعهم من أعدائهم، وقصته أشهر من أن تذكر. ولما مات أعلم رسول الله ﷺ أصحابه بالساعة التي (مات)^(٤) فيها، وبينهما مسيرة شهر، ثم خرج بهم إلى المصلى وصلّى عليه^(٥).

[المigration إلى الحبشة]

فروى الزهرى عن أبي بر ابن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار، النجاشى، أمنا على ديننا، وعبدنا الله، لا نؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً، انتربوا على أن يبعثوا إلى النجاشى هدايا مما (يستظرف)^(٦)، ومن متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه)^(٧) منها (الأدم)^(٨) فجمعوا له أدمًا كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ب، ج: الكفار، وفي ص: الكفار.

(٣) النجاشى أصحمة كما تشير كتب السيرة.

(٤) في ب، ص، ج: توفى.

(٥) ثبت في صحيح مسلم أن النجاشى لما مات نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه وقال: «إن أخاً لكم بالحبشة قد مات، فقوموا فصلوا عليه، قال جابر فقمتا صفين» وفي رواية أخرى «مات اليوم عبد الله صالح، أصحمة، فقام فأمّنا وصلّى عليه» (انظر: صحيح مسلم: ٦٥/١١ - ٦٦).

(٦) في ج، مما استظرفوا.

(٧) في ج: ما رأيته.

(٨) في ج: الأديم، وهو خطأ والأدم: جمع أديمة وهو باطن الجلد الذي يلي اللحم والبشرة ظاهرها، وقيل ظاهره الذي عليه الشعر، وباطنه البشرة (لسان العرب).

له، ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي^(١)، وعمرو بن العاص^(٢)، وأمرؤهما أمرهم وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته، قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدّموا إلى النجاشي هداياه، ثم سلوه أن يسلّمهم إليكم قبل أن يكلّمهم. قالت: فخرجا، فقدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار وعند خير (جار)^(٣)، فلم يبق من بطريقه بطريق، إلا (دفعا)^(٤) إليه هديته، قبل أن يكلّمها النجاشي، ثم قالا إلى كل بطريق إنه قد صبا إلى بلد الملك مِنَّا سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك^(٥) أشراف قومهم (لتردّهم إليهم)^(٦)، فإذا كلّمنا الملك فيهم فأشيراوا عليه بأن يسلّمهم إلينا، ولا يكلّمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا: نعم، ثم إنّهم قرّبوا هداياهم إلى النجاشي، فقبلها منهم ثم كلامه، (قالوا له)^(٧): أيها (الملك)^(٨)، إنه قد صبا إلى بلدك مِنَّا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم وعاينوهم فيه، قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم، فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك، قومهم (أعلى)^(٩) بهم عيناً وأعلم بما عابوا

(١) عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي: واسمه عمرو وقيل حذيفة، ويُلقب ذا الرمحين ابن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو والد عمر بن أبي ربيعة الشاعر المعروف. قال البخاري: وعبد الله هو الذي بعثه قريش مع عمرو بن العاص إلى الحبشة (الإصابة: ٣٠٥/٣).

(٢) عمرو بن العاص: هو أبو عبد الله أو أبو محمد عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن كعب بن لؤي الترمي الشهري أمير مصر، أسلم قبل الفتح في صفر سنة ثمان، كان إسلامه على يد النجاشي في الحبشة - في إحدى الروايات - كان أحد دهاء العرب، مات سنة ٤٣ هـ (الإصابة: ٢/٣).

(٣) في ص: جوار.

(٤) في ج: ودفعنا.

(٥) في ب، ج، ص: إليك فيهم.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) في ب، ج، ص: قالا له.

(٨) سقطت من ب.

(٩) في ج: أعلم.

عليهم، فأسلمهم إليهم، ليروهم إلى بلادهم وقومهم. قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لا والله إذن لا أسلّمهم إليهم، ولا أكاد (أن أسلم أقواماً)^(١) جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلّمتهم إليهم ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعهم منها، وأحسنت جوارهم ما جاوروني. قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم (قال بعضهم لبعض)^(٢): ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول، والله، ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك بما هو كائن، فلما جاؤوه وقد دعا النجاشي أسفافته، فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني، ولا دين أحد من هذه الأمم؟

[جعفر يلخص للنجاشي دعوة الإسلام]

قالت: وكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأكل الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله عز وجل (إلينا)^(٣) نبياً ورسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته (وعفافه)^(٤)، فدعانا إلى الله عز وجل لتوحده ونبذه، ونخلع ما كنا نعبد (نحن)^(٥) وآباؤنا من دونه (من)^(٦) الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقدف المحسنة. وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلوة والزكاة والصيام (والحج من استطاع إليه سبيلاً)^(٧) – قالت: فعدد عليه أمور الإسلام – فصدقناه، وأمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعيّدنا الله وحده،

(١) في ب، ج، ص: أقوام.

(٢) في ج: قالوا لبعضهم بعض.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في ب، ج: وعفته.

(٥) سقطت من الأصل، ج.

(٦) سقطت من ص، ب.

(٧) سقطت من الأصل، ص.

ولم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعدبونا وفتنوا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأولئك عن عبادة الله عز وجل، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معلم مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: (فاقرأ)^(١) على، فقرأ عليه صدراً من كهيعص^(٢) قالت: فيك والله النجاشي حتى (أحضرت)^(٣) لحيته، وبكت أسفافته حتى أخذلوا مصاحفهم (حين)^(٤) سمعوا ما تلي عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا الذي جاء به (عيسي)^(٥) ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقوا فوالله لا أسلمهم إليكم أبداً ولا أكاد.

قالت أم سلمة^(٦): فلما خرجنا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً (فاعيدهم) عنده بما أستحصل به خضراءهم^(٧)، قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان (أنقى)^(٨) الرجلين فينا: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالقونا، قال: والله لأنخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد، قالت: ثم غدا عليه من الغد، فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولهاً عظيماً، فأرسل إليهم فاسألهم عما

(١) في ب، ج، ص: فاقرأه.

(٢) سورة مریم.

(٣) في ب، ج، ص: أخذل، أخذلت: من أخذل الشيء فهو مخصل إذا بلته، وأخذلوا لحاصم أي بلوها بالدموع (لسان العرب).

(٤) في ص، ب: حتى.

(٥) وفي ب، ج، ص: موسى.

(٦) أم سلمة: بنت أبي أمية بن المغيرة القرشية المخزومية أم المؤمنين، اسمها هند، وكانت زوج ابن عمها أبي سلمة بن عبد الأسد بن المغيرة، فمات عنها فتزوجها النبي ﷺ، وكانت من أسلم قديماً هي وزوجها وهاجرا إلى الحبشة، فولدت له سلمة، ثم هاجرا إلى المدينة فولدت له عمر وذرة وزينب (الإصابة: ٢٣٢/٨).

(٧) خضراءهم: أي جماعتهم ومعظمهم.

(٨) في الأصل: أنقى.

يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا (مثله)^(١)، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعض: ما تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: (نقول فيه)^(٢) ما قال الله عز وجل، وما جاء به نبينا، كائن في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟

فقال له جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبينا، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته (التي)^(٣) ألقاها إلى مريم العذراء البتول^(٤)، فضرب النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ عوداً ثم قال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذه العود^(٥)، (فتاخرت)^(٦) البطارقة حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي – والسيوم: الآمنون – (من سيمكم غنم ومن سبكم غرم)^(٧)، ما أحب أن لي (دين)^(٨) ذهب وأني آذيت رجلاً منكم – والدير بلسان الحبشة: الجبل.

ردوا عليهما هداياهما ولا حاجة لي بهما، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردّ عليّ ملكي ، فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطاعهم فيه، قالت: فخرجا من عنده مقبوхиـن، مردوداً عليهما ما جاءـا به، وأقمنـا عنـده بخـير دار مع خـير جـار.

[رجل من الحبشة ينazuع النجاشي الملك فينصره عليه]

قالـت: (فخرج عدوـه عليهـ وحـارـبه)^(٩)، قـالـت: فـوالـلهـ ماـ عـلـمـنـاـ حـزـنـاـ قـطـ (كان)^(١٠) أـشـدـ مـنـ حـزـنـهـ عندـ ذـلـكـ، خـوفـاـ أـنـ يـظـهـرـ عـلـىـ النـجـاشـيـ، فـيـاتـيـ رـجـلـ لاـ يـعـرـفـ مـنـ

(١) في ب، ج، ص: مثلها.

(٢) في ب، ج، ص: نقول فيه والله.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) زاد في ب، ص: وروح منه.

(٥) معنى العبارة: أن ما قاله جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، في عيسى ابن مريم، موافق تماماً لحقيقة عيسى عليه السلام.

(٦) في الأصل: فتأخرت.

(٧) في ب: من سبكم غرم من سبكم غرم، وفي ص: سقطت: من سبكم غنم.

(٨) في سيرة ابن هشام: دبر بالباء وكذلك في: ص.

(٩) في ب، ج، ص: فـوالـلهـ إـنـاـ عـلـىـ ذـلـكـ إـذـنـزـلـ بـهـ رـجـلـ مـنـ الحـبـشـةـ يـنـازـعـهـ فـيـ مـلـكـهـ.

(١٠) سقطت من الأصل.

حقنا ما كان النجاشي يعرف منه، قالت: فسار النجاشي، وبينهما عرض النيل، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ (قالت)^(١): فقال الزبير: (أنا)^(٢) – وكان من أحدث القوم سنًا – قالت: (ففخوا)^(٣) له قرية فجعلها في صدره، ثم سبع عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم. ثم انطلق حتى حضرهم، قالت: ودعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه، والتمكين له في بلاده، فاستوثق له أمر الحبشة، فكنا عندنـ في خير منزل حتى قدمـنا رسول الله ﷺ^(٤).

[إسلام النجاشي]

فلما كان شهر ربيع الأول سنة سبع من الهجرة كتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، وبعث به مع عمرو بن أمية الصمري^(٥)، فلما قرئ عليه الكتاب أسلم، وقال: لو قدرت لأتيته، وكتب إليه رسول الله ﷺ أن يزوجه أم حبيبة^(٦) بنت أبي سفيان ففعل، وأصدق عنـه أربعـمائة دينار^(٧)، وكان الذي تولى التزوـيج خالد بن

(١) في الأصل: قال.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) في الأصل: ففجوا.

(٤) زاد ابن هشام: بمكة، ورواية أم سلمة هذه بكاملها أوردها ابن هشام في السيرة النبوية: ٣٦٤ – ٣٥٧/١.

(٥) عمرو بن أمية الصمري: هو عمرو بن أمية بن خويلد بن عبد الله بن آياس بن ضمرة الصمري، صحابي مشهور، له أحاديث، أسلم حين انصرف المسلمين من أحد، وكان شجاعاً، عاش إلى خلافة معاوية فمات بالمدينة (الإصابة: ٤٦٠/٢).

(٦) أم حبيبة: هي رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب، الأممية زوج النبي ﷺ، ولدت قبلبعثة بسبعين عاماً، تزوجها حليفهم عبيد الله بن جحش من بني أسد بن خزيمة فأسلمـا، ثم هاجرا إلى الحبشة، ولما تنصر زوجها وارتـد عن الإسلام فارـقـها، فـكتـبـ رسولـ اللهـ ﷺـ إلىـ النـجـاشـيـ ليـزـوـجهـ إـيـاهـاـ، فـأـصـدـقـهـ النـجـاشـيـ عـنـهـ وـيـعـنـهـ إـلـىـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ (الإصابة: ٧٢٥/٦).

(٧) قصة طلب الرسول ﷺ من النجاشي أن يزوجه أم حبيبة ودفع النجاشي لصداقها ذكرـهاـ ابنـ هـشـامـ عنـ ابنـ إـسـحـاقـ اـنـظـرـ السـيـرـةـ النـبـوـيـةـ: ١/٢٤٣ـ.ـ وـفـيـ عـيـونـ الـأـثـرـ لـابـنـ سـيدـ النـاسـ:ـ وأـصـدـقـ عـنـهـ تـسـعـمـائـةـ دـيـنـارـ:ـ ١٤٩/١ـ.

سعید بن العاص بن أمية^(١)، وكتب إلیه رسول الله ﷺ يبعث إلیه من بقی عنده من أصحابه ويحملهم، ففعل.

فقدموا المدينة فوجدوا رسول الله ﷺ بخیر، فشخصوا إلیه فوجدوه قد فتح خیر، فكلم رسول الله ﷺ (المسلمين)^(٢) أن يدخلوهم في سهامهم ففعلوا^(٣).

فهذا ملك (النصرانية)^(٤) قد صدق رسول الله ﷺ، وآمن به واتبعه، وكم مثله ومن هو دونه من هداه الله تعالى من النصارى، فدخل في الدين، وهم أكثر بأضعاف مضاعفة من أقام على النصرانية.

[وفد من النصارى]

قال ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة. فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وقبّلته رجال من قريش في أنديةهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ (عما أرادوا دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله)^(٥) وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وأمنوا، وصدقوا وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في (كتابهم)^(٦) من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل – لعنه الله – ابن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خبّيكم الله من ركب بعثكم منْ وراءكم من أهل دينكم ترتدون إليهم (لتأنوثهم)^(٧) بخبر الرجل، فلم (تطمئن)^(٨) مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه بما قال، ما نعلم ركباً أحمق منكم، أو كما قالوا، فقالوا: سلام

(١) خالد بن سعید بن عمرو بن سعید بن العاص الأموي، روی عن أبيه، ثقة صدوق، وقال الدارقطني: ليس به بأس (تهذيب التهذيب: ٩٤/٣).

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير: ٤/٢٠٦. وانظر: عيون الأثر: ١/١٤٩.

(٤) في ب، ج، ص: النصارى.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) في الأصل: كتابهم.

(٧) في الأصل: لتأنوثهم.

(٨) في ص: تظاهر.

عليكم لا نجادلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأله من أنفسنا خيراً^(١).

ويقال إن النفر من النصارى من أهل نجران، ويقال: فيهم نزلت: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا...﴾ إلى قوله: ﴿سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾^(٢).

وقال الزهري: ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلت في النجاشي وأصحابه^(٣).

[وفد نجران]

قال ابن إسحاق: ووفد على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران بالمدينة، فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير^(٤) قال: لما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ، دخلوا عليه مسجده بعد العصر فحان صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منهم^(٥) فقال رسول الله ﷺ: دعوهם، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم، وكانوا ستين راكباً منهم أربعة وعشرون رجلاً من أشرافهم، منهم ثلاثة نفر (إليهم)^(٦) يؤول أمرهم: «العاقب» أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه (وأمراه)^(٧)، واسمه «عبد المسيح»، و«السيد» ثم الهم^(٨) وصاحب رحلهم ومجمعهم. و«أبو حارثة بن علقمة» أسففهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم، وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتابهم، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه (ومولوه)^(٩)، وأخدموه وبنوا له

(١) سيرة ابن هشام: ٢٨/٢.

(٢) سورة القصص: الآيات ٥٢ - ٥٥.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢٦/٢ (دار الجبل).

(٤) محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام الأستاذ المدني، روى عن عميه عبد الله ولم يسمع منه، قال ابن سعد: كان عالماً ولها أحاديث، وقال البخاري: كان من فقهاء أهل المدينة وقرائهم، وقال الدارقطني: مدني ثقة (تهذيب التهذيب: ٦٣/٩).

(٥) في ب، ص: أن تمنعهم.

(٦) سقطت من الأصل وج.

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) ثم الهم: الشمال بالكسر العياث، وفلان شمال بني فلان أي عمادهم وغياث لهم يقوم بأمرهم (لسان العرب).

(٩) في ص: فتلوه.

الكنائس، ويسيطروا عليه الكرامات، لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم، فلما وجهوا إلى رسول الله ﷺ من نجران، جلس أبو حارثة على بغلة له موجهاً إلى رسول الله ﷺ، وإلى جنبه أخ (يقال له)^(١) كرز بن علقة^(٢) يسايره، إذ عشرت بغلة أبي حارثة فقال له كرز: تعس الأبعد، يريد رسول الله ﷺ، فقال له أبو حارثة: بل أنت تعس، فقال: ولم يا أخي؟ فقال: والله إنه للنبي الذي كنا ننتظره، فقال له كرز: فما يمنعك من اتباعه وأنت تعلم هذا؟ فقال: ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرفونا (ومولونا)^(٣) وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه، ولو فعلت نزعوا منا (ذلك)^(٤)، فأصرّ عليه أخوه كرز بن علقة حتى أسلم بعد ذلك^(٥).

فهذا وأمثاله من الذين منعهم الرئاسة والمأكولة من اختيار الهدى وأثروا دين قومهم، وإذا كان هذا حال الرؤساء المتبوعين الذين هم علماؤهم وأحبارهم كان بيتم تبعاً لهم . (وليس بمستنك)^(٦) أن تمنع الرئاسة والمناصب والمأكولات للرؤساء، ويمعن الأتباع تقليدهم، بل هذا هو الواقع ، والعقل لا يستشكله .

[قصة إسلام عدي بن حاتم]

(فصل): وكان من رؤساء (النصارى)^(٧) الذين دخلوا في الإسلام، لما تبيّن لهم أنه الحق، الرئيس المطاع في قومه (عدي بن حاتم)^(٨).

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في السيرة النبوية: يقال له كور بن علقة، ويقال: كوز: ٢٠٤/٢ . قال في الإصابة: كرز بن علقة ويقال كوز بن علقة البكري النجراي ، وكان في وفد نجران (الإصابة: ٥٨٤/٥ - ٥٨٥).

(٣) في ب، ج، ص: وتوأنا.

(٤) في ب، ج: كل ذلك وفي ص: كل كرامه.

(٥) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد: ١-٣٥٧ . والسيرة النبوية لابن هشام: ٢٠٤-٢٠٥ .

(٦) في ج: ولن يستنك.

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدي الطائي ، ولد الجواد المشهور، أسلم في سنة تسع ، وكان نصراانياً قبل ذلك، وشهد فتح العراق ثم سكن الكوفة، ومات =

ونحن نذكر قصته (التي) ^(١) رواها الإمام أحمد والترمذى والحاكم وغيرهم، قال عدي بن حاتم: أتت النبي ﷺ وهو جالس في المسجد. فقال القوم: هذا عدي بن حاتم - وجئت بغير أمان ولا كتاب - فلما دفعت إليه، أخذ يدي وقد كان (قبل) ^(٢) ذلك قال: إني لأرجو أن يجعل الله يده في يدي، قال: (فقام) ^(٣) فلقته امرأة وصبي معها، فقالا: إن لنا إليك حاجة، فقام معهما حتى قضى حاجتها، ثم أخذ بيدي حتى أتى بي داره، فألقت له الوليدة وسادة، فجلس عليها وجلست بين يديه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما يضرك أن تقول لا إله إلا الله، فهل تعلم من إله سوى الله؟ قال: قلت لا، ثم تكلم ساعة ثم قال: (ما تضر) ^(٤) أن يقال: الله أكبر، (وهل تعلم) ^(٥) أن شيئاً أكبر من الله؟ قال: قلت لا، قال: فإن اليهود مغضوب عليهم وإن النصارى ضلال، قال: فقلت إني حنيف مسلم، قال: فرأيت وجهه ينبعض فرحاً، ثم (أمر بي) ^(٦)، فأنزلت عند رجل من الأنصار، وجعلت أغشاه - أي آتية - طرفي النهار، قال: فبینا أنا (عنه) ^(٧) عشيّة إذ جاءه قوم في ثياب من الصوف من هذه النمار ^(٨)، قال: فصلى ثم قام فتح عليهم، ثم قال: ولو (بصاع) ^(٩) ولو بنصف صاع، ولو بقبيضة ولو (بنصف) ^(١٠) قبضة يقي أحدكم وجهه حرّ جهنم أو النار، ولو بتمرة ولو بشق تمرة؛ فإن أحدكم لاقى الله وقاتل له ما أقول لكم:

=

بعد الستين وقد أسن، قال خليفة: بلغ عشرين ومائة سنة (الإصابة: ٤٦٩ / ٤ - ٤٧٠)؛ (التجريد: ٣٧٦ / ١).

(١) سقطت من جميع النسخ.

(٢) في ج: بعد.

(٣) في ب، ج، ص: فقام لي.

(٤) في ب، ص: أما تقر، في ج: إنما نقر.

(٥) في ب، ج، ص: وتعلم.

(٦) في ب، ج: أمرني.

(٧) سقطت من ب.

(٨) في الأصل، ص: الشمار، وال الصحيح النمار باللون المكسورة جمع نمرة بالفتح؛ وهي كل شملة مخططة من مازر الأعراب كأنها أخذت من لون التمر لما فيها من السواد والبياض. (انظر: تحفة الأحوذى: ٤ / ٦٧).

(٩) في ب، ج، ص: صاع.

(١٠) في ص، ج: بعض.

ألم أجعل لك سمعاً وبصراً؟ فيقول: بلى (يا رب)^(١) فيقول: ألم أجعل لك مالاً ولداً؟ فيقول: بلى، فيقول: أين ما قدمت لنفسك؟ فينظر قدّامه (وبعده)^(٢) وعن يمينه وعن شماله، ثم لا يجد شيئاً يقي وجهه، ليق أحدكم وجهه (النار)^(٣) ولو بشق تمرة، فإن لم يجد بكلمة طيبة، فإني لا أخاف عليكم الفاقة، فإن الله ناصركم ومعطيكم حتى (تسير)^(٤) الطعينة^(٥) فيما بين يثرب والحريرة^(٦) أكثر ما يخاف على مطيتها السرق – قال: فجعلت أقول في نفسي، فأين لصوص طي؟^(٧) – وكان عدي مطاععاً في قومه بحيث يأخذ المربع^(٨) من غنائمهم – .

وقال حماد بن زيد عن أبوب عن محمد بن سيرين قال: قال أبو عبيدة بن حذيفة^(٩) قال عدي بن حاتم: بعث الله محمداً عليه السلام فكرهته أشد ما كررت شيئاً قط، فخرجت حتى أتيت أقصى أرض العرب مما يلي الروم، ثم كرهت مكانى أشد مما كررت^(١٠) مكانى الأول، فقلت: لو أتيت فسمعت منه، فأتيت المدينة فانتشر في الناس وقالوا: جاء

(١) سقطت من ب، ج، ص.

(٢) في ج: وخلفه.

(٣) في ب، ج، ص: حر جهنم.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) الطعينة: الهدوج كانت فيه امرأة أولم تكون والمرأة ما دامت في الهدوج فهي طعينة (مختر الصلاح).

(٦) الحيرة بالكسر ثم السكون وراء مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف، زعموا أن بحر فارس كان يتصل به.

وقيل: سميت الحيرة لأن تبعاً الأكبر لما قصد خراسان خلف ضعفة جنده بذلك المرضع وقال لهم حيروا به أي أقيموا به.

انظر: معجم البلدان: ٣٢٨/٢.

(٧) هذا النص بلغته في جامع الترمذى، كتاب التفسير (التحفة: ٤/٦٢). والقصة مع اختلاف في بعض الألفاظ أخرجها الإمام أحمد في مسنده: ٤/٣٧٨ – ٣٧٩.

(٨) المربع: ما يأخذه الرئيس وهو ربع الغنية، وكانتوا في الجاهلية إذا غزا بعضهم بعضاً وغموا أحذ الرئيس ربع الغنية خالصاً دون أصحابه. (لسان العرب).

(٩) أبو عبيدة بن حذيفة بن اليمان العبسى الكوفى، روى عن أبيه وعدي بن حاتم وأبي موسى الأشعري، قال أبو حاتم: لا يسمى، وذكره أبو حاتم في الثقات (تهذيب التهذيب: ١٢/١٥٩).

(١٠) سقطت من الأصل.

عدي بن حاتم الطائي ، فقال: (يا عدي)^(١) أسلم تسلم ، فقلت إني على دين ، قال: أنا أعلم بدينك منك ، قلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: نعم ، قال هذا ثلاثةً ، قال: ألسنت ركوسياً^(٢)? قلت: بلـى . قال: ألسنت ترأس قومك؟ قلت: بلـى ، قال: ألسنت تأخذ المربع؟ قلت: بلـى ، قال: فإن ذلك لا يحل لك في دينك ، قال فوجدت بها عليّ غضاضة ، ثم قال: لعله أن يمنعك أن تسلم أن ترى عندنا خصاصة ، وترى الناس علينا ألياً واحداً^(٣) ، هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها ، وقد علمت مكانها ، قال: فإن الظعينة سترحل من الحيرة تطوف باليتـبـغـيـرـ جـوارـ (ولتفتحن)^(٤) علينا كنوز كسرى بن هرمز ، قلت كنوز كسرى بن هرمز؟ قال: كنوز كسرى بن هرمز ، وليفيضن المال حتى بهم الرجل من يقبل منه صدقته ، قال: (فرأيت)^(٥) الظعينة ترحل من الحيرة بغير جوار^(٦) ، وكانت في أول خيل أغارت على (المدائـن)^(٧) ، وواله لتكونـ الثالثـةـ ، أنهـ حـدـيـثـ رسولـ اللهـ ﷺ^(٨) .

[قصة إسلام سلمان الفارسي]

وقد كان سلمان الفارسي^(٩) من أعلم النصارى بدينهم وكان قد تيقن خروج

(١) في ب، ج، ص: يا علي بن حاتم.

(٢) الركوسـيـ: من الركوسـيـةـ ، قال ابن منظورـ: قوم لهم دين بين النصارى والصابـئـينـ ، وروى عن ابن الأعرابـيـ أنهـ قالـ: هذاـ منـ نـعـتـ النـصـارـىـ لاـ يـعـربـ (لـسانـ العـربـ)ـ .

(٣) أليـاـ: الأـلـبـ بالـفـتـحـ وـالـكـسـرـ: الـقـوـمـ يـجـتـمـعـونـ عـلـىـ عـدـاـوـةـ إـنـسـانـ ، وـتـالـلـبـواـ تـجـمـعـواـ (لـسانـ العـربـ)ـ .

(٤) في ب، ص: ولـيفـتـحـنـ اللهـ .

(٥) في ب، ج، ص: فقد رأيتـ .

(٦) في مسنـدـ الإمامـ أـحـمـدـ: (فـتـطـوـفـ بـالـيـتـ فيـ بـغـيـرـ جـوارـ ، وـفـيـ روـاـيـةـ: بـغـيـرـ جـوارـ حتـىـ تـطـوـفـ بـالـكـعـبـةـ)ـ .

(٧) في مسنـدـ الإمامـ أـحـمـدـ: وـكـنـتـ فـيـ خـيـلـ الـتـيـ أـغـارـتـ عـلـىـ المـدـائـنـ وـفـيـ روـاـيـةـ: وـكـنـتـ فـيـمـ فـتـحـ كـنـوزـ كـسـرـىـ بنـ هـرـمزـ .

(٨) هذاـ الحـدـيـثـ أـخـرـجـهـ الإـلـمـامـ أـحـمـدـ فيـ مـسـنـدـهـ منـ عـدـةـ طـرـقـ وـفـيـ أـكـثـرـ مـوـضـعـ ، وـهـذـاـ النـصـ فيـ مـسـنـدـ الإـلـمـامـ أـحـمـدـ منـ طـرـقـ أـبـيـ عـدـيـ عنـ اـبـنـ عـوـنـ عنـ اـبـنـ سـيرـينـ عنـ اـبـنـ حـذـيـفةـ عنـ عـدـيـ (انـظـرـ المـسـنـدـ: ٤/٣٧٨ـ ، أـمـاـ الـطـرـقـ الـأـخـرـ فـيـ: (٤/٢٥٨ـ - ٢٥٧ـ)ـ كـمـاـ أـخـرـجـ الشـطـرـ الـأـخـرـ مـنـ الإـلـمـامـ الـبـخـارـيـ فيـ صـحـيـحـهـ فيـ كـتـابـ الـمنـاقـبـ: ٦١ـ /ـ ٦٥٩ـ)ـ .

(٩) سـلـمـانـ الـفـارـسـيـ: هوـ أـبـوـ عـبـدـ اللهـ سـلـمـانـ الـفـارـسـيـ ، وـيـقـالـ لـهـ سـلـمـانـ اـبـنـ الإـلـمـامـ وـسـلـمـانـ الـخـيـرـ ، قـيلـ اـسـمـهـ مـهـابـهـ بـنـ بـودـ ، وـقـيلـ اـسـمـهـ بـهـبـودـ ، أـصـلـهـ مـنـ رـامـهـرـمزـ ، وـقـيلـ مـنـ أـصـبـهـانـ ، وـكـانـ قدـ سـمـعـ بـأنـ النـبـيـ ﷺـ سـيـعـثـ ، فـخـرـجـ فـيـ طـلـبـ ذـلـكـ فـأـسـرـ وـبـعـدـ بـالـمـدـيـنـةـ ، كـانـ أـوـلـ مـشـاهـدـهـ الـخـنـدقـ ، وـقـيلـ شـهـدـ =

النبي ﷺ، فقدم المدينة قبل مبعثه، فلما رأه عرفه أنه هو النبي الذي بشر به المسيح، فامن به واتبعه، ونحن نسوق قصته.

قال ابن إسحق: (حدثني عاصم عن محمود، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال)^(١): حدثني سلمان من فيه قال: كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان من قرية يقال لها (حي)^(٢) – (وكان أبي دهقان قريته) –^(٣) وكنت أحب خلق الله إليه، لم يزل حبّه إِيَّاً حتى جسني في بيته كما يجس الجارية، فاجتهدت في المجوسيّة حتى كنتقطن النار التي تقدّها لا (تركتها)^(٤) ساعة تخبوا، وكانت لأبي ضيعة عظيمة فشغل بياني له يوماً، فقال: يا بني اذهب فإِنِّي قد شُغِلْتُ في بياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب إليها فاطلعها، وأمرني فيها ببعض ما يريده، ثم قال لي: ولا (تحبس)^(٥)عني فإنك إن احتسبت عني كنت أَهْمَ من ضيعتي (وشغلتني عن كل شيء من أمري)، فخرجت أريد ضيعته^(٦) (التي بعثني إليها)^(٧)، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدرِّي ما أمر الناس لحبس أبي إِيَّاً في بيته، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون^(٨)، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم، ورغبت في أمرهم، فقلت: هذا والله خير من الذي نحن عليه، فوالله ما برحت حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي فلم آتها، ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا:

بدرأً، وشهد بقية المشاهد وفتح العراق، وولي المداين. مات سنة ست وثلاثين أو سبع وثلاثين

(الإصابة: ١٤١/٣ – ١٤٢).

(١) سقطت من الأصل.

(٢) حي: وفي السيرة (جي) بالجيم المعجمة: ١/٢٣٥. وهي قرية في أصبهان.

(٣) دهقان: الدهقان بضم الدال وفتحها التاجر، فارسي مغرب والجمع دهاقن ودهاقن (لسان العرب)

والدهقان رئيس القرية ورئيس الإقليم ومن له مال. وعقار (المعجم الوسيط).

(٤) في الأصل: يتركوها.

(٥) في ب، ج، ص: تحبس.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) في الأصل: بعثتك.

(٨) سقطت من الأصل.

بالشام ، فرجعت إلى أبي وقد (بعث)^(١) في طلبي (وشغله)^(٢) عن عمله كله ، فلما جئت قال : يابني أين كنت ؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت ، قلت : يا أبا مرت بآناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم ، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس (فقال : أيبني ليس في ذلك الدين خير^(٣)) ، دينك ودين آبائك خير منه ، فقلت له : كلا والله إنه لخير من ديننا ، قال : فخافي ، فجعل في رجلي قيداً ، ثم حبسني في بيته ، (وبعثت إلى)^(٤) النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم ، فقدم عليهم تجار من النصارى فأخبروني ، فقلت لهم : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة (إلى بلادهم)^(٥) فاذنوني بهم ، قال : فلما أرادوا الرجعة أخبروني بهم ، فألقيت الحديد من رجلي ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام .

[سلمان يصل الشام]

فلما قدمتها قلت : من أفضل (أهل)^(٦) هذا الدين علماء؟ قالوا : (أسقف الكنيسة)^(٧) ، فجئته فقلت له : إني قد رغبت في هذا الدين ، وأحببت أن أكون معك فأخدمك في كنيستك ، وأنتعلم منك وأصلي معك ، قال : ادخل ، فدخلت (معه)^(٨) فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا له شيئاً منها اكتنذه لنفسه ، ولم يعط المساكين ، حتى جمع (سبع)^(٩) قلال^(١٠) من ذهب وورق^(١١) ، فأبغضته بغضناً شديداً

(١) في ب، ص: أرسل.

(٢) في ب، ص، ج: وشغلته.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في الأصل: وبعث إلى النصارى.

(٥) سقطت من ب.

(٦) سقطت من ب، ص.

(٧) في ج: الأسقف في الكنيسة.

(٨) سقطت من ج.

(٩) سقطت من ج.

(١٠) قلال: جمع قلة (بضم القاف) وهي إناء للعرب كالجرة الكبيرة (لسان العرب).

(١١) الورق: بكسر الراء الفضة.

لما رأيته يصنع، ثم مات (واجتمع النصارى)^(١) ليدفنه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها اكتنروا لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً، فقالوا لي: وما علمك بذلك؟ قلت: أنا أدلكم على كنزه فأريتهم موضعه، فاستخرجوا سبع قلال مملوقة ذهباً وورقاً، فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبداً، فصلبوه ورموه بالحجارة، وجاؤوا برجل آخر فجعلوه مكانه، فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه ولا أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدب ليلاً ونهاراً منه، فاحببته (حباً شديداً)^(٢) لم أحبه شيئاً قبله، فأقمت معه زماناً، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان إني قد كنت معك فأحببتك حباً (شديداً)^(٣) لم أحبه شيئاً قبلك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى فإلى من توصي بي، وبين تأمرني؟ فقال: أيبني، والله ما أعلم أحداً على ما كنت عليه، ولقد هلك الناس وبذلوا وترکوا أكثر ما كانوا عليه؛ إلا (رجلاً)^(٤) بالموصل^(٥) وهو فلان وهو على ما كنت عليه.

[سلیمان یلحق بقس الموصل]

فلما مات وغيب لحقت صاحب الموصل فقلت له: يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن الحق بك، وأخبرني أنك على أمره، فقال: أقم عندي، فأقمت عنده (فرأيته)^(٦) خير رجل على أمر صاحبه، فلما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان إن فلاناً أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي وبين تأمرني؟ قال: يا بنى والله ما أعلم أن أحداً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً (بنصيبين)^(٧) وهو فلان فالحق به.

(١) في ج: واجتمع الناس من النصارى.

(٢) سقطت من ج، وفي ص: حبا.

(٣) سقطت من ب، ج، ص.

(٤) في ج رجال (بالضم) وهو مستثنى يجوز فيه النصب والضم هنا.

(٥) الموصل: بالفتح وكسر الصاد، المدينة المشهورة في شمال العراق وسميت بذلك لأنها وصلت بين الجزيرة وال伊拉克 وقيل بين دجلة والفرات، وهي مدينة قديمة على طرف دجلة ومقابلها من الجانب الشرقي نينوى (معجم البلدان: ٥/٢٢٣).

(٦) في ب، ج، ص: فوجدته.

(٧) في الأصل بنصفين، ونصيبين: بالفتح ثم الكسر مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من =

[سلمان يلحق بقس نصيبين]

فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين، فأخبرته خبري وما أمرني به صاحبى، قال: أقم عندي فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما أحضر قلت له: يا فلان، إن فلاناً أوصى بي إلى فلان ثم فلان أوصى بي إليك، فإلى من توصى بي؟ فقال لي: يابني ما أعلم بقى أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجل بعمورية^(١) من (أرض)^(٢) الروم فإنه على مثل ما نحن فيه فإن أحبيت فأنه.

[سلمان يلحق بقس عمورية]

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبري فقال: أقم عندي فأقمت عند خير رجل على هدى أصحابه وأمرهم، فاكتسبت حتى كان لي (بقرات وأعنز)^(٣)، ثم نزل به أمر الله، فلما أحضر قلت له يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصى بي ويه تأمرني؟ قال: يابني والله ما أعلم أصبح أحد على مثل ما كنا عليه من آمرك أن تأتيه، ولكنه قد ظل زماننبي مبعوث بدين إبراهيم (يخرج)^(٤) بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتيين^(٥) بينهما نخل^(٦) به علامات لا تخفي؛ يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

الموصل إلى الشام، بينها وبين الموصل ستة أيام وقد فتحها عياض بن غنم صلحًا (معجم البلدان: ٢٨٨/٥).

(١) عمورية: بلد من بلاد الروم غزاها المعتصم حين سمع صرخة العلوية وفتحها سنة ٢٢٣ هـ (انظر: معجم البلدان: ٤/١٥٨).

(٢) في ج: أهل أرض.

(٣) في ب، ج، ص: بقيرات وغنية.

(٤) في الأصل: خرج.

(٥) الحرتيين: مثنى حرة وهي كل أرض ذات حجارة سود.

(٦) وصف لدار الهجرة؛ المدينة المنورة.

[سلمان يرتحل إلى بلاد العرب]

ثم مات وغيب فمكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مرّ بي نفر من «كلب»^(١) تجار، فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغينتي هذه، فقالوا: نعم فأعطيتموها. فحملوني معهم حتى إذا بلغوا وادي القرى^(٢) ظلموني، وياعني من رجل يهودي، فكنت (عنه)^(٣)، فرأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يتحقق في نفسي^(٤)، فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن له منبني قريظة من المدينة فابتاعني منه فحملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها عرفها بصفة صاحبي، فأقمت بها، وبعث رسول الله ﷺ وأقام بمكة ما أقام، لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق.

ثم هاجر إلى المدينة فوالله إنني لفي رأس عذق^(٥) لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس تحتي إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، فقال له: يا فلان قاتل الله بنى قبيلة^(٦)، والله إنهم الآن مجتمعون على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنهنبي.

فلما سمعتهما أخذتني عرواء^(٧) حتى ظنت أنني ساقط على سيدى، فنزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ما تقول؟ فغضب سيدى فلكلمني لكتمة شديدة، ثم قال: مالك ولهذا؟ أقبل على عملك. فقلت: لا شيء إنما أردت أن أستثنى عما قال، وقد كان عندي شيء جمعته، فلما أمسكت أخذته، ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو (بقاء)^(٨) فدخلت عليه، فقلت: إنه قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء

(١) قبيلة كلب: حي من قضاة (انظر: لسان العرب).

(٢) وادي القرى: هو وادٍ بين المدينة والشام، من أعمال المدينة كثير القرى، فتحها النبي ﷺ سنة سبع عنوة ثم صولحوا على الجزية (معجم البلدان: ٥/٣٤٥).

(٣) سقطت من ج.

(٤) لم يتحقق في نفسي، حق الأمر يتحقق حقاً، صار حقاً وثبت (لسان العرب).

(٥) العذق: كل غصن له شعب، والعذق النخلة بحملها (لسان العرب).

(٦) بنت قبيلة: قال ابن هشام، قبيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد بن زيد بن ليث بن قضاة، أم الأوس والخزرج (سيرة ابن هشام: ١/٢٣٨).

(٧) العرواء: قال ابن هشام: العرواء (بضم العين وفتح الراء) الرعدة من البرد والانتفاض (السيرة: ١/٢٣٨).

(٨) في الأصل: بفناء.

ذووا حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتمكم أحق به من غيركم فقربته إليه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: كلوا، وأمسك هو فلم يأكل، فقلت في نفسي: هذه واحدة. ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً، وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئت به، فقلت: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها، فأكل رسول الله ﷺ وأمر أصحابه فأكلوا (معه)^(١) فقلت في نفسي: هاتان ثنتان، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بقيع الغرقد، قد تبع جنازة رجل من أصحابه، وعلى شملتان^(٢) لي، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه ثم استدرت (أنظر)^(٣) إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي، فلما رأني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أنني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى الرداء عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكبت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ تحول، فتحولت وجلست بين يديه، فقصصت عليه حديثي كما حدثك يا ابن عباس، فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه.

ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر وأحد، قال سلمان: ثم قال لي رسول الله ﷺ: كاتب يا سلمان فكانت صاحبتي على ثلاثة نخلة أحياها له بالفقر^(٤) وأربعين أوقية، فقال رسول الله ﷺ: «أعينوا أحاكم» فأعانتوني بالنخل: الرجل بثلاثين ودية^(٥)، والرجل بعشرين ودية، والرجل بخمسة عشر والرجل بعشر، يعنيني الرجل بقدر ما عنده حتى اجتمع لي ثلاثة ودية، فقال لي رسول الله ﷺ: يا سلمان فافقر لها، فإذا فرغت فائشني أكن أضعها بيدي، ففقرت فأعانتي أصحابي، حتى إذا فرغت جئته فأخبرته، فخرج معه إليها (فجعلت أقرب)^(٦) إليه الودي ويسعه رسول الله ﷺ بيده حتى فرغت، فوالذي نفس سلمان بيده ما مات منها ودية واحدة، فأدّيت النخل وبقي على المال. فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاج من ذهب من

(١) سقطت من ج.

(٢) شملتان: الشملة، كساء يتغطى به ويختلف به (لسان العرب).

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) الفقير: من فقر الأرض إذا حفرها، والفقرة: الحفرة والفقير: حفير حول الفسيلة إذا غرست، وفقير النخلة حفيحة تحضر للفسيلة إذا حولت لتغرس فيها (لسان العرب).

(٥) ودية: بكسر الدال وتشديد الياء مفرد الودي وهي: صغار الفسيل (مخثار الصحاح).

(٦) في ب، ج، ص: فجعلنا نقرب.

بعض المعادن، فقال: ما فعل الفارسي المكاتب؟ فدعى له، فقال: خذ هذه فأدّها مما عليك يا سلمان، فقلت: وأين تقع هذه مما على يا رسول الله؟ قال: (خذها)^(١) فإن الله سيؤدي بها ما عليك، فأخذتها فوزنت منها لهم - فواه الله الذي نفسي بيده - أربعين أوقية وأوفيتهم حقهم، فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق ثم لم يفتني معه مشهد^(٢).

[موقف هرقل من كتاب رسول الله ﷺ]

(وكان) ملك الشام وأحد أكابر علمائهم بالنصرانية (هرقل)^(٣) قد عرف أنه رسول الله حقاً، وعزم على الإسلام، فأبى عليه عبد الصليب، فخافهم على نفسه، وضنّ بملكه مع علمه بأنه سينقل عنه إلى رسول الله ﷺ وأمته، ونحن نسوق قصته.

ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس أن أبا سفيان أخبره من فيه قال: انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ إلى الشام، وبيننا أنا في الشام إذ جيء بكتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل، وقد كان دحية بن خليفة جاء به^(٤) فدفعه إلى عظيم بصرى^(٥) فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل فقال هرقل: هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنهنبي؟ قالوا: نعم، قال: فدعى به من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي. فدعا بترجمانه فقال: قل لهم إني سائل هذا عن الرجل الذي يزعم أنهنبي، فإن كذبني فكذبواه فقال أبو سفيان: وأيم الله لولا مخافة أن يؤثر على الكذب لكذبت^(٦)، ثم قال لترجمانه: سله، كيف حسبه فيكم؟ قال:

(١) سقطت من الأصل.

(٢) قصة سلمان الفارسي ذكرت بهذا التفصيل في أكثر من كتاب من كتب السيرة، انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٢٣٤ / ١ - ٢٤١ ، وانظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس: ٧٦ / ١ - ٨٢ .

(٣) هرقل: عظيم الروم في الشام.

(٤) دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد بن امرئ القيس بن عامر الأكبر بن عوف الكلبي، صحابي مشهور، أول مشاهده الخندق وقيل أحد، وكان يضرب به المثل في حسن الصورة وكان جبرائيل يتزل على صورته، وقد شهد اليرموك ونزل دمشق وسكن المزة، وعاش إلى خلافة معاوية (الإصابة: ٢ / ٣٨٦).

(٥) بصرى: مدينة بالشام من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران (معجم البلدان: ٤٤١ / ١).

(٦) وهذا يدل على أن الكذب قبيح في الجاهلية كما هو قبيح في الإسلام .

قلت : (ذو حسب)^(١) قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا ، قال : فهل كتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا ، قال : فمن اتبعه : أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم ، قال : أيزيرون أم ينتصرون ؟ قلت : لا بل يزيدون ، قال : فهل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطه له ؟ قلت : لا ، قال : فهل قاتلتهموه ؟ قلت : نعم ، قال : فكيف قاتلتم إيه ؟ قال : قلت يكون الحرب بيننا وبينه سجالاً^(٢) ، يصيب منا ونصيب منه ، قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها .

قال : فوالله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها (شيئاً)^(٣) غير هذه ، قال : فهل قال هذا القول أحد قبله ؟ قلت : لا ، قال لترجمانه : قل له : إني سألك عن حسبه فزعمت أنه فيكم ذو حسب ، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها . وسألتك هل كان في آبائه ملك ؟ فزعمت أنه لا ، فقلت : لو كان في آبائه ملك لقلت : رجل يتطلب ملك آبائه ، وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرفاؤهم ؟ فقلت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل ، فسألتك هل كتم متهمون بالكذب قبل أن يقول ما يقول ؟ فزعمت أن لا ، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب ويكتذب على الله ، وسألتك ، هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن دخله سخطه له ؟ فزعمت أن لا ، وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب ، وسألتك هل يزيدون أو ينتصرون ، فزعمت أنهم يزيدون وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتك ، هل قاتلتهموه ؟ فزعمت أنكم قاتلتموه ، فيكون الحرب بينكم وبينه سجالاً ؟ ينال منكم وتتالون منه ، وكذلك الرسل تبني ، ثم تكون لها العاقبة ، وسألتك هل يغدر ؟ فزعمت أنه لا يغدر ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله ؟ فزعمت أن لا ، فقلت : لو قال هذا القول أحد قبله ، قلت : رجل ائتم بقول قيل قبله ، ثم قال : فيم يأمركم ؟ قلت : يأمرنا بالصلة والزكاة والصلة والعفاف ، قال : إن يكن ما تقوله حقاً إنهنبي ، وقد كنت (أعلم)^(٤) أنه خارج ، ولكن لم أظنه منكم ، لو أعلم أنني أخلص

(١) في ب ، ج ، ص : هو فيما ذُو حسب .

(٢) سجالاً : أي نوبة ، نوبة لنا ونوبة له ، قالوا : وأصله أن المستقين بالسجل وهي الدلو الملاي ، يكون لكل واحد منها سجل (انظر : لسان العرب) .

(٣) سقطت من ج .

(٤) في ب ، ج ، ص : أظن .

إِلَيْهِ لِأَحَبِّتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْكُنْتُ عَنْهُ لَغْسَلَتْ عَنْ قَدْمِيهِ، وَلَيَبْلُغَنْ مَلْكَهُ مَا تَحْتَ قَدْمِي، ثُمَّ
دُعَا بِكِتابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١) (فَإِذَا فِيهِ) (٢) «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ (بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ) (٣) إِلَى هَرقلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ
بِدُعَايَةِ إِلَيْسَامٍ، أَسْلَمْ تَسْلِمْ (وَأَسْلَمْ) (٤) يَؤْتُكَ اللَّهُ أَجْرُكَ مُرْتَبِينَ، وَإِنْ تُولِّيَتْ فَإِنْ عَلَيْكَ إِثْمُ
الْأَرِيسِينَ (٥)، وَهُوَ أَهْلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلْمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهُ،
وَلَا نَشْرُكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَخَذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تُولِّيَ فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ (٦) (٧).

(١) ذَكَرَ ابْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنَ الْحَدِيبِيَّةِ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ سَتَّ أَرْسَلَ
الرَّسُولَ إِلَى الْمُلُوكِ يَدْعُوهُمْ إِلَى إِلْيَسَامٍ وَكَتَبَ إِلَيْهِمْ كِتَابًا، فَقَيْلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْمُلُوكَ لَا يَقْرَأُونَ
كِتَابًا إِلَّا مُخْتَوِّمًا، فَاتَّخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَاتِمًا مِنْ فَضْلَةِ فَصَّهُ مِنْهُ، نَفَشَهُ بِشَلَاثَةِ أَسْطَرِ مُحَمَّدٍ
رَسُولُ اللَّهِ، وَخَمَّ بِهِ الْكِتَابَ، فَخَرَجَ سَنَةً نَفْرَ مِنْهُمْ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ وَذَلِكَ فِي الْمُحْرَمَ سَنَةَ سَبْعَ
(الْطَّبَقَاتُ الْكَبِيرُ، ابْنُ سَعْدٍ: ١٥/١).

(٢) فِي بِ، جِ، صِ: فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ.

(٣) فِي بِ، صِ: رَسُولُ اللَّهِ، وَفِي جِ: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ.

(٤) سَقَطَتْ مِنَ الْأَصْلِ.

(٥) الْأَرِيسِينَ: وَعَنْدَ الْبَخَارِيِّ الْبَرِيْسِينَ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا بِالْهَمْزَةِ كَمَا ذَكَرَ ابْنُ حَجْرٍ فِي الْفَتْحِ:
(١/٣٩). وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي مَعْنَاهَا؛ قَالَ ابْنُ حَجْرٍ: الْأَرِيسِينَ جَمْعُ أَرِيسِيٍّ وَهُوَ الْأَكَارُ أَيُّ الْفَلَاحِ،
قَالَ الْجُوهَرِيُّ: هِيَ لِغَةُ شَامِيَّةٍ وَأَنْكَرَايْنِ فَارِسٌ أَنْ تَكُونُ عَرَبِيَّةً، وَاسْتَدَلَ ابْنُ حَجْرٍ بِرَوَايَةِ مَرْسَلَةِ (فَإِنْ
عَلَيْكَ إِثْمُ إِلَيْسَامِ الْفَلَاحِينِ) (الْفَتْحُ: ٣٩/١) وَأَورَدَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي النَّهَايَةِ مَعَانِيًّا كَثِيرَةً لِلْأَرِيسِينَ وَمِنْ جَمْلَةِ
مَا قَالَهُ: «إِنْ فِي رَهْطِ هَرقلَ فَرْقَةٌ تَعْرَفُ بِالْأَرْوَسِيَّةِ فَجَاءَ عَلَى النَّسْبِ إِلَيْهِمْ» (النَّهَايَةُ فِي غَرِيبِ
الْحَدِيثِ وَالْأَثْرِ: ٣٨/١) وَمِنْ خَلَالِ الْأَقْوَالِ الْوَارَدَةِ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْفَلَذَةِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَرْجِعَ أَنَّ
الْكَلْمَةِ إِنَّمَا هِيَ نَسْبَةُ إِلَى الْأَرِيسِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِبَشَرِيَّةِ الْمَسِيحِ وَيُنْكِرُونَ إِلَيْهِ، وَقَدْ فَرَّوْا
بِدِينِهِمْ مِنْ اضْطَهَادِ الْكَنْسِيَّةِ وَالْوَلَوْنَيَّةِ الْرُّومَانِيَّةِ، وَلَا مَانِعٌ أَنْ يَكُونُوا قَدْ فَرَّوْا إِلَى الْقَرَىِ وَالْأَرِيفَاتِ
وَعَمِلُوا بِالْزَرْعَةِ.

(٦) سُورَةُ آلِ عُمَرَانَ: الْآيَةُ ٦٤.

(٧) نَصُّ الْكِتَابِ وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَفِي مَعْظَمِ كِتَابِ السِّرَّةِ وَدَلَائِلِ النَّبِيَّ، كَمَا أَنَّ نَفْسَ الْكِتَابِ مُوجَدٌ
فِي مَكْتَبَةِ الْقَصْرِ الْمُلْكِيِّ بِعُمَانَ وَذَكَرَهُ الأَسْتَاذُ حَمِيدُ اللَّهِ فِي الْوَثَائِقِ السِّيَاسِيَّةِ وَفِيهِ رَسْمُ الْأَصْلِ
الْفَوَّقَنْرَافِيُّ لِلْكِتَابِ (الْوَثَائِقُ السِّيَاسِيَّةُ: صِ ١٠٨).

فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثُر اللغط وأمر بنا فخر جنا^(١).
 ثم أذن هرقل لعظاماء الروم في دسكرة^(٢) له بحمص^(٣)، ثم أمر بآبواها فغلقت ثم طلع
 فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملکكم فتباعوا هذا النبي؟
 فحاصلوا حيصة^(٤) حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم
 وأيس من الإيمان، قال: رَدُّوهُمْ عَلَيْهِ، فقال: إني قلت مقالتي آنفًا اختبر بها شدتكم على
 دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه^(٥).

فهذا ملك الروم – وكان من علمائهم أيضًا – عرف وأقرَّ أنهنبي، وأنه سيملك
 ما تحت قدميه، وأحب الدخول في الإسلام، فدعى قومه إليه فولوا عنه معرضين «كأنهم
 حمر مستترة». فرت من قصورة^(٦) فمنعه من الإسلام الخوف على ملکه ورئاسته، ومنع
 أشياه الحمير مما منع الأمم قبلهم.

[موقف النجاشي من كتاب رسول الله ﷺ]

ولما عرف النجاشي ملك الحبشة أن عباد الصليب لا يخرجون عن عبادة الصليب
 إلى عبادة الله وحده، أسلم وحده سرًّا، وكان يكتم إسلامه بينهم هو وأهل بيته ولا يمكنه
 مجاهرتهم.

ذكر ابن إسحق أنَّ رسول الله ﷺ أرسل إليه عمرو بن أمية (الضميري)^(٧) بكتابه

(١) الحديث ورد في الصحيحين، وللهذه إلى هنا لمسلم مع الاختلاف في ألفاظ بعض الكلمات،
 انظر: صحيح مسلم ك٣٢ ح١٧٧٣، وبقية الحديث وردت في اختلاف في بعض الألفاظ في
 صحيح البخاري: ٧/١.

(٢) الدسكرة: بسكون السين المهملة: القصر الذي حوله البيوت وكأنه دخل القصر ثمأغلقه، وفتح
 أبواب البيوت التي حوله، وأذن للروم في دخولها، ثم أغلقها ثم اطلع عليهم فخاطبهم، وإنما فعل
 ذلك خشية منهم (انظر: فتح الباري: ٤٣/١).

(٣) حمص: وكان فتحها على يد أبي عبيدة بن الجراح سنة ١٦هـ بعد هذه الحادثة بست سنين (فتح
 الباري: ٤٣/١).

(٤) الحيصة: حاص عنده عدل وحاد، يقال: ما عنه محicus أي مجيد ومحير (مختار بالصحاح).

(٥) زاد البخاري: فكان ذلك آخر شأن هرقل (صحيح البخاري: ٧/١).

(٦) سورة المدثر: الآياتان ٥٠، ٥١.

(٧) سقطت من ص.

يدعوه إلى الإسلام^(١)، فقال له عمرو: يا أصحمة^(٢)!! أنا على القول وعليك الاستماع، إنك كأنك في الرقة علينا متّا، وكأننا في الشقة بك منك، لأننا لم نظن بك خيراً (قط)^(٣) إلا نلناء، ولم نخفك على شيء إلا أمناء، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، الإنجيل يبينا وبينك شاهد لا يرد وقاض لا يجور، وفي ذلك موقع حسن واصابة الفصل، وإنما فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم، وقد فرق النبي ﷺ إلى الناس فرجاك بما لم يرجهم، وأمنك على من خافهم عليك لخير سالف (وأجر)^(٤) متظر.

قال النجاشي: أشهد بالله إنه للنبي الأمي الذي يتظاهر به أهل الكتاب. (وإن)^(٥) بشارة موسى براكب الحمار^(٦) كإشارة عيسى (براكب الجمل)^(٧) (وإن العيان ليس بأشغى من الخبر)^(٨).

قال الواقدي: وكتب إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، (سلم)^(٩) أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن (عيسى)^(١٠) روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، حملت عيسى فخلقه (الله)^(١١) من روحه ونفخه كما خلق آدم

(١) لم يرد نص الكتاب الذي بعث به النبي ﷺ إلى النجاشي في سيرة ابن هشام، وإنما ذكر فقط أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن أمية إلى النجاشي يحمل له كتاباً يدعوه للإسلام: ٢٥٤/٤.

(٢) أصحمة: اسم النجاشي، لأن النجاشي لقب لملك الحبشة وهو أصحمة بن أبيجر أو ابن بحر، وأصحابه بالعربية تعني عطية، توفي سنة تسع للهجرة. راجع أسد الغابة: ٩٩/١.

(٣) سقطت من ص.

(٤) في ص: وأشار.

(٥) في الأصل في.

(٦) راكب الحمار هو عيسى عليه السلام.

(٧) سقطت من الأصل، وراكب الجمل هو محمد ﷺ.

(٨) في سيرة زيني دحلان « وأنه ليس الخبر كالعيان »، والقصة بهذا النص نجدتها في السيرة الحلبية: ٢٤٨/٣ وسيرة زيني دحلان هامش الحلبة: ٦٧/٣ وإعلام السائلين، لابن طولون ص ٤٩ كما ذكرها ابن القيم في زاد المعد: ٦٨٩/٣.

(٩) هكذا في جميع النسخ، وفي زاد المعد: أسلم، انظر: زاد المعد: ٦٨٩/٣.

(١٠) في ج، ص: عيسى ابن مريم.

(١١) سقطت من ج، ص.

بيده. وإنني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتعبني وتؤمن بالذي جاءني، فإنني رسول الله إليك (إنني) ^(١) أدعوك وجنودك إلى الله عزوجل، وقد بلغت ونصحت فاقبلا نصحيتي والسلام على من اتبع الهدى» ^(٢).

فكتب النجاشي إليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة، سلام عليك يا نبى الله من (الله)
وبركات الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد:

فلقد بلغني كتابك فيما ذكرت من أمر عيسى عليه السلام، فورب السماء والأرض
إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تفروقاً، إنه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بعث به إلينا، قد
قربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن
عمك، وأسلمت على يديه رب العالمين» ^(٣). والتفرق علامة بين النواة والشمرة.

[كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوس]

(فصل): وكذلك ملِك دين النصرانية (بمصر) عرف ^(٤) أنه نبى (صادق) ^(٥) ولكن
منه من اتباعه ملکه، وأن عباد الصليب لا يتركون عبادة الصليب. ونحن نسوق حديثه
وقصته.

قال الواقدي: كتب إليه رسول الله ﷺ :

(١) سقطت من ص.

(٢) ورد نص هذه الرسالة في تاريخ الطبرى: ٦٥٢/٢ وتأريخ الإسلام للذهبي: ١٢١/٢ - ١٢٢،
وفي طبقات ابن سعد: ١٥/١. كما ذكرها ابن القيم في زاد المعاد: ٦٨٩/٣. يقول الأستاذ
حميد الله: وقد ظهر المستشرق الدكتور دنلوب من براندزرك في اسكتلندا بأصل هذا المكتوب ونشر
صورته الشمسية في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية الانجليزية في يناير سنة ١٩٤٠، وطبع الأستاذ
حميد الله صورة الكتاب في كتابه (الوثائق السياسية: ص ١٠٢).

(٣) رسالة النجاشي هذه أوردها الطبرى في تاريخه: ٦٥٣/٢ وذكرها ابن سعد في طبقات: ١٥/١.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) سقط من ج.

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

من محمد بن عبد الله إلى المقوس^(١) عظيم القبط.

سلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

فإنني أدعوك بدعابة الإسلام. أسلم وسلم (يؤتك)^(٢) الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم القبط.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابَ تَعَالَوْا إِلَى كَلْمَةٍ سُوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَلَا يَتَخَذَّ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تُولُوا فَقُولُوا: أَشْهَدُوْا بِأَنَّا مُسْلِمُوْنَ﴾^(٣) وختم الكتاب^(٤).

فخرج به حاطب^(٥) حتى قدم عليه الإسكندرية، وانتهى إلى حاجبه فلم (يلبث)^(٦) أن أوصل إليه كتاب رسول الله ﷺ، وقال حاطب للمقوس لما لقيه: إنه قد كان قبلك رجل يزعم أنه رب الأعلى^(٧) ﴿فَأَنْجَدَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾^(٨) فانتقم به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك غيرك، قال: هات، (قال)^(٩): إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما

(١) المقوس: لقب لكل من ملك مصر والاسكندرية، والمقوس الذي كتب إليه الرسول ﷺ اسمه جريج بن مينا كان نصراوياً وملكًا تابعاً لملك الروم (أسد الغابة: ٤١٢/٤) ط: طهران.

(٢) في ج، ص: وأسلم يؤتك.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٦٤.

(٤) نص هذا الكتاب ذكره ابن سعد في الطبقات: ١٦/١ - ١٧ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ٢٧٢/٤.

والكتاب موجود في متحف ثوب قابي باسطنبول، كما ذكره الأستاذ محمد حميد الله ووضع صورة عنه في كتابه (الوثائق السياسية: ص ١٣٧).

(٥) هو حاطب بن أبي بلترة اللخمي، حليفبني أسد بن عبد العزى شهيد بدرًا والحدبية، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَخَذُوا عَدُوِّي وَعَدُوكُمْ أُولَاءِ﴾، بعثه ﷺ في سنة ست من الهجرة إلى المقوس مات سنة ثلاثة بالمدينة وصلى عليه عثمان، وهو ابن خمس وستين سنة (الاستيعاب: ٣١٢/١).

(٦) في ج، ص: يلبيه.

(٧) وهو فرعون موسى.

(٨) سورة النازعات: ص ٢٥.

(٩) في ص: قال حاطب.

هو خير منه وهو الإسلام الكافي (به الله)^(١) فقد ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه (إنكاراً)^(٢) قريش وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى. ولعمري ما بشاره موسى بعيسى إلّا كبشره عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلّا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكلّ نبي أدرك قوماً فهم من أمته، والحق عليهم أن يطعوه، وأنت من أدرك هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به. فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فرأيته لا يأمر بمزهوه فيه ولا ينهي عن مرغوب عنه. ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلة النبوة^(٣)، من إخراج الخبر^(٤) والأخبار بالنجوى، ووصف لحاطب أشياء من صفة النبي ﷺ.

وقال: القبط لا يطأونني في اتباعه، ولا أحب أن تعلم بمحاورتي إياك، وأنا أضنّ بملكني أن أفارقك، وسيظهر على (البلاد)^(٥) ويتزل ساحتنا هذه (أصحابه)^(٦) من بعده. فارجع إلى صاحبك.

وأخذ كتاب النبي ﷺ فجعله في حق^(٧) من عاج وختم عليه ودفعه إلى (جاريته)^(٨) ثم دعا كتاباً يكتب له بالعربية فكتب:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك أما بعد: فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعوه إليه، وقد علمت أن نبياً بقى، وكنت أظن أنه يخرج (من الشام)^(٩)، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم،

(١) في الأصل بالله.

(٢) سقطت من ج، ص.

(٣) أي دلائل النبوة.

(٤) الخبر: ما خبيء، وخبء السماء: القطر، وخبء الأرض: النبات، (مختر الصحاح) والخبر هنا بمعنى المغيبات المستورة التي أخبر بها النبي ﷺ.

(٥) في ج: بلادي.

(٦) في الأصل: هو وأصحابه.

(٧) الحق: وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج أو زجاج وغيرهما (المعجم الوسيط).

(٨) في ج، ص: جارية له.

(٩) في ج، ص: بالشام.

وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك» (ولم يرده إلا مكرماً^(١)) والجاريتان: مارية^(٢) وسيرين^(٣) والبغلة: دلول، وبقيت إلى زمن معاوية.

قال حاطب: فذكرت قوله لرسول الله ﷺ فقال: ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه^(٤).

[كتاب رسول الله ﷺ لأبني الجلندي]

(فصل): وكذلك أبنا الجلندي^(٥)، ملكا عُمان^(٦) وما حولها من ملوك النصارى، أسلما طوعاً واختياراً، ونحن نذكر قصتهما وكتاب رسول الله ﷺ، وهذا لفظه:

«بسم الله الرحمن الرحيم».

من محمد بن عبد الله إلى (جيفر)^(٧) وعبد أبني الجلندي.

سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد: فإنني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإنني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكمما^(٨)، وإن أبيتما أن تقرأوا بالإسلام (فإن)^(٩) ملکكمما زائل، وخيلي تحل بساحتكمما،

(١) سقطت من ث، وفي ج: ولم يزد.

(٢) مارية: تعرف بمارية القبطية، تزوجها رسول الله ﷺ وأنجب منها ولده إبراهيم، فقال: أعتقها ولدها، ماتت سنة ١٦ هـ (الأعلام: ٢٥٥/٥).

(٣) سيرين: وفي طبقات ابن سعد بالشين وهكذا في أعلام النساء، كحالة: ٢٧٨/٢.

(٤) انظر: طبقات ابن سعد: ١٦/١ - ١٧ والبداية والنهاية لابن كثير: ٤/٢٧٢.

(٥) أبناء الجلندي: وهو جيفر بن الجلندي اليماني، كان رئيس أهل عمان هو وأخوه عبد بن الجلندي، أسلما على يد عمرو بن العاص حين بعثه النبي ﷺ إلى ناحية عمان، ولم يقدموا على النبي ﷺ ولم يرباه، وكان إسلامهما بعد خير (الاستيعاب: ١/٢٧٥) (مكتبة نهضة مصر وطبعتها).

(٦) عُمان: بضم العين وتحقيق الميم: اسم كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند تشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع، وأكثر أهلها في أيامنا خوارج أباضية (معجم البلدان).

(٧) في ج، ص: حيفر.

(٨) في ج: وليتكمما مكانكمما.

(٩) سقطت من الأصل.

وتطهر نبوي على ملوككم^(١)، وختم الكتاب^(٢)، وبعثه مع عمرو بن العاص.

(قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عمان، فلما قدمتها انتهيت إلى عبد، فكان أحلم الرجالين وأسهلهما خلقاً. قلت: إني رسول الله إليك وإلى أخيك، فقال: أخي المقدم على بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، ثم قال لي: وما تدعوه إليه؟ قلت: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عبد من دونه وتشهد أن محمداً عبدك ورسوله، قال: يا عمرو إنك سيد قومك، فكيف صنع أبوك؟ فإن لنا فيه قدوة قلت: مات ولم يؤمن بمحمد، ووددت أنه كان أسلم وصدق به، وكنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام.

قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريباً. فسألني، أين كان إسلامي؟ فقلت: عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي أسلم، فقال: كيف صنع قومه بملكه؟ قلت: أقرّوه^(٣) قال: والأساقفة والرهبان؟ قلت: نعم، قال: انظري يا عمرو ما تقول، إنه ليس خصلة في رجل أفضح له من كذب، قلت: ما كذبت وما نستحله في ديننا، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي، قلت: (قد علم)^(٤) قال: بأي شيء علمت؟ قلت: كان النجاشي يخرج له (خرجاً)^(٥)، فلما أسلم وصدق بمحمد^ﷺ قال: لا والله لو سألني درهماً واحداً ما أعطيته بلغ هرقل قوله، فقال له أخوه (بنان): أتدع عنك من لا يخرج لك خرجاً ويدين ديناً محدثاً، قال هرقل: رجل رغب في دين واختاره لنفسه، ما أصنع به؟ والله لولا

(١) نص الرسالة ذكره ابن سعد في الطبقات: ١/١ - ١٨، وفي عيون الأثر: ٢/٣٤٠، وفي زاد المعاد: ٣/٦٩٣، وإعلام السائلين: ص ٩٢ وذكرها الأستاذ محمد حميد الله في كتابه وقال: «رأيت عند بعض الإخوان في باريس سنة ١٤٠٠ هـ فضيلة من جريدة يومية عربية من تونس فيها تصوير أصل مكتوب النبي ﷺ إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، ولكن لم يعرف اسم الجريدة ولا تاريخها، وعلقت الجريدة بقولها «عشر علماء الآثار على النسخة الأصلية...». جاء هذا أثناء زيارة سفير عمان لدى إيران (آنذاك) لبعض الدول العربية وقد وجد الأصل في حوزة هاوي آثار لبني الجنسية، وقد رفض تسليم المخطوط لسعادة السفير إلا أنه سمح بتصويره (الوثائق السياسية، محمد حميد الله: ص ٧٦).

(٢) في زاد المعاد: وكتب أبي بن كعب وختم الكتاب (زاد المعاد: ٣/٦٩٣).

(٣) يبدو هنا تناقض مع ما سلف ذكره من أن النجاشي أسلم سراً وكتم إسلامه عن قومه.

(٤) في ج، ص: بلى.

(٥) في ج: خراجاً.

الضَّنْ بِمُلْكِي لَصَنْعَتْ كَمَا صَنَعَ! قَالَ: (بِمَ تَقُولُ)^(١) يَا عُمَرُ؟ قَلْتَ: وَاللَّهِ لَقَدْ صَدَقْتَكَ،
 قَالَ: فَأَخْبَرْنِي مَا الَّذِي يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَا عَنْهُ، قَلْتَ يَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَنْهَا عَنْ
 مَعْصِيَتِهِ، وَيَأْمُرُ بِالْبَرِّ، وَصَلَةِ الرَّحْمَ، وَيَنْهَا عَنِ الظُّلْمِ وَالْعُدُوانِ، وَعَنِ (الْزِنَا)^(٢) وَشَرِبِ
 الْخَمْرِ، وَعَنِ عِبَادَةِ الْحَجَرِ وَالْوَلَثِنِ وَالصَّلِيبِ، فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا الَّذِي يَدْعُوكَ إِلَيْهِ،
 لَوْ كَانَ أَخِي يَتَابُعُنِي لَرَكِبَنَا حَتَّى نُؤْمِنُ بِمُحَمَّدٍ، وَنَصِدِّقُ بِهِ، وَلَكِنَّ أَخِي أَضَنَّ بِمُلْكِهِ مِنْ أَنْ
 يَدْعُوكَ وَيَصِيرُ دِينَكَ^(٣)، قَلْتَ: إِنَّهُ إِنْ أَسْلَمَ مَلْكَهُ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى قَوْمِهِ، فَأَخْذَ الصَّدَقَةَ مِنْ
 غَنِيَّهُمْ فَرَدَهَا عَلَى فَقِيرِهِمْ، قَالَ: إِنَّهُ إِنْ هَذَا (الْخَلْقُ)^(٤) حَسَنٌ، وَمَا الصَّدَقَةُ؟ فَأَخْبَرْتَهُ بِمَا
 فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى مَنْ مِنَ الصَّدَقَاتِ فِي الْأَمْوَالِ حَتَّى انتَهَيَ إِلَى الْإِبْلِ، فَقَالَ: يَا عُمَرُ
 وَيَؤْخُذُ مِنْ سَوَائِمِ مَوَاسِيْنَا الَّتِي تَرْعَى الشَّجَرَ وَتَرْدَ المَاءِ؟ فَقَلْتَ: نَعَمْ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَرَى
 قَوْمِي فِي بَعْدِ دَارِهِمْ، وَكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ يَطْبِعُونَ بِهِمْ، قَالَ: فَمَكَثْتُ بِبَابِهِ أَيَّامًا وَهُوَ يَصِلُّ إِلَى
 أَخِيهِ فَيَخْبُرُهُ كُلَّ خَبْرٍ، ثُمَّ إِنَّهُ دَعَانِي يَوْمًا فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَأَخْذَ أَعْوَانَهُ بِضَبْعِي^(٥)، فَقَالَ:
 دُعُوهُ، فَأَرْسَلْتُ فَذَهَبَتْ إِلَى جَلْسٍ فَأَبْوَأْتُ أَنْ يَدْعُونِي أَجْلَسَ، فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ فَقَالَ: تَكَلِّمْ
 بِحَاجَتِكَ فَدَفَعْتُ إِلَيْهِ الْكِتَابَ مُخْتَوِّمًا، فَفَضَّلَ خَاتَمَهُ فَقَرَأَهُ حَتَّى اتَّهَى إِلَى آخِرِهِ ثُمَّ دَفَعَهُ
 إِلَى أَخِيهِ، فَقَرَأَهُ مُثْلَ قِرَاءَتِهِ، إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُ أَخَاهُ أَرْقَ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا تَخْبُرْنِي عَنْ قَرِيشٍ
 كَيْفَ صَنَعْتَ؟ فَقَلْتَ: تَبَعَوْهُ إِمَّا رَاغِبٌ فِي إِسْلَامٍ وَإِمَّا مَقْهُورٌ بِالسَّيفِ، فَقَالَ: وَمَنْ مَعَهُ؟
 قَلْتَ: النَّاسُ قَدْ رَغَبُوا فِي إِسْلَامٍ وَاخْتَارُوهُ عَلَى غَيْرِهِ، وَعُرِفُوهُ بِعَقْولِهِمْ مَعَ هَدِيِّ اللَّهِ
 إِلَيْهِمْ، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي ضَلَالٍ، فَمَا أَعْلَمُ أَحَدًا بِقِيَ غَيْرِكَ فِي هَذِهِ (الْحَرْجَةِ)^(٦)، وَإِنْ أَنْتَ
 لَمْ تَسْلِمْ الْيَوْمَ وَتَتَبَعَهُ تَوْطِئُكَ الْخَيْلُ وَتَبِيدُ خَضْرَاءَكَ، فَأَسْلِمْ تَسْلِمَ، وَيَسْتَعْمِلُكَ عَلَى

(١) في ج، ص: انظر ما تقول.

(٢) في ص: الربا.

(٣) يصير ديناً: أي يصير تابعاً.

(٤) في ص: لحق.

(٥) في الأصل يضيعي، وال الصحيح أنها بالباء لأن الضبع وسط العضد بالحمل يكون للإنسان وغيره، وقيل: الضبع الإبط، وقيل: ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلىه، تقول: أخذ بضبعي أي بغضديه (لسان العرب).

(٦) في ج: الخرجـة، وال صحيح بالباء، لأن الحرجـة من الحرجـة وهو أصيق الضبعـة والحرجـة: الذي يهاب أن يتقدم على الأمر، والحرجـة الغيبة لضيقها وفي الحديث: حتى تركوه في حرجة (لسان العرب).

قومك، (ولا تدخل)^(١) عليك الخيل والرجال، قال: دعني يومي هذا، وارجع إليّ غداً، فرجعت إلى أخيه، فقال: يا عمرو، إنني لا أرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه، حتى إذا كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لي، فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أنني لم أصل إليه فأوصلني إليه، فقال: إنني (فكرت)^(٢) فيما دعوتني إليه فإذا أنا (ضعف)^(٣) العرب إن ملكت رجلاً ما في بيدي وهو لا تبلغ خيله هاهنا، وإن بلغت خيله ألفت (رجالاً)^(٤) وقلالاً (ليس كمن لاقى في القتال)^(٥). قلت: وأنا خارج غداً. فلما أيقن (بمخرجي)^(٦) خلا به أخوه، فقال: ما نحن فيما قد ظهر عليه، وكل من أرسل إليه قد أجابه.

فأصبح فأرسل إلى فأجاب (بالإسلام)^(٧) هو وأخوه جميعاً، وصدقوا النبي ﷺ، وخلياً بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عوناً على من خالفني^(٨).

[كتاب رسول الله ﷺ إلى صاحب اليمامة]

(فصل): وكتب النبي ﷺ إلى هودة بن علي الحنفي^(٩) صاحب اليمامة^(١٠): «بسم الله الرحمن الرحيم».

(١) في ص: وندخل.

(٢) في ص: ذكرت.

(٣) في ج، ص: أضعف.

(٤) سقطت من ج، ص.

(٥) في ج، ص: ليس كقتال من لاقى.

(٦) في ص: بخروجي.

(٧) في ص: إلى الإسلام.

(٨) والقصة في طبقات ابن سعد: ١/١ - ١٨، وفي زاد المعاد: ص ٦٩٣ - ٦٩٥ وفي عيون الأثر: ٢/٢ - ٣٤٢، وإعلام السائلين: ص ٩٣ - ٩٦، والسيرة الحلبية: ٢٥٣/٣، وسيرة زيني دحلان على هامش الحلبية: ٧٥/٣.

(٩) هودة بن علي الحنفي وفي النسخ هودة بالذال والصحيح بالذال، وهو هودة بن علي بن ثمامة بن عمرو الحنفي من بني حنفة، صاحب اليمامة بنجد وشاعر بني حنفة وخطيبها قبل الإسلام وفي المهد البوي وهو من أهل قران أفضح بني حنفة (الإعلام: ١٠٢/٨).

(١٠) اليمامة: منطقة في نجد بينها وبين البحرين عشرة أيام، فتحت في حروب الردة حيث دخلها خالد بن الوليد عنده سنة ١٢ هـ (معجم البلدان: ٤٤٢/٢).

من محمد رسول الله إلى هودة بن علي.

سلام على من اتبع الهدى.

واعلم أن ديني سيظهر إلى متهى الخف والحاfer، فأسلم تسلماً، (وأجعل) ^(١) لك ما تحت يدك» ^(٢).

وكان عنده أركون ^(٣) دمشق - عظيم من عظماء النصارى - فسأله عن النبي ﷺ وقال: قد جاءني كتابه يدعوني إلى الإسلام، فقال الأركون: لم لا تجده؟ فقال: ضحت بديني وأنا ملك قومي، إن اتبعته لم (أتملك) ^(٤)، قال: بلـى، (لئن) ^(٥) اتبعته ليملكـكـكـ، وإنـ الخـيرـةـ لـكـ فـيـ اـتـبـاعـهـ، (والله) ^(٦) (إنه) ^(٧) للنبي العربي (الذـيـ) ^(٨) بـشـرـ بهـ عـيسـىـ اـبـنـ مـرـيمـ، (وـإـنـ) ^(٩) لـمـكـتـوبـ عـنـدـنـاـ فـيـ الإـنـجـيلـ ^(١٠).

[كتاب رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر]

(فصل): وذكر الواقدي أن رسول الله ﷺ بعث شجاع بن وهب ^(١١) إلى الحارث بن

(١) في ج: أجعل.

(٢) نص الكتاب ذكره ابن سعد في الطبقات: ١/١ - ١٨ ، وذكره ابن القيم في زاد المعاد: ٦٩٦/٣ وذكره ابن سيد الناس في عيون الأثر: ٣٤٢/٢ وأعلام السائلين: ص ١٠٥ ، ١٠٦ والوثائق السياسية: ص ١٥٦ ومكاتيب الرسول، أحمد حسين علي: ص ١٣٦ .

(٣) الأركون: رئيس القرية (المعجم الوسيط) ويقال: إن أركون دمشق هذا أسلم على يدي خالد بن الوليد في عهد أبي بكر (انظر: شرح المواهب اللدنية: ٣٥٦/٣).

(٤) في ج، ص: لم أملك.

(٥) في ج، ص: والله لئن.

(٦) سقطت من ج، ص.

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) سقطت من ج.

(٩) في ج: والله إنه.

(١٠) القصة في: طبقات ابن سعد ١/١ - ١٨ وفي زاد المعاد: ٦٩٦/٣ - ٦٩٧ .

(١١) شجاع بن وهب: هو أبو وهب شجاع بن وهب ويقال ابن أبي وهب بن دبيعة بن أسد بن صهيب بن مالك بن خزيمة الأسدي، ذكره ابن إسحق في السابقين الأولين وفيمن هاجر إلى الحبشة وفيمن شهد بدرًا، استشهد باليمنة (الإصابة: ٢١٦/٣ - ٢١٧).

أبي شمر^(١) وهو بغوطة دمشق، فكتب إليه بمرجعه من الحديبية:
«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر.

سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق.

فإني أدعوك (أن)^(٢) تؤمن بالله وحده لا شريك له. يبقى لك ملكك^(٣) وختم الكتاب.

فخرج (به)^(٤) شجاع بن وهب^(٥). قال: فانتهيت إلى حاجبه (فأخذته)^(٦) يومئذٍ وهو مشغول (بتهيئة الأنزال)^(٧) والألطاف لقيصر وهو جاء من حمص إلى إيليا^(٨)، حيث كشف الله عنه جنود فارس، شكرًا لله عز وجل، قال: فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه: إني (رسول)^(٩) رسول الله إليه، فقال حاجبه - وكان رومياً اسمه مري - لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا، وجعل صاحبه يسألني عن رسول الله ﷺ وما يدعيه إليه، فكنت أحدهه فيرق حتى يغلبه البكاء، ويقول: إني قرأت في الإنجيل وأجد صفة هذا النبي بعينه، فكنت أراه يخرج من الشام. فأراه قد خرج بأرض القرظ^(١٠) فأنا آؤمن به وأصدقه، وأنا أخاف من الحارث بن (أبي)^(١١) شمر أن يقتلني.

(١) الحارث بن أبي شمر: من أمراء غسان في أطراف الشام، كانت إقامته بغوطة دمشق عام فتح مكة (الأعلام: ١٥٥/٢).

(٢) في ج، ص: إلى أن.

(٣) نص الرسالة في طبقات ابن سعد: ١/١٧ - ١/١٧ وفي زاد المعاد: ٣/٦٩٧، وعيرون الأنثر: ٢/٣٤٢ والوثائق السياسية: ص ١٢٦ والسيرة الحلبية: ٣/٢٥٥ وسيرة زيني دحلان: ٣/٧٨.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) زاد في ص: إلى الحارث بن أبي شمر.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) في ج: بتهئة الأتراء.

(٨) إيليا: وهي بيت المقدس.

(٩) سقطت من ج.

(١٠) أرض القرظ: كناية عن أرض العرب، والقرظ شجر يدبغ به، وقيل: هو ما يدبغ به الأدم ومنه أديم مقووظ، قال أبو حنيفة: القرظ أجود ما يدبغ به الأذهب في أرض العرب (لسان العرب).

(١١) سقطت من الأصل.

قال شجاع: وكان هذا الحاجب يكرمني ويحسن ضيافتي ويخبرني عن الحارت ما (بالناس)^(١) منه. ويقول: هو يخاف قيسر. قال: فخرج الحارت يوماً وجلس فوضع التاج على رأسه، فأذن لي عليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقرأه وقال: من ينتزع مني ملكي؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمين جئته على الناس، فلم يزل جالساً يعرض حتى الليل وأمر بالغيل (أن تتعل)^(٢)، ثم قال: أخبر صاحبك ما ترى. وكتب إلى قيسر يخبره بخبرني، فصادف قيسر بإليها، وعنده دحية الكلبي قد بعثه إليه رسول الله ﷺ، فلما قرأ قيسر كتاب الحارت كتب إليه أن لا تسر إليه وأله عنه ووافيء بإليها، قال: ورجع الكتاب وأنا مقيم، فدعاني وقال: متى ت يريد (أن)^(٣) تخرج إلى صاحبك؟ قلت: غداً، (فأمر لي)^(٤) بمائة منقال (ذهباء)^(٥)، ووصلني (مري) الحاجب بنفقة وكسوة، وقال: اقرا على رسول الله ﷺ مني السلام، وأخبره أنني متبع دينه.

قال شجاع: فقدمت على النبي ﷺ فأخبرته فقال: باد ملكه. وأقراته من (مري) السلام وأخبرته بما قال، فقال رسول الله ﷺ: صدق^(٦).

[موقف جمهور الناس من دعوة محمد ﷺ]

(فصل): ونحن إنما ذكرنا بعض ملوك الطوائف الذين آمنوا به، وأكابر علمائهم وعظمائهم، ولا يمكننا حصر من عدتهم، وهم جمهور أهل الأرض، ولم يتختلف عن متابعته إلا الأقلون، وهم إما مسالم له قد رضي بالذلة والجزية والهوان، وإما خائف منه. فأهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلمون (له)^(٧) ومسالمون له وخائفون منه.

(١) في الأصل: بالناس.

(٢) في ص: بأن تجد، وتتعل من نعل واتتعل أي لبس النعل، وتعيلك حافر البرذون بطبق من حديد تقيء الحجارة، وخف البعير بالجلد لثلا يحفي (لسان العرب).

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في ص: فأمرني.

(٥) في الأصل: ذهب بالرفع وهو خطأ.

(٦) القصة في: طبقات ابن سعد ١٧/١ - ١٨ وعيون الأثر: ٣٤٣/٢ وأعلام السائلين: ص ١٠٣ - ١٠٤ والسيرة الحلبية: ٣٥٥/٣ - ٣٥٦ وسيرة زيني دحلان: ٧٨/٣ - ٨٠.

(٧) سقطت من ص.

[موقف علماء اليهود من دعوة محمد ﷺ]

ولو لم يسلم من اليهود (في زمانه)^(١) إلا سيدهم (على الإطلاق)^(٢) وابن سيدهم ووالهم وابن عالهم باعترافهم له بذلك وشهادتهم (وهو)^(٣) عبد الله بن سلام؛ لكن في مقابلة كل يهودي على وجه الأرض، فكيف وقد تابعه على الإسلام من الأخبار والرهبان من لا يحصي عددهم إلا الله.

[إسلام عبد الله بن سلام سيد اليهود]

ونحن نذكر قصة عبد الله بن سلام.

فروى البخاري في صحيحه من (حديث)^(٤) عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك رضي الله عنهم قال: أقبل رسول الله ﷺ إلى المدينة، (فقيل)^(٥): جاء النبي الله فاستشرفوا ينظرون، إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف^(٦) لهم منه، فجعل أن يضع الذي يخترف لهم فيها، فجاء وهي معه، فسمع من النبي الله ﷺ، ثم رجع إلى أهله. فلما خلا النبي الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك النبي الله حقاً، وأنك جئت بالحق، ولقد علمت اليهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم واسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت؛ فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت، قالوا في ما ليس في.

فأرسل النبي الله ﷺ إليهم فدخلوا عليه، فقال لهم النبي الله ﷺ: يا عشر اليهود، ويلكم: اتقوا الله، فواه الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول^(٧) حقاً، وأنني جئتكم بحق، أسلمو.

(١) في الأصل من زمانه، وسقطت من ص.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) سقطت من الأصل وج.

(٤) في ص: طريق.

(٥) في ج، ص: فقالوا.

(٦) يخترف: أي يجتني من الشمار (فتح الباري: ٢٥٢/٧) وفي الأصل يخترق بالقاف وهو خطأ.

(٧) في ج، ص: رسول الله.

فقالوا: ما نعلمه، فأعادها (عليهم)^(١) ثلاثةً وهم يجيبونه كذلك.

قال: فلأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاش الله ما كان أن يسلم! فقال (النبي ﷺ)^(٢): يا ابن سلام اخرج إليهم^(٣)، فخرج عليهم، فقال: يا معشر اليهود، ويلكم! اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ﷺ حقاً، وأنه جاء بالحق، فقالوا كذبت، فأخرجهم النبي ﷺ^(٤).

وفي صحيح البخاري أيضاً من حديث حميد عن أنس قال: سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ وهو في أرض له فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلانبي، ما أول أشرط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: أخبرني بهن جبريل آنفأ^(٥) (قال: جبريل؟) قال: نعم^(٦)، (قال)^(٧): ذلك عدو اليهود من الملائكة. (قال)^(٨): ثمقرأ هذه الآية: «من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله»^(٩).

(ثم قال)^(١٠): أما أول أشرط الساعة فنار تخرج على الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة (نزع، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل)^(١١) نزعت. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله

(١) سقطت من الأصل.

(٢) سقطت من ج، ص.

(٣) في ج، ص: عليهم.

(٤) صحيح البخاري: (كتاب ٦٣، باب ٤٥، رقم الحديث ٣٩١١).

(٥) ليست في الأصل.

(٦) ليست في صحيح البخاري.

(٧) عند البخاري: قال ابن سلام.

(٨) سقطت من الأصل.

(٩) سورة البقرة: الآية ٩٧ والأية ليست عند البخاري.

(١٠) سقطت من ج، ص.

(١١) سقطت من الأصل، ج وهي هكذا عند البخاري.

وأشهد أنك رسول الله، وأن اليهود قوم بهت وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسأله عن بيتهوني.

فجاءت اليهود إليه فقال: أي رجل فيكم عبد الله (بن سلام)^(١)? قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدهنا، قال: أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله (بن سلام)^(٢) فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

قالوا: شرّنا وابن شرّنا وانتقصوه، قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله^(٣).

وقال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر عن يحيى بن عبد الله عن رجل من آل عبد الله بن سلام قال: كان من حديث عبد الله بن سلام حين أسلم وكان (حبراً)^(٤) عالماً، قال: سمعت رسول الله ﷺ، وعرفت صفتة واسمها، وهبائه، والذي كنا نتوكل له، فكنت مسراً لذلك صامتاً عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما قدم نزل معنا في بني عمرو بن عوف، فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخل لي أعمل فيها وعمتي خالدة بنت الحارث^(٥) تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبرت فقلت لي عمتي حين سمعت تكبيري: لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زاد يعني إن فعلت -.

قال: قلت لها: (يا عمتي)^(٦) هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه بعث بما بعث به. فقالت: يا ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نبشر به أنه يبعث مع نفس الساعة^(٧)? قال: قلت لها: نعم، قالت: فذاك إذاً.

(١) سقطت في ص.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) صحيح البخاري: ٣٩٣٨/٥١/٦٣.

(٤) في ج: خيرا.

(٥) خالدة بنت الحارث، خالدة أو خلدة بنت الحارث عممة عبد الله بن سلام ذكر ابن إسحاق أنها أسلمت وحسن إسلامها (انظر: أسد الغابة: ٥/٤٣٣ دار إحياء التراث العربي، بيروت).

(٦) في ج، ص: أي عمّة.

(٧) قال السهيلي: هذا الكلام في معنى قوله عليه السلام: أني لأجد نفس الساعة بين كثفي، وفي معنى =

قال: ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا، وكتمت إسلامي من اليهود، ثم جئت رسول الله فقلت: إن اليهود قوم بهت وإنني أحب أن تدخلني (في)^(١) بعض بيتك تغبني (عنهم)^(٢) ثم تسألهم عنِّي، كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي؟ فإنِّي علموا (بإسلامي)^(٣) بهتوني وعابوني، قال: فأدخلني بعض بيته فدخلوا عليه وكلموه وسألوه، فقال لهم: وأيِّ رجل عبد الله بن سلام؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا (وخبرنا)^(٤) وعالمنا، قال: فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت (لهم)^(٥): يا معاشر اليهود اتقوا الله، واقبلوا ما جاءكم به. فوالله إنكم تعلمون أنه رسول الله، تجلدونه مكتوبًا عندكم في التوراة اسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله، وأؤمن به وأصدقه وأعرفه، قالوا: كذبت، ثم وقعوا (في)^(٦). فقلت: يا رسول الله ألم أخبرك أنَّهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور؟ قال: فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي ابنة العارث فحسن إسلامها^(٧).

وفي مسند الإمام أحمد وغيره عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة (وانجفل)^(٨) الناس قبله^(٩) فقالوا: قدم رسول الله ﷺ قال: فجئت في الناس لأنظر إلى وجهه، (فلما

= قوله: نذير لكم بين يدي عذاب شديد، ومن كان بين يدي طالبه نفس الطالب بين كفيه، وكأنَّ النفس في هذا الحديث عبارة عن الفتنة المؤذنة بقيام الساعة، وكان بدؤها حين ولِي أمته ظهره خارجًا إلى الله تعالى، فكانت بعده الفتنة ثم الهزج المتصل يوم القيمة، ونحو من هذا قوله عليه السلام: بعثت أنا والساعة كهاتين يعني الساببة والوسطى (الروض الأنف: ٢٩٥/٢).

(١) سقطت من ص.

(٢) في ص: فيه عنهم.

(٣) في ج: بذلك، وفي ص: بإسلامي بذلك.

(٤) في ص: وخبرنا.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) في الأصل بي.

(٧) السيرة النبوية، ابن هشام: ١٣٨/٢ - ١٣٩.

(٨) في ص: وانحفل بالحاء، وال الصحيح بالجيم.

وانحفل من انحفل القوم انحفلًا إذا هربوا بسرعة، وانقطعوا كلهم ومضوا. وانحفل الناس قبله أي مضوا مسرعين نحوه (لسان العرب).

(٩) في المسند : وانحفل الناس عليه وكنت فيمن انحفل.

رأيت وجهه^(١) عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته منه أن قال: «أيها^(٢) الناس أطعمو الطعام وأفشو السلام، وصلوا الأرحام وصلوا^{(بالليل)^(٣)} والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام^(٤)».

علماء القوم وأحبارهم كلهم كانوا كما قال الله تعالى : «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم^(٥)» فمنهم من آثر الدار الآخرة، ومنهم من آثر الدنيا وأطاع داعي الحسد والكفر.

وفي مغازي موسى بن عقبة^(٦) عن الزهرى قال: كان بالمدينة - مقدم رسول الله ﷺ - أوثان (يعبدوها)^(٧) رجال من أهل المدينة لا يتركونها، فأقبل عليهم قومهم وعلى تلك الأوثان فهدموها، وعمد أبو ياسر (بن) أخطب أخوه حبيبي^(٨) بن أخطب، وهو أبو صفية - زوج النبي ﷺ - فجلس إلى النبي ﷺ (يسمع)^(٩) منه، وحادثه ثم رجع إلى قومه، وذلك قبل أن تصرف القبلة نحو المسجد الحرام ، فقال أبو ياسر: يا قوم أطعوني ، فإن الله عز وجل قد جاءكم بالذي (كتتم تتظروننه)^(١٠) فاتبعوه ولا تخالفوه، فانطلق أخوه حبيبي حين سمع ذلك وهو سيد اليهود يومئذٍ، وهما من بني النضير فأتى النبي ﷺ فجلس إليه وسمع منه ، فرجع إلى قومه وكان فيهم مطاعاً فقال: أتيت من عند رجل والله لا أزال له عدواً (أبداً)^(١١) فقال له أخوه أبو ياسر: يا ابن أم أطعني في هذا الأمر، ثم اعصني فيما

(١) في المسند: فلما تبنت وجهه، وفي ب، ج، ص: فلما أن.

(٢) في ب، ج، ص: يا أيها.

(٣) سقطت من ب، ج، ص.

(٤) مستند الإمام أحمد: ٤٥١/٥.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٤٦.

(٦) موسى بن عقبة بن أبي عياش الأسدى بالولاء، أو محمد مولى آل الزبير، عالم بالسيرة النبوية، من ثقات رجال الحديث، من أهل المدينة، مولده ووفاته فيها، له كتاب المغازي ، توفي سنة ١٤١ هـ (الأعلام، الزركلي: ١٥٨/٣).

(٧) في الأصل: يعبد، وفي ص، ج: تعبدها.

(٨) في الأصل: يحبى ، وال الصحيح حبيبي بن أخطب. وهي هكذا في ب، ج، ص.

(٩) في ب، ج: فسمع، وفي ص: وعلم فسمع.

(١٠) سقطت كتم ، من ب ، وفي ج ، ص: بالذى كتم تتظرون.

(١١) سقطت من الأصل.

شئت بعده لا تهلك ، قال : لا والله لا أطيعك ، واستحوذ عليه الشيطان فاتبعه قومه على رأيه .

وذكر ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن حديثه عن صفية بنت حبيبي أنها قالت : لم يكن من ولد أبي وعمي أحد أحباب إليهما مني ، لم ألقهما في ولد قط إلا أخذاني دونه ، فلما قدم رسول الله ﷺ قباء ، نزل فيبني عمرو بن عوف (فعدا) ^(١) إليه أبي وعمي أبو ياسر بن خطيب مغلسين ^(٢) ، فوالله ما جاء إلا مع غريب الشمس ، فجاءا فاترين (كسلين) ^(٣) ساقطين يمشيان الهوينا ، فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما نظر إلى واحد منهما ، فسمعت عمي أبي ياسر يقول لأبي : أهو هو؟ قال : نعم والله ، قال : تعرفه ببنعته وصفته؟ قال : نعم والله ، قال : فماذا في نفسك منه؟ قال : عداوته والله ما بقيت ^(٤) . قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن (أبي محمد) ^(٥) مولى زيد بن ثابت عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال : لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن (سعية) ^(٦) (وأسد بن سعية) ^(٧) وأسید بن عبید ، ومن أسلم من يهود فأمّنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام ، قال من كفر من اليهود : ما آمن بمحمد ولا اتبّعه إلا شرارنا ، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره . فأنزل الله عز وجل (في ذلك) ^(٨) : ﴿لَيْسُوا سَوَاءٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَا قَاتَمَهُ يَتَلَوَنَ آيَاتُ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يَؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَسْارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ^(٩) .

**

(١) في ج : فعدا .

(٢) مغلسين : أي ساروا إليه في الغلس وهو أول النهار قبل انتهاء الظلام .

(٣) في ص : كسيلين .

(٤) السيرة النبوية ، ابن هشام : ١٦٥ / ٢ - ١٦٦ .

(٥) في ب ، ج : محمد .

(٦) في ب : شعبة ، وفي ج : شعية ، وفي الأصل ، سعيد .

(٧) سقطت من الأصل .

(٨) سقطت من الأصل .

(٩) سورة آل عمران : الآياتان ١١٣ ، ١١٤ ، وانظر سيرة ابن هشام : ١٤٧ / ٢ .

المقالة الثالثة

(فصل) : قال السائل: مشهور عندكم في الكتاب والسنّة أنّ نبيكم كان مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل لكنهم محوه عنهم لسبّ الرئاسة والمأكولة فالعقل يستشكل ذلك، (أفكلهم)^(١) اتفقوا على محو اسمه من الكتب المنزلة من ربهم شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً؟! هذا أمر يستشكله العقل أعظم من تفهمهم بالاستئتمم، لأنّه يمكن الرجوع عمما قالوا بالاستئتمم والرجوع عما محووا أبعد.

(والجواب)^(٢): أنّ هذا السؤال مبني على فهم فاسد، وهو أنّ المسلمين يعتقدون أنّ اسم النبي ﷺ الصريح وهو محمد بالعربية مذكور في التوراة والإنجيل، وهذا الكتابان المتضمنان الشريعتين، وأنّ المسلمين يعتقدون^(٣) أنّ اليهود والنصارى في جميع أقطار الأرض محووا ذلك الاسم وأسقطوه جملة (واحدة)^(٤) من (الكنائس)^(٥)، وتواصوا بذلك بعداً وقرباً وشرقاً وغرباً، وهذا لم يقله عالم من علماء المسلمين، ولا أخبر الله سبحانه وتعالى به في كتابه عنهم، ولا رسوله، ولا بكتهم به يوماً من الدهر، ولا قاله أحد من الصحابة ولا الأئمة بعدهم، ولا علماء التفسير، ولا المعتون بأخبار الأمم وتاريخهم، وإن قدر أنه قاله بعض عوام المسلمين يقصد به نصر الرسول، فقد قيل يضر الصديق الجاهل أكثر ما يضر العدو العاقل، وإنما أتى هؤلاء من قلة فهم القرآن، وظنوا أن قوله تعالى: «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة

(١) في الأصل: إذا كلهم.

(٢) في ص: والجواب عن ذلك.

(٣) سقطت من الأصل وص، ج.

(٤) سقطت من ب، ج، ص.

(٥) في ب، ج، ص: من الكتابين.

والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينههم عن المنكر^(١) دل على الاسم الخاص بالعربية في التوراة والإنجيل المخصوصين، وإن ذلك لم يوجد البة^(٢) ، فهذه ثلاث مقامات^(٣) :

(الأول)^(٤) : (أن الرب)^(٥) سبحانه إنما أخبر عن كون رسوله مكتوباً عندهم، أي الإخبار عنه وصفته ومخرجه ونعته، ولم يخبر بأن صريح (الاسم)^(٦) العربي مذكور عندهم في التوراة والإنجيل، وهذا (واقع)^(٧) في الكتابين كما سذكر ألفاظهما إن شاء الله تعالى ، وهذا أبلغ من ذكره بمجرد اسمه فإن الاشتراك قد يقع في الاسم فلا يحصل التعريف والتمييز، ولا يشاء أحد (يسمى)^(٨) بهذا الإسلام أن يدعى أنه هو إلا فعل، (إذا)^(٩) الحالة إنما وقعت على مجرد الاسم، وهذا لا يحصل به بيان ولا تعريف ولا هدى ، بخلاف ذكره بنته وصفته وعلاماته ودعوته وصفة أمته ووقت مخرجه ونحو ذلك ، فإن هذا يعينه ويميزه ويحصر نوعه في شخصه ، وهذا القدر مذكور في التوراة والإنجيل وغيرها من النبوات ، التي بآيدي أهل الكتاب كما سذكرها ، ويدل عليه وجوه^(١٠) :

الوجه الأول: أن رسول الله ﷺ كان أحقر الناس على تصديقه واتباعه وإقامة الحجة على من خالفه وجحد نبوته، ولا سيما أهل العلم والكتاب، فإن الاستدلال عليهم

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

(٢) آيات التوراة ذكرت أوصاف رسول الله ﷺ وأوصاف أمته كما في سفر الشنتية: ص ١٨ (وأجعل كلامي في فمه) إشارة إلى كونه أمياً . وكذلك في قوله «فليتيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إنحنيتك مثلثي ... إلخ». أما في الإنجليل فقد ورد اسمه عليه السلام صريحاً، ولا زال في إنجليل بربناها في مواضع متعددة، أما في الأنجليل الأخرى فقد حذف اسمه بالتحريف، وبقيت أوصافه في ثانياً الأنجليل المحرفة، كالفارقليط.

(٣) لم يذكر المؤلف غير مقام واحد.

(٤) في ب، ج: المقام الأول وفي ص: أما المقام الأول.

(٥) في ب، ج، ص: فالرب.

(٦) في ب، ج، ص: اسمه.

(٧) في الأصل: وقع.

(٨) في الأصل: تسمى.

(٩) في ب، ج: ان.

(١٠) لم يذكر المؤلف إلا الوجه الأول.

بما يعلمون بطلانه قطعاً لا يفعله عاقل، وهو بمنزلة من يقول لرجل: علامة صدقي أنك فلان بن فلان (وصفتكم)^(١) كيت وكيت، وتعرف (كيت)^(٢) وكيت، ولم يكن الأمر كذلك بل بضده، فهذا لا يصدر من له مسكة عقل ولا يصدقه أحد على ذلك ولا يتبعه (أحد)^(٣)، بل ينفر العقلاة كلهم عن تصديقه واتباعه، والعادة تحيل سكوتهم عن الطعن عليه والرد والتهجين لقوله.

ومن المعلوم بالضرورة أن محمداً بن عبد الله صلوات الله عليه وسلامه (وزاده الله شرفاً وصلاه وسلاماً)^(٤) نادى معلناً في هاتين الأمتين اللتين هما أعلم الأمم في الأرض قبل مبعثه بأن ذكره ونعته وصفته بعينه عندهم في كتبهم، وهو يتلو عليهم ذلك ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً في كل مجمع، وكل ناد، يدعوه (لذلك)^(٥) (يعني)^(٦) إلى تصديقه والإيمان به، فمنهم من يصدقه ويؤمن به، ويخبر بما في كتبهم من نعته وصفته وذكره، كما سيمر بك إن شاء الله تعالى .

وغایة المكذب الجاحد أن يقول هذا (الوصف)^(٧) حق، ولكن لست أنت المراد به بلنبيّ آخر، وهذا غایة ما يمكنه من المكابرة، ولم (تجن)^(٨) عنه هذه المكابرة (إلا كشف)^(٩) عورته وإبداء الفضيحة بالكذب والبهتان. فإن الصفات والنعوت والعلماء المذكورة عندهم منطبقه عليه حذو القذة بالقذة^(١٠)، بحيث لا يشك من عرفها ورأه أنه هو

(١) في ب، ج، ص: وصيتك.

(٢) في ب، ج: بكيت.

(٣) في ب، ج: أحد على ذلك.

(٤) لم ترد في بقية النسخ.

(٥) في ب، ج، ص: بذلك.

(٦) في الأصل فقط.

(٧) في ص: النعت، وفي ب، ج: النعت والوصف.

(٨) في ب، ص: تجد.

(٩) في ب، ج، ص: إلا كشمه.

(١٠) حذو القذة بالقذة: من حذا النعل حذوا قدرها وقطعها وحذوت النعل بالنعل والقذة بالنعل: قدرتهمما عليهما (السان العرب).

كما عرفه (سلمان وكما عرفه هرقل)^(١) بتلك العلامات المذكورة التي سأله عنها أبا سفيان وطابت ما عنده، فقال: إن يكن ما تقوله حقاً فإنه نبي وسيملك ما تحت قدمي هاتين.

وكذلك من قدمنا ذكرهم من الأخبار والرهبان الذين عرفوه بنته وصفته كما يعرفون أبناءهم، (قال تعالى)^(٢): ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنْ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لِيَكْتُمُوا الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٣).

وقال في موضع آخر: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسَرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٤).

ومعلوم أن هذه المعرفة إنما هي بالنت وصفة المكتوبة عندهم التي هي منطبق علىه كما قال بعض المؤمنين منهم: والله لأحدنا أعرف به من ابنه، إن أحدنا ليخرج من عند امرأته وما (يدري)^(٥) (ما يحدث بعده)^(٦).

ولهذا أثني سبحانه وتعالي على من عرف الحق منهم ولم يستكبر عن اتباعه فقال: ﴿لَتَجِدُنَّ أَشَدَ النَّاسَ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا بِالْيَهُودِ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدُنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوْدَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا: إِنَا نَصَارَى، ذَلِكَ بَأْنَ مِنْهُمْ قَسِيسِينَ وَرَهْبَانًا، وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ، وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيَ الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ، يَقُولُونَ رَبِّنَا أَمْنَا فَاكِتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ، وَنَطَّمْعُ أَنْ يَدْخُلَنَا رَبِّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ. فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(٧).

(١) في ب، ج: قيسرو سلمان وفي ص: سلمان بتلك العلامات التي كانت عنده من بعض علاماته وكذلك هرقل عرفه بنبوته بما وصف له.

(٢) في ص: كما قال الله تعالى.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٦.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٢٠.

(٥) في الأصل: ندرى.

(٦) من القائلين بذلك عبد الله بن سلام، فقد روي أن عمر سأله: أتعرف محمداً كمَا تعرف ابنك؟ فقال: نعم وأكثر؛ بعث الله أمه في سمائه إلى أمه في أرضه فعرفته وابني لا أدرى ما كان من أمه (انظر: تفسير القرطبي: ٢/١٦٣).

(٧) سورة المائدة: الآيات ٨٢ - ٨٦.

قال ابن عباس: لما حضر أصحاب النبي ﷺ بين يدي النجاشي وقرأوا القرآن سمع ذلك القسيسون والرهبان، فانحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق، فقال الله تعالى: «ذلك بأنّ منهم قسيسين ورهباناً وأنّهم لا يستكرون»^(١). وقال سعيد بن جبير: بعث النجاشي من خيار أصحابه ثمانين رجلاً إلى رسول الله ﷺ، فقرأ عليهم القرآن فبكوا ورقو، وقالوا نعرف والله (أنه الحق)^(٢)، فأسلموا وذهبوا إلى النجاشي فأخبروه فأسلم، فأنزل الله تعالى فيهم: «وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول» الآيات^(٣). وقال السدي: (كانوا)^(٤) اثنى عشر رجلاً سبعة من القسيسين وخمسة من الرهبان فلما قرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن بكوا وقالوا: [ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين]^(٥).

قال ابن عباس: هم محمد وأمه وهم القوم الصالحون الذين طمعوا أن يدخلهم الله فيهم^(٦)، والمقصود أن هؤلاء عرّفوا أنه رسول الله (بالنعت)^(٧) الذي عندهم، فلم يملّكوا أعينهم من البكاء، وقلوبهم من المبادرة إلى الإيمان، ونظير هذا قوله سبحانه وتعالى: «قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً»^(٨)! لأن الله عز وجل خشوعاً^(٩).

قال إمام (أهل)^(٩) التفسير مجاهد رحمه الله: هم قوم من أهل الكتاب لما سمعوا القرآن خروا سجداً، وقالوا سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً^(١٠)! لأن الله عز وجل

(١) هذا جزء من قصة طويلة عن المهاجرين إلى الحبشة و موقفهم مع النجاشي أوردها الإمام الطبرى في تفسيره عن ابن عباس: ١٠ / ٥٠٠.

(٢) سقطت من ب، ج، ص.

(٣) انظر: تفسير الطبرى: ١٠ / ٤٩٩ - ٥٠٥.

(٤) في ج: كان.

(٥) انظر: تفسير الطبرى: ١٠ / ٥٠١ - ٥٠٠ (تحقيق أحمد شاكر).

(٦) المرجع السابق: ١٠ / ٥٠٩.

(٧) في الأصل: بالنعت والصفة.

(٨) سورة الإسراء: الآيات ١٠٧ - ١٠٩.

(٩) سقطت من ب، ج، ص.

(١٠) تفسير الطبرى: ١٥ / ١٢٠ الطبعة الأولى ١٩٢٨.

وعد على ألسنة أنبيائه ورسله أن يبعث في آخر الزمان نبياً عظيم الشأن، يظهر دينه على الدين كله، وينشر دعوته في أقطار الأرض وعلى رأس أمته تقوم الساعة.

وأهل الكتاب^(١) مجتمعون على أن الله وعدهم بهذا النبي ، فالسعداء منهم عرروا الحق فآمنوا به واتبعوه، والأشقياء قالوا: نحن ننتظره، ولم يبعث بعد رسولاً، (وأولئك)^(٢) لما سمعوا القرآن من (الرسـل)^(٣) عرفوه أنه (الرسـل)^(٤) الموعود، فخرروا سجداً لله إيماناً به وبرسوله ، وتصديقاً بوعده الذي أنجزه فرأوه عياناً فقالوا: سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمعولاً .

[كتاب رسول الله ﷺ إلى أهل نجران وفدتهم إلى رسول الله في المدينة]

وذكر يونس بن بكر^(٥) عن سلمة بن عبد يسوع^(٦) عن أبيه عن جده قال يونس – وكان نصرانياً فأسلم –: إن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران «باسم الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب» (من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران (سلم أنتم) إني أحمد إليكم الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب)^(٧) أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولایة الله من ولایة العباد فإن أبيتم فالجزية، فإن

(١) في ب، ج، ص: الكتابين.

(٢) سقطت من ب، ج، ص.

(٣) في ج: الرسل.

(٤) في ب، ج: النبي.

(٥) يونس بن بكر بن واصل الشيباني أبو بكر الجمال الكوفي الحافظ، روى عن ابن إسحق وغيره. قال ابن معين: ثقة، وقال الدوري عن ابن معين: كان صادقاً. مات سنة تسع وتسعين ومائة (تهذيب التهذيب: ١١ / ٤٣٦).

(٦) سلمة بن عبد يسوع: لم أجده له ترجمة، ووُجدت قول الأرناؤوط في تحقيق زاد المعاد – في تعليله على هذه القصة –: سنه ضعيف لجهالة سلمة بن يسوع مما فوقه، فلم نقف لهم على ترجمة. هامش زاد المعاد: ٦٣٧/٣.

(٧) سقطت من زاد المعاد، ومن الوثائق السياسية.

أيitem فقد آذنتكم بحرب، والسلام^(١).

فلما أتى الأسقف الكتاب وقرأه، قطع به (وذعر منه)^(٢) ذرعاً شديداً بعث إلى رجل من أهل عمان يقال له «شرحبيل بن وداعة» وكان من همدان^(٣)، ولم يكن أحد يدعى إلى معضلة قبله، فدفع الأسقف كتاب رسول الله ﷺ إلى شرحبيل فقرأه، فقال الأسقف: ما رأيك يا أبا مريم؟

فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما (نؤمن)^(٤) أن يكون هذا هو ذاك الرجل؟ (ليس)^(٥) في النبوة رأي، لو كان أمر من الدنيا أشرت عليك فيه برأي وجهدت لك.

(قال)^(٦): نتح فاجلس، (فتحي)^(٧) فجلس (ناحية)^(٨)، بعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال له (عبد الله بن شرحبيل) وهو فتى ذي أصبح من حمير، (فقرأه الكتاب وسأله عن الرأي، فقال مثل قول شرحبيل فقال له الأسقف: نتح فاجلس، فجلس ناحية. بعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال له)^(٩) (جبار بن فيض) من بني الحارث بن كعب^(١٠) فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه، فقال مثل قول شرحبيل

(١) نص الكتاب ورد في زاد المعاد: ٦٣١/٣، وفي البداية والنهاية: ٥٣/٥ وفي الوثائق السياسية: ص ١٧٤ ، ومكاتيب الرسول: ص ١٧٥ .

(٢) في ب، ج، ص: وذعره.

(٣) همدان: مدينة من عراق العجم من كور الجبل، فتحها بديل بن عبد الله بن ورقاء سنة ثلاثة وعشرين، ونزل التتار على همدان سنة ثمان عشرة وستمائة فلم يزل أهلها يقاتلونهم حتى فنيت الأقوات فضعفتوا (الروض المعطار الحميري: ص ٥٩٦).

(٤) في الأصل يؤمن.

(٥) في ب، ج، ص: ليس لي.

(٦) في ب، ج، ص: فقال الأسقف.

(٧) في ج: فتحي شرحبيل.

(٨) في الأصل: ناحيته.

(٩) سقطت من ب، ص والأصل.

(١٠) الحارث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يوسف بن قحطان (انظر: الأنساب للسمعاني: ١٣/٤).

وعبد الله، فأمره الأسقف (فتحي ناحية)، فلما أجمع الرأي منهم على تلك المقالة – جمِيعاً –، أمر الأسقف^(١) بالناقوس فضرب به، ورفعت (السروح)^(٢) بالصومع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار، وإذا كان فزعهم بالليل^(٣) ضرب بالناقوس (رفعت)^(٤) النيران في الصوامع فاجتمع أهل الوادي وأسفلها، وطوله مسيرة يوم للراكب السريع، وفيه ثلات وسبعون قرية وعشرون ومائة ألف مقاتل، فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، وسألهم عن الرأي فيه، فاجتمع رأي أهل الرأي (أن)^(٥) يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمذاني، وعبد الله بن شرحبيل، وجبار بن فيض، (فيأتوا)^(٦) بخبر رسول الله ﷺ.

فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة، وضعوا ثياب السفر (عنهم)^(٧)، ولبسوا حللاً لهم يجرونها من حبرة وخواتيم الذهب، ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ، فسلموا عليه فلم يرد عليهم السلام، وتصدوا لكلامه نهاراً طويلاً، فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل والخواتيم الذهب، فانطلقوا (يتبعون)^(٨) عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وكانا معرفة لهم، كانوا يبعثان العبر إلى نجران في الجاهلية، فيشتري لهم ما من براها وثمرها، فوجدهما في ناس من المهاجرين والأنصار في مجلس، فقالوا: يا عثمان ويا عبد الرحمن إن نبيكم كتب إلينا بكتاب، فأقبلنا مجيبين له، فأتيناه فسلمنا عليه فلم يرد سلامنا، فتصدينا لكلامه نهاراً طويلاً فأعياناً أن يكلمنا، مما الرأي منكم؟ أنعود أم نرجع (إليه)^(٩).

فقالا لعلي بن أبي طالب – وهو في القوم –: ما ترى يا أبو الحسن في هؤلاء القوم؟

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ب، ص: السرج.

(٣) في ب: فروعهم ليلاً، وفي ج، ص: فزعهم ليلاً.

(٤) في ج: ورفعوا.

(٥) في ب، ج، ص: منهم على أن.

(٦) في ب، ص: فيأتونه.

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) في ص: يتبعون.

(٩) سقطت من الأصل.

فقال علي رضي الله عنه لعثمان وعبد الرحمن رضي الله عنهم: أرى أن يضعوا
حللهم هذه وحواتيهم ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يعودون إليه.

ففعل وفد نجران ذلك، ووضعوا حللهم وحواتيهم، ثم عادوا إلى رسول الله ﷺ
(سلموا فرد)^(١) سلامهم، ثم قال: والذي بعثني بالحق (نبياً)^(٢) لقد أتوني في المرة
الأولى وإن إبليس لمعهم. ثم سألهم وسألوه فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا له:
ما تقول في عيسى؟ فإننا نحب أن نعلم ما تقول فيه، فأنزل الله عز وجل: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى
عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلَ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تِرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ
الْمُمْتَرِينَ. فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ: تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ
وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِ فَنَجْعَلُ لِعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ»^(٣).

فأبوا أن (يقرروا)^(٤) بذلك، فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعدما أخبرهم الخبر أقبل
مشتملاً على الحسن والحسين في خميل^(٥) له وفاطمة تمشي عند ظهره إلى الملاعنة، وله
يومئذٍ عدة (نسوة)^(٦) فقال شرحبيل لصاحبيه: يا عبد الله بن شرحبيل ويا جبار بن فيض (قد
علمتما)^(٧) أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأيي،
(وإن)^(٨) والله أرى أمراً مقبلاً، والله لئن كان هذا الرجل ملكاً مبعوثاً (فكان)^(٩) أول العرب
طعنًا في عينه ورداً عليه أمره، لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور قومه حتى (يصيغنا)^(١٠)
(بجائحة)^(١١)، وإنما لأدنى العرب منهم جواراً، ولئن كان هذا الرجلنبياً مرسلًا فلاعناه

(١) في ب، ص: سلموا عليه فرد عليهم.

(٢) سقطت من ب، ج، ص.

(٣) سورة آل عمران: الآيات ٥٩ - ٦١.

(٤) في ب، ص: يقولوا.

(٥) الخميل: الشياب المخملة (لسان العرب).

(٦) في الأصل: سنون.

(٧) في ب، ص: لقد علمنا.

(٨) سقطت من الأصل.

(٩) في الأصل: لكننا.

(١٠) في ب، ص: يصيغنا وفي الأصل، ج: بصيغنا.

(١١) في الأصل: بتحاجة.

لا يبقى على وجه الأرض منا شرة ولا ظفر إلا هلك، فقال له أصحابه: فما الرأي يا أبا مريم؟ فقد وضعتك الأمور على ذراع^(١)، فهات رأيك، فقال: رأيي أن أحكمه، فلاني أرى الرجل لا يحكم شططاً أبداً، فقلال له: أنت وذاك. فلقي شرحبيل رسول الله ﷺ فقال: (إني رأيت)^(٢) خيراً من ملاعنتك، فقال: وما هو؟ قال شرحبيل: حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح، فمهما حكمت فيما فهو جائز، فقال رسول الله ﷺ: لعل وراءك أحد يشرب عليك^(٣)؟ فقال له شرحبيل: سل صاحبيّ، فسألهما، فقلال: ما ترد الموارد (ولا تصدر)^(٤) إلا عن رأي شرحبيل، فرجع رسول الله ﷺ ولم يلاعنهم، حتى إذا كان الغد أتوه فكتب لهم كتاب صلح ومواعدة فقبضوا كتابهم وانصرفوا إلى نجران، فتلقاهم الأسقف، ووجوه نجران على مسير ليلة من نجران، ومع الأسقف أخ له من أمه، وهو ابن عمه من^(٥) النسب، يقال له أبو علقمة، فدفع الوفد كتاب رسول الله ﷺ إلى الأسقف، فبينا هو يقرأه وأبو علقمة (معه)^(٦) وهما يسيران إذ كتب بأبي علقمة ناقته، فتعس، غير أنه لا يكفي عن رسول الله ﷺ، فقال له الأسقف (عند ذلك)^(٧): قد والله تعستنبياً مرسلاً. فقال له أبو علقمة: لا جرم والله لا أحل عنها عقداً حتى آتيه، فضرب وجه ناقته نحو المدينة، وثنى الأسقف ناقته عليه فقال له: افهموني، إنما قلت هذا ليبلغ عنني العرب مخافة أن يروا أنا (أخذنا حمقة)^(٨)، أو نجعنا لهذا الرجل بما لم ينفع به العرب ونحن أعزهم وأجمعهم داراً. فقال له أبو علقمة: والله (لا أقبلك بعد)^(٩) ما خرج من رأسك أبداً، ثم ضرب ناقته وهو يقول:

(١) وضعتك الأمور على ذراع، الذراع: من ذرع الثوب وغيره يذرعه ذرعاً إذا قدره بالذراع (لسان العرب) والمعنى هنا أن الأمور وضعتك في موقع التقدير للموقف وقياسه وإعطاء الحكم فيه.

(٢) في ب، ج، ص: أني قد رأيت.

(٣) ثرب عليه: لامه وغيره بذنبه وذكره به (لسان العرب).

(٤) في ب، ص: ولا تصدر المصادر.

(٥) في ص: علم له في.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) في ب، ج، ص: أخذنا جمعه، وفي الأصل: حمته.

(٩) في ج: لأنكلاك، هو خطأ لغة ومعنى.

إليك تعود قلقاً وضيئها معرضاً في بطنها جنئها
مخالفاً دين النصارى دينها^(١)

حتى أتى النبي ﷺ فلم يزل معه (ثم استشهد بعد ذلك)^(٢).

الأدلة على ذكر الكتب السابقة لنبوة محمد ﷺ

وإذا عرف هذا، (فالعلم)^(٣) بأنه ﷺ مذكور في الكتب المقدسة يعرف من وجوه متعددة:

أحدها: إخبار من قد ثبتت نبوته قطعاً بأنه مذكور عندهم في كتبهم، فقد أخبر به من قام الدليل القطعي على صدقه فيجب تصديقه فيه. إذ تكذبه والحاله هذه ممتنع لذاته، هذا لولم يعلم ذلك إلا من مجرد خبره، فكيف إذا تطابقت الأدلة على صحة ما أخبر به.

الثاني^(٤): أنه جعل الإخبار به من أعظم أدلة صدقه وصفة نبوته، وهذا (يستحيل)^(٥) أن يصدر إلا من واثق كل الوثوق بذلك وأنه على يقين جازم به.

الثالث: أن المؤمنين به من الأخبار والرهبان الذين آثروا الحق على الباطل، صدقواه في ذلك وشهادوا له بما قال.

(١) معنى الشعر: الوسين، بستان منسوج بعضه على بعض يشد به الرحل على البعير، وفي حديث علي : «إنك لقلت الوسين» أراد أنه سريع الحركة يصفه بالخففة وقلة الشياب، وذكر الطبراني أنه عليه السلام أفاد من عرفات وهو يقول: إليك تعود قلقاً وضيئها. وأنشدها ابن عمر لما اندفع من جمع، أراد: أنها قد هزلت ودققت للسير عليها (انظر: لسان العرب. وانظر: النهاية في غريب الحديث: ١٩٩/٥).

(٢) في ج: حتى استشهد. وقصة وفـد نجران هذه ذكرها البيهقي في دلائل النبوة: ص ٢ ووردت في زاد المعاد: ٦٣٩ - ٦٣١/٣، كما ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية: ٥٣/٥ - ٥٦ وفي التفسير: ٣٦٩ - ٣٧٠، وقد أسنـد ابن كثير الرواية إلى البيهـقي وقال: وقد روـي البيـهـقي في دلـائل النـبـوـة قـصـة نـجـرـانـ مـطـلـوـة جـداـ، ولـذـكـرـهـ فإـنـ فـوـائـدـ كـثـيـرـةـ وـفـيـ غـرـابـةـ، وـفـيـ مـنـاسـبـةـ لـهـذـاـ المـقـامـ.

(٣) في ب، ص: فاعـلمـ.

(٤) في ج، ص، ب: الوجه الثاني.

(٥) في ج: مستـحـيلـ.

الرابع: أن المكذبين الجاحدين لنبوته لم يمكنهم إنكار البشارة والإخبار (بنبوته وأنه) ^(١)نبي عظيم الشأن، صفتة كذا وكذا (ونعته كذا وكذا) ^(٢)، وصفة أمنته ومحرجه (ومنشئه) ^(٣) شأنه، (لكتنهم) ^(٤)جحدوا (أنه هو) ^(٥)الذي وقعت به (البشارة) ^(٦)، وأنهنبي آخر غيره، وعلموا هم والمؤمنون به من قومهم أنهم ركبوا (متن) ^(٧)المكابرة وامتطوا غارب البهت.

الخامس: أن كثيراً منهم صرّح لخاسته وبطانته بأنه هو بعينه وأنه عازم على عداوته ما بقي كما تقدم.

ال السادس: أن إخبار النبي ﷺ بأنه مذكور في كتبهم هو فرد من أفراد إخباراته بما عندهم في كتبهم من شأن أنبيائهم وقومهم، وما جرى لهم، وقصص الأنبياء المتقدمين وأممهم، وشأن المبدأ والمعاد، وغير ذلك مما أخبرت به الأنبياء، وكل ذلك مما يعلمون صدقه فيه ومطابقته لما عندهم، وتلك الأخبار أكثر من أن تحصى . ولم يكذبوا يوماً واحداً في شيء منها وكانتوا أحقرن شيء على أن يظفروا منه بكذبة واحدة أو غلطة أو سهو فينادون (بها عليه) ^(٨) (ويجدون) ^(٩) بها السبيل إلى تنفير الناس عنه، فلم يقل أحد (منهم) ^(١٠) يوماً من الدهر (ولم يظفروا) ^(١١) يقول أنه أخبر بكلها وكذا أنه في كتابنا وهو كاذب فيه ، بل كانوا يصدقونه في ذلك ، وهم مصررون على عدم اتباعه ، وهذا من أعظم

(١) في ب، ج، ص: بنبوة.

(٢) زيادة في ج فقط.

(٣) زيادة في الأصل فقط.

(٤) ب، ج، ص: لكن.

(٥) في ب، ج، ص: أن يكون هو.

(٦) في ج: البشائر.

(٧) سقطت من ب.

(٨) في ج: بها بيان عليه.

(٩) في الأصل: ويختذلون.

(١٠) سقطت من ب.

(١١) سقطت من ب، ج، ص.

(الأدلة)^(١) على صدقه فيما أخبر به لولم (يكن)^(٢) يعلم (إلا)^(٣) بمجرد خبره.

السابع: أنه أخبر بهذا لأعدائه من المشركين الذين لا كتاب (لهم)^(٤) وأخبر به لأعدائه من أهل الكتاب (وأخبر به لأتباعه)^(٥) فلو كان هذا باطلاً لا صحة له لكن ذلك تسلি�طاً للمشركين أن يسألوا أهل الكتاب، فينكرون ذلك، وتسلি�طاً لأهل الكتاب على الأفكار، وتسلি�طاً لأتباعه على الرجوع عنه والتکذيب له بعد تصديقه، وذلك ينقض الغرض المقصود بإخباره من كل وجه، وهو بمنزلة رجل يخبر بما يشهد بکذبه، و يجعل إخباره دليلاً على صدقه (ويجعل إخباره تصديقاً)^(٦)، وهذا لا يصدر من عاقل ولا مجنون. فهذه الوجوه يعلم بها صدق ما أخبر به، وإن لم يعلم وجوده (من غير جهة)^(٧) إخباره، فكيف وقد علم وجود ما أخبر به.

الثامن: أنه إن قدر أنهم لم يعلموا بشارة الأنبياء به، وإخبارهم (بنعته)^(٨) وصفته، لم يلزم أن لا يكونوا ذكره وأخبروا به ويشروا بنبوته، إذ ليس كل ما قاله الأنبياء المتقدمون وصل إلى المتأخرین وأحاطوا به علماً، وهذا مما يعلم بالاضطراد، فكم من قول قد قاله موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ولا علم لليهود والنصارى به، فإذا أخبر به من قام الدليل القطعي على صدقه لم يكن جهله به موجباً لرده وتکذيبه.

التاسع: أنه يمكن أن (يكون)^(٩) في (نسخ غير هذه النسخ التي بأيديهم)^(١٠) فأزيل من بعضها، ونسخت هذه مما أزيل منه. قولهما إن نسخ التوراة متفقة في شرق الأرض

(١) في ب: الدلالة.

(٢) سقطت من ص، ب، ج.

(٣) سقطت من ص.

(٤) في ب، ج، ص: عندهم.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) سقطت من ج، والأصل.

(٧) في الأصل ص: من جهة.

(٨) في الأصل: بيعنته.

(٩) سقطت من ب، ص.

(١٠) من ذلك مثلاً إنجيل برنابا الذي يصرح باسم محمد ﷺ في كثير من نصوصه.

وغربها كذب ظاهر. فهذه التوراة التي بأيدي النصارى^(١)، تحالف التوراة التي بأيدي اليهود، والتي بأيدي السامرة تحالف هذه وهذه. (وهذه)^(٢) نسخ الإنجيل يخالف بعضها بعضاً، ويناقضه، فدعواهم أن نسخ التوراة والإنجيل متفقة شرقاً وغرباً من البهت والكذب الذي يرجونه على أشباه الأنعام، حتى أن هذه التوراة التي بأيدي اليهود فيها من الزيادة والتحريف والنقصان مما لا يخفى على الراسخين في العلم، وهم يعلمون قطعاً أن ذلك ليس في التوراة التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على موسى عليه الصلاة والسلام، (وذلك مثل قولهم في حكاية نزول الألواح، وكيف رمى بها موسى عليه الصلاة والسلام^(٣) وقصة وفاة موسى^(٤)).

ونفس الألواح كانت هي التوراة. ووفاة موسى إنما حدثت بعد نزول التوراة بستين عديدة.

ومنها حكاية عن موسى أنه نسخ ما في الألواح بخطه^(٥))^(٦) ولا في الإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه الصلاة والسلام.

وكيف يكون في الإنجيل الذي أنزل على المسيح قصة صلبه، وما جرى له، وأنه كذا وكذا وصلب يوم كذا وكذا، (وصلب ودفن وقام)^(٧) من القبر بعد ثلاث وغير ذلك مما هو من كلام شيخ النصارى. وغايتها أن يكون من كلام الحواريين خلطوه بالإنجيل

(١) التوراة التي بأيدي النصارى التي يطلقون عليها (العهد القديم) هي التوراة اليونانية السبعينية.

(٢) سقطت من ب، وفي ج: وكذا.

(٣) حكاية نزول الألواح وإلقاء موسى لها وكسرها غاضباً لأنه وجد قومه يعبدون العجل، أشار إليها سفر الخروج: ١٩/٣٢.

(٤) وفاة موسى ذكرت في سفر التثنية: فمات هناك موسى في أرض موآب حسب قول الرب ودفنه في الجواء في أرض موآب ولم يعرف أحد قبره إلى الآن. (التثنية: ٥/٦ - ٢٤).

(٥) بعد حكاية إلقاء الألواح وكسرها يذكر سفر الخروج أن الله تعالى أمر موسى أن ينحت لوحين من الحجر ليكتب الله عليهما الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين (الخروج: ١/٢٤) وفعل موسى ما أمره ربها وصعد إلى جبل سيناء فنزل الرب وكلمه بالوصايا، وقال الرب لموسى: اكتب لنفسك هذه الكلمات، فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر (الخروج: ٢٨/٣٤).

(٦) سقطت من ب، ج، ص.

(٧) في ب، ج، ص: وأنه قام.

وسموا الجميع إنجيلاً، ولذلك كانت الأنجليل عندهم أربعة يخالف بعضها بعضًا^(١).

ومن بهتهم وكذبهم قولهم: إن التوراة التي بأيديهم وأيدي اليهود والسامرة سواء.

والنصارى لا يقرؤن أن الإنجيل منزل من عند الله على المسيح، وأنه كلام الله، بل كل فرقهم مجتمعون على أنها أربعة (أنجليل)^(٢) تواريخ ألفها أربعة رجال معروفون في أزمان مختلفة، ولا يعرفون الإنجيل على غير هذا.

إنجيل ألفه (متى)^(٣) تلميذ المسيح بعد (سبع)^(٤) سنين من رفع المسيح، وكتبه بالعبرانية في بلد (يهودا)^(٥) بالشام.

وإنجيل ألفه (مرقس)^(٦) الهاروني تلميذ شمعون^(٧) بعد ثلاث وعشرين سنة من رفع المسيح، وكتبه باليونانية في بلد أنطاكية^(٨) من بلاد الروم ويقولون إن شمعون المذكور هو ألفه، ثم محى اسمه من أوله ونسب إلى تلميذه مرقس.

(١) والتناقضات بين نصوص الأنجليل كثيرة جداً وقد أثبتت ذلك جيداً الدكتور موريس بوكاي في كتابه «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم»: من ص ٩٤ - ١٠٦.

(٢) سقطت من ب، ج، ص.

(٣) متى: أحد الاثنين عشر رسولاً وكاتب الإنجيل الأول، وكان في الأصل جائياً في كفر ناحوم انظر: قاموس الكتاب المقدس : ٨٣٢/٢.

(٤) في ب، ص: تسع.

(٥) يهودا يعني منطقة القدس والخليل في فلسطين.

(٦) مرقس: ينسب إليه الإنجيل المعروف ولد في القدس يرجح أنه اتبع المسيح بواسطة بطرس ورافق بولس ويرنابا في الرحلة التبشيرية الأولى، وهو مترجم لبطرس (قاموس الكتاب المقدس: ٨٥٣/٢).

(٧) شمعون: أي سمعان، وهو بطرس، كما سماه المسيح ومعناه: الصخرة، ويرجح أن بطرس كان تلميذاً ليوحنا المعمدان قبل مجئه إلى المسيح. (قاموس الكتاب المقدس: ١٧٤/١).

(٨) أنطاكية: قصبة العواصم من الشعور الشامية بينها وبين حلب يوم وليلة، فتحها أبو عبيدة بن الجراح، وصالح أهلها على الجزية أو الجلاء، ثم نقضوا العهد ففتحها عياض بن غنم (معجم البلدان: ٢٦٦/١).

وإنجيل ألهه^(١) (لوقا)^(٢) الطبيب الأنطاكى تلميذ شمعون بعد تأليف مرقس.

وإنجيل ألهه (يوحنا)^(٣) تلميذ المسيح (بعد رفعه)^(٤) ببضع وستين سنة كتبه باليونانية.

وكل واحد من هذه الأربعة يسمونه الإنجيل، وبينها من التفاوت والزيادة والنقصان ما يعلمه الواقف عليها، وبين توراة السامرة واليهود والنصارى من ذلك ما يعلمه (الواقف عليها)^(٥).

فدعوى الكاذب الباحث أن نسخ التوراة والإنجيل متفقة شرقاً وغرباً بعدها وقرباً من أعظم الفرية والكذب. وقد ذكر غير واحد من علماء الإسلام ما بينها من التفاوت والزيادة والنقصان والتناقض لمن أراد الوقوف عليها. ولولا الإطالة وقصد ما هو أهم لذكرنا منه طرفاً كبيراً^(٦).

[وسائل التحرير عند أهل الكتاب]

وقد وبخهم الله تعالى سبحانه وجل شأنه، وبكتهم على لسان رسوله بالتحرير والكمان والإخفاء فقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابَ لَمْ تُلْبِسُواْنَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْنَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٧).

(١) سقطت من ب، ج.

(٢) لوقا: ينسب إليه الإنجيل المعروف، وهو صديق بولس، وقد وصفه بالطبيب الحبيب، ولد في أنطاكية وهو ليس من اليهود (قاموس الكتاب المقدس: ٨٢٢/٢).

(٣) يوحنا: هو ابن زبدي من بيت صيدا في الجليل، وكان أحد الرسل الثلاثة الذين اصطفاهم المسيح ليكونوا رفقاء الخصوصيين، ويشك في نسبة الإنجيل المنسوب إليه (قاموس الكتاب المقدس: ١١٠٨/٢).

(٤) سقطت من ب، ص، وفي ج: بعد ما رفع.

(٥) في ب، ج، ص: من وقف عليها.

(٦) من هؤلاء العلماء: القرطبي في كتابه: الإعلام في بيان ما في دين النصارى من البدع والأوهام، وأبن تيمية في كتابه الجواب الصحيح، والتسبيل، وأبو حامد الغزالى في كتابه الرد الجميل، والقرافى في كتابه الأجوبة الفاخرة، والخزرجي في مقام الصلبان، وغيرهم كثير.

(٧) سورة آل عمران: الآية ٧١.

وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ الْلَاعُنُونَ﴾^(١).

وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثُمَّاً قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بطْوَنِهِمْ إِلَّا النَّارُ وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَزَكِّيهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢).

وقال تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يَبْيَنُ لَكُمْ كَثِيرًا مَا كُتِّمَ تَخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوُنَّ عَنْ كَثِيرٍ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مِبْيَنٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مِنْ أَتَّبَعَ رَضْوَانَهُ سُبُّ الْسَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣).

[طرق التحريف عند أهل الكتاب]

وأما التحريف فقد أخبر الله سبحانه وتعالي عنده في مواضع متعددة، وكذلك لي اللسان بالكتاب ليحسبه السامع منه وما هو منه. فهذه خمسة أمور:

- * أحدها: لبس الحق بالباطل، وهو خلطه به بحيث لا يتميز الحق من الباطل.
- * الثاني: كتمان الحق.
- * الثالث: إخفاؤه وهو قريب من كتمانه.
- * الرابع: تحريف الكلم عن مواضعه، وهو نوعان: تحريف لفظه، وتحريف معناه.
- * الخامس: لي اللسان به ليتبس على السامع للفظ المتنزل بغيره.

وهذه الأمور إنما ارتكبوا لأغراض لهم دعتهم إلى ذلك، فإن عادوا الرسول وجحدوا نبوته وكذبوا وقاتلوا، فهم إلى أن يجحدوا (نعته)^(٤) وصفته ويكتوموا ذلك ويزيلوه عن مواضعه ويتأولوه على غير تأويله أقرب بكثير، وهكذا فعلوا، ولكن لكثرة البشارات

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٤.

(٣) سورة المائدة: الآيات ١٥، ١٦.

(٤) في الأصل: بعثه.

وتنوعها غلبوا على كتمانها وإفضالها فصاروا إلى تحريف التأويل وإزالة معناها (عما) ^(١) لا تصلح لغيره، وجعلها لمعدوم لم يخلقه الله تعالى ولا وجود له البتة.

العاشر: أنه استشهد على صحة نبوته بعلماء أهل الكتاب، وقد شهد له عدولهم. فلا يقبح (جحد) ^(٢) الكفرة الكاذبين المعاذدين بعد ذلك. قال تعالى: «ويقول الذين كفروا لست مرسلًا، قل كفى بالله شهيداً بيتي وبينكم ومن عنده علم الكتاب» ^(٣).

وقال تعالى: «قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهاد شاهد منبني إسرائيل على مثله فأمن واستكبرتم. إن الله لا يهدي القوم الظالمين» ^(٤).

وقال تعالى: «وإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَاطِئِينَ اللَّهُ لَا يَشْتَرِي بِآيَاتِهِ ثُمَّاً قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» ^(٥).

وقال تعالى: «ذَلِكَ بَأْنَ مِنْهُمْ قَسِيسِينَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيَ الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبِّنَا آمَنَّا فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ» ^(٦).

وقال تعالى: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا يَتْلُى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كَنَا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ، أُولَئِكَ يَؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مُرْتَبِينَ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُأُونَ بِالْحَسْنَةِ السَّيِّئَةَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفَقُونَ» ^(٧).

وإذا شهد واحد من هؤلاء لم يوزن به ملء الأرض من (الكفرة) ^(٨)، ولا تعارض

(١) في الأصل: عَمَّنْ.

(٢) في ج: قدح.

(٣) سورة الرعد: الآية ٤٣.

(٤) سورة الأحقاف: الآية ١٠.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٩٩.

(٦) سورة المائدة: الآيات ٨٢، ٨٣.

(٧) سورة القصص: الآيات ٥٢، ٥٣، ٥٤.

(٨) في الأصل: الكفر.

شهادته بجحود ملء الأرض من الكفرا. كيف (والشاهد)^(١) له من علماء أهل الكتاب أضعاف المكذبين له منهم.

وليس كل من قال من أشباه الحمير من عباد الصليب وأمة الغضب أنه من علمائهم فهو كذلك (يعني عالماً)^(٢) كما قالوا. وإذا كان أكثر عوام المسلمين يظنون أنه من علمائهم (يعني أهل الكتاب)^(٣) ليس كذلك (فيما)^(٤) ظن بغيرهم (يعني علماء المسلمين)^(٥).

وعلماء أهل الكتاب إن لم يدخل فيهم من لم يعلم بعلمه، فليس علماؤهم إلا من آمن به وصدقه، وإن دخل فيهم من علم ولم يعلم كعلماء السوء لم يكن إنكارهم نبوته قادحاً في شهادة العلماء (القائلين)^(٦) بعلمهم.

الحادي عشر: أنه لو قدر أنه لا ذكر لرسول الله ﷺ (بنعته)^(٧) ولا صفتـه ولا (علاماته)^(٨) في الكتب التي بأيدي أهل الكتاب اليوم، لم يلزم من ذلك أن لا يكون مذكوراً في الكتب التي كانت بأيدي أسلافهم وقت مبعثه ولا تكون اتصلت على وجهها إلى هؤلاء، بل حرّفها أولئك وبدلوا وكتموا (تواصوا وكتباوا)^(٩) ما أرادوا، وقالوا: هذا من عند الله ثم اشتهرت تلك الكتب وتناقلها خلفهم عن سلفهم فصارت المغيرة المبدلة هي المشهورة، والصحيحـة بينهم (خفية)^(١٠) جداً ولا سبيل إلى العلم باستحالة ذلك، بل هو في غاية الإمكان.

فهؤلاء السامرة غيروا مواضع من التوراة ثم اشتهرت النسخ المغيرة عند جميعهم

(١) في ج: والشاهدون.

(٢) ليست في ب، ج، ص.

(٣) سقطت من ب، ج، ص.

(٤) في الأصل: كما.

(٥) ليست في ب، ج، ص.

(٦) في ح: العاملين وفي ب: العاملين القائلين.

(٧) في الأصل: بيعثـه.

(٨) في ج: علامته.

(٩) سقطت من الأصل.

(١٠) في الأصل: خفيـت.

فلا يعرفون سواها، وهجرت بينهم النسخة الصحيحة بالكلية. وكذلك التوراة التي بأيدي النصارى.

وهكذا تبدل الأديان والكتب، ولو لا أن الله سبحانه وتعالى تولى حفظ القرآن (بذاته)^(١) وضمن لامة أن لا تجتمع على ضلاله لأصحابه ما أصاب الكتب قبله، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٢).

الثاني عشر: أنه من الممتنع أن تخلو الكتب المتقدمة عن الإخبار بهذا الأمر العظيم الذي لم يطرق العالم من حين خلق إلى قيام الساعة أمر أعظم منه، ولا شأن أكبر منه، فإن العلم به طبق^(٣) مشارق الأرض ومعاربها (واستمر على)^(٤) تعاقب القرون وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومثل هذا (النبأ)^(٥) العظيم لا بد أن تطابق الرسل على الإخبار به، وإذا كان الدجال – رجل كاذب يخرج في آخر الزمان وبقاوئه في الأرض أربعون يوماً (وقيل ستة أشهر)^(٦) – قد تطابقت الرسل على الإخبار به، وأنذر به كلنبي قومه من نوح إلى خاتم (الأنباء)^(٧) وخاتم الرسل صلى الله عليهم وسلم أجمعين، فكيف (تطابق)^(٨) الكتب الإلهية من أولها إلى آخرها على السكوت عن الإخبار (بهذا النبأ العظيم)^(٩)، وبهذا الأمر العظيم الذي لم يطرق العالم أمر أعظم منه، ولا تطرقه أبداً. فهذا مما لا يسوغه عقل عاقل، وتباه حكمة أحكم الحاكمين، بل الأمر بضد ذلك، وما بعث الله سبحانه وتعالى نبياً إلا أخذ عليه الميثاق بالإيمان بمحمد ﷺ وتصديقه كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّنَ لِمَا أَنْتُمْ كُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحْكَمَ اللَّهُ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مَصْدِقًا لِمَا مَعَكُمْ لَتَؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتُنَصِّرُنَّهُ، قَالَ أَفَقَرْرَتُمْ وَأَخْذَتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي؟ قَالُوا:﴾

(١) في ب، ج، ص: بنفسه.

(٢) سورة الحجر: الآية ٩.

(٣) في ب، ج، ص: فإنه قلب العالم وطبق.

(٤) في ب، ص: واستمر على العالم على.

(٥) في الأصل: البيان.

(٦) زيادة في الأصل.

(٧) سقطت من ب، ص، وفي ج: النبئن.

(٨) في ج: مطابقة.

(٩) سقطت من ب، ج، ص.

أقررنا، قال: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين^(١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله من نبي إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} وهو حي ليؤمن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمن به ولنبياعنه^(٢).

[بشارات التوراة والإنجيل بنبوة محمد^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ}]

(فصل): فهذه الوجوه على تقدير عدم العلم بوجود نعمته وصفته والخبر عنه في الكتب المتقدمة... ونحن نذكر^(٣) بعض ما ورد فيها من البشارة به ونعمته وصفته وصفة أمته وذلك يظهر لك من وجوه:

[١ - بشارات التوراة]

* الوجه الأول:

قوله في التوراة: (أقيم لبني إسرائيل نبياً من إخوتهم مثلك أجعل كلامي في فيه، ويقول لهم ما أمره، والذي لا يقبل قول ذلك النبي الذي يتكلم باسمي أنا أنتقم منه ومن سبطه)^(٤).

[تأويل أهل الكتاب لهذا النص]

فهذا النص مما لا يمكن لأحد منهم جحده وإنكاره، ولكن لأهل الكتاب فيه أربع طرق:

أحدها: حمله على المسيح وهذه طريق النصارى (وهو دليل يخالف معتقدهم في المسيح)^(٥).

(١) سورة آل عمران: الآية ٨١.

(٢) هذا الأثر أورده الطبرى في تفسيره عن علي بن أبي طالب وليس عن ابن عباس، ولكنه ساق ما يقارب هذا المعنى عن ابن عباس (تفسير الطبرى: ٦/٥٥٥ - ٥٥٦).

(٣) في الأصل: وأما الكتب الإلهية الشاهدة له بذكره.

(٤) الثانية: ١٨/١٩ - ١٩، وفي النص الحالى: أنا أطالبه بدل قوله: (أنا أنتقم منه ومن سبطه).

(٥) سقطت من ب، ج، ص.

وأما اليهود فلهم فيه ثلاث طرق:

أحدها: (على)^(١) حذف أداة الاستفهام، والتقدير «أقيم لبني إسرائيل نبياً من إخوتهم، لا أفعل هذا».

فهو استفهام إنكار حذفت منه أداة الاستفهام.

الثاني: أنه خبر (وعيده)^(٢) ولكن المراد به (شموئيل النبي)^(٣) فإنه من بني إسرائيل.

والبشرة إنما وقعت بنبي من إخوتهم، وإن خوة القوم هم بنو أبيهم وهم بنو إسرائيل.

الثالث: أنهنبي يبعثه الله في آخر الزمان يقيم به ملك اليهود ويعلو به شأنهم، وهو يتظروننه الآن (ويسموونه المنتظر)^(٤).

[رد تأويتهم الفاسد]

قال المسلمون: البشرة صريحة في النبي العربي الأمي محمد ﷺ ابن عبد الله، لا تُحتمل على غيره لأنها إنما وقعت بنبي من إخوة بني إسرائيل لا من بني إسرائيل أنفسهم، والمسيح من بني إسرائيل، فلو كان المراد بها هو المسيح لقال: أقيم لهمنبياً من أنفسهم.

كما قال تعالى: «لَقَدْ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ»^(٥) وإن خوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل، ولا يقال في لغة أمة من الأمم إن بني إسرائيل هم إخوة بني إسرائيل كما أن إخوة زيد لا يدخل فيه زيد نفسه.

(١) في ب، ج، ص: أنه على.

(٢) في الأصل: ووعد.

(٣) شموئيل النبي: هو شموئيل وهو اسم عبري معناه: اسم الله. وشموئيل هو أول الأنبياء العبرانيين بعد موسى وأخر القضاة ، وكان أبوه لاويأ، وفي العهد القديم سفران باسمه، وهو النبي الذي اختار شاول وداود للملك (قاموس الكتاب المقدس: ٥٥٢/٢ - ٥٥٣).

(٤) سقطت من ب، ج، ص.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

وأيضاً فإنه قال: نبياً مثلك وهذا يدل على أنه صاحب شريعة عامة مثل موسى، وهذا يبطل حمله على (شموئيل) من هذه الوجوه أيضاً، ويبطل حمله على (يوشع) من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه من بني إسرائيل لا من إخوتهم.

الثاني: أنه لم يكن مثل موسى، في التوراة: «التي بأيديهم»^(١): «لا يقوم في بني إسرائيل مثل موسى»^(٢).

الثالث: أن يوشعنبي في زمن موسى (وهو كالب)^(٣)، وهذا الوعد إنما هو بنبي يقيمها الله تعالى بعد موسى.

وبهذه الوجوه الثلاثة يبطل حمله على هارون، مع أن هارون توفي قبل موسى، ونبأ الله تعالى مع موسى في حياته. ويبطل ذلك من (وجه رابع أيضاً)^(٤) وهو أن في هذه البشارة أنه يتزل عليه كتاباً يظهر للناس من فيه (وهذا لم)^(٥) يكن لأحد بعد موسى غير النبي ﷺ، وهذا من علامات نبوته التي أخبر بها الأنبياء المتقدمون، قال تعالى: «وإنه لرزق رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المتنزرين بلسان عربي مبين، وإنه لفي زبر الأولين، أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل»^(٦).

فالقرآن نزل على قلب رسول الله ﷺ، وظهر للأمة من فيه ولا تصح هذه البشارة على المسيح باتفاق النصارى، لأنها إنما جاءت بواحد من إخوة بني إسرائيل، وبنو إسرائيل وإخوتهم كلهم عبد الله، ليس فيهم إلى المسيح عندهم إله معبد، وهو أجل عندهم من أن يكون من إخوة (بني إسرائيل)^(٧) العبيد. والبشرة وقعت بعد مخلوق

(١) ليست في ب، ج، ص.

(٢) انظر: سفر الشنتية: ٣٤ / ١٠.

(٣) سقطت من ب، ج، ص هو كالب بن يغثه الذي ذكره سفر الشنتية وذكر أنه يعطى هو وأبناؤه الأرض الجيدة لأنها اتبع الرب تماماً، انظر: الشنتية: ١ / ٢٧.

(٤) في الأصل: في أربعة أوجه.

(٥) في الأصل: وهو لم.

(٦) سورة الشعراء: الآيات ١٩٢ - ١٩٧.

(٧) ليست في ب، ج، ص.

يُقيمه الله تعالى من جملة عباده وإنواعهم، وغايتها أن يكون نبياً لا غاية له فوقها، (وهذا ليس هو المسيح عند النصارى)^(١)، (وما مقالتهم أنه)^(٢) على حذف ألف الاستفهام، وهو استفهام إنكار والمعنى (أَقْبَلَ لَبْنِي إِسْرَائِيلَ نَبِيًّا مِثْلِكَ)^(٣)، عادة لهم معروفة في تحريف كلام الله عن مواضعه والكذب على الله، وقولهم لما يدللونه ويحرفونه: هذا من عند الله.

وحمل هذا الكلام على الاستفهام أو الإنكار غاية ما يكون من التحريف والتبدل.

وهذا التحريف والتبدل من معجزات رسول الله ﷺ التي أخبر بها عن الله من تحريفهم وتبدلهم، فأظهر الله صدقه في ذلك (كله)^(٤) إلى كل ذي لب وعقل، فازداد إيماناً إلى إيمانه وأزداد الكافرون رجساً إلى رجسهم.

* الوجه الثاني:

قال في التوراة في السفر الخامس: (أقبل الله من سيناء وتجلى من ساعير وظهر من جبال فاران، ومعه ربوات الأطهار عن يمينه)^(٥) وهذه متضمنة للنبوات الثلاثة: نبوة موسى، ونبيّة عيسى، ونبيّة محمد ﷺ.

فمجيئه من سيناء وهو الجبل الذي كلم الله موسى ونبيّاه عليه إخبار عن نبوته.

وتجلّيه من ساعير هو مظاهر عيسى المسيح من بيت المقدس، وساعير قرية معروفة هناك إلى اليوم^(٦). وهذه بشارة بنبوة المسيح.

وفاران هي مكة^(٧) وشبه سبحانه وتعالى نبوة موسى بمجيء الصبح (وقلقه)^(٨) ونبيّة المسيح بعدها بإشراقه وضيائه، ونبيّة خاتم النبيين بعدهما ﷺ باستعلان الشمس

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ب، ج، ص: وأما قول المحرفين لكلام الله إن ذلك.

(٣) في ب، ج، ص: قتلك.

(٤) سقطت من ب، ج، ص.

(٥) انظر: سفر الشتية: ١/٣٣ - ٣.

(٦) قرية ساعير: تقع شمال مدينة الخليل بالقرب من بلدة حلحول.

(٧) قال ياقوت: الكلمة عبرانية معربة وهي من أسماء مكة (معجم البلدان: ٨٣٤/٣).

(٨) سقطت من ب، ج، ص.

(وَظُهُورُهَا)^(١) وَظُهُورُ ضُوئِهَا فِي الْأَفَاقِ وَوُقُوعُ الْأَمْرِ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ سَوَاءً. فَإِنَّ اللَّهَ صَدَعَ نُبُوَّةَ مُوسَى لِلَّيْلِ الْكُفْرِ فَأَضَاءَ فَجْرَهُ بِنُبُوَّتِهِ، وَزَادَ الضِيَاءَ وَالْإِشْرَاقَ بِنُبُوَّةِ الْمَسِيحِ، وَكَمْلَ الْضِيَاءِ وَاسْتَعْلَنَ وَطَبَقَ الْأَرْضَ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ^ﷺ.

وَذَكَرَ هَذِهِ النُّبُوتَاتِ الْثَلَاثَةِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْبَشَارَةُ نَظِيرًا ذِكْرِهَا فِي أُولَى سُورَةِ (الْتَّيْنِ) «وَالْتَّيْنِ وَالزَّيْتُونَ وَطَورَ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلْدُ الْأَمِينُ»^(٢).

فَذَكَرَ أُمْكَنَةً هُؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَرْضَهُمُ الَّتِي خَرَجُوا مِنْهَا؛ وَالْتَّيْنِ وَالزَّيْتُونَ: الْمَرَادُ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمَا (وَأَرْضَهُمَا)^(٣)، وَهِيَ الْأَرْضُ الْمَقْدَسَةُ الَّتِي هِيَ (مَظَهُرُ الْمَسِيحِ)^(٤)، وَطَورُ سِينِينَ: الْجَبَلُ الَّذِي كَلَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى فَهُوَ مَظَهُرُ نُبُوَّتِهِ. وَهَذَا الْبَلْدُ الْأَمِينُ: مَكَّةُ، حَرَمُ اللَّهِ وَأَمْنُهُ الَّتِي هِيَ مَظَهُرُ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

فِيهَاذِهِ الْثَلَاثَةِ نَظِيرٌ تِلْكَ الْثَلَاثَةِ سَوَاءً.

قَالَتِ الْيَهُودُ: فَارَانُ هِيَ أَرْضُ الشَّامِ وَلَيْسَتْ أَرْضُ الْحِجَازِ، وَلَيْسَ هَذَا بِيَدِعٍ مِنْ بَهْتِهِمْ وَتَحْرِيفِهِمْ، وَعِنْهُمْ فِي التُّورَةِ: أَنَّ إِسْمَاعِيلَ لَمَّا فَارَقَ أَبَاهُ سَكَنَ فِي بَرِّيَةِ فَارَانَ هَكَذَا نَطَقَتِ التُّورَةُ وَلَفَظُهَا: (وَأَقامَ إِسْمَاعِيلَ فِي بَرِّيَةِ فَارَانَ وَأَنْكَحْتَهُ أُمَّهُ امْرَأَةً مِنْ أَرْضِ مَصْرِ)^(٥).

وَلَا يُشَكُّ عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّ فَارَانَ مَسْكُنُ لَآلِ (إِسْمَاعِيلِ)^(٦) فَقَدْ تَضَمَّنَتِ التُّورَةُ نُبُوَّةً تَنْزَلُ بِأَرْضِ فَارَانَ، وَتَضَمَّنَتِ نُبُوَّةً تَنْزَلُ عَلَى عَظِيمٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَتَضَمَّنَتِ انتِشارُ أُمَّتِهِ وَأَتَبَاعِهِ حَتَّى يَمْلأُوا السَّهْلَ وَالْجَبَلَ، كَمَا سَنَدَكُرَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَلَمْ يَبْقَ بَعْدَ هَذَا شَبَهَةً أَصَلًاً أَنَّ هَذِهِ هِيَ نُبُوَّةُ مُحَمَّدٍ^ﷺ، الَّتِي نَزَّلَتْ بِفَارَانَ عَلَى أَشْرَفِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلِ حَتَّى (مَلَأُ)^(٧) الْأَرْضَ ضِيَاءً وَنُورًاً، وَمَلَأَ أَتَبَاعَهُ السَّهْلَ وَالْجَبَلَ،

(١) سَقَطَتْ مِنْ بِ، جِ، صِ.

(٢) سُورَةُ التَّيْنِ: الْآيَةُ ١.

(٣) فِي جِ: وَأَرْضَهُمَا الَّتِي خَرَجُوا مِنْهَا.

(٤) فِي جِ: أَرْضُ الْمَسِيحِ مَظَهُرُ الْمَسِيحِ.

(٥) التَّكْوِينُ: ٢١.

(٦) فِي الْأَصْلِ: عُثْمَانَ.

(٧) فِي بِ، جِ، صِ: مُلْثَثٌ.

ولا يكثرون على الشعب الذي نطقوا التوراة بأنهم عادمو الرأي والقططانة أن ينقسموا إلى جاهل بذلك وجاحد مكابر معاند.

ولفظ التوراة فيهم أنهم الشعب عادم الرأي وليس فيهم فطنة^(١).

ويقال لهؤلاء المكابيرين: أيّ نبوة خرجت من الشام فاستعملت استعلان ضياء الشمس وظهرت فوق ظهور النبوتين قبلها؟ وهل هذا إلا بمنزلة مكابرة من يرى الشمس قد طلعت من المشرق فيغالط ويکابر ويقول: بل طلعت من المغرب؟

* الوجه الثالث:

قال في التوراة في السفر الأول: (إن الملك ظهر لهاجر أم إسماعيل، فقال يا هاجر! من أين أقبلت وإلى أين تریدين؟ فلما شرحت له الحال، قال: ارجعني فإني سأکثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون كثرة، وما أنت تحبلى وتلدين ابناً تسميه (إسماعيل) لأن الله قد سمع تذللوك وخضوعك، وولدك يكون وحشى الناس^(٢)، وتكون يده على الكل، ويد الكل مبسوطة إليه بالخضوع)^(٣).

وهذه بشارة تضمنت أن يد ابنها على (يد كل)^(٤) الخلاق، وأن كلمته العليا، (وأن يد ابنها عالية)^(٥)، ويد (الخلاق)^(٦) تحت يده، فمن هذا الذي ينطبق عليه هذا الوصف سوى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه؟

وكذلك في السفر الأول من التوراة: (إن الله قال لإبراهيم: إني جاعل ابنك إسماعيل لأمة عظيمة إذ هو من زرعك)^(٧).

وهذه بشارة بمن جعل من ولده لأمة عظيمة، وليس هو سوى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه

(١) الشنیة ٣٢/٢٨.

(٢) يكون وحشى الناس كنایة عن قتلهم لأعدائهم.

(٣) التکوین: ١٦/٧ - ٧/١٦.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) سقطت من ب، ج، ص.

(٦) في ب، ج، ص: الخلق.

(٧) التکوین: ٢١/٢١ - ٢٣/١٢.

الذي هو من صميم ولده، فإنه جعل لأمة عظيمة، ومن تدبر هذه البشرة جزم بأن المراد بها رسول الله ﷺ، لأن إسماعيل لم تكن يده فوق يد إسحق قط، ولا كانت يد إسحق مبسوطة إليه بالخصوص، وكيف يكون ذلك وقد كانت النبوة والملك في ولد إسرائيل والعيسن وهما ابنا إسحق، فلما بعث رسول الله ﷺ انتقلت النبوة إلى ولد إسماعيل (ودانت له)^(١) الأمم وخضعت له الملوك، وجعل خلافة الملك إلى أهل بيته إلى آخر الدهر، وصارت أيديهم فوق أيدي الجميع، (وأيدي الجميع)^(٢) مبسوطة إليهم بالخصوص، وكذلك في السفر (الأول)^(٣): «إن الله تعالى قال لإبراهيم: إن في هذا العام يولد لك ولد اسمه إسحق. فقال إبراهيم: ليت إسماعيل هذا يحيي بين يديك ويمجدك، فقال الله تعالى: قد استجبت لك في إسماعيل وإنني أباركه (وأنميه)^(٤) وأعظمه جداً جداً بما قد استجبت فيه، وإنني أصيره إلى أمة (عظيمة كبيرة)^(٥) وأعطيه شعباً جليلاً^(٦). والمراد بهذا كله الخارج من نسله، فإنه هو (رسول الله)^(٧) عظم الله جداً جداً، وصيরه إلى أمة كبيرة عظيمة، وأعطاه شعباً جليلاً، ولم يأت من صلب إسماعيل من بورك وعظم وانطبقت عليه هذه العلامات غير رسول الله ﷺ وأمته، ملأوا الأفق وأربوا في الكثرة على نسل إسحق.

* الوجه الرابع:

قال في التوراة في السفر الخامس: (قال موسى لبني إسرائيل لا تطيعوا العرافين والمنجمين، فسيقين لكم الرب سبحانه وتعالى نبياً من إخوتكم مثلي فأطيعوا ذلك النبي)^(٨).

ولا يجوز أن يكون هذا النبي الموعود به من نفس بنى إسرائيل لما تقدم أن إخوة

(١) في ج: وذلت له، وفي ب، ص: ودانت لهم.

(٢) سقطت من ب، ج، ص.

(٣) في ب: الأول ص ١٧ ع ١٩.

(٤) في ب، ص: وايمته، وفي ج: وابنه.

(٥) في ب: كثيرة كبيرة، وفي ج، ص: كثيرة.

(٦) التكوير: ١٧/١٥ - ٢٠.

(٧) في ب، ج، ص: الذي.

(٨) الشتبة: ١٤/١٨ - ١٥.

القوم ليسوا أنفسهم، كما تقول: بكر وتغلب ابنا وائل، ثم تقول: تغلب أخو بكر، وبنو تغلب إخوةبني بكر، فلو قلت إخوةبني بكر (بنو بكر كان محلاً)، ولو قلت لرجل اثنيني برجل من إخوةبني بكر) ^(١) بن وائل لكان الواجب أن (تأتي) ^(٢) برجل منبني تغلب بن وائل لا بوحد منبني بكر.

[بشارات الإنجيل]

* الوجه الخامس:

ما في الإنجيل أن المسيح قال للحواريين: (أنا أذهب وسيأتيكم البارقليط روح الحق لا يتكلم من قبل نفسه، إنما هو كما يقال له، وهو يشهد لي وأنتم تشهدون، لأنكم معى من قبل الناس وكل شيء أعلمه لكم يخبركم به) ^(٣).

وفي إنجيل يوحنا: (البارقليط لا يجيئكم مالم أذهب، وإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ولا يقول من تلقاه نفسه، ولكنه مما يسمع به يكلمكم (ويسوسكم) ^(٤) بالحق ويخبركم بالحوادث والغيوب) ^(٥).

وفي موضع آخر: (إن البارقليط روح الحق الذي يرسله أبي بسامي هو يعلمكم كل شيء) ^(٦).

وفي موضع آخر: (إني سائل أبي أن يبعث إليكم بارقليطاً آخر يكون معلم الأبد، وهو يعلمكم كل شيء) ^(٧).

وفي موضع آخر: (ابن البشر ذاذهب والبارقليط من بعده يجيء لكم بالأسرار، ويفسر

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ب، ج، ص: يأتيك.

(٣) يوحنا ١٤/١٠ - ١٣.

(٤) في ج: ويسوي بينكم.

(٥) يوحنا: ٧/١٤.

(٦) يوحنا: ١٦/١٤.

(٧) يوحنا: ١٦/١٤.

لكم كل شيء، وهو يشهد لي كما شهدت له، فإني أجثكم بالأمثال وهو يأتيكم بالتأويل)^(١).

قال أبو محمد بن قتيبة^(٢): (وهذه الأشياء على اختلافها متقاربة، وإنما اختلفت لأن من نقلها عن المسيح ﷺ في الإنجيل من الحواريين بعده)، والبارقليط في لغتهم (من ألفاظ)^(٣) الحمد، إما أحمد أو محمد أو محمود أو حامد، ونحو ذلك... وهو في الإنجيل الحبشي (برفقطيس)^(٤).

وفي موضع آخر: (إن كتم تحبني فاحفظوا وصايني، وأنا أطلب من الأبد أن يعطيكم بارقليطاً آخر يثبت معكم إلى الأبد، ويتكلم بروح الحق الذي لم يطق العالم أن يقبلوه لأنهم لم يعرفوه، ولست أدعكم أبداً لأنني سأتيكم عن قريب)^(٥).

وفي موضع آخر: (من يحبني يحفظ كلمتي يحبه وإليه يأتي وعنه يتخذ المنزل، كلمتكم بهذا لأنني لست عندكم مقيناً، والبارقليط روح الحق الذي يرسله أبي، وهو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كل ما قلت لكم، استودعكم سلامي، لا تقلق قلوبكم ولا تجزعوا، فإني منطلق وعائد إليكم، لو كتم تحبني كتم نفرحون بمضيبي إلى أبي، فإن ثبت كلامي فيكم كان لكم كل ما تريدون)^(٦).

وفي موضع آخر: (إذا جاء البارقليط الذي أبي يرسله روح الحق الذي من أبي يشهد لي ما قلت لكم حتى إذا كان تؤمنوا ولا تشكونا فيه)^(٧).

(١) يوحنا: ١٥/١٧.

(٢) أبو محمد بن قتيبة، هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ وله كتاب دلائل النبوة (ذكره ابن النديم في الفهرست: ص ٨٦) وهو مخطوط في مكتبة الظاهرية بدمشق بعنوان: أعلام رسول الله المنزلة على رسالته في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وغير ذلك، ودلائل نبوته من البراهين النيرة والدلائل الواضحة (انظر: معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ، صلاح الدين المنجد: ص ٢٦١).

(٣) في ب، ج، ص: لفظ من ألفاظ.

(٤) في ب، ص: برفعطيس وفي ج: برتعطيس.

(٥) يوحنا: ١٤/١٥ - ١٨.

(٦) يوحنا: ١٤/٢٣ - ٢٨.

(٧) يوحنا: ١٤/٢٩.

وفي موضع آخر : (إن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم ، ولكنكم لا تستطيعون حمله ، لكن إذا جاء روح الحق ، ذاك يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بكل ما يأتي ويعرفكم جميع ما للأب) ^(١) . قال يوحنا : (قال المسيح : إن أركون العالم سيأتي وليس لي شيء) ^(٢) وقال متى : (قال المسيح : ألم يروا أن الحجر الذي أخر البناءون صار رأساً للزاوية من عند الله) ^(٣) . كان هذا وهو عجيب في أعيننا ، ومن أجل ذلك أقول لكم : إن ملکوت الله سيؤخذ منكم ، ويدفع إلى أمة أخرى تأكل ثمرتها ، ومن يسقط على هذا الحجر ينشدح وكل من سقط عليه يمحق) ^(٤) .

وقد اختلف في البارقليط في لغتهم – (يعني العبرانية) ^(٥) – فذكروا فيه أقوالاً ترجع إلى ثلاثة (أوجه) ^(٦) :

أحدها : أنه الحامد والحمد كما تقدم ورجحت طائفة هذا القول ، وقالوا : الذي يقوم عليه البرهان في لغتهم أنه الحمد . والدليل عليه في قول يوشع : (من عمل حسنة يكون له فارقليط جيد) ^(٧) أي حمد جيد .

والقول الثاني : – وعليه أكثر النصارى – (أنه المخلص) ^(٨) والمسيح نفسه يسمونه

(١) يوحنا : ١٢/١٦ - ١٣ .

(٢) يوحنا : ١٤ / ٣٠ لكن الترجمة «الحالية» : إن رئيس العالم بدل لفظة أركون ، ولنحظة أركون معناها الرئيس (راجع المعجم الوسيط) .

(٣) وهذا موافق للحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل ابنتي بيوتاً فأحسنتها وأجملتها وأكملتها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها ، فجعل الناس يطوفون ويعجّبهم البينان فيقولون : ألا وضعتم هنا لبنة ، فيتم بنianك ؟ فقال محمد ﷺ : فكنت أنا اللبنة .

انظر : صحيح مسلم ، كتاب الفضائل : حديث . ٢١ .

(٤) متى : ٤٢/٢١ - ٤٤ .

(٥) زيادة في الأصل . والبارقليط لفظة يونانية لا عبرانية .

(٦) في الأصل : فقط .

(٧) الترجمات الحالية ليس فيها لفظ (فارقليط) لأن النصارى عدوا إلى حذفها واستبدالها بالمعزzi أو المخلص ، وذلك لوضوح معنى الحمد في الفارقليط .

(٨) بعض الطبعات للكتاب المقدس تذكر كلمة «المخلص» بدل كلمة «فارقليط» .

المخلص وهذه الكلمة سريانية (معناها المخلص)^(١). قالوا: وهو بالسريانية «فاروق» فجعل «فارق» قالوا: و «ليط» الكلمة تزاد معناها كقول العرب: رجل هو، وحجر هو، وفرس هو، قالوا: فكذلك معنى ليط في السريانية.

والقول الثالث: وقالت (طائفه) أخرى من النصارى معناه بالسريانية (المعزي)^(٢) قالوا: وكذلك هو في اللسان اليوناني (ويعرض على هذين القولين بأن المسيح لم تكن لغته سريانية)^(٣) – ولا يونانية بل عبرانية – (وأجيب عن هذا) بأنه تكلم بالعبرانية، وإنجيل إنما نزل باللغة العبرانية وترجم عليه باللغة السريانية والرومية واليونانية وغيرها.

وأكثر النصارى على أنه المخلص، والمسيح (نفسه)^(٤) يسمونه المخلص. وفي الإنجيل الذي بأيديهم أنه قال: إنما أتيت لأخلص العالم^(٥).
والنصارى يقولون في (صلاتهم)^(٦): «لقد ولدت لنا مخلصاً»^(٧).

[تحريف النصارى لهذه البشارة]

ولما لم يمكن النصارى إنكار هذه النصوص، حرفوها أنواعاً من التحريف فمنهم من قال: هو روح نزلت على الحواريين، ومنهم من قال: هو (السن نارية)^(٨) نزلت من السماء على التلاميذ ففعلوا بها الآيات والعجائب. ومنهم من يزعم أنه المسيح نفسه

(١) سقطت من الأصل وفي ص: معناها بالعربية أي الفاروق.

(٢) في جميع النسخ: المعز.

وبعض الطبعات تذكر «المعزي» بدل «الفرقليط».

انظر: الكتاب المقدس، نشر دار الكتاب المقدس في العالم العربي، مطبوع في كوريا سنة ١٩٧٦.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في ج: بعينه.

(٥) انظر: يوحنا: ٤٧/١٢.

(٦) في ج: في صلاتهم بل في ضلالهم.

(٧) انظر: رسالة يوحنا الأولى: ٤/١٤.

(٨) في ج: هوماء وبه.

لكونه جاء بعد الصليب بأربعين يوماً، وكونه قام من قبره. ومنهم من قال: لا نعرف ما المراد بهذا الفارقليط ولا يتحقق لنا معناه.

[الرد على هذا التحريف]

ومن تأمل ألفاظ الإنجيل وسياقها (علم)^(١) أن تفسيره بالروح باطل، وأبطل منه تفسيره بالألسن النارية، وأبطل منها تفسيره بالمسيح، فإن روح القدس لا زالت تنزل على الأنبياء والصالحين قبل المسيح وبعده، ليست موصوفة بهذه الصفات. وقد قال تعالى: «لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه»^(٢).

وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت رضي الله عنه لما كان يهجو المشركين: «اللهم أいでه بروح القدس»^(٣) وقال: «إن روح القدس معلك ما زلت تنافع عن نبيه»^(٤).

وإذا كان كذلك، ولم يسم أحد هذه الروح فارقليطاً، علم أن البارقليط هو (أمر)^(٥) غير هذا، وأيضاً فمثيل هذه الروح لا زالت (يؤيد بها)^(٦) الأنبياء والصالحون، وما بشر به المسيح ووعد به أمر عظيم يأتي بعده أعظم (من هذا)^(٧)، فإنه وصف الفارقليط بصفات لا تناسب هذه الروح، وإنما تناسب رجلاً يأتي بعده نظيراً له، فإنه قال: «إن كتم تحبني فاحفظوا وصاياني، وأنا أطلب من الآب أن يعطيكم فارقليطاً آخر يثبت معكم إلى الأبد» (قوله)^(٨): فارقليطاً آخر دل على أنه ثانٌ لأول (وكان)^(٩) قبله، وأنه لم يكن (معهم)^(١٠).

(١) في الأصل: اطلع على.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفضائل الصحابة: ١٥٢/٣٤.

(٤) في صحيح مسلم: «إن روح القدس لا زال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله». ٤٤ / ٣٤ - ١٥٧.

(٥) في الأصل: أمر عظيم.

(٦) في الأصل: تؤديها.

(٧) في الأصل: منه.

(٨) في ج: وعلوم أنه بقوله.

(٩) في ج: كأنه، وفي ب، ص: كان.

(١٠) في الأصل: معه.

في حياة المسيح، وإنما يكون بعد ذهابه (وتوليه)^(١)، وأيضاً فإنه قال: «يثبت معكم إلى الأبد» وهذا إنما يكون لما يدوم ويبقى (معهم)^(٢) إلى آخر الدهر، ومعلوم أنه لم يرد بقاء ذاته، فعلم أنه بقاء شرعه وأمره. والبارقليط الأول لم يثبت معهم شرعه ودينه إلى الأبد، وهذا يبين أن الثاني صاحب شرع لا ينسخ بل يبقى إلى الأبد بخلاف الأول. وهذا إنما ينطبق على محمد ﷺ.

وأيضاً فإنه أخبر أن هذا البارقليط الذي أخبر به يشهد له، ويعلمهم كل شيء وأنه (يذكرهم)^(٣) كل ما (قاله)^(٤)، وأنه يوين العالم على خطيبته.

قال: «والفارقليط الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء ويذكركم كل ما قلت لكم».

وقال: «إذا جاء الفارقليط الذي أبي يرسله^(٥) هو يشهد لي أني قلت هذا، حتى إذا كان تؤمنوا به ولا تشكونا فيه».

وقال: «إن خيراً لكم أن (أنطلق)^(٦) إلى أبي، إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط، فإذا انطلقت أرسلته إليكم فهو يوين العالم على الخطيبة. وإن لي كلاماً كثيراً أريد أن (أقوله)^(٧)، ولكنكم لا تستطيعون حمله، لكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عند نفسه بل بتكلم بما يسمع ويخبر بكل ما يأتي ويعرفكم جميع ما للأب»^(٨).

فهذه الصفات والنعوت التي تلقوها عن المسيح لا تنطبق على أمر معنوي

(١) في ب، ج، ص: توليه عنهم.

(٢) في ج: معهم إلى الأبد أي.

(٣) في ب، ص: يذكر لهم.

(٤) في ب، ص: قال المسيح وفي ج: قال المسيح بل يبقى إلى الأبد بخلاف الأول.

(٥) سقطت من ج.

(٦) في ج: اذهب.

(٧) في ب، ص: أقوله لكم.

(٨) يوحنا: ١٦/٧-٨، ١٢-١٥.

(يكون)^(١) في قلب بعض الناس (لا يراه أحد ولا يسمع كلامه)^(٢) وإنما ينطبق على من (يراه الناس)^(٣) ويسمعون كلامه، فيشهد لل المسيح ويعلمهم كل شيء، وبذكرهم كل ما قال لهم المسيح، ويوضح العالم على الخطيئة، ويرشد الناس إلى جميع الحق، ولا ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع ويخبرهم بكل ما يأتي، ويعرفهم جميع ما لرب العالمين، وهذا لا يكون ملكاً لا يراه أحد، ولا يكون هدى وعلمًا في (قلوب)^(٤) بعض الناس، ولا يكون إلا إنساناً عظيم القدر يخاطب الناس بما أخبر به المسيح، وهذا لا يكون إلا بشراً رسولاً بل يكون أعظم من المسيح، فإن المسيح أخبر أنه يقدر على ما لا يقدر عليه المسيح، ويعلم ما (لا يعلمه)^(٥)، ويخبر بكل ما يأتي وبما يستحقه الرب، حيث قال: «إن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله ولكنكم لا تستطيعون حمله»، ولكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بما يأتي وينعرفكم جميع ما للأب»^(٦).

فلا يستريب عاقل أن هذه الصفات لا تنطبق إلا على محمد ﷺ وذلك لأن الإخبار عن الله تعالى بما هو متصف به من الصفات وعن ملائكته وعن ملوكه، وعما أعدد في الجنة لأوليائه، وفي النار لأعدائه، أمر لا تحتمل أكثر عقول الناس معرفته على التفصيل.

قال علي رضي الله عنه «حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله»^(٧).

وقال ابن مسعود: «ما من رجل يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم»^(٨).

(١) سقطت من ب، ج، ص.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في ب، ج، ص: قلب.

(٥) في ب، ج، ص: يعلمه المسيح.

(٦) يوحننا: ١٦/١٦ - ١٥.

(٧) أخرجه البخاري في كتاب العلم: ص ٤٩.

(٨) لم أجده.

وسأل رجل ابن عباس رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثاهم يتنزل الأمر بيتهن﴾^(١).

قال: ما يؤمنك أن لو أخبرتك بها لکفرت، يعني: أني لو أخبرتك بتفسيرها لکفرت بها، وكفرك بها تکذيبك بها^(٢).

فقال لهم المسيح: «إن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم ولكنكم لا تستطيعون حمله»، وهو الصادق المصدق (في هذا)^(٣).

ولهذا ليس في الإنجيل من صفات الله تعالى وصفات ملكته وصفات اليوم الآخر إلا أمور مجملة، وكذلك التوراة ليس فيها من ذكر اليوم الآخر إلا أمور مجملة مع أن موسى عليه الصلاة والسلام كان قد مهد (الأمر للمسيح)^(٤) ومع هذا فقد قال لهم المسيح: «إن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم ولكنكم لا تستطيعون حمله»، ثم قال: «ولكن إذا جاء روح (الحق)^(٥) فذاك الذي يرشدكم إلى الحق ويخبركم بكل ما يأتي وبجميع ما للرب».

فدل هذا على أن الفارقليط هو الذي يفعل هذا دون المسيح، وكذلك كان، فإن محمداً ﷺ أرشد الناس إلى جميع الحق حتى أكمل الله به الدين، وأتم به النعمة، (ولهذا)^(٦) كان خاتم الأنبياء، فإنه لم يق (شيء يأتي به غيره)^(٧)، وأنبئ محمد ﷺ بكل ما يأتي من أشرطة الساعة والقيمة والحساب والصراط وزن الأعمال والجنة وأنواع نعيمها والنار وأنواع عذابها، ولهذا كان في القرآن تفصيل أمر الآخرة وذكر الجنة والنار فهو يأتي بأمور كثيرة لا توجد في التوراة والإنجيل، وذلك تصديق قول المسيح عليه الصلاة والسلام أنه يخبر بكل ما يأتي، وذلك يتضمن صدق المسيح وصدق محمد ﷺ، وهذا معنى قوله

(١) سورة الطلاق: الآية ١٢.

(٢) انظر: تفسير الطبراني: ٩٩ / ١٨ الطبعة الأولى.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في ب، ج: الأمر للمسيح وفي ص: الأرض للمسيح.

(٥) في الأصل: القدس.

(٦) في ج: ولقد.

(٧) في ج:نبي يأتي بعده غيره.

تعالى : «إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ، وَيَقُولُونَ أَئُنَا لَتَارِكُوا آلهَتَنَا لِشَاعِرِ
مَجْنُونٍ، بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ»^(١) أَيْ مجِيئه تَصْدِيقَ لِلرَّسُلِ قَبْلَهُ فَإِنَّهُمْ أَخْبَرُوا
بِمَجِيئِهِ فَجَاءَ كَمَا أَخْبَرُوا بِهِ، فَتَضَمَّنَ مجِيئه تَصْدِيقَهُمْ، ثُمَّ شَهَدَ هُوَ بِصَدَقَهُمْ فَصَدَقَهُمْ
بِقَوْلِهِ وَمَجِيئِهِ .

(ومحمد)^(٢) ﷺ، بعثه الله بين يدي الساعة كما قال ﷺ: «بعثت أنا والساعة
كَهَاتِينَ، وأَشَارَ بِأَصْبَعِيهِ السَّبَابَةَ وَالْوَسْطَى»^(٣) وَكَانَ إِذَا ذُكِرَ السَّاعَةُ عَلَى صَوْتِهِ (واحْمَرْ
وَجْهُهُ)^(٤) وَاشْتَدَ غَضْبُهُ، وَقَالَ: «أَنَا النَّذِيرُ الْعَرِيَانُ»^(٥) .

فَأَخْبَرَ مِنَ الْأَمْرِ الَّتِي تَأْتِي فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِمَا لَمْ يَأْتِ بِهِ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا نَعْتَهُ
بِهِ الْمَسِيحُ ﷺ، حَيْثُ قَالَ: إِنَّهُ يَخْبُرُكُمْ بِكُلِّ مَا يَأْتِي . وَلَا يَوْجُدُ مُثْلُ هَذَا أَصْلًا عَنْ
(نَبِيٍّ)^(٦) مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَوْجُدَ فِي شَيْءٍ أُنْزَلَ عَلَى قَلْبِ بَعْضِ
الْحَوَارِيْنَ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ: «وَيَعْرَفُكُمْ جَمِيعًا مَا لِلَّهِ» .

فَبَيْنَ أَنَّهُ يَعْرَفُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا لِلَّهِ، (وَذَلِكُ)^(٧) يَتَنَاهُ مَا لَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ،
وَمَا لَهُ مِنَ الْحَقُوقِ، وَمَا يَعْجِبُ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرَسُلِهِ، بَحِيثُ يَكُونُ مَا يَأْتِي
بِهِ جَامِعًا لِمَا يَسْتَحْقُهُ الرَّبُّ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهَذَا لَمْ يَأْتِ بِهِ غَيْرُ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّهُ تَضَمَّنَ
مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحُكْمَةِ .

هَذَا كُلُّهُ وَأَيْضًا فَإِنَّ الْمَسِيحَ قَالَ: «إِذَا جَاءَ الْبَارْقَلِيطُ الَّذِي أَرْسَلَهُ أَبِي فَهُوَ يَشَهِّدُ لِي
أَنِّي قَلَّتْ لَكُمْ هَذَا حَتَّى إِذَا كَانَ تَؤْمِنُوا بِهِ» .

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ شَهَدَ لَهُ، وَهَذِهِ صَفَةُ نَبِيٍّ بَشَّرَ بِهِ الْمَسِيحُ، وَيَشَهِّدُ لِلْمَسِيحِ كَمَا قَالَ

(١) سورة الصافات: الآيات ٣٥ - ٣٧ .

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه في عدة مواضع، راجع الجمعة: ٤٣/١٣، ٢٧/١٣٣ - ١٣٥ .

(٤) سقطت من ج.

(٥) صحيح البخاري، الرقائق: ص ٢٦، الاعتصام؛ صحيح مسلم، فضائل: ١٦ .

(٦) في ب، ج، ص: أحد.

(٧) سقطت من الأصل.

تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مُرِيمَ يَا بْنَ إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مَصْدِقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمَهُ أَحْمَد﴾^(١).

وأنجح أنه يوحى العالم على الخطيئة، وهذا يستحيل حمله على معنى يقوم بقلب الحواريين، فإنهم آمنوا به وشهدوا له قبل ذهابه، فكيف يقول «إذا جاءَ فَإِنَّهُ يَشَهِّدُ لِي» ويوصيهما بالإيمان به. أفترى الحواريين لم يكونوا مؤمنين بالMessiah! فهذا من أعظم جهل النصارى وضلالهم.

وأيضاً فإنه لم يوجد أحد وَتَخْ جميع (العالم)^(٢) على الخطيئة إِلَّا محمد ﷺ فإنه أنذر جميع العالم من أصناف الناس، ووبخهم على الخطيئة من الكفر والفسق والعصيان، ولم يقتصر على مجرد الأمر والنهي بل وبخهم وقرّعهم وتهذفهم.

وأيضاً فإنه أخبر أنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع، وهذا إنذار بأن كل ما يتكلم به فهو (وحي)^(٣) يسمعه، ليس هو شيئاً تعلمه من الناس أو عرفه باستنباطه، وهذه خاصة بـمحمد ﷺ.

وأما المسيح فكان عنده علم بما جاء به موسى قبله يشارك به أهل الكتاب، تلقاه من قبله ثم جاءه وحي (خاص)^(٤) من الله فوق ما كان عنده قال تعالى : ﴿وَيَعْلَمُهُ الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ وَالْتَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ﴾^(٥) فأخبر سبحانه وتعالى أنه يعلمه التوراة التي تعلّمها بنو إسرائيل وزاده تعليم الإنجيل الذي اختص به الكتاب، الذي هو الكتابة، ومحمد ﷺ لم يكن تعلم قبل الوحي شيئاً من ذلك البتة كما قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ (أَوْحَيْنَا) إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا إِيمَانُ﴾^(٦).

(١) سورة الصاف: الآية ٦.

(٢) في بـ، صـ: العالم من أصناف الناس.

(٣) في الأصل: شيء.

(٤) في جـ: خالص.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٤٨.

(٦) سقطت سهواً من الأصل.

(٧) سورة الشورى: الآية ٥٢.

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَصَصْ عَلَيْكَ أَحْسَنُ الْقَصْصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمْنَ الْغَافِلِينَ﴾^(١)^(٢).

فلم يكن ﷺ ينطق من تلقاء نفسه، بل إنما كان نطقه بالوحى كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوْيِ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ﴾^(٣) وهذا مطابق لقول المسيح: (إنه لا يتكلم من تلقاء نفسه بل يتكلم بما يوحى إليه).

فالله تعالى أمره أن يبلغ ما أنزل إليه وضمن له العصمة في تبليغ رسالته، فلهذا أرشد الناس إلى جميع الحق، وألقى إلى الناس ما لم يكن غيره من الأنبياء ألقاه خوفاً أن يقتله قومه^(٤)، وقد أخبر المسيح أنه لم يذكر لهم جميع ما عنده وأنهم لا يطيقون حمله، وهم معترفون بأنه كان يخاف منهم إذا أخبرهم بحقائق الأمور ومحمد ﷺ أيده الله سبحانه وتعالى تأييداً لم يؤيده لغيره، فعصمه من الناس حتى لم يخف من شيء يقوله^(٥)، وأعطاه من البيان والعلم ما لم يؤته غيره.

فالكتاب الذي بعث به، فيه من بيان حقائق الغيب ما ليس في كتاب غيره. وأيد^(٦) (أمته)^(٧) تأييداً طاقت به حمل ما ألقاه إليهم، فلم يكونوا كأهل التوراة الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها، ولا كأهل الإنجيل الذين قال لهم المسيح: (إن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم ولكن لا تستطيعون حمله).

ولا ريب أن أمة محمد ﷺ أكمل عقولاً وأعظم إيماناً وأتم تصديقاً وجهاداً، ولهذا كانت علومهم وأعمالهم القلبية وإيمانهم أعظم، وكانت العبادات البدنية لغيرهم أعظم. وأيضاً فإنه أخبر عن الفارقليط أنه يشهد له، وأنه يعلمهم كل شيء، وأنه يذكرهم

(١) سورة يوسف: الآية ٣.

(٢) سقطت الآياتان من ص.

(٣) سورة النجم: الآياتان ٣٠، ٣١.

(٤) هذا المعنى لا يتفق مع عصمة الأنبياء والقرآن الكريم أخبرنا أن الأنبياء واجهوا أقوامهم بالحق الذي جاءهم من عند الله ومنهم من قتلهم قومه.

(٥) كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَيُّهَا النَّبِيُّ بَلَغَ مَا أُنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

(٦) في ب: الله.

كل ما قال المسيح، ومعلوم أن هذا لا يكون إلا إذا شهد له شهادة يسمعها الناس عامة، لا يكون هذا في قلب طائفة قليلة، ولم يشهد أحد للمسيح شهادة يسمعها عامة الناس^(١) إلا محمد ﷺ، فإنه أظهر أمر المسيح وشهد له بالحق، حتى سمع شهادته له عامة أهل الأرض، وعلموا أنه صدق المسيح ونزعه عما (يقوله عليه اليهود من الافتاء)^(٢)، وما (غلت)^(٣) فيه النصاري.

فهو الذي شهد له بالحق، ولهذا لما سمع النجاشي من الصحابة ما شهد به محمد ﷺ للمسيح، قال لهم: ما زاد عيسى على ما قلتم هذا العود.

وجعل الله أمة محمد ﷺ شهادة على الناس، يشهدون عليه بما علموا من الحق إذ كانوا وسطاً عدلاً لا يشهدون بباطل^(٤)، فإن الشاهد لا يكون إلا عدلاً، بخلاف من جار في شهادته فزاد على الحق أو نقص منه، كشهادة اليهود والنصاري في المسيح.

وأيضاً فإن (معنى)^(٥) الفارقليط: إن كان هو الحامد أو الحماد أو المحمود أو الحمد، فهذا وصف ظاهر في محمد ﷺ، فإنه وأمه الحامدون الذين يحمدون الله على كل حال، وهو صاحب لواء الحمد، والحمد مفتاح خطبه ومفتاح صلاته، ولما كان حماداً سمي بمثل وصفه (محمدأ)^(٦) على وزن مكرّم ومقديس ومعظم، وهو الذي يحمد أكثر ما يحمد غيره، ويستحق ذلك فلما كان حماداً لله كان محمدأ، وفي شعر حسان^(٧):

أغر عليه للنبوة خاتم
من الله (يمون)^(٨) يلوح ويشهد
إذ قال في الخمس المؤذن أشهد
فذو العرش محمود وهذا محمد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه
وشق له من اسمه ليجله

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ب، ج، ص: عما افترته عليه اليهود.

(٣) في ج: غالٌ.

(٤) كما قال تعالى: ﴿وَكُذْلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أَمَةً وَسَطَّا لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً...﴾ [البقرة: ١٤٣].

(٥) في ب، ص: المعنى في.

(٦) في ب، ج، ص: فهو محمد.

(٧) ديوان حسان بن ثابت: ص ٤٧ ، دار صادر، بيروت: ١٣٨٦ هـ.

(٨) في الديوان: مشهود.

وأما أحمد فهو أفعل التفضيل إذ هو أحمد من غيره، أي أحق بأن يكون محموداً أكثر من غيره، يقال: هذا أحمد من هذا، أي أحق بأن يحمد من هذا، فيكون فيه تفضيل على غيره في كونه محموداً، للفظ محمد يقتضي زيادة في الكمية، ولفظ أحمد يقتضي زيادة في الكيفية.

ومن الناس من يقول: معناه أنه أكثر حمداً لله من غيره وعلى هذا فيكون بمعنى الحامد والحمد وعلى الأول بمعنى المحمود.

وإذا كان الفارق ليط بمعنى الحمد، فهو تسمية بالمصدر مبالغة في كثرة الحمد، كما يقال: رجل عدل ورضي ونظائر ذلك، وبهذا يظهر سر ما أخبر به القرآن عن المسيح من قوله: ﴿وَمِنْهُ أَدْسِلَ يَأْتُهُ مِنْ بَعْدِي، اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾.

فإن هذا هو معنى الفارقليط كما تقدم.

وفي التوراة ما ترجمته بالعربية: وأما في إسماعيل فقد قبلت دعاءك (قد)^(١) باركت فيه وأثمرت وأكثره بـ (مؤد مؤد)^(٢). هذا اللفظ مؤد مؤد على وزن عمر، وقد اختلفت فيها علماء أهل الكتاب، فطائفة تقول: معناها جداً جداً أي كثيراً كثيراً، فإن كان هذا معناها فهوإشارة بمن عظم من نبيه كثيراً كثيراً، وعلومن أنه لم يعظم من نبيه أكثر مما عظم

وقالت طائفة أخرى: بل هي صريحة اسم محمد، قالوا: ويدل عليه أن ألفاظ العبرانية قريبة من ألفاظ العربية، فهي أقرب اللغات إلى العربية^(٣)، فإنهم يقولون لإسماعيل: شماعيل وسمعتك: شمعتاخا (وأنا: أني)^(٤) وقدسك: قد شتخا، وأنت: أنا، وإسرائيل: يسرائيل، وتأمل قوله في التوراة: (قدش لي خلّ بخور ريحם ببني يسرائيل يادام وبهيمال له).

(١) في ب، ج، ص: ها أنا قد.

(٢) في جميع النسخ كتبت الهمزة على ألف (مأد مأد).

(٣) اللغة العربية واللغة العبرية لغتان ساميتان، بينهما أوجه شبه كثيرة ذكرها الدكتور ربحي كمال في مقدمة كتابه: دروس اللغة العبرية.

(٤) في ب، ج، ص: واياه أتو.

معناه: «قدس لي كل بكر أو مولود رحم فيبني إسرائيل من إنسان إلى بئمة لي»^(١).

وتأمل قوله «نابي أقيم لا هيم مفارت أخيهم كاموها الأوه يشماعون» وإن معناه: نبأً أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك له تسمعون^(٢). وكذلك قوله: «أنتم عابريين بقبول أحبيحيمبني عيساً» «أنتم عابرون في تخ إخوتكمبني العيس»^(٣) ونظائر ذلك أكثر من أن تذكر.

فإذا أخذت لفظة (مود مود)^(٤) وجدتها أقرب شيء إلى لفظة محمد وإذا أردت تحقيق ذلك فطابق بين ألفاظ العبرانية والعربية، ولذلك يقولون: أصيغ الوهيم، أي أصيغ الله كتب له بها التوراة.

ويدل على ذلك أداة الباء في قوله (بمود مود) ولا يقال: أعظمه بجداً جداً، بخلاف أعظمه بمحمد^(٥) (وكذلك هو فإنه عظم به وازداد به شرفاً إلى شرفه)، بل تعظيمه بمحمد ابنه^(٦) فوق تعظيم كل والد لولده العظيم القدر. فالله سبحانه وتعالى (كثره)^(٧) بمحمد^(٨).

وعلى التقديرين فالنص من أظهر البشارات به. أما على هذا التفسير فظاهر جداً

(١) الخروج: ١/١٣.

(٢) النص: نبأً أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك، الثانية: ١٨/١٨. وأما كلمة «له تسمعون» فهي في قوله «يقيم لك الرب إليها نبأً من وسطك من إخوتك مثل لي له تسمعون»، الثانية: ١٥/٨. وفي ب، ج، ص: مثلك به يؤمنون.

(٣) الثانية: ٤/٢.

(٤) ذكر الدكتور السقا أن هذه اللفظة تساوي في حساب الجمل ما يساويه اسم (محمد)، وقد أضاف إليها الباء كما وردت في النص واعتبر الواو همزة.

ب = ٢ ، م = ٤٠ ، الهمزة = ١ ، د = ٤ ، المجموع = ٩٢.

م = ٢٠ ، ح = ٨ ، م = ٤٠ ، د = ٤ ، المجموع = ٩٢.

(انظر: أقانيم النصارى، د. السقا: ٣٠).

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) في ب، ج، ص: كبيرة.

جداً، وأما على التفسير الأول فإنه كثر إسماعيل (وعظمه)^(١) على إسحق جداً جداً بابه محمد ﷺ. فإذا طابت بين معنى البارقليط ومعنى مود مود ومعنى محمد وأحمد، ونظرت إلى خصال الحمد التي فيه وتسميتها أمته (بالحامدين)^(٢)، وافتتاح كتابه بالحمد (وافتتاح الصلاة بالحمد)^(٣)، وكثرة خصال الحمد التي فيه وفي أمته وفي دينه وفي كتابه، وعرفت ما خلص به العالم من أنواع الشرك والكفر والخطايا والبدع والقول على الله بغير علم، وما أعز الله به الحق وأهله، وقمع به الباطل وحزبه، تيقنت أنه الفارقليط بالاعتبارات كلها، فمن هذا الذي هو روح الحق الذي لا يتكلم إلا بما يوحى إليه ومن هو العاقب لل المسيح والشاهد لما جاء به والمصدق له بمجيئه؟ ومن الذي أخبرنا بالحوادث والأزمات المستقبلية، كخروج الدجال، وظهور الدابة، وطلع الشمس من مغربها، وخروج ياجوج ومأجوج، ونزول المسيح ابن مريم، وظهور النار التي تحشر الناس، وأضعاف أضعاف ذلك من الغيوب التي قبل يوم القيمة، والغيوب الواقعة يوم القيمة من الصراط والميزان والحساب، وأخذ الكتب بالأيمان والشمائل وتفاصيل ما في الجنة والنار مما لم يذكر في التوراة والإنجيل، غير محمد ﷺ، ومن الذي وبخ العالم على الخطايا سواه، ومن الذي عرف الأمة (ما ينبغي لله)^(٤) حق التعريف غيره، ومن الذي يتكلم في هذا الباب بما لم يطق أكثر العالم أن يقبلوه غيره، حتى عجزت عنه عقول كثيرة من صدقه وأمن به، فساموه أنواع (التحريف)^(٥) والتأويل بعجز عقولهم عن حمله، كما قال أنخوه المسيح صلوات الله عليهم وسلم: ومن الذي أرسل إلى جميع (الخلق)^(٦) قولهً عملاً واعتقاداً في معرفة الله وأسمائه وصفاته وأحكامه وأفعاله (وقضائه)^(٧) وقدره، غيره ﷺ؟ ومن هو أركون العالم الذي أتي بعد المسيح غيره، وأركون العالم هو عظيم العالم وكبير العالم، وتأمل قول المسيح في هذه البشارة التي لا ينكرونها (أن أركون العالم سيأتي وليس لي من

(١) سقطت من ج.

(٢) في ب، ج، ص: بالحامدين.

(٣) هذا في ج فقط.

(٤) سقطت من ج.

(٥) في الأصل: التحريف.

(٦) في ب، ج، ص: الخلق بالحق.

(٧) في الأصل: وقضائه.

الأمر شيء^(١) كيف (وهي شاهدة)^(٢) بنبوة المسيح وبنبوة محمد ﷺ معاً، فإنه لما جاء صار الأمر له دون المسيح، فوجب على العالم كلهم طاعته والانقياد له ولأمره وصار الأمر له حقيقة، ولم يبق بأيدي النصارى إلا دين باطله أضعف أضعف حقه، وحقيقه منسوخ بما بعث الله به محمداً ﷺ، فطابق قول المسيح قول أخيه محمد ﷺ «ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً وإماماً مقوساً فيحكم بكتاب ربكم»^(٣).

وقوله في اللفظ الآخر (فأمكم)^(٤) بكتاب ربكم، فتطابق قول الرسولين الكريمين صلى الله عليهما وسلم، وبشر الأول بالثاني وصدق الثاني بالأول.

وتأمل قوله في البشارة الأخرى، ألم تر إلى الحجر الذي أخره البناءون صار (أسا)^(٥) للزاوية^(٦)، كيف تجده مطابقاً لقول النبي ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي، كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأتمها إلا موضع لبنة منها، فجعل الناس (يتطوفون)^(٧) ويعجبون منها ويقولون: هلا وضعتم تلك اللبنة؟ فكنت أنا تلك اللبنة»^(٨).

وتأمل قول المسيح في هذه البشارة: «إن ذلك لعجب في أعيننا»^(٩) وتأمل قوله فيها: «إن ملوكوت الله سيؤخذ منكم ويدفع إلى (أمة أخرى)»^(١٠) كيف تجده مطابقاً لقوله تعالى: «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون»^(١١).

وقوله: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليرسلنهم من بعد

(١) يوحنا: ١٤/٣٠.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) البخاري، بیویع: ص ١٠٢؛ مظالم: ص ٣١؛ مسلم، الإيمان: ص ٢٤٢.

(٤) في ص: فیأتیکم.

(٥) في ب: رأساً، وهو هكذا في الإنجيل.

(٦) متى: ٤٣/٢١؛ مرقس: ١٢/١٠؛ لوقا: ٢٠/١٧.

(٧) في الأصل يطيفون.

(٨) صحيح مسلم، الفضائل: ص ٢٠.

(٩) متى: ٤٣/٢١.

(١٠) في الإنجيل: أمة تعمل اثماره، متى: ٢١/٤٤.

(١١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.

خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون»^(١).
وتأمل قوله في البارقليط المبشر به: «يفشي لكم الأسرار ويفسر لكم كل شيء فإني
أجيئكم بالأمثال وهو يأتيكم بالتأويل»^(٢).

كيف تجده مطابقاً للواقع من كل وجه لقوله تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ
شَيْءٍ»^(٣).

ولقوله تعالى: «مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرِى وَلَكُنْ تَصْدِيقُ الدِّيَنِ بَيْنَ يَدِيهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ
شَيْءٍ وَهُدُى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»^(٤).

وإذا تأملت التوراة والإنجيل والكتب، وتأملت القرآن وجدته كالتفصيل لجملها
والتأويل لأمثلتها والشرح لرموزها، وهذا حقيقة قول المسيح «أجيئكم بالأمثال ويجئكم
بتاؤيل ويفسر لكم كل شيء».

وإذا تأملت قوله: «وَكُلُّ شَيْءٍ أَعْدَهُ اللَّهُ لَكُمْ يَخْبُرُكُمْ بِهِ» وتفاصيل ما أخبر به من
الجنة والنار والثواب والعقاب، تيقنت صدق الرسولين الكريمين. ومطابقة (الآيات)^(٥)
المفصل من محمد ﷺ للخبر المجمل من أخيه المسيح عليه الصلاة والسلام. وتأمل قوله
في البارقليط: «وَهُوَ يَشَهِّدُ لِي كَمَا شَهَدْتُ لَهُ» كيف تجده منطبقاً على محمد بن عبد الله،
وكيف تجده شاهداً بصدق الرسولين، وكيف تجده صريحاً في رجل يأتي بعد المسيح
يشهد له بأنه عبد الله ورسوله، كما شهد له المسيح، فلقد أذن المسيح بنبوة محمد
صلى الله وسلم عليهما أذاناً لم يؤذنه النبي قبله، وأعلن بتكبير ربه أن تكون له صاحبة
أول ولد، ثم رفع صوته بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهًا واحدًا أحدًا فرداً
صمدًا، «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدًا»، ثم أعلن بشهادة أن محمدًا عبد
رسوله، الشاهد له بنبوته المؤيد (بروح الحق)^(٦) الذي لا يقول من تلقاء نفسه بل يتكلم

(١) سورة النور: الآية ٥٥.

(٢) كورنثوس الأولى: ٢/١٤.

(٣) سورة النحل: الآية ٨٩.

(٤) سورة يوسف: الآية ١١١.

(٥) في ب، ج، ص: الأخبار.

(٦) في الأصل: بروح القدس.

بما يوحى إليه، ويعلمهم كل شيء ويخبر بما أعد الله لهم، ثم رفع صوته بحبي على الفلاح باتباعه والإيمان به وتصديقه، وأنه ليس له من الأمر (شيء)^(١)، وختم التأذين بأن ملكتوت الله سيؤخذ من كذبه ويدفع إلى أتباعه والمؤمنين به، فهلك من هلك عن بيته، وعاش (من عاش عن بيته)^(٢) فاستجاب أتباع المسيح حقاً لهذا التأذين وأباء الكافرون والجاحدون. فقال تعالى: ﴿إِنِّي مَتَوفِّيكُ وَرَافِعُكُ إِلَيَّ وَمُطْهِرُكُ مِنَ الظُّنُونِ كُفَّارُوا وَجَاءُوكُمْ الَّذِينَ اتَّبَعُوكُ فَوْقَ الظُّنُونِ كُفَّارُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَبْيَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(٣).

وهذا بشارة بأن المسلمين لا يزالون فوق النصارى إلى يوم القيمة، فإن المسلمين هم أتباع المسيح في الحقيقة وأتباع جميع الأنبياء، لا أعداؤه! (أعداؤه)^(٤) عباد الصليب، الذين رضوا أن يكونوا مصلوبواً مقتولاً، ولم يرضوا أن يكونوا نبياً عبد الله وجيهاً عنده مقرباً لديه. فهوأء أعداؤه حقاً والمسلمون أتباعه حقاً، والمقصود أن بشارة المسيح بالنبي ﷺ فوق كل بشارة، لما كان أقرب الأنبياء إليه وأولاهم به وليس بيته وبينه النبي (مرسل صاحب شريعة وكتاب)^(٥).

(فصل): وتأمل قول المسيح: «أن أركون العالم سأتأتي»^(٦) وأركون العالم هو سيد العالم وعظيمه، ومن الذي ساد العالم وأطاعه العالم بعد المسيح غير النبي عليه الصلاة والسلام؟ وتأمل قول النبي ﷺ وقد سئل ما كان أول أمرك؟ قال: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشر بي عيسى»^(٧).

وطابق بين هذا وبين هذه البشارة التي ذكرها المسيح فمن الذي ساد العالم باطنًا وظاهرًا وانقادت له القلوب والأجساد وأطيع في السر والعلانية في محياه وبعد مماته في

(١) في ج: معه من شيء.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٥٥.

(٤) سقطت من الأصل، وفي ج: إلا أعداؤه.

(٥) سقطت من ب، ج، ص.

(٦) يوحنا: ٣٠ / ١٤.

(٧) أخرجه الإمام أحمد في مستذه عن أبي أمامة (مستند الإمام أحمد ٥/٢٦٢).

جميع الأعصار وأفضل الأقاليم والأمصار، وسارت دعوته مسير الشمس في الأقطار وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار، وخرّت لمجئه الأمم على الأذقان، وبطلت به عبادة الأوثان، وقامت به دعوة الرحمن، واضمحلت به دعوة الشيطان، وأذل الكافرين والجاحدين، وأعز المؤمنين، وجاء بالحق وصدق المرسلين، حتى أعلن بالتوحيد على رؤوس الأشهاد، وعبد الله وحده لا شريك له في كل حاضر وباد، وامتلأت به الأرض تحميدها وتسبّهاً وتتكبرأً، واكتست به بعد الظلم والظلام عدلاً ونوراً.

(فصل): وطابق بين قول المسيح «أن أركون العالم سيأتيكم» وقول أخيه محمد ﷺ: «أنا سيد ولد أدم ولا فخر، آدم تحت لوائي وأنا خطيب الأنبياء (إذا وفدوا) ^(١) وإنماهم إذا اجتمعوا ومبشرهم إذا يئسوا. لواء الحمد بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربّي» ^(٢).

(فصل): وفي قول المسيح في هذه البشارة: «وليس لي من الأمر شيء» إشارة إلى التوحيد وأن الأمر كله لله، ففضّلت هذه البشارة (أصل الدين) ^(٣) إثبات التوحيد وإثبات النبوة.

وهذا الذي قاله المسيح مطابق لما جاء به أخوه محمد بن عبد الله عن ربّه من قوله: «ليس لك من الأمر شيء» ^(٤).

فمن تأمل حال الرسولين الكريمين ودعوتهم وجدهما متوافقين مطابقين حذو القدة بالقدة، وأنه لا يمكن التصديق بأحدّهما مع التكذيب بالأخر البتة، فإن المكذب بمحمد ﷺ أشد تكذيباً للمسيح الذي هو المسيح ابن مريم عبد الله ورسوله، وإن آمن بمسيح لا حقيقة له ولا وجود فهو أبطل الباطل.

(١) سقطت من الأصل.

(٢) هذا الحديث متكملاً بهذا النص لم أجده في كتب الحديث الثمانية، وقد أخرجه الترمذى في جامعه في حديثين مع اختلاف بسيط جداً في بعض الكلمات (انظر: جامع الترمذى، كتاب المناقب: ١٣٦١٥ - ٣٦١٥) قال الترمذى عن حديث (٣٦١٥): هذا حديث حسن غريب، وعن الثاني (٣٦١٥): وفي الحديث قصة وهذا حديث حسن صحيح.

(٣) في ج: أصل.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٢٨.

وقد قال يوحنا في كتاب «أخبار الحواريين»^(١) وهو يسمونه «افراكيس»^(٢):
 (يا أحبابي إياكم أن تؤمنوا بكل روح، ولكن ميزوا الأرواح التي من عند الله من غيرها،
 واعلموا أن كل روح تؤمن بأن يسوع المسيح قد جاء وكان جسدياً فهي من عند الله وكل
 روح لا تؤمن أن المسيح قد جاء وكان جسدياً فليست من عند الله بل من المسيح
 الكذاب الذي هو الآن في العالم)^(٣).

[عقيدة المسلمين في المسيح تكرمه وعقيدة النصارى فيه تهينه]

فالMuslimون يؤمنون بالMessiah الصادق الذي جاء من عند الله بالهداي ودين الحق
 الذي هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، والنصارى إنما تؤمن
 بmessiah دعا لعبادة نفسه وأمه، وأنه ثالث ثلاثة، وأنه الله أو ابن الله، وهذا هو أخوه المسيح
 الكذاب لو كان له وجود.

فإن المسيح الكذاب يزعم أنه الله والنصارى في الحقيقة أتباع هذا المسيح
 (الكذاب)^(٤)، كما أن اليهود يتظرون خروجه، وهم يزعمون أنهم يتظرون النبي الذي
 بُشروا به، فعوضهم الشيطان بعد مجئه من الإيمان به الانتظار للمسيح الدجال، (وهكذا
 كل من أعرض عن الحق يعوض من الباطل، وأصل هذا أن إيليس)^(٥) لما أعرض عن
 السجود لأدّم كبراً أن يخضع له تعوض من ذلك ذل القيادة لكل فاسق مجرم من نبيه
 فلا بتلك النخوة ولا بهذه الحرفة. والنصارى لما أنفوا أن يكون المسيح عبداً لله تعوضوا
 من هذه الأنفة بأن رضوا (أن يجعلوه)^(٦) مصفعة لليهود، ومصلوبهم الذي يسخرون منه
 ويهزأون به، ثم عقدوا له تاجاً من الشوك بدل تاج الملك، وساقوه في حبل إلى خشبة
 الصليب يصفعون حوله ويرقصون، فلا بتلك الأنفة من عبودية الله، ولا بهذه النسبة له إلى
 أعظم الذل والضييم والقهـر.

(١) ويسمى في الترجمات الحالية: أعمال الرسل، وهو من وضع بولس.

(٢) افراكيس، ذكره ابن النديم في الفهرست: ص ٤١ وهو سفر أعمال الرسل.

(٣) هذا النص ورد في رسالة يوحنا الأولى ٤/١ - ٣ ولم يرد في سفر أعمال الرسل كما أشار المؤلف.

(٤) سقطت من ب، ج، ص.

(٥) في الأصل: وهذه طريقة الشيطان.

(٦) في ج، ص، ب: يجعله.

[وقوع النصارى بالشرك مع ادعائهم التنزية لله تعالى]

وكذلك أنفوا أن يكون للبترك والراهب زوجة أو ولد، وجعلوا الله رب العالمين الولد والزوجة، وكذلك أنفوا أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ويطيعوا عبده رسوله، ثم رضوا بعبادة الصليب والصور المصنوعة بالأيدي في الحيطان، وطاعة كل من يحرم عليهم ما شاء أو يحلل لهم ما شاء، ويشرع لهم من الدين ما شاء ومن تلقاه نفسه.

[الجهمية وقعوا في الشرك بحججة التنزية]

ونظير هذا التعريض أنفت الجهمية أن يكون الله سبحانه وتعالى فوق سمواته على عرشه مبيناً من خلقه حتى لا يكون محصوراً بزعمهم في جهة معينة، ثم قالوا: هو في كل مكان بذاته، فحصروه في الآبار والسجون (والأنجاس والأحواش)^(١) وعوضوه بهذه الأمكانة عن عرشه المجيد. فليتأمل العاقل لعب الشيطان بعقله هذا الخلق وضحكه عليهم واستهزأ بهم.

[مطابقة هذه البشارات لنصوص من الكتاب والسنة]

(فصل): وقول المسيح: «إذا انطلقت أرسلتكم إليكم» معناه: أني أرسله بدعائي وطلبي منه أن يرسله، كما يطلب الطالب من ولی الأمر أن يرسل رسولاً، أو يولي نائباً، أو يعطي أحداً، فيقول: أنا أرسلت هذا ووليته وأعطيته (أي)^(٢) كنت سبباً في ذلك. فإن الله سبحانه وتعالى إذا قضى بأن يكون الشيء، فإنه يقدر له أسباباً يكون بها. ومن تلك الأسباب دعاء بعض عباده بأن يفعل ذلك، فيكون في ذلك من النعمة إجابة دعائه مضافاً إلى نعمته بإيجاد ما قضى كونه. ومحمد ﷺ قد دعا به الخليل عليه الصلاة والسلام

(١) في ج: الأنحاس والأحواس وفي ب، ص: الأنحاش والأخفاض. والأنجاس، بالسين جمع نجس بكسر الجيم وهو الشيء القذر.

والأحواش: من الحائش وهو المجتمع من الشجر، وقيل النخل الملتف المجتمع كأنه لاتفاقه يحوش بعضه إلى بعض، وفي الحديث: أنه دخل حائش نخل فقضى فيه حاجته (لسان العرب).

(٢) في ب، ص: يعني أني .

أبوه، فقال: ﴿رَبُّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيَزْكِيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١).

مع أن الله سبحانه وتعالى قد قضى بإرساله وأعلن باسمه، قبل ذلك كما قيل له: يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال: وآدم بين الروح والجسد^(٢). وقال: «إني عند الله لمكتوب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته»^(٣).

وهذا كما قضى الله سبحانه وتعالى بنصره يوم بدر، ومن أسباب ذلك استعانته بربه ودعاؤه وابتهاle بالنصر، وكذلك ما يقتضيه من إنزال الغيث قد يجعله بسبب ابتهاle عباده (ودعائهم)^(٤) وتضرعهم إليه، وكذلك ما يقتضيه من مغفرة ورحمة وهداية ونصر، قد يسبب له أدعية يحصل بها من ينال ذلك، أو من غيره، فلا يمتنع أن يكون (المسيح)^(٥) سأله ربّه بعد صعوده أن يرسل أخيه محمداً^(٦) إلى العالم، ويكون ذلك من (أسباب)^(٧) إرساله إضافة إلى دعوة (أبيه)^(٨) إبراهيم، لكن إبراهيم سأله ربّه أن يرسله في الدنيا، فلذلك ذكره الله سبحانه وتعالى، وأما المسيح فإنما سأله بعد رفعه وصعوده إلى السماء (كما وعد قبل رفعه)^(٩).

فصل: وتأمل قول المسيح: «إني لست أدعكم أيتاماً لأنني سأريك عن قريب»^(١٠) كيف هو مطابق لقول أخيه محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليهما: «ينزل فيكم ابن

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٩.

(٢) الحديث أخرجه الترمذى في المناقب: ١/٣٦٠٩ وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث أبي هريرة لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٤/٦٦ و٥/٥٥.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٤/١٢٧ - ١٢٨.

(٤) في ج: وابنا لهم.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) في الأصل: من سبب.

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) سقطت من ب، ج، ص.

(٩) يوحنا: ١٤/١٨ - ٣٧.

مرير حكماً وعدلاً وإماماً مقوطاً فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية^(١)، وأوصى أمهه بأن يقرئه السلام منه من لقيه منهم.

وفي حديث آخر «كيف تهلك أمة أنا في أولها وعيسي في آخرها»^(٢).

بشارات من التوراة:

(فصل): وقد تقدم نص التوراة «تجلى الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران».

قال علماء الإسلام – وهذا لفظ أبي محمد بن قتيبة – : ليس بهذا خفاء على من تدبره ولا غموض ، لأن (المجيء أي)^(٣) مجيء الله من طور سيناء: إنزاله التوراة على موسى من طور سيناء كالذى هو عند أهل الكتاب وعندنا، وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير: إنزاله الإنجيل على المسيح ، وكان المسيح من ساعير، أرض الخليل ، بقرينة تدعى ناصرة^(٤)، وباسمها تسمى من اتباه نصارى^(٥)، وكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير بال المسيح ، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران: إنزاله القرآن على محمد عليه السلام ، وجبال فاران هي جبال مكة ، قال: وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة ، فإن أدعوا أنها غير مكة – وليس ينكر ذلك من تحريفهم وإفکهم – قلنا : أليس في التوراة «أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران»^(٦) وقلنا (لهم)^(٧): دلونا

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في المظالم: ٢٤٦٧ / ٣١ وأخرجه مسلم في الإيمان: ٢٤٢ / ٧١ . وزاد في الصحيحين: وفيض المال حتى لا يقبله أحد.

(٢) ذكره السيوطي في الجامع الصغير، وضعفه وقال: أخرجه أبو نعيم في أخبار المهدي عن ابن عباس. (الجامع الصغير، السيوطي: ٢/١٢٨).

(٣) سقطت من ب، ج، ص.

(٤) الناصرة ليست من أرض الخليل ، بل هي من أرض الجليل ، أما ساعير فهي من أرض الخليل ، وإشراقه من ساعير ليس بمعنى إنزال الإنجيل عليه لأن الناصرة في شمال فلسطين وساعير في جنوبها ، وإنما بمعنى أن المنطقة كانت أرض دعوته.

(٥) انظر: الجواب الصحيح: ١ / ٣٠٠ نقلًا عن دلائل البوة لابن قتيبة.

(٦) التكونين: ٢١/٢١.

(٧) سقط من ب، ج، ص.

على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران والنبي الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح.

أوليس استعلن وعلن بمعنى واحد وهما ظهر وانكشف؟ فهل تعلمون ديناً ظهر ظهور الإسلام وفشا في مشارق الأرض وغاربها؟ (فيينوه لنا)^(١). (قال علماء الإسلام)^(٢): وساعير جبل بالشام منه ظهور نبوة المسيح إلى جانب قرية بيت لحم^(٣) – القرية التي ولد فيها المسيح – تسمى اليوم ساعير.

وفي التوراة أن نسل العيص كانوا سكاناً بساعير، وأمر الله موسى أن لا يؤذيهم^(٤).

قال شيخ الإسلام – (يعني ابن تيمية رحمه الله)^(٥) – : (وعلى هذا فيكون قد ذكر الجبال الثلاثة، (وحراء)^(٦) الذي ليس حول (مكة)^(٧) أعلى منه، وفيه ابتداء رسول الله ﷺ بنزول الوحي عليه، وحوله جبال كثيرة وذلک المكان يسمى فاران إلى هذا اليوم، والبرية التي بين مكة وطور سيناء تسمى برية فاران، ولا يمكن أحداً أن يدعى أنه بعد المسيح نزل كتاب في شيء من تلك الأماكن ولا بعث (نبي)^(٨)، فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلا إرسال محمد ﷺ، وهو سبحانه ذكر هذا في التوراة على الترتيب الزمانى فذكر إنزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن، وهذه الكتب نور الله تعالى وهدايته، وقال في الأول: « جاء » وفي الثاني: « أشرق » وفي الثالث: « استعلن » وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر وننزل الإنجيل مثل إشراق الشمس وننزل القرآن بمنزلة ظهور الشمس في السماء ولهذا قال: « واستعلن من جبال فاران » فإن محمدًا ﷺ ظهر به نور الله وهذا

(١) في ب، ص: فشوه قال علماء، وفي ج: فيينوه علماء.

(٢) في الجواب الصحيح: قال أبو هاشم بن ظفر.

(٣) بيت لحم: اسم عربى معناه بيت الخبز، وهي بلدة مبنية على أكمة تبعد ستة أميال إلى الجنوب، من القدس، ولد فيها المسيح عليه السلام (قاموس الكتاب المقدس: ٢٠٥/١).

(٤) كل هذا منقول بالحرف من كتاب الجواب الصحيح لابن تيمية، انظر: الجواب الصحيح: ٣٠٠ - ٣٠١.

(٥) سقطت من ب، ج، ص.

(٦) في ج: جبل حراء، وهو هكذا في الجواب الصحيح.

(٧) في ج: مكة المشرفة.

(٨) سقطت من ج.

في مشرق الأرض ومغاربها أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين، كما يظهر نور الشمس في مشارق الأرض ومغاربها (إذا استعلت)^(١) وتوسّطت (السماء)^(٢)، ولهذا سمّاه الله تعالى سراجاً منيراً^(٣)، وسمى الشمس سراجاً وهاجاً^(٤). والخلق يحتاجون إلى السراج المنير أعظم من احتياجهم إلى السراج الوهاج، فإن هذا يحتاجون إليه في وقت دون وقت، وأما السراج المنير فيحتاجون إليه في كل وقت، وفي كل مكان ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الأماكن الثلاثة في قوله تعالى: «والتنين والزيتون»^(٥) وهو في الأرض المقدسة التي بعث منها المسيح وأنزل فيها الإنجيل «وطور سينين»^(٦) وهو الجبل الذي كرم الله عليه موسى عليه الصلاة والسلام تكليماً، وناداه من واديه الأمين من البقعة المباركة في الشجرة التي فيه. وأقسم بالبلد الأمين وهو مكة ، التي أسكن إبراهيم (إسماعيل وأمه)^(٧) فيه وهو فاران كما تقدم. ولما كان (ما)^(٨) في التوراة خبراً عن ذلك أخبر به على الترتيب الزمامي فقدم الأسبق ثم الذي يليه، وأما القرآن فإنه أقسم به تعظيمياً (ل شأنها)^(٩) وإظهاراً لقدرته وأياته وكتبه ورسله، فأقسم بها على وجه التدرج درجة بعد درجة، فبدأ بالعالى ، ثم انتقل إلى أعلى منه، ثم إلى أعلى منه، فإن أشرف (الكتب)^(١٠) القرآن ثم التوراة ثم الإنجيل، وكذلك الأنبياء الثلاثة^(١١).

[موافقة أقوال علماء المسلمين لما ورد في التوراة]

(فصل): وهذا الذي ذكره ابن قتيبة وغيره من علماء المسلمين ، من تأمل التوراة وجدتها ناطقة به صريحاً فيه فإن فيها «وقد أتاك إبراهيم فأخذ الغلام وأخذ خبراً وسقاء من ماء

(١) في ج: استعلت، وفي الأصل: إذا استعلنت.

(٢) سقطت من ب، ص.

(٣) وذلك في قوله تعالى «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً» [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

(٤) في قوله تعالى «وجعلنا سراجاً وهاجاً» [النبا: ١٣].

(٥) في ج: ولده إسماعيل أمه.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) في ج: لشرفها.

(٨) في ج: الكتب المنزلة.

(٩) هذا كله منقول بتصرف عن الجواب الصحيح انظر: ٣٠١/٣ - ٣٠٤.

ودفعه إلى هاجر وحمله عليها وقال لها: اذهب بي، فانطلقت هاجر، ونفذ الماء الذي كان معها، فطرحت الغلام تحت شجرة، وجلست مقابلته على مقدار رمية حجر، لئلا تبصر الغلام حين يموت، ورفعت صوتها بالبكاء، وسمع الله صوت الغلام، وحيث هو فقال لها الملك قومي وأحملني الغلام، وشدي يديك به، فلاني جاعله لأمّة عظيمة، وفتح الله (عينيها)^(١)، (فرأت بئر ماء)^(٢)، فسقت وملأت سقاءها، وكان الله مع الغلام، فربى وسكن في بريّة فاران^(٣).

(فهذا نص التوراة أن إسماعيل رُبِّي، وسكن في (برّية)^(٤) فاران بعد أن كاد يموت من العطش، وأن الله تعالى (سقاه من بئر ماء)^(٥)، وقد علم بالتواتر واتفاق الأمم أن إسماعيل إنما ربّي بمكة هو وأبوه (إبراهيم)^(٦) بنيا البيت، فعلم قطعاً أن فاران هي أرض مكة^(٧).

(فصل): ومثل هذه البشارة من كلام شمعون مما قبلوه ورضوا ترجمته: جاء الله من جبال فاران وامتلأ الأرض من تسبيحه وتسبيح أمته^(٨)، ولم يخرج أحد فقط من جبال فاران امتلأ الأرض من تسبيحه وتسبيح أمته سوى محمد ﷺ، فإن المسيح لم يكن بأرض فاران البتة، وموسى إنما كلم من الطور والطور ليس من أرض فاران، وإن كانت البرية التي بين مكة والطور تسمى بريّة فاران، فلم ينزل الله فيها التوراة، وبشارة التوراة قد تقدمت بجبل الطور وبشارة الإنجيل بجبل ساعير^(٩).

(١) في ج، والأصل: عليها.

(٢) في ب، ج، ص: فصرت بئر ماء.

(٣) انظر: التكويرين: ١٤/٢١ – ٢١ وهذا النص منقول بالحرف عن الجواب الصحيح ٣٠٥/٣.

(٤) في ب، ج، ص: تربة.

(٥) في ج: من بئر ماء.

(٦) سقطت من ج.

(٧) من الجواب الصحيح ٣٠٥/٣.

(٨) جاء هذا النص في حقوق: ٣/٣ فيكون هذا من كلام حقوق لا من كلام شمعون كما ذكر المؤلف، كما أن النص في حقوق في النسخ الموجودة حالياً: «الله جاء من يثمان والقدس من جبل فاران، سلاه جلاله غطى السموات والأرض امتلأ من تسبيحه» ولم يذكر: وتسبيح أمته، والمؤلف نقل ذلك عن الجواب الصحيح ٣١٢/٣.

(٩) انظر: الجواب الصحيح: ٣١٢/٣.

(فصل) : ونظير هذا ما نقلوه ورضاوا ترجمته في نبوة حقوق^(١) (جاء الله من اليمن)^(٢) وظهر (بيت المقدس والقدس)^(٣) على جبال فاران وامتلأت الأرض من تحميد أحمد، وملك بيمينه رقاب الأمم، وأنارت الأرض لنوره، وحملت خيله في البحر^(٤).

قال ابن قتيبة : وزادني بعض أهل الكتاب (وستنزع في قسيك أعرافاً وترتبي إلهام بأمرك يا محمد ارتواء)^(٥).

وهذا إفصاح باسمه وصفاته، فإن ادعوا أنه غيره، فمن أحمد هذا الذي امتلأت الأرض من تحميده، والذي جاء من جبال فاران فملك رقاب الأمم.

* الوجه السادس^(٦) :

(فصل) : (ومن ذلك وهو)^(٧) قوله في الفصل التاسع^(٨) من السفر الأول من التوراة : إن هاجر لما فارقت سارة وخطبها الملك فقال : يا هاجر من أين أقبلت وإلى أين تريدين؟ فلما شرحت له الحال قال : ارجعي فإني سأكثُر ذريتك وزرعك حتى لا يحصلون ، وهذا أنت تحبلين وتلدرين ابناً اسمه إسماعيل ، لأن الله تعالى قد سمع ذلك وخضوعك ، ولذلك يكون وحشى الناس ويده فوق يد الجميع ويد الكل به ، ويكون مسكنه على (تخوم)^(٩) جميع إخوانه^(١٠).

(١) هذا الذي عزاه المؤلف هنا إلى حقوق، هو نفس النص السابق الذي نقله عن شمعون.

(٢) في حقوق : ٣/٣ من يتمان، وفي ص : من التين وكذلك في الجواب الصحيح ٣١٢/٣.

(٣) في ب، ج، ص : القدس.

(٤) النص بمعناه في حقوق ٣/٣ - ٨ لكن عبارة : « وامتلأت الأرض من تحميد أحمد وملك بيمينه رقاب الأمم » غير موجودة ، وكل العبارات عبارة عن مناجاة لله ومخاطبة له.

(٥) هذه الإضافة موجودة في حقوق لكن بتص (عربت قوسك تعرية سباعيات سهام كلمتك) وليس فيها بأمرك يا محمد ارتواء ».

والعبارات كما قلت لا تشير إلى أن الكلام عن محمد ﷺ كما فهم ابن قتيبة.

(٦) هذا الوجه كله متقول عن الجواب الصحيح : ٣١٣/٣ - ٣١٤ .

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) النص في الفصل السادس عشر لا في التاسع كما ذكر المؤلف نقاً عن الجواب الصحيح.

(٩) في ج : نحو.

(١٠) التكوير : ٧/١٦ - ١٢ .

قال المستخرجون لهذه البشارة: معلوم أن يدبني إسماعيل قبل مبعث محمد ﷺ
 لم تكن فوق أيديبني إسحق، بل في أيديبني إسحق النبوة والكتاب، وقد دخلوا مصر
 زمن يوسف مع يعقوب، فلم يكن لبني إسماعيل فوقهم يد، ثم خرجوا منها لما بعث
 موسى، وكان مع موسى (أعز أهل)^(١) لم يكن لأحد عليهم يد، وكذلك كانوا مع يوسف^(٢)
 إلى زمن داود، وملك سليمان الملك الذي لم يؤت أحد مثله، فلم تكن يدبني إسماعيل
 (ثم سلط الله عليهم بخت نصر)^(٣)، ففعل بهم الأفاعيل، ولم تكن يدبني إسماعيل
 عليهم^(٤)، ثم بعث الله المسيح فكفروا به، وكذبوا، فدمر الله عليهم تكذيبهم إياه، وزال
 ملکهم ولم يقم لهم بعده قائمة، وقطعهم الله في الأرض أمماً، وكانوا تحت حكم الروم
 والفرس وقهرهم، ولم تكن يد إسماعيل عليهم في هذه الحالة، ولا كانت فوق الجميع
 إلى أن بعث الله محمداً ﷺ برسالته، وأكرمه بنبوته فصارت بمعنهيدبني إسماعيل فوق
 الجميع، فلم يبق في الأرض (سلطان أعز من)^(٥) سلطانهم، بحيث قهروا سلطان فارس
 والروم والترك والديلم، وقهروا اليهود والنصارى والمجوس والصابئة وعبد الأصنام، وظهر
 بذلك تأويل قوله في التوراة «وتكون يده فوق الجميع ويد الكل به» وهذا أمر مستمر إلى
 آخر الدهر.

(قالت اليهود)^(٦): نحن لا ننكر هذا (ولكن)^(٧) هذه بشارة بملكه وظهوره وقهره
 لا برسالته ونبيته.

(قال المسلمين)^(٨): الملك ملکان، ملك ليس معه نبوة بل ملك جبار مسلط،

(١) في ب، ج، ص: من أعز أهل الأرض.

(٢) وهو يوسف بن نون فتى موسى الذي ذكر في قوله تعالى: «وإذ قال موسى لفتاه» [الكهف: ٦٠]
 كما أشار البخاري في صحيحه (التفسير: ٤٧٢٥/٢).

(٣) بختنصر بن نبوزراذون بن سنجارييف، قيل إنه من نسل أشوش بن سام، وكان يملك بين الأهواز
 والروم من غربي دجلة، وافتتح ما يليه من بلاد بابل والشام، ثم سار إلى القدس فافتتحها. انظر:
 العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون: ٢٠٩/٢).

(٤) سقطت من ب، ص.

(٥) سقطت من ج.

(٦) في الجواب الصحيح: فإن قيل.

(٧) في ج: ونقرأن.

(٨) في ج: قيل.

وملك (نفسه نبوة)^(١)، والبشرة لم تقع بالملك الأول، ولا سيما إذا أدعى صاحبه النبوة والرسالة، وهو كاذب مفتر على الله فهو من شر الخلق وأفجورهم وأكفرهم، فهذا لا تقع البشرة بملكه، وإنما يقع التحذير من فتنته، كما وقع التحذير من فتنة الدجال، بل هذا شرّ من سنحاريب^(٢) ويخت نصر الملوك الظالمة الفجرة الذين (كذبوا)^(٣) على الله، فالأخبار لا تكون بشارة ولا يفرح بها هاجر وإبراهيم ولا بشر من أخبر بذلك، ولا يكون ذلك (إثابة)^(٤) لها من خضوعها وذلها، فإن الله تعالى قد سمع ذلك، ويعظم هذا المولود ويجعله لأمة عظيمة، وهذا عند العاجدين بمنزلة أن يقال: إنك ستلدين جباراً ظالماً طاغياً يقهر الناس بالباطل، ويقتل أولياء الله، ويسبى حريمهم، ويأخذ أموالهم بالباطل، (ويبدل)^(٥) أديان الأنبياء، ويكتذب على الله ونحو ذلك.

فمن حمل هذه البشرة (على هذا) فهو من أعظم الخلق بهتاناً وفريدة على الله، وليس هذا بمستكر لأمة الغضب وقتلة الأنبياء والقوم البهت.

(فصل): الوجه السابع^(٦):

قول داود في الزبور: «سَبَحُوا اللَّهُ تَسْبِيحًا جَدِيدًا، وَلِيَفْرَحَ إِسْرَائِيلُ بِخَالِقِهِ، وَبِيَسُوتِ صَهِيْوَنَ مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَهُ أَمْتَهُ، وَأَعْطَاهُ النَّصْرَ، وَسَدَّ الصَّالِحِينَ بِالْكَرَامَةِ، وَيَسْبِحُونَ عَلَى مُضَاجِعِهِمْ، وَيَكْبُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى بِأَصْوَاتٍ مُرْتَفَعَةٍ، بِأَيْدِيهِمْ سَيِّفُ ذَاتِ شَفَرَتَيْنِ، لِيَتَقَمَّ بِهِمْ مِنَ الْأَمْمِ الَّذِينَ لَا يَعْبُدُونَهُ، يَوْثَقُونَ مُلُوكَهُمْ بِالْقِيَودِ وَأَشْرَافَهُمْ بِالْأَغْلَالِ»^(٧).

(١) في ج: معه نبوة وفي الأصل: نفسه بقوه.

(٢) سنحاريب: هو ملك أشور (٦٨٢ - ٧٠٤) ق.م. وقد اعتلى العرش بعد وفاة والده سرجون، كان محارباً عظيماً، ترك من آثار فوحاته وغزواته الكثير (قاموس الكتاب المقدس: ٤٨٨/١).

(٣) في ب، ص: لم يكتذبوا.

(٤) في ب، ص: إثابه.

(٥) في الأصل، وبطل.

(٦) هذا الوجه أيضاً مأخوذ من الجواب الصحيح بتصرف ٣١٤/٣ - ٣١٨.

(٧) النص الحالي في المزبور: (عَنَا لِلرَّبِّ تَرِيمَةً جَدِيدَةً تَسْبِيحَتْهُ فِي جَمَاعَةِ الْأَتْقَيَاءِ، لِيَفْرَحَ إِسْرَائِيلُ بِخَالِقِهِ لِيَتَهَجَّ بِنُوْصَهِيْوَنَ بِمُلْكِهِمْ... لَأَنَّ الرَّبَّ رَاضٌ عَنْ شَعْبِهِ يَجْمَلُ الرُّوْدَاعَ بِالْخَلَاصَ، لِيَتَهَجَّ الْأَتْقَيَاءُ بِمُحَمَّدٍ لِيَرْنَمُوا عَلَى مُضَاجِعِهِمْ، تَنْوِيَهَاتُ اللَّهِ فِي أَفْوَاهِهِمْ، وَسِيفُ ذُوْهَدِينَ فِي يَدِهِمْ =

وهذه الصفات إنما تنطبق على محمد وأمته، فهم الذين يكثرون الله بأصوات مرتفعة في أذانهم للصلوات الخمس، وعلى الأماكن العالية. قال جابر: (كنا مع النبي ﷺ إذا علّونا (شرفًا)^(١) كبرنا، وإذا هبّطنا سبّحنا ووضعنا الصلاة على ذلك)^(٢).

وهم يكثرون الله بأصوات عالية مرتفعة في الأذان وفي عيد الفطر وعيد النحر وفي عشر ذي الحجة وعفيف الصلوات (الخمس) في أيام منى وذكر البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه «أنه كان يكبر بمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبّرون بتكبّرهم فيسمعهم أهل الأسواق (فيكبّرون)^(٣) حتى ترتفع منى تكبّرًا»^(٤).

«وكان أبو هريرة رضي الله عنه وابن عمر رضي الله عنه^(٥) يخرجان إلى الأسواق أيام العشر، فيكبّران ويكبّر الناس بتكبّرهما»^(٦) (ويكبّرون)^(٧) أيضًا على (قرابينهم)^(٨) وضحاياهم، وعند رمي الجamar وعند الصفا والمروة وعند محاذاة الحجر الأسود، وفي أدبار الصلوات، وليس هذا لأحد من الأمم لا أهل الكتاب ولا غيرهم سواهم، فإن اليهود يجمعون الناس بالبوق والنصارى بالناقوس. وأما تكبّر الله بأصوات مرتفعة فشعار محمد بن عبد الله عليه السلام وأمته.

ليصنعوا نفة في الأمم وتآديبات في الشعوب لأسر ملوكهم بقيود وشرفائهم بكبول من حديد المزמור: ١٤٩ - ٨.

(١) سقطت من الأصل ومن ب، ص.

(٢) أخرج أبو داود عن علي رضي الله عنه قال: وكان النبي عليه السلام وجوشه إذا علوا الثواباً كبروا وإذا هبطوا سبّحوا فوضعوا الصلاة على ذلك (سنن أبي داود، الجهاد: ٥٨٢/٧٩).

(٣) في ج: فيكبّرون حتى يكبّر كل من سمع التكبّر.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب العيددين ونصه: «وكان عمر رضي الله عنه يكبّر في قبة يمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبّرون ويكبّر أهل الأسواق حتى ترتفع منى تكبّرًا» (انظر: فتح الباري: ٤٦١/٢).

(٥) في الجواب الصحيح: وكان عمر وابن عباس.

والخطأ في الجواب الصحيح لأن ما ذكره المؤلف موافق لنص البخاري.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب العيددين، بنص: «وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق... الخ» (انظر: فتح الباري: ٤٥٧/٢).

(٧) في ج: ويكبّرون الناس.

(٨) في ج: فراشهم.

وقوله: «بأيديهم سيف ذات شفرين» فهي السيف العربية التي فتح الصحابة رضي الله عنهم بها البلاد وهي إلى اليوم معروفة لهم.

وقوله: «يسبحون على مضاجعهم» (هو نعمت)^(١) المؤمنين الذي يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم.

ومعلوم قطعاً أن هذه البشارة لا تنطبق على النصارى، ولا تنسابهم فإنهم لا يكبّرون الله بأصوات مرتفعة، ولا بأيديهم سيف ذات شفرين، ينتقم الله تعالى بها من الأمم. والنصارى تصيب من يقاتل الكفار بالسيوف، وفيهم من يجعل هذا من أسباب التنفير عن محمد ﷺ، ولجهلهم وضلالهم لا يعلمون أن موسى عليه السلام قاتل الكفار وبعده يوشع بن نون وبعده داود وسلمان وغيرهم من الأنبياء، قبلهم إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

* الوجه الثامن^(٢):

قول داود: من أجل هذا بارك الله عليك إلى الأبد فتقليد أيها الجبار السيف، لأن البهاء لوجهك، والحمد الغالب عليك، اركب كلمة الحق وسمت التاله، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونة، والأمم يخرون تحتك^(٣).

وليس متقلداً بسيف بعد داود من الأنبياء سوى محمد ﷺ، وهو الذي خرت الأمم تحته، وقرنت شرائعه بالهيبة، إما القبول وإما الجزية وإما السيف، وهذا مطابق لقوله ﷺ: (نصرت بالرعب مسيرة شهر)^(٤).

وقد أخبر داود أن له ناموساً وشرائع، وخاطبه بلفظ الجبار، إشارة إلى قوته وقهره

(١) في ج: ثم بعث.

(٢) هذا الوجه أيضاً منقول عن الجواب ٣١٨/٣ - ٣١٩.

(٣) نص المزמור: (لذلك باررك الله إلى الأبد، تقليد سيفك على فخذك أيها الجبار، جلالك وبهاءك، ويحللك اقتحم اركب من أجل الحق والدعة والبر فترىك يمينك مخاوف، تلك المسنونة في قلب أعداء الملك، شعوب بحثك يسقطون) مزמור ٤٥/٢ - ٥.

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري، التيم: ٣٣٥ / ١ وأخرجه مسلم، المساجد: ٥٢١ / ٣.

لأعداء الله تعالى ، (بخلاف)^(١) المستضعف المقهور ، وهو ﷺ نبي الرحمة^(٢) ، ونبي الملجمة ، وأمته ﷺ أشداء على الكفار رحماء بينهم^(٣) ﴿أَذْلَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْزَهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ، بخلاف الأذلاء المقهورين المتكبرين الذين يذلون لأعداء الله ويتكبرون على قدوم الحق .

* الوجه التاسع^(٥) :

قول داود في مزمور آخر : (إِنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى أَظَهَرَ مِنْ صَهِيْوَنْ إِكْلِيلًا مُحَمَّدًا)^(٦) .

وضرب الإكيليل مثلاً للرئاسة والأمانة . ومحمد هو محمد ﷺ . وقال في صفتة : (ويجوز من البحر إلى البحر من لدن الأنهر إلى منقطع الأرض ، وإنه لترخ أهل الجزائر بين يديه على ركبهم ، ويلمس أعداؤه التراب ، تأتيه ملوك (الفرس)^(٧) وتسجد له وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد ويخلص المضطهد اليائس من هو أقوى منه ، وينفذ الضعيف الذي لا ناصر له ، ويرأف بالمسكين والضعفاء ، ويصلّى عليه في كل وقت وبارك)^(٨) .

ولا يشكل على عاقل تدبّر أمور الممالك والنبوات ، وعرف سيرة محمد ﷺ وسيرة أمته من بعده أن هذه الأوصاف لا تنطبق إلا عليه وعلى أمته ، لا على المسيح ولا على

(١) سقطت من ج .

(٢) سقطت من الأصل .

(٣) سورة الفتح : الآية ٢٩ .

(٤) سورة المائد़ة : الآية ٥٤ .

(٥) هذا الوجه أيضاً متصرف عن الجواب الصحيح . ٣١٩/٣ .

(٦) هذا النص لم أعنّ عليه في الترجمات الحالية ، ولكن وجدت ما يشبهه تقريباً في مزمور : ٥٠ : (إِلَهُ الرَّبِّ تَكَلَّمُ وَدُعَا الْأَرْضُ مِنْ مَشْرِقِهَا إِلَى مَغْرِبِهَا مِنْ صَهِيْوَنْ كَمَالُ الْجَبَلِ اللَّهُ أَشْرَقَ) . ١٥ - ٢ .

(٧) في ص : الأرض .

(٨) النص في المزمور : ٧٤ ، لكن الطبعات الحالية للكتاب المقدس تنص على أن هذا المزمور لليمان عليه السلام ، والقاريء لهذا المزمور لا يستغرب كونه له لأن سليمان عليه السلام كان له ملك عظيم ، وخاض حروباً انتصر فيها على أعدائه ودانت له الأمم بالطاعة والانقياد .

نبي غيره، فإنه حاز من البحر الرومي^(١) إلى البحر الفارسي^(٢)، ومن لدن الأنهار سَيِحُون^(٣) وجِيحُون^(٤) والفرات (ونيل مصر)^(٥) إلى منقطع الأرض بال المغرب^(٦)، وهذا ما طبق لقوله ﷺ: «زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي مازوي لي منها»^(٧).

وهو الذي يصلى عليه وببارك في كل وقت، وفي كل صلاة من الصلوات الخمس وغيرها، وهو الذي حرّت أهل الجزائر بين يديه، أهل جزيرة العرب وأهل الجزيرة^(٨) التي بين الفرات ودجلة، وأهل جزيرة الأندلس، وأهل جزيرة قبرص (وغيرهم)^(٩)، وخضعت له ملوك الفرس، ولم يبق فيهم إلا من أسلم أو أدى الجزية^(١٠) (عن يد وهم صاغرون)، بخلاف ملوك الروم فإن فيهم من لم يسلم، ولم يؤدِّ الجزية، فلهذا ذكر في البشارة ملوك فارس خاصة، ودانت له الأمم التي سمعت به (وبأمته)^(١١). وأنقذ الضعفاء (من الجبارين)، وهذا بخلاف المسيح فإنه لم يتمكن هذا التمكين في حياته^(١٢) ولا من اتباهه بعد رفعه إلى

(١) البحر الرومي، هو ما يسمى اليوم بالبحر الأبيض المتوسط، قال ياقوت: بحر الأندلس وبحر المغرب وبحر الشام وببحر الإفريقي وبحر الروم جميعه واحد وكان يسمى ببحر الظلمات (معجم البلدان: ٣٤٥/١).

(٢) البحر الفارسي، هو شعبة من بحر الهند الأعظم (المحيط الهندي) وتمتد سواحله من البصرة إلى عدن (معجم البلدان: ٣٤٣/١) وهو ما يطلق عليه اليوم الخليج العربي.

(٣) سِيِحُون، بفتح أوله، نهر مشهور بما وراء النهر بعرف سمرقند يجمد في الشتاء ثلاثة أشهر وهو في حدود بلاد الترك.

(٤) جِيحُون: بالفتح ثم السكون، وادي خراسان، يتصل بناحية السندي والهندي وكابل، ويمر بعده بلاد حتى تصب في بحيرة خوارزم (معجم البلدان: ١٩٦/٢).

(٥) هذه في ج فقط.

(٦) المقصود بمنقطع الأرض، أي نهاية اليابسة على شاطئ المحيط الأطلسي بالمغرب.

(٧) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الفتنة: ٢٨٨٩/١٩، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده: ١٢٣/٤ ومطلع الحديث عندهما: إن الله زوى لي الأرض.

(٨) منطقة في سوريا لا زالت تسمى منطقة الجزيرة.

(٩) سقطت من ب، ص، وفي ج: وجزر كثيرة أسلمت لا يمكن عدتها.

(١٠) في ج: وبأمته وهم من مؤمن له ومسالم له ومنافق معه وخائف منه.

(١١) في الأصل: ولم ينطبق هذا على المسيح.

السماء، ولا حازوا ما ذكر ولا يصلون عليه، ويباركون في اليوم والليلة، فإن القوم يدعون إلهيته ويصلون له.

* الوجه العاشر:

قوله في مزمور آخر: (لتراع البوادي وفراها، ولتصر أرض قيدار^(١) مروحاً وتسبح سكان الكهوف، ويهتفوا من قلل الجبال بحمد رب، ويديعوا تسابيحه في الجو)^(٢).

فمن أهل البوادي من الأمم سوى أمة محمد^(٣)? ومن (قیدار غير ولد اسماعیل أحد آجداده^(٤)? ومن) سكان الكهوف وقلال الجبال سوى العرب؟ ومن هذا الذي دام ذكره إلى الأبد؟

* الوجه الحادي عشر:

قوله في مزمور آخر: (إن ربنا عظم محموداً جداً)^(٥)، وفي مكان آخر: (إلهنا قدوس ومحمد قد عم الأرض كلها فرحاً)^(٦)؛ فقد نصّ داود على اسم محمد وصرّح أن كلمته عمت الأرض.

* الوجه الثاني عشر:

قوله في الزبور لداود: (سيولد لك ولد أدعى له أباً، ويدعى لي ابناً (قال داود)^(٧): اللهم ابعث جاعل السنة كي يعلم الناس أنه بشر)^(٨).

(١) قيدار: اسم سامي بمعنى: قدير أو أسود، وهو ابن اسماعيل الثاني (تكوين: ١٣/٢٥) وهو أب لأشهر قبائل العرب ويسمى بلاهم أيضاً قيدار (قاموس الكتاب المقدس: ٧٥٣/٢).

(٢) النص في سفر أشعيا (لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنتها قيدار، لتترنّم سكان صالح من رؤوس الجبال ليهتفوا، ليعطوا رب مجدأً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر) أشعيا ١١/٤٢ - ١٢.

(٣) النص الحالي في المزامير (عظيم هو الرب وحميد جداً) مزمور: ١/٤٨.

(٤) مزمور: ٤٨/٤٨.

(٥) ليست في ب، ج، ص.

(٦) بداية النص في مزمور: ٢٦/٨٩ - ٢٧ لكن بدون: سيولد لك ولد؛ لهذا فالنص الموجود حالياً يتحدث عن داود نفسه: «هو يدعوني أبي، أنت إلهي وصخرة خلاصي أنا أيضاً أجعله بكراً أعلى من ملوك الأرض».

أما عبارة «اللهيم ابعث جاعل السنة» فلم ترد عند هذا النص مع أنه ورد في معناها نصوص كثيرة في المزامير.

(وهذا إخبار عن المسيح ومحمد ﷺ قبل ظهورهما بزمن طويل، يريد: ابعث محمداً ﷺ حتى يعلم الناس أن المسيح بش(١) ليس إلهًا، وأنه ابن البشر لا ابن خالق البشر.

فبعث الله هادي الأمة وكاشف الغمة فبَيْنَ (للأمم)(٢) حقيقة أمر المسيح، وأنه عبد كريم ونبي مرسل، لا كما ادعته النصارى ولا كما رمته اليهود.

* الوجه الثالث عشر:

قوله في نبوة أشعيا: (قيل لي: قم نظاراً فانظر ما ترى تخبر به، قلت: أرى راكبين مقبلين أحدهما على حمار والآخر على جمل، يقول أحدهما لصاحبه: سقطت بابل وأصنامها).(٣).

وصاحب الحمار عندنا وعند النصارى هو المسيح، وراكب الجمل هو محمد صلوات الله عليهما وسلم، وهو أشهر برركوب الجمل من المسيح برکوب الحمار.

وبِمُحَمَّدٍ ﷺ سقطت أصنام بابل لا بالمسيح، ولم يزل في إقليم بابل من بعد الأوثان من عهد إبراهيم الخليل إلى أن سقطت بمحمد ﷺ.

* الوجه الرابع عشر:

قوله في (نبوة)(٤) إشعيا: إنه قال عن مكة: «ارفعي إلى ما حولك بصرك، فستتبهجن وتفرحين من أجل أن الله يصير إليك ذخائر البحر ويحج إليك عساكر الأمم، حتى يعم بك قطر الإبل المؤبلة وتضيق أرضك عن القطرات التي تجتمع إليك، ويساق إليك كباش مدين(٥)، ويأتيك أهل سباء(٦)، وسير إليك أغنان (قيدار)(٧) ويخدمك

(١) سقطت من الأصل.

(٢) سقطت من ج.

(٣) انظر: أشعيا: ٦/٢١ - ٩.

(٤) في ب، ص: سورة.

(٥) مدين على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل وهي أكبر من تبوك وبها البشر الذي استنقى منه موسى عليه السلام لسائمة شعيب، ومدين اسم قبيلة (انظر: معجم البلدان: ٥/٧٧).

(٦) سباء أرض باليمن مديتها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام (معجم البلدان: ٣/٢٧).

(٧) في ب، ج، ص: فاران.

(رجال) ^(١) (بنيوت) ^(٢).

يريد سدنة الكعبة وهم من أولاد بنت (ابن) ^(٣) إسماعيل.

قالوا: فهذه الصفات كلها حصلت لمكة فإنها حملت إليها ذخائر البحر وحج إليها عساكر الأمم، وسقى إليها أغذية (قیدار هدايا) ^(٤) وأضاح وقرابين، وصافت الأرض عن قطرات الإبل المؤبلة الحاملة للناس وأزوادهم، وأتتها أهل سباء، وهم أهل اليمن.

* الوجه الخامس عشر:

قول أشعيا في مكة أيضًا: (وقد أقسمت بنفسي كقسمي (أيام) نوح أني أغرق الأرض بالطوفان إني لا أستخط عليك ولا أرفضك، وإن الجبال تزول وإن (القلاع) ^(٥) تختط ورحمتي عنك لا تزول) ^(٦).

ثم قال: (يا مسكينة يا مضطهدة ها أنا ذا بان (بالجنس) ^(٧) حجارتك، ومزينتك بالجواهر، ومكلل باللؤلؤ سقفك، وبالزبرجد أبوابك، وتبعدين من الظلم، فلا تخافي، ومن الضعف فلا تضعفي، وكل سلاح (يصنعه) ^(٨) صانع لا يعمل فيك، وكل لسان ولغة تقوم معك بالخصوصية تفلحين معها، ويسميك الله اسمًا جديداً (يريد أنه سماها المسجد الحرام) فقومي فأشرقي فإنه قد دنا نورك، ووقار الله عليك، انظري بعينيك حولك فإنهم مجتمعون، يأتوك بنورك وبناتك عدوأ، فحيثئذ تشرقين وتزهرين ويخاف عدوك ويتسع قلبك، وكل غنم قیدار (تجمع إليك) ^(٩) وسدات بناؤت يخدمونك (وبناؤت هو بنت ابن إسماعيل، وقیدار جد النبي ﷺ وهو أخو (بنيوت) ^(١٠)).

(١) في ب، ص: رجل وسقطت من ج.

(٢) أشعيا: ٤/٦٠ - ٧. مع الاختلاف البسيط في الترجمة.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في ب، ص: فاران هدايا وفي ج: هدايا فارن.

(٥) في ب، ص: التلاع.

(٦) أشعيا: ٩/٥٤ - ١٠.

(٧) في ب، ج، ص: بالحسن.

(٨) سقطت من الأصل.

(٩) سقطت من الأصل.

(١٠) في ب، ص: بنت وفي ج: بنته.

ثم قال: (وتفتح أبوابك بالليل والنهار لا تغلق ويختذلونك قبلة وتدعين بعد ذلك
مدينة الرب) ^(١).

* الوجه السادس عشر:

قوله أيضاً في مكة: (سرى واهتزى أيتها العاقر التي لم تلد وانطقى بالنسبيح
وافرحي ، ولم تحبلني ، فإن أهلك يكونون أكثر من أهلي) ^(٢).

يعنى بأهله بيت المقدس ، ويعنى بالعاشر مكة لأنها لم تلد قبل محمد ﷺ نبأً ،
ولا يجوز أن يريد بالعاشر بيت المقدس ، لأنه بيت الأنبياء ومعدن الوحي ، وقد ولد (فيه) ^(٣)
أنبياء كثيرة .

* الوجه السابع عشر:

قول أشعيا أيضاً لمكة شرفها الله تعالى : «إني أعطي البدية كرامة لبنان وبها الكنز
(مال)» ^(٤).

قال: (وهما الشام وبيت المقدس) يريد أحجعل الكرامة التي كانت هناك بالوحي
وظهور الأنبياء للبداية بالنبي ﷺ وبالحج .

ثم قال «وتشق بالبدية مياه وسوق في أرض فلاته وتكون بالفيفي والأماكن العطاش
ينابيع ومياه ويصير هناك محجة وطريق الحرم ، لا يمرّ به أنجاس الأمم والجاهل به
لا يصل» ^(٥) هناك ، ولا يكون بها سباع ولا أسد ويكون هناك ممر المخلصين» ^(٦).

* الوجه الثامن عشر:

قول أشعيا في كتابه أيضاً عن الحرم : (إن الذئب والحمل فيه يرتعان معاً) ^(٧) إشارة
إلى أنه الذي يخصه الله به دون بقاع الأرض ، ولذلك سمّاه البلد الأمين وقال :

(١) أشعيا: ١١/٥٤ .

(٢) أشعيا: ١/٥٤ .

(٣) سقطت من ب ، ج ، ص .

(٤) سقطت من الأصل .

(٥) في ب ، ص : لا يضل .

(٦) انظر: أشعيا: ٦/٣٥ – ٩ .

(٧) أشعيا: ٣٥/٦٥ .

﴿أَوْ لَمْ يَرُوا أَنَا جَعَلْنَا حِرْمًا آمِنًا (وَيَجْبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتٍ كُلَّ شَيْءٍ) وَيَتَخَطَّفُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِم﴾^(١).

وقال يعدد نعمه على أهله: ﴿إِلَيْلَافَ قَرِيشَ إِلَافَهُمْ رَحْلَةُ الشَّتَاءِ وَالصَّيفِ، فَلَيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمُهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمِنُهُمْ مِنْ خُوفٍ﴾^(٢).

* الوجه التاسع عشر:

قول أشعيا معلناً باسم رسول الله ﷺ: (إِنِّي جَعَلْتُ أَمْرَكَ يَا مُحَمَّدَ بِالْحَمْدِ يَا قَدُوسَ الرَّبِّ، اسْمُكَ مُوْجُودٌ مِنَ الْأَبْدِ)^(٣) مطابق لقول داود في مزمور له: (اسْمُكَ مُوْجُودٌ قَبْلَ الشَّمْسِ)^(٤).

* الوجه العشرون:

قول أشعيا في ذكر الحجر الأسود: (قَالَ الرَّبُّ وَالسَّيِّدُ هُوَ أَنَا ذَا مُؤْسِسِ بَصَهِيْوَنْ حِجْرًا) في زاوية ركن منه، فمن كان مؤمناً فلا يستعجلنا، وأجعل العدل مثل الشاقول^(٥)، والصدق مثل الميزان، فيهلك الذين ولعوا بالكذب)^(٦).

فصهيون هي مكة عند أهل الكتاب^(٧)، (وكذا كل بيتبني للصلوة، وصهيون أيضاً

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٧، وقد أخطأ في الأصل: حيث أضاف ويحيي إلى ثمرات كل شيء.

(٢) سورة قريش.

(٣) في سفر أشعيا: ١١/١٠، ما يشبهه هذا النص بالمعنى لكن لم يذكر فيه اسم محمد وإنما قال: ويكون في ذلك أن أصل يسي القائم راية للشعوب.

(٤) نص مزمور: ٧٧/١٧، (يكون اسمه إلى الدهر قدام الشمس يمتد اسمه).

(٥) الشاقول: عصا في رأسها زوج يستعملها الزراع في قياس الأرض أو ضبط حدودها أو استقامة الخطوط، كما يستعمله البناءون.

المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية: ١/٤٩٢؛ المكتبة العلمية، طهران.

(٦) انظر أشعيا: ٢٨/١٦ - ١٧.

(٧) ليس في الكتاب المقدس الحالي ما يدل على أن صهيون هي مكة، والنصوص التي ذكرت صهيون تدل كلها على أنه في القدس، فهو أحد الرؤوس الأربع التي تقوم عليها القدس، وعلى صهيون كان حصن اليهوديين الذي أخذته منهم داود (٢ صم: ٥/٧ - ٩) وأكثر ما ذكر صهيون في الأسفار الشعرية والتبوية، ولا يزال في القدس جبل يدعى صهيون جزء منه داخل المدينة وجزء خارجها معظم مشغول بالمقابر وعليه قلعة تعرف بالنبي داود وعليه أيضاً مدرسة صهيون الإنجليزية.

الأرض المقدسة^(١)، وهذا الحجر هو الحجر الأسود الذي تقبله الملوك فمن دونهم، وهو مما اختص به محمد ﷺ وأمه.

* الوجه الحادي والعشرون:

قول أشعيا في موضع آخر: (إنه ستملاً الياديه والمدن قصوراً إلى قيدار، ومن رؤوس الجبال ينادونهم الذين يجعلون الله الكرامة، ويبثون تسبيحة في البر والبحر)^(٢).

وقال: (ارفع علمًا لجميع الأمم من بعيد فيصرفهم من أقصى الأرض فإذا هم سراغ يأتون)^(٣).

وبني قيدار هم العرب، لأن قيدار ابن إسماعيل بإجماع الناس. والعلم الذي يرفع هو النبوة، والصفير بهم دعاوهم من (أقصى)^(٤) الأرض إلى الحج. فإذا هم سراغ يأتون. وهذا مطابق لقوله عز وجل: «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتيين من كل فج عميق»^(٥).

* الوجه الثاني والعشرون:

قول أشعيا في موضع آخر: «سأبعث من الصبا قوماً يأتون من المشرق مجيبين أفواجاً كالصعيد (كثرة)^(٦)، ومثل الطيّان الذي يدوس برجليه الطين»^(٧).

والصبا تأتي من نحو مطلع الشمس، بعث الله من هناك قوماً من أهل المشرق مجيبين بالتلبية أفواجاً كالتراب كثرة، قوله: «مثل الطيّان الذي يدوس برجليه الطين» إما أن يراد به الهرولة في الطواف والسعى، وإما أن يراد به رجال قد كلّت أرجلهم من المشي.

(١) سقطت من ب، ج، ص.

(٢) أشعيا: ١١/٤٢.

(٣) أشعيا: ٢٦/٥.

(٤) في ب، ص: أقصاصي.

(٥) سورة الحج: الآية ٢٧.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) النص في أشعيا: (ومن مشرق الشمس يدعوه باسمي يأتي على الولادة كما على الملاط وكخزاف يدوس الطين) (أشعيا: ٢٥/٤١).

* الوجه الثالث والعشرون:

قوله في كتاب أشعيا أيضًا: (عبدي وخيرتي ورضي نفسي أفيض عليه روحى أو قال: أنزل عليه روحى فنظر في الأمم عدلي، ويوصي الأمم بالوصايا، لا يضحك، ولا يسمع صوته، يفتح (العيون)^(١) العمى والعور، ويسمع الآذان الصم، ويحيى القلوب، وما أعطيه لا أعطي غيره، لا يضعف (ولا يغلب)^(٢)، ولا يميل إلى اللهو، ولا يسمع في الأسواق صوته، ركن للمتواضعين، وهو نور الله الذي لا يطفأ، ولا يخصم، حتى تثبت في الأرض حجتي، وتقطع به المعدرة)^(٣).

فمن وجد بهذا الوصف غير محمد ﷺ ابن عبد الله؟ فلو اجتمع أهل الأرض لم يقدروا أن يذكروا نبياً جمع هذه الأوصاف كلها، وهي باقية في أمته إلى يوم القيمة، ولو بحثوا عن غيره لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً.

فقوله (عبدي) مطابق لقوله في القرآن: ﴿وَإِن﴾^(٤) كتم في ريب مما نزلنا على عبدنا^(٥) وقوله: «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا»^(٦) وقوله: «وأنه لما قام عبد الله يدعوه»^(٧) وقوله: «سبحان الذي أسرى عبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله»^(٨) وقوله: (وخيرتي ورضي نفسي) مطابق

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ج: ولا يلعب ولا يغلب.

(٣) النص في أشعيا: «هو ذا عبدي الذي أعضده، مختارى الذي سرت به نفسي وضعت روحى عليه فيخرج الحق للأمم لا يصبح ولا يعرف ولا يسمع في الشارع صوته، قصبه مرضوضة لا يقصف وفتيله خامدة لا يطفئ، إلى الأمم يخرج الحق لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته... أنا رب قد دعوتكم بالبر فأمسك بيده وأحفظكم وأجعلكم عهداً للشعوب، ونوراً للأمم، لتفتح عيون العمى لتخرج من الجبس المسؤولين من بيت السجن الجالسين في الظلمة»
أشعيا: ١/٤٢ - ٧.

(٤) في المصرية: فإن.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٣.

(٦) سورة الفرقان: الآية ١.

(٧) سورة الجن: الآية ١٩.

(٨) سورة الإسراء: الآية ١.

لقوله ﷺ: «إن الله أصطفى كنانة من ولد إسماعيل وأصطفى قريشاً من كنانة، وأصطفى بنى هاشم من قريش، وأصطفاني من بنى هاشم»^(١).

وقوله: (لا يصحك) مطابق لوصفه الذي كان عليه ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأي رسول الله ﷺ ضاحكاً حتى تبدو لهواته إنما كان يتسم تبسمًا»^(٢)، وهذا لأن كثرة الضحك من خفة الروح، ونقصان العقل، بخلاف التبسم فإنه من حسن الخلق، وكمال الإدراك، وأما صفتة ﷺ في بعض الكتب المتقدمة بأنه الضحوك القتال، فالمراد به أنه لا يمنعه ضحكه وحسن خلقه عن القتل إذا كان جبًا لله تعالى وحقًا له، ولا يمنعه ذلك عن تبسمه في موضعه، فيعطي كل حال ما يليق بتلك الحال، فترك الضحك بالكلية من الكبر والتجرّر وسوء الخلق، وكثرته من الخفة والطيش، والاعتدال بين ذلك (غير منكر)^(٣).

وقوله: «أنزل عليه روحِي» مطابق لقوله تعالى: «وَكَذَلِكَ أُوحِينَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا»^(٤) وقوله تعالى: «يُلْقِي الرُّوحُ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيَنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ»^(٥) فسمى الوحي روحًا، لأن حياة القلوب والأرواح به، كما أن حياة الأبدان بالأرواح.

وقوله: «فَيَنْظُرُ فِي الْأَمْمِ عَدْلِي» مطابق لقوله تعالى: «فَلَذِلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءِهِمْ، وَقُلْ آمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ»^(٦).

وقوله عن أهل الكتاب: «فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ، وَإِنْ تَعْرِضْ

(١) آخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل: ٢٢٧٦/١.

(٢) متفق عليه آخرجه البخاري في كتاب التفسير (سورة الأحقاف) وفي كتاب الأدب: ص ٦٨.

وآخرجه الإمام مسلم في كتاب الاستسقاء: ص ١٦.

(٣) سقطت من ب، ج، ص.

(٤) سورة الشورى: الآية ٥٢.

(٥) في الأصل: ينزل وهو خطأ.

(٦) سورة غافر: الآية ١٥.

(٧) سورة الشورى: الآية ١٥.

عنهم فلن يضروك شيئاً، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط»^(١) قوله: يوصي الأمم بالوصايا، مطابق لقوله تعالى: «شرع لكم من الدين ما وصي به نوحًا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تنفرقوا فيه»^(٢).

وقوله في سورة الأنعام: «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً...» إلى قوله: «... ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون»^(٣) ثم قال: «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدته...» إلى قوله: «... ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون»^(٤) ثم قال: «وأن هذا صراطى مستقىماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون»^(٥).

ووصاياه عليه السلام هي عهوده إلى أمته بتنقى الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له، والتمسك بما بعثه الله به من الهدى ودين الحق، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقاءه .

وقوله: ولا يسمع صوته، أي ليس بصحاح (له فديد)^(٦) كحال من ليس له (علم)^(٧) ولا وقار. قوله: «يفتح العيون العمى والأذان الصم والقلوب» إشارة إلى أن تكميل مراتب العلم والهدى الحاصل بدعونه في القلوب والأبصار والأسماع، فباینوا بذلك أحوال الصمم البكم العمي الذين لهم قلوب لا يعقلون بها. فإن الهدى يصل إلى العبد من هذه الأبواب الثلاثة، وهي مغلقة عن كل أحد لا تفتح إلا على أيدي الرسل ففتح الله تعالى بمحمد عليه السلام الأعين العمى، فأبصرت بالله، والأذان الصم، فسمعت عن الله، والقلوب الغلف، فعقلت عن الله، فانقادت لطاعته عقلاً وقولاً وعملاً، وسلكت سبل مرضاته ذللاً.

(١) سورة المائدة: الآية ٤٢.

(٢) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥١.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٥٢.

(٥) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

(٦) في الأصل: لا له قدر، الفديد: الصوت والجلبة، فنَّدَ الرجل: مشى متكبراً بطرأ، وأجلب في بيته وشرائه. (انظر: المعجم الوسيط: ٢/ ٦٨٣ - ٦٨٤).

(٧) في ب، ج، ص: حكم.

وقوله: «ما أعطيه فلا أعطي غيره» مطابق لقوله ﷺ: «أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء قبلي»^(١).

ولقول الملائكة لما ضربوا له المثل: «لقد أعطي هذا النبي ما لم يعط النبي قبله، إن عينيه تنامان وقلبه يقطان»^(٢).

فمن ذلك أنه بعث إلى الخلق عامة، وختم به ديوان الأنبياء، ونزل عليه القرآن الذي لم ينزل من السماء كتاب يشبهه، ولا يقاربه، وأنزل على قلبه محفوظاً متلواً، وضمن له حفظه إلى أن يأتي الله بأمره، وأوتى جوامع الكلم، ونصر بالرعب في قلوب أعدائه وبينهما مسيرة شهر^(٣)، وجعلت صفوف أمته في الصلاة على مثال صفوف الملائكة في السماء، وجعلت له ولادته الأرض مسجداً وظهوراً^(٤)، وأسرى به إلى أن جاوز السموات السبع ورأى ما لم يره بشر قبله ورفع على سائر النبئين، وجعل سيد ولد آدم، وانتشرت دعوته في مشارق الأرض وغارتها، واتبعه على دينه أتباع أكثر من أتباع سائر النبئين من عهد نوح إلى المسيح، (فأمته ثلثاً أهل الجنة)^(٥) وخصه بالوسيلة، وهي أعلى درجة في الجنة، وبالمقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، وبالشفاعة العظمى التي يتأخر عنها آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى^(٦)، وأعزَّ الله به الحق وأهله عزًّا لم يعنه أحد من قبله، وأذلَّ به الباطل وحزبه ذلًّا لم يحصل بأحد قبله، وآتاه من العلم والشجاعة (والسماحة)^(٧) والصبر والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والعبادات (القلبية)^(٨)

(١) صحيح مسلم كتاب المسافرين: ٢٥٤، وفي مستند أحمد عن أبي ذر: «أُوتيت خمساً لم يقتهن النبي كان قبلي...» المستند: ١٤٥/٥.

(٢) جامع الترمذى، الأدب: ص ٨٦.

(٣) في قوله ﷺ «أُوتيت خمساً...» الذي مر ذكره.

(٤) نفس المرجع السابق.

(٥) هكذا في جميع النسخ بلنفظ «ثلثاً» وما ورد في الحديث «ثلث أهل الجنة» هكذا أخرجه البخاري في كتاب الرقاق: ص ٤٥؛ والإيمان: ص ٣؛ والأنبياء: ص ٧؛ وأبو داود في الجهاد: ص ١٦٢؛ والترمذى في الجنة: ص ١٣؛ وابن ماجه في الزهد: ص ٣٤؛ والإمام أحمد في مستنه: ٣٢/٣.

(٦) وذلك واضح في حديث الشفاعة الطويل الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما (راجع: صحيح البخاري، صحيح مسلم، الإيمان: ٣٢٢/٨٤).

(٧) سقطت من الأصل، وفي ج: السماحة والزهد.

(٨) في ج: القلبية أي العلية.

والمعارف الإلهية ما لم يؤتته نبي قبله، وجعلت الحسنة منه ومن أمنته عشر (حسنات مثلها)^(١) إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وتجاوزت له عن أمنته الخطأ والتسیان، وما استكرهوا عليه، وصلی (الله)^(٢) عليه هو وجميع ملائكته، وأمر عباده المؤمنين كلهم أن يصلوا عليه وسلموا تسليماً^(٣)، وقرن اسمه باسمه فإذا ذكر الله ذكر معه، كما في الخطبة والتشهد والأذان، فلا يصح لأحد أذان ولا خطبة ولا صلاة حتى يشهد أنه عبده ورسوله، ولم يجعل لأحد معه أمراً يطاع، لا من قبله ولا من هو كائن بعده إلى أن تطوى الدنيا ومن عليها، وأغلق أبواب الجنة إلا عنمن سلك خلفه، واقتدى به، وجعل لواء الحمد بيده، فآدم وجميع الأنبياء تحت لواءه يوم القيمة، وجعله أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع وأول مشفع، وأول من يقرع باب الجنة، وأول من يدخلها^(٤)، فلا يدخلها أحد من الأولين والآخرين إلا بشفاعته^{عليه} وأعطي من اليقين والإيمان والصبر والثبات والقوة في أمر الله تعالى، والعزمية على تنفيذ أوامره، والرضا عنه، والشكر له، والتنوع في مرضاته، وطاعته ظاهراً وباطناً، سرّاً وعلانية، في نفسه وفي الخلق، ما لم يعطه النبي غيره. ومن عرف أحوال العالم، وسير الأنبياء وأممهم، تبين له أن الأمر فوق ذلك، فإذا كان يوم القيمة ظهر (للخلائق)^(٥) كلهم من ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر أنه يكون أبداً.

وقوله: «ولا يضعف ولا يغلب» هكذا حال^{عليه}، ما ضعف في ذات الله قط، ولا في حالة انفراده وقلة أتباعه، وكثرة أعدائه واجتماع أهل الأرض على حربه، بل هو^{عليه} أقوى الخلق وأوثبهم جائساً، وأشجعهم قلباً، حتى أنه يوم أحد قُتل أصحابه وجرحوا، وما ضعف ولا استكان، بل خرج من الغد في طلب عدوه على شدة القرح، حتى أربع منه العدو، وكسر خاسئاً على كثرة عددهم (وعددهم)^(٦) وضعف أصحابه، وكذلك يوم حنين، أفرد عن

(١) في ب، ج، ص: أمثلتها.

(٢) سقطت من ب، ج، ص.

(٣) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يَصْلُونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ وَسَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

(٤) كما في الحديث الذي مر ذكره.

(٥) في ج: للخلق.

(٦) سقطت من ب، ج.

الناس في نفر يسير دون العشرة، والعدو قد أحاطوا به وهم ألف مؤلفة، فجعل (يُثبّت)^(١) في العدو ويقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وتقديم إليهم وأخذ حفنة من التراب فرمى بها وجوههم فولوا منهزمين. ومن تأمل سيرته وحروبه علم أنه لم يطرق العالم أشجع منه، ولا أثبت ولا أصبر، وكان أصحابه مع أنهم أشجع الأمم إذا احمرّ البأس، واشتد الحرب، اتقوا به، وتترسوا به، فكان أقربهم إلى العدو، وكان أشجعهم هو الذي يكون قريباً منه.

وقوله: «ولا يميل إلى اللهو» هكذا كانت سيرته ﷺ، أبعد الناس من اللهو واللعبة، بل أمره كله جد وحزم وعزم، مجلسه مجلس حياء وكرم، وعلم وإيمان، ووفار وسكنية.

وقوله: «ولا يسمع في الأسواق صوته» أي ليس من الصخابين بالأأسواق في طلب الدنيا، ولا الحرص عليها، كحال أهلها الطالبين لها.

وقوله: «ركن للمتواضعين» من تأمل سيرته وجده أعظم الناس تواضعاً للصغرى والكبير، والمسكين والأرملة، والحر والعبد، يجلس معهم على التراب، ويجب دعوتهم ويسمع كلامهم وينطلق مع أحدهم في حاجته، ويخصف لأحدهم نعله، ويحيط له ثوبه، ويأخذ له حقه من لا يستطيع أن يطالبه به.

وقوله «وهو نور الله الذي لا يطفأ ولا يخضم حتى يثبت في الأرض حجتي وينقطع به العذر» هذا مطابق لحاله وأمره لما شهد به القرآن في غير موضع، كقوله: «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم وبأيدي الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون»^(٢)، «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله مُتم نوره ولو كره الكافرون»^(٣) وقوله تعالى: «إانا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله يا ذنه وسراجاً منيراً»^(٤)، وقوله تعالى: «يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم، وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً»^(٥) وقوله تعالى: «قد جاءكم من الله

(١) في ب، ج: يثبت.

(٢) سورة التوبه: الآية ٣٢، وقد سقطت من ص والأصل.

(٣) سورة الصاف: الآية ٨.

(٤) سورة الأحزاب: الآيات ٤٥ - ٤٦.

(٥) سورة النساء: الآية ١٧٤.

نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام^(١)، قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزَلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢). ونظائره في القرآن كثيرة.

وقوله: «حتى ينقطع به العذر... وثبتت به الحجة» مطابق لقوله تعالى: ﴿رَسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَشَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَةً بَعْدَ الرَّسُلِ﴾^(٣)، قوله تعالى: ﴿وَالْمَرْسَلَاتِ عَرَفًا...﴾ إلى قوله: ﴿...الْمَلِكَيْتَ ذَكَرًا عَذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾^(٤)، قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ تَصِيبُهُمْ مَصِيرَةً بِمَا قَدَّمُتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبُّنَا لَوْلَا أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَبَعَّدُ آيَاتُكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥).

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا، وَإِنْ كَنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ، أَوْ تَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ لَكُنَا أَهْدِي مِنْهُمْ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدَى وَرَحْمَةً﴾^(٦).

فالحججة إنما قامت على الخلق بالرسل، وبهم انقطعت المعدنة، فلا يمكن من بلغته دعوتهم أن يعتذر إلى الله يوم القيمة إذ ليس له عذر يقبل منه.

(فصل): وهذه البشارة مطابقة لما في صحيح البخاري أنه قيل لعبد الله بن عمرو: أخبرنا بعض صفات رسول الله ﷺ في التوراة، (فقال): «إنه لموصوف في التوراة ببعض صفتة في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٧)، وحرزاً للأمينين أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكلا، ليس بفظ ولا غليظ ولا (صَحَابَ) ^(٨) بالأسوق،

(١) سورة المائدة: الآيات ١٥ - ١٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

(٣) سورة النساء: الآية ١٦٥.

(٤) سورة المرسلات: الآيات ١ - ٦.

(٥) سورة القصص: الآية ٤٧.

(٦) سورة الأنعام: الآيات ١٥٦ - ١٥٧.

(٧) سورة الأحزاب: الآية ٤٥.

(٨) عند البخاري سَحَابَ بالسَّيْنَ، قال ابن حجر: وهي لغة أثبتتها الفراء وغيره، وبالصاد أشهر (فتح الباري: ٥٨٦/٨).

ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن (يجري)^(١) بالسيئة الحسنة، ويغفر ويعفو، ولن أقسطه حتى أقيم به الملة العوجاء، فأفصح به أعينا عمياً وأذاناً صماً وقلوبناً غافلاً بأن يقولوا: لا إله إلا الله^(٢).

وقوله: «إن هذا في التوراة» لا يريد به التوراة المعنية التي هي كتاب موسى فقط، فإن لفظ التوراة والإنجيل والزبور والقرآن يراد به (الكتب)^(٣) المعنية تارة (ويراد به الجنس تارة)^(٤)، فيعبر بلفظ القرآن عن الزبور، وبلفظ التوراة عن الإنجيل وعن القرآن أيضاً.

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «خف على داود القرآن فكان ما بين أن يسرج دابته إلى أن يركبها يقرأ القرآن»^(٥) والمراد به قرآنه، وهو الزبور.

وكذلك قوله في البشارة التي في التوراة «نبياً أقيم لبني إسرائيل من إخوتهم أنزل عليه توراة مثل توراة موسى».

وكذلك في صفة أمته ﷺ في الكتب المتقدمة: أناجيلهم في صدورهم. فقوله: «أخبرني بصفة رسول الله ﷺ إما أن يريد التوراة المعنية (وليس المبدلة التي بأيدي اليهود لعنهم الله)^(٦)، أو جنس الكتب المتقدمة، وعلى التقديرين فأجابه عبد الله بن عمرو بما هو في (التوراة التي هي أتم من الكتاب المعين)، فإن هذا الذي ذكره ليس في)^(٧) التوراة المعينة فقط. بل هو في كتاب أشعيا كما حكيناه عنه، وقد ترجموه أيضاً بترجمة أخرى فيها بعض الزيادة: «عبدي ورسولي الذي سرت به نفسي أنزل عليه وحيي، فيظهر في الأمم عدلي، ويوصيهم بالوصايا، لا يضحك، ولا يسمع صوته في الأسواق، يفتح العيون العور، والأذان الصم، ويحيي القلوب الغلف، وما أعطيه لا أعطيه أحداً».

(١) سقطت من الأصل.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير: ٤٨٣٨، ٦٥/٨؛ كتاب البيوع: ٣٤، ٢١٢٥.

(٣) في ج: الكتب المنزلة.

(٤) في ج: ونارة الجنس.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء: ٦/٦٠، ٣٤١٧؛ وعند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوِدَ زِبُورًا﴾ التفسير: ٤٧١٣، ٦٥/٨.

(٦) ليست في ب، ج، ص.

(٧) سقطت من الأصل.

يحمد الله حمداً جديراً يأتي من أقطار الأرض، وتفرح البرية وسكانها يهللون بالله على كل شرف ويكترونه على كل رابية، لا يضعف، ولا يغلب، ولا يميل إلى الهوى، مشفع ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة، بل يقوى الصديقين، وهو ركن المتواضعين، وهو نور الله الذي لا يطفأ، أثر سلطانه على كتفيه^(١).

وقوله «مشفع» بالشين المعجمة والفاء المشددة بوزن مكْرَم – وهي لفظة عبرانية – مطابق لاسم محمد معنى ولفظاً، مقارباً لمطابقة مؤدٍ بـ«مُؤَدٌ» بل أشد مطابقة، ولا يمكن العرب أن يتلفظوا بها بالفظ العبرانيين، فإنها بين الحاء والهاء، وفتحة الفاء بين الضمة والفتحة ولا يترتب عالم من علمائهم منصف أنها مطابقة لاسم محمد.

قال أبو محمد بن قتيبة: مشفع محمد من غير شك. واعتباره أنهم يقولون (شفحاً لاها) إذا أرادوا أن يقولوا: الحمد لله، وإذا كان الحمد شفحاً فمشفع محمد بغير شك.

وقد قال لي ولغيري بعض من أسلم من علمائهم: إن مثـد هي محمد، وهي بكسر الميم والهمزة، وبعضاـهم يفتح الميم ويدنـها من الضمة، قال: ولا يشك العلماء منهم بأنه محمد، (وإن سكتـنا عن ذلك)^(٢) وضرـبـنا عن هذا صفحـاً فمن هذا الذي انطبقـتـ عليه وعلى أمتـه هذه الصفـاتـ سواـهـ^{عليه السلام}، ومن هذا الذي أثرـ سلطـانـه وهو خاتـمـ النـبـوـةـ علىـ كـتـفـيهـ، رـآـهـ النـاسـ عـيـانـاـ، مـثـلـ زـرـ الـحـجـلـةـ، فـمـاـذـاـ بـعـدـ الـحـقـ إـلـاـ الـضـلـالـ، وـبـعـدـ الـبـصـيرـةـ إـلـاـ الـعـمـىـ، (ـوـمـنـ لـمـ يـجـعـلـ اللـهـ لـهـ نـورـاـ فـمـاـ لـهـ مـنـ نـورـ)^(٣).

فضـافـتـ هـذـاـ النـبـيـ وـمـخـرـجـهـ وـمـبـعـثـهـ وـعـلـامـاتـهـ وـصـفـاتـهـ وـصـفـاتـ أـمـتـهـ فـيـ كـتـبـهـ، يـقـرـؤـنـهـ فـيـ كـنـائـسـهـ، وـيـدـرـسـونـهـ فـيـ مـجـالـسـهـ، لـاـ يـنـكـرـهـ مـنـهـمـ عـالـمـ، وـلـاـ يـأـبـاهـ جـاهـلـ، وـلـكـنـهـ يـقـولـونـ: لـمـ يـظـهـرـ بـعـدـ وـسـيـظـهـرـ وـتـبـعـهـ.

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب، كفروا به وحددوا نبوته، وجحدوا ما كانوا يقولونه

(١) تقدم الحديث عن هذا النص الذي أورده أشعيا.

(٢) سقطـتـ مـنـ بـ، جـ، صـ.

(٣) سورة النور: الآية ٤٠.

فيه، فقال معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معروف^(١) وداود بن سلمة^(٢): يا عشر اليهود اتقوا الله وأسلمو، فقد كتم تستفتحون بمحمد ﷺ، ونحن أهل شرك، وتخبرونا أنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكם^(٣) أخوبني النصير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو الذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^{(٤)(٥)}.

وقال أبو العالية: كان اليهود إذا استنصروا بمحمد على مشركي العرب يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبًا عندنا، حتى (يعدب)^(٦) المشركين ويقتلهم، فلما بعث الله محمداً ﷺ، ورأوا أنه من غيرهم، كفروا به (حسداً للعرب)^(٧)، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٨).

وقال ابن إسحق: حدثني عاصم عن عمر بن قتادة الأنصاري عن رجال من قومه قالوا: وما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله ودهاء، ما كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس عندنا، فكانت لا تزال بيننا

(١) بشر بن البراء بن معروف الأنباري الخزرجي السلمي، والده أحد النقباء، أما بشر فشهد العقبة مع أبيه، وشهد بدرًا وما بعدها ومات بعد خير منأكلتها مع النبي ﷺ من الشاة التي سمّ فيها (الإصابة: ٩٤/١).

(٢) في سيرة ابن هشام: لم يذكر داود بن سلمة وإنما قال: بشر بن البراء بن معروف أخويني سلمة، مع أن ابن حجر في الإصابة ذكر عند ترجمته لداود بن سلمة قال: له ذكر، فروى ابن أبي حاتم في التفسير من طريق ابن إسحق ، وساق هذه القصة وذكر الثلاثة ومنهم داود بن سلمة (الإصابة: ٣٨٣/٢).

(٣) في الأصل مكشم وفي ب مسلم وال الصحيح مشكם وهو هكذا في سيرة ابن هشام وغيره من كتب السيرة.

(٤) سورة البقرة: الآية ٨٩.

(٥) السيرة النبوية، ابن هشام: ١٧٣/٢.

وقد أخرج الطبرى هذه القصة عن ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحق (تفسير الطبرى: ٣٢٥/١).

(٦) في الأصل: يضرب.

(٧) سقطت من ص.

(٨) انظر: تفسير الطبرى: ٣٢٦/١ (دار المعرفة - بيروت).

وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: قد تقارب زمان نبی يبعث الآن
نتبعه (فقتلکم معه)^(١) قتل عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله تعالى
رسوله ﷺ أجبنا حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدون به، فبادرناهم إليه، فآمنا به
وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآيات التي في البقرة: «ولما جاءهم كتاب من عند الله
صدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا
به فلعلة الله على الكافرين»^(٢).

* الوجه الرابع والعشرون:

قوله في كتاب أشعيا: أشكرب حبيبي وابني أحمد^(٣)، فلهذا جاء ذكره في نبوة أشعيا
أكثر من غيرها من النبوات، وأعلن أشعيا بذلك وصفته وصفة أمته، ونادي بها في نبوته
سراً وجهاً لمعرفته بقدره ومتانته عند الله تعالى.

وقال أشعيا أيضاً: (إنا سمعنا من أطراف الأرض صوت محمد)^(٤) وهذا إفصاح منه
باسمه ﷺ، فليرنا أهل الكتاب نبياً نصّت الأنبياء على اسمه وصفته ونعته وسيرته وصفة
أمته وأحوالهم سوى رسول الله ﷺ.

* الوجه الخامس والعشرون:

قول حقوق في كتابه: (إن الله جاء من اليمن^(٥)) والقدس من جبال فاران، لقد
أضاءت السماء من بهاء محمد، وامتلأت الأرض من حمده ، شعاع منظره مثل النور
يحوط بلاده بعزة ، تسير المنايا أمامه ، وتصحب سباع الطير أجناه ، قام فمسح الأرض
فتضعضعت له الجبال القديمة ، وانخفضت الروابي فتزعزعت أسوار مدين ، ولقد

(١) في ج: فقتلکم ونحن معه.

(٢) سورة البقرة: الآية ٨٩، وهذه الرواية أخرجها الطبری في تفسیره عن ابن حمید قال: حدثنا سلمة
قال: حدثني ابن إسحق عن عاصم عن ابن عمر... (تفسير الطبری: ١/٣٢٥)، دار المعرفة
- بيروت.

(٣) هذا النص ليس في الترجمات الحالية لسفر أشعيا.

(٤) نفس المرجع السابق.

(٥) النص الحالی: (الله جاء من تیمان) وكذلك في الجواب الصحيح (اليمن): ٣/٣٣٠.

(حاز)^(١) المساعي القديمة، ثم قال: (زجرك في الأنهر واحتدام صوتك)^(٢) في البحار، ركبت الخيول وعلوت مراكب الأنقياء وستنزع في قسيك^(٣) أعراقاً^(٤)، وترتوى الهام بأمرك يا محمد ارتواه، ولقد رأتك الجبال فارتاعت، وانحرف عنك شؤوب السيل^(٥) وتضيّمت المهاري (تضوراً)^(٦)، ورفعت أيديها وجلاً وخوفاً، وسارت العساكر في بريق سهامك، ولمعan نيازك وتندوخ الأرض وتندوس الأمم أنك ظهرت بخلاص أمتك وإنقاذ تراب آبائك^(٧). فمن رام صرف هذه البشارة عن محمد فقد رام سترا الشمس بالنهار، وتغطية البحار، وأنى يقدر على ذلك، وقد وصفه بصفات عينت شخصه، وأزالت عن الحيران لبسه، بل قد صرّح باسمه مرتين، حتى انكشف الصبع لمن كان ذا عينين، وأخبر بقوة أنته، وتسير المنايا أمامهم، واتباع جوارح الطير آثارهم. وهذه النبوة لا تليق إلا بمحمد ﷺ، ولا تصلح إلا له، ولا تنزل إلا عليه، فمن حاول صرف الأنهر العظيمة عن مجاريها، وحبسها عن غايتها ومتناها ففيها ما يروم المبطلون والجاحدون، ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتَمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

فمن الذي امتلأت الأرض من حمده وحمد أنته في صلواتهم وخطبهم، وإدبار صلواتهم، وعلى النساء والضراء، وجميع الأحوال سواهم، حتى سماهم الله تعالى قبل ظهورهم الحمادين، ومن ذا الذي كان وجهه كأن الشمس والقمر يجريان فيه من ضيائه ونوره.

(١) في الأصل جاز.

(٢) احتدام الصوت: سرعته، الحنم: الإسراع في المشي، ومنه قول عمر لبعض المؤذنين إذا أدنت قرسل، وإذا أقمت فاحنم، يريد عجل إقامة الصلاة ولا تطولها كالآذان (لسان العرب)،

(٣) القسي: جمع القوس (لسان العرب).

(٤) أعراقاً: جمع عرقاة بفتح العين وكسرها، وهو الأصل الذي يذهب في الأرض سفلًا وتشعب منه العروق، وقال بعضهم: أعرقه وعرقات، وعرقة كل شيء: أصله ويقال في الدعاء: استأصل الله عرقاته، والعرب تقول: استأصل الله عرقاتهم أي شأفتهم (لسان العرب).

(٥) الشؤوب هو شدة دفع السيل، أو للدفع من المطر، القاموس مادة: شوب، المعجم الوسيط: ٤٧٢ / ١. والمهاري بالياء مشددة ومخففة، والمهاري بالألف المقصورة: جمع مهرية وهي إبل نجائب تسبق الخيل منسوبة لقبيلة مهرة بن حيدان، المعجم الوسيط ٨٩٧ / ٢. والتضور: الصلاح والتلوّي عند الضرب أو الجوع، مختار الصحاح.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) انظر: حقوق: ٣/٣ - ١٣ مع اختلاف في الألفاظ.

(قد عود الطير عادات وثقن به فهن يَتَبَعْنَهُ في كل مرت حل)^(١)
 (لولم يقل)^(٢) إني رسول أما أتى شاهده في وجهه ينطق
 ومن ذا الذي سارت المنيا أمامه، وصاحت سباع الطير جنوده لعلمهمما بقرب من
 ذبح الكفار لله الواحد القهار.

(يتطايرون بقربه قربانهم)^(٣) بدماء من علقوا من الكفار
 ومن ذا الذي تضعضعت له الجبال (وانخفضت)^(٤) له الروابي ، وداس الأمم ورَوَعَ
 العالم وانتقضت لنبوته المالك ، وخَلَصَ الأمة من الشرك والكفر والجهل والظلم سواه.

* الوجه السادس والعشرون :

قوله في كتاب حزقييل يهدى اليهود ويصف لهم أمة محمد ﷺ : (إن الله مظهرهم عليكم ، ويأبى لهم نبياً ، وينزل عليه كتاباً ، ويملكهم رقابكم فيقهرونكم ويذلونكم بالحق ، ويخرج رجال بني قيدار في جماعات الشعوب معهم ملائكة على خيل بيض متسلحين يوقعون بكم وتكون عاقبتكم إلى النار)^(٥) .

فمن الذي أظهره الله على اليهود حتى قهرواهم وأذلهم وأوقع بهم وأنزل عليه كتاباً ، ومن هم بنو قيدار غير بني إسماعيل الذي خرجوا معه وهم جماعات الشعوب ، ومن الذي نزلت عليه وعلى أمهاته الملائكة على خيل بيض يوم بدر ، ويوم الأحزاب ، ويوم حنين ، حتى عاينوها عياناً ، فقاتل بين يديه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، حتى غلب ثلاثة وثلاثة عشر رجلاً ليس معهم غير فرسين ، ألف رجل مقنعين في (الحديد)^(٦) معدودين من فرسان

(١) البيت سقط من الأصل.

(٢) سقطت من ص.

(٣) في ب ، ص: يتظاهرون يرونهم قربانهم ، وفي ج: يتظاهرون برؤيه قربانهم.

(٤) في الأصل: وانخفضت.

(٥) هذا النص أورده ابن تيمية عن دانيال وليس عن حزقييل (انظر الجواب الصحيح: ٣٣١/٣) والنص في دانيال ، ويوجد في حزقييل ما يشبهه قليلاً وإن كان الحديث فيه عن بني إسرائيل لا عن بني قيدار (حزقيال: ٣٧/٢١).

ويبدو أن النص محرف والتحريف كان في وضع كلمة بني إسرائيل بدل كلمة بني إسماعيل.

(٦) سقطت من الأصل.

العرب فأصبحوا بين قتيل وأسير (منهزم) ^(١).

* الوجه السابع والعشرون:

قول (دانيال) ^(٢) وذكره باسمه الصريح من غير تعريض ولا تلويع، وقال: (ستنزع في قسيك أعرافاً وترتوى السهام بأمرك يا محمد ارتقاء) ^(٣).

وقول دانيال النبي أيضاً حين سأله بخت نصر عن تأويل رؤيا رآها ثم أنسىها: (رأيت أيها الملك صنماً عظيماً قائماً بين يديك رأسه من الذهب وساعداه من الفضة) ^(٤) وبطنه وفخذه من النحاس، وساقاه من الحديد، ورجلاه من الخزف ^(٥)، فبينما أنت تتعجب منه إذ أقبلت صخرة فدقت في ذلك الصنم ففتلت وتلاشى، وعاد رفاتاً ^(٦)، ثم نسفته الرياح، وذهب وتحول ذلك الحجر إنساناً عظيماً ملأ الأرض، فهذا ما رأيت أيها الملك، فقال بخت نصر صدقت! فما تأولتها؟ قال: أنت الرأس الذي رأيته من ذهب، ويقوم بعده ولدك، وهو الذي رأيته من الفضة، وهو دونك وتقوم بعده مملكة أخرى (هي دونه وهي تشبه النحاس وبعدها مملكة قوية مثل الحديد، وأما الرجالان اللذان رأيت من الخزف فمملكته) ^(٧) ضعيفة، وأما الحجر العظيم الذي رأيته دقّ الصنم فقتله فهونبي يقيمه إلى الأرض والسماء بشرعية قوية فيدق جميع ملوك الأرض وأممها حتى تمتليء الأرض منه ومن أمته، وي-dom سلطان ذلك النبي إلى انقضاء الدنيا، فهذا تعبير رؤياك أيها الملك ^(٨).

وعلوم أن هذا منطبق على محمد بن عبد الله عليه السلام حذو القذة بالقذة لا على المسيح ولا على النبي سواه، فهو الذي بعث بشريعة قوية، ودقّ جميع ملوك الأرض وأممها، حتى

(١) في ج: منهزمين.

(٢) في الأصل: حقوق.

(٣) سبق تعليقنا عليه، دانيال: ١١/٣.

(٤) في النص الحالي: صدره وذراعه من الفضة، دانيال: ٢٢/٢.

(٥) في النص الحالي: قدماء بعضهما من حديد والبعض من خزف: ٢٣/٢.

(٦) الرفات: الحطام، مختار الصحاح: ص ٢٤٩.

(٧) سقطت من ص.

(٨) هذا الوجه منقول عن الجواب الصحيح: ٤/٤ - ٥.

امتلأت الأرض من أمتها، وسلطانه دائم إلى آخر الدهر لا يقدر أحد أن يزيله، كما أزال سلطان اليهود من الأرض وأزال سلطان النصارى عن خيار الأرض – وسطها – فصار في بعض أطراافها، وأزال سلطان المجنوس وعباد الأصنام سلطان الصابئين.

* الوجه الثامن والعشرون^(١):

قول دانيال أيضاً: «سألت الله وتضرعت إليه أن يبين لي ما يكون منبني إسرائيل، وهل يتوب عليهم ويرد إليهم ملكهم، ويبعث إليهم الأنبياء، أو يجعل ذلك في غيرهم فظهر لي الملك في صورة شاب حسن الوجه، فقال: السلام عليك يا دانيال: إن الله يقول: إن بني إسرائيل أغضبني، وتمردوا عليّ وعبدوا (من) دوني آلهة أخرى، وصاروا من بعد العلم إلى الجهل، ومن بعد الصدق إلى الكذب، فسلطت عليهم بخت نصر، فقتل رجالهم، وسمى ذاريهم، وهدم مساجدهم، وحرق كتبهم، وكذلك فعل من بعده بهم، وأنا غير راض عنهم، ولا مقيلهم عثراتهم، فلا يزالون في سخطي حتى أبعث مسيحي ابن العذراء البتوء، وأختتم عليهم ذلك باللعنة والسلط، فلا يزالون ملعونين عليهم الذل والمسكنة حتى أبعث النبيبني إسماعيل الذي بشرت به هاجر، وأرسلت إليها ملاكي، فبشرها، وأوحى إلى ذلك النبي، وأعلمه الأسماء، وأزيزنه بالتفوى، وأجعل البر شعاره، والتقوى ضميره، والصدق قوله، والوفاء طبيعته، والقصد سيرته، والرشد سنته، أخصبه بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتاب، وناسخ لبعض ما فيها، أسرى به إلى وأرقىه من سماء إلى سماء حتى يعلو فأدنيه، وأسلم عليه وأوحى إليه، ثم أرده إلى عبادي بالسرور والغبطة، حافظاً لما استودع، صادقاً فيما أمر، يدعوه إلى توحيدني باللين من القول والموعضة الحسنة، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسوق، رؤوف بمن ولاه، رحيم بمن آمن به، خشن على من عاده، فيدعو قومه إلى توحيدني وعبادتي، ويخبرهم بما رأى من آياتي فيكتذبونه ويؤذونه»^(٢).

(١) في المصرية الأصل: في.

(٢) لا نجد في دانيال – في الترجمات الحالية – مثل هذا النص واضحًا مرتبًا، والموجود هو معاني منتشرة لأجزاء منه، انظر دانيال: ٩/٣ – ١١/٣ – ١٠ وقد نقله ابن القيم عن الجواب الصحيح: ٤/٤ – ٥.

ثم سرد دانيال قصة رسول الله ﷺ بما أملأه (عليه) الملك، حتى وصل آخر أيام أمته بالنفحة وانقضاء الدنيا، وهذه البشارة الآن عند اليهود والنصارى، يقرؤونها ويقرّون بها، ويقولون: لم يظهر صاحبها بعد.

(قال أبو العالية: لَمَّا فتح المسلمون تُسْتَرَ^(١) وجدوا دانيال ميّتاً ووجلوا عنده مصحفاً^(٢)).

قال أبو العالية: فأنا قرأت ذلك المصحف، وفيه صفتكم وأخباركم، وسيرنكم ولحومن كلامكم، وكان أهل الناحية (يعني أهل أرض السويس حيث دانيال مدفون)^(٣)، إذا أجدبوا كشفوا عن قبره (فيسوقون)^(٤)، فكتب (أبو موسى)^(٥) في ذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكتب إليه عمر أن أحضر بالنهار ثلاثة عشر قبراً وادفنه بالليل في واحد منها كي لا تفتن الناس به^(٦).

* الوجه التاسع والعشرون^(٧):

قال كعب^(٨): وذكر صفة رسول الله ﷺ في التوراة — ويريد بها التوراة التي هي أعم من التوراة المعنية — أحمد عبدي المختار، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزي السيدة بالسيئة، يغفو ويغفر مولده بـكـا^(٩)، وهجرته طابا^(١٠)، وملكه بالشام، وأمته

(١) تُسْتَر*: أعظم مدينة بخوزستان وبها قبر البراء بن مالك وفتحها أبو موسى الأشعري (معجم البلدان ٢٩/٢).

(٢) سقطت هذه العبارة من الأصل ومن ج، ص.

(٣) سقطت من ب، ج، ص.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) في ص: أبو موسى الأشعري.

(٦) رواية أبي العالية هذه أوردها البيهقي في دلائل النبوة: ١/٢٨٤ كما ذكرها ابن تيمية في الجواب الصحيح: ٤/٤.

(٧) هذا الوجه منقول عن الجواب الصحيح ٤/٥ - ٦.

(٨) يعني كعب الأحبار.

(٩) في النص القرآني: (بكة) بالباء المربوطة وذلك في قوله تعالى: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيْكَةٌ».

(١٠) طابا هي طيبة وهذا من أسماء المدينة المنورة.

الحامدون، يحمدون الله على كل نجد، ويسبحونه في كل منزلة، ويروضون أطرافهم، ويأترون على أنصافهم، وهم رعاة الشمس، ومؤذنهم في جو السماء، وصفهم في القتال وصفهم في الصلاة سواء، رهبان بالليل أسد بالنهار، لهم دوي كدوى النحل، يصلون الصلاة حيث ما أدركتهم ولو على كنasse^(١).

* الوجه الثالثون^(٢):

قال ابن أبي الزناد^(٣): (حدثني عبد الرحمن بن الحارث عن عمر بن حفص^(٤)، وكان من خيار الناس قال: كان عند أبي وجدي ورقة يتوازونها قبل الإسلام، فيها اسم الله وقوله الحق وقول الظالمين في تبار، هذا الذكر لأمة تأتي في آخر الزمان، يتزرون على أوساطهم، ويغسلون أطرافهم، ويختوضون بالبحور إلى أعدائهم، فيهم صلاة لو كانت في قوم نوح ما هلكوا بالطوفان، وفي ثمود ما أهللوكوا بالصيحة)^(٥).

* الوجه الحادي والثلاثون^(٦):

قال أشعيا وذكر قصة العرب فقال: (يدوسون الأمم ديرهم بيادر، وينزل البلاء بمشركي العرب، وينهزمون بين يدي سيف مسلولة، وقسيّ موتورة من شدة الملجمة)^(٧). وهذا إخبار عما حلّ بعدة الأوثان من رسول الله ﷺ وأصحابه يوم بدر ويوم حنين وفي غيرهما من الواقع.

* الوجه الثاني والثلاثون:

قوله في الإنجيل الذي بأيدي النصارى عن يوحنا أن المسيح قال للحواريين: «من

(١) هذا النص غير موجود في الترجمات الحالية للكتاب المقدس. وقد ذكر البيهقي الجزء الأول من هذا النص بأكثر من طريق عن كعب (انظر: دلائل النبوة: ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠) وذكر ابن سعد بقية القول (انظر: الطبقات: ٢/٨٧—٢/١) وقوله: ولو على كنasse، فيه نظر.

(٢) هذا الوجه منقول عن الجواب الصحيح: ٤/٦.

(٣) عبد الرحمن بن أبي الزناد بن ذكوان المداني، أحد العلماء الكبار، روى له أصحاب السنن الأربعية، مات ببغداد سنة ١٧٤ هـ (ميزان الاعتدال: ٢/٥٧٥).

(٤) عمر بن حفص: وعند البيهقي عمر بن الحكم بن رافع بن سنان.

(٥) دلائل النبوة، البيهقي: ص ٢٨٥.

(٦) هذا الوجه منقول عن الجواب الصحيح: ص ٤—٦.

(٧) انظر: أشعيا: ٢١/١٦—١٢.

أبغضني فقد أبغض الرب، ولو لا أني صنعت لهم (صنائع) لم يصنعها أحد لم يكن لهم ذنب، (ولكن من الآن بطروا)^(١) فلا بد أن تتم الكلمة التي في الناموس لأنهم أبغضوني مجاناً، ولو قد جاء المنحمنا^(٢) هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب روح القدس، فهو شهيد عليّ، وأنتم أيضاً لأنكم قدِيماءَ كنتم معـي، هذا قولـي لكم لكي لا تشكوا إذا جاءـ^(٣).

والمنـحـمنـا بالـسـرـيـانـيـة وـتـفـسـيرـه بـالـبـارـقـلـيـط وـهـو (ـبـالـعـرـبـيـةـ)^(٤) الـحـامـدـ وـالـمـحـمـودـ . والـحـمـدـ كـمـاـ تـقـدـمـ.

* الوجه الثالث والثلاثون :

قولـه في الإنجـيلـ أـيـضاًـ: (ـإـنـ الـمـسـيـحـ قـالـ لـلـيـهـودـ: وـيـقـولـونـ: لـوـكـنـاـ فـيـ أـيـامـ آـبـائـنـاـ لـمـ نـسـاعـدـهـمـ عـلـىـ قـتـلـ الـأـبـيـاءـ، فـأـتـمـواـ كـيـلـ آـبـائـكـمـ (ـيـاتـابـيـنـ)^(٥) بـنـيـ الـأـفـاعـيـ، (ـكـيـفـ لـكـمـ)^(٦) النـجـاةـ مـنـ عـذـابـ النـارـ)^(٧).

(ـوـيـؤـيـدـ ذـلـكـ مـاـ وـرـدـ فـيـ سـوـرـةـ يـسـ (ـفـأـرـسـلـنـاـ إـلـيـهـمـ اـثـنـيـنـ فـكـذـبـوـهـمـاـ فـعـزـزـنـاـ بـثـالـثـ)^(٨).

وـذـلـكـ مـحـقـقـ أـنـ بـعـدـ رـفـعـ الـمـسـيـحـ . وـقـدـ تـقـدـمـ الـكـلـامـ عـلـىـ مـعـنـىـ)^(٩) وـسـأـبـعـثـ إـلـيـكـمـ أـنـيـاءـ وـعـلـمـاءـ وـتـقـتـلـوـنـ مـنـهـمـ، وـتـصـلـبـوـنـ وـتـجـلـدـوـنـ، وـتـطـلـبـوـنـهـمـ مـنـ مـدـيـنـةـ إـلـىـ أـخـرـىـ، لـتـكـامـلـ عـلـيـكـمـ دـمـاءـ الـمـؤـمـنـينـ الـمـهـرـقـةـ عـلـىـ الـأـرـضـ، مـنـ دـمـ هـاـيـلـ الصـالـحـ إـلـىـ دـمـ زـكـرـيـاـ بـرـضـيـاـ الـذـيـ قـتـلـتـمـوـهـ عـنـدـ الـمـذـبـحـ، إـنـ سـيـأـتـيـ جـمـيـعـ مـاـ وـصـفـتـ عـلـىـ هـذـهـ الـأـمـةـ يـاـ أـورـشـلـيمـ

(١) في الأصل: من الآن ينظروا.

(٢) التـرـجـمـاتـ الـحـالـيـةـ لـاـ تـذـكـرـ لـفـظـ الـمـنـحـمـنـاـ، فـبعـضـهـاـ يـذـكـرـ الـبـارـقـلـيـطـ وـبعـضـهـاـ الـمعـزـىـ.

(٣) يـوـحـنـاـ: ١٥/٢٤ - ٢٧ـ.

(٤) في الأصل: بالـعـرـبـيـةـ.

(٥) في جـ، صـ: يـاتـابـيـنـ.

(٦) سـقطـتـ مـنـ الأـصـلـ.

(٧) متـ: ٣٠/٢٣ - ٣٣ـ.

(٨) سـوـرـةـ يـسـ: الـآـيـةـ ١٤ـ.

(٩) زـيـادـةـ فـيـ الأـصـلـ فـقـطـ.

التي تقتل الأنبياء، وترحم من بعث إليك، قد أردت أن أجمع بنيك كجمع الدجاجة (فرازيرها)^(١) حتى جناحها، وكرهت أنت ذلك، سأقفر عليكم بيتكم، وأنا أقول لا تروني الآن حتى يأتي من يقولون له مبارك، يأتي على اسم الله^(٢).

فأخبرهم المسيح أنهم لا بد أن يستوفوا الصاع الذي قدر لهم، وأنه سيقفز (بيتهم)^(٣)، أي يخليه منهم، وأنه يذهب عنهم فلا يرونه حتى يأتي المبارك الذي يأتي على اسم الله، فهو الذي انتقم بعده لدماء المؤمنين، وهذا نظير قوله في الموضع الآخر: إنه خير لكم أن أذهب عنكم حتى يأتيكم البارقليط، فإنه لا يجيء مالم أذهب^(٤)، وقوله أيضاً: (ابن البشر ذاہب والبارقليط من بعده)^(٥). وفي موضع آخر: (أنا ذاہب وسيأتيكم البارقليط)^(٦).

والبارك الذي جاء بعد المسيح، هو محمد ﷺ كما تقدم تقريره.

* الوجه الرابع والثلاثون:

قوله في إنجيل متى: (إنه لما حبس يحيى بن زكريا بعث تلاميذه إلى المسيح، وقال لهم: قولوا له: أنت إيليا أم تتوقع غيرك؟ فقال المسيح: الحق اليقين أقول لكم: إنه لم تقم النساء عن أفضل من يحيى بن زكريا، وإن التوراة وكتب الأنبياء يتلو بعضها بعضاً بالنبوة والوحى، حتى جاء يحيى. وأما الآن فإن شئتم فاقبلوا فإن (أيل) مزمع أن يأتي فمن كانت له أدنان سامعتان فليستمع)^(٧).

وهذه بشارة بمجيء الله سبحانه وتعالى الذي هو أيل بالعبرانية ومجيئه هو مجيء رسوله وكتابه ودينه، كما في التوراة (جاء الله من طور سيناء) قال بعض عباد الصليب: إنما بشر بإلياس النبي.

(١) في الأصل: في أريجها.

(٢) متى : ٣٩ - ٣٤ / ٢٣.

(٣) في ب، ج، ص: عليهم بيته.

(٤) يوحنا: ١٦ / ٧.

(٥) يوحنا: ص ١٤.

(٦) يوحنا: ص ١٥.

(٧) انظر: متى : ١١ / ٩ - ١٠.

وهذا لا ينكر من جهل أمة الضلال وعباد خشبة الصليب التي نحتتها أيدي اليهود، فإن إلياس تقدم لإرساله على المسيح بدهور متطاولة.

* الوجه الخامس والثلاثون :

قوله في نبوة أرميا: (قبل أن أخلقك قد عظمتك من قبل أن أصورك في البطن، وأرسلتك وجعلتكنبياً للأجناس كلهم)^(١)، فهذه بشارة على لسان أرميا لمن بعده، وهو إما المسيح وإما محمد صلوات الله وسلامه عليهما، لا تدعوهما إلى غيرهما، ومحمد أولى بها لأن المسيح إنما كاننبياً لبني إسرائيل، كما قال الله تعالى: «رسولاً إلىبني إسرائيل»^(٢).

والنصارى تقرّ بذلك، ولم يدع المسيح أنه رسول إلى (سائر)^(٣) الأجناس من أهل الأرض، فإن الأنبياء من عهد موسى إلى المسيح إنما كانوا يبعثون إلى قومهم، بل عندهم في الإنجيل أن المسيح قال للحواريين: «لا تسلكوا إلى سبيل الأجناس ولكن اختصروا على الغنم الرابضة من نسل إسرائيل»^(٤).

وأما محمد بن عبد الله فهو الذي بعثه الله إلى سائر أجناس الأرض وطوائف بني آدم.

وهذه البشارة مطابقة لقوله تعالى: «قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً»^(٥).

ولقوله ﷺ: (بعثت إلى الأسود والأحمر)^(٦).

(١) أرميا: ٥/١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٤٩

(٣) في ب، ج، ص: جميع.

(٤) انظر: متى: ٥/١٠ - ٦.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

(٦) أخرجه مسلم ضمن حديث: (أعطيت خمساً...) بلفظ: «ويبعثت إلى كل أحمر وأسود» (صحيح مسلم، المساجد: ٥٢١/٣).

وقوله : (وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة) ^(١).

وقد اعترفت النصارى بهذه البشارة ولم ينكروها . لكن قال بعض زعمائهم إنها بشاررة موسى بن عمران وإلياس واليسوع ، وأنهم سيأتون في آخر الزمان ، وهذه من أعظم البهتان والجرأة على الله تعالى والافتراء عليه ، فإنه لا يأتي من قد مات إلى يوم الميقات المعلوم .

* الوجه السادس والثلاثون :

قول المسيح في الإنجيل الذي بأيديهم ، وقد ضرب مثل الدنيا فقال : (كمثل رجل اغترس) ^(٢) كرماً (ويسّع) ^(٣) حوله ، وجعل فيه معصراً ، وشيد فيه قصراً ، ووكل به أعوناً ، وتقرب عنبه ، فلما دنا أوان القطايف ، بعث (عبدًا) ^(٤) إلى أعونه المتوكلين بالكرم ، ثم ضرب مثلًا للأنبية ولنفسه ، ثم للنبي الموكّل آخر بالكرم) ^(٥) إلى أن أفصح عن أمرته فقال : (وأقول لكم : سيزاح عنكم ملك الله وتعطاه الأمة المطيعة العاملة) ^(٦) .

ثم ضرب لبني إسرائيل مثلًا بصخرة وقال : «من سقط على هذه الصخرة، ينكسر، ومن سقطت عليه يتھشم» ^(٧) وهذه صفة محمد ﷺ ومن ناوأه وحاربه من الناس لا ينطبق على أحد بعد المسيح سواه.

* الوجه السابع والثلاثون :

قول أشعيا في (صفته) ^(٨) : لتفرح أرض البادية العطشى ، ولتبتهج الروابي

(١) الحديث أخرجه هكذا الإمام أحمد في مستنه في حديث : أُعطيت خمساً... الذي تقدم الحديث عنه (مستند الإمام أحمد) ١٤٥/٥.

(٢) في ج: اغترت.

(٣) في الأصل: ويسّع.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) متى: ٢١/٣٣ - ٣٥، ٤٣.

(٧) متى: ٤٤/٢١.

(٨) في الأصل: صحفة.

والفلوات، لأنها ستعطي بأحمد محسن لبنان ومثل حسن (الدساكير)^(١) وبالله^(٢) ما بعد هذا إلا المكابرة وجحود الحق بعد ما تبيّن.

* الوجه الثامن والثلاثون:

قول حزقييل في صحفه التي بآيديهم: «يقول الله عز وجل بعدهما ذكر معاصيبني إسرائيل وشَبَّهُم بكرمة غذتها وقال: لم تلبت الكرمة أن قلعت بالسخطة ورمي بها على الأرض، وأحرقت السمائم ثمارها، فعند ذلك غرس في البدو وفي الأرض المهملة العطشى، وخرجت من أغصانها الفاضلة نار أكلت تلك الكرمة، حتى لم يوجد فيها غصن قوي ولا قضيب»^(٣) . . .

وهذا تصريح لا تلويع به بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وبيلده وهي مكة العطشى المهملة من النبوة قبله من عهد إسماعيل.

* الوجه التاسع والثلاثون:

ما في صحف دانيال وقد نعت (الكشادانيين)^(٤) الكلدانين^(٥) فقال: لا تميد دعوتهם، وأقسم الرب بسعده أن لا يظهر الباطل، ولا يقوم لمدع كاذب دعوة أكثر من ثلاثين سنة^(٦).

وفي التوراة ما يشبه هذا. وهذا صريح بصحة نبوته بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فإن الذين اتبعوه بعد موته أضعاف أضعاف الذين اتبعوه في حياته، وهذه دعوته التي مرت عليها القرون من السنين، وهي باقية مستمرة، وكذلك إلى آخر الدهر. ولم يقع هذا لملك قط فضلاً عن كذاب مفتر

(١) أشعيا: ٣/٣٥.

(٢) في ج: الدنيا كبروا بالله.

(٣) حزقيال: ١٣/١٤.

(٤) لم يرد ذكر الكشادانيين في سفر دانيال، وإنما ذكر الكلدانيون أكثر من مرة، والكلدانيون هم الجنس الصالب في بابل من ص ١٢١ - ٥٣٩ ق.م ومن ملوكهم نبوخذ نصر (قاموس الكتاب المقدس: ٧٨٥/٢).

(٥) في الأصل: الكلدانين.

(٦) هذا النص ليس في سفر دانيال الحالي.

على الله وأنبيائه مفسد للعالم (مغيرة^(١)) لدعوة الرسل، ومن ظنّ هذا بالله فقد ظن به أسوأ الظن، وقدح في علمه وقدرته وحكمته.

[مناظرة لابن القيم مع أحد رؤساء اليهود]

وقد جرى لي مناظرة مع أكبر من تشير إليه اليهود بالعلم والرئاسة، فقلت له في أثناء الكلام: إنهم بتكتلهم محمداً بكلمة وقد شتمتم الله أعظم شتيمة فعجب من ذلك، وقال: مثلك يقول هذا الكلام! فقلت له: اسمع الآن تقريره: إذا قلت إن محمداً ملك (ظالم)^(٢) قهر الناس بسيفه، وليس برسول من عند الله، وقد أقام ثلاثة عشررين سنة يدعى أنه رسول الله أرسله إلى الخلق كافة، ويقول: أمرني الله بذلك ونهاني عن كذا وأوحى إليّ كذا، ولم يكن من ذلك شيء، ويقول إنه أباح لي سبى ذاري من كذبني وخالقني ونساءهم، وغنية أموالهم، وقتل رجالهم، ولم يكن من ذلك شيء، وهو (يدأب)^(٣) في تغيير الأنبياء ومعاداة أممهم، ونسخ شرائعهم، فلا يخلو: إما أن تقولوا: إن الله سبحانه تعالى كان يطلع على ذلك ويشاهده ويعلمه ، أو تقولوا: إنه خفي عنه ولم يعلم به ، فإن قلت لم يعلم به نسبتموه إلى أقبع الجهل ، وكان من علم ذلك أعلم منه؛ وإن قلت بل كان كله بعلمه ومشاهدته واطلاعه عليه ، فلا يخلو: إما أن يكون قادراً على تغييره ، والأخذ على يديه ، ومنعه من ذلك ، أو لا : فإن لم يكن قادراً ، فقد^(٤) نسبتموه إلى أقبع العجز المنافي للربوبية ، وإن كان قادراً ، وهو مع ذلك يعزه وينصره ويؤهده ، ويعليه ويعلي كلمته ، ويجيب دعاءه ، ويمكنه من أعدائه ، ويظهر على يديه من أنواع المعجزات والكرامات ما يزيد على الألف ، ولا يقصده أحد بسوء إلا ظفر به ، ولا يدعوه بدعاوة إلا استجابها له ، فهذا من أعظم الظلم والسفه الذي لا تليق نسبته إلى آحاد العقلاة فضلاً عن رب الأرض والسماء ، فكيف وهو يشهد له بإقراره على دعوته وتأييده بكلامه ، وهذه عندكم شهادة زور وكذب؟!

(١) في الأصل: مفتر.

(٢) في الأصل: ظاهر.

(٣) في ج: كذاب.

(٤) سقطت من الأصل.

فلما سمع ذلك قال: معاذ الله أن يفعل الله هذا بكاذب مفتر، بل هونبي صادق من اتبعه أفحى وسعد.

قلت: فما لك لا تدخل في دينه؟

قال: إنما بعث للأميين الذين لا كتاب لهم، وأما نحن فعندها كتاب تتبعه.

قلت له: غلبت كل الغلب، فإنه قد علم الخاص والعام أنه أخبر أنه رسول الله إلى جميع الخلق، وأن من لم يتبعه فهو كافر من أهل الجحيم، وقاتل اليهود والنصارى وهم أهل كتاب، فإذا صحت رسالته، لزم تصديقه في كل ما أخبر به، فأمسك ولم يحر جواباً.

[مناظرة لأحد علماء المغرب مع بعض اليهود]

وأقرباً من هذه المنازرة ما جرى لبعض علماء المسلمين مع بعض اليهود ببلاد المغرب^(١).

قال له المسلم: في التوراة التي بأيديكم إلى اليوم أن الله تعالى قال لموسى عليه الصلاة والسلام: «إنِّي أَقِيمُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ إِخْوَتِهِمْ نَبِيًّا مِّثْلَكَ أَجْعَلُ كَلَامِي عَلَىٰ فِيهِ، فَمَنْ عَصَاهُ انتَقَمْتُ مِنْهُ»^(٢) قال له اليهودي: ذلك يوشع بن نون، فقال له المسلم: هذا محال من وجوه:

أحدهما: أنه قال عندك في آخر التوراة: «أنه لا يقوم في بني إسرائيل نبي مثل موسى»^(٣).

الثاني: أنه قال: «من إخوتهِمْ»، وأخوة بني إسرائيل إما العرب وإما الروم . فإن العرب بنو إسماعيل والروم بنو العيسى^(٤)، وهؤلاء إخوة بني إسرائيل، فاما

(١) العالم المسلم هو أبو عبيدة الخزرجي المتوفى سنة ٥٨٢ هـ، وكان يناظر أحد رهبان اليهود، وهذه المنازرة موجودة في كتابه بين الإسلام والمسيحية، تحقيق الدكتور محمد شامة: ص ٢٦٠ - ٢٦٣.

(٢) انظر: الثانية: ١٨ / ١٨ - ١٩ .

(٣) انظر: الثانية: ٣٤ / ١٠ .

(٤) العيسى، أو عيسى، وهو ابن إسحق وتؤمن بعقوب، (انظر: قاموس الكتاب المقدس: ٢ / ٦٤٩).

الروم فلم يقم منهم نبي سوى أیوب عليه السلام وكان قبل موسى عليه السلام فلا يجوز أن يكون هو الذي بشرت به التوراة، فلم يبق إلا العرب وهو بن إسماعيل وهم أخوة بني إسرائيل.

وقد قال الله تعالى في التوراة حين ذكر إسماعيل جد العرب: «أنه يضع فساططه في وسط بلاد إخوته»^(١) وهم بنو إسرائيل.

وهذه بشارة بنبؤة ابنه محمد الذي نصب فساططه، وملك أمته في وسط بلاد بني إسرائيل، وهي الشام التي (هي) مظهر ملكه كما تقدم من قوله: «وملكه بالشام».

قال له اليهودي: فعندكم في القرآن، «إلى مدين أخاهم شعيباً»^(٢) «إلى عاد أخاهم هوداً»^(٣)، «إلى ثمود أخاهم صالحًا»^(٤) والعرب تقول: يا أخا بني تميم للواحد منهم. فهذا قوله «أقيم لبني إسرائيل من إخوتهم».

قال المسلم: الفرق بين الموصعين ظاهر فإنه من المحال أن يقال: بنو إسرائيل إخوة بني إسرائيل، وبنو تميم إخوة بني تميم، وبنو هاشم إخوة بني هاشم.

وهذا ما لا يعقل في لغة قوم وأمة من الأمم، بخلاف قولك زيد أخو بني تميم. وهو د أخو عاد، وصالح أخو ثمود، أي واحد منهم. فهو أخوهم في النسب، ولو قيل: عاد أخو عاد، وثمود أخو ثمود ومدين أخو مدين، لكن نقضًا، وكان نظير قولك بنو إسرائيل إخوة بني إسرائيل، فاعتبار أحد الموصعين بالأخر صريح.

قال اليهودي: أخبر أنه سيقيم هذا النبي لبني إسرائيل، ومحمد إنما أقيم للعرب ولم يقم لبني إسرائيل، فهذا الاختصاص يشعر بأنه إليهم مبعوث لا إلى غيرهم.

قال المسلم: هذا من دلائل (صدقه)^(٥)، فإنه ادعى أنه رسول الله إلى أهل الأرض

(١) انظر: التكوين: ١٦/١٢.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٥؛ سورة هود: الآية ٨٤.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٦٥؛ سورة هود: الآية ٥٠.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٧٣؛ سورة هود: الآية ٦١.

(٥) في الأصل: متفرقة.

كتابيهم وأميهم . ونص الله في التوراة على أنه يقيم لهم لثلا (يتوهم)^(١) أنه مرسى إلى العرب والأميين (خاصة)^(٢) ، والنبي ﷺ خص بالذكر لحاجة المخاطب إلى ذكره ، وللثلا يتوهم السامع أنه غير مراد باللفظ العام ولا داخل فيه ، وللتنبيء على أن ما عداه أولى بحكمه ، ولغير ذلك من المقاصد . فكان في تعينبني إسرائيل إزالة لوهمن توهمن أنه مبعوث إلى العرب خاصة . وقد قال الله تعالى : ﴿لَتَنذِرُ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾^(٣) وهو لاء قومه ، ولم يتف ذلك أن يكون نذيراً لغيرهم ، فلو أمكنك أن تذكر عنه أنه ادعى أنه رسول إلى العرب لكن ذلك حجة ، فاما وقد نطق كتابه وعرف الخاص والعام بأنه ادعى أنه مرسى إلىبني إسرائيل وغيرهم فلا حجة لك .

قال اليهودي : إن أسلافنا من اليهود كلهم على أنه ادعى ذلك ، ولكن العيسوية^(٤) منا ترعم أنهنبي العرب خاصة ، ولسنا نقول بقولهم ، ثم الفت إلىّ يهودي معه فقال : نحن قد جرى شأننا^(٥) على اليهودية ، وبالله ما أدرى كيف أتخلص من هذا العربي ، إلا أنه أقل ما يجب علينا أن نأخذ به أنفسنا النهي عن ذكره بسوء .

وقال محمد بن سعد في «الطبقات» : حدثنا (معن بن عيسى)^(٦) حدثنا (معاوية)^(٧) بن صالح عن أبي فروة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سأله كعب الأحبار كيف تجد نعمت رسول الله ﷺ في التوراة ؟ قال : نجده محمد بن عبد الله ، مولده بمكة ومهاجره إلى طابة ، ويكون ملكه بالشام ، ليس بفحاش ولا صخاب بالأسوق ، ولا يكافئه بالسيئة السيئة ولكن يغفو ويصفح^(٨) . وقال عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ، حدثنا

(١) في ب ، ج ، ص : يظنوا .

(٢) سقطت من ج .

(٣) سورة المسجدة : الآية ٣ .

(٤) العيسوية : إحدى فرق اليهود تنسب إلى أبي عيسى إسحق بن يعقوب الأصفهاني ، كان في زمان المنصور ، زعم أنهنبي وأنه رسول المسيح المنتظر وخالف اليهود في كثير من أحكام الشريعة (الممل والنحل ، الشهرياني : ٥٥ / ٢) .

(٥) الشأن : الغاية والأمد ، والسبق (مختر الصاحب : ص ٣٢٧) .

(٦) سقطت من ص .

(٧) في ج : معونة .

(٨) الطبقات الكبير ، ابن سعد : ٢ / ٨٧ - ٨٨ .

الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن أبي صالح قال: قال كعب: نجد مكتوباً (في التوراة)^(١): محمد لا فظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يغفر ويعفو، وأمته الحمادون يكثرون الله على كل نجد ويحمدونه في كل منزلة، (يأتزرون)^(٢) على أنصافهم ويتوضاون على أطرافهم، مناديهم يناديهم في جو السماء، صفهم في القتال وصفهم في الصلاة سواء، (لهم دوي)^(٣) كدوي النحل. مولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام^(٤).

قال الدارمي: (أخبرنا زيد بن عوف حدثنا أبو عوانة عن عبد الملك بن عمير عن ذكران بن أبي صالح) عن كعب قال: في السطر الأول: محمد رسول الله عبدي المختار، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يغفر ويعفو، مولده بمكة وهجرته بطيبة وملكه بالشام. وفي السطر الثاني: محمد رسول الله أمته الحمادون، يحمدون الله في كل حال ومتزلة، ويكترون الله على كل شرف، رعاة الشمس، يصلون الصلاة إذا جاء وقتها، ولو كانوا على رأس كنasaة، يأتزرون على أوساطفهم، ويروطنون أطرافهم، وأصواتهم بالليل في جو السماء أصوات النحل)^(٥).

وقال عاصم بن عمرو بن قتادة عن نملة بن أبي نملة عن أبيه قال: كانت يهودبني قريطة يدرسون ذكر رسول الله ﷺ في كتبهم، ويعلمون الولدان صفتة واسمها ومهاجره، فلما ظهر حسداً وبغوا^(٦).

وذكر أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث سليمان بن سحيم (الحدري)^(٧) ورميغ بن عبد الرحمن^(٨) كلاماً عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه قال: سمعت

(١) ليس في ب، ج، ص.

(٢) عند الدارمي: يأتزرون.

(٣) عند الدارمي: لهم بالليل دوي.

(٤) سنن الدارمي: ١/٤، (مطبعة الاعتدال، دمشق، سنة ١٣٤٩هـ).

(٥) سنن الدارمي: ١/٥-٦.

(٦) طبقات ابن سعد: ١/١٠٤ - ١/١؛ دلائل النبوة لأبي نعيم: ١/٩١.

(٧) سقطت من الأصل، ج، ب.

(٨) في ص: عبد الله.

أبا مالك بن سنان يقول: جئت لبني عبد الأشهل يوماً لأتحدث فيهم، ونحن يومئذ في هدنة من الحرب، فسمعت يوشع اليهودي يقول: أظل خروج النبي يقال له: أَحْمَد يخرج من الحرم، فقال له خليفة بن ثعلبة الأشهلي كالمستهزء به: ما صفتة؟ فقال: رجل ليس بالقصير ولا بالطويل في عينيه حمرة، يلبس الشملة، ويركب الحمار، وهذا البلد مهاجره، قال: فرجعت إلى قوميبني خدرة، وأنا يومئذ أتعجب مما قال يوشع، فأسمع رجلاً منا يقول: هذا وحده يقوله^(١)؟ (كل يهود)^(٢) يترب يقول هذا. قال أبي: فخرجت حتى جئت ببني قريظة فتذاكروا النبي ﷺ، فقال الزبير بن باطا: قد طلع الكوكب الأحمر الذي لم يطلع إلا لخروج النبي وظهوره، ولم يق (أحد)^(٣) إلا أَحْمَد هذه مهاجره.

قال أبو سعيد: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أخبره أبي هذا الخبر، فقال النبي ﷺ: لو أسلم الزبير وذووه من رؤساء يهود لأسلمت يهود كلها، إنما هم له تبع^(٤).

وقال النضر بن سلمة: حدثنا يحيى بن إبراهيم عن صالح بن محمد عن أبيه عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن ليبد عن محمد بن سلمة قال: لم يكن فيبني عبد الأشهل إلا يهودي واحد يقال له يوشع فسمعته يقول - وإنني لغلام -: قد أظل لكم خروج النبي يبعث من نحو هذا البيت، وأشار بيده إلى بيت الله (الحرام)^(٥) فمن أدركه فليصدقه، فبعث رسول الله ﷺ فأسلمتنا، وهو بين أظهرنا ولم يسلم حسداً وبغيأً^(٦).

قال النضر: وحدثنا عبد الجبار بن سعيد عن أبي بكر بن عبد الله العامري عن مسلم بن يسار عن عمارة بن خرزيمة بن ثابت قال: ما كان في الأوس والخزرج رجال أوصف لمحمد من أبي عامر الراهب، كان (يألفه اليهود)^(٧)، ويسألهم عن (الدين)^(٨)

(١) في دلائل النبوة: فأسمع رجلاً يقول: ويوشع يقول هذا وحده.

(٢) في ب: كله ليهود.

(٣) ليست في الأصل.

(٤) دلائل النبوة، أبو نعيم: ٩٢/١١٢.

(٥) سقطت من ب.

(٦) هذه الرواية ذكرها أبو نعيم في الدلائل: ١/٩٣، عن النضر بن سلمة بغير هذا السندي.

(٧) في الأصل: يألفهم.

(٨) في ص: عن اليهود ودينهم.

ويخبرونه بصفة رسول الله ﷺ وأن هذه دار هجرته ثم خرج إلى يهود تيما^(١)، فأخبروه بمثل ذلك، ثم خرج إلى الشام فسأل النصارى فأخبروه بصفة رسول الله ﷺ، وأن مهاجره يثرب، فرجع أبو عامر وهو يقول: أنا على دين الحنفية، وأقام مترباً ولبس المسوح، وزعم أنه على دين إبراهيم، وأنه يتظاهر خروج النبي ﷺ، فلما (خرج وظهر)^(٢) رسول الله ﷺ لم يخرج إليه، وأقام على ما كان عليه، فلما قدم النبي ﷺ المدينة حسده وبغى ونافق، وأتى النبي ﷺ فقال: يا محمد بم جئت؟ بم بعثت؟ قال: بعثت بالحنفية. قال: أنت تخلطها بغيرها؟ فقال النبي ﷺ أتيت بها بيضاء، أين ما كان يخبرك به الأحبار من اليهود والنصارى من وصفي، فقال لست بالذى وصفوا، فقال النبي ﷺ: (كذبت) قال: ما كذبت فقال الرسول ﷺ^(٣): الكاذب أماته الله وحيداً طريداً! قال: آمين، ثم رجع إلى مكة فكان مع قريش يتبع دينهم، وترك ما كان عليه، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام فمات بها طريداً غريباً وحيداً^(٤).

وقال الواقدي: حدثني محمد بن (سعيد)^(٥) الثقفي وعبد الرحمن بن عبد العزيز في جماعة، كل حدثني بطائفة من الحديث عن المغيرة بن شعبة أنه دخل على المقوفس، وأنه قال له: إن محمداً نبي مرسل، ولو أصحاب القبط والروم اتبعواه. قال المغيرة: فأقمت بالإسكندرية لا أدع كنيسة إلا دخلتها، وسألت أساقفتها (من قبطها ورومها)^(٦) عما يجد من صفة محمد ﷺ، وكان أسقف من القبط، وهو رأس كنيسة أبي محيى^(٧)، كانوا يأتونه بمرضاهم فيدعون لهم، لم (أي)^(٨) أحداً (لا يصلى)^(٩) الخامس أشد اجتهاداً منه، فقلت: أخبرني هل بقي أحد من الأنبياء؟ قال: نعم وهو آخرهم ليس بينه وبين عيسى أحد، وهو

(١) تيما: قرية بين خير وتبوك.

(٢) في ب، ج، ص: ظهر.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) هذه القصة ذكرها ابن سعد في الطبقات: ١/١. كما ذكرها أبو نعيم في الدلائل: ٩٣/١ - ٩٤.

(٥) في الدلائل: سعد.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) كنيسة أبي محيى، وفي ب: محسن.

(٨) سقطت من ج.

(٩) في ب، ج، ص: يصلى.

نبي قد أمرنا عيسى باتباعه، وهو النبي الأمي العربي (اسمه أحمد)^(١)، ليس بالطويل ولا بالقصير، وفي عينيه حمرة، وليس بالأبيض ولا بالأدم، يعفي شعره، ويلبس ما غلط من الشياطين، ويجهز بما لقي من الطعام، سيفه على عاتقه، ولا يبالي بمن لاقاه، يباشر القتال بنفسه، ومعه أصحابه يفدونه بأنفسهم، هم له أشد حباً من أولادهم وأباهم، يخرج من أرض (القرظ)^(٢)، ومن حرم يذهب إلى حرم، يهاجر إلى أرض سبخة ونخل، يدين بدين إبراهيم، يائزر على وسطه، ويغسل أطرافه، ويخص بما لا يخص به الآباء قبله، كان النبي يبعث إلى قومه وبعث إلى الناس كافة، وجعلت له الأرض مسجداً وظهوراً، أينما أدركته الصلاة تيمّم وصلّى، ومن كان قبلهم مشتد عليهم، لا يصلون إلا في الكنائس والبيع^(٣).

وقال الطبراني : حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا المسعودي عن فضيل بن هشام بن سعيد بن زيد عن أبيه عن جده سعيد بن زيد أن زيد بن عمرو^(٤) وورقة بن نوفل^(٥) خرجا يلتمسان الدين حتى انتهيا إلى راهب بالموصى، فقال لزيد : من أين أقبلت؟ قال : من بيت إبراهيم ، قال : وما تلتمس؟ قال ألتتس الدين . قال : ارجع فإنه يوشك أن يظهر (الدين)^(٦) الذي تطالب في أرضك ، فرجع وهو يقول : ليك حقاً حقاً ، تعبدوا ورقاً^(٧) .

وقال ابن قتيبة في كتاب الأعلام : حدثني يزيد بن عمرو حدثنا العلاء بن الفضل

(١) ليست في الأصل.

(٢) في ب، ج: القبط وأرض القرظ هي أرض العرب.

(٣) انظر: دلائل النبوة، أبو نعيم (١٠١/١ - ١٠٥).

(٤) زيد بن عمرو بن نفیل ، والد سعيد بن زيد أحد العشرة ، وابن عمّه عمر بن الخطاب ، سئل عنه النبي ﷺ فقال : يبعث أمّةً واحدة ، وكان يتبع في الجاهلية ، ويطلب دين إبراهيم الخليل عليه السلام ويوحد الله تعالى (انظر: أسد الغابة: ٢٩٥/٢ ، طبعة دار الشعب المحققة).

(٥) ورقة بن نوفل : هو ورقة بن نوفل بن عبد العزيز بن قصي القرشي ابن عم خديجة زوج النبي ﷺ ، وهو الذي أخبرها أن رسول الله ﷺ نبي هذه الأمة (انظر: أسد الغابة: ٤٤٧/٥ ، طبعة دار الشعب المحققة).

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) هذه القصة جزء مما رواه الطبراني في المعجم الكبير: ١١٤/١.

حدثنا أبي عن أبيه عبد الملك بن أبي سوية (عن أبيه)^(١) خليفة بن عبد المنقري^(٢) قال: سألت محمد بن عدي^(٣) كيف سماك أبوك محمد؟ قال: أما إني قد سألت أبي عما سألتني عنه فقال: خرجت رابع أربعة منبني تميم، أنا أحدهم و(سفيان بن مجاشع)^(٤) بن دارم، ويزيد بن عمرو بن ربيعة، وأسامة بن مالك بن (جندب)^(٥) و(زيد)^(٦) ابن جفنة الغساني، فلما قدمنا الشام نزلنا على غدير فيه شجرات وقرية ديراني^(٧)، فأشرف علينا وقال: إن هذه اللغة ما هي لأهل هذا البلد، قلنا: نعم نحن قوم من مصر^(٨)، قال: من أي المضريين؟ قلنا: من خنوف^(٩)، قال: أما إنه سيعث منكم وسيكأنبي، فسارعوا إليه وخذلوا بحظكم منه ترشدوا، فإنه خاتم النبيين، واسمـه محمد، فلما انصرفتـا من عند أبي جفنة (الغساني)^(١٠) وصرنا إلى أهـلـنا، ولـدـ لـكـلـ رـجـلـ مـنـاـ غـلامـ

(١) في الأصل، ب، ص: عن أبي سوية عن أبيه والصواب: ما في نسخة ج لأن أبي سوية هو خليفة بن عبده.

(٢) خليفة بن عبد المنقري، هو أبو سهيل، وسهيل هو أبو سوية قال ابن الأثير: كان مسلماً، ولا تصح له صحة.

انظر: أسد الغابة: ١٤٥/٢ و ١٠٤/٥.

(٣) محمد بن عدي بن ربيعة بن سعد، عداده في أهل المدينة، وقد ذكره ابن الأثير في أسد الغابة، وذكر قصة تسميته وقال: وهذا أيضاً لم يدرك رسول الله ﷺ لأنه أقدم من زمان الرسول ﷺ (انظر: أسد الغابة: ١٠٥/٥).

(٤) سقطت من جميع النسخ وهي هكذا (سفيان بن مجاشع) في كتب السيرة قال في عيون الأثر: سفيان بن مجاشع، وابنه محمد بن سفيان، وهو جد الفرزدق الشاعر.
انظر: عيون الأثر: ١/٤٠.

(٥) في فتح الباري: حبيب بن العبر، وقد ذكر ابن حجر اختلاف الأقوال في ذكر من تسموا محمداً في الجاهلية (انظر: فتح الباري: ٦/٥٥٧).
كما ذكر ابن سعد أربعة غير هؤلاء إلا محمد بن سفيان بن مجاشع وقال عنه: كان أسقفاً (راجع: الطبقات: ١/١٦٩).

(٦) في الأصل: ويله.

(٧) ديراني: أي رجل دير نسب إلى الدير فأطلق عليه ديراني.

(٨) مصر قبيلة عربية.

(٩) في ب، ج: خنوف، والصواب خنوف وهي ليلي بنت حلوان بن عمران زوجة الياس بن مصر (القاموس المحيط، الفيروز آبادي).

(١٠) في الأصل: الفقاني.

فسماه محمدًا^(١). وقال الإمام أحمد: «(حدثنا روح)^(٢)، حدثنا حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: دخل رسول الله ﷺ الكنيسة فإذا هو بيهود، وإذا يهودي يقرأ عليهم التوراة، فلما أتوا على صفة النبي ﷺ أمسكوا، وفي ناحيتها رجل مريض، فقال النبي ﷺ: مالكم أمسكتم، قال المريض: إنهم أتوا على صفةنبي فامسکوا، ثم جاء المريض يحبو حتى أخذ التوراة، فقرأ حتى صفة رسول الله ﷺ فقال: هذه صفتكم وصفة أمتك، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ثم مات، فقال النبي ﷺ لأصحابه: خذوا أخاكم»^(٣).

وقال محمد بن سعد: «حدثنا محمد بن عمر قال: حدثني سليمان بن داود بن الحصين عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم عن أبي بن كعب قال: لما قدم (تَبَعَ)^(٤) المدينة ونزل بقياء بعث إلى أحرار اليهود فقال: إني مخرب هذه البلد حتى لا تقوم به يهودية، ويرجع الأمر إلى دين العرب، فقال له (شموال)^(٥) اليهودي - وهو يومئذ أعلمهم -: أيها الملك إن هذه بلد تكون إليه مهاجرةنبي منبني إسماعيل مولده بمكة، اسمهأحمد وهذه دار هجرته، وإن متزلك هذا الذي أنت به يكون به من القتل والجرائم كثير من أصحابه وفي عدوهم، قال تبع: ومن يقاتله يومئذ وهونبي كما تزعمون؟ قال: يسير إليه قومه (فيقتلون)^(٦) هنا، قال: فأين قبره، قال بهذه البلد، قال: فإذا قوتل لمن تكون الدائرة؟ قال: تكون له مرة وعليهمرة، وبهذا المكان الذي أنت به (يكون عليه)^(٧)

(١) ذكر القصة أبو نعيم في دلائل النبوة: ١١٣/١؛ وذكرها كذلك زيني دحلان في السيرة النبوية: ١٢٥/١.

(٢) سقطت من ج.

(٣) مستدأحمد: ٤١٦/١.

(٤) تبع بن حسان بن تبان من ملوك حمير في اليمن وهو تبع الأصغر، آخر التابعين، وعقد الحلف بين اليمن وربيعة وسار إلى الشام فلقيه قوم من حمير منبني عمرو بن عامر فشكوا إليه ما نزل بهم من اليهود في يثرب، وذكروا له سوء مجاورتهم لهم، ونقضهم العهد الذي بينهم فسار إلى يثرب، ونزل في سفح أحد، وبعث إلى اليهود فقتل منهم ثلاثة رجال ليس له تاريخ ولادة أووفاة (انظر: الأعلام، الزركلي: ٨٣/٢).

(٥) في الطبقات: سامول.

(٦) في الأصل: فيقتلونه، وفي الطبقات: فيقتلون.

(٧) في الطبقات: تكون عليه، وفي الأصل: يكون عليه.

وقتل أصحابه قتلاً لم يقتلوه في موطن، ثم تكون له العاقبة، ويظهر فلا ينمازعه في هذا الأمر أحد، قال: وما صفتة؟ قال: رجل ليس بالقصير ولا بالطويل، في عينيه حمرة يركب البعير ويلبس الشملة، سيفه على عاتقه، لا يبالي من لاقى من أخ وابن عم أو عم، حتى يظهر أمره، قال تبع: ما إلى هذه البلد من سبيل، وما كان يكون خرابها على يدي، فخرج تبع منصراً إلى اليمن»^(١).

قال يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه: لم يمت تبع حتى صدق بالنبي ﷺ، لما كان يهود يشرب يخبرونه وأن تبع مات (مسلم)^(٢).

وقال محمد بن (سعد)^(٣): «حدثنا محمد بن عمر حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال: كان الزبير بن باطا أعلم اليهود، وكان يقول: إني وجدت سفراً كان أبي يكتمه عليّ، فيه ذكر أحمد،نبي يخرج بأرض القرظ صفتة كذا وكذا، فيحدث به الزبير بعد أبيه، والنبي ﷺ (لم يبعث بعد، فما هو إلا أن سمع بالنبي ﷺ) قد خرج بمكة، فعمد إلى ذلك السفر فمحاه وكتم شأن النبي ﷺ وقال: ليس به»^(٤).

قال محمد بن عمرو: (وحدثني الضحاك بن عثمان عن مخرمة بن سليمان عن كريب عن ابن عباس)^(٥) قال: كانت يهود فريطة والتضير وفدرك وخيسر يجدون صفة النبي ﷺ عندهم، قبل أن يبعث، وإن دار هجرته المدينة، فلما ولد رسول الله ﷺ، (قال أخبار يهود: ولد أحمد الليلة، هذا الكوكب قد طلع، فلما تبا قالوا: تباً أحمد، قد طلع الكوكب، كانوا يعرفون ذلك، ويقررون به ويصفونه، فما منعهم إلا الحسد والبغى)^(٦).

(١) طبقات، ابن سعد: ١٠٤ - ١٠٣/١/١، وأورد ابن هشام القصة مفصلاً، انظر: السيرة النبوية: ١٦١ - ٢٤.

(٢) في ج: لما صدق وأسلم ورواية إسلامه هذه ذكرها ابن كثير في تفسيره حيث نقل قول عائشة: «لا تسربوا تبعاً» فإنه قد كان رجلاً صالحاً، ونقل عن ابن أبي حاتم أن سهل بن سعد الساعدي كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تسربوا تبعاً فإنه كان قد أسلم» ورواوه الإمام أحمد في مستنته عن حسن بن موسى عن ابن هليعة (مستند أحمد: ٥/٣٤٠). انظر: تفسير ابن كثير: ٤/١٤٤).

(٣) في ج، ب: سعيد وهو خطأ.

(٤) طبقات ابن سعد: ١٠٤/١/١.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) طبقات ابن سعد: ١/١٠٤.

وقال محمد بن سعد: أخبرنا علي بن محمد عن أبي عبيدة بن عبد الله، وعبد الله بن محمد بن عمار بن ياسر وغيره عن هشام بن عمروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سكن يهودي بمكة يبيع به تجارات، فلما كانت ليلة ولد رسول الله ﷺ، قال في مجلس من مجالس قريش: هل كان فيكم من مولود هذه الليلة، قالوا: لا نعلم، قال: انظروا يا معاشر قريش^(١)، احصوا ما أقول لكم، ولدنبي هذه الأمة أحمد، وبه شامة بين كتفيه، فيها شعرات، فتصدق القوم من مجالسهم، وهم يعجبون من حديثه، فلما صاروا في منازلهم ذكروه لأهاليهم، فقيل لبعضهم: ولد عبد الله بن عبد المطلب الليلة غلام وسماه محمدًا، فأتوا اليهودي في منزله، فقالوا له: أعلمت أنه ولد فينا الليلة غلام؟ فقال أحد خبرى أم قبله؟ فقالوا: قبله واسمه أحمد، فقال: فاذهبو بنا إليه، فخرجوا معى حتى أتوا أمه، فأخرجته إليهم، فرأى الشامة في ظهره، فغضي عليه - أي على اليهودي -^(٢) فلما أفاق، قالوا: مالك ويلك! فقال: ذهبت النبوة من بني إسرائيل، وخرج الكتاب من بين أيديهم، وفازت العرب بالنبوة، أفرحتم يا معاشر قريش؟ أما والله ليسطون بكم سطوة يخرج نبأها من المشرق إلى المغرب^(٣).

قال ابن سعد^(٤): وأخبرني علي بن محمد عن علي بن مجاهد عن محمد بن إسحق عن سالم مولى عبد الله بن مطیع عن أبي هريرة قال أتى رسول الله ﷺ بيت المدارس فقال: أخرجوا إليّ أعلمكم، فقالوا^(٥): عبد الله بن صوريا^(٦)، فخلأ به رسول الله ﷺ فناشدته بدينه وبما أنعم الله عليهم، وأطعمهم من الم恩 والسلوى، وظللهم

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ب، ج، ص: على اليهودي.

(٣) ورد هذا الحديث في الطبقات الكبرى، ابن سعد: ١٠٦/١١ - ١٠٧؛ وأخرجه الحاكم في مستدركه في كتاب التاريخ: ٦٠١/٢ - ٦٠٢؛ وقال: حديث صحيح لإسناد ولم يخرجاه، ولم يوافقه الذهبي، كما ذكره الماوردي في أعلام النبوة: ص ١٥٣.

(٤) في الأصل: سعيد.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) عبد الله بن صوريا: أحد أصحاب اليهود، استحلله رسول الله ﷺ ليخبره عن حد الزنى في التوراة فأجابه، ولم يسلم.

من الغمام، أتعلم أنني رسول الله؟ فقال: اللهم نعم، وإن القوم ليعرفون ما أعرف، وإن صفتك ونعتك لبيّن في التوراة ولكن حسدوك، قال: فما يمنعك أنت؟ قال: أكره خلاف قومي، عسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم^(١).

وقال أبو الشيخ الأصبهاني^(٢): «(حدثنا)^(٣) أبو يحيى الرازي، حدثنا سهيل بن عثمان حدثنا علي بن مسهر عن داود عن الشعبي قال: قال عمر بن الخطاب: كت آتي اليهود عند دراستهم التوراة، فأعجب من موافقة التوراة القرآن (وموافقة القرآن للتوراة)^(٤) فقالوا: يا عمر ما (أحمد)^(٥) أحب إلينا منك لأنك تغشانا، قلت: إنما أجيء لأعجب من تصديق كتاب الله بعضاً. فيينا أنا عندهم ذات يوم إذ مرّ رسول الله ﷺ، فقالوا: هذا صاحبك، قلت: أنسدكم الله وما أنزل عليكم من الكتاب، أتعلمون أنه رسول الله؟ فقال سيدهم: إنه قد نشدكم الله (فأخبروه)^(٦) فقالوا: أنت سيدنا فآخره، فقال: إنا نعلم أنه رسول الله. قلت: فأنت أهلكم إن كتم تعلمون أنه رسول الله ثم لم تتبعوه؟ قالوا: إن لنا عدواً من الملائكة وسلماءً من الملائكة، عدونا جبريل وهو ملَك (الفضاظة)^(٧) والغلظة، وسلمتنا ميكائيل وهو ملَك الرأفة (والرحمة)^(٨) واللين (وجبريل صاحبه)^(٩)، قلت: فإني أشهد ما يحل لجبريل أن يعادي سلم ميكائيل، ولا لميكائيل أن يعادي سلم جبريل، ولا أن يسامح عدوه، ثم قمت فاستقبلني رسول الله ﷺ فقال: ألا أقرئك آيات نزلت على

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد: ١٠٨/١؛ البداية والنهاية: ٣٢٤/١.

(٢) هو عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني المعروف بأبي الشيخ المتوفى سنة ٣٦٩هـ، وله في هذا الموضوع كتاب دلائل النبوة (ذكره السخاوي في الضوء اللامع: ص ٣٤)؛ وكتاب سيرة النبي الذي ذكره السخاوي: ص ٥٢٨؛ والغالب أن النص في دلائل النبوة ولم يتمكن من الوقوف عليه.

(٣) سقطت من الأصل، وفي ج: بن.

(٤) في الأصل: موافقة التوراة للقرآن.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) في الأصل: الفاظة.

(٨) سقطت من ب، ص.

(٩) زيادة في الأصل.

(قلت: قل)^(١)، فتلا: ﴿مَنْ كَانَ عُدُوًّا لِجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾^(٢) الآية. فقلت: والذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا مَا جَئْتَ إِلَّا لِأَخْبُرَكَ بِقَوْلِ الْيَهُودِ، قَالَ عُمَرُ: فَلَقَدْ رَأَيْتِنِي أَشَدُ فِي دِينِ اللَّهِ مِنْ حَجَرٍ^(٣).

وذكر أبو نعيم من حديث عمر بن عبسة قال: رغبت عن آلهة قومي في الجاهلية ورأيت أنها على الباطل، يعبدون الحجارة وهي لا تضر ولا تنفع، فلقيت رجلاً من أهل الكتاب فسألته عن أفضل الدين فقال: يخرج رجل من مكة ويرغب عن آلهة قومه، ويأتي بأفضل الدين، فإذا سمعت به فاتبعه، فلم يكن لي هم إلا مكة آتتها فأسأل هل حدث فيها خبر؟ فيقولون: لا (فأنصرف إلى أهلي، وأتعرض للركبان فأسألهم فيقولون لا)^(٤) فإني لقاعد إذ مر بي راكب، فقلت: من أين جئت؟ قال: من مكة، قلت: هل حدث حدث فيها؟ قال: نعم رجل رغب عن آلهة قومه ودعا إلى غيرها، قلت: صاحبى الذي أريد، فشددت راحلتي، وجئت فأسلمت^(٥). وقال (عبد الله)^(٦) بن سعيد: «حدثنا موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ثمانية من أساقفة نجران قدموا على رسول الله ﷺ منهم العاقد والسيد، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ...﴾ الآية^(٧) فقالوا: أخرنا ثلاثة أيام فذهبوا إلىبني قريظة والتضير وبني قينقاع فاستشاروهم، فأشاروا عليهم أن يصالحوه ولا يلاعنوه، وهو النبي الذي نجده في التوراة والإنجيل، فصالحوا النبي ﷺ على ألف حلة في صفر،

(١) في ب، ج، ص: قبل.

(٢) سورة البقرة: الآية ٩٧.

(٣) هذا النص أخرجه السيوطي عن ابن أبي شيبة في المصنف وإسحق بن راهويه في مستنه وابن جرير وابن أبي حاتم عن الشعبي، قال السيوطي: صحيح الإسناد، ولكن الشعبي لم يدرك عمر، الدر المثور، السيوطي: ٩٠/١. نشر محمد أمين دمح - بيروت.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) انظر دلائل النبوة، لأبي نعيم: ص ٣٣٧ - ٣٣٩؛ وطبقات ابن سعد: ٤/٢١٧، وأخرج مسلم في صحيحه: ٢٠٨/٢. أصل القصة عن أبي أمامة.

(٦) في ب، ج، ص: عبد الغني.

(٧) سورة آل عمران: الآية ٦١.

وألف في رجب ودرهم^(١) . وقال يونس بن بكيه عن قيس بن الريبع عن يonus بن أبي سلم عن عكرمة أن ناساً من أهل الكتاب آمنوا بمحمد ﷺ قبل أن يبعث، فلما بعث كفروا به، فذلك قوله تعالى : ﴿فَإِنَّمَاٰذُنُّ الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُتِّمْ تَكْفِرُونَ﴾^(٢) .

وقال (ابن سعد)^(٣) : «حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك عن موسى بن يعقوب الزمعي عن سهل مولى عثمة أنه كان نصراانياً، وكان يتيمًا في حجر عمه، وكان يقرأ الإنجيل، قال: فأخذت مصحفاً لعمي، فقرأته حتى مرت بي ورقة (أنكرت قراءتها)^(٤) ، فإذا هي ملصقة ففتحتها فوجدت فيها نعت محمد ﷺ أنه لا قصبر ولا طويل، أبيض بين كتفيه خاتم النبوة، يكثر الاجتباء^(٥) ولا يقبل الصدقة، ويركب الحمار والبعير، ويحتلب الشاة، ويلبس قميصاً مرقعاً، وهو من ذرية إسماعيل اسمه أحمد، قال: فجاء عمي فرأى الورقة (فضربني وقال: مالك وفتح هذه الورقة)^(٦) ، فقلت: بها (نعت)^(٧) النبي أحمد، فقال: إنه لم يأت بعد»^(٨) .

وقال وهب: (أوحى الله إلى أشعيا أني مبتعد نبياً أفتح به آذاناً صماءً وقلوباً غلباً أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة معقوله، والوقار والصدق طبيعته، والعفو والمغفرة والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدى به بعد الضلاله وأعلم به بعد الجهالة، وأكثر به بعد القلة، وأجمع به الفرقة، وأولف به بين قلوب مختلفة (وأنهواه متشتتة، وأمم

(١) ذكره السيوطي في الدر المثور: ٣٩/٢.

(٢) في الأصل: وأما.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٦ . والرواية: ذكرها السيوطي في الدر المثور: ٦٣/٢ .

(٤) في الأصل سعيد.

(٥) في ج: أنكرتها لكثافتها وفي ب، ص أنكرت كثافتها.

(٦) الاجتباء؟ بمعنى الاختبار ولعل الأصح العجابة من جبا الخراج والمال إذا جمعه (المعجم الوسيط).

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) في ج: بعث.

(٩) طبقات ابن سعد: ١ .

مختلفة، وأجعل أمته خير أمة^(١) وهم رعاة الشمس، طوسي لتلك القلوب^(٢).

وذكر ابن أبي الدنيا^(٣) في حديث عثمان بن عبد الرحمن أن رجلاً من أهل الشام من النصارى قدم مكة فأتى على نسوة قد اجتمعت في يوم عيد من أعيادهم، وقد غاب أزواجهن في بعض أمورهم، فقال: يا نساء تيماء إنه سيكون فيكمنبي يقال له أحمد، وأيما امرأة منكן استطاعت أن تكون له فراشاً فلتفعل، فحفظت خديجة حدثه^(٤).

وقال عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب قال في قصة داود وما أوحى الله تعالى إليه في الزبور: يا داود إنك سأتأتي من بعدينبي يسمى أحمد ومحمدًا صادقاً سيداً لا أغضب عليه أبداً، ولا يغضبني أبداً، قد غفرت له قبل أن (يعضبني)^(٥)، ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وأمته مرحومة، أعطيتهم من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء، وافتضرت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء (والرسل)، حتى يأتيوني يوم القيمة ونورهم مثل نور الأنبياء، وذلك أني افترضت عليهم أن يتظاهروا كل صلاة كما افترضت على الأنبياء^(٦) قبلهم، وأمرتهم بالحج كما أمرت الأنبياء قبلهم، وأمرتهم بالجهاد كما أمرت الرسل قبلهم، يا داود إني فضلت محمداً وأمته على الأمم، كما أعطيتهم ست خصال لم أعطها غيرهم من الأمم^(٧) لا أواخذهم بالخطأ والنسيان، وكل ذنب ركبوه على غير عمد إذا استغفروني منه غفرته لهم، وما قدموا لآخرتهم من شيء طيبة به أنفسهم عجلت لهم أضعافاً مضاعفة، ولهم في المدخل عندي أضعافاً مضاعفة، وأفضل من ذلك، وأعطيتهم على المصائب إذا صبروا، واسترجعوا الصلاة والرحمة والهدى، وإن دعوني استجبت لهم، يا داود: من لقيني من أمة محمد يشهد أن لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي صادقاً بها، فهو معنوي في جنتي وكرامتني، ومن لقيني وقد كذب محمداً، أو كذب

(١) سقطت من الأصل.

(٢) انظر: أشعيا: ٢/٤٢ - ٧.

(٣) هو عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا المتوفى سنة ٢٨١ هـ، وله في هذا الموضوع كتاب دلائل النبوة ذكره السخاوي في الضوء الالمعم: ص ٥٣٥.

(٤) كتاب دلائل النبوة لابن أبي الدنيا غير مطبوع ولم أستطع الحصول على مخطوطه.

(٥) في ص، ب: يعصبني.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) سقطت من الأصل.

بما جاء به، واستهزا بكتابي، صببت عليه في قبره العذاب صباً، وضررت الملائكة وجهه ودببه عند منشره من قبره، ثم أدخله الدرك الأسفل من النار^(١).

وقال عقان: (حدثنا همام عن قتادة)^(٢) عن زرارة بن أوفى عن مطرف بن مالك أنه قال: شهدت فتح تستر مع الأشعري فأصبينا قبر دانيال بالسويس وكانوا إذا استسقوا خرجوا فاستسقوا به، فوجد معه ربيعة فطلبها نصراني من الحيرة يسمى (نعمياً)^(٣)، فقرأها، وفي أسفلها: «ومن يبغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين»^(٤)، فأسلم فيهم يومئذ إثنان وأربعون حبراً، وذلك في خلافة معاوية (فأتحفهم)^(٥) وأعطاهم. قال همام: فأخبرني بسطام بن مسلم أن معاوية بن قرة قال: تذاكرنا الكتاب إلى ما صار، فمر علينا شهر بن حوشب فدعوناه، فقال: على الخبر سقطت، إن الكتاب كان عند كعب فلما احتضر قال: ألا أثمنه علىأمانة يؤديها؟ قال شهر: فقال ابن عم لي يكنى أبا ليبيد: أنا. فدفع إليه الكتاب، فقال: إذا بلغت موضع كذا فاركب قرقوراً^(٦)، ثم اقذف به في البحر، ففعل فانفوج الماء فقدفه فيه، ورجع إلى كعب فأخبره، فقال: صدقت إنه من التوراة التي أنزلها الله عز وجل.

[أخبار أمية بن أبي الصلت]

(فصل): ومن ذلك أخبار أمية بن أبي الصلت الثقفي^(٧)، ونحن نذكر بعضها: قال

(١) أورد القصة البيهقي في دلائل النبوة: ص ٢٨٢.

(٢) في ج: حدثنا قتادة.

(٣) في ب، ج: نعمان.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

(٥) سقطت من ج.

(٦) القرقور: بالضم ضرب من السفن العظيمة (لسان العرب).

(٧) أمية بن أبي الصلت: عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف أبو الحكم الثقفي، شاعر جاهلي قدم دمشق قبل الإسلام وقيل إنه كان مستقيماً وإنه كان في أول أمره على الإيمان ثم زاغ عنه وإنه هو الذي أراده الله في قوله تعالى: «واتل عليهم بما الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها...» (انظر: البداية والنهاية: ٢/٢٢٠).

الزبير بن بكار^(١): حدثني عمي مصعب عن مصعب بن عثمان قال: كان أمية قد نظر في الكتب وقرأها، ولبس المسوح تعبداً، وكان من ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنفية، وحرم الخمر والأوثان، والتمس الدين، وطمع في النبوة، لأنه قرأ في الكتب أن نبياً يبعث من العرب، فكان يرجو أن يكون هو، فلما بعث محمد ﷺ قيل له: هذا الذي كنت تبشر به، وتقول فيه، فحده عدو الله، وقال: أنا كنت أرجو أن أكون هو^(٢)، فأنزل الله عزوجل: «قاتل عليهم نبا الذي آتينا آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين»^(٣).
وهو الذي يقول: كل دين يوم القيمة عند الله إلا دين الحنفية زور^(٤).

قال الزبير: وحدثني عمر بن أبي بكر الموصلي قال: كان أمية ابن أبي الصلت يتلمس الدين، ويطمع في النبوة، فخرج إلى الشام (فمرّ بكنيسة)^(٥)، وكان معه جماعة من العرب من قريش وغيرهم، فقال أمية: إن لي حاجة في هذه الكنيسة، فانتظروني، فدخل الكنيسة، ثم خرج إليهم كاسفاً متغيراً فرمى بنفسه، (فأقاموا)^(٦) عليه حين سري عنه، ثم مضوا فقضوا حوائجهم، ثم رجعوا فلما صاروا إلى الكنيسة قال لهم: انتظروني، ودخل الكنيسة فأبطأ، ثم خرج إليهم أسوأ حالاً من حاله الأول، فقال له أبو سفيان بن حرب: قد شققت على رفتك، فقال: خلُونِي فإني أرتاب لنفسي وأنظر لمعادي، إن ه هنا راهباً عالماً أخبرني أنه سيكون بعد عيسى ست رجفات وقد مضت خمس وبقيت واحدة، فخرجت وأنا أطمع أن أكون نبياً، وأخاف أن تخطئ فأصابني ما رأيت، فلما رجعت أتيه فقال: قد (كانت الرجفة) وبعثنبي من العرب، فأيست من النبوة، فأصابني ما رأيت، وفاتني ما كنت أطمع فيه^(٧).

(١) الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي الأسدية من أحفاد الزبير بن العوام عالم بالأنساب وأخبار العرب، راوية، ولد في المدينة، وولي قضاء مكة وتوفي فيها سنة ٢٥٦ هـ انظر: الأعلام، الزركلي: ٧٤/٣.

(٢) انظر الأغاني، الأصفهاني: ٤/١٢٦، وانظر: خزانة الأدب، البغدادي: ١/٢٥١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧٥.

(٤) انظر الأغاني، للأصفهاني: ٤/١٢٦.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) في الأصل: فأقبلوا.

(٧) النص بتمامه في كتاب الأغاني: ٤/١٢٧.

قال: وقال الزهري^(١): خرج أمية في سفر، فنزلوا منزلًا، فأمّة وجهاً وصعد (في كثيب)^(٢)، (فرفعت)^(٣) له كنيسة فانتهى إليها، وإذا بشيخ جالس، فقال لأمية حين رأه: إنك لمتبوع، فمن أين يأتيك رئيك^(٤)? قال: من شقي الأيسر، قال: فأي الشياب أحب إليه أن تلقاء فيها؟ قال: السواد، قال: (كدت)^(٥) تكوننبي العرب (ولست هو أولَتْ به)^(٦)، هذا خاطر من الجن وليس بملك، وإننبي العرب صاحب هذا الأمر يأتيه الملك من شقه الأيمن، وأحب الشياب إليه أن يلقاء فيها البياض^(٧).

قال الزهري: وأتى أمية أبا بكر، فقال: يا أبا بكر عمي الخبر، فهلا أحسست شيئاً؟ قال: لا والله، قال: قد وجدته يخرج في هذا العام^(٨).

وقال عمر بن شيبة: سمعت خالداً (بن يزيد)^(٩) يقول: إن أمية وأبا سفيان بن حرب صحبا في تجارة إلى الشام، فذكر نحو الحديث الأول وزاد فيه: فخرج من عند الراهب وهو (يعتل)^(١٠) فقال له أبو سفيان: إن بك لشراً فما قصتك؟ قال: خير، أخبرني عن عتبة بن ربيعة: كم سنه؟ فذكر سنًا، قال: أخبرني عن ماله؟ فذكر مالاً، (فقال له صفتنه)^(١١) قال أبو سفيان: بل رفضه (فقال إن صاحب هذا الاسم ليس بشيخ، ولا بذي

(١) الزهري هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفي سنة ١٢٤ هـ، وله في هذا الموضوع عدة كتب منها: المغازي النبوية، نشر دار الفكر بتحقيق الدكتور سهيل زكار، وليس به هذا الخبر، ومنها: مشاهد النبي ﷺ (ذكره السخاوي في الضوء اللامع: ص ٥٢٧) ومنها: مسنن الزهري لأحمد بن شعيب النسائي، ولم أغذر عليه ولعل النص فيه والله أعلم.

(٢) سقطت من الأصل وهي موجودة في الأغاني.

(٣) في ب: فوضعت.

(٤) رئيك: أي الجن الذي يأتيك.

(٥) في ج: كذب.

(٦) في ج، ب: وليس به، وفي ص: ولست به.

(٧) انظر: الأغاني: ٤/١٢٧.

(٨) المرجع السابق نفسه.

(٩) سقطت من الأصل.

(١٠) في ج: يقتل، وفي ب، ص: ثقيل.

(١١) سقطت من ب، ج.

مال، قال: وكان الراهب أتاه وأخبره^(١)، فقال: إن صاحب هذا الأمر لرجل من قريش^(٢).

قال الزبير: وحدثني عمر بن أبي بكر المؤملي قال: حدثني رجل من أهل الكوفة، قال: كان أمية نائماً فجاءه طائران، فوقع أحدهما على باب البيت، ودخل الآخر، فشق عن قلبه ثم رده الطائر، فقال له الطائر الآخر: أوعى؟ قال: نعم زكي؟ قال: (أبى)^(٣).

وقال الزهري: دخل يوماً أمية بن أبي الصلت على أخيه (وهي تهيء^(٤)) أدمأ لها فأدركه النوم، فنام على سرير في ناحية البيت، (فانشق جانب من السقف في البيت)^(٥)، وإذا بطريقين قد وقع أحدهما على صدره: ووقف الآخر مكانه، فشق الواقع صدره، فأخرج قلبه فشقه، ثم قال الطائر الآخر للذى على صدره: أوعى؟ قال: وعي. قال: أقبل؟ قال: أبى، فرد قلبه في موضعه، ثم مضى، فأتبعهما أمية طرفه، وقال: (ليكما ليكما)^(٦) ها أنا ذا ليكما، لا (برىء)^(٧) فاعتذر (ذوشيرة)^(٨) فانتصر، فرجع الطائر فوقع على صدره فشقه، حتى أخرج قلبه فشقه، فقال الطائر الأعلى: أوعى؟ قال: وعي، قال: أقبل؟ قال: أبى ونهض فأتبعهما أمية بصره، فقال: (ليكما ليكما) ها أنا ذا ليكما، لا مال لي يعني ولا عشيرة تحبني.

فرجع الطائر فوقع على صدره ثم أخرج قلبه فشقه، فقال الطائر الأعلى: أوعى؟ قال: وعي، قال: أقبل؟ قال: أبى، فنهض (فأتبعها)^(٩) أمية بصره وقال: (ليكما

(١) سقطت من الأصل.

(٢) انظر: الأغاني: ١٢٨/٤.

(٣) انظر: البداية والنهاية: ٢/٢٢٤؛ وانظر: الأغاني: ١٢٩/٤.

(٤) في الأصل: وقال تهياً.

(٥) سقطت من ص والأصل.

(٦) في ج: ليكما ليكما.

(٧) في ب، ج، يرى.

(٨) في الأصل شريعة.

(٩) في ب، ص ليكما ليكما.

(١٠) في ج والأصل: فاتبه.

لبيكما^(١) ها أنا ذا لديكما محفوف بالنعم (محفوظ)^(٢) (بالدين)^(٣) فرجع الطائر فوقع على صدره فشقه فآخرج قلبه فشقه، فقال الأعلى: أوعى؟ قال: وعي، قال: أقبل؟ قال: أبي، ونهض فأتبعها طرفه فقال: ليكما ليكما ها أنا ذا لديكما.

إِنْ تَغْفِرُ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًا وَيْ عَبْدُكَ لَا أَلْمَا
ثُمَّ انْطَبَقَ (الشَّقْ)^(٤) وَجَلَسَ أُمِيَّةً يَمْسَحُ صَدْرَهُ، فَقَلَتْ: يَا أَخِي، هَلْ تَجِدْ شَيْئًا؟
قَالَ: لَا وَلَكُنِي أَجَدُ حَرًّا فِي صَدْرِي ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:
لِيَتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَالِي فِي (تَلَالْ)^(٥) الْجَبَالُ أَرْعَى الْوُعُولَا
إِجْعَلْ الْمَوْتَ نُصْبَ عَيْنِيَّكَ وَاحْذَرْ غُولَةَ الدَّهْرِ إِنْ لَلَّدَهْرِ غُولًا^(٦)

[رحلة أبي سفيان مع أمية بن أبي الصلت]

وقال مروان بن الحكم عن معاوية بن أبي سفيان بن حرب (عن أبيه)^(٧) قال: خرجت أنا وأمية بن أبي الصلت تجارةً إلى الشام، فكان كلما نزلنا (قرية أو منزل)^(٨)، أخرج منه سفراً يقرؤه علينا، فكنا كذلك حتى نزلنا بقرية من قرى النصارى، فرأوه فعرفوه وأهدوا له (فذهبوا ومضى)^(٩) معهم إلى بيتهم، ثم رجع وسط النهار فطرح نفسه، واستخرج ثوبين أسودين، فلبسهما ثم قال: يا أبا سفيان هل لك في عالم من علماء النصارى إليه تناهى علم الكتب تسأله عما بدا لك؟ فقلت: لا، فمضى هو وحده وجاءنا بعد

(١) في ج: ليكما ليكما.

(٢) في ص: محطر.

(٣) في ب، ج، ص: بالذنب.

(٤) في ص، ب: السقف.

(٥) في البداية والنهاية: قلال.

(٦) قصة الرؤيا هذه ذكرها ابن كثير عن الزهرى مع التفصيل في أبيات الشعر التي قالها أمية (انظر: البداية والنهاية: ٢٢٤ / ٢ - ٢٢٦).

(٧) سقطت من الأصل، وفي ج: عن أبي سفيان بن حرب.

(٨) في ب، ج، ص: متلاً.

(٩) في ب، ج، ص: وذهب.

هدأة من الليل، فطرح ثوبيه ثم انجدل على فراشه، فوالله ما نام ولا قام حتى أصبح، وأصبح كثيراً حزيناً ما يكلمنا وما نكلمه، فسرنا ليترين على ما به من الهم، وقلت: ما رأيت مثل الذي رجعت به من عند صاحبك، قال: لمنقلبي؟ فقلت: وهل لك منقلب؟ قال: أي والله لأموتني ولأحسين. قلت: فهل أنت قابل أمري؟ قال: على ماذا؟ قلت: إنك لا تبعث ولا تحاسب؟ (قال)^(١): فضحك وقال: بل والله لنبعث ولنحاسبن وليدخلن فريق في الجنة وفريق في السعير، قلت: ففي أيهما أنت أخبرك صاحبك؟ قال: لا علم لصاحب بي بذلك في ولا في نفسه، فكنا في ذلك ليلنا يعجب منا، ونضحك منه، حتى قدمتنا غوطة دمشق، فبعنا متعانا، وأقمنا شهرين، ثم ارتحلنا حتى نزلنا (قرية)^(٢) من قرى النصارى، فلما رأوه جاؤوه وأهدوا له، وذهب معهم إلى بيعتهم، ثم جاءنا مع نصف النهار، فلبس ثوبيه الأسودين، وذهب حتى جاءنا بعد هدأة من الليل، فطرح ثوبيه، ثم رمى بنفسه على فراشه، فوالله ما نام ولا قام حتى أصبح مبشرة^(٣) حزيناً، ولا يكلمنا ولا نكلمه فرحننا، فسرنا ليالي ثم قال: يا صخر حدثي عن عتبة بن ربيعة أيجتنب المحارم والمظالم؟ قلت: أي والله، قال: أو يصل (الرحم)^(٤) ويأمر بصلتها؟ قلت: نعم، قال: فكريم الطرفين وسيط في العشيرة؟ قلت: نعم، قال: فهل تعلم قرشياً أشرف منه؟ قلت: لا والله، قال: أمحوج هو؟ قلت: لا بل ذو مال كثير، قال: كم أتى له من السنين؟ قلت: هو ابن سبعين قد قاربها، قال: فالسن والشرف أزريا به؟ قلت: والله بل زاده خيراً، قال: هو ذاك، ثم (قال)^(٥) إن الذي رأيت بي إني جئت هذا العالم فسألته عن هذا الذي يتضرر، فقال: هو رجل من العرب من أهل بيت تمحجه العرب، فقلت: فيما بيت تمحجه العرب، قال: هو من إخوانكم وجيرانكم من قريش، فأصابني شيء ما أصابني مثله، إذ خرج من يدي فوز الدنيا والآخرة، وكنت أرجو أن أكون أنا هو، فقلت: فصفعه لي فقال: رجل شاب (حتى)^(٦) دخل في الكهولة بدء أمره، إنه يجتنب المحارم والمظالم

(١) سقطت من ب، ج، ص.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) المبشر: الكثيب.

(٤) في الأصل: الروح.

(٥) سقطت من ج.

(٦) في الأصل: حسي.

ويصل الرحيم ويأمر بصلتها، وهو كريم (الطرفين)^(١) متوسط في العشيرة أكثر جنده من الملائكة، قلت: وما آية ذلك؟ قال: رجفت الشام منذ هلك عيسى ابن مريم رجفات كلها فيها مصيبة، وبقيت رجفة عامة فيها مصيبة تخرج على أثرها، فقلت: هذا هو الباطل! لئن بعث الله رسولًا لا يأخذن إلا مسناً شريفاً. قال أمية: والذي يحلف به أنه لهكذا، فخرجن حتى إذا كان بيننا وبين مكة ليتنان أدركنا راكب من خلفنا، فإذا هو يقول أصابت الشام (رجفة)^(٢) دثر أهلها فيها، وأصابتهم (المصيبة)^(٣) عظيمة. فقال أمية: يا أبا سفيان، فقلت: والله ما أظن صاحبك إلا صادقاً.

وقدمنا مكة ثم انطلقت حتى أتيت أرض الجبعة تاجراً، فكنت فيها خمسة أشهر، ثم قدمت مكة فجاء إلى الناس يسلمون عليّ وفي آخرهم محمد وهن تلاعب صبيانها، فسلم عليّ ورحب بي وسألني عن سفري ومقدمي، ثم انطلق، وقلت: والله إن هذا الفتى لعجب، ما جاءعني من قريش أحد له معي بضاعة إلا سألني عنها وما بلغت، والله إن له معي بضاعة ما هو بأغناهم عنها، ثم ما سأله عنها، فقلت: أو ما علمت بشأنه؟ فقلت وفرعت: وما شأنه؟ قالت: يزعم أنه رسول الله، فذكرت قول النصراني فوجمت، ثم قدمت الطائف فنزلت على أمية فقلت: هل تذكر حديث النصراني؟ قال: نعم، فقلت: قد كان. قال: ومن؟ قلت: محمد بن عبد الله. فتصبب عرقاً، فقلت: قد كان من أمر الرجل ما كان وأين أنت منه؟ فقال: والله لا (أؤمن)^(٤) ببني من غير ثقيف أبداً^(٥). فهذا حديث أبي سفيان عن أمية، وكذلك حديثه عن هرقل، وهو في صحيح البخاري وكلاهما من أعلام النبوة المأخوذة من علماء أهل الكتاب.

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ب، ج، : بعدكم رجفه.

(٣) في ب، ج، ص: مصائب.

(٤) في ص والأصل: أؤتي.

(٥) قصة أبي سفيان مع أمية هذه رواها ابن كثير في البداية والنهاية نفلاً عن الطبراني وقال: وقد رواه البيهقي في الدلائل ولكن سياق الطبراني الذي أوردناه أتم وأطول والله أعلم (البداية والنهاية: ٢٢١/٢ - ٢٢٣).

[قصة الراهب بحيرة]

وذكر الترمذى وغيره من حديث عبد الرحمن بن (غزوان)^(١) وهو ثقة، أخبرنا يونس بن أبي إسحق عن أبي بكر بن موسى عن أبيه، قال: خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب حطوا عن رحالهم، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك (يمرون)^(٢) به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت، قال: فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب حتى إذا جاء فأخذ بيده النبي ﷺ، فقال هذا سيد العالمين يبعثه الله تعالى رحمة للعالمين، فقال له أشياخ قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً ولا يسجدون إلا لنبي، وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما آتاهم به، وكان هو في رعيه الإبل، قال: أرسلوا إليه، فأتقبل وعليه غمامه (مظللة)^(٣)، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء شجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه، قال: فبينما هو قائماً عليهم ينادهم أن لا يذهبوا به إلى الروم فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه، وإذا بسبعة من الروم قد أقبلوا فاستقبلهم، وقال: ما جاء بكم؟ قالوا: بلغنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يق طريق إلا بعث إليه بآنس، وإننا قد أخبرنا خبره بعثنا إلى طريقك هذا. قال: هل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا: إننا قد أخبرنا خبره في طريقك هذا، قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس (منعه)^(٤)? قالوا: لا. قال: فبایعوه (وأقاموا)^(٥) معه (قال: أنشدكم الله أیکم ولیه؟ قالوا: أبو طالب فلم يزل ينادهم حتى رده)^{(٦)، (٧)}.

(١) في ص: عوفان.

(٢) في الأصل: يلوون.

(٣) في ب، ج، ص: تظلله.

(٤) في ب، ج، ص: رده.

(٥) في ب، ج، ص: وأقاموا.

(٦) سقطت من ص.

(٧) أخرجه الترمذى في كتاب المناقب (انظر: تحفة الأحوذى: ص ١٠٦ - ١٠٧).

وقد روى محمد بن سعد هذه القصة مطولة، قال ابن سعد: حدثنا محمد بن عمر بن واقد، حدثنا محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر (الزبيري)^(١)، قال محمد بن عمرو: وحدثنا ابن أبي حبيبة عن داود بن الحصين، قال: لما خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه رسول الله ﷺ في المرة الأولى وهو ابن اثنين عشرة سنة، فلما نزل الركب بصرى من الشام وبها راهب يقال له بحيرة في صومعة له، وكان علماء النصارى يكونون في تلك الصومعة يتوارثونها عن كتاب يدرسونه، فلما نزلوا على بحيرة، وكان كثيراً ما يمرون به ولا يكلمهم حتى إذا كان ذلك العام نزلوا متولاً قريباً من صومعته، قد كانوا ينزلونه قبل (ذلك كلما مروا)^(٢)، فصنع لهم طعاماً ثم دعاهم، وإنما حمله على دعائهم أنه رآهم حين طلعوا وغمامة تظل رسول الله ﷺ، حتى نزلوا تحت الشجرة، ثم نظر إلى تلك الغمامه أظلمت تلك الشجرة فاختصلت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ، حتى استظل تحتها، فلما رأى بحيرة ذلك نزل من صومعته وأمر بذلك (ال الطعام)^(٣)، فأتي به وأرسل إليهم وقال: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معاشر قريش، وأنا أحب أن تحضروه كلكم، ولا تخلفوا أحداً منكم كبيراً أو صغيراً حراً ولا عبداً، فإن هذا شيء تكرموني به، فقال رجل: إن لك لشأننا يا بحيرة، ما كنت تصنع هذا، فما شأنك اليوم؟ فقال: إني أحب أن أكرمكم، ولكم حق، (فاجتمعوا)^(٤) إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنّه في رحالهم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرة إلى القوم فلم ير الصفة التي يعرفها، ويجدوها عنده، وجعل ينظر فلا يرى العمامة على أحد من القوم، ويجدوها على النبي ﷺ، فقال بحيرة: يا معاشر قريش لا يختلف منكم أحد عن طعامي، قالوا: ما تختلف أحد إلا غلام هو أحدث القوم سنّا في رحالهم، فقال: ادعوه ليحضر طعامي، مما أقبح أن تحضروا، ويتخلف رجل واحد مع أني أراه من أنفسكم، فقال القوم: والله أوسطنا نسياً، وهو ابن أخي هذا الرجل يعنون أبا طالب، وهو من ولد عبد المطلب فقال الحارث بن عبد المطلب: والله إن كان بنا للؤم أن يتخلف ابن عبد المطلب من بيننا، ثم

(١) في ص: الزهرى.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في ص: فاجتمع القوم.

قام إليه فاحتضنه، وأقبل به حتى (أجلسه)^(١) على الطعام، والغمامة تسير على رأسه، وجعل بحيرا يلحظه لحظاً شديداً، وينظر إلى أشياء في جسده، قد كان يجدها عنده في صفتة، فلما تفرقوا عن الطعام قام إليه الراهب فقال يا غلام أسائلك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسلوك عنه (فقال رسول الله ﷺ): لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما. قال: فبالله إلا أخبرتني عما أسلوك عنه، قال: سلني عما بدار لك، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عنده، ثم جعل ينظر ما بين عينيه، ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كفيه على الصفة التي عنده، فقبل موضع الخاتم، وقالت قريش: إن محمد عند هذا الراهب لقدراً، وجعل أبو طالب لما يرى من الراهب يخاف على ابن أخيه، فقال الراهب لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال: هو ابني، قال: ما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً، قال: فابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: هلك وأمه (حبلها)^(٢) به، قال: فما فعلت أمه؟ قال: توفيت قريباً، قال: صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه من اليهود، فوالله لئن عرفوا منه ما أعرف لتبغنه عنتاً، وإنك كائن لابن أخيك شأن عظيم نجده في كتابنا، واعلم أنني قد أديت إليك النصيحة، فلما فرغا من تجارتهم خرج به سريعاً، وكان رجال من يهود رأوا رسول الله ﷺ وعرفوا صفتة، فأرادوا أن يغتالوه، فذهبوا إلى بحيرا فذكروا أمره ففهموا أشد النهي، وقال لهم: أتجدون صفتة؟ قالوا: نعم، قال: فما لكم إليه سبيل؟ فصدقواه وتركوه ورجع أبو طالب، فما خرج به سفراً بعد ذلك خوفاً عليه^(٣).

وذكر الحاكم والبيهقي وغيرهما من حديث عبد الله بن إدريس عن شرحبيل بن مسلم عن أبي أمامة عن هشام بن العاص قال: ذهبت أنا ورجل من قريش إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام، فخرجنا حتى قدمنا الغوطة غوطة دمشق، فنزلنا على جبلة بن الأبيهم^(٤) الغساني، فدخلنا عليه فإذا هو على سرير له، فأرسل إلينا برسول نكلمه، فقلنا:

(١) في ص: أجلسه أعلى القوم.

(٢) في ج: حامل.

(٣) الطبقات الكبرى، ابن سعد: ٩٩/١ - ١٠١ .

(٤) جبلة بن الأبيهم الغساني: هو أبو المنذر ملك آل جفنة بالشام أسلم وأهدى النبي ﷺ هدية، فلما كان زمن عمر ارتد ولحق بالروم. (انظر: سير أعلام النبلاء: ٥٣٢/٣).

لا والله لا نكلم رسولًا إنما بعثنا إلى الملك، فإن أذن لنا كلامنا، وإن لم نكلم الرسول، فرجع إليه الرسول فأخبره بذلك، قال: فأذن لنا، فقال: تكلموا، فكلمه هشام بن العاص^(١) ودعاه إلى الإسلام وإذا عليه ثياب سواد، فقال له هشام: ما هذه التي عليك؟ فقال: لبستها وحلفت أن لا أنزعها حتى أخرجكم من الشام، قلنا: ومجلسك هذا فوالله لنأخذنه منك، ولنأخذن منك (الملك)^(٢) الأعظم، أخبرنا بذلك نبينا فقال: لست بهم بل هم قوم يصومون بالنهار ويفطرون بالليل فكيف صومكم؟ فأخبرناه فملا وجهه سواداً، فقال: قوموا وبعث معنا رسولًا إلى الملك، فخرجنا حتى إذا كنا قريباً من المدينة، قال لنا الذي معنا: إن دوابكم لا تدخل مدينة الملك، فإن شتم حملناكم على برادين وبغال، قلنا: والله لا ندخل إلا عليها، فأرسلوا إلى الملك أنهم (يأبون)^(٣)، فدخلنا على رواحلنا متقلدين سيفنا، حتى انتهينا إلى غرفة له، فأندثنا في أصلها وهو ينظر إلينا، فقلنا لا إله إلا الله والله أكبر، والله يعلم، لقد انتقضت الغرفة حتى صارت كأنها عنق تصفّه الرياح^(٤). فأرسل إلينا أن ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم، وأرسل إلينا أن ادخلوا، فدخلنا عليه وهو على فراش له وعنه بطارقه من الروم، وكل شيء في مجسه أحمر وما (حوله أحمر)^(٥)، وعليه ثياب من الحمرة، فدنونا منه فضحك وقال: ما كان عليكم لوحيتموني بتحيتكم فيما بينكم، وإذا رجل فصيح بالعربية كثير الكلام، قلنا: إن تحيتنا فيما بيننا لا تحل لك، وتحيتك التي تحيي بها لا تحل لنا أن نحييك بها فقال: كيف تحيتكم فيما بينكم؟ قلنا: السلام عليكم فقال: كيف تحبون ملوككم؟ قلنا: بها، قال: كيف يرد عليكم؟ قلنا: بها، قال: مما أعظم كلامكم؟ قلنا: لا إله إلا الله والله أكبر، فلما تكلمنا بها (يعلم الله)^(٦)، لقد انتقضت الغرفة حتى رفع رأسه إليها، قال: هذه الكلمة التي قلتموها حيث انتقضت الغرفة كلما قلتموها في بيوتكم تتنفس بيوتكم عليكم؟

(١) هشام بن العاص السهمي، ابن أخت أبي جهل، أسلم بمكة وهاجر إلى الجبعة، ثم عاد ليلحق برسول الله ﷺ إلى المدينة فحبسه قومه بمكة ثم قدم بعد الخندق مهاجراً. (انظر: طبقات ابن سعد ١٩١/٤).

(٢) في ب، ج، ص: ملك الملك.

(٣) في الأصل: يأتون.

(٤) العنق: هو أعلى النخة التي عليها الثغر، وتصفّه الرياح أي تحركه بشدة.

(٥) في الأصل: عليه حمرة.

(٦) في ب، ج، ص: والله يعلم.

قلنا: لا ، ما رأيناها فعلت هذا قط إلا عندك ، قال: وددت أنكم كلما قلتموها ينتفض كل شيء عليكم ، وإنني خرجت من نصف ملكي ، قلنا: لم؟ لأنه يكون أيسر لشأنها وأحذر أن لا تكون من أمر النبوة ، وأن (لا تكون)^(١) من حيل الناس ، ثم سألنا عما أراد فأخبرناه ، فقال: كيف صلاتكم وصومكم فأخبرناه ، فقال: قوموا ، فقمنا فأمر لنا بمنزل حسن (ونزل كثير)^(٢) ، فأقمنا ثلاثة فأرسل إلينا ليلاً ، فدخلنا عليه ، فاستعاد قولنا ، فأعدناه ، ثم دعا بشيء كهيئة الربعة العظيمة مذهبة فيها بيوت صغار عليها أبواب (فتحها بيته وقفلها)^(٣) ، فاستخرج حريمة سوداء نشرها ، فإذا فيها صورة حمراء ، فإذا فيها رجل ضخم العينين عظيم الآليتين ، لم أر مثل طول عنقه ، فإذا ليست له لحية ، وإذا له ظفيرتان أحسن ما خلق الله تعالى ، قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا ، قال: هذا آدم عليه السلام . وإذا هو أكثر الناس شعراً ، ثم فتح باباً آخر ، واستخرج منه حريمة سوداء وإذا فيها صورة بيضاء ، وإذا له شعر قبط ، أحمر العينين ، ضخم الهامة ، حسن (اللحية)^(٤) ، قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا ، قال: هذا نوح عليه السلام . ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريمة سوداء فيها رجل شديد البياض (حسن)^(٥) العينين ، (صلت)^(٦) الجبين ، طويل الخد ، أبيض اللحية كأنه يبتسم قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا ، قال: هذا إبراهيم عليه السلام ، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريمة بيضاء ، فإذا فيها (صورة)^(٧) وإذا والله رسول الله ﷺ قال: أتعرفون من هذا؟ قلنا: نعم محمد رسول الله ﷺ ، قال: وبكينا ، قال: والله يعلم أنه قام قائماً ثم جلس ، وقال: (الله)^(٨) إنه لهو؟ قلنا: نعم إنه لهو كأنما نظر إليه ، فأمسك ساعة ينظر إليها ، ثم قال: أما إنه كان آخر البيوت (ولكنني عجلته)^(٩) لكم لأنظر

(١) في ب، ج، ص: يكون.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) في دلائل النبوة: ففتح منها باباً ، وفي ب، ج، ص: ففتح بيته وقفلها.

(٤) في ب، ج: الروجه.

(٥) سقطت من ج.

(٦) في ج: صلب . وصلت الجبين من كان جيئه بارزاً وأضحاً في سعة وبريق (المعجم الوسيط، ١: ٥٢٢).

(٧) في ب، ج، ص: صورة بيضاء.

(٨) في ج، ص: والله.

(٩) في ج: فعجلته.

ما عندكم، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فإذا فيها صورة أدماء^(١) سمحاء، وإذا رجل جعد قطط^(٢)، غير العينين، حديد النظر، عابس متراكب الأسنان، مقلص الشفة كأنه غضبان. فقال: هل تعرفون من هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا موسى بن عمران وإلى جنبه صورة تشبهه، إلا أنه مدهان الرأس عريض الجبين في عينيه قبلة، فقال هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا هارون، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فإذا فيها صورة رجل أدم سبط^(٣) ربعة^(٤) كأنه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قالوا: لا. قال: هذا لوط، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل أبيض يشرب بحمرة أقنى خفيف العارضين حسن الوجه قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا إسحق، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة تشبه إسحق إلا أنه على شفته السفلية حال، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا فقال: هذا يعقوب، ثم فتح باباً آخر فاستخرج حريرة سوداء، فيها صورة رجل (أبيض)^(٥) (حسن الوجه)^(٦) أقنى الأنف حسن القامة، يعلو وجهه نور، يعرف في وجهه الخشوع، يضرب إلى الحمرة، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا إسماعيل جد نبيكم، ثم فتح باباً آخر فاستخرج حريرة بيضاء، فيها صورة كأنها صورة آدم كان وجهه الشمس، فقال هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا يوسف، ثم فتح باباً آخر، فاستخرج حريرة بيضاء فيها صورة رجل أحمر (حمش)^(٧) (الساقين أخفش)^(٨) العينين ضخم البطن ربعة متقلداً سيفاً، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا داود. ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة

(١) أدماء: من الأدماء وهي السمرة (مختار الصحاح).

(٢) القطط: شعر الزنجي يقال: رجل قطط وشعر قطط، وجعد قطط أي شديد الجعودة (لسان العرب).

(٣) سبط: شعر سبط بفتح الباء وكسرها أي مسترسل غير جعد (مختار الصحاح).

(٤) ربعة: رجل ربعة أي مربوع الخلق لا طويل ولا قصير (لسان العرب).

(٥) سقطت من الأصل وصن.

(٦) في ج: يشوب بحمرة.

(٧) في الأصل: أخمش، وفي ج: خمس، والصواب: حمش، والحمش والحموشة: الدقة، وهو حمش الساقين والذراعين دققهما. (لسان العرب).

(٨) أخفش من الخفشن وهو ضعف في البصر وضيق في العين، وقيل: صغر في العين خلقة (لسان العرب).

بيضاء، فيها (صورة)^(١) رجل ضخم الأليتين (طويل الرجلين)^(٢) راكباً فرساً، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا سليمان بن داود، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حربة سوداء فيها صورة بيضاء، وإذا رجل شاب شديد سواد اللحية، لين الشعر، حسن الوجه حسن العينين، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا عيسى (ابن مريم)^(٣)، قلنا: من أين لك هذه الصور؟ لأننا نعلم أنها على ما صورت عليه الأنبياء، لأننا رأينا صورة نبينا مثله، قال: إن آدم سأله رباه أن يريه من ولده فأنزل عليه صورهم، وكانوا في خزانة آدم عند مضرب الشمس، فاستخرجها ذو القرنين، فصارت إلى دانيال، ثم قال: أما والله إن نفسي طابت بالخروج من ملكي، وإنني (كنت كاسراً بكم ملكه)^(٤) حتى أموت، ثم أجازنا وأحسن جائزتنا (وسرحنا)^(٥)، فلما أتينا أبو بكر الصديق رضي الله عنه فأخبرناه بما رأينا، وما قال لنا، وما أجازنا (وما أحسن إلينا)^(٦)، فبكى أبو بكر وقال: لو أراد الله به خيراً لفعل^(٧).

[أخبار نبوة محمد ﷺ]

(فصل): بهذه الأخبار بنبوته مما تلقاه المسلمون من أفواه علماء أهل الكتاب

(١) سقطت من ص.

(٢) سقطت من ج.

(٣) ليست في ب، ج، ص.

(٤) في ب، ج: عند الإسراء بكم ملكه. وفي ص: عبداً لاسرا بكم ملكه وعند أبي نعيم: فوالله لو تطيب نفسي في الخروج عن ملكي، ما باليت أن أكون عبداً لأشدكم ملكه ولكن عسى أن تطيب نفسي، وعند البيهقي: إن نفسي طابت بالخروج من ملكي، وإن كنت عبداً لا يترك ملكه حتى أموت.

(٥) سقطت من ج.

(٦) هذه في ب فقط.

(٧) هذه القصة ذكرها البيهقي في الدلائل: ١/٢٨٧ - ٢٩١، كما ذكرها أبو نعيم في الدلائل: ١/٥٦. قال ابن حجر: وفي دلائل النبوة لأبي نعيم بإسناد ضعيف: أن هرقل أخرج لهم سفطاً من ذهب عليه قفل من ذهب، فأنخرج منه حربة مطوية فيها صور، فعرضها عليه إلى أن كان آخرها صورة محمد ﷺ، فذكر لهم أنها صورة الأنبياء وأنه خاتمهم ﷺ، قال: ووقع في أموالي المحاملي، روایة الأصبهاني من طريق هشام بن عروة عن أبي سفيان أن صاحب بصرى أخذه وناسكاً معه وهم في تجارة فذكر القصة مختصرة، فتح الباري: ٩/٨٥.

والمؤمنين منهم، والأول (مما نقلوه)^(١) من كتبهم، وعلماؤهم يقررون أنه في كتبهم، فالدليل بالوجه الأول يقام عليهم (من كتبهم وبهذا الوجه يقام عليهم)^(٢) بشهادة من لا يتهم عليهم، لأنه إما من عظمائهم، وإما من رغب عن رئاسته وماليه ووجاهته فيهم، وأثر الإيمان على الكفر، والهوى على الضلال، وهو في هذا مدع أن علماءهم يعرفون ذلك، ويقررون به، ولكن لا يطلعون جهالهم عليه.

[طرق معرفة هذه الأخبار]

والأخبار والبشرة بنبوته ﷺ في الكتب المتقدمة عرفت من عدة طرق:

أحدها: ما ذكرناه وهو قليل من كثير وغيض من فيض.

الثاني: إخباره ﷺ لهم أنه مذكور عندهم، وأنهم وعدوا به، وأن الأنبياء بشرت به، واحتجاجه عليهم بذلك، ولو كان هذا لا وجود له البتة، لكن مغرياً لهم بتكتيشه منفراً لأنبعاه محتجًا على دعواه بما يشهد ببطلانها.

الثالث: أن هاتين الأمتين معترفون بأن الكتب القديمة بشرتبني عظيم الشأن، يخرج في آخر الزمان، نعته كيت وكيت، وهذا مما اتفق عليه المسلمون واليهود والنصارى. فأما المسلمين: فلما جاءهم آمنوا به وصدقوا وعرفوا أنه الحق من ربهم، وأما اليهود فعلماؤهم عرفوه، وتيقنوا أنه محمد بن عبد الله، فمنهم من آمن به، ومنهم من جحد نبوته، وقال للأتباع: إنه لم يخرج بعد.

وأما النصارى فوضعوا بشارات التوراة والنبوات التي بعدها على المسيح، ولا ريب أن بعضها صريح فيه، وبعضها ممتنع حمله عليه، وبعضها محتمل.

وأما بشارات المسيح فحملوها كلها على الحواريين، وإذا جاءها ما يستحيل انطباقه عليهم حرّفوه وسكتوا عنه، وقالوا: لا ندرى من المراد به.

الرابع: اعتراف من أسلم منهم بذلك، وأنه صريح في كتبهم، وعن المسلمين

(١) في ص: فيما فعلوه.

(٢) سقطت من ص والأصل.

الصادقين ومنهم تلقى المسلمين هذه البشارات، وتيقنوا صدقها بشهادة المسلمين منهم بها، مع تبادل أعيانها وأوصارها، وكثرة اتفاقهم على لفظها، وهذا يفيد القطع بصحتها، ولو لم يقرّ بها أهل الكتاب، فكيف وهم مقررون بها لا يجحدونها، وإنما يغالطون في تأويلها والمراد بها، وكل واحد من هذه الطرق الأربع كاف في العلم بصحة هذه البشارات، وقد قدمنا أن إقامته عليه السلام على إخبار أصحابه وأعدائه بأنه مذكور في كتبهم بنعته وصفته، وأنهم يعرفون أبناءهم، وتكراره ذلك عليهم مرة بعد مرة في كل مجمع، وتعريفهم بذلك، وتوبخهم والنداء عليهم، من أقوى الأدلة القطعية على وجوده من وجهين:

أحدهما: قيام الدليل القطعى على صدقه.

الثاني: دعوته لهم بذلك إلى تصديقه، ولو لم يكن له وجود لكان (ذلك)^(١) من أعظم دواعي تكذيبه والتنفير عنه.

[الاستدلال بأخبار الكتابين]

(فصل): وهذه الطريقة يسلكها من يساعدهم على أنهم لم يحرفوا ألفاظ التوراة والإنجيل (ولم يدللوها)^(٢)، فيسلكها بعض نظار المسلمين معهم من غير تعرض إلى التبديل والتحريف.

وطائفة أخرى تزعم أنهم بدلاً وحرفوا كثيراً من ألفاظ الكتابين، مع أن (الغرض)^(٣) الحامل لهم على ذلك دون الغرض الحامل لهم على تبديل البشرة برسول الله صلوات الله عليه بكثير، وإن البشارات لكثرتها لم يمكنهم إخفاؤها كلها، وتبديلها، ففضحهم ما عجزوا عن كتمانه أو تبديلة، وكيف تكرر الأمة الغضبية قتلة الأنبياء الذين رموهم بالعظائم (أن ينكروا)^(٤) (نعت)^(٥) رسول الله صلوات الله عليه وصفته؟ وقد جحدوا نبوة المسيح ورمسيه وأمه بالعظائم، ونعته

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ب، ج، ص: ولم يدلوا شيئاً منها.

(٣) في ج: العارض.

(٤) في ص، ب: أن يكتموا.

(٥) في الأصل: بعث.

والبشاره به موجوده في كتبهم، ومع هذا أطبقوا على جحد نبوته، وإنكار بشارة الأنبياء به، ولم يفعل بهم ما فعله محمد ﷺ من القتل والسبي وغنية الأموال، وتخريب الديار، وإجلائهم منها، فكيف لا تتوافق هذه الأمة بكتمان (بعثه)^(١) وصفته؟ وتبدلها (من كتبهم)^(٢)؟ وقد (نعي)^(٣) الله سبحانه وتعالى عليهم ذلك في غير موضع من كتابه ولعنهم عليه.

ومن العجب أنهم، والنصارى يقرّون أن التوراة كانت طول مملكة بني إسرائيل عند الكاهن الأكبر الهاروني وحده، واليهود تقر أن السبعين كاهناً اجتمعوا على اتفاق من جميعهم على تبديل ثلاثة عشر حرفاً من التوراة، وذلك بعد المسيح في عهد القياصرة الذين كانوا تحت قهرهم، حيث زال الملك عنهم، ولم يبق لهم ملك يخافونه (ويأخذ) على أيديهم، (ومنهم من يقول: بل وهو بخت نصر، حيث أزلهم بكتابه التوراة لطائفة من جماعته، حين أسكنهم بيت المقدس، وعلى تقرير الروايتين)^(٤) فمن رضي بتبديل موضع واحد من كتاب الله، فلا يؤمن منه تحريف غيره، واليهود تقرّ أيضاً: أن السامرة حرفوا موضع في التوراة، وبدلوها تبديلاً ظاهراً وزادوا ونقصوا، والسامرة تدعى ذلك عليهم.

وأما الإنجيل فقد تقدم أن الذي بأيدي النصارى منه أربعة كتب مختلفة، من تأليف أربعة رجال: يوحنا ومتى ومرقس ولوقا، فكيف ينكر تطرق التبديل والتحريف إليها وعلى ما فيها من ذلك؟ فقد صرفهم الله عن تبديل ما ذكرنا من البشارات بمحمد بن عبد الله وإزالته، وإن قدروا على كتمانه على أتباعهم وجهالهم.

[افتراضات في التوراة تشهد بالتحريف]

وفي التوراة التي بأيديهم من التحريف والتبديل، وما لا تجوز نسبته إلى الأنبياء

(١) في ب، ص: نعنه.

(٢) في ب، ج، ص: من كتبها.

(٣) في الأصل: عاب.

(٤) سقطت من ب، ج، ص.

ما لا (يشك)^(١) فيه ذو بصيرة . والتوراة التي أنزلها الله على موسى برية من ذلك ، ففيها عن لوط رسول الله أنه خرج من المدينة ، وسكن في كهف الجبل ، ومعه ابنته ، فقالت الصغرى للكبرى : قد شاخ أبونا فارقدي بنا معه لتأخذ منه نسلاً ، فرقدت معه الكبرى ، ثم الصغرى ، ثم فعلتا ذلك في الليلة الثانية ، وحملتا منه بولدين (موآب وعمون)^(٢) .

فهل يحسن أن يكون النبي رسول كريم على الله يوقعه الله سبحانه وتعالى في مثل هذه الفاحشة العظيمة في آخر عمره ، ثم (يذيعها)^(٤) عنه ويحكىها للأمم .

وفيها : أن الله تجلى لموسى في سيناء وقال له بعد كلام كثير : أدخل يدك في جحرك وأخرجها مبروقة كالثلوج^(٥) ، وهذا من النمط الأول ، والله سبحانه لم يتجل لموسى ، وإنما أمره أن يدخل يده في جيبه ، وأخبره أنها تخرج بيضاء من غير سوء ، أي من غير برص .

وفيها : (أن هارون هو الذي صاغ لهم العجل)^(٦) ، وهذا إن لم يكن من زيادتهم وافتراضهم في كلامهم ، فهارون اسم السامری الذي صاغه ، ليس هو بهارون أخي موسى .

وفيها : أن الله قال لإبراهيم : (اذبح ابنك بكرك إسحق)^(٧) وهذا من بعثتهم وزيادتهم و(افتراضهم)^(٨) في كلام الله سبحانه وتعالى ، وقد جمعوا بين (النقضيين)^(٩) ، فإن (بكره)^(١٠) هو إسماعيل ، فإنه بكر أولاده ، وإسحق إنما بشّر به على الكبر بعد قضية الذبح .

(١) في ج: يكشف .

(٢) في الأصل: موأن وعمران ، وفي ص: تواب وعمون .

(٣) انظر: التكوين: ١٩/٣٠ - ٣٨ .

(٤) في ب، ج: لم يدفعها .

(٥) الخروج: ٤/٦ .

(٦) الخروج: ٣٢/٢ .

(٧) قصة ذبح إسحق ، انظر: التكوين: ص ٢٢ .

(٨) سقطت من ب، ج، ص .

(٩) في ب، ج: القصتين .

(١٠) في الأصل: يكن .

وفيها: (ورأى الله أن قد كثر فساد الأدميين في الأرض، فندم على خلقهم، وقال: سأذهب (الأدميين)^(١) الذين خلقت على الأرض والخشاش وطيور السماء، لأنني نادم على خلقها جداً^(٢)). تعالى الله عن إفك المفترين، وعما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وفيها: أن الله سبحانه وتعالى علواً كبيراً، تصارع مع يعقوب فضرب به يعقوب الأرض^(٣).

وفيها: (أن يهودا بن يعقوب النبي زوج ولده الأكبر من امرأة يقال لها (تamar)، فكان يأتيها مستدبراً فغضب الله من فعله، فأمامته فزوج يهودا ولده الآخر بها، وكان إذا دخل بها أمني على الأرض، علم بأنه إن أولدها كان الولد الأول يدعى باسم أخيه، ومنسوباً إلى أخيه، فكره ذلك من فعله فأمامته، وأمرها يهودا باللحاق ببيت أبيها إلى أن يكبر شيئاً ولده، ويتم عقله، ثم ماتت زوجة يهودا، وذهب إلى منزله ليحجر غنمه، فلما أخبرت تamar به، لبست زي الروانى، وجلست على طريقه، فلما مرّ بها (ظنها)^(٤) زانية، فراودها (عن نفسها)^(٥)، فطالبتها بالأجرة، فوعدها بجدي، ورمى عندها بعضاه وحاتمه، فدخل بها، فعلقت منه بولد، ومن هذا الولد كان داود النبي^(٦)).

فقد جعلوه ولد زنا، كما جعلوا المسيح ولد زنا، ولم يكفهم ذلك حتى نسبوا ذلك إلى التوراة، كما جعلوا ولدي لوط، ولدي زنا، ثم نسبوا داود وغيره من أنبيائهم إلى ذينك الوالدين.

وأما فريتهم على الله ورسله وأنبيائه، ورميهم لرب العالمين ورسله بالعظائم فكثير جداً، كقولهم: (إن الله استراح في اليوم السابع من خلق السموات والأرض)^(٧)،

(١) في ب، ج، ص: الأدمي.

(٢) التكوين: ٧/٦.

(٣) انظر: هوشع: ١٢ / ٤ ، وانظر: التكوين: ٣٢ / ٢٤ – ٢٩ .

(٤) في ب، ج، ص: خالها.

(٥) سقطت من ب، ج، ص.

(٦) القصة في التكوين: ص ٣٨، لكن هذا الإصلاح يذكر أنها وضع تؤمن الأول دعي فارص والثاني دعي زارح، التكوين: ٣٨ / ٣٧ – ٣٠ .

(٧) انظر: التكوين: ١ – ٢ .

فأنزل الله تعالى تكذيبهم بقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُعُوبٍ﴾^(١) (أي تعجب)^(٢).
قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٣)، وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ، غُلْتَ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنَا بِمَا قَالُوا﴾^(٤).

قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَنْ لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولِنَا حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكِلُهُ النَّار﴾^(٥).
قولهم: ﴿لَنْ تَمْسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَامًاً مَعْدُودَةً﴾^(٦)، وقولهم: (إن الله بكى على الطوفان حتى
رمدت عيناه وعادته الملائكة)^(٧).

قولهم الذي حكينا آنفًا: إن الله ندم على خلقبني آدم، وأدخلوا هذه الفريدة في التوراة، وقولهم عن لوط: إنه وطئ ابنته، وأولدهما ولدين نسبوا إليهما جماعة من الأنبياء. وقولهم في بعض دعاء صلواتهم: (انتبه كم تناهى يا رب استيقظ من رقدتك)^(٨).

فجربأوا على رب العالمين بهذه المناجاة القبيحة كأنهم (يناجونه)^(٩) بذلك ليتنحي^(١٠) لهم، ويتحتمي، كأنهم يخبرونه أنه قد اختار الخمول لنفسه وأحبائه فيهزؤونه بهذا الخطاب للنباهة واشتهر الصيت. قال بعض أكابرهم بعد إسلامه: «فترى أحدهم إذا تلا هذه الكلمات في صلاته يقشعر جلده، ولا يشك (أنه كلام)^(١١) يقع عند الله بموضع عظيم، وأنه يؤثر في ربه، ويحركه لذلك ويهزه وينحيه، فكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَةٌ وَلَا نُومٌ...﴾ الآية، وكذبهم على لسان نبيه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِشَرٍْ أَنْ

(١) سورة ق: الآية ٣٨.

(٢) ليست في ب، ج، ص.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٨١.

(٤) سورة المائدة: الآية ٦٤.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٨٣.

(٦) سورة البقرة: الآية ٨٠.

(٧) لم أجده هذا النص في الكتاب المقدس.

(٨) مزامير: ٣٥/٢٣ - ٤٤ - ٢٣.

(٩) في ب، ج، ص: يوسيخونه.

(١٠) في الأصل ليتنحي، وهي من التخوة التي بمعنى الكبر والعظمة، يقال: انتخى فلان علينا أي انتخر وتعظم. (مختار الصحاح): ص ٦٥١.

(١١) في ب، ج، ص: إن كلامه.

يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب^١. قوله خطاباً لموسى : لن تراني . . . الآية^(١).
وعندهم في توراتهم (أن موسى صعد الجبل مع مشايخ أمنته، فأبصروا الله جهراً، وتحت
رجليه كرسى منظره كمنظر البلور)^(٢) ويسمونه بلغتهم (السبقير) وهذا من كذبهم وافترائهم
على الله وعلى التوراة.

وعندهم في توراتهم: أن الله سبحانه وتعالى لما رأى فساد قوم نوح وأن شرهم قد
(عظم ندم)^(٣) على خلق البشر وشقّ عليه^(٤).

وعندهم في توراتهم أيضاً: أن الله ندم على تمليكه شاول على إسرائيل^(٥).
وعندهم فيها أيضاً: أن نوحاً لما خرج من السفينة بنى بيتاً مذبحاً لله، وقرب عليه
قرابين واستنشق الله رائحة القتار^(٦)، فقال في ذاته: (لن أعاود لعنة الأرض بسبب الناس
لأن (خاطر البشر)^(٧) مطبوع على الرداءة، وأن أهلك جميع الحيوان كما صنعت)^(٨).

قال بعض علمائهم الراسخين في العلم ممن هداه الله إلى الإسلام^(٩): لستنا نرى
أن هذه الكفريات كانت في التوراة المتنزلة على موسى ، ولا نقول أيضاً أن اليهود قصدوا
تغييرها وإفسادها، بل الحق أولى ما اتبع ، وقال: ونحن نذكر حقيقة سبب تبديل التوراة
(فإن)^(١٠) علماء القوم وأحبارهم يعلمون أن هذه التوراة التي بأيديهم لا يعتقد أحد من

(١) هذه الآيات في ج فقط.

(٢) انظر: الخروج: ٩ - ١٠.

(٣) سقطت من ص.

(٤) انظر التكوين: ٥ - ٦.

(٥) صموئيل الأول: ١١/١٥ - ١٥/١١.

(٦) القتار (بضم القاف): ريح القدر، وقد يكون من الشواء والعظم المحرق وريح اللحم المشوي،
ولحم قاتر إذا كان له قثار لدسيه، وفي حديث جابر: لا تؤذ جارك بقتار قدرك. انظر: لسان العرب:
.٧١/٥

(٧) في ج: خطر البشري.

(٨) انظر: التكوين: ٢٠/٨ - ٢١.

(٩) والذي يقصده المؤلف هنا من هؤلاء العلماء هو صاحب كتاب «بذل المجهود في إفحام اليهود»
شمومئيل بن يهودا بن أيبوب ، لأن النص الذي نقله موجود في هذا الكتاب انظر: بذل المجهود:
قطعة ٢٩ من مخطوطه المكتبة الخالدية: القدس رقم ١٩.

(١٠) في ب، ج، ص: قال.

علمائهم وأحبارهم أنها (عين)^(١) التوراة المنزلة على موسى بن عمران البتة، لأن موسى صان التوراة عن بنى إسرائيل، ولم يبئها فيهم خوفاً من اختلافهم بعده في تأويل التوراة المؤدي إلى انقسامهم أحزاباً، وإنما سلمها إلى عشيرته أولاد لاوي، قال: ودليل ذلك قول التوراة التي بأيديهم ما هذه ترجمتها «وكتب موسى هذه التوراة فدفعها إلى الأئمة بنى لاوي»^(٢).

وكان بنو هارون قضاة اليهود وحكامهم، لأن الإمامة وخدمة القراءين وبيت المقدس كانت فيهم، ولم يبذل موسى من التوراة لبني إسرائيل إلا نصف سورة. وقال الله لموسى عن هذه السورة وتكون هذه السورة شاهدة لي على بنى إسرائيل ولا تسنى هذه السورة من أفواه أولادهم^(٣)، وأما بقية التوراة فدفعها إلى أولاد هارون وجعلها فيهم وصانها عن سواهم، فالائمة الهارونيون هم الذين كانوا يعرفون التوراة، ويحفظون أكثرها، فقتلهم بخت نصر على دم واحد يوم استولى على بيت المقدس، ولكن التوراة محفوظة على ألسنتهم بل (كل)^(٤) من الهارونيين يحفظ فصلاً من التوراة، فلما رأى (عزرا)^(٥) أن القوم قد (أحرق)^(٦) هيكلهم وزالت دولتهم وتفرق جمعهم ورفع كتابهم، جمع من محفوظاته ومن الفصول التي تحفظها الكهنة، ما لفق منه هذه التوراة التي بأيديهم، فلذلك بالغوا في تعظيم عزرا غاية المبالغة، وقللوا فيه ما حكاه الله عنهم في كتابه^(٧)، وزعموا أن النور إلى الآن يظهر على قبره عند بطائع العراق، لأنه عمل لهم كتاباً يحفظ دينهم.

فهذه التوراة التي بأيديهم على الحقيقة كتاب عزرا، وإن كان فيها أو أكثرها من التوراة التي أنزلها الله على موسى، قال: وهذا يدل على أن الذي جمع هذه الفصول التي

(١) في ج: غير.

(٢) الشتية: ٩/٣١.

(٣) نجد في سفر الشتية ما نصه: «ولما فرغ موسى من مخاطبة جميع إسرائيل بكل هذه الكلمات قال لهم: وجهوا قلوبكم إلى جميع الكلمات التي أنا أشهد عليكم بها اليوم لكي توصوا بها أولادكم الشتية: ٤٥/٣٢ - ٤٦ .

(٤) في ب، ج، ص: كان كل واحد.

(٥) عزرا، وفي ج: عزير.

(٦) في الأصل: أحرقوا.

(٧) أي في قوله تعالى: «وقالت اليهود عزير ابن الله» [التوبه: ٣٠].

بأيديهم رجل جاهم بصفات الرب تعالى ، وما لا يجوز عليه ، فلذلك نسب إلى الرب تعالى ما يتقدس ويتنزه عنه ، وهذا الرجل يعرف عند اليهود بعازر الوراق ، ويظن بعض الناس أنه الرجل الذي «مر على قرية وهي خاوية على عروشها ، قال: أني يحيي هذه الله بعد موتها؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه»^(١) ، ويقول إنهنبي ، ولا دليل على هاتين المقدمتين ، ويجب التثبت في ذلك نفياً وإثباتاً ، فإن كاننبياً واسمه عزير فقد وافق صاحب التوراة^(٢) في الاسم (لا في النبوة)^(٣) .

وبالجملة فنحن وكل عاقل يقطع ببراءة التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى عليه الصلاة والسلام من هذه الأكاذيب والمستحيلات والترهات ، كما يقطع ببراءة صلاة موسى وبني إسرائيل معه من هذا الذي يقولونه في (صلاتهم)^(٤) ؛ (فإنهم في العشر الأول من محرم في كل سنة يقولون في صلاتهم)^(٥) ما ترجمته: (يا أبانا أتملك على جميع أهل الأرض ليقول كل ذي نسمة: الله إله إسرائيل قد ملك وملكته في الكل متسلطة)^(٦) .

ويقولون فيها أيضاً: (وسيكون لله الملك وفي ذلك اليوم يكون الله واحداً واسمه واحداً)^(٧) ، ويعنون بذلك أنه لا يظهر كون الملك له وكونه واحداً إلا إذا صارت الدولة لهم ، فأما ما دامت الدولة لغيرهم فإنه تعالى فاصل الذكر عند الأمم مشكوك في وحدانيته مطعون في ملکه .

ومعلوم قطعاً أن موسى (ورب موسى)^(٨) بريء من هذه الصلاة براءته من تلك الترهات .

(فصل): وجحدكم نبوة محمد من الكتب التي بأيديكم نظير جحدكم نبوة المسيح ،

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٩ .

(٢) سقطت من ج .

(٣) هذه في ج فقط .

(٤) في ب، ج، ص: صلاتهم اليوم .

(٥) سقطت من الأصل .

(٦) انظر: مزمور: ١٩/١٠٣ .

(٧) مزمور: ٢/٤٧ - ٣ .

(٨) في ج: ومن مشى على قدمه .

وقد صرحت باسمه، ففي نص التوراة (لا يزول الملك من آل يهودا والرسم بين ظهريهم إلى أن يأتي المسيح)^(١)، وكانوا أصحاب دولة حتى ظهر المسيح فكذبوا ورموا بالعظام وبهتوا وبهتوا (أمه)^(٢)، فدمّر الله عليهم وأزال ملوكهم، وكذلك قوله (جاء الله من طور سيناء وأشرق من ساعير) (واستعلن من جبال فاران، فأي نبوة أشرفت من ساعير)^(٣) غير نبوة المسيح لهم لا ينكرون ذلك، ويزعمون أن قائماً يقوم فيهم من ولد داود النبي ، إذا حرك شفتيه بالدعاء مات جميع الأمم ولا يبقى إلا اليهود)^(٤)، وهذا المنتظر بزعيمهم هو المسيح الذي وعدوا به .

قالوا: ومن علامات مجئه أن الذئب والتيس (يربان)^(٥) معاً، وأن البقرة والذئب يرعيان جميعاً، وأن الأسد يأكل التبن كالبقر، فلما بعث المسيح كفروا به عند مبعثه، وأقاموا ينتظرون متى يأكل الأسد التبن (البقرة)^(٦)، حتى تصح لهم علامات ببعث المسيح ، ويعتقدون أن هذا المنتظر متى جاءهم يجمعهم بأسرهم إلى القدس ، وتصرير لهم الدولة ، ويخلو العالم من غيرهم ، ويحجم الموت عن جنابهم المنع مدة طويلة ، وقد عوضوا من الإيمان بالمسيح ابن مريم انتظار مسيح الضلالة الدجال ، فإنه هو الذي ينتظرون حقاً ، وهو عساكره ، وأتباع الناس له ، ويكون لهم في زمانه شوكة ودولة إلى أن ينزل مسيح الهدى ابن مريم ، فيقتل منتظهم ويضع هو وأصحابه فيهم السيف ، حتى يختبئ اليهودي وراء (الحجارة والشجرة)^(٧) ، فيقولان: يا مسلم هذا يهودي ورائي تعال فاقتهله^(٨) ، فإذا نظف الأرض منهم ومن عباد الصليب ، فحينئذ يرعى الذئب والكلب معاً ،

(١) انظر: التكوين: ٤٦/١.

(٢) في ب، ج: أمته.

(٣) سقطت من الأصل، ص.

(٤) ليست في النص الحالي.

(٥) في ج: يرتعان.

(٦) سقطت من ب، ج، ص.

(٧) في ب، ج، ص: الحجر والشجر.

(٨) يفهم من كلام المؤلف رحمة الله أن قتل اليهود واحتياطهم وراء الشجر والحجر لا يكون إلا على عهد المسيح عليه السلام بعد نزوله في آخر الزمان، مع أن الأحاديث الصحيحة الواردة في صحيح مسلم لم تقييد ذلك بزمن معين، سوى أن ذلك سيحصل قبل قيام الساعة، وقد ورد في صحيح مسلم أربعة =

ويربان معاً، وترعى البقرة والذئب معاً، ويأكل الأسد التبن، ويلقى الأمن في الأرض.
وهكذا أخبر به أشعيا في نبوته، (وطابق)^(١) خبره ما أخبر به النبي ﷺ في الحديث الصحيح في خروج الدجال وقتل المسيح ابن مريم له، وخروج يأجوج ومأجوج في أثره، ومحقهم من الأرض، وإرسال البركة والأمن في الأرض، حتى ترعى الشاة والذئب، وحتى أن الحيات والسباع لا تضر الناس فصلوات الله تعالى وسلمه على من جاء بالهدى والنور وتفصيل كل شيء وبيانه.

وأهل الكتاب عندهم عن الأنبيائهم حق كثير لا يعرفونه ولا يحسنون أن يضعوه مواضعه، ولقد كمل الله سبحانه وتعالى بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ما أنزل الله على الأنبياء من الحق وبينه وأظهره لأمته، وفصل على لسانه ما أجمله لهم، وشرح ما رمزوا إليه، فجاء بالحق وصدق المرسلين، وتمت به نعمة الله على عباده المؤمنين.

فالمسلمون واليهود والنصارى يتظرون مسيحاً يجيء في آخر الزمان، فمسيح اليهود هو الدجال، ومسيح النصارى لا حقيقة (له) فإنه عندهم إله وابن إله وخالق ومميت ومحيي، فمسيحيهم الذي (يتظرون) ^(٢) هو المصلوب (المسمى) ^(٣) المكمل بالشوك بين اللصوص المصفوع الذي هو مصفعة اليهود، وهو عندهم رب العالمين وخالق السموات والأرضين ^(٤).

ومسيح المسلمين الذي يتظرون هو عبد الله رسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم البتول عيسى ابن مريم، أخو عبد الله رسوله محمد بن عبد الله، فيظهر دين الله وتوحيده، ويقتل أعداءه عباد الصليب الذين اتخذوه وأمه إلهين من دون الله، وأعداؤه اليهود الذين رموه وأمه بالعظام، فهذا هو الذي يتظرة المسلمين «وهو نازل على المنارة الشرقية

= أحاديث في ذلك كلها بلفظ (لتقاتلن اليهود) أو (لا تقام الساعة حتى تقاتلوا اليهود...) راجع

مسلم، كتاب الفتنة: ١٨ / ٧٩ - ٨١.

(١) في ج: مطابقاً.

(٢) في ب، ج: يتظرون مسيحاً يجيء في آخر الزمان.

(٣) في ب، ج، ص: المستمر.

(٤) في ب، ج: الأرض.

بدمشق، واصعاً يديه على منكبى ملكين يراه الناس عياناً بأبصرهم نازلاً من السماء»^(١)، فيحکم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وينفذ ما أصاغه الظلمة والفجرة والخونة من دين رسول الله ﷺ، ويحيي ما أماتوه ، «وتعود الملل كلها في زمانه ملة واحدة»^(٢) وهي ملة أخيه محمد وملة أبيهما إبراهيم وملة سائر الأنبياء صلّى الله عليهم وسلم ، وهي الإسلام الذي من يبتغ غيره ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ، «وقد حمل رسول الله ﷺ من أدركه من أمته السلام وأمره أن يقرئه إياه منه»^(٣) فأخبر عن موضع نزوله بأي بلد وبأي مكان منه وبحاله وقت نزوله ويلبسه الذي عليه « وأنه ممضرتان»^(٤) أي ثوبان ، وأخبر بما يفعله عند نزوله مفصلاً ، حتى كان المسلمين يشاهدونه عياناً قبل أن يروه ، وهذا من جملة الغيوب التي أخبر بها ، فوتفت مطابقة لخبره حذو القذة بالقذة.

فهذا منظر المسلمين، لا منظر المغضوب عليهم والضالين، ولا منظر إخوانهم من الروافض (المارقين)^(٥)، وسوف يعلم المغضوب عليهم إذا جاء منظر المسلمين أنه ليس بابن يوسف النجار، ولا هو ولد (زنية)^(٦)، ولا كان طيباً حاذقاً ماهراً في صناعته استولى على العقول بصناعته، ولا كان ساحراً ممحزاً، ولا مكتوا من صلبه وتسميره وصفعه وقتله بل كانوا أهون على الله من ذلك ، ويعلم الضالون أنه ابن البشر وأنه عبد الله ورسوله ، وأنه ليس بإله ولا با بن إله وأنه (مبشر)^(٧)، بشر بنوبة أخيه محمد ﷺ أولاً ، وحكم بشرعيته

(١) نزول المسيح عليه السلام على المنارة الشرقية بدمشق واصعاً كفيه على أجنحة ملكين، جزء من حديث الدجال الطويل الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الفتنة: ٢٠/٥٢، ٢٩٣٧ - ٢٠/٥٢، وذكره الكشميري في كتابه التصریح بما تواتر في نزول المسيح بتحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: ص ١٢٦.

(٢) هذا مأخوذه من حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٧/٢) ونصه «ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام».

(٣) هذا مأخوذه مما أخرجه الحاكم في مستدركه «من أدرك منكم عيسى ابن مریم فليقرئه مني السلام» (المستدرك: ٤/٥٤٥).

(٤) وأنه ممضرتان، جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده واللقطة : فإذا رأيتموه فاعرفوه رجالاً مربوعاً، إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممضران. (مستند الإمام أحمد: ٢/٤٠٦).

(٥) سقطت من ج.

(٦) في ب، ج: ريبة.

(٧) سقطت من ب، ج، ص.

ودينه آخرًا، وأنه غدو المغضوب عليهم والضالين، وولي رسول الله ﷺ وأتباعه المؤمنين، وما كان أولياؤه الأرجاس والأنجاس عبد الصليب والصور المدهونة في الحيطان، إن أولياؤه إلا الموحدون، عباد الرحمن أهل الإسلام والإيمان الذين نزهوه وأمه عمما رماهـما به أعداؤهمـا اليهود، وزهـوا ربهـ وخلقهـ ومالـه وسـيدـه عـما رـمـاهـ بهـ أـهـلـ الشـرـكـ والـسـبـ للـواـحـدـ المعـبـودـ.

فلنرجع إلى الجواب على طريق من يقول: إنـمـاـ غـيرـواـ الـفـاظـ الـكـتبـ وزـادـواـ وـنـقـصـواـ، كـمـاـ أـجـبـناـ عـلـىـ طـرـيقـ مـنـ يـقـولـ: إـنـمـاـ غـيرـواـ بـعـضـ الـفـاظـهاـ، وـتـأـلوـهاـ غـيرـ تـأـولـلـهاـ، قـالـ هـؤـلـاءـ: نـحـنـ لـاـ نـدـعـيـ، وـلـاـ طـائـفـةـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ أـنـ الـفـاظـ^(١) كـلـ نـسـخـةـ فـيـ الـعـالـمـ غـيرـتـ وـبـدـلتـ، بـلـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ مـنـ يـقـولـ: إـنـهـ غـيرـ بـعـضـ الـفـاظـهاـ قـبـلـ مـبـعـثـ رـسـولـ اللهـ^(٢)، وـغـيرـتـ بـعـضـ النـسـخـ بـعـدـ مـبـعـثـهـ، وـلـاـ يـقـولـونـ: إـنـهـ غـيرـتـ كـلـ نـسـخـةـ فـيـ الـعـالـمـ بـعـدـ الـمـبـعـثـ، بـلـ غـيرـ الـبـعـضـ، وـظـهـرـ عـنـدـ كـثـيرـ مـنـ النـاسـ بـعـضـ النـسـخـ الـمـبـدـلـةـ الـمـغـيـرـةـ دـوـنـ الـتـيـ لـمـ تـبـدـلـ، وـالـنـسـخـ الـتـيـ تـبـدـلـ مـوـجـوـدـةـ فـيـ الـعـالـمـ، وـمـعـلـومـ أـنـ هـذـاـ مـاـ لـمـ يـمـكـنـ نـفـيـهـ، وـالـجـزـمـ بـعـدـ وـقـوـعـهـ، فـإـنـهـ لـاـ يـمـكـنـ أـحـدـاـ أـنـ يـعـلـمـ كـلـ نـسـخـةـ فـيـ الـعـالـمـ عـلـىـ لـفـظـ وـاحـدـ بـسـائـرـ الـأـلـسـنـةـ، وـمـنـ الـذـيـ أـحـاطـ بـذـلـكـ عـلـمـاـ أـوـ عـقـلـاـ؟ـ وـأـهـلـ الـكـتـابـ يـعـلـمـونـ أـنـ أـحـدـاـ لـاـ يـمـكـنـهـ ذـلـكـ، وـأـمـاـ مـنـ قـالـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ: إـنـ التـغـيـرـ وـقـعـ فـيـ أـوـلـ الـأـمـرـ، فـإـنـهـ قـالـواـ إـنـهـ وـقـعـ أـوـلـاـ مـنـ عـزـراـ الـوـرـاقـ فـيـ الـتـورـاـةـ فـيـ بـعـضـ الـأـمـرـ، إـمـاـ عـمـداـ إـمـاـ خـطـأـ، فـإـنـهـ لـمـ يـقـمـ دـلـيلـ عـلـىـ عـصـمـتـهـ، وـلـاـ أـنـ تـلـكـ الـفـصـولـ الـتـيـ جـمـعـهـاـ مـنـ الـتـورـاـةـ بـعـدـ إـحـرـاقـهـ هـيـ عـيـنـ الـتـورـاـةـ الـتـيـ أـنـزـلـتـ عـلـىـ مـوـسـىـ، وـقـدـ ذـكـرـنـاـ أـنـ فـيـهـ مـاـ لـيـجـوزـ نـسـبـتـهـ إـلـىـ اللـهـ وـأـنـهـ أـنـزـلـهـ عـلـىـ رـسـولـهـ وـكـلـيـمـهـ، وـتـرـكـنـاـ كـثـيرـاـ لـمـ نـذـكـرـهـ.

[تناقضات وانحرافات في الأنجليل تشهد بالتحرير]

وـأـمـاـ (ـالـإـنـجـيلـ فـهـوـ)^(٣) أـرـبـعـةـ أـنـجـيلـ، أـخـذـتـ عـنـ أـرـبـعـةـ نـفـرـ، اـثـنـانـ مـنـهـمـ لـمـ يـرـيـاـ الـمـسـيـحـ أـصـلـاـ^(٤)، وـاثـنـانـ رـأـيـاـهـ وـاجـتمـعـاـ بـهـ وـهـمـاـ مـتـىـ وـبـوـحـنـاـ، وـكـلـ مـنـهـمـ يـزـيدـ وـيـنـقـصـ

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ب، ج، ص: الأنجليل فهي.

(٣) وـهـمـاـ مـرـقـسـ وـلـوـقاـ، يـقـولـ مـوـرـيـسـ بـوـكـايـ عـنـ إـنـجـيلـ مـرـقـسـ: إـنـهـ أـقـصـرـ الـأـنـجـيلـ الـأـرـبـعـةـ وـأـقـدـمـهـ، وـلـكـنـهـ لـيـسـ كـتـابـ رـسـولـ وـكـلـ مـاـ فـيـهـ أـنـهـ كـتـابـ مـحـرـرـ مـنـ تـلـمـيـذـ رـسـولـ، وـلـاـ يـعـتـبـرـ كـوـلـمـانـ مـرـقـسـاـ تـلـمـيـذـاـ =

ويخالف إنجيله لإنجيل أصحابه في أشياء، وفيها ذكر القول ونقضه، كما فيه أنه قال:
(إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي غير مقبولة، ولكن غيري يشهد لي)^(١).

وفي موضع آخر منه: (إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق لأنني أعلم من أين جئت
وإلى أين ذهب)^(٢) وفيه أنه لما استشعر بوثوب اليهود عليه قال: (جزعت نفسي لأن
فماذا أقول يا أبناء سلمني من هذا الوقت)^(٣).

وأنه لما رفع على خشبة الصليب صاح صياحاً عظيماً، وقال: (يا إلهي لم
أسلمتني)^(٤)، فكيف يجمع هذا مع قولكم إنه هو الذي (أسلم)^(٥) نفسه إلى (اليهود)^(٦)
ليصلبوه ويقتلوه رحمة منه بعباده، حتى فداهم بنفسه من الخطايا، وأخرج بذلك آدم ونوحًا
 وإبراهيم وموسى وجميع الأنبياء من جهنم بالحيلة التي دبرها على إبليس يرجع إلى العالم
 بذلك. وكيف يسأل السالمة منه، وهو الذي اختاره ورضيه وكيف يشتد صياحه ويقول:
(يا إلهي لم أسلمتني) وهو الذي أسلم نفسه، وكيف لم يخلصه أبوه مع قدرته على
 تخلصه، وإنزاله صاعقة على الصليب وأهله أم كان ربًا عاجزاً مقهوراً مع اليهود؟!
 وفيه أيضاً أن اليهود سأله أن يظهر لهم برهاناً أنه المسيح فقال: تهدمون هذا البيت

لعيسي، (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكي: ص ٦٦) وفي قاموس الكتاب المقدس: (كان الاعتقاد السائد في أواخر القرن الأول الميلادي أن هذا الإنجيل كتب في روما ووجه إلى المسيحيين الرومانين، وكتب بابوس مستندًا إلى ما استقاه من يوحنا الشيف لهذه العبارة التي اقتبسها يوسيلوس في تاريخه الكتبى: «هذا أيضًا ما قاله الشيف إن مرقس وقد كان مفسراً لبطرس ومتربماً لأرائه سجل جميع الأشياء التي تذكرها من أقوال المسيح، وأعماله، وذلك لأنه لم يسمع الرسول ولا كان من أتباعه، ولكنه اتبع بطرس فيما بعد») (قاموس الكتاب المقدس: ٢/٨٥٤).

(١) يوحنا: ٣/٣٢.

(٢) يوحنا: ٨/١٤.

(٣) متى: ٢٦/٣٨ - ٣٩ مع اختلاف في النص الحالي، وهو (فقال لهم: نفسي حزينة جداً حتى الموت... وكان يصلبي قائلًا: يا أبناء إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس).

(٤) النص في إنجيل متى (صرخ يسوع بصوت عظيم قائلًا: إيلي إيلي لما شفقتني، أي: إلهي إلهي لماذا تركتني) متى: ٣٧/٤٦.

(٥) في ب، ج، ص: اختصار إسلام.

(٦) وقع في نسخة الأصل خطأ (النصاري) وال الصحيح أنه أسلم نفسه لليهود.

يعني بيت المقدس، وأبنيه لكم في ثلاثة أيام، فقالوا له: بيت مبني في ست^(١) وأربعين سنة تبنيه أنت في ثلاثة أيام؟^(٢).

ثم ذكرتم في الإنجيل أيضاً أنه لما ظفرت به اليهود وحمل إلى بلاط عامل قيسار واستدعيت عليه بيتة أن شاهدي زور جاءوا إليه وقالا: (سمعناه يقول: أنا قادر على بناء بيت المقدس في ثلاثة أيام)^(٣) (فكيف)^(٤) يدعى أن تلك معجزته ويدعى أن الشاهدين عليه بها شاهدا زور^(٥).

وفيه أيضاً للوقا: أن المسيح قال لرجلين من تلامذته: «إذهبا إلى الحصن الذي يقابلكم فإذا دخلتماه فستجدان (فلوأ)^(٦) مربوطاً لم يركبه أحد، فحلاه وأقبلوا به إلى»^(٧) قال: وفي إنجيل متى في هذه القصة أنها كانت حماراً متبعة^(٨).

وفيه أنه قال: «لا تحسدوا أي قدّمت لأصلح بين أهل الأرض، لم آت لصالحهم لكن لأنّي المحاربة بينهم. إنما قدّمت لأفرق بين المرأة وابنه والبنت وأمهما، حتى يصير أعداء المرأة أهل بيته»^(٩) ثم فيه أيضاً: «إنما قدّمت لتحيوا وتزدادوا خيراً، وأصلح بين الناس»^(١٠) وأنه قال: «من لطم خدك الأيمن فانصب له الأخرى»^(١١)، وفيه أيضاً أنه قال:

(١) في الأصل: خمسة، وهذا لا يوافق بقية النسخ ولا النص في إنجيل يوحنا بل فيه خطأ لغوي، فال صحيح (خمس) بالذكر لأنه مع سنة المؤنة.

(٢) يوحنا: ١٨/٢ - ٢٠.

(٣) يوحنا: ١٨/٢ - ٢٠.

(٤) في إنجيل متى ما نصه: «وأخيراً تقدم شاهداً زور وقالا: هذا قال: إنّي أقدر أن انقض هيكلاً الله وفي ثلاثة أيام أبنيه» متى: ٢٦/٦٠ - ٦١.

(٥) في ب، ج، ص: فیالله العجب.

(٦) الفلؤ: المهر (مختار الصحاح: ص ٥١٢).

(٧) في النص الحالي: «... تجدان جحشاً مربوطاً لم يجعله أحد من الناس قط فحلاه واتّيا به» لوقا: ٣٠/١٩ - ٣١.

(٨) في النص الحالي «تجدان أثاناً مربوطة وجحشاً معها فحلاهما واتّيانى بهما».

(٩) متى: ٣٤/١٠ - ٣٦.

(١٠) انظر: يوحنا: ٥/٤٠ والنص (... ولا تريدون أن تأتوا إلى تكون لكم حياة).

(١١) متى: ٥/٣٩.

«طوبى لك يا شمعون (رأس الجماعة)^(١) وأنا أقول إنك الحجر، وعلى هذا الحجر تبني بيعتي، وكل ما أحملته في الأرض يكون محللاً في السماء، وما عقدته على الأرض يكون معقوداً في السماء»^(٢)، ثم فيه بعินه بعد أسطر يقول له: «اذهب عني يا شيطان ولا تعارض، فإنك جاهل»^(٣) فكيف يكون شيطان جاهل مطاع في السموات، وفي الإنجيل نص أنه «لم تلد النساء مثل يحيى»^(٤)؟

هذا في إنجيل متى وفي إنجيل يوحنا أن اليهود بعثت إلى يحيى من يكشف عن أمره (من أنت)^(٥) فهو المسيح؟ قال: لا، قالوا: أتراك الياس؟ قال: لا، قالوا: أنت النبي؟ قال: لا، قالوا: أخبرنا من أنت؟ قال: أنا صوت مناد في المفاوز^(٦)، ولا يجوز لنبي أن ينكر نبوته فإنه يكون مخبراً بالكذب.

ومن العجب أن في إنجيل متى نسبة المسيح إلى أنه ابن (يوسف)^(٧)، ثم إلى إبراهيم الخليل تسعه وثلاثين أبياً^(٨)، ثم نسبة لوقا أيضاً في إنجيله إلى يوسف، وعدّ منه إلى إبراهيم نيفاً وخمسين أبياً^(٩)، فيما هو إله تام إذ صيروه ابن الإله ثم جعلوه ابن يوسف التجار.

والمقصود أن الاضطراب في الإنجيل يشهد بأن التغيير وقع فيه قطعاً، ولا يمكن أن يكون ذلك من عند الله، بل الاختلاف (الكثير الذي فيه يدل على أن ذلك الاختلاف من عند)^(١٠) غير الله، وأنت إذا اعتبرت نسخه، ونسخ التوراة التي بأيدي اليهود والسامرة

(١) في ب، ج، ص: ابن الحمام.

(٢) متى: ١٦: ١٧ – ١٨.

(٣) والنص في الإنجيل الحالي: (فالتفت وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله) متى: ١٦/٢٣.

(٤) متى: ١١/١١.

(٥) في ب، ج، ص: فسأله من هذا.

(٦) يوحنا: ١/٣٠ – ٣٣.

(٧) في ج، ص: يوسف التجار.

(٨) متى: ١/١ – ١٧.

(٩) لوقا ٤/٢٣ – ٣٨.

(١٠) سقطت من الأصل.

والنصارى، رأيتها مختلفة اختلافاً يقطع من وقف عليه أنه من جهة التغيير والتبديل.

[التواطؤ على التحريف]

ومن المعلوم أن نسخ التوراة والإنجيل إنما هي عند رؤساء اليهود والنصارى وليس عند عامتهم، ولا يحفظونها في صدورهم كحفظ المسلمين القرآن، ولا يمتنع على الجماعة القليلة التواطؤ على تغيير بعض النسخ، (ولا سيما إذا كان بقائهم لا يحفظونها، فإذا قصد طائفة منهم تغيير نسخة أو نسخ) ^(١) عندهم، أمكن ذلك، وهذا وقع في العالم كثيراً، فهؤلاء اليهود تواطأوا وتواصوا بكتمان نبوة المسيح وجحد البشارة وتحريفها، واشتهر ذلك بين طائفتهم في مشارق الأرض وغاربها، وكذلك تواطأوا على أنه كان طيبياً ساحراً ممحزاً ابن زنية، وتواصوا به مع رؤيتيهم الآيات الباهرة التي أرسل بها، وأعلمهم أنه أبعد خلق الله مما رمي به، وشاع ما تواطأوا عليه وملأوا به كتبهم شرقاً وغرباً، وكذلك تواطأوا على أن لوطاً نكح ابنته، وأولدهما أولاداً، وشاع ذلك فيهم جميعهم. وتواطأوا على أن الله ندم وبكى على الطوفان، وغضّ أنامله، وصارع يعقوب فصرعه يعقوب، وأنه راقد عنهم، وأنهم يسألونه أن يتتبّه من رقتته وشاع ذلك في جميعهم، وكذلك تواطأوا على فصول لفقوها بعد زوال مملكتهم، يصلون بها لم تعرف عن موسى ولا عن أحد من أتباعه كقولهم في صلاتهم: «اللهم اضرب بيوق عظيم لعتنا واقضنا جميماً من أربعة أقطار الأرض إلى قدسك، سبحانك يا جامع تشتيت قومه إسرائيل».

وقولهم فيها: (اردد حكمنا) ^(٢) كالأولين ومسيرتنا كالابتداء وابن أورشليم قرية قدسك في أيامنا (كما وعدتنا) ^(٣) ببنائها، سبحانك يا باني أورشليم. ولم يكن موسى وقومه يقولون في صلاتهم شيئاً من ذلك.

وكذلك تواطؤهم على قولهم في صلاة أول العام ما حكيناه عنهم. وكذلك تواطؤهم

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ب، ج، ص: حكمانا.

(٣) في ب، ج، ص: واعزنا.

على شرع صوم إحراق بيت المقدس، وصوم (حصار)^(١) وصوم كدلبا^(٢) وفرضهم ذلك (صوما)^(٣)، وصوم صلب هامان، وقد اعترفوا بأنهم زادوها لأسباب اقتضتها، وتواطأوا بذلك على مخالفة ما نصت عليه التوراة من قوله: (لا تريدوا على الأمر الذي أنا أوصيكم به شيئاً، ولا تنقصوا منه شيئاً)^(٤) فتواطأوا على الزيادة والنقصان وتبدل أحكام الله، كما تواطأوا على (تعطيل)^(٥) فريضة الرجم على الزاني، وهو في التوراة (نصاً)^(٦)، وكذلك تواطأوا على امتناع النسخ على الله فيما شرعه لعباده تمسكاً منه باليهودية، وقد كذبتم التوراة وسائر النبوات.

ومن العجائب حجرهم على الله أن ينسخ ما شرعه لئلا يلزم البداء^(٧)، ثم يقولون إنه ندم وبكى عن الطوفان، وعاد في رأيه وندم على خلق الإنسان، وهذه مضارعة لإخوانهم من عباد الصليب الذين نزهوا رهبانهم عن الصاحبة والولد، ونسبوهما إلى الفرد الصمد.

ومن ذلك (تواطؤهم)^(٨) على الملك يعود إليهم، وترجع الملل كلها إلى ملة اليهود ويصيرون قاهرين لجميع الملل.

(١) في جميع النسخ، حسا، والصواب: حصار لأنه تذكر لحصار بيت المقدس. انظر: الملوک الثاني: ١/٢٥.

(٢) جدليا: رجل من يهودا عالي النسب أقامه نبوخذ نصر حاكماً على فلسطين، اغتاله غدرًا إسماعيل بن ثنيا من النسل الملكي بمساعدة بعض رجاله (قاموس الكتاب المقدس: ١/٢٥٣).

(٣) ذكر زكي شانوده هذه الأنواع الثلاثة من صوم اليهود فقال: وفي أيام زكريا النبي تقرر أن يصوم اليهود في الشهر الرابع والخامس والتاسع والعشر تذكاراً لحصار القدس في الشهر العاشر وسقوطها في الرابع ونحراب الهيكل في الخامس ومقتل جدلبا واليهود الذي كانوا معه في السابع (المجتمع اليهودي، شنودة: ص ٢١٢).

(٤) الثنية: ٢/٤.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) في الأصل: أيضاً.

(٧) بحثت في قسم الدراسة سألة البداء وكيف أن اليهود رفضوا النسخ كي لا يلزم البداء، وبينت الفرق بينهما.

(٨) سقطت من ج.

ومن ذلك تواطؤهم على تعطيل أحكام التوراة وفرائضها، وتركها في جل أمورهم إلا يسير من ذلك، وهم معترفون بذلك، وأنه أكثر أسباب زوال ملكهم وعزهم، فكيف ينكر من طائفة تواطأت على تكذيب المسيح، وجحد نبوته، وبهته وبهت أمه والكذب الصريح على الله وعلى أنبيائه وتعطيل أحكام الله والاستبدال بها وعلى قتلهم أنبياء الله^(١)، أن يتواطأوا على تحريف بعض التوراة، وكتمان نعمت رسول الله ﷺ وصفته فيها.

وأما أمة الضلال وعباد الصليب والصور المزروقة في الحيطان، وإخوان الخنازير وشاتمها خالقهم ورائزهم أصبح شتم، وجاعلوه مصفعه اليهود، وتواطؤهم على ذلك، وعلى ضروب المستحيلات، وأنواع الأباطيل، فلا إله إلا الله الذي أبرز إلى الوجود مثل هذه الأمة التي هي أضل من الحمير، ومن جميع الأنعام السائمة، وخلي بينهم وبين سبّه وشتمه وتکذيب عبده ورسوله، (ومعاداته)^(٢) حزبه وأوليائه، وموالاة الشيطان والتعوش بعبادة الصور والصلبان عن عبادة الرحمن، وعن قول الله أكبر بالصلب على الوجه، وعن قراءة الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، «اللهم اعطنا خبرنا (كفافنا)^(٣) الملائم، وعن السجود للواحد القهار السجود للصورة المدهونة في الحائط بالأحمر والأصفر والأزرق^(٤)»، فهذا بعض شأن (هاتين الأمتين اللتين عندهما آثار النبوة والكتاب، مما لظن بسائر)^(٥) الأمم الذين ليس عندهم من النبوة والكتاب حس ولا خبر ولا عين ولا أثر!

[المسألة الرابعة]

قال السائل:

فإن قلت: إن عبد الله بن سلام وشعب الأخبار ونحوهما شهدوا لنا بذلك من كتبهم، فهلاً أتى ابن سلام وأصحابه الذين أسلموا بالنسخ التي لهم كي تكون شاهدة علينا؟
والجواب من وجوه:

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ج: وتکذيب.

(٣) ليست في ب، ج، ص.

(٤) في ج: الأزرق وفي الأصل: والأزرق.

(٥) سقطت من الأصل.

أحداها: أن شواهد النبوة وآيتها لا تتحصر فيما عند أهل الكتاب من (نعت)^(١) النبي وصفته، وشواهدها متعددة جداً، وصفته ونعته في الكتب المتقدمة فرد من أفرادها.

وجمهور أهل الأرض لم يكن إسلامهم عن الشواهد والأخبار التي في كتبكم، وأكثراهم لا يعلمونها ولا سمعوها بل أسلموا للشواهد التي عاينوها، والآيات التي شاهدوها وجاءت تلك الشواهد التي عند أهل الكتاب مقوية وعاضدة من باب تقوية البنية، وقد تم النصاب بدونها، فهو لاء العرب من أولهم إلى آخرهم (لم يتوقف إسلامهم)^(٢) على معرفة ما عند أهل الكتاب من الشواهد، وإن كان ذلك قد بلغ بعضهم وسمعه منهم قبل النبوة وبعدها، كما كان الأنصار يسمعون من اليهود صفة النبي ﷺ (وبعثه)^(٣) ومخرجه، فلما عاينوه وأبصروه عرفوه بالنعت الذي أخبرهم به اليهود فسبقوهم إليه، فشرق أعداء الله بريقهم (وعصوا بمايهم)^(٤) وقالوا: ليس هو الذي كنا نعدكم به.

والعلم بنبوة محمد والمسيح وموسى لا يتوقف على العلم (بأن من قبلهم أخبرهم وبشر بنبوتهم ، بل طرق العلم)^(٥) بها متعددة فإذا عرفت نبوة النبي ﷺ بطريق من الطرق تثبت نبوته ووجب اتباعه وإن لم (يعلم أن)^(٦) من قبله بشر به ، وإذا علمت نبوته بما قام عليها من البراهين ، فإذا أن يكون تبشير من قبله به لازماً لنبوته ، وإنما أن لا يكون لازماً ، فإن لم يكن لازماً لم يجب وقوعه (ولا)^(٧) يوقف تصديق النبي عليه ، بل يجب تصديقه بدونه ، وإن كان لازماً علم قطعاً أنه قد وقع ، وعدم نقله إلينا لا يدل على عدم وقوعه ، إذ لا يلزم من وجود الشيء نقله العام ولا الخاص ، وليس كل ما أخبر به (موسى)^(٨) والمسيح

(١) في الأصل: بعث.

(٢) في الأصل: لم تتوقف.

(٣) في ص: ونعته.

(٤) في نسخة الأصل ، ص: وغضوا بمايهم ، وفي ب ، ج: وعصوا بمايهم .

(٥) سقطت من ص.

(٦) في ص: يكن.

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) ورد سهواً في جميع النسخ : تعالى ، والصواب: موسى لأنه قال: وغيرهما من الأنبياء ، وسياق الكلام عما جاء به موسى وعيسي .

وغيرهما من الأنبياء المتقدمين وصل إلينا، وهذا مما علم بالاضطراد فلو (قدّر)^(١) أن البشارة بنبوته ﷺ ليست في الكتب الموجودة بآيديكم، لم يلزم أن لا يكون (غيره)^(٢) بشر به ولم ينفك، ويمكن أن يكون في كتب غير هذه المشهورة المتداولة بينكم، فلم تزل عند كل أمة كتب لا يطلع عليها إلا بعض خاصتهم، فضلاً عن جميع عامتهم، ويمكن أنه كان في بعضها فأزيد منه وبدل ونسخت النسخ من هذه التي (قد بدللت)^(٣) واشتهرت، بحيث لا يعرف غيرها، واختفى أمر تلك النسخ الأولى، وهذا كله ممكّن، لا سيما من الأمة التي تواطأت على تبديل دين نبيها وشريعته، هذا كله على تقدير عدم البشارة به في شيء من كتبهم أصلاً، ونحن قد ذكرنا من البشارات به في كتبهم ما لا يمكن من (يعرفه)^(٤) منهم جحده والمكابرة فيه، وإن أمكنتهم المغالطة بالتأويل عند رعاهم وجهالهم.

الوجه الثاني: أن عبد الله بن سلام قد قابل اليهود ووافقهم بين يدي رسول الله ﷺ على أن ذكره ونعته وصفته في كتبهم، وأنهم يعلمون أنه رسول الله وقد شهدوا بأنه أعلمهم وابن أعلمهم (وخيرهم وابن خيرهم فلم يضر قولهم بعد ذلك أنه شرهم وابن شرهم وابن جاهلهم)^(٥)، كما إذا شهد على رجل (شاهد)^(٦) عند الحاكم فسأله عنه فعدله وقال: إنه مقبول الشهادة عدل رضى لا يشهد إلا بالحق وشهادته جائزة عليّ، فلما أدى الشهادة قال: إنه كاذب شاهد زور، ومعلوم أن هذا لا يقبح في شهادته، وأما كعب الأخبار فقد ملا الدنيا من الأخبار بما في النبوات المتقدمة من البشارة به، وصرّح بها بين أظهر المسلمين واليهود والنصارى، وأذن بها على رؤوس الملا، وصدقه مسلمو أهل الكتاب عليها، وأخبروا على ما أخبر به، فإنه كان أوسعهم علمًا في كتب الأنبياء، وقد كان الصحابة يمتحنون ما ينقله ويزنونه بما (يعرفون)^(٧) صحته، فيعلمون صدقه، وشهدوا

(١) في الأصل: قدمه.

(٢) في ب، ج، ص: المسيح وغيره.

(٣) في ب، ج، ص: قد غيرت.

(٤) في ص: له أدنى معرفة وفي ب، ج: له معرفة.

(٥) سقطت من الأصل، وفي ج: وحرّهم بدل خيرهم.

(٦) سقطت من ج.

(٧) في ب، ج، ص: يعرفهم.

له بأنه أصدق (من) ^(١) يحكون لهم عن أهل الكتاب أو من أصدقهم.

ونحن اليوم نوب عن عبد الله بن سلام، (وقد وجدنا) ^(٢) هذه البشارات في كتبكم، وهي شاهدة لنا عليكم، والكتب بأيديكم فأتوا بها فاتلوها إن كنتم صادقين.

وعندنا ممن وفقة الله للإسلام منكم من يوافقكم ويقابلكم ويحققكم عليها، وإنما فاشهدوا على أنفسكم بما شهد الله وملائكته وأنبياؤه ورسله وعباده المؤمنون به عليكم من الكفر والتكذيب والجحود للحق ومعاداة الله ورسوله.

والوجه الثالث: أنه لو أتاكم عبد الله بن سلام بكل نسخة متضمنة لغاية البيان والصراحة لكان في بهتكم وعندكم وكذبكم ما يدفع في (وجوهها) ^(٣) ويحرفها أنواع التحريف ما وجد إليه سبيلاً، فإذا جاءكم ما لا قبل لكم به قلتم ليس به، ولم يأت بعد، وقلتم: نحن لا نفارق حكم التوراة، ولا نتبع نبي الأميين، وقد صرخ أسلافكم الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعاينوه أنه رسول الله حقاً، وأنه (المبشر به) ^(٤) الموعود به على ألسنة الأنبياء المتقدمين، (وثم) ^(٥) من قال له منهم في وجهه: نشهد أنك نبي، فقال: ما يمنعكما من اتباعي؟ قالا: إنا نخاف أن تقتلنا يهود ^(٦)، وقد قال تعالى: «إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم» ^(٧).

وقد جاءكم آيات هي أعظم من بشارات الأنبياء به وأظهر، بحيث إن كل آية منها يصلح أن يؤمن على مثلها البشر، فما زادكم ذلك إلا نفوراً وتكذيباً وإباء لقبول الحق، فلو أنزل إليكم ملائكته (وكلمكم الموتى، وشهد له بالنبوة كل رطب ويباس) ^(٨) لغلبت عليكم الشفاعة وصرتم إلى ما سبق لكم في أم الكتاب. وقد رأى من كان أعقل منكم وأبعد من

(١) في ب، ج، ص: الذين.

(٢) في الأصل، ج، ص: وقد وجدناكم.

(٣) في ب، ج: وجهها.

(٤) سقطت من ج.

(٥) في ب، ج، ص: وقال.

(٦) في ج: يغلبنا اليهود.

(٧) سورة يونس: الآياتان ٩٦، ٩٧.

(٨) سقطت من الأصل.

الحسد من آيات الأنبياء ما رأوا، وما زادكم ذلك إلا تكذيباً وعناداً، فأسلافكم وقدوتكم في تكذيب الأنبياء من الأمم لا يحصيهم إلا الله، حتى كأنكم تواصيتم بذلك، أوصى به الأول للآخر واقتدى به الآخر بالأول، قال تعالى : ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغِيونَ﴾^(١) وهبنا أنا ضربنا من أخبار الأنبياء المتقدمين به صفحات أفاليس في الآيات والبراهين التي ظهرت على يديه ما يشهد لصحة نبوته؟ وسنذكر منها بعد الفراغ من الأجرمية طرفاً يقطع المعندة ويقيم العجة والله المستعان.

**

(١) سورة الذاريات: الآياتان ٥٢، ٥٣.

[المسألة الخامسة]

(فصل): قال السائل:

إنكم نسبتم الأمتين العظيمتين المذكورتين إلى اختيار الكفر على الإيمان للغرض المذكور، فابن سلام وأصحابه أولى بذلك الغرض لأنهم قليلون جداً وأضداده كثيرون لا يحصيهم عدد. والجواب من وجوه:

أحدها: أنه قد بينا أن جمهور هاتين الأمتين آمن به وصدقه وقد كانوا ملء الأرض، وهذه الشام ومصر وما (جاورهما)^(١) واتصل بهما من أعمالها والجزيرة والموصل وأعمالها وأكثر بلاد المغرب وكثير من بلاد المشرق، كانوا كلهم نصارى فأصبحت هذه البلاد كلها مسلمين، (ومختلف)^(٢) من هاتين الأمتين عن الإيمان أقل القليل، بالإضافة إلى من آمن به وصدقه، وهؤلاء عباد الأوثان كلهم أطبقوا على الإسلام إلا من كان منهم في أطراف الأرض، بحيث لم تصل إليه الدعوة (وهذه أمة المجوس توازي هاتين الأمتين كثرة وشوكه وعدد)^(٣) دخلوا في دينه، وبقي من بقي منهم كما بقيتمن أنت تحت الذلة والجزية.

الثاني: أنا قد بينا أن الغرض الحامل لهم على (هذا الأمر)^(٤) ليس هو مجرد المأكلة والرئاسة وإن (كان)^(٥) من جملة الأغراض، بل منهم من حمله على ذلك، ومنهم من حمله الحسد، ومنهم من حمله الكبر، ومنهم من حمله الهوى، (ومنهم من حمله

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في الأصل، ج: والمختلف.

(٣) في الأصل: وعدد كثير.

(٤) في ب، ج، ص: الكفر.

(٥) في الأصل: ذلك.

محبة الآباء والأسلاف وحسن الطن بهم)^(١)، ومنهم من حمله (محبة)^(٢) ألغى للدين الذي نشأ عليه، فجبن بطبعه، فصار انتقاله عنه كمفارقة الإنسان ما طبع عليه، وأنت ترى هذا السبب كيف هو الغالب المستولي على أكثربني آدم في إشارتهم ما اعتادوه من المطاعم والمشابب والملابس والمساكن والديانات على ما هو خير منه وأوفق بكثير.

ومنهم من حمله (التقليد والجهل)^(٣) (وهم الأتباع الذين ليس لهم علم، ومنهم من حمله الخوف)^(٤) من فوات محظوظ أو حصول مرهوب، فلم ينس هاتين الأمتين إلى الغرض المذكور وحده؟

الثالث: أنا قد بينا أن الأمم الذين كانوا (عليهم)^(٥) كانوا أكثر عدداً وأغزر عقولاً منهم، وكلهم اختار العمى على الهدى، والكفر على الإيمان بعد البصيرة، فلهاتين الأمتين سلف كثير وهم أكثر الخلق.

الرابع: أن عبد الله بن سلام (ومن دونه)^(٦) إنما أسلموا في وقت شدة من الأمر وقلة من المسلمين وضعف وحاجة، وأهل الأرض مطبقون على عداوتهم، و(اليهود)^(٧) والمرشكون هم أهل الشوكة والعدة والحلقة والسلاح، ورسول الله ﷺ وأصحابه إذ ذاك قد أتوا إلى المدينة، وأعداؤهم يطلبونهم في كل وجه، وقد بدلو الرغائب لمن جاءهم بهم، فخرج رسول الله ﷺ وصاحبه وخادمهم (واستخفوا ثلاثة)^(٨) في الغار تحت الأرض، ثم خرجوا بعد ثلاثة على غير الطريق إلى أن قدموا المدينة، والشوكة والعدة فيها لليهود والمرشكين، فأسلم عبد الله بن سلام حين مقدم النبي ﷺ المدينة، لما رأى أعلام النبوة التي يعرفها وشاهدها فيه، وترك الأغراض التي منعت المغضوب عليهم من

(١) سقطت من الأصل ومن ص.

(٢) سقطت من ب، ج.

(٣) سقطت من ج.

(٤) سقطت من ج والأصل.

(٥) في ج: قبلهم وفي الأصل: عليه.

(٦) في ب، ج، ص: وذويه.

(٧) في ب، ج: واليهود والنصارى.

(٨) سقطت من ج.

الإسلام، من الرئاسة والمال والجاه بينهم، وقد شهدوا له كلهم عند رسول الله ﷺ أنه رئيسهم وخيرهم وسيدهم، فعلم أنهم إن علموا بإسلامه أخرجوه من تلك الرئاسة والسيادة، فأحب أن يعلم رسول الله ﷺ بذلك فقال: أدخلني بعض بيوتكم وسلمهم عنى فعل، وسألهم عنه فأخبروه أنه سيدهم ورئيسهم وعالهم، فخرج عليهم ذكرهم ووقفهم على أنهم يعلمون أنه رسول الله، وقابلهم بذلك فسبيه وقد حروا فيه وأنكروا رئاسته وسيادته وعلمه^(١).

فلو كان عبد الله بن سلام ممن يؤثر عرض الدنيا والرئاسة لفعل كما فعله إخوان القردة وأمة الغضب والقوم البهت. وهكذا شأن من أسلم من يهود خير.

وأما (المختلفون)^(٢) فكثير منهم صرخ بغضه لخاسته وعامته، وقال: إن هؤلاء القوم قد^(٣) عظمونا ورأسونا وملكونا، ولو اتبناه لنزعوا ذلك كله منا، وهذا قد رأينا نحن في زماننا وشاهدناه عياناً، ولقد ناظرنا بعض علماء النصارى معظم يوم، فلما تبين له الحق بهت فقلت له – وأنا وهو خاليان – ما يمنعك الآن من اتباع الحق؟ فقال لي: (إذا)^(٤) قدمت على هؤلاء الحمير – هكذا لفظه – فرشوا (الشقاق)^(٥) تحت حوافر دابتي، وحكموني في أموالهم ونسائهم، ولم يعصوني فيما أمرهم به، وأنا لا أعرف صنعة، ولا أحفظ قرآنًا، ولا نحوًا ولا فقهاً ولو أسلمت لدرت في الأسواق أتكفف الناس، فمن الذي يطيب نفساً بهذا؟ فقلت له: هذا لا يكون، وكيف تظن بالله أنك لو (أسلمت)^(٦) وأثرت رضاه على هواك يحزنك ويذلك ويحوجك، ولو فرضنا أن ذلك أصحابك بما ظفرت به من الحق والنجاة من النار ومن سخط الله وغضبه، فيه أتم العوض عمما فاتك. فقال: حتى يأذن الله، فقلت: والقدر لا يحتاج به، ولو كان القدر حجة لكان حجة لليهود على

(١) قصة عبد الله بن سلام هذه مرت.

(٢) في الأصل: المختلفون.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في الأصل إذ.

(٥) في الأصل: الشقاق، وقد تكون (الشقاف بالفاء والشقاف: الخزف المكسر، لسان العرب: ١٨٣/٩) أو الشقاق كما في نسخة ج جمع الشقة وهي قطعة من الثياب مستطيلة (انظر: المعجم الوسيط).

(٦) سقطت من ب، ج، ص.

تكذيب المسيح ، وحججة للمشركين على تكذيب الرسل ، ولا سيما أنتم تكذبون بالقدر ،
فكيف تتحجج به؟ فقال : دعنا الآن من ذلك وأمسك .

الخامس : أن جوابك في نفس سؤالك فإنك (اعترفت)^(١) أن عبد الله بن سلام
وذويه كانوا قليلين جداً وأصدادهم لا يحصون كثرة ، وملعون أن الغرض الداعي لموافقة
الجمهور الذين لا يحصون كثرة ، وهم أولو القوة والشوكة أقوى من الغرض الداعي لموافقة
الأقلين المستضعفين والله الموفق .

**

(١) في ب، ج، ص: أعطيت.

[المسألة السادسة]

(فصل): قال السائل:

تدخل علينا الريبة من جهة عبد الله بن سلام وأصحابه، وهو أنكم قد بنتم أكثر (أساس)^(١) شريعكم في الحلال والحرام والأمر والنهي على أحاديث عوام من الصحابة، الذين ليس لهم بحث في علم ولا دراسة ولا كتابة قبل مبعث نبيكم، فإن سلام وأصحابه أولى أن تأخذ بأحاديثهم ورواياتهم؛ لأنهم كانوا أهل علم وبحث ودراسة وكتابة، قبل مبعث نبيكم وبعده، ولا تراكم ترورو عنهم من الحلال والحرام والأمر والنهي إلا شيئاً يسيراً جداً وهو ضعيف عندكم.

والجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا بهت من قائله، فإننا لم نبن أساس شريعتنا في الحلال والحرام والأمر والنهي إلا على كتاب ربنا المجيد، الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٢) (الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ) الذي تحدي به الأمم كلها – على اختلاف علومها وأجناسها وطبائعها وهو غاية الضعف وأعداؤه طبق الأرض – أن يعارضوه بمثله فيكونوا أولى بالحق منه، ويظهر كذبه وصدقهم، فعجزوا عن ذلك، فتحداهم (بأن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا)^(٤) فتحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا.

هذا وأعداؤه (الأدنون)^(٥) منه أفسح الخلق، وهم أهل البلاغة والفصاحة واللسان

(١) سقطت من الأصل.

(٢) سورة الشورى: الآية ٤٢.

(٣) سقطت من ج.

(٤) سقطت من ص.

(٥) في ب: الأذلون وفي ج: الأذيون، والصواب: الأدنون بمعنى الأذربون وهم العرب.

والنظم والنشر والخطب وأنواع الكلام، فما منهم من فاه في معارضته بنت شفة، وكانوا أحقر الناس على تكذيبه وأشدتهم أذى له بالقول والفعل والتنفير عنه بكل طريق، فما (تفرد)^(١) أحد منهم عنه بسورة واحدة إلا مسيلمة الكذاب^(٢) بمثل (قوله: يا ضفدع بنت ضفدعين نقى كم تنتقين ، لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدررين)، ومثل «الطاحنات طحناً والعاجنات عجناً، فالخابزات خبزاً، إهالة وسمنا»^(٣) وأمثال ذلك من هذه الألفاظ التي هي باللغة أهل المجنون، والمعتوهين أشبه منها باللغة العقلاء، فالمسلمون إنما بنوا أساس دينهم^(٤) ومعالم حلالهم وحرامهم على الكتاب الذي لم ينزل من السماء كتاب أعظم منه، فيه بيان كل شيء، وتفصيل كل شيء، وهدى ورحمة وشفاء لما في الصدور، به هدى الله رسوله وأمته فهو أساس دينهم.

[علم الصحابة وفضلهم]

الثاني: أن قولكم إن المسلمين بنوا أساس دينهم على روایة عوام من الصحابة من أعظم البهتان وأفحش الكذب، فإنهم وإن كانوا (أمينين)^(٥) قد بعث الله فيهم رسوله، زكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة، وفضلهم في العلم والهدى، والمعارف الإلهية، والعلوم النافعة المكملة للنفوس على جميع الأمم ، فلم تبق أمة من الأمم تدانيهم في فضلهم وعلومهم وأعمالهم ومعارفهم ، ولو قيس ما عند جميع الأمم من معرفة وعلم وهدى وبصيرة إلى ما عندهم لم يظهر له نسبة إليه بوجه ما ، وإن كان غيرهم من الأمم أعلم بالحساب والهندسة والكم المتصل والكم المنفصل ، والنبع^(٦) والقارورة^(٧) والبول

(١) في ح، ص: يقرّ وفي ب: نفو.

(٢) مسيلمة الكذاب، هو مسيلمة بن ثامة الحنفي الواثلي، متبنيء من المعمريين ولد باليمنة، تباً زمن رسول الله ﷺ، وقتل في حروب الردة سنة ١٢ هـ (الأعلام، الزركلي : ٢٢٦/٧).

(٣) الإهالة: ما أذبَت من الشحم وقيل: الشحم والزيت، وقيل كل دهن أؤتدم به إهالة (لسان العرب) وقد ذكر ابن كثير هذه الأقوال عن مسيلمة، في البداية وال نهاية: ٣٢٦/٦.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) في الأصل: أمنين.

(٦) النبع: ضربات الشريان من انقباضات القلب يستدل على حالة الجسم من صحة ومرض، يقال: جس الطبيب نبضه (المعجم الوسيط).

(٧) القارورة: وعاء.

و (القسطة)^(١)، وزن الأنهر، ونقوش الحيطان، ووضع الآلات العجيبة، وصناعة الكيماء، وعلم الفلاحة، وعلم الهيئة وتسيير الكواكب، وعلم الموسيقى والألحان، وغير ذلك (من العلوم)^(٢) التي هي بين علم لا ينفع، وبين ظنون كاذبة، وبين علم نفعه في العاجلة وليس من زاد المعاد، فإن أردتم أن الصحابة كانوا عواماً في هذه العلوم فنعم إذاً وتلك شكاية ظاهر (عنك)^(٣) عارها.

وإن أردتم أنهم كانوا عواماً في العلم بالله وأسمائه وصفاته، وأفعاله وأحكامه، ودينه وشرعه وتفاصيله، (والليوم الآخر وتفاصيله)^(٤)، وتفاصيل ما بعد الموت، وعلم سعادة النفوس وشقاوتها، وعلم صلاح القلوب وأمراضها، فمن بهت نبيهم بما بهته به وجحد نبوته ورسالته التي هي للبصائر أظهر من الشمس للأبصار، لم ينكر له أن يهت أصحابه، ويوجهن فضلهم ومعرفتهم، وينكر ما خصهم الله به، وميزهم على من قبلهم، ومن هو كائن بعدهم إلى يوم القيمة، (وقد كان الحواريون الذين نقلوا لأتباع المسيح معالم دينه، وسيرة المسيح، لا يعلمون شيئاً من ذلك، حتى من الله بال المسيح وشاهدوا ما خصه الله به من الآيات وأظهروه على يده من المعجزات، وكمل نفوسيهم بالعلوم الإلهية والفضائل النسانية، فصاروا يفعلون ما نقله الجم الغفير إلينا عنهم من العجائب ويدونون العلوم، كل ذلك ببركته، وكذلك هؤلاء أعني الصحابة رضي الله عنهم)^(٥)، وكيف يكونون عواماً في ذلك وهم أذكي الناس فطرة وأزكاهم نفوساً، وهو يتلقونه غضاً طرياً ومحضاً لم يشب عن نبيهم، وهو أحرص الناس عليه، وأشوقهم إليه، وخبر السماء يأتيهم على لسانه في ساعات الليل والنهار والحضر والسفر، وكتابهم قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين،

(١) ب، ج: الفاطح وفي ص: القبطة، والقسطة لم أجدها معنى، وقد تكون القسطرة وهي أبوبة من المطاط تدخل في مجرى البول لفرغ المثانة انظر: المعجم الوسيط، أو تكون القسط وهي مكيال للدواء، كان يستعمله الصيادلة العرب (انظر: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب،

د. محمد كامل حسين: ٣٦٨).

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) في الأصل: عنهم.

(٤) سقطت من ص.

(٥) سقطت من ب، ج، ص.

وعلم ما كان من (المبدأ)^(١)، وتخليق العالم، وأحوال الأمم الماضية، والأنبياء وسيرهم وأحوالهم مع أئمهم ودرجاتهم ومنازلهم عند الله، وعدهم وعدد المرسلين منهم، وذكر كتبهم وأنواع العقوبات التي عذب الله بها أعداءهم، وما أكرم به أنبيائهم، وذكر الملائكة وأصنافهم وأنواعهم، وما وكلوا به واستعملوا فيه، وذكر اليوم الآخر وتفاصيل أحواله وذكر الجنة وتفاصيل نعيمها والنار وتفاصيل عذابها، وذكر البرزخ وتفاصيل (أحوال الخلق)^(٢) فيه، وذكر أشراط الساعة، والإخبار بها مفصلاً بما لم يتضمنه كتاب غيره من حين قامت الدنيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما أخبر به المسيح عنه من قوله في الإنجيل وقد بشرهم به فقال: (وكل شيء أعده الله لكم يخبركم به)^(٣) وفي موضع آخر منه: ويخبركم بالحوادث والغيوب^(٤)، وفي موضع آخر: «ويعلمكم كل شيء»^(٥)، وفي موضع آخر: «يعطي لكم الأسرار ويفسر لكم كل شيء وأجيئكم بالأمثال، وهو يجيئكم بالتأويل»^(٦) وفي موضع آخر: «إن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم، ولكنكم لا تستطعون حمله، لكن إذا جاء روح الحق ذاك يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبر بكل ما يأتي ويعرفكم جميع ماللاب»^(٧) فمن هذا علمه (بشهادة)^(٨) المسيح، وأصحابه (يتلقنون)^(٩) ذلك جميعه عنه، وهم أذكي الخلق وأحفظهم وأحرصهم، كيف تدانيهم أمة من الأمم في هذه العلوم (والمعارف)^{(١٠)؟!}

ولقد صلى رسول الله ﷺ يوماً صلاة الصبح، ثم صعد المنبر فخطبهم حتى حضرت الظهر، ثم نزل وصلى، وصعد فخطبهم حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى (وصعد)^(١١)

(١) في ص: المبدأ والمعاد.

(٢) في ج: أحوالهم.

(٣) يوحنا: ١٣/١٦.

(٤) يوحنا: ١٣/١٦.

(٥) يوحنا: ١٣/١٦ (ويرشدكم إلى جميع الحق).

(٦) يوحنا: ٣٥/١٦.

(٧) يوحنا: ١٢/١٦ - ١٣ - ١٤.

(٨) في الأصل: بشاهده.

(٩) في الأصل: يتلقنون.

(١٠) سقطت من ج.

(١١) سقطت من ص والأصل.

وخطبهم حتى حضرت المغرب، فلم يدع شيئاً إلى قيام الساعة إلا أخبرهم به (فكان أعلمهم أحفظهم)^(١) وخطبهم مرة أخرى^(٢) فذكر بهذه الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم^(٣).

وقال يهودي لسلمان: «لقد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة، قال: أجل»^(٤) فهذا اليهودي كان أعلم بنبينا من هذا السائل وطائفته.

وكيف يدعى في أصحاب نبينا أنهم وهذه العلوم الناقصة المنشورة في الأمم على كثرتها (واتساعها وتفنن ضرورتها)^(٥) إنما هي عنهم مأخوذة، ومن كلامهم وفتاويمهم مستتبطة. وهذا عبد الله بن عباس كان (من صبيانهم)^(٦) وفتياهم وقد طبق الأرض علماء، وبلغت فتاويه نحواً من ثلاثين سفراً، وكان بحراً (لا يتزلف)^(٧) لونزل به أهل الأرض لوعهم علماء، وكان إذا أخذ في الحلال والحرام والفرائض يقول القائل: لا يحسن سواه (إذا أخذ في تفسير القرآن ومعانيه يقول السامع: لا يحسن سواه)^(٨)، فإذا أخذ في السنة والرواية عن النبي ﷺ يقول القائل: لا يحسن سواه، فإذا أخذ في الفصوص وأخبار الأمم وسير الماضين فكذلك، فإذا أخذ في أنساب العرب وقبائلها وأصولها وفروعها فكذلك، فإذا (أخذ)^(٩) في الشعر والغريب فكذلك.

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الفتنة: ٦/٢٨٩٢.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب بهذه الخلق: ١/٣١٩٢.

وتمام الحديث عنده: (حفظ ذلك من حفظه ونسقه من نسيه).

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن سلمان (الطهارة: ٥٧/٢٢٦) لكن الرواية لا تذكر أن القائل يهودي، بل النص عند مسلم عن سلمان قالا: قيل له، وفي رواية أخرى لمسلم عن سلمان قال: قال لنا المشركون.

(٥) في الأصل: واشتياها ونفي ضررها.

(٦) في ج: من أولاد الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

(٧) في ب، والأصل: يتزلف والصواب: لا يتزلف لأن النزف هو النزح وأنزف القوم إذا انقطع شرابهم (لسان العرب).

(٨) سقطت من ج.

(٩) سقطت من ج.

قال مجاهد^(١): العلماء أصحاب رسول الله ﷺ، وقال فنادة في قوله تعالى : «وَيُرِي
الَّذِينَ أَتَوْا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ»^(٢) قال : هم أصحاب
محمد ﷺ^(٣).

ولما حضر معاذاً الموت قيل له أوصنا ، قال : أجلسوني (فأجلسوه)^(٤) فقال : إن
الإيمان والعلم (بمكانتهما ، من اتبعهما وجدهما التمسوا العلم)^(٥) عند أربعة رهط : عند
عويمر أبي الدرداء^(٦) ، وعند سلمان الفارسي ، وعند عبد الله بن مسعود^(٧) ، وعند
عبد الله بن سلام ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول إنه عاشر عشرة في الجنة^(٨) .

قال أبو إسحق السبيعي^(٩) : قال عبد الله : علماء الأرض ثلاثة : رجل بالشام ، وأخر
بالكوفة وأخر بالمدينة ، فأما هذان فيسلان الذي بالمدينة ، والذي بالمدينة لا يسألهما عن
شيء .

(١) هو مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج المكي ، مولى بنى مخزوم ، تابعي مفسر ، قال الذهبي : هو شيخ القراء والمفسرين ، أخذ التفسير عن ابن عباس ، فرأه عليه ثلاث مرات وتنقل في الأسفار واستقر بالكوفة ، توفي سنة ١٠٤ هـ (انظر الأعلام ، الزركلي : ٢٧٨ / ٥) .

(٢) سورة سيا : الآية ٦ .

(٣) انظر : تفسير الطبرى ٤٤ / ٢٢ .

(٤) ليست في ب ، ج ، ص .

(٥) سقطت من صن والأصل .

(٦) عويمر أبو الدرداء : اختلف في اسمه فقيل عامر ، وعويمر لقب ، واختلف في اسم أبيه فقيل عامر أو مالك أو ثعلبة ، وأبوه أبو قيس بن أمية بن عامر الأنصاري الخزرجي أسلم يوم بدر وشهد أحداً وأبلى فيها ، قال ابن حبان : ولاد معاوية قضاء دمشق في خلافة عمر ، ومات في خلافة عثمان (الإصابة : ٧٤٨ / ٤) .

(٧) عبد الله بن مسعود بن غافل ... بن هذيل بن مخزمه ، أبو عبد الرحمن الهنلي حليفبني زهرة ، كان إسلامه قديماً في أول الإسلام ، وله مناقب كثيرة ، وكان من أعلم الصحابة بالقرآن وهو الذي قتل أبا جهل يوم بدر ، مات بالمدينة سنة ثنتين وثلاثين ، وكان ابن بضم وستين سنة (الاستيعاب : ٩٨٧ / ٣) .

(٨) الاستيعاب : ١٢٢٨ / ٣ وأخرجه الترمذى في المناقب : ٣٨٠٦ .

(٩) أبو إسحق السبيعي : هو أبو إسحق عمرو بن عبد الله السبيعي الهمذاني الكوفي من أعيان التابعين ولد لثلاث سنين بقين من خلافة عثمان وتوفي سنة تسع وعشرين وقيل سبع وعشرين وقيل ثمان وعشرين ومائة (وفيات الأعيان ٤٥٩ / ٣) .

وقيل لعلي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه ورضي الله عنه: حدثنا عن أصحاب رسول الله ﷺ قال: عن أيهم؟ قالوا عن عبد الله بن مسعود، قال: قرأ القرآن، وعلم السنة، ثم انتهى وكفاه ذلك، قالوا: فحدثنا عن حذيفة؟ قال: أعلم أصحاب محمد بالمنافقين، قالوا: فأبو ذر؟ قال: (كنيف)^(١) مليء علمًا، عجز فيه، قالوا: فعمّار؟ قال: مؤمن نسيء إذا ذكره ذكر، خلط الله الإيمان بلحمه ودمه، ليس للنار فيه نصيب، قالوا: فأبُو موسى؟ قال: صبغ في العلم صبغة. قالوا: فسلمان؟ قال: علم (العلم)^(٢) الأول والآخر، بحر لا ينزع، (منا)^(٣) أهل البيت، قالوا: فحدثنا عن نفسك يا أمير المؤمنين؟ قال: إياها أردتم، كنت إذا سألت أعطيت وإذا سكت ابتدئت^(٤).

وقال مسروق^(٥): شافهت^(٦) أصحاب محمد ﷺ فوجدت علمهم ينتهي إلى ستة، إلى: علي وعبد الله وعمر وزيد بن ثابت وأبي الدرداء وأبي بن كعب، ثم شافهت الستة، فوجدت علمهم ينتهي إلى علي وعبد الله^(٧).

وقال مسروق: جالست أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا كالأخاذ^(٨)، والأخاذ يروي الراكب والأخاذ يروي الساكين والأخاذ (يروي)^(٩) العشرة لونزل به أهل الأرض

(١) في ج: كيف وفي ب: كتف. والكنيف: تصغير تعظيم للكتف وهو الوعاء (انظر: النهاية في غريب الحديث: ٤٠٥ / ٤).

(٢) سقطت من ج.

(٣) في الأصل: عنا.

(٤) لم أجده.

(٥) مسروق: تابعي ثقة من أهل اليمن قدم المدينة أيام أبي بكر وسكن الكوفة وشهد حروب علي، وكان أعلم بالفتيا من شريح، وشريح أبصر منه بالقضاء توفي رحمه الله سنة ٦٣هـ (الأعلام للزرکلي: ٢١٥ / ٧).

(٦) في ص: شامت، وهي هكذا في صفة الصفة وشامت من الشمم وهو الدنو والقرب، شامت الرجل إذا قاربته ودنوت منه، ويقال: شام فلاناً أي انظر ما عنده (انظر: لسان العرب).

(٧) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفة: ١ / ٤٣.

(٨) الأخاذ: جمع إخادة وهي شيء كالغدير (مختار الصحاح: ص ٩) وقال ابن الأثير: الأخاذ هو مجتمع الماء وجمعه أخذ كتاب وكتب، وقيل هو جمع الإخادة وهو مصنع للماء يجتمع فيه (انظر النهاية: ١٢٨ / ١).

(٩) سقطت من ج.

لأصدرهم، وإن عبد الله من ذلك الأخذاد^(١).

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: (بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه، حتى أری الری يخرج من أظفاری، ثم (أعطيت) فضلي عمر، فقالوا: ما أوّلت ذلك يا رسول الله، قال: العلم)^(٢).

وقال عبد الله^(٣): (إني لأحسب عمر)^(٤) قد ذهب بتسعة أعشار العلم^(٥)، وقال عبد الله^(٦): (لو أن)^(٧) علم عمر بن الخطاب وضع.

وقال حذيفة بن اليمان^(٨): كأن علم الناس مع علم عمر دس^(٩) في جحر^(١٠)، وقال الشعبي: قضاة هذه (الأمة)^(١١) أربعة: عمر وعلي وزيد وأبو موسى. وقال قبيصة بن جابر^(١٢): مارأيت رجلاً قط أعلم بالله ولا أقرأ لكتاب الله ولا أفقه في دين الله من عمر^(١٣).

(١) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة: ٤٠٣/١.

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم: أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ٦/٣٦٨١، وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ٢/١٦.

(٣) عبد الله المعنى هنا هو عبد الله بن مسعود كما ذكر ابن الجوزي في مناقب عمر: ص ٢٤٧.

(٤) في ص: لو أن علم عمر بن الخطاب.

(٥) انظر: مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ابن الجوزي: ص ٢٤٧).

(٦) هو كذلك عبد الله بن مسعود (المناقب، ابن الجوزي: ص ٢٤٧).

(٧) في ص: إني لأحسب عمر لأن.

(٨) حذيفة بن اليمان: وهو حذيفة بن صل ويقال: صبل وسمي باليمان لأنه حالف الأنصار، هاجر إلى النبي ﷺ، فخирه بين الهجرة والنصرة فاختار النصرة، شهد حذيفة مع النبي ﷺ أحداً وقتل أبوه فيها (أسد الغابة: ١/٣٩٠).

(٩) الدس: دسّك شيئاً تحت شيء وهو الإخفاء، ومنه قوله تعالى: «أَم يدْسَهُ فِي التَّرَابِ» (السان العربي: ٦/٨٢).

(١٠) ذكره السيوطي بلفظ «كأن علم الناس كان مدسوساً في حجر عمر» (انظر: تاريخ الخلفاء، السيوطي: ١٢٠).

(١١) سقطت من ج، والأصل.

(١٢) قبيصة بن جابر الأسدي، روى عنه العديد من الرواية، يعد من فقهاء أهل الكوفة بعد الصحابة، ذكره ابن حبان في الثقات، وهو أخو معاوية في الرضاعة مات سنة ٦٩هـ (انظر تهذيب التهذيب: ١/٣٤٤ الطبعة الأولى).

(١٣) ذكره ابن الجوزي في مناقب عمر: ص ٢٥١.

وقال علي: بعثي رسول الله ﷺ إلى اليمن وأنا حديث السن ليس لي علم بالقضاء، فقلت: إنك ترسلي إلى قوم يكون فيهم الأحداث وليس لي علم بالقضاء^(١)، قال: فضرب في صدري وقال: إن الله (سيهدي)^(٢) قلبك ويثبت لسانك، قال: (فما)^(٣) شكت في قضاء بين اثنين بعد^(٤).

وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: كنت أرعى غنمًا لعقبة بن أبي معيط، فمر بي رسول الله ﷺ وأبو بكر فقال لي: يا غلام هل من لبن؟ قلت: نعم، ولكنني مؤمن، قال: فهل من شاة لم ينز عليها الفحل؟ قال: فأتيته بشاة فمسح ضرعها، فنزل لبن، فحلبه في إناء، فشرب وسقى أبي بكر ثم قال للضرع: أقلص فقلص قال: فأتيته بعد هذا، فقلت: يا رسول الله، علمني من هذا القول، فمسح رأسي وقال: يرحمك الله إنك (عليم)^(٥) معلم^(٦).

وقال (عقبة بن عامر)^(٧): ما أرى أحداً أعلم بما أنزل على محمد ﷺ من عبد الله^(٨)، فقال موسى: إن تقل ذاك فإنه كان يسمع حين لا نسمع، ويدخل حين لا ندخل.

وقال مسروق: قال عبد الله: ما أنزلت سورة إلا وأنا أعلم فيما أنزلت، ولوأني أعلم

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ص: سيهديك ويهدي.

(٣) سقطت من الأصل ج.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الأقضية: ص ٦، وابن ماجه في كتاب الأحكام: ص ١، وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب ١١٠٠ / ٣.

(٥) في ب، ج: غلام وفي ص: غليم.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/ ٣٧٩ - ٤٦٢ كما ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب: ٩٨٨ / ٣.

(٧) في ب، ص، ج: عقبة بن عمر، وفي ج: عتبة بن عمر، والصواب عقبة. وهو عقبة بن عامر بن عبيسي بن عمرو الجوني، صحابي كانت له السابقة والهجرة ولاده معاوية مصر سنة ٤٤ هـ، وتوفي في آخر خلافة معاوية. (تهذيب التهذيب: ٢٤٢/٧).

(٨) يعني عبد الله بن عباس رضي الله عنهم.

أن رجلاً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل والمطاييا لأئتيه^(١)، وقال عبد الله بن بريدة^(٢) في قوله عز وجل: ﴿حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفًا﴾^(٣) قال: (هو)^(٤) عبد الله بن مسعود^(٥).

وقيل لمسروق: (كانت عائشة تحسن الفرائض قال: والله لقد رأيت الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يسألونها عن الفرائض)^(٦).

وقال أبو موسى: ما أشكّل علينا أصحاب محمد ﷺ إذا تحدثوا وفيهم معاذ بن جبل وجدنا عندها منه علمًا.

وقال شهر بن حوشب^(٧): كان أصحاب محمد ﷺ إذا تحدثوا وفيهم معاذ بن جبل نظروا إليه هيبة له^(٨).

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أبوذر وعى علمًا ثم (وكى)^(٩) عليه فلم يخرج منه شيء حتى قبض^(١٠).

وقال مسروق: قدمت المدينة فوجدت زيد بن ثابت من الراسخين في العلم^(١١),

(١) انظر: صفة الصفة، لابن الجوزي: ٤٠٢/١.

(٢) عبد الله بن بريدة بن أبي حبيب الأسالمي المروزي، قاضي مرو، توفي سنة ١١٥ هـ وعمره مائة سنة (انظر: تهذيب التهذيب: ١٥٧/٥).

(٣) سورة محمد: الآية ١٦.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) انظر: الدر المنشور: السيوطي: ٥٠/٦.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك: ١١/٤.

(٧) شهر بن حوشب: فقيه قاريء من رجال الحديث، شامي الأصل، سكن العراق وولي بيت المال مدة، وهو متزوج الحديث (الأعلام، الزركلي: ١٧٨/٣).

(٨) انظر: صفة الصفة: ٤٩٥/١.

(٩) وكى: (والصحيح أوكى) أوكى على ما في سقايه شد بالوكاء وهو ما يشد رأس القربة وفي الحديث: إنه كان يوكى بين الصفا والمروءة، قيل: معناه أنه يسكت فلا يتكلم كأنه يسوكي فمه، وهو من قولهم: (أوك حلقك) أي اسكت (مخтар الصحاح: ص ٧٣٥).

(١٠) الطبقات، ابن سعد: ٣٥٤/٢ (دار صادر).

(١١) الاستيعاب: ٥٣٩/٢.

ولما بلغ أبا الدرداء موت عبد الله بن مسعود قال: أما إنه لم يخلق بعده مثله^(١).

وقال أبو الدرداء: إن من الناس من أوتي علمًا، ولم يؤت حلمًا، وشداد بن أوس^(٢) منمن أوتي علمًا وحلمًا^(٣).

ولما مات زيد بن ثابت قام ابن عباس على قبره وقال: (هكذا يذهب العلم)^(٤)،
وضم رسول الله ﷺ عبد الله بن عباس وقال: (اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب)^(٥)،
وقال محمد بن الحنفية^(٦) لما مات ابن عباس: لقد مات ربانِي هذه الأمة^(٧).

وقال (عبد الله بن عتبة)^(٨) بن مسعود^(٩): ما رأيت أحداً أعلم بالسنة ولا أجلد رأياً
ولا أثقب نظراً حين ينظر من ابن عباس^(١٠).

(١) لم أجده.

(٢) شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي الأنصاري، أبو يعلى، صحابي من الأمراء ولد عمر إمارة
حمص، ولما قتل عثمان اعتزل وعكف على العبادة: توفي في القدس سنة ٧٥ هـ (الأعلام،
الزركي: ١٥٨/٣).

(٣) صفة الصفة: ٧٠٩/١.

(٤) المرجع السابق: ٧٠٧/١.

(٥) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة: ٣٧٥٦/٢٤ بلفظ: اللهم علمه الحكمة، اللهم علمه
الكتاب.

(٦) محمد بن الحنفية: هو محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية، أحد الأبطال الأشداء
في صدر الإسلام وهو أخو الحسن والحسين غير أن أحهما فاطمة وأمه خولة الحنفية، ينسب إليها
تمييزاً له عنهما، وكان المختار الثقفي يدعو إلى إمامته ويزعم أنه المهدي ومات بالطائف سنة
٢٨١هـ. (الأعلام: ٢٧٠/٦).

(٧) الاستيعاب: ٩٣٤/٣.

(٨) في ب، ج: عبد الله بن عبد الله بن عتبة.

(٩) عبد الله بن عتبة بن مسعود الهدلي وهو حجازي ويرد نسبه عند ذكر عميه عبد الله بن مسعود، أدرك
النبي ﷺ ورآه واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على السوق كان ثقة رفيعاً كثير الحديث
والفتيا فقيهاً. وذكره ابن حبان في الثقات وقال: كان يؤمن الناس بالكونفة مات في ولاية بشر بن مروان
سنة أربع وسبعين. (انظر: أسد الغابة: ٢٠٢/٣ - ٢٠٣؛ وتهذيب التهذيب: ٣١١/٥).

(١٠) الاستيعاب: ٩٣٦/٣.

وكان عمر بن الخطاب يقول: قد طرأت علينا عضل أقصيته أنت لها ولأمثالها^(١)،
ثم يقول (عبد الله)^(٢) وعمر عمر في جده وحسن نظره لل المسلمين^(٣).

وقال عطاء بن أبي رباح^(٤): ما رأيت مجلساً قط أكرم من مجلس ابن عباس أكثر
فقهاً، وأعظم جفنة^(٥)، إن أصحاب الفقه عنده وأصحاب القرآن عنده وأصحاب الشعر
عنده، يصدرهم كلهم في واد واسع^(٦).

وكان عمر بن الخطاب يسأله مع الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ، ودعا له
رسول الله ﷺ^(٧) أن يزيده الله علمًاً وفقهاً^(٨).

وقال عبد الله بن مسعود: لو أن ابن عباس (بلغ)^(٩) أسناننا ما عُشّرَه من امرأة^(١٠)،
أي ما بلغ عشرة.

وقال ابن عباس: ما سألني أحد عن مسألة إلا عرفت أنه فقيه أو غير فقيه. وقيل له:
أني أصبت هذا العلم؟ قال: بلسان سؤول وقلب عقول^(١١)، وكان يسمى البحر من كثرة
علمه^(١٢).

(١) انظر: أسد الغابة: ٢٩٠/٣.

(٢) في ب، ج: عبيد الله.

(٣) انظر: أسد الغابة: ٢٩٠/٣.

(٤) عطاء بن أبي رباح: هو عطاء بن أسلم بن صفوان، تابعي سمع من أجيال الصحابة، كان عبداً
أسود ولد في جند باليمن ونشأ بمكة وكان مفتياً أهلها ومحدثهم، وتوفي فيها سنة ١١٤ هـ (الأعلام،
الزرکلی: ٢٣٥/٤).

(٥) جفنة: الجفنة كالقصبة وجمعها جفان، مختار الصحاح: ص ١٠٦.

(٦) انظر: فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل: ٩٧٨/٢.

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) الاستيعاب: ٩٣٥/٣.

(٩) في ب، ج: أدرك.

(١٠) الاستيعاب: ٩٣٥/٣، وانظر: فضائل الصحابة: ٢/٩٥٠.

(١١) انظر: فضائل الصحابة: ٢/٩٦١.

(١٢) المرجع السابق: ٩٧٧/٢.

وقال طاوس^(١): أدركت نحو خمسين من أصحاب رسول الله ﷺ إذا ذكر لهم ابن عباس شيئاً خالفوه لم يزل بهم حتى يقررهم^(٢).

وقال الأعمش^(٣): كان ابن عباس إذا رأيته قلت: أجمل الناس، فإذا تكلم قلت: أفسح الناس، فإذا حدث قلت: أعلم الناس^(٤).

وقال مجاهد: (كان ابن عباس إذا)^(٥) فسر الشيء رأيت عليه النور. وقال ابن سيرين^(٦): كانوا يرون أن الرجل الواحد يعلم من العلم ما لا يعلمه الناس أجمعون.

قال ابن عون^(٧): فكانه رأني أنكرت ذلك، قال: فقال: أليس أبو بكر كان يعلم (من العلم)^(٨) ما لا يعلمه الناس (ثم كان عمر يعلم ما لا يعلمه الناس)^(٩).

وقال عبد الله بن مسعود: لو وضع علم أحياء العرب في كفة (وعلم عمر في كفة)^(١٠)

(١) طاوس: هو طاوس بن كيسان اليماني، أبو عبد الرحمن الحميري يقال: اسمه ذكوان وطاوس لقب، ثقة فقيه فاضل، مات سنة ١٠٦ وقيل بعد ذلك (تغريب التهذيب: ٣٧٧/١).

(٢) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية بلفظ: إني رأيت سبعين . . . (البداية والنهاية: ٣٠١/٨).

(٣) الأعمش: هو أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي مولاهم، الكوفي أصله من بلاد الري، رأى أنس بن مالك وحفظ عنه، قال ابن المديني له نحو من ألف وثلاثمائة حديث توفي سنة ١٤٨ هـ وله سبع وثمانون سنة (تذكرة الحفاظ الذهبية: ١٥٤/١).

(٤) ذكر الرواية ابن عبد البر في الاستيعاب: ٩٣٥/٣، عن الأعمش عن مسروق.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) ابن سيرين: هو محمد بن سيرين البصري، الأنباري بالولاء إمام وفقيه في علوم الدين بالبصرة تابعي من أشراف الكتاب، مولده ووفاته بالبصرة، اشتهر بالورع وتعبير الرؤيا واستكتبه مالك بن أنس بفارس (الأعلام: ١٥٤/٦).

(٧) ابن عون: هو عبد الله بن عون بن أرطمان المزني مولاهم أبو عون الخزار البصري رأى أنس بن مالك وروى عن كبار التابعين، قال ابن المديني: جمع لابن عون من الإسناد ما لم يجمع لأحد من الصحابة، ومات ابن عون سنة ١٥١ هـ، (تهذيب التهذيب: ٣٤٨/٥).

(٨) سقطت من ج.

(٩) سقطت من ص والأصل.

(١٠) سقطت من الأصل.

لرجح بهم علم عمر^(١).

قال الأعمش: فذكرت ذلك لإبراهيم^(٢): فقال: عبد الله؟ إنا كنا لنحسبه قد ذهب بستة عشر العلم^(٣).

وقال سعيد بن المسيب^(٤): ما أعلم أحداً من الناس بعد رسول الله ﷺ أعلم من عمر بن الخطاب^(٥).

وقال الشعبي^(٦): قضاة الناس أربعة: عمر (وعلي)^(٧) وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري^(٨)، وكانت عائشة رضي الله عنها مقدمة بالفرائض والسنن والأحكام والحلال والحرام والتفسير.

قال عروة بن الزبير: ما جالست أحداً أعلم بقضاء، ولا بحدث الجاهلية، ولا أروى للشعر، ولا أعلم بفريضة، ولا طب، من عائشة رضي الله عنها^(٩).

وقال عطاء: كانت عائشة أعلم الناس، وأفقه الناس^(١٠).

وقال البخاري في تاريخه: روى العلم عن أبي هريرة ثمانمائة رجل ما بين صاحب

(١) الاستيعاب: ١١٤٩/٣، وذكره ابن الجوزي في مناقب عمر بلفظ (لو وضع علم الأرض) انظر: مناقب عمر بن الخطاب، لابن الجوزي: ص ٢٤٧.

(٢) وهو إبراهيم النخعي، توفي سنة ٩٦هـ، وهو ابن تسع وأربعين، طبقات ابن سعد: ٦/٧٠.

(٣) انظر: مناقب عمر، ابن الجوزي: ص ٢٤٧.

(٤) سعيد بن المسيب: هو أبو محمد المخزومي أجل التابعين ولد لستين مضتها من خلافة عمر وسمع من عمر شيئاً، وسمع من عثمان وزيد وعائشة وأبي هريرة، كان واسع العلم متين الديانة قواؤاً بالحق فقيه النفس توفي سنة ٩٤هـ. (تذكرة الحفاظ: ١/٥٤).

(٥) لم أجده.

(٦) الشعبي: وهو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري، راوية من رواة التابعين يضرب به المثل بحفظه ولد ونشأ ومات فجأة في الكوفة، وهو من رجال الحديث الثقات، استقضاه عمر بن عبد العزيز وكان فقيهاً شاعراً. الأعلام: ٣/٢٥١.

(٧) في الأصل: علي عليه السلام.

(٨) سبق ذكره وهو هنا مكرر.

(٩) أخرجه الحاكم في المستدرك: ٤/١١.

(١٠) المرجع السابق: ٤/١٤.

وتتابع^(١)، وقال عبد الله بن مسعود: إن الله تعالى نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه ويعشه لرسالته، ثم نظر في قلوب العباد (بعد)^(٢) قلب محمد (فوجد)^(٣) قلوب أصحابه (خير قلوب العباد)^(٤)، فجعلوا (وزراء نبيه)^(٥).

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قُلْ الْحَمْدُ لِلّٰهِ وَسَلَامٌ عَلٰى عَبٰادِ الَّذِينَ اصْطَفَيْتَكُمْ﴾^(٦) قال: هم أصحاب محمد^(٧).

وقال الشافعي: وقد أثني الله تعالى على الصحابة في التوراة والإنجيل والقرآن، وبسبق لهم على لسان نبيهم^(٨) من الفضل ما ليس لأحد بعدهم^(٩).

وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: إذا جاء عن النبي^(٩) فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة يختار من قولهم ولم يخرج عنه^(١٠).

وقال (ابن القاسم)^(١١) سمعت مالكاً يقول: (لما دخل أصحاب رسول الله^(٩) الشام، نظر إليهم رجل من أهل الكتاب فقال: ما كان أصحاب عيسى ابن مريم الذين قطعوا بالمناشير وصلبوا على الخشب بأشد اجتهاداً من هؤلاء)^(١٢).

(١) تاريخ البخاري: ٦٢/٣.

(٢) في ص: فاصطفى من بعد.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) في ص: وزراءه.

(٦) الاستيعاب: ١٣/١.

(٧) سورة النمل: الآية ٥٩.

(٨) انظر الاستيعاب: ١٣/١.

(٩) انظر: مناقب الشافعي، للبيهقي: ص ٤٤٢.

(١٠) انظر: أبو حنيفة، أبو زهرة: ص ٣٥٥.

(١١) في الأصل: ابن القسم، والصواب: ابن القاسم وهو أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم العتيقي بالولاء، الفقيه المالكي جمع بين الزهد والورع، وصاحب مالكاً عشرين سنة، وهو صاحب المدونة وعنه أحذها سحنون، ولد سنة ١٣٢هـ وتوفي سنة ١٩١هـ (وفيات الأعيان: ١٢٩/٣).

(١٢) ذكر الرواية ابن عبد البر في الاستيعاب: ١١/١.

وقد شهد لهم الصادق المصدق الذي لا ينطق عن الهوى بأنهم خير القرون على الإطلاق^(١).

كما شهد لهم ربهم تبارك وتعالى بأنهم خير الأمم على الإطلاق^(٢). وعلماؤهم وتلاميذهم ملأوا الأرض علمًا، فعلماء الإسلام كلهم تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم وهلّم جرًا.

وهؤلاء الأئمة الأربع الذين طبق علمهم الأرض شرقاً وغرباً، تلاميذ تلاميذهم وخيار ما عندهم ما كان من الصحابة، وخيار الفقه ما كان منهم، وأوضح التفسير ما أخذ منهم.

وأما كلامهم في باب معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وقضائه وقدره ففي أعلى المراتب، فمن وقف عليه وعرف ما قاله الأنبياء (عرف)^(٣) أنه مشتق منه مترجم عنه، وكل علم نافع في الأمة فهو مستنبط من كلامهم ومانحوذ عنهم، وهؤلاء تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم قد طبقت تصانيفهم وفتاويهم الأرض، فهذا مالك جمعت فتاويه عدة أسفار، وأبو حنيفة كذلك، وهذه تصانيف الشافعي رضي الله عنه تقارب المائة، وهذا الإمام أحمد بلغت فتاويه وتأليفه نحو مائة سفر. وفتاويه عندنا في نحو عشرين سفراً، وغالب تصانيفه عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة والتابعين، وهذا علامتهم المتأخر شيخ الإسلام ابن تيمية جمع بعض أصحابه فتاواه في ثلاثين مجلداً ورأيتها في الديار المصرية^(٤)، وهذه تأليف أئمة الإسلام التي لا يحصيها إلا الله، وكلهم من أولهم إلى آخرهم يقر للصحابية بالعلم والفضل، ويعرف بأن علمه بالنسبة إلى علومهم كعلومهم بالنسبة إلى علم نبيهم.

(١) وذلك في الحديث الصحيح: «خير القرون قرنٌ...». أخرج البخاري في باب فضائل الصحابة رقم: ٣٦٥٠.

(٢) وذلك في قوله تعالى: «كتم خير أمة أخرجت للناس» [آل عمران: ١١٠].

(٣) سقطت من ص.

(٤) من المعروف أن ابن تيمية رحمه الله أقام بمصر من ٧٠٥ - ٧١٢ هـ حيث رجع إلى دمشق، ويبدو أن تلاميذه قد جمعوا فتاواه في هذه المجلدات التي اطلع عليها ابن القيم في رحلته العلمية إلى مصر بعد وفاة ابن تيمية.

وفي الثقيفيات^(١) حدثنا قتيبة بن (سعيد)^(٢) عن سعيد بن عبد الرحمن المعاوري^(٣) عن أبيه أن كعباً رأى حبر اليهود يبكي، فقال: ما يبكيك؟ قال: ذكرت بعض (الأمن)^(٤)، فقال كعب: أنسدك الله لئن أخبرتك ما أبكاك لتصدقني؟ قال: نعم، قال: أنسدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال: رب إني أجد خيراً أخرجت للناس يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأول والكتاب الآخر، ويقاتلون أهل الضلال حتى يقاتلوا أئور الدجال، فاجعلهم أمتي، قال: هم أمة أحمد يا موسى.

قال الحبر: نعم، قال كعب: فأنسدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال: يا رب إني أجد أمة هم الحمادون رعاة الشمس المحكمون إذا أرادوا أمراً قالوا: نفعه إن شاء الله فاجعلهم أمتي، قال: هم أمة (أحمد)^(٥) يا موسى، قال الحبر: نعم. قال كعب: أنسدك الله أتجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال: يا رب إني أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله، وإذا هبط حمد الله، الصعيد طهورهم والأرض لهم مسجداً حيثما كانوا يتظاهرون من الجناية طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء، غرّاً محجلين من آثار الوضوء، فاجعلهم من أمتي قال: هم أمة أحمد يا موسى، قال الحبر: نعم، قال كعب: فأنسدك الله هل تجد في (كتاب الله)^(٦) أن موسى نظر في التوراة؟ فقال: يا رب إني أجد أمة مرحومة

(١) الثقيفيات، لم أجده كتاباً بهذا الاسم، وقد يكون هو كتاب أخبار ثقيف للحارث بن أبي أسامة المدائني. (انظر: الفهرست، لأبن النديم: ص ١١٦، طبعة طهران).

(٢) قتيبة بن سعيد، وفي الأصل: سعد.

وهو قتيبة بن سعيد بن جمبل بن ... الثقيفي، روى عن مالك واللith وابن لهيعة وغيرهم ذكره الإمام أحمد بخبر، قال ابن معين وأبو حاتم: ثقة، وقال النسائي: ثقة صدوق (تهذيب التهذيب: ٣٥٨/٨).

(٣) سعيد بن عبد الرحمن، أبو صالح المعاوري روى عن علي وجبلة بن الحارث الغفاري ولهم صحبة، وعقة بن عامر الجهي وكتب الأخبار، ذكره ابن حبان في الثقات قال العجلي: مصرى تابعي ثقة (تهذيب التهذيب: ٥٩/٤).

(٤) في ج: الأمور.

(٥) في الأصل: محمد.

(٦) في ب: كتاب الله المنزل.

ضعفاء يرثون الكتاب واصطفيتهم لنفسك فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات، فلا أجد أحداً منهم إلا مرحوماً فاجعلهم أمتي، قال: هم أمة أحمد يا موسى، قال الحبر: نعم، قال كعب: فأناشدك الله، أتجد في كتاب الله أن موسى نظر في التوراة فقال: يا رب إني أجد مصاحفهم في صدورهم، يصفون في صلاتهم كصفوف الملائكة، أصواتهم في مساجدهم كدوى النحل، لا يدخل النار منهم أحد إلا من بريء من الحسنات، مثل ما بريء الحجر من ورق الشجر، قال موسى: فاجعلهم أمتي قال: هم أمة أحمد يا موسى. قال الحبر: نعم، فلما عجب موسى من الخير الذي أعطى الله محمداً وأمته، قال: ليتني من أصحاب محمد فألوحى الله إليه ثلاثة آيات يرضيه بهن، ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَصْطَفْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسْلَاتِي وَبِكَلَامِي﴾^(١) ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ . . .﴾^(٢) الآية.

﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَى أَمْةٌ يَهُدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدَلُونَ﴾^(٣).

قال: (فرضي)^(٤) كل الرضى^(٥).

وهذه الفصول بعضها في هذه التوراة التي بآيديهم، وبعضها في نبوة أشعيا، وبعضها في نبوة غيره، (والتوراة)^(٦) أعم من التوراة المعينة، وقد كان الله سبحانه وتعالى كتب لموسى في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، فلما كسرها^(٧) رفع

(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٤.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٥.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٩.

(٤) في ب، ج، ص: فرضي موسى.

(٥) هذه القصة ذكرها ابن الجوزي في كتابه «الوفا بأحوال المصطفى» تصحيح وتعليق: محمد زهري النجار: ١/٧٨ - ٨٠.

(٦) في ب، ج، ص: والتوراة الأولى.

(٧) ورد في سفر الخروج، أن موسى عليه السلام لما أخذ الألواح التي كتبت عليها التوراة ورجع إلى قومه فوجدهم يعبدون من العجل، فغضب وطرح هذه الألواح فكسرها. (انظر: سفر الخروج: ١٩/٣٢).

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك دون أن يذكر كسر هذه الألواح، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا
رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضِبَانَ أَسْفًا، قَالَ بِشَمَا خَلْفَتِمُونِي مِنْ بَعْدِي، أَعْجَلْتُمْ أَمْرِيَّكُمْ وَأَلْقَيْتُمْ
الْأَلْوَاحَ وَأَخْذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجْرِهِ إِلَيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

منها الكثير وبقي خير كثير، فلا يقبح في هذا النقل جهل أكبر أهل الكتاب به، فلا زال في العلم الموروث عن الأنبياء شيء مما لا يعرفه إلا الأحاداد من الناس أو الواحد، وهذه الأمة على قرب عهدها بنبتها في العلم الموروث عنه ما لا يعرفه إلا الأفراد القليلون جداً من أمتها، وسائر الناس منكر له وجاهل به.

وسمع كعب رجلاً يقول: رأيت في المنام كأن الناس جمعوا للحساب فدعا الأنبياء فجاء مع كلنبي أمتة، ورأيت لكلنبي نورين، ولكل من اتبعه نوراً يمشي (به في الناس)^(١) بين يديه، فدعى محمد ﷺ، فإذا لكل شرة في رأسه ووجهه نور، ولكل من اتبعه نوران يمشي بهما.

قال كعب: من حدثك هذا؟ قال: رؤيا رأيتها في منامي، قال: أنت رأيت هذا في منامك، قال نعم، قال: والذي نفس كعب بيده إنها لصفة محمد وأمتة وصفة الأنبياء وأممهم، لكانما قرأتها من كتاب الله تعالى^(٢).

وفي بعض الكتب القديمة أن عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليهما، قيل له: يا روح الله، هل بعد هذه الأمة أمة؟ قال: نعم قيل: وأي أمة؟ قال: أمة أحمد. قيل: يا روح الله، وما أمة أحمد؟ قال: علماء (حكماء)^(٣) أبرار أتقياء كأنهم من الفقهاء أنبياء، يرضون من الله باليسيير من الرزق، ويرضى الله منهم باليسيير من العمل، ويدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله.

وقال كعب: علماء هذه الأمة كأنبياءبني إسرائيل.

وفيه حديث مرفوع (لا أعرف)^(٤) حاله^(٥).

(ش) نقول: وما يدریکم يا معاشر المثلثة وعبد الصلبان وأمة اللعنة والغضب، بالفقه

(١) سقطت من ب، ج، ص.

(٢) انظر طبقات ابن سعد: ٢٤٧ / ١. (طبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ وانظر: الوفا بأحوال المصطفى، ابن الجوزي: ١ / ٨٠).

(٣) في الأصل: حلماء.

(٤) في ج: لا أعرفه ولا أعرف.

(٥) ذكره ابن الدبيع في التمييز، ونقل عن الدميري والزرتشي وابن حجر أنه لا أصل له، (تمييز الطيب من الخبيث: ص ١٢١ ، الطبعة الأولى).

والعلم (ومسمى)^(١) هذا الاسم، حيث تسلبونه أصحاب محمد الذين هم وتلاميذهم كأنبياء بني إسرائيل (وهل)^(٢) يميز بين العلماء والجهال ويعرف مقدار العلماء إلا من هو من جملتهم ومعدود في زمرتهم^(٣)؟ فاما طائفة شبه الله علماءهم بالحمير التي تحمل الأسفار، وطائفة علماؤها يقولون في الله ما لا ترضاه أمة من الأمم فيما تعظمه وتجله، وتأخذ دينها عن كل كاذب ومفتر على الله وعلى أنبيائه، فمثلها مثل عريان يحارب شاكي^(٤) السلاح، ومن سقف بيته^(٥) زجاج، وهو يرجم أصحاب الفصور بالأحجار، ولا يستكثرون على من قال في الله رسوله ما قال أن يقول في أعلم الخلق إنهم عوام.

فليهن أمة الغضب علم المثنا^(٦) والتلمود^(٧) وما فيها من الكذب على الله وعلى كلامه موسى ، وما يحدث لهم أخبارهم وعلماء السوء كل وقت، ولديهم علوم دلّتهم على (أن)^(٨) الله ندم على خلق البشر حتى شق عليه، وبكى على الطوفان حتى رمد وعادته الملائكة. ودلّتهم على أنه يناجونه في صلاتهم بقولهم : (يا إلهنا انتبه من رقتلك كم تنام) يخونه حتى يتتخى (وينفذ)^(٩) دولتهم، ولديهن أمة الضلال علومهم التي فارقوا بها جميع

(١) في الأصل: وتسمى .

(٢) في الأصل: وهذا .

(٣) في ص: قدّمت هذه الجملة على التي قبلها .

(٤) شاكي السلاح: من شك الشيء شكًا: لصق بعضاً ببعض واتصل، وفي السلاح لبسه تماماً (المعجم الوسيط: ٤٩٣/١).

(٥) في الأصل: بيده .

(٦) المثنا: كلمة عبرية معناها الشريعة المكررة، وهو عبارة عن كتاب جمع التعاليم الشفوية التي كانت تتناقلها الأجيال مما لم يدون في التوراة وقد قام بالجمع أحد حاخامتات اليهود بعد المسيح بمائة وخمسين سنة (راجع: كتاب اليهودية لأحمد شلبي: ص ٢٧٤ نقاً عن كتاب: الكنز المرصود للدكتور روهليج ترجمة يوسف نصر الله: ص ٢٩ - ٣٠).

(٧) التلمود: كلمة عبرية بمعنى التعاليم، وهو عبارة عن المثنا والجمارا وهي الشرح التي أضيفت إلى المثنا. وهناك تلمود أورشليم، وهو المثنا الذي به زيادات لحاخامتات فلسطين، وتلمود بابل، وهو المثنا الذي به زيادات لحاخامتات بابل، وهو المتداول بين اليهود، والمراد به عند الإطلاق. واليهود يضعون التلمود في مكانة أعظم من التوراة (راجع: كتاب اليهودية لأحمد شلبي: ص ٢٧٤).

(٨) سقطت من ب .

(٩) في ب، ج، والأصل: ينفذ .

شرائع الأنبياء، وخالفوا فيها المسيح خلافاً يتحققه علماؤهم في كل أمر كما سيمر بك، وعلومهم التي قالوا بها في رب العالمين ما قالوا، مما كادت السماوات تنشق منه والأرض تنفطر والجبال (تنهد)^(١) لولا أن أمسكها الحكيم المصور.

وعلومهم التي دلّتهم على التثليث وعبادة خشبة الصليب والصور المدهونة بالسيرون^(٢) والزنجفر^(٣).

ودللكم على قول عالملجم (أفرييم) إن اليد التي جبلت طينة آدم هي التي علقت على الصلبوت، وإن الشبر الذي ذرعت به السماوات، هو الذي سمر على الخشبة، وقول عالملجم (عرنقورس) من لم يقل إن مريم والدة الإله فهو خارج عن ولية الله^(٤).

**

(١) سقطت من جـ.

(٢) السيرون، ورد في مختار الصحاح، المسرجحة التي فيها الفتيلة والدهن، والسرجين بالكسر معرب، ويقال سرقين أيضاً (مختار الصحاح: ص ٢٩٣).

(٣) الزنجفر، معدن بصاص حاصل من ازدواج الزئبق بالكبريت ومسحوقه أحمر ناصع يستعمله الكتاب والمصوروـن (انظر: المعجم الوسيط: ٤٠٤ / ١).

(٤) أقرت ألوهيـة المسيح في مجمع أفسـس الأول سنة ٤٣١ مـ.

[المسألة السابعة]

(فصل): قال السائل:

نرى في دينكم أكثر الفواحش فيما هو أعلم وأفقه (في دينكم) كالزنى واللواط والخيانة، والحسد والبخل، والغدر والجبن، والكبر والخيلاء، وقلة الورع واليقين، وقلة الرحمة والمرءة والحمية، وكثرة الهلع، والتکالب على الدنيا والکسل عن الخيرات، وهذا الحال يکذب لسان المقال.

والجواب من وجوه:

أحدها: أن يقال ماذا على الرسل الكرام من معاصي أممهم وأتباعهم؟ وهل يقدح ذلك شيئاً في نبوتهم؟ أو (يوجب تغييراً)^(١) في وجه رسالتهم؟ وهل سلم من الذنوب على اختلاف أنواعها وأجناسها إلا الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ وهل يجوز رد رسالتهم وتکذيبهم بمعصية بعض أتباعهم لهم؟ وهل هذا إلا من أقبح (التعنت)^(٢) وهو بمنزلة رجل مريض (دعاه طبيب ناصح إلى سبب ينال به غاية عاقبته، فقال: لو كنت طبيباً لم يكن فلان وفلان فعلاً مرضى)^(٣)، وهل يلزم الرسل أن يشفوا جميع المرضى بحيث لا يبقى في العالم مريض؟ وهل تعنت (أحد على)^(٤) الرسل بمثل هذا التعنت؟.

الوجه (الثاني)^(٥): أن الذنوب أو المعاصي أمر مشترك بين الأمم، لم ينزل في

(١) في ب، ج، ص: يغير.

(٢) في الأصل: التعنت.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في ب، ج، ص: أحد من الناس.

(٥) في الأصل: الثالث (سهم).

العالم من طبقاتبني آدم عالمهم وجاهلهم وزاهدهم في الدنيا وراغبهم وأميرهم ومأمورهم، وليس هذا أمراً اختصت به هذه الأمة حتى يقبح به فيها وفي نبيها.

الوجه الثالث: أن الذنوب والمعاصي لا تنافي الإيمان بالرسل، بل يجتمع في العبد الإسلام والإيمان، والذنوب والمعاصي، فيكون فيه هذا وهذا، فالمعاصي لا تنافي الإيمان بالرسل وإن قدحت في كماله وتمامه^(١).

الوجه الرابع: أن الذنوب تغفر بالتوبة الصوح، فلو بلغت ذنوب العبد عنان السماء، وعدد الرمل والحصى، ثم تاب منها تاب الله عليه، قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَأْدِي عَبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنُطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾^(٢).

فهذا في حق التائب، وأن التوبة تجب ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والتوحيد يكفر الذنوب، كما في الحديث الصحيح^(٣): «ابن آدم لو لقيتني بقرب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لقيتك بقربها مغفرة»^(٤) فالMuslimون ذنوبهم ذنوب (موحد)^(٥) إن قوي التوحيد على محو آثارها بالكلية وإلاً فما معهم من التوحيد يخرجهم من النار إذا عذبوا بذنوبهم.

وأما المشركون والكافار فإن شركهم وكفرهم محبط حسناتهم، ولا يلقون ربهم بحسنة يرجون بها النجاة (ولا يعقب لهم شيء من مغفرة)^(٦) ذنوبهم، قال الله تبارك

(١) هذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة في الكبائر والمعاصي فإنها لا تنافي الإيمان، وإن كانت تقدح في كماله وتمامه كما أشار المؤلف رحمة الله.

(٢) سورة الزمر: الآية ٥٣.

(٣) وهذا حديث قلسي.

(٤) قال في القاموس: قراب الشيء بالكسر وقرابه وقرابته بضمها: ما يقارب قدره (القاموس المحيط) وفي النهاية: إن لقيتني بقرب الأرض، أي بما يقارب ملأها، وهو مصدر قارب يقارب: ٣٤/٤.

(٥) أخرجه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح (الدعوات: ص ٩٨) وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الذكر: ص ٢٢.

(٦) في ج: توحيد.

(٧) في ب، ج: ولا يغفر لهم شيء من، وفي ص: ولا يكفر لهم شيء من.

وتعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١) وقال تعالى في حق الكفار والمرتدين : ﴿وَقَدَمْنَا إِلَى مَا أَعْمَلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مُنْثَرًا﴾^(٢) ، وقال رسول الله ﷺ : «أَبْيَ اللَّهُ أَنْ يَقْبِلَ مِنْ مُشْرِكٍ عَمَلاً»^(٣).

فالذنب تزول آثارها بالتوبه النصوح ، والتسبيد الخالص ، والحسنات الماحية ، والمصابيح المكفرة ، وشفاعة الشافعين في الموحدين ، وآخر ذلك إذا عذب بما يبقى عليه منها أخرججه توحيده من النار ، وأما الشرك بالله والكفر بالرسول ، فإنه يحط جميع الحسنات بحيث لا يبقى معه حسنة .

الوجه الخامس : أن يقال لمورد هذا السؤال إن كان من الأمة الغضبية إخوان القرود : لا يستحيي من إبراد هذا السؤال من آباءه وأسلافه كانوا يشاهدون في كل يوم من الأيام ما لم يره غيرهم من الأمم ، وفلق الله البحر فأتجاهم من عدوهم ، وما جفت أقدامهم حتى قالوا لموسى : ﴿أَاجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ إِلَهٌ﴾^(٤) .

ولما ذهب لميقات ربه لم يمهلوه أن عبدوا بعد ذهابه العجل المصوغ ، وغلب أخوه هارون معهم ، ولم يقدر على الإنكار عليهم ، وكانوا مع مشاهدتهم (العجبائب)^(٥) يهمون برجم موسى وأخيه هارون في كثير من الأوقات ، والوحي بين أظهرهم ، ولما ندبهم إلى الجهاد قالوا : ﴿أَذْهَبْ أَنْتَ وَرِبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَّ قَاعِدُونَ﴾^(٦) وأذوا موسى أنواع الأذى ، حتى قالوا : إنه آدر^(٧) ، (وهذا لكونه كان)^(٨) يغسل وحده ، فاغتسل يوماً ووضع ثوبه على

(١) سورة النساء: الآية ١١٦.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٢٣.

(٣) أخرججه النسائي في كتاب الزكاة: ٧٣ وأخرججه ابن ماجه في كتاب الحدود: ٢ وأخرججه الإمام أحمد في مسنده: ٥/٥.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٣٨.

(٥) في ب، ج، ص: الآيات والعجبائب.

(٦) سورة المائدة: الآية ٢٤.

(٧) آدر: الأدراة، بالضم: نفخة في الخصبة، يقال: رجل آدر بَيْنَ الأَدْرَ، وقيل: هو الذي يصييه فقط في إحدى الشخصيتين (لسان العرب: ٥/٤).

(٨) في ب، ج، ص: لهذا.

حجر، ففرَّ الحجر بشوئه وعدا خلفه عرياناً حتى نظر بنو إسرائيل إلى عورته، فرأوه أحسن خلق الله متجرداً^(١).

ولما مات أخوه هارون قالوا: موسى قتله وغبيه، فرفعت الملائكة لهم تابوتة بين السماء والأرض حتى عاينوه ميتاً^(٢)، وأثروا العود إلى مصر وإلى العبودية، ليشبعوا من أكل اللحم والبصل والقثاء والعدس^(٣) هكذا عندهم^(٤).

والذي حكاه الله عنهم أنهم آشروا (ذلك على)^(٥) المتن والسلوى، وانهماكهم على الزنى، وموسى بين أظهرهم، وأعداؤهم بإيائهم، حتى ضعفوا عنهم ولم يظفروا بهم معروض عندهم، وعبادتهم الأصنام بعد عصر يوشع بن نون^(٦)، وتحليلهم على صيد

(١) وقد ورد هذا الكلام في حديث أخرجه البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (إن موسى كان رجلاً حبيباً سيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فإذاه من آذاه من بنى إسرائيل، فجعلوا ما يستر هذا التستر إلا من عيب جلده إما برص وإما أدره وإما آفة...) الخ. البخاري: ٢٨/٦٠ - ٤٠ ٣٤ وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة: «يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آدوا موسى فبرأ الله مما قالوا» [الأحزاب: ٦٩].

(٢) نقل ابن كثير في تفسيره ما أورده ابن أبي حاتم في سنته ياسناده عن علي بن أبي طالب في قوله: «نبرأ الله مما قالوا» قال: صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون عليه السلام، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام أنت قتلته، كان ألين لنا منك وأشد حياء، فإذاه من ذلك فأمر الله ملائكته فحملته فمروا به على مجالس بنى إسرائيل فتكلمت بمorte (تفسير ابن كثير: ٢٥٠/٣) وذكر الرواية ابن حجر في الفتح بقوله: «وقد روى أحمد بن منيع في مسنده والطبراني وابن أبي حاتم ياسناد قوي عن ابن عباس عن علي» الحديث ثم قال: «وما في الصحيح أصح من هذا» (الفتح: ٥٣٥ - ٥٣٤/٨).

(٣) وذلك في قوله تعالى: «فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفهمها وعدسها وبصلها» [البقرة: ٦١].

(٤) انظر: الخروج: ٣/١٦.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) ذكر البخاري في صحيحه أن يوشع بن نون هو فقي موسى عليه السلام، الذي ذكره القرآن الكريم بقوله: «وإذ قال موسى لفتاه» [الكهف: ٦٠] [انظر: صحيح البخاري، التفسير ٤٧٢٥/٢] أما عادة اليهود للأصنام فقد صرحت أسفار اليهود بهذا، فنجد في سفر صموئيل الأول ما نصه: «فصرحوا إلى الرب وقالوا: أخطئنا لأننا تركنا الرب، وعبدنا البعليم والعشتاروت فالآن أنقذنا من يد أعدائنا فنعبدك» (صموئيل الأول ١٢/١ - ١٠).

الحيتان في يوم السبت لا تنسه، حتى مسخوا قردة خاسئين^(١) وقتلهم الأنبياء بغير حق حتى قتلوا في يوم واحد سبعين نبياً في أول النهار، وأقاموا السوق آخره كأنهم جزروا غنماً أمر معروف^(٢).

وقتلهم يحيى بن زكريا ونشرهم إيه في المنشار^(٣).

وإصرارهم على العظائم واتفاقهم على تغيير كثير من أحكام التوراة^(٤)، ورميهم لوطاً بأنه وطىء ابنته وأولدهما^(٥).

ورميهم يوسف بأنه حل سراويله وجلس من امرأة العزيز مجلس المرأة من القابلة حتى انشق الحائط، وخرجت له كفٌّ يعقوب وهو عاض على أنامله، فقام وهرب، وهذا لورآه أفسق الناس وأفجراهم لقام ولم يقض غرضه.

وطاعتهم للخارج على ولد سليمان بن داود^(٦)، لما وضع لهم كشين من ذهب^(٧)،

وبعليم جمع بعل (كما جاء في قاموس الكتاب المقدس: ١٨١/١) وهو إله كنعاني. وقد جاء في قاموس الكتاب المقدس: وقد صار البعل بعد ذلك عشرة لإسرائيليين الذين كسروا شريعة الله بإدخالهم عبادة هذا الإله إلى بلادهم: ١٨١/١ وعشتروت هي إلهة بابل وأشور ومدن الفينيقين على سواحل فلسطين وسوريا وكانت عبادتها تتطوري على كثير من معالم الخلاعة (قاموس الكتاب المقدس: ٦٢٨/٢).

(١) أقرأ قوله تعالى: «واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يدعون في السبت...» إلى قوله «فلما عتوا عمن نهروا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين» [الأعراف: ١٦٣ - ١٦٦].

(٢) أخرج ابن كثير عن شمر بن عطية قال: (قتل على الصخرة التي بيت المقدس سبعون نبياً) البداية والنهاية ٥٥/٢.

(٣) قصة قتل اليهود ليحيى ونشرهم زكريا بالمنشار، وردت في أحاديث كثيرة ذكر بعضها ابن كثير في البداية والنهاية: ٥٣/٢ - ٥٥.

(٤) ورد ذلك كثيراً في القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى: «يحرفون الكلم عن مواضعه» [المائدة: ١٣] وقوله تعالى: «فبدل الذين ظلموا قولًا غير الذي قيل لهم» [البقرة: ٥٩] ومن المعلوم أن اليهود بدلوا التوراة في بابل تبديلاً تاماً، ثم لجأوا إلى تحريف الكلم عن مواضعه.

(٥) انظر: التكوين: ٣١/١٩ - ٣٨.

(٦) ولد سليمان بن داود هو (رجيعان)، ثم اضطجع سليمان مع آبائه ودفن في مدينة داود أبيه وملك (رجيعان) ابنه عرضاً عنه (الملوك الأول: ٤٣/١١) والخارج عليه (يربعان بن نبات) (راجع: الملوك الأول: ١٢).

(٧) الوارد في التوراة: عجلين من ذهب وليس كشين (انظر: الملوك الأول: ٢٨/١٢).

فعكفت جملتهم على عبادتها إلى أن جرت الحرب بينهم وبين المؤمنين الذين كانوا مع ولد سليمان، وقتل منهم في معركة واحدة ألف مؤلفة^(١).

أفلا يستحيي عباد الكباش والبقر من تعذير الموحدين بذنبهم؟ أو لا يستحي ذرية قتلة الأنبياء من تعذير المجاهدين لأعداء الله؟ فain ذرية من سيوف آبائهم تقطر من دماء الأنبياء، ومن تقطر سيوفهم من دماء^(٢) الكفار المشركين؟ أو لا يستحي من يقول في صلاته لربه: «انتبه كم تناه، استيقظ من رقدك»^(٣) ينحني بذلك ويحميه، من تعذير من يقول في صلاته: ﴿الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين﴾^(٤).

فلو بلغت ذنوب المسلمين عدد الحصى والرمل والتراب والأفاس، ما بلغت مبلغ قتلنبي واحد، ولا وصلت إلى قول إخوان (القردة)^(٥) ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾^(٦)، وقولهم ﴿عزير ابن الله﴾^(٧) وقولهم ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾^(٨) وقولهم: «إن الله يكفي على الطوفان حتى (رمدت عيناه)^(٩) من البكاء وجعلت الملائكة تعوده»^(١٠) وقولهم: «إن الله عضّ أنا ملئه على ذلك»^(١١)، وقولهم: إنه ندم على خلق البشر وشقّ عليه لما رأى

(١) انظر الملوك الأول: ١٤ / ٣٠.

(٢) سقطت من ص، وفي ب: الأنبياء إلى ذريه من سيوفهم وسيوف آبائهم تقطر من دماء.

(٣) انظر: المزامير: ٨٠ / ٦٥.

(٤) سورة الفاتحة: الآيات ٢ - ٥.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) سورة آل عمران: الآية ١٨١.

(٧) سورة التوبة: الآية ٣٠.

(٨) سورة المائدة: الآية ١٨.

(٩) في ب، ج، ص: رمد.

(١٠) لم أجده في الترجمات الحالية للكتاب المقدس هذين النصين، وقد ذكر سفر التكوين بعد سرده لقصة الطوفان ما نصه: (وقال الرب في قلبه لا أعود ألغن الأرض.. ولا أعود أيضًا أحي كل حي كما فعلت) (التكوين ٨/ ٢١).

(١١) التكوين: ٨/ ٢١.

من معاصيهم وظلمهم^(١).

وأعظم من ذلك نسبة هذا كله إلى التوراة التي أنزلها على كلّيه فلو بلغت ذنوب المسلمين ما بلغت لكان في جنب ذلك كتفلة في بحر، ولا تنس قصة أسلافهم مع (شاول)^(٢) الخارج على داود، فإن سوادهم الأعظم انضم إليه، وشهدوا معه على حرب داود، ثم لما عادوا إلى طاعة داود وجاءت وفودهم وعساكرهم مستغفرين معتذرين بحيث اختصموا في السبق إليه، (فتبع منهم)^(٣) شخص (ونادي)^(٤) بأعلى صوته: لا نصيب لنا في داود ولا حظ لنا في (شاول)^(٥)، ليمض كلّ منهم إلى خبائه يا إسرائيليين، فلم يكن بأوشك (من أن ذهب)^(٦) جميع عسكربني إسرائيل إلى أخبيتهم بسبب كلمته ولما قتل هذا (الصائح)^(٧) عادت العساكر كلّها إلى خدمة داود^(٨)، فما كان القوم إلا مثل همج رعاع يجمعهم طبل ويفرقهم عصا.

[فرق اليهود وتحريفاتهم لكتبهم]

(فصل): وهذه الأمة الغضبية وإن كانوا مفترقين افترقاً كثيراً في جمعهم فرقتان:

(١) ورد في سفر آرميا (وتاره أتكلّم على أمه.. فتفعل الشر في عيني فلا تسمع لصوتي فأندم) (أرميا: ٩/١٨ - ١٠).

(٢) في ج، ص: أبسالون وال الصحيح شاول وشاول الذي كان مع داود هو ابن قيس من سبط بنiamin أول ملوك إسرائيل (قاموس الكتاب المقدس: ١/٥٠٢) ومن خلال نصوص العهد القديم عنه يظهر أنه هو طالوت الذي ورد في القرآن الكريم: «ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله...» إلخ [البقرة: ٢٧٦، ٢٤٧]. لكن القرآن الكريم لم يشر إلى أن (طالوت) (شاول) خرج على داود.

(٣) في الأصل: فتبعهم.

(٤) سقطت من ج.

(٥) في ج، ص: ميشائل.

(٦) في الأصل: وأن أذهب.

(٧) في ب، ج، ص: الصالح.

(٨) هذه القصة ترد في العهد القديم بين رجيعام بن سليمان ويريعام بن نبات الذي خرج عليه (انظر: الملوك الأول: ١٦ : ١٢).

(القراوون^(١) والربانيون^(٢))، وكان لهم أسلاف فقهاء وهم^(٣) صنعوا كتابين : أحدهما يسمى المشنا ومبليح حجمه نحو ثمانمائة ورقة ، والثاني : يسمى التلمود^(٤) ومبليحه قريب من نصف حمل (يغل)^(٥) ، ولم يكن المؤلفون له في عصر واحد ، وإنما الفوه في جيل بعد جيل ، فلما نظر متأخر وهم إلى ذلك ، وأنه كلما مرّ عليهم الزمان زادوا فيه ، وفي الزيادات المتأخرة ما ينقض كثيراً من أوله ، علموا أنهم إن لم يغلقوا باب الزيادة وإلا أدى إلى الخلل الفاحش ، فقطعوا الزيادة ، وحظرواها على فقهائهم ، وحرموا من يزيد عليه شيئاً . فوقف الكتاب على ذلك المقدار ، وكان فقهاؤهم قد حرموا عليهم في هذين الكتابين مأكولة من كان على غير ملتهم ، (وحرموا)^(٦) عليهم أكل اللحمان^(٧) من ذبائح من لم يكن على دينهم ، لأنهم علموا أن دينهم لا يبقى عليهم مع كونهم تحت الذلة والعبودية وقهـر الأمـل لهم ، إلا أن يصدوـهم عن مخالـطة من كان على غير ملـتهم ، وحرـموا عليهم منـاكـحتـهم ، والأـكـلـ منـ ذـبـائـحـهـمـ وـلـمـ يـمـكـنـهـمـ ذـلـكـ إـلـاـ بـحـجـةـ يـبـتـدـعـونـهـاـ مـنـ أـنـفـسـهـمـ ، وـيـكـذـبـونـ فـيـهاـ عـلـىـ اللهـ ، فـإـنـ التـورـةـ إـنـماـ حـرـمـتـ عـلـيـهـمـ مـنـاكـحةـ غـيرـهـمـ مـنـ الأـمـلـ لـثـلـاـ يـوـافـقـواـ أـزـوـاجـهـنـ فـيـ عـبـادـةـ الأـصـنـامـ وـالـكـفـرـ بـالـلـهـ^(٨) ، وإنـماـ حـرـمـتـ عـلـيـهـمـ أـكـلـ ذـبـائـحـ الـأـمـ الـتـيـ

(١) القراؤون: هم فرقة كانت تمثل القلة بين اليهود، فلما تدهور شأن الفريسيين ورشوا نفوذهم، والقراؤون لا يعترفون إلا بالعهد القديم كتاباً مقدساً، فلا يعترفون بالتلمود (انظر: اليهودية، أحمد شلبي: ص ٢٣١).

(٢) الربانيون: هم الذين أطلق عليهم: الفريسيون، ومعناها المنعزلون والمنشقون، وهو يكرهون هذه التسمية ويسمون أنفسهم (الأخبار) أو (الإخوة في الله) أو (الربانيين) ولهم آراء تدل على مزيد من التعلب والتشدد.

ويرى الفريسيون أن التوراة ليست هي كل الكتب المقدسة التي يعتمد عليها، وإنما هناك الروايات الشفوية التي تناقلها الحاخامات جيلاً بعد جيل وما أضافوه لها من شروح والتي دونت فيما بعد باسم التلمود (انظر اليهودية، أحمد شلبي: ٢٢٦ - ٢٢٨).

(٣) أي الربانيون أو الفريسيون.

(٤) سبقت الإشارة إلى أن (المشنا) هي الروايات الشفوية التي تناقلها الحاخامات، ثم أضيفت شروح لهذه الروايات سميت باسم (الحجارات) ومن مجموعهما كان التلمود.

(٥) في ج: بغير.

(٦) في ب، ج، ص: وخطروا.

(٧) اللحمان: جمع لحم (مخختار الصحاح).

(٨) انظر: الثانية: ٣/٧ - ٤.

يذبحونها قرباناً للأصنام لأنه سمي عليها غير الله^(١)، فأما ما ذكر عليه اسم الله وذبح الله^(٢) فلم تنطق التوراة بتحريمي البة، بل (نقطت)^(٣) يابحة أكلهم من أيدي غيرهم من الأمم، وموسى إنما نهاهم عن مناكحة عباد الأصنام خاصة، وأكل ما يذبحونه باسم الأصنام، قالوا: التوراة حرمت علينا أكل الطريفا، قيل لهم: الطريفا هي الفريسة التي يفترسها الأسد والذئب أو غيرهما من السبع، كما قال في التوراة: (ولحم في الصحراء فريسة لا تأكلوا للكلب ألقوه)^(٤)، فلما نظر فقهاؤهم إلى التوراة غير ناطقة بتحريم مأكل الأمم عليهم إلا عباد الأصنام وصرحت التوراة بأن تحريم مأكالتهم ومخالفتهم خوف استدرج المخالطة إلى المناكحة، والمناقحة قد تستتبع الانتقال (إلى أدیانهم)^(٥) وموافقتهم في عبادة الأوثان، ووجدوا جميع هذا واضحاً في التوراة، اختلقوا كتاباً سمه «هلكت شحيطا» وتفسيره «علم الذبابة» ووضعوا في هذا الكتاب من الأصار والأغلال ما شغلهم به عمّا هم فيه من الذل والصغار والخزي، فأمر وهم فيه أن ينفعوا الرئة حتى يملؤوها هواء، ويتأملونها هل يخرج (الهواء)^(٦) من ثقب منها أم لا؟ فإن خرج منها (الهواء)^(٧) حرموه وإن كان بعض أطراف الرئة لاصقة ببعض لم يأكلوه، وأمراوا الذي يتقد الذبيحة أن يدخل يده في بطن الذبيحة ويتأمل بأصابعه، فإن وجد القلب متتصقاً إلى الظهر أو أحد الجانبين ولو كان الالتصاق بعرق دقيق كالشارة حرموه ولم يأكلوه وسموه «طريفاً» ومعنى هذه اللفظة عندهم أنه نجس حرام، وهذه التسمية عدوان منهم، فإن معناها في نعتهم هو «الفريسة التي يفترسها السبع» ليس لها معنى في لغتهم سواه.

وكذلك عندهم في التوراة: أن أخيوة يوسف لما جاءوا بقميصه ملطخاً بالدم، قال يعقوب في جملة كلامه: «طاروف يطراف يوسف» تفسيره: وحش رديء أكله، افتراساً افترس يوسف^(٨).

(١) ورد في سفر الخروج ما نصه «من ذبح لإله غير رب وحده يهلك». الخروج ٢٢/٢١.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) في ب، ج: قطعت.

(٤) الخروج ٢٢/٣١.

(٥) في ص: من دينهم إلى دينهم.

(٦) و (٧) في الأصل: الهوى.

(٨) التكوين: ٣٧/٣٣.

وفي التوراة: «ولحم في الصحراء فريسة لا تأكلوه»^(١). فهذا الذي حرمته التوراة من الطريقة. وهذا نزل عليهم وهم في التيه، وقد اشتد (قرْمُهم)^(٢) إلى اللحم فمنعوا من أكل الفريسة والميتة.

ثم اختلفوا في خرافات وهذيات تتعلق بالرئة وقالوا: ما كان من الذبائح سليماً من هذه الشروط فهو (دخيا)^(٣) وتفسيره: ظاهر (مذكى)^(٤)، وما كان خارجاً عن ذلك فهو طريقاً وتفسيره: نجس حرام.

ثم قالوا: معنى قوله في التوراة: «ولحم فريسة في الصحراء لا تأكلوه، للكلب القوه» يعني: إذا ذبحتم ذبيحة ولم توجد فيها هذه الشروط فلا تأكلوها، بل بيعوها على من ليس من أهل ملتكم (قالوا: ومعنى قوله للكلب ألقوه أي: لمن ليس على ملتكم)، فهو الكلب فأطعموه إياها بالثمن.

فتأمل هذا التحريف والكذب على الله وعلى التوراة وعلى موسى . ولذلك كذبهم الله على لسان رسوله في تحريم ذلك. فقال في السورة المدنية^(٥) التي خاطب فيها أهل الكتاب: «فَكُلُوا مَا رَزَقْنَاهُ لَكُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانَهُ تَبْعَدُونَ، إِنَّمَا حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَزِيرِ وَمَا أَهْلَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ بِأَغْرِيَانِهِ وَلَا عَادَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»^(٦)، وقال في سورة الأنعام: «قُلْ لَا أَجُدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمًا خَنَزِيرًا فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فَسَقًا أَهْلَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ لَا عَادٍ فَلَا إِثْمٌ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»^(٧).

(١) الخروج: ٢٢/٣١.

(٢) في بـ، جـ، صـ: قومهم والقرم: بفتحتين، شدة شهوة اللحم، وقد قرم إلى اللحم من باب طرب (مختر الصاحح: ص ٥٣٢).

(٣) في بـ: دوحينا.

(٤) ليست في بـ، جـ، صـ.

(٥) السورة مكية والخطاب ليس لأهل الكتاب كما ذكر المؤلف، قال القرطبي: وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ثم ذكر القرطبي استثناء بعض الآيات وليس منها هذه الآية. (انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٥/٦٥).

(٦) سورة النحل: الآيات ١١٤، ١١٥.

(٧) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام، وقد وقع سهو من الناسخ (في نسخة الأصل) فلم يكتب هذه الآية.

وعلى الذين هادوا حرّمنا كلّ ذي ظُفْرٍ ومن البقرِ والغنم حرّمنا عليهم شُحُومَهُمَا إلّا ما حملتْ ظهورُهُمَا أو الحوایا أو ما اخْتَلَطَ بِعَظَمٍ^(١) فهذا تحريم زائد على الأربعة المتقدمة.

وقال في سورة النحل، وهي بعد هذه السورة نزولاً ﴿وَعَلَى﴾^(٢) الذين هادوا حرّمنا ما قصصنا عليك من قبل^(٣).

فهذا المحرّم عليهم بنص التوراة ونص القرآن، فلما نظر القراءون منهم وهم أصحاب عانان^(٤) وبنiamين^(٥) إلى هذه المحالات الشنيعة والافتراء الفاحش والكذب البارد على الله وعلى التوراة وعلى موسى، وأن أصحاب التلمود والمشنّا كذابون على الله وعلى التوراة وعلى موسى، وأنهم أصحاب حماقات ورقاعات^(٦)، وأن أتباعهم ومشايخهم يزعمون أن الفقهاء منهم كانوا إذا اختلفوا في مسألة من هذه المسائل وغيرها، يوحّي الله إليهم بصوت يسمعونه «الحق» في هذه المسألة^(٧) مع الفقيه فلان» ويسمون هذا الصوت^(٨): بث قول (فلما نظر القراءون إلى هذا الكذب والمحال)^(٩)، قالوا: قد فسق هؤلاء ولا يجوز (قبول)^(١٠) خبر فاسق ولا فتواه، فخالفوهم في سائر ما أصلوه من الأمور التي لم ينطق بها نص التوراة، وأما تلك الترهات التي ألفها فقهاؤهم الذين يسمونهم

(١) سورة الأنعام: الآياتان ١٤٥، ١٤٦.

(٢) في الأصل: على.

(٣) سورة النحل: الآية ١١٨.

(٤) عانان: وفي ج: عيان. وهو داود عنان مؤسس فرقة القرائين في القرن الشامن الميلادي، وهو أحد علماء اليهود في بغداد في ذلك الوقت (بني إسرائيل في الكتاب والستة د. محمد سيد طنطاوي: ٩٨/١).

(٥) بنiamين: لم أقف على ترجمة له ويبدو أنه مؤسس فرقة القرائين.

(٦) الرقاعات: أرقع الرجل جاء برقاعة وحمق، والرقيق والمرقان الأحمق (مختر الصلاح: ص ٢٥٣).

(٧) في الأصل: المسائل.

(٨) في الأصل: هذه الأصوات.

(٩) سقطت من الأصل.

(١٠) سقطت من ج.

«الحخاميم» في علم الذبابة ورتبوا ونسبوها إلى الله، فأطروحتها القراؤون كلها وألغوها وصاروا لا يحرمون شيئاً من الذبائح التي يقولون ذبحها البَّة، ولهم فقهاء أصحاب تصانيف إلا أنهم لا يبالغون في الكذب على الله وهم^(١) أصحاب ظواهر مجردة، والأولون أصحاب^(٢) استنباط وقياسات (الفرقة الثانية)^(٣) يقال لهم «الربانيون» وهم أكثر عدداً. وفيهم الحخاميم الكاذبون على الله الذين يزعمون أن الله كان يخاطب جميعهم في كل مسألة بالصوت والحرف الذي يسمونه «بِثْ قُول» وهذه الطائفة أشد اليهود عداوة لغيرهم من الأمم. فإن الحخاميم أوهموهم بأن الذبائح لا يحل منها إلا ما كان على الشروط التي ذكروها، وأن سائر الأمم لا تعرف هذا، وأنه شيء خصوا به وميزوا به عن سواهم، وأن الله شرفهم به كرامة لهم فصار الواحد منهم ينظر إلى من ليس على نحلته كما ينظر إلى الدابة، وينظر إلى ذبائحه كما ينظر إلى الميتة.

وأما القراؤون (فأكثراهم)^(٤) خرجوا إلى دين الإسلام ونفعهم تمسكهم بالظواهر، وعدم تحريفهم إلى أن لم يبق منهم إلا القليل لأنهم أقرب استعداداً لقبول الإسلام لأمررين:

أحدهما: إساءة (الظن)^(٥) بالفقهاء الكذابين المفترين على الله وطعنهم عليهم.

الثاني: تمسكهم بالظواهر وعدم تحريفها وإبطال معانيها.

وأما أولئك الربانيون فإن فقهاءهم وحخاميمهم حصرتهم في مثل سُمّ الخياط، بما وضعوا لهم (من التشديدات)^(٦) والأغلال (والآصار المضافة إلى الأغلال والآصار)^(٧) التي شرعها الله عقوبة لهم، وكان لهم في ذلك مقاصد:

(١) يعني القرائين.

(٢) وهم الفريسيون أو الربانيون.

(٣) في الأصل: وهم الزين.

(٤) ليست في الأصل.

(٥) في ب، ج، ص: ظنهم.

(٦) سقطت من ص وفي ج: التسديد.

(٧) سقطت من ص.

منها: أنهم قصدوا بذلك مبالغتهم في مضادة مذاهب الأمم حتى لا يختلطوا بهم، فيؤدي اختلاطهم بهم إلى موافقتهم والخروج من السبت واليهودية.

والقصد الثاني: أن اليهود (مبددون في)^(١) شرق الأرض وغربها وجنبها وشماليها، كما قال تعالى: «وقطعنهم في الأرض أماماً»^(٢) وما من جماعة منهم (في بلدة)^(٣) إلا إذا قدم عليهم رجل من أهل دينهم من بلاد بعيدة يظهر لهم الخشونة في دينه والمبالغة في الاحتياط. فإن كان من فقهائهم شرع في إنكار أشياء عليهم يومهم قلة دينهم وعملهم، وكلما شدد عليهم قالوا: هذا هو العالم، فأعلمهم أعظمهم تشديداً عليهم، فترأه أول ما ينزل عليهم لا يأكل من أطعمتهم وذبائحهم ويتأمل سكين الذابح ويشرع في الإنكار عليه في بعض أمره، ويقول «لا أكل إلا من ذبيحة يدي».

فتراهم معه في عذاب، ويقولون: هذا عالم غريب قدم علينا فلا يزال ينكر عليهم الحلال، ويشدّد عليهم الأصار والأغلال، ويفتح لهم أبواب المكر والاحتيال وكلما فعل لهم هذا قالوا: هذا هو العالم الرباني (والحاخام)^(٤) الفاضل. فإذا رأه رئيسهم قد مشي حاله وقيل بينهم ما قاله (وزن)^(٥) نفسه معه فإذا رأى أنه أزرى به^(٦) وطعن عليه لم يقبل منه، فإن الناس في الغالب يميلون مع الغريب، وينسبه أصحابه إلى الجهل وقلة الدين، ولا يصدقونه لأنهم يرون القادر قد شدد عليهم وضيق، وكلما كان الرجل أعظم تشديداً وتضييقاً كان أفقه عندهم فينصرف عن هذا الرأي فيأخذ في مدحه وشكوه، فيقول: لقد عظم الله ثواب فلان إذ قوى ناموس الدين في قلوب هذه الجماعة، وشيد أساسه وأحكم سياج الشرع، فبلغ القادر قوله فيقول: (هذا)^(٧) ما عندكم أفقه منه ولا أعلم (منه)^(٨)، وإذا لقيه يقول: «لقد زين الله بك أهل بلدنا ونعش بك هذه الطائفة».

(١) في ج: يتبددون.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٦٨.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في ج، ص: الحجمي وفي ب: الحجمي.

(٥) في الأصل: أزرأ وفي ص: وزر.

(٦) و (٧) سقطت من ص والأصل.

(٨) في ب، ج، ص: بالتوراة.

وإن كان القادر عليهم حبراً من أحبارهم فهناك ترى العجب العجيب من الناموس الذي (يعتمده)^(١) والسنن التي يحدثها ولا يعترض عليه أحد بل تراهم مسلمين له وهو يحتلب درّهمهم ويحتلب درّهمهم، وإذا بلغه عن يهودي طعن عليه، (صبر)^(٢) عليه حتى يرى منه جلوساً على قارعة الطريق يوم السبت، أو يبلغه أنه اشتري من مسلم لبناً أو خمراً أو خرج عن بعض أحكام (المشنا)^(٣) والتلمود، حرمه بين ملأ اليهود، وأباحهم عرضه، ونسبه إلى الخروج عن اليهودية، فيحيق به البلد على هذا الحال، فلا يسعه إلا أن يصلح ما بينه وبين الحبر بما يقتضيه (الحال)^(٤)، فيقول (لليهود)^(٥): إن فلاناً قد أبصر رشهه وراجع الحق وأقلع عما كان فيه، وهو اليوم يهودي على الوضع، فيعودون بالتنظيم والإكرام.

[مسألة البياما والجالوس]

وأذكر لك عن مسألة من مسائل شرعهم المبدل أو المنسوخ تعرف بمسألة «البياما والجالوس» وهي : أن عندهم في التوراة إذ أقام أخوان في موضع ومات أحدهما ولم (يعقب)^(٦) ، فلا تصير امرأة الميت إلى رجل أجنبي بل (حموها)^(٧) ينكحها، وأول ولد يولد لها ينسب إلى أخيه الدارج، فإن أبى أن ينكحها خرجمت متشكية إلى مشيخة قومه قائلة: قد أبى (حموي)^(٨) أن يستبقي اسمًا لأخيه فيبني إسرائيل ولم يرد نكاحي، فيحضره ويكلقه أن يقف ويقول: ما أردت نكاحها، فتتناول المرأة نعله فتخترجه من رجله، وتمسكه بيدها وتتصدق في وجهه وتتادي عليه: كذا فليصنع (بالذى)^(٩) لا يبني بيت أخيه،

(١) في ص: تراه يعتمد.

(٢) في ب، ج: أسلى وفي ص: أصلى.

(٣) في ب: المشيا وفي ج: المشنا.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) في ج: الحبر لليهود.

(٦) في ب، ج: يعقوب ولداً.

(٧) في ص: أين حموها.

(٨) في ص: ابن حموي.

(٩) في ب، ج، ص: بالرجل الذي.

ويدعى فيما بعد بمخلوع النعل (وينبذ)^(١) بهذا اللقب^(٢)، وفي هذا (كالتلجهة)^(٣) له إلى نكاحها لأنه إذا علم أنه قد فرض على المرأة وعليه (ذلك)^(٤)، فربما استحى وخجل من شيل نعله من رجله والبصاق في وجهه وبنذه باللقب المستكره الذي يبقى عليه وعلى أولاده (عاره)^(٥)، لم يجد بدأً من نكاحها، فإن كان من الزهد فيها والكرامة لها، بحيث يرى أن هذا كله أسهل عليه من أن يتلى بها، وهان عليه ذلك كله في التخلص منها لم يكره على نكاحها.

هذا عندهم في التوراة، ونشأ لهم من ذلك فرع مرتب عليه، وهو أن يكون مريداً للمرأة محبأً لها، وهي غاية الكراهة له، فأحدثوا بهذا الفرع حكمًا في غاية الظلم والفضيحة، فإذا جاءت إلى عند الحاكم أحضروه معها (ولقنوها)^(٦) أن يقول إن (حموي)^(٧) لا يقيم لأخيه اسمًا فيبني إسماعيل، ولم يرد نكاحي وهو عاشق لها، فيلزمونها بالكذب عليه، وأنها أرادته فامتنع، فإذا قالت ذلك أزمه الحاكم أن يقوم ويقول: ما أردت نكاحها – ونكاحها غاية سؤله وأمنيته – فيأمرونه بالكذب فيخرج نعله من رجله إلا أنه (لا شيل هنا)^(٨) ويقص في وجهه، وينادي عليه: هذا جزاء من لا يبني بيت أخيه، فلا يكفيهم أن كذبوا عليه، وأقاموه مقام الخزي وألزموه بالكذب والبصاق في وجهه والعتاب على ذنب جرّه إليه غيره كما قيل:

وَجَرْمُ جَرَّهُ سَفَهَاءُ قَوْمٍ وَحَلَّ بِغَيْرِ جَارِمِهِ العَذَابُ

أَفَلَا يَسْتَحِي مِنْ تَعْيِيرِ الْمُسْلِمِينَ مَنْ هَذَا شَرْعُهُ وَدِينُهُ؟!

(١) في ب، ج: ويكبر.

(٢) انظر: الشنية: ٢٥ / ٥ - ١٠ .

(٣) في الأصل: كالتنخية.

(٤) سقطت من ب، ج.

(٥) سقطت من ج.

(٦) في الأصل: وأثثوها.

(٧) في ص: ابن حموي.

(٨) في ب، ج، الأصل: ولا شك هناك. وفي ج: لا يسكر.

[الاضطراب السياسي من أهم أسباب التحرير]

(فصل) : ولا يستبعد اصطلاح الأمة الغضبية على المحال واتفاقهم على أنواع من الكفر والضلالة، فإن الدولة إذا انقرضت عن أمّة باستيلاء غيرها عليها، وأخذتها بلادها، وانطممت حقائق سالف أخبارها، ودرست معالم دينها وأثارها، (وتعذر^(١)) الوقوف على الصواب الذي كان عليه (أولها)^(٢) وأسلافها، لأن زوال الدولة عن الأمة إنما يكون بتباطع الغارات وخراب البلاد، وإحراقها وجلاء أهلها عنها، فلا تزال هذه البلاد متابعة عليها إلى أن تستحيل رسوم ديانتها، وتضمحل أصول شرعها وتتلاشى قواعد دينها، وكلما كانت الأمة أقدم واختلفت عليها الدول المتناولة لها بالإذلال والصغار كان حظها من الدراس دينها أوفر.

وهذه الأمة الغضبية أوفر الأمم حظاً من ذلك، فإنّها أقدم الأمم عهداً، واستولت عليها سائر الأمم من (الكش丹يين)^(٣) والكلدانيين^(٤) والبابليين والفرس واليونان والنصارى، وما من هذه الأمم إلا قصدت استئصالهم، وإحرق كتبهم وتخريب بلادهم، حتى لم يبق لهم مدينة ولا جيش ولا حصن إلا بأرض الحجاز وخير، فأعزّ ما كانوا هناك، فلما (قام)^(٥) الإسلام واستعلن رب تعالى من جبال فاران صادفهم تحت ذمة الفرس والنصارى، وصادق هذه الشرذمة بخير والمدينة فأذاقهم الله بال المسلمين من القتل والسببي وتخريب الديار (ذنوباً مثل ذنوب^(٦) أصحابهم)^(٧)، وكانوا من سبط

(١) في الأصل: وبعدت من.

(٢) في ب، ص، والأصل: أولوها.

(٣) الكشدانيون: لم يعرف قوم بهذا الاسم ويدو أنها تصحيف نسخ.

(٤) الكلدانيون: في ج، ب: المكdanine وفي ص: الكلدانيين والكتانيين. والكلدانيون: هم الجنس الغالب في بابل من ٧٢١ - ٥٣٩ ق.م وكانتوا يسكنون كلديا جنوب بابل، وقد ملأوا كل مناصب الكهنوت (قاموس الكتاب المقدس: ٧٨٥ / ٢).

(٥) في ب: قدم.

(٦) الذنوب: (فتح الذال): النصيب، وهو أيضاً: الدلو الملاي ماء (مختر الصاح).

(٧) هذا اقتباس من قوله تعالى: «إِنَّ لِلّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مُّثْلًا ذُنُوبَ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْعَجُلُونَ» [الذاريات: ٥٩].

لم يصبهم الجلاء، فكتب الله تعالى عليهم الجلاء، وشتتهم ومزقهم بالإسلام كل ممزق، ومع هذا فلم يكونوا مع أمة من الأمم أطيب منهم مع المسلمين ولا آمن، فإن الذي نالهم من النصارى والفرس وعباد الأصنام لم ينلهم مع المسلمين مثله، وكذلك الذي نالهم مع ملوكهم العصاة الذين قتلوا الأنبياء وبالغوا في طلبهم، وعبدوا الأصنام، وأحضروا من البلاد سدنة (الأصنام)^(١) لتعظيمها (وتعليم)^(٢) رسومها في العبادة، وبنوا لها البيع والهياكل وعكفوا على عبادتها وتركوا لها أحكام التوراة وشرع موسى أزمنة (طويلة)^(٣) وأعصاراً متصلة، فإذا كان هذا شأنهم مع ملوكهم فما الطن بشأنهم مع أعدائهم وأشد الأعداء عليهم كالنصاري الذين عندهم قتلوا المسيح وصلبوه وصفقوه وبصقوه في وجهه ووضعوا الشوك على رأسه. وكالفرس والكلدانين وغيرهم.

وكثيراً ما منعهم ملوك الفرس من الختان وجعلوهم قلفاً^(٤)، وكثيراً ما (منعوهم)^(٥) من الصلاة لمعرفتهم أن معظم صلاتهم دعاء على الأمم بالبار وعلى بلادهم بالخراب إلا أرض كنعان، فلما رأوا أن صلاتهم هكذا منعوهم من الصلاة، فرأى اليهود أن الفرس قد جدوا في منعهم من الصلاة، فاخترعوا أدعية خرجوا بها صلاتهم سمّوها (الخزانة)^(٦)، (وصاغوا)^(٧) لها ألحاناً عديدة وصاروا يجتمعون على تلحينها (وتلاوتها)^(٨).

والفرق بين الخزانة والصلاه، أن الصلاه بغير (الحن)^(٩)، ويكون المصلي فيها وحده، والخزانة بحن يشاركه غيره فيه. وكانت الفرس إذا انكروا ذلك عليهم، قالت

(١) سقطت من ج.

(٢) في ص: وتعظيم.

(٣) سقطت من ج.

(٤) قلف: جمع أقلف، وهو الرجل الذي لم يختن (مختار الصحاح: ص ٥٤٩).

(٥) في ب، ج، والأصل: منعهم.

(٦) في الأصل ج: الخزانة، بالحاء المهملة وفي ب، ص: الحرانة. والصحيح أنها بالخاء المعجمة وقد ورد في إنجيل يوحنا «هذا الكلام قاله يسوع في الخزانة وهو يعلم في الهيكل» (يوحنا: ٢٠/٨).

(٧) في ص: ووضعوا.

(٨) سقطت من ب.

(٩) في ج: الحق.

اليهود: نحن (نعني)^(١) وننوح على أنفسنا، فيخلون بينهم وبين ذلك. فجاءت دولة الإسلام فأمنوا فيها غاية الأمان وتمكنوا من صلاتهم في كنائسهم، واستمرت الخزانة سُنة فيهم، في الأعياد والمواسم والأفراح، وتعرضوا بها عن الصلاة. والعجب أنهم مع ذهاب دولتهم وتفرق شملهم وعلمهم بالغصب الممدوح المستمر عليهم، ومسخ أسلافهم قردة، وقتلهم الأنبياء (وعدوا لهم)^(٢) في السبت وخروجهم عن شريعة موسى والتوراة وتعطيلهم لأحكامها، يقولون في كل يوم في صلاتهم «محبة الدهر»:

«أحبنا»^(٣) يا إلهنا، يا أبانا، أنت أبونا منقذنا».

ويمثلون أنفسهم بعناقيد العنب، وسائر الأمم بالشوك المحيط بالكرم لحفظه، وأنهم سيقيم الله لهمنبياً من آل داود، إذا حرك شفتـيه بالدعـاء مـات جـمـيع الـأـمـمـ، ولا يـقـيـ على وجه الأرض إلا اليهود^(٤)، وهو بزعـهمـ المسيحـ الذيـ وعدـواـ بهـ وينـبـهـونـ اللهـ - بـزـعـهـمـ - من رـقـدـتهـ فيـ صـلـاتـهـ وـيـنـخـوـنـهـ وـيـحـمـونـهـ - تـعـالـىـ اللهـ عنـ إـفـكـهـمـ وـضـلـالـهـمـ عـلـوـاـ كـبـيرـاـ - . وـضـلـالـ هـذـهـ الـأـمـةـ الـغـضـيـبـةـ وـكـذـبـهـاـ وـافـتـرـاؤـهـاـ عـلـىـ اللهـ تـعـالـىـ وـعـلـىـ دـيـنـهـ وـأـنـبـيـائـهـ لـاـ مـزـيدـ عـلـيـهـ .

وأما أكلـهمـ الـرـبـاـ وـالـسـحـتـ وـالـرـشاـ (ـوـاسـتـبـداـهـمـ)^(٥) دونـ الـعـالـمـ بـالـخـبـثـ وـالـمـكـرـ والـبـهـتـ وـشـدـةـ الـحرـصـ عـلـىـ الدـنـيـاـ، وـقـسـوـةـ الـقـلـبـ (ـوـالـذـلـ وـالـصـغـارـ وـالـخـزـيـ وـالـتـحـيلـ عـلـىـ الـأـغـرـاضـ الـفـاسـدـةـ وـرـمـيـ الـبـرـاءـ بـالـعـيـوبـ وـالـطـعـنـ)^(٦) عـلـىـ الـأـنـبـيـاءـ، فـأـرـخـصـ شـيـءـ عـنـهـمـ، وـمـاـ عـيـرـواـ بـهـ الـمـسـلـمـينـ مـاـ ذـكـرـوهـ وـمـاـ لـمـ يـذـكـرـوهـ فـهـوـ فـيـ بـعـضـهـمـ وـلـيـسـ فـيـ جـمـيعـهـمـ. وـنـبـيـهـمـ وـكـتـابـهـ وـدـيـنـهـ وـشـرـعـهـ بـرـيـءـ مـنـهـ. وـمـاـ عـلـيـهـ مـنـ مـعـاصـيـهـ وـذـنـبـهـمـ فـإـلـىـ اللهـ تـعـالـىـ إـيـابـهـمـ وـعـلـىـ اللهـ حـسـابـهـمـ .

(١) في ج: نشعى.

(٢) في الأصل: وعدوا لهم.

(٣) في ج: أحينا.

(٤) انظر: الشتية: ١٨/١٥ - ٢٠.

(٥) في الأصل: واستئذاؤه.

(٦) سقطت من الأصل.

[أمة النصارى]

[أولاً : انحرافهم في الأصول والعقائد]

(فصل) : وإن كان المعيير للMuslimين من أمة الضلال وعباد الصليب والصور المدهونة في الحيطان والسقوف، فيقال له: ألا يستحب من أصل دينه الذي يدین به (ويعتقد) ^(١) أن رب السموات والأرض تبارك وتعالى نزل عن كرسي عظمته وعرشه ودخل في (فرج) ^(٢) امرأة تأكل وتشرب وتبول (وتغوط) ^(٣) ، فالتحم ببطنها وأقام هناك تسعة أشهر يتلبط بين نجو ^(٤) وبول ودم وطمث، ثم خرج إلى القساط ^(٥) (والسرير) ^(٦) كلما بكى ألمته أمّه ثديها، ثم انتقل إلى المكتب بين الصبيان، ثم آل أمره إلى لطم اليهود خديه وصفعهم قفاه وبصقهم في وجهه ووضعهم تاجاً من الشوك على رأسه، والقصبة في يده استخفافاً به وانتهاكاً لحرمته، ثم قربوه من مركب خص (بالبلاء) ^(٧) ، فشدوا عليه وربطوه بالحبال وسمروا يديه ورجليه، وهو يصبح ويبكي ويستغيث من حرّ الحديد وألم الصليب.

هذا وهو (بزعمهم) ^(٨) الذي خلق السموات والأرض وقسم الأرزاق والأجال ولكن اقتضت حكمته ورحمته أن مكن أعداءه من نفسه لينالوا منه ما نالوا فيستحقوا بذلك العذاب والسجن في الجحيم، ويفدي أنبياءه ورسله (وأولياءه) ^(٩) ، فيخرجهم من سجن إبليس، فإن روح آدم وإبراهيم ونوح وسائر النبيين عندهم، كانت في سجن إبليس في النار حتى خلصها من سجنه بتمكن أعدائه من صلبه.

(١) في ب، ج، ص: اعتقاده.

(٢) في ج: بطن.

(٣) في ص: وتغوط وتحيض.

(٤) النجو: ما يخرج من البطن (مختر الصحاح: ص ٦٤٨).

(٥) القساط: جبل يشد به قوائم الشاة عند الذبح، وكذا ما يشد به الصبي في المهد (مختر الصحاح: ص ٥٥١).

(٦) في الأصل: السرى.

(٧) في ص: بالبلاء راكبة.

(٨) ليست في ب، ج، ص.

(٩) في ب، ج، ص: وأولياءه بنفسه.

وأما قولهم في مريم، فإنهم يقولون إنها أم المسيح ابن الله في الحقيقة، ووالدته في الحقيقة^(١) لا أم لابن الله إلا هي والدة، ولا والدة له غيرها، ولا أب إلا الله، ولا والد له سواه، وإن الله اختارها لنفسه ولولادة ولده وابنه من بين سائر النساء، ولو كانت كسائر النساء لما ولدت إلا عن وطء الرجال لها، ولكن اختصت عن النساء بأنها حبت بابن الله وولدت ابنه الذي لا ابن له في الحقيقة غيره، ولا والد له سواه، وإنها على العرش جالسة عن يسار رب تعالى والد ابنها. وابنها عن يمينه، والنصارى يدعونها ويسألونها سعة الرزق وصحة البدن وطول العمر ومغفرة الذنوب، وأن يكون لهم عند ابنها والد الذي يعتقد عامتهم أنه زوجها، ولا ينكرون ذلك عليهم – سورةً وسندًا وذخراً وشفيعاً وركناً – ويقولون في دعائهم:

«يا والدة الإله اشفعي لنا».

وهم يعظمونها ويرفعونها على الملائكة وعلى جميع النبيين والمرسلين، ويسألونها ما يسأل الإله من العافية والرزق والمغفرة.

حتى أن اليعقوبية^(٢) تقول في مناجاتهم لها: «يا مريم يا والدة الإله كوني لنا سورةً وسندًا وذخراً، (وركناً)^(٣)».

والنسطورية^(٤) تقول: «يا والدة المسيح كوني لنا كذلك».

ويقولون لليعقوبية: لا تقولوا يا والدة الإله، وقولوا يا والدة المسيح، فقالت لهم اليعقوبية: المسيح عندنا وعنكم إلى في الحقيقة؛ فأي فرق بيننا وبينكم في ذلك، ولكنكم أردتم مصالحة المسلمين (ومقارنتهم)^(٥) في التوحيد.

(١) قال النصارى بالوهية مريم، وقد أقروا ذلك في مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١، حيث وضع هذا المجمع مقدمة الوثيقة الأمانة؛ نصها: «نعمتك يا أم النور يا والدة الإله...» (انظر: تاريخ الأقباط: ١٧٨/١).

(٢) اليعقوبية: هم أتباع يعقوب البرادعي، وسيأتي الحديث عنهم عند الحديث عن فرق اليهود.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) النسطورية: هم أتباع نسطور،... وترجمتهم عند الحديث عن فرق اليهود.

(٥) في ص: ومقارنتهم.

هذا والأوقيان الأرجاس من هذه الأمة (الضالة)^(١) تعتقد أن الله سبحانه وتعالى اختار مريم لنفسه وتحططها كما يتحطط الرجل المرأة.

قال النظام^(٢) بعد أن حكى ذلك «وهم يفصحون بهذا عند من يتفقون به» وقد قال ابن الإخشيد^(٣) هذا عنهم في «المعونة»^(٤).

وقال: إلية يشيرون، ألا ترى أنهم يقولون: «من لم يكن والدًا يكون عقيماً» والعقم آفة وعيب.

وهذا قول جميعهم، وإلى المبايعة يشيرون، ومن خالط القوم طاولهم وباطنهم عرف ذلك منهم.

فهذا كفرهم وشركهم برب العالمين، ومبتهلم لهم، ولهذا (قال)^(٥) أحد الخلفاء الراشدين^(٦): «أهينوهم ولا تظلموهم، فلقد سبوا الله مسبة ما سبّه أحد من البشر»^(٧).

وقد أخبر النبي ﷺ عن ربه في الحديث الصحيح أنه قال: «شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وكذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، أما شتمه إبّاني قوله: اتخاذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم يكن لي كفواً أحد، وأما تكذبيه إبّاني فقوله: لن يعيديني كما بدأني (وليس أول) الخلق بأهون عليّ من إعادته»^(٨).

(١) ليست في ب، ج، ص.

(٢) النظام: هو أبو إسحق إبراهيم بن سيار بن هانئ، وهو من أئمة المعتزلة (انظر: الفهرست، ابن النديم: ص ٢٠٥).

(٣) ابن الإخشيد: هو أبو بكر أحمد بن علي بن معجور الإخشيد، من أفضليات المعتزلة وصلحائهم وزهادهم. كان حسن الفصاحة وله معرفة بالعربية وله في الفقه عدة كتب، توفي سنة ٣٢٦هـ (انظر: الفهرست: ص ٢٢٠).

(٤) هو كتاب المعونة في الأصول لابن الإخشيد، ذكره ابن النديم في الفهرست: ص ٢٢٠.

(٥) في ب، ج، ص: قال فيهم.

(٦) في إغاثة اللهفان: عمر بن الخطاب.

(٧) هذا القول مذكور في الجواب الصحيح: ٣/١٧٣. كما ذكره ابن القيم في إغاثة اللهفان: ٢/٢٨٣.

(٨) في الأصل: وليس ذلك، وفي ج: مبدأ.

(٩) أخرجه البخاري في كتاب التفسير مع شيء من التقديم والتأخير انظر: صحيح البخاري: ٦٥-٨/٤٤٨٢. كما ذكره في بدء المخلق: ٥٩/١-٣١٩٣.

فلو أتى الموحدون بكل ذنب وفعلوا كل قبيح وارتکبوا كل معصية، ما بلغت مثقال ذرة في جنب هذا الكفر العظيم برب العالمين، ومسبته هذا السب وقول العظائم فيه. فما ظن هذه الطائفة برب العالمين أن يفعل بهم إذا لقوه «يوم تبيضُّ وجوهٍ وتسودُّ وجوهٍ»^(١)، ويسأَل المسيح على رؤوس الأشهاد (وهم يسمعون)^(٢) «يا عيسى ابن مريم، أَنْتَ قلت للناس اتَخْذُونِي وأَمِي إِلَهُينَ مِنْ دُونَ اللَّهِ»^(٣).

فيقول المسيح (مكذباً لهم)^(٤): «سَبَحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّهِ، إِنْ كُنْتَ قَلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنْكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغَيْبِ». ما قلت لهم إِلَّا مَا أَمْرَتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُ اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ وَكُنْتَ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دَمْتَ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتِنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»^(٥).

(فصل): (فهذا) أصل دينهم وأساسه الذي قام عليه.

[ثانياً]: انحرافهم في الفروع والشائع]

وأما فروعه وشائعاته فهم مخالفون للمسيح في جميعها، وأكثر ذلك بشهادتهم وإقرارهم ولكن (يجهلون)^(٦) على البتاركة^(٧) والأساقفة^(٨)، فإن المسيح صلوات الله وسلامه عليه كان يتدين بالطهارة ويغتسل من الجنابة ويوجب غسل الحائض. وطوابئ النصارى عندهم أن ذلك كله غير واجب، وأن الإنسان يقوم من على بطن المرأة ويبول ويتفغوط ولا يمس ماء ولا (يستنجي)^(٩)، والبول والنجو يتحدر على ساقه وفخذه ويصل إلى

(١) تضمن من الآية ١٠٦ آل عمران.

(٢) سقطت من ج.

(٣) سورة المائدة: الآية ١١٦.

(٤) في ب، ج، ص: مكذباً لهم ومتبيناً منهم.

(٥) سورة المائدة: الآية ١١٦ - ١١٧.

(٦) في ج، ب: يختلفون؛ وفي ص: يجهلون.

(٧) البتاركة: جمع بطريقك.

(٨) الأساقفة: جمع أسقف.

(٩) في ب، ج، ص: يستخر.

كذلك وصلاته صحيحة تامة، ولو تغوط وبال وهو يصلبي ولم يضره، فضلاً عن أن يفسو ويضرط.

ويقولون: إن الصلاة (بالبول)^(١) والعائط أفضل من الصلاة بالطهارة، لأنها حينئذٍ أبعد من صلاة المسلمين واليهود وأقرب إلى مخالففة الأمتين.

ويستفتح الصلاة بالتصليب بين عينيه، وهذه الصلاة رب العالمين بريء منها، وكذلك المسيح وسائر (الحواريين المبینين فإن هذا بالاستهزاء أشبه منها بالعبادة، وحاشا المسيح أن تكون هذه صلاته أو صلاة أحد من الحواريين)^(٢).

واليس المسيح كان يقرأ في صلاته ما كان الأنبياء وبنو إسرائيل يقرأون في صلاتهم من التوراة والزبور.

وطوائف النصارى إنما يقرأون في صلاتهم كلاماً قد لحنه لهم الذين يتقدمون ويصلون بهم يجري مجرى النوح والأغاني، فيقولون: هذا قداس فلان ينسبونه إلى الذين وضعوه لهم.

وهم يصلون إلى الشرق وما صلى المسيح إلى الشرق قط^(٣)، وما صلى إلى أن (توفاه)^(٤) الله إلا إلى بيت المقدس، وهي قبلة داود والأنبياء قبله، وقبلة بنى إسرائيل.

واليس المسيح اختن^(٥) وأوجب الختان كما أوجبه موسى وهارون الأنبياء (قبله)^(٦).

واليس المسيح حرم الخنزير ولعن آكله وبالغ في ذمه – (والنصاري) تصر بذلك – (ولقد

(١) في ب، ج، ص: بالجنابة والبول.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) صلاتهم إلى الشرق مأخوذة من الوثنية الرومانية، ومن عبادة الشمس بالذات التي كانت سائدة آنذاك، ويفسر تأثير عبادة الشمس في النصرانية جلياً في أعياد النصارى فهي في معظمها أعياد لها صلة وثيقة بالشمس حتى العيد الأسبوعي وهو يوم الأحد، وهو بالإنجليزية (Sunday) وتترجمته الحرافية (يوم الشمس) توضح ذلك.

(٤) في ب، ج: رفعه.

(٥) الأسفار الحالية للعهد الجديد تذكر أنه عليه السلام اختن ولا يشير إطلاقاً إلى النهي عن الختان.

(٦) في ب، ج، ص: قبل المسيح.

رفع إلى الله^(١) وما طعم من لحمه وزن شعيرة، والنصارى تقرب إليه بأكله.

وال المسيح ما شرع لهم هذا الصوم الذي يصومونه فقط، ولا صامه في عمره مرتّة واحدة، ولا أحد من أصحابه، ولا صام العذارى في عمره، ولا أكل في الصوم ما يأكلونه ولا حرم ما يحرمونه، ولا عطل السبت يوماً واحداً حتى لقي الله، ولا اتخذ الأحد عيداً فقط.

والنصارى تقرّ أنه رقى مريم المجدلانية فأنخرج منها سبع شياطين^(٢)، وأن الشياطين قالت له: أين تأوي؟ فقال لها: (اسلكي)^(٣) هذه الدابة النجسة يعني: الخنزير^(٤). فهذه حكاية النصارى عنه.

وهم يزعمون أن الخنزير من أطهر الدواب وأجملها وأطيبها.

وال المسيح سائر في الذبائح والمناكح والطلاق والطلاق والمواريث سيرة الأنبياء قبله، وليس عند النصارى على من زنى أو لاط أو سكر حدّ في الدنيا أبداً، ولا عذاب في الآخرة، لأن القس والراهب يغفر لهم، فكلما أذنب أحدهم ذنبًا أهدى للقس هدية وأعطاه دراهم أو غيرها ليغفر له، وإذا أذنبت امرأة أحدهم بيتهما عند القس ليطيبها له، فإذا انصرفت من عنده وأخبرت زوجها أن القس طيبها، قبل ذلك منها وتبرّك به.

وهم يقرّون أن المسيح قال: «إنما جئتكم لأعمل بالتوراة وبوصايا الأنبياء قبلني، وما جئت ناقضاً بل متمماً، ولأن تقع السماء على الأرض أيسر على الله من أن نقض شيئاً من شريعة موسى، ومن نقض شيئاً من ذلك يدعى ناقضاً في ملکوت السماء»^(٥).

وما زال هو وأصحابه كذلك إلى أن خرج من الدنيا، وقال لأصحابه: اعملوا بمارأيتوني أعمل، ووصوا الناس بما وصيتكم به، وكونوا معهم كما كنت معكم، وكونوا لهم كما كنت لكم.

(١) في ب، ج، ص: ولقي الله.

(٢) لوقا: ٢/٨.

(٣) في ب، ج: اسكنني.

(٤) في إنجيل لوقا «فخررت الشياطين من الإنسان ودخلت في الخنازير» (انظر: ٣٣/٨).

(٥) متى: ١٧/٥ – ١٩.

[خروج كامل على التوراة]

وما زال أصحاب المسيح بعده على ذلك قریباً من ثلاثة سنه. ثم أخذ القوم في التغيير والتبدل والتقرب إلى الناس بما يهون وما تكره اليهود ومناقضتهم بما فيه ترك دين المسيح والانسلاخ منه جملة، فرأوا اليهود أنهم قالوا في المسيح إنه ساحر ممحزق ولد زنة، فقالوا: هو الرتام وهو ابن الله، ورأوا اليهود يختتنون فتركوا الختان، ورأوهم يبالغون في الطهارة فتركوها جملة، ورأوهم يجتنبون من (مؤاكله)^(١) الحائض (وملامستها)^(٢) فجامعواها هم. ورأوهم يحرمون الخنزير فأباحوه وجعلوه شعار دينهم. ورأوهم يحرمون كثيراً من الذبائح والحيوان فأباحوا ما دون الفيل إلى البعوضة، وقالوا: «كل ما شئت (ودع ما شئت)^(٣) لا حرج».

ورأوهم يستقبلون بيت المقدس في الصلاة، فاستقبلوا هم الشرق، ورأوهم يحرمون على الله نسخ شريعة شرعها، فجوزوا هم لأساقفهم وبطاركتهم أن ينسخوا ما شاؤوا ويحللوا ما شاؤوا ويحرموا ما شاؤوا.

ورأوهم يحرمون السبت ويحفظونه فحرموا هم الأحد، وأحلوا السبت مع إقرارهم بأن المسيح كان يعظم السبت ويحفظه.

ورأوهم ينفرون من الصليب فإن في التوراة (التي بأيديهم)^(٤): «ملعون من تعلق بالصلب»^(٥) والنصارى تقرّ بهذا فعبدوا هم الصليب، كما أن في التوراة تحريم الخنزير نصاً فعبدوا هم بأكله.

وفيها الأمر بالاختتان فعبدوا بتركه، مع إقرار النصارى أن المسيح قال لأصحابه:

(١) في الأصل: أكله.

(٢) في ب، ج: ولامستها ومخالطتها.

(٣) سقطت من ص.

(٤) سقطت من ب، ج، ص.

(٥) التشية: ٢١/٢٣.

«إنما جئتكم لأعمل بالتوراة ووصايا الأنبياء قبلي، وما جئت ناقضاً بل متمماً ولأن تقع السماء على الأرض أيسر عند الله من أن أنقض شيئاً من شريعة موسى»^(١).

فذهب النصارى تنقضها شريعة شريعة في مكايده اليهود (ومغايرتهم)^(٢)، وانضاف إلى هذا السبب ما في كتابهم المعروف عندهم «بافرakis»^(٣):

«أن قوماً من النصارى خرجوا من بيت المقدس وأتوا انطاكية وغيرها (من الشام)^(٤)، فدعوا الناس إلى دين المسيح الصحيح، فدعوه إلى العمل في التوراة وتحريم ذبائح من ليس أهلها، وإلى الختان وإقامة السبت وتحريم الخنزير وتحريم ما حرمته التوراة، فشق ذلك على (الأمم)^(٥) واستقلوه، فاجتمع النصارى بيت المقدس، وتشاوروا فيما يحتالون به على (الأمم)^(٦) ليجبروهم إلى دين المسيح، ويدخلوا فيه فاتق رأيهم على مداخلة الأمم، والترخيص لهم والاختلاط بهم، وأكل ذبائحهم والانحطاط في أهوائهم، والتخلق بأخلاقهم وإنشاء شريعة تكون بين شريعة الإنجيل وما عليه الأمم. وأنشأوا في ذلك كتاباً. فهذا أحد مجتمعهم الكبار – وكانوا كلما أرادوا إحداث شيء اجتمعوا مجتمعًا، وافترقوا فيه عما يريدون إحداثه إلى أن اجتمعوا المجتمع الذي لم يجتمع

(١) متى : ١٧/٥ - ١٨.

(٢) في ب، ج : ومغالطتهم.

(٣) في الأصل: فراكيس. وقد ذكره ابن حزم باسم الافركسيس، وقال عنه: وهو كتاب ألفه لوقا الطيب في أخبار الحواريين، وأخبار صاحبه بولس البنياميني، وسيرهم وتقليلهم (انظر: الفصل في الملل: ٣/٢).

وقد نقل عنه بعض علماء المسلمين ومنهم القاضي عبد الجبار في دلائل النبوة لكنه ذكر أن اسمه (فراكيس) بتقديم السين على الكاف (انظر: ثبوت دلائل النبوة: ١/١٥٠)، وذكره ابن النديم في الفهرست بقوله «وكتاب الحواريين ويعرف بـ (فراكيس) بتقديم الكاف على السين (انظر: الفهرست: ص ٤١). هذا الكتاب هو ما يعرف بسفر أعمال الرسل الذي وضعه بولس، ومما يؤيد ذلك أن هذه القصة المنقولة عن هذا الكتاب موجودة في سفر أعمال الرسل (انظر: الأعمال: ١٥/٢٣ - ٢٩).

(٤) في ج: من البلاد أي بلاد الشام وفي ب: من بلاد الشام.

(٥) في ج: الناس.

(٦) في ج: الناس.

لهم أكبر منه في زمن قسطنطين^(١) الرومي (بن هيلانة الحرانية)^(٢) الفندقية^(٣).

وفي زمانه بدل دين المسيح، وهو الذي شاد دين النصرانية المبتدع، وقام به وقد، وكان عدتهم زهاء ألفي رجل^(٤) فقرروا تقريراً ثم رفضوه ولم يرتصوه، ثم اجتمع ثلاثة وثمانية عشر رجلاً منهم^(٥)، والنصارى يسمونهم الآباء، فقرروا هذا التقرير الذين هم عليه اليوم، وهو أصل الأصول عند جميع طوائفهم، لا تتم لأحد منهم نصرانية إلا به ويسمونه «سنهدوس» وهي «الأمانة» ولنطها:

«نؤمن بالله الأب الواحد خالق ما يرى وما لا يرى، وبالرب الواحد يسوع ابن الله بكر أبيه وليس بمصنوع، إنه حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده أثنت العوالم، وخلق كل شيء الذي من أجلنا معاشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، ومن مريم البتول، (وحبلت به مريم البتول)^(٦)، وأخذ وصلب أيام

(١) هو قسطنطين بن قسطنطيوس كلوروس من زوجته هيلانة، ولد في (نيش) من أعمال يوغسلافية حوالي سنة ٢٨٠ م، التحق بالجيش وهو في الخامسة عشرة من عمره ثم صار قائداً وهو في الثامنة عشرة ثم فصل من الجيش، واستدعاه أبوه قسطنطيوس وكان قيصلاً يحكم غالبية إسبانيا وبريطانيا. تولى قسطنطين عرش الإمبراطورية سنة ٣٢٣ م وتوفي يوم العنصرة: ٢٢ / أيار / ٣٣٧ م (انظر: الروم، أسد رستم: ١ / ٥٢ - ٧٢).

(٢) في الأصل: هيلانة الحرانية (بالباء) والصواب: الحرانية (بالتون) نسبة إلى حران وهي التي تعرف عند النصارى بالقديسة هيلانة، وهي والدة الإمبراطور قسطنطين.

(٣) هذا هو المجمع المعروف بـ (مجمع نيقية) الذي عقد سنة ٣٢٥ وهو الذي صدرت فيه وثيقة الأمانة.

(٤) أي عدة رجال الدين الذين حضروا مجمع نيقية.

(٥) لقد حضر الجلسة الأولى لمجمع نيقية أكثر من ألفي رجل، لكن الغالبية العظمى منهم انسحبوا من المجمع لأن قسطنطين أراد أن يفرض بالقوة الآراء المنحرفة كتأليه المسيح أو غير ذلك، فدعى لاجتماع خاص حضره المؤيدون له أو بالأحرى المناقشون له وبلغ عددهم ثلاثة وثمانية عشر رجلاً. صدرت باسمهم وثيقة الإيمان المعروفة وقرارات المجمع، وقد اعترف مؤرخو المسيحية بذلك، فقد قال صاحب تاريخ الأقباط: «وقد بلغ مجموع الحاضرين نحو الألفين» وذكر ابن البطريق (المؤرخ المسيحي المعروف) أنه اجتمع في نيقية ثمانمائة وأربعون وألفاً من القساوسة (انظر: تاريخ الأقباط: ١ / ١٥٤؛ وانظر: محاضرات في النصرانية: ص ١٣٨).

(٦) سقطت من ج.

(بلاطس) الرومي ، ومات ودفن (وقام)^(١) في اليوم الثالث – كما هو مكتوب – وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه ، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات (والحياء)^(٢) ، ونؤمن بالرب الواحد الذي يخرج من أبيه روح مجبه ، ويُعمودية واحدة لغفران الخطايا ، وبجماعة واحدة قديسية سليحية جاثلية ، وبقيام أبدانا ، وبالحياة الدائمة إلى أبد الآدين» .

فصرّحوا فيها بأنّ المسيح رب ، وأنه ابن الله وأنه بكره ، وأنه ليس له ولد غيره ، وأنه ليس بمصنوع أي ليس بعد مخلوق بل هو رب خالق ، وأنه إله حق استلّ ولد من إله حق ، وأنه مساو لأبيه في الجوهر وأنه يده أتقنت العالم ، وهذه اليد التي أتقنت بها العالم عندهم ، هي التي ذاقت حرّ المسامير كما صرّحوا به في كتبهم ، وهذه ألفاظهم : قالوا : وقد قال القدوة عندنا : إن اليد التي سرّها اليهود في الخشبة ، هي اليد التي عجنت طينة آدم وخلقته ، وهي اليد التي شترت^(٣) السماء ، وهي اليد التي كتبت التوراة لموسى «قالوا : وقد وصفوا صنيع اليهود به – وهذه ألفاظهم – وأنهم لطموا الإله وضربوه على رأسه» .

قالوا : وفي بشارة الأنبياء به أن الإله تحبل به امرأة عندراء وتلدّه ويؤخذ ويصلب ويقتل .

قالوا : وأما «سنہودس» دون (الأمم)^(٤) ، قد اجتمع عليه سبعمائة من الآباء وهم القدوة وفيه : أن مريم حبّلت بالإله وأولدته وأرضعته وسقته وأطعمته ، قالوا : وعندينا أن المسيح ابن آدم وهو ربه وخالقه ورازقه وابن (إبراهيم وربه وخالقه ورازقه وابن إسرائيل وربه وخالقه ورازقه)^(٥) وابن مريم وربها وخالقها ورازقها .

قالوا : وقد قال علماؤنا ، ومن هو القدوة عند جميع طوائفنا «يسوع في البدء لم يزل

(١) سقطت من ج .

(٢) سقطت من ج .

(٣) شبر الشوب شبراً كاله بشبره (لسان العرب : ٤ / ٣٩٠) .

(٤) في الأصل : الأنام .

(٥) سقطت من ص والأصل .

كلمة، والكلمة لم تزل الله، والله هو الكلمة^(١)، فذاك الذي ولدته مريم (وعاينه)^(٢) الناس، وكان بينهم هو الله، وهو ابن الله وهو كلمة الله.

— هذه ألفاظهم — قالوا: فالقديم الأزلي خالق السموات والأرض هو الذي عاينه الناس بأبصارهم ولمسوه بأيديهم، وهو الذي حبلت به مريم، ومخاطب الناس من بطنها، حيث قال (للأعمى أنت مؤمن بالله قال) ^(٣) الأعمى: ومن هو حتى أؤمن به؟ قال: هو المخاطب (لـك) ^(٤) فقال: آمنت بك وختّر ساجداً.

قالوا: فالذى حبلت به مريم هو الله وابن الله وكلمة الله، قالوا: وهو الذي ولد ورضع وفطم وأخذ وصلب وصفع وكفت يداه وسمّر في وجهه ومات ودفن وذاق ألم الصليب والتسمير والقتل لأجل خلاص النصارى من خطاياهم.

قالوا: وليس المسيح عند طوائفنا الثلاثة بنبي ولا عبد صالح، بل هو رب الأنبياء وخالقهم وباعثهم ومرسلهم وناصرهم ومؤيدهم ورب الملائكة.

قالوا: وليس (مع) ^(٥) أنه بمعنى الخلق والتدبّر واللطف والمعونة، فإنه لا يكون لها بذلك مزية على سائر الإناث ولا الحيوانات، ولكنّه معها بحبّلها به واحتواء بطنها عليه، فلهذا فارقت جميع إثاث الحيوان، وفارق ابنتها جميع الخلق فصار الله وابنه الذي نزل من السماء، وحبلت به مريم ولدته إلهاً واحداً ومسيحاً واحداً ورباً واحداً وخالقاً (واحداً) ^(٦) لا يقع بينهما فرق، ولا يبطل الاتحاد بينهما بوجه من الوجوه لا في جبل، ولا في ولادة، ولا في حال نوم، ولا مرض، ولا صلب، ولا موت، ولا دفن، بل هو متعدد به في حال الجبل، فهو في تلك الحال مسيح واحد، وخلق واحد، وإله واحد، ورب واحد، وفي حال الولادة كذلك، وفي حال الصليب والموت كذلك، قالوا: فمنا من يطلق في لفظه وعبارة حقيقة هذا المعنى فيقول: مريم حبلت بالإله (ولدت الإله) ^(٧) ومات الإله. ومنا

(١) يوحنا: ١/١ - ٢.

(٢) في ج: وعاته.

(٣) سقطت من ص والأصل.

(٤) في الأصل: به مريم.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) سقطت من ص.

(٧) سقطت من ص.

من يمتنع من هذه العبارة لبساعته لفظها، ويعطي معناها وحقيقةها، ويقول: «مرير حبت بال المسيح في الحقيقة، وولدت المسيح في الحقيقة (وهي ألم المسيح في الحقيقة وال المسيح إله في الحقيقة ورب في الحقيقة)^(١) وابن الله في الحقيقة، وكلمة الله في الحقيقة، لا ابن الله في الحقيقة سواه ولا أب لل المسيح في الحقيقة إلا هو.

قالوا: فهؤلاء يوافقون في المعنى قول من يقول: حبت بالإله، وولدت بالإله وقتل بالإله (وصلب بالإله ودفن بالإله)^(٢)، وإن معنا اللفظ والعبارة.

قالوا: وإنما منعنا هذه العبارة التي أطلقها إخواننا لثلا يتوجه علينا إذا قلنا: حبت بالإله وولدت بالإله (وأم)^(٣) إله، أن هذا كله حلّ ونزل بالإله الذي هو أب، ولكننا نقول: حل هذا كله ونزل بال المسيح، والمسيح عندنا وعند طوائفنا إله تام (من إله تام)^(٤) من جوهر أبيه، فنحن وإخواننا في الحقيقة شيء واحد لا فرق بيننا إلا في العبارة فقط. قالوا: فهذا حقيقة ديننا وإيماننا، والأباء والقدوة قد قالوا قبلنا وسنوه لنا ومهدوه، وهم أعلم بال المسيح منا.

ولا يختلف المثلثة عباد الصليب من أولهم إلى آخرهم أن المسيح ليس بنبي ولا عبد صالح، ولكنه إله حق من إله حق من جوهر أبيه، وأنه إله تام من إله تام، وأنه خالق السموات والأرض والأولياء والآخرين ورازقهم ومحييهم ومميتهم وباعتهم من القبور وحاشرهم ومحاسبهم ومثيبيهم ومعاقبهم.

والنصارى تعتقد أن الأب انخلع من ملكه كله، وجعله لابنه فهو الذي يخلق ويرزق ويميت ويحيي ويدير أمر السموات والأرض.

ألا تراهم يقولون في أماناتهم: «ابن الله بكر أبيه وليس بمصنوع» إلى قولهما: «بيده أتقنت العوالم وخلق كل شيء» إلى قولهما: «وهو مستعد للمجيء تارة أخرى لفصل القضاء بين الأموات والأحياء».

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ب، ج، ص: وصلب ومات ودفن.

(٣) في ب: ومات بالإله وألم وفي ج، ص: وألم.

(٤) سقطت من الأصل.

ويقولون في صلاتهم ومناجاتهم: «أنت أيتها المسيح يسوع تحيينا (وتميتنا)^(١) وترزقنا وتخلق أولادنا وتقييم أجسادنا وتبعثنا وتجازينا».

[حقيقة المسيح عليه السلام]

وقد تضمن هذا كله تكذيبهم الصرير للمسيح، وإن أوهمتهم ظنونهم الكاذبة أنهم يصدقونه، فإن المسيح قال لهم: «إن الله ربى وربكم، وإلهي وإلهكم»^(٢).

فشهد على نفسه أنه عبد مردوب مصنوع كما أنهم كذلك، وأنه مثلهم في العبودية وال الحاجة والفاقة إلى الله تعالى.

وذكر أنه رسول الله إلى خلقه كما أرسل الأنبياء قبله.

ففي إنجيل يوحنا أن المسيح قال في دعائه: (إن الحياة الدائمة إنما تجب للناس بأن يشهدوا أنك الله الواحد الحق. وأنك أرسلت يسوع المسيح)^(٣).

وهذه حقيقة شهادة المسلمين أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وقال لبني إسرائيل: «بل تريدون قتلي وأنا رجل قلت لكم الحق الذي سمعت الله يقول»^(٤)، فذكر غايته أنه رجل بلغهم ما قاله الله، ولم يقل: وأنا إله ولا ابن إله، (على معنى التوالي)^(٥)، وقال: «إني لم أجيء لأعمل بمشيئة نفسي ولكن بمشيئة من أرسلني»^(٦)، وقال: «إن الكلام الذي تسمعونه مني ليس (هولي)^(٧)، ولكن للذي أرسلني، والويل لي إن قلت شيئاً من تلقاء نفسي ، (ولكن بمشيئة من أرسلني)^(٨)».

(١) سقطت من ب، ج، ص.

(٢) يوحنا: ١٧/٢٠ (إني أصعد إلى أبي وأيكم وإلهي وإلهكم).

(٣) يوحنا: ٣/١٧.

(٤) يوحنا: ٤٠/٨.

(٥) سقطت من ب، ج، ص.

(٦) يوحنا: ٥/٣٠.

(٧) في ص: من تلقاء نفسي .

(٨) سقطت من ب، ج.

(٩) يوحنا: ٧/١٦ – ١٧ .

وكان يواصل العبادة من الصلاة والصوم . ويقول : (ما جئت لأخدم بل جئت لأنخدم)^(١) ، فأنزل نفسه بالمنزلة التي أنزله الله بها ، وهي منزلة الخدام (الله)^(٢) وقال : (لست أدين العباد بأعمالهم ولا أحاسبهم بأعمالهم ، ولكن الذي أرسلني هو الذي يلي ذلك منهم)^(٣) .

كل هذا في الإنجيل الذي بآيديهم . وفيه أن المسيح قال : «يا رب قد علموا أنك قد أرسلتني وقد ذكرت لهم اسمك»^(٤) فأخبر أن الله ربه وأنه عبده ورسوله .

[دعوة إلى التوحيد]

وفيه «إن الله الواحد رب كل شيء أرسل ابن البشر إلى جميع العالم ليقبلوا إلى الحق» . وفيه أنه قال : (إن الأعمال التي أعملها ، الشاهدات لي بأن الله تعالى أرسلني إلى هذا العالم)^(٥) وفيه «ما أبعدني إن أحدثت شيئاً من قبل نفسي ولكنني أتكلم وأجيب بما علمني ربي»^(٦) .

وقال : «إن الله مسحني وأرسلني ، (وإنما أعبد الله)^(٧) الواحد ليوم الخلاص»^(٨)

(١) النص في إنجيل متى (وأكبركم يكون خادماً لكم ، فمن يرفع نفسه يتضع ، ومن يضع نفسه يرتفع) (متى : ١٢ - ١١/٢٣) .

(٢) سقطت من ب ، ج ، ص .

(٣) لعل هذا مأخذود مما ورد في يوحنا ما نصه (كما أسمع أدين ودينونتي عادلة لأنني لا أطلب مشيتي بل مشيئه الآب الذي أرسلني) يوحنا : ٥/٣٠ ، والنصل الذي أورده المؤلف رحمة الله يتعارض مع ما ورد في إنجيل يوحنا ونصه : «لأن الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن» يوحنا : ٥/٢٩ .

(٤) يوحنا : ٤/١٧ - ٦ .

(٥) يوحنا : ٥/٣٦ .

(٦) يوحنا : ١٤/٧ .

(٧) في ب ، ج : وإنما أنا عبد الله .

(٨) في إنجيل لوقا (روح الرب علي لأنه مسحني لأبشر المساكين ، أرسلني لأشفي المنكسرى القلوب) (لوقا : ٤/١٨) .

وقال : «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجْلَ مَا أَكَلَ وَلَا يَأْكُلُ وَمَا شَرَبَ وَلَا يَشْرَبَ وَلَمْ يَنْمِ وَلَا يَنْامَ وَمَا وَلَدَ وَلَا يَلْدُ وَمَا رَآهُ أَحَدٌ إِلَّا مَاتَ»^(١).

وبهذا يظهر لك سر قوله تعالى في القرآن العظيم : «مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرِيْمٍ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَقْتَ مِنْ قَبْلِهِ الرَّسُولَ وَأُمَّهُ صَدِيقَةً كَانَا يَأْكَلُانِ الْطَّعَامَ»^(٢) ، تذكيراً للنصارى بما قال لهم المسيح .

وقال في دعائه لما سأله ربها أن يحيي الميت : «أَنَا أَشْكُرُكَ وَأَحْمَدُكَ (لأنك)»^(٣) تجيب دعائى في هذا الوقت وفي كل وقت، فأسألك أن تحيي هذا الميت لتعلم بنو إسرائيل أنك أرسلتني وأنك تجتب دعائي»^(٤) .

عيسى النبي الإنسان :

وفي الإنجيل «إِنَّ الْمَسِيحَ حِينَ خَرَجَ مِنَ السَّامِرِيَّةَ وَلَحِقَ بِالْجَلْجَالِ»^(٥) قال : لم يكرم أحد من الأنبياء في وطن»^(٦) فلم يزد على دعوى النبوة .

(١) هذا النص لا نجد له متكاملاً في مكان واحد، بل نجد له مبثوثاً في أماكن مختلفة من العهدين القديم والجديد في إنجيل يوحنا «اللَّهُ لَمْ يَرِهُ أَحَدٌ قَطْ» (يوحنا: ١٨/١).

(٢) سورة المائدة: الآية ٧٥.

(٣) في ج: أنت.

(٤) يوحنا: ٤١/١١ – ٤٣.

(٥) جلجال: الكلمة عبرية معناها متدرج، ولها عدة معان وردت في الكتاب المقدس؛ ويستفاد من سفر صموئيل الأول أن الجلجال نصب شاول ملكاً وتجددت مملكته، وإلى الجلجال أتى وفد من سبط يهودا يرجح برجمع داود إلى الملك بعد موته شالوم، ويرجح أن ما ذكر في نوحيا بعد السبي إشارة إلى بيت الجلجال ولأن هي بقعة تسمى خربة الأنلة، وبالقرب منها بركة الجلوجولية على بعد ميل وثلث شرقى أريحا، كما يرد أنها قرية خرج منها إيليا واليسوع، كما أنها عاصمة ملك جوييم (قاموس الكتاب المقدس: ٢٦٢/١).

(٦) ترد هذه العبارة ضمن قصة للمسيح مع اليهود في الناصرة عاصمة الجليل في أكثر من موضع، الأول في إنجيل متى (لِيْسَ لِنَبِيِّ بِلَا كَرَامَةٍ إِلَّا فِي وَطَنِهِ) (متى: ٥٧/١٣)، والثاني في لوقا (لِيْسَ نَبِيًّا مَقْبُولاً فِي وَطَنِهِ) (لوقا: ٤/٢٤) كما ترد في إنجيل يوحنا (فَلَمَّا جَاءَ إِلَيْهِ السَّامِرِيُّونَ سَأَلُوهُ أَنَّ يَمْكُثُ عِنْهُمْ فَمَكَثَ هُنَاكَ يَوْمَيْنِ... وَبَعْدَ الْيَوْمَيْنِ خَرَجَ مِنْ هُنَاكَ وَمَعْنَى إِلَى الْجَلْجَلِ لَأَنَّ يَسُوعَ نَفْسَهُ شَهَدَ أَنَّ لِيْسَ لِنَبِيِّ كَرَامَةً فِي وَطَنِهِ) يوحنا: ٤/٤٠ – ٤٣.

وفي إنجيل لوقا : (لم يقبل)^(١) أحد من الأنبياء في وطنه، فكيف (تقبلوني؟)^(٢). وفي إنجيل مرقس، أن رجلاً أقبل إلى المسيح وقال : «أيها المعلم الصالح، أي خير أعمل لأنال الحياة الدائمة؟ فقال له المسيح : لم قلت صالحًا إنما الصالح الله وحده، وقد عرفت الشروط، لا تسرق ولا تزن ولا تشهد بالزور ولا تخن وأكرم أباك وأمك»^(٣).

وفي إنجيل يوحنا أن اليهود لما أرادوا قبضه رفع بصره إلى السماء وقال (قد دنا الوقت يا إلهي فشرفي لديك، واجعل لي سبيلاً أن أملك كل من ملكتني الحياة (الدائمة، وإنما الحياة)^(٤) الباقية أن يؤمنوا بك إلهًا واحدًا وباليسوع الذي بعثت، وقد عظمتك على أهل الأرض واحتملت الذي أمرتني به فشرفي)^(٥).

فلم يدع سوي أنه عبد مرسل مأمور بمعصية، وفي إنجيل متى : (لا تنسبوا أباكم على الأرض فإن أباكم الذي في السماء وحده، ولا تدعوا معلمين فإنما معلمكم المسيح وحده)^(٦).

والآب في لغتهم الرب المربى، أي لا تقولوا: إلهكم وربكم في الأرض، ولكنه في السماء. ثم أنزل نفسه المنزلة التي أنزله بها ربها ومالكه، وهو أن غايتها أنه يعلم في الأرض، وإلههم هو الذي في السماء.

وفي إنجيل لوقا، حين دعا الله فأحياناً ولد المرأة، فقالوا: هذا النبي لعظيم وإن الله قد تفقد أمته^(٧).

(١) في الأصل: لم يقتل، تقتلوني ، وفي ب: يقبل ويقبلوني وهو الصحيح وبالتالي تصحيف من النسخ وهذا ما يرد في إنجيل لوقا كما أشار المؤلف رحمة الله (ليسنبي مقبولًا في وطنه) (لوقا: ٤/٢٤).

كما أن بقاءها بالفظ (يقتل) مخالفة للواقع، فكم من الأنبياء قتلوا في أوطنهم وبخاصة عندبني إسرائيل .

(٢) مرقس: ١٠/١٧ - ١٨ .

(٣) سقطت من ب، ج، ص.

(٤) يوحنا: ١/١٧ - ٤ .

(٥) متى: ٩/٢٣ - ١٠ .

(٦) لوقا: ٧/١٦ .

وفي إنجيل يوحنا أن المسيح (أعلى^(١)) صوته في البيت وقال لليهود (قد عرفتوني
وموضوعي ، ولم آت من ذاتي (وقد^(٢) بعثني الحق ، وأنتم تجهلونه ، فإن قلت إنني أجهله
كنت (كاذباً)^(٣) مثلكم ، وأنا أعلم (أني منه)^(٤) وهو بعثني^(٥)).

فما زاد في دعواه على ما ادعاه الأنبياء فأمسكت المثلثة قوله (أني منه) وقالوا : إنه
حق من إله حق . وفي القرآن **﴿رسول من الله﴾^(٦)**.

وقال هو **﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾^(٧)** وكذلك قال صالح . ولكن أمة
الضلال كما أخبر الله عنهم يتبعون المتشابه ويردون المحكم . وفي الإنجيل أيضاً أنه قال
لليهود ، وقد قالوا له «نحن أبناء الله» فقال : لو كان الله أباكم لاعطتموني لأنني رسول منه ،
خرجت مقللاً ، ولم أقبل من ذاتي ، ولكن هو بعثني ، ولكنكم لا تقبلون وصيتي ،
وتعجزون عن سماع كلامي ، إنما أنتم أبناء الشيطان وتريدون إتمام شهواته^(٨).

وفي الإنجيل أن اليهود حاطت به وقالت له : «إلى متى تخفي أمرك إن كنت المسيح
الذي ننتظره فأعلمنا بذلك»^(٩).

ولم تقل : إن كنت الله أو ابن الله ، فإنه لم يدع ذلك ، ولا فهمه عنه أحد من أعدائه
ولا أتباعه.

وفي الإنجيل أيضاً أن اليهود أرادوا القبض عليه ، فبعثوا الأعونان ، وأن الأعونان
رجعوا إلى قوادهم ، فقالوا لهم : لم (لم)^(١٠) تأخذوه؟ فقالوا : ما سمعنا آدمياً أنصف منه ،

(١) في ج، ص: أعلى.

(٢) في ب، ج، ص: ولكن.

(٣) في ج: كذاباً بيتكم.

(٤) في ص: وأنتم تجهلونه أنه مني وأنا منه.

(٥) يوحنا: ٢٨/٧ – ٢٩.

(٦) سورة البينة: الآية ٢.

(٧) سورة الأعراف: الآية ٦٧.

(٨) يوحنا: ٤١/٨ – ٤٤.

(٩) يوحنا: ١٠ – ٢٤.

(١٠) سقطت من ج.

فقالت اليهود: وأنتم أيضاً مخدوعون؟ أترون (أنه)^(١) آمن به أحد من القواد ومن رؤسائه أهل الكتاب؟ فقال لهم بعض أكابرهم: أترون كتابكم يحكم على أحد قبل أن يسمع منه؟ فقالوا له: اكشف الكتب ترى أنه لا يجيء من جلجالنبي^(٢)، فما قالت اليهود ذلك إلا وقد أنزل نفسه بالمتزلة التي أنزله بها ربه ومالكه أنهنبي، ولو علمت من دعوهالإلهية لذكرت ذلك له وأنكرته عليه، وكان أعظم أسباب التغافر عن طاعته لأن كذبه كان يعلم بالحسن والعقل والفتورة واتفاق الأنبياء.

[الرد على إلهيّة المسيح]

ولقد كان يجب لله سبحانه - لو سبق في حكمته أن يبرر (عباده)^(٣)، وينزل عن كرسي عظمته ويباشرهم بنفسه - أن لا يدخل في (فرج)^(٤) امرأة ويقيم في بطئها بين البول والنحو والدم عدة أشهر (وإذ قد فعل ذلك لا يخرج صبياً صغيراً برضع ويكي^(٥)) وإذ قد فعل ذلك لا يأكل مع الناس ولا يشرب مع الناس ولا ينام معهم^(٦)، وإذ قد فعل فلا بيوت ويتغوط، ويمتنع من الخرأة إذ هي منقصة ابتلي بها الإنسان في هذه الدار لنقصه وحاجته، وهو تعالى المختص بصفات الكمال، المنعمون بنعموت العجلان، الذي ما وسعته سماواته ولا أرضه، وكرسيّه وسع السموات والأرض، فكيف وسعه (فرج)^(٧) امرأة - تعالى رب العالمين - وكلكم متتفقون على أن المسيح كان يأكل ويشرب وبيول ويتغوط وينام.

فيما عشر المثلثة وعيّاد الصليب، أخبرونا من كان الممسك للسموات والأرض حين كان ربها وخلقها مربوطاً على خشبة الصليب، وقد شدت يداه ورجلاه بالحبال، وسمّرت اليد التي أنقذت العالم؟ فهل بقيت السموات والأرض خلواً من إلهها وفاطرها، وقد جرى

(١) في الأصل: الله.

(٢) يوحنا: ٤٥/٧ - ٥٢.

(٣) في الأصل: بعبادته.

(٤) في ج: بطئ.

(٥) سقطت من صن والأصل.

(٦) سقطت من ص.

(٧) في ج: بطئ.

عليه هذا الأمر؟ أم تقولون استختلف على تدبيرها (غيره)^(١)، وهبط عن عرشه لربط نفسه على خشبة الصليب، ولينوقي حزّ المسامير ويوجب اللعنة على نفسه، حيث قال في التوراة: (ملعون ملعون من تعلق بالصلب)^(٢)، أم تقولون – وهو في الحقيقة قولكم – لا ندرى ولكن هذا في الكتب، وقد قاله الآباء – وهم القدوة – والجواب عليهم.

[شبهات وردود]

فنقول لكم: (إلا يا)^(٣) معاشر المثلثة عباد الصليب، ما الذي دلكم على إلهية المسيح؟

[الشبهة الأولى]

فإن كتم استدللتكم عليها بالقبض من أعدائه (عليه)^(٤) بزعمكم وسوقه إلى خشبة الصليب وعلى رأسه تاج من الشوك، وهم يصقون في وجهه ويصفعونه، ثم أركبوه (ذلك)^(٥) المركب الشنيع، وشدوا بيديه ورجليه بالحبال، وضربوا فيها المسامير، وهو يستغيث ويقلق ثم فاضت نفسه وأودع ضريحه.

فما (أَصَحَّهُ)^(٦) من استدلال عند أمثالكم ممن هو أضل من الأنعام، وهم عار على جميع الأنام.

[الشبهة الثانية]

وإن قلتم: إنما استدللنا على كونه إلهًا بأنه لم يولد من البشر، ولو كان مخلوقاً لكان مولوداً من البشر، فإن كان هذا الاستدلال صحيحاً فآدم إله المسيح، وهو أحق بأن يكون إلهًا منه لأنه لا أم ولا أب له والمسيح له أم.

(١) سقطت من ص.

(٢) تثنية: ٢١/٢٣.

(٣) في الأصل: وللآباء.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) سقطت من ب، ج.

(٦) في الأصل: أقبحه.

وحواء أيضاً أجعلوها إلهاً خامساً، لأنها لا أم لها، وهي أعجب من خلق المسيح . والله سبحانه وتعالى قد نوع خلق آدم، وبنيه إظهاراً لقدرته وأنه يفعل ما يشاء، فخلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى ، وخلق زوجته حواء من ذكر لا من أنثى ، وخلق عبده المسيح من أنثى لا من ذكر، وخلق سائر (النوع)^(١) من ذكر وأنثى .

[الشبهة الثالثة]

وإن قلتم : استدللنا على كونه إلهاً بأنه أحivi الموتى ، ولا يحييهم إلا الله . فاجعلوا موسى إلهاً آخر فإنه أتى من ذلك بشيء لم يأت المسيح بنظيره ولا يقاربه ، وهو جعل الخشبة حيواناً عظيماً ، وهذا أبلغ وأعجب من إعادة الحياة إلى جسم كانت فيه أولاً فإن قلتم : هذا غير إحياء الموتى ، فهذا يحيى النبي أتى بإحياء الموتى^(٢) وهم يقررون بذلك . وكذلك (إيليا)^(٣) النبي أيضاً أحivi صبياً بإذن الله^(٤) . وهذا موسى قد أحivi بإذن الله السبعين الذين ماتوا من قومه . وفي كتبكم من ذلك كثير عن الأنبياء والحواريين ، فهل صار أحد منهم إلهاً بذلك .

[الشبهة الرابعة]

وإن قلتم جعلناه إلهاً للعجائب التي ظهرت على يديه ، فعجائب موسى أغرب وأغرب .

(١) في ج : الأنواع .

(٢) اليسوع وهو اليشع – بالعبرية – ورد ذكر إحيائه للموتى في العهد القديم في أكثر من موضع ، فسفر الملوك يسرد قصته مع المرأة الشونمية ، وكيف بشرها بغلام وكان زوجها قد شاخ ، وكثير الغلام ثم مات فأرسلت إليه فأحياه بإذن الله (الملوك الثاني : ٤ / ٣٧ - ٨) كما يذكر هذا السفر أنه لما مات اليشع ودفن ، دفن فوقه في الحال ميت آخر فلما مس عظام اليشع عاش وقام على رجليه (الملوك الثاني : ١٣ / ٢٠ - ٢١) .

(٣) في ب ، ج : الياس .

(٤) إيليا هو إلياس عليه السلام . وقصة إحيائه الصبي نجدتها في سفر الملوك الأول : ١٧ / ١٧ - ٢٤ .

وهذا إيليا النبي بارك على دقيق العجوز ودهنها فلم ينفد ما في جراحها من الدقيق
وما في قارورتها من الدهن سبع سنين^(١).

[الشَّهْيَةُ الْخَامِسَةُ]

وإن جعلتموه إلَّا لكونه أطعم من أرغفة يسيرة آلاًفًا من الناس^(٢)، فهذا موسى قد
أطعم أمته أربعين سنة من المَنَ والسلوى. وهذا محمد ﷺ ابن عبد الله قد أطعم العسكر
كله من زاد يسيراً حتى شبعوا وملأوا أوعيتهم، وسقاءهم كلهم من ماء يسير
لا (يغمر)^(٣) اليد حتى ملأوا كل سقاء في العسكر، وهذا منقول عنه بالتواتر^(٤).

[الشَّهْيَةُ السَّادِسَةُ]

وإن قلتم جعلناه إلَّا لأنه صاح بالبحر فسكنت أمواجه^(٥)، فقد ضرب موسى البحر
بعصاه فانفلق اثنى عشر طريقاً، وقام الماء بين الطرق كالحيطان، وفجَّر من الحجر الصلد
اثنى عشر (عينا)^(٦) سارحة.

[الشَّهْيَةُ السَّابِعَةُ]

وإن جعلتموه إلَّا لأنه أبرا الأكمه والأبرص (وأحيى الموتى)^(٧). فآيات موسى
ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أعجب من ذلك.

(١) انظر: الملوك الأول: ١١/١٧ – ١٦ لكن النص لا يحدد المدة سبع سنين، لأنَّ هكذا قال رب إسرائيل إن كوار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت لا ينقص إلى اليوم الذي فيه يعطيه رب مطراً على وجه الأرض.

(٢) الأرغفة خمسة وعدد الرجال نحو خمسة آلاف. انظر: يوحنا: ٩/٦ – ١٠ .

(٣) في ب، ج، ص: يعم.

(٤) الحديث، انظر: صحيح مسلم ١٠/١ – ٤٥ .

(٥) مرقس ٤/٣٩ .

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) في ب، ج، ص: وإحياء الموتى أعجب من ذلك.

[الشَّهْةُ الثَّامِنَةُ]

وإن جعلتموه إلَهًا لأنَّه ادعى ذلك، فلا يخلو إما أن يكون الأمر كما تقولون عنه، أو يكون إنما ادعى العبودية والافتقار وأنَّه مربوب ومصنوع مخلوق. فإنَّ كان كما ادعتم عليه، (فهذا)^(١) أخو المسيح الدجال، وليس بمؤمن ولا صادق فضلاً عن أن يكون نبياً كريماً. وجزاؤه جهنم وبئس المصير، كما قال تعالى: «وَمَن يَقُلُّ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِنِي فَذَلِكَ نَجْزِيهُ جَهَنَّمَ»^(٢).

وكل من ادعى الإلهية من دون الله فهو من أعداء الله، كفرعون ونمrod وأمثالهما من أعداء الله. فأخرجتم المسيح عن كرامة الله ونبيته ورسالته، وجعلتموه من أعظم أعداء الله، ولهذا كتم أشد (الناس)^(٣) عداوة لل المسيح في صورة محب (موال)^(٤)، ومن أعظم ما يعرف به كذب المسيح الدجال أنه ادعى الإلهية فيبعث الله عليه عبده ورسوله مسيح الهدي ابن مريم فقتله، ويظهر (للخلاق)^(٥) أنه كان كاذباً مفترياً. ولو كان إلَهًا لم يقتل فضلاً عن أن يصلب ويسمُّ ويُصْبَق في وجهه.

وإن كان المسيح إنما ادعى أنه (عبد الله ورسوله)^(٦) كما شهدت به الأنجليل كلها ودل عليه العقل والفطرة وشهدتم أنتم له بالإلهية – وهذا (هو)^(٧) الواقع – فلم تأتوا على إلهيته ببينة غير تكذيبه في دعواه. وقد ذكرتم عنه في أناجيلكم في مواضع عديدة ما يصرح بعبوديته، وأنَّه مربوب مخلوق، وأنَّه ابن البشر، وأنَّه لم يدع غير النبوة والرسالة فكذبتموه في ذلك كلَّه، وصدقتم من كذب على الله (وعليه)^(٨).

(١) في ب، ج، ص: فهو.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٩.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) في ب، ج، ص: عبد ونبي ورسول.

(٧) في ب، ج: قول.

(٨) في ب: تعالى ورسوله.

[الشَّهْبَةُ التَّاسِعَةُ]

وإن قلتم: إنما جعلناه إلهًا لأنه أخبر بما يكون بعده من الأمور (كذلك كان)^(١) الأنبياء، بل وكثير من الناس يخبر (بما يكون بعده من الأمور)^(٢) ويُخْبِرُ عن حوادث في المستقبل (جزئية)^(٣) ويكون ذلك كما أخبر به. ويعقُّ من ذلك كثير للكهان والمنجمين والسحرة.

[الشَّهْبَةُ الْعَاشِرَةُ]

وإن قلتم: إنما جعلناه إلهًا لأنه سمي نفسه ابن الله في غير موضع من الإنجيل، قوله «إني ذاهب إلى أبي»^(٤) و«إني سائل أبي»^(٥) ونحو ذلك وابن الإله إله. قيل: فاجعلوا أنفسكم (آلهة)^(٦) كلّكم، فإن في الإنجيل في غير موضع أنه سَمَّاه آباء وأباهم قوله «إني ذاهب إلى أبي وأبيكم»^(٧). وفيه (لا تنسوا آباقم على الأرض فإن آباقم الذي في السماء وحده)^(٨) وهذا كثير في الإنجيل. وهو يدل على أن الأب عندهم رب.

[الشَّهْبَةُ الْخَادِيَةُ عَشْرَةُ]

وإن جعلتموه إلهًا لأن تلاميذه ادعوا ذلك، وهم أعلم الناس به كذبتم أناجيلكم التي بأيديكم، وكلها صريحة أظهرت صراحة بأنهم ما ادعوا له إلا ما ادعاه لنفسه من أنه عبده.

(١) في ب، ج، ص: فكذلك عامة.

(٢) سقطت من ب، ص.

(٣) في ص والأصل: مما جربه.

(٤) يوحنا: ١٦/١٦.

(٥) يوحنا: ٢٦/١٦.

(٦) سقطت من ج.

(٧) يوحنا: ١٧/٢٠.

(٨) متى: ٩/٢٣.

فهذا متى يقول في الفصل (الناس)^(١) من إنجيله متحجاً بنبوة أشعيا في المسيح عن الله عز وجل : (هذا عبدي الذي اصطفيت وحبيبي الذي ارتاحت نفسي له)^(٢).
 وفي الفصل الحادي عشر^(٣) من إنجيله : «إني أشكرك يا رب السموات والأرض»^(٤)
 وهذا لوقا يقول في آخر إنجيله : «إن المسيح عرض له ولآخر من تلاميذه في الطريق (ملك)^(٥) وهو محزونان فقال لهما وهما لا يعرفانه : ما بالكم محزونين؟ فقال : كأنك غريب في بيت المقدس! إذ كنت لا تعلم ما حدث فيها في هذه الأيام من أمر يسوع الناصري فإنه كان رجلاً نبياً قوياً نقياً في قوله وفعله عند الله وعنده الأمة. أخذوه وقتلوه»^(٦). وهذا كثير جداً في الإنجيل.

[الشبهة الثانية عشرة]

وإن قلتم : إنما جعلناه إليها لأنه صعد إلى السماء. فهذا أخنون^(٧) وإلياس^(٨)، قد صعدوا إلى السماء وهو حيّان مكرمان لم تشکهما شوكة ولا طمع فيهما طامع.

(١) هكذا في جميع النسخ ، مع أن النص في الإصلاح الثاني عشر من إنجيل متى .

(٢) متى : ١٢/١٢ .

(٣) هكذا في جميع النسخ ، والنص في الفصل الحادي عشر من إنجيل متى .

(٤) متى : ٢٥/١١ .

(٥) في الأصل : يسلك .

(٦) لوقا : ١٣/٢٤ – ٢٧ .

(٧) أخنون : هو إدريس عليه السلام .

ويشير سفر التكويرن إلى صعوده فيقول : (وسار أخنون مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه) التكويرن : ٢٤/٥ .

كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا وَرَفِعْنَاهُ مَكَانًا عَلَيْهِ﴾ (مريم : ٥٦ – ٥٧).

وقد روی عن مجاهد في قوله : ﴿وَرَفِعْنَاهُ مَكَانًا عَلَيْهِ﴾ قال : إدريس رفع ولم يمتد كما رفع عيسى ، وقال سفيان عن منصور عن مجاهد ﴿وَرَفِعْنَاهُ مَكَانًا عَلَيْهِ﴾ قال : السماء الرابعة (تفسير ابن كثير ١٢٦/٣) .

(٨) إلياس عليه السلام وهو الذي يُطلق عليه (إيليا) في التوراة وقصة صعوده إلى السماء أثناء رحلته مع (اليشع) من الجليل إلى الأردن ذكرها سفر الملوك الثاني : ١/٢ – ١٨ .

وال المسلمين مجتمعون على أن محمداً ﷺ صعد إلى السماء وهو عبد محض وهذه الملائكة تصعد إلى السماء، وهذه أرواح المؤمنين تصعد إلى السماء بعد مفارقتها الأبدان، ولا تخرج بذلك عن العبودية، وهل كان الصعود إلى السماء مخرجاً من العبودية بوجه من الوجوه؟

[الشبهة الثالثة عشرة]

وإن جعلتموه إلهًا لأن الأنبياء سمته إلهًا ورباً وسيداً ونحو ذلك، فلم تزل كثير من أسماء الله عز وجل تقع على غيره عند جميع الأمم وفيسائر الكتب، وما زالت الروم والفرس والهند والسريانيون (والبرانيون)^(١) والقبط وغيرهم يسمّون ملوكهم آلهة وأرباباً. وفي السفر الأول من التوراة «إن بنى الله دخلوا على بنات (الناس)^(٢) ورأوهن بارعات بالجمال فتزوجوا منهاهن»^(٣).

وفي السفر الثاني^(٤) من التوراة قصة المخرج من مصر: «إني جعلتك إلهًا لفرعون»^(٥) وفي المزمور الثاني والثمانين: «وقام الله في جميع الآلهة»^(٦). هذا في العبرانية، وأما من نقله إلى السريانية فإنه حرف، فقال: قام الله في جماعة الملائكة وقال في هذا المزمور وهو يخاطب قوماً بالروح: «لقد ظنتن أنكم آلهة وأنكم (أبناء) الله كلكم»^(٧) وقد سمي الله عبده بالملك كما سمي نفسه بذلك^(٨).

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في ج: الياس.

(٣) التكوان: ٢/٦.

(٤) في الأصل: الثامن.

(٥) الخروج: ١/٧.

(٦) مزامير: ١/٨٢.

(٧) في الأصل: اماء.

(٨) مزامير: ٦/٨٢.

(٩) الملك من أسماء الله ﷺ الملك القدس... [الحشر: ٢٣] وأطلق القرآن اسم الملك على بعض ملوك الأرض «وقال الملك إني أرى سبع بقرات...» [يوسف: ٤٣] وغيرها كثيرة.

وسمى نبيه بالرؤوف الرحيم كما سمي نفسه بذلك^(١)، وسماه العزيز^(٢) وسمى نفسه كذلك ، واسم الرب واقع على غير الله تعالى في لغة أمة التوحيد، كما يقال: (هو رب الدار)^(٣) ، ورب المنزل، ورب الإبل، ورب هذا المتعان.

وقد قال أشعيا: (عرف الشور من اقتناه، والحمار مربط ربّه، ولم تعرف بنو إسرائيل)^(٤) (يعني من خلقهم)^(٥).

[الشبهة الرابعة عشرة]

وإن جعلتموه إلى لأنه صنع من الطين (كهيئة الطير أي)^(٦) صورة طائر ثم نفع فيها وصارت لحماً ودماً وطائراً حقيقة ولا يفعل هذا إلا الله.

قيل: فاجعلوا موسى بن عمران إلى الآلهة فإنه ألقى عصاه فصارت ثعباناً عظيماً، ثم أمسكه بيده فصارت كما كان.

[الشبهة الخامسة عشرة]

وإن قلتم: جعلناه إلى بشهادة الأنبياء الرسل له بذلك ، قال عزرا^(٧): حيث أسباهم بخت نصر إلى أرض بابل ، (إلى أربعمائة واثنين وثمانين سنة ، يأتي المسيح ويخلص الشعوب والأمم) وعند انتهاء هذه المدة أتي المسيح ، ومن يطبق يخلاص الأمم

(١) سقطت من الأصل.

(٢) ذكر اسم العزيز في القرآن على يوسف عليه السلام «فَالْلَّهُمَّ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ» [يوسف: ٧٨].

(٣) سقطت من ب، ج، ص.

(٤) أشعيا: ٣/١.

(٥) سقطت من ب، ج، ص.

(٦) سقطت من ب، ج، ص.

(٧) عزرا: اسم عبري معناه (عون) وهو كاهن عاد من بابل إلى القدس واعتبره اليهود المتأخرن زعيماً لهم بعد موسى ، ويعتبرونه مؤسس نظم اليهودية المتأخرة أي التي وضعت في القرن الخامس قبل الميلاد ، ولقبوه بالكاتب لأنه كان دارساً مجتهداً ومفسراً عميقاً لوصايا الله وعهده لبني إسرائيل ، وفي الكتاب المقدس سفر يعرف باسمه (سفر عزرا) (قاموس الكتاب المقدس: ٢/٦٢).

(والشعوب)^(١) غير الإله التام، قيل لكم: فاجعلوا جميع الرسل آلهة فإنهم خلصوا الأمم من الكفر والشرك، وخلصوهم من النار ياذن الله (وحده)^(٢).

ولا شك أن المسيح خلص من آمن به واتبعه من ذل الدنيا وعذاب الآخرة، كما خلص موسى بنى إسرائيل من فرعون وقومه، وخلصهم بالإيمان بالله واليوم الآخر من عذاب (النار)^(٣) في الآخرة.

وخلص الله سبحانه وتعالى بمحمد^{صلوات الله عليه} ابن عبد الله عبده ورسوله من الأمم والشعوب ما لم يخلصه نبي سواه. فإن وجبت الإلهية لعيسى (بذلك)^(٤) فموسى (ومحمد)^(٥) أحق بها منه.

[الشبهة السادسة عشرة]

وإن قلتم: أوجبنا له الإلهية لقول (أرميا) النبي عن ولادته في ذلك الزمان (يقوم لداود ابن)، وهو ضوء النهار، يملك الملك ويقيم الحق والعدل في الأرض، ويخلص من آمن به من اليهود ومن بنى إسرائيل ومن غيرهم، ويبقى بيت المقدس بغير مقابل، ويسمى الإله)^(٦).

فقد تقدم أن اسم الإله في الكتب المتقدمة وغيرها قد أطلق على غيره بمتزلة الرب والسيد والأب، ولو كان عيسى هو الله لكان أجل من أن يقال: ويسمى الإله، وكان يقول وهو الله، فإن الله سبحانه وتعالى لا يعرف بمثل هذا. وفي هذا (الدليل)^(٧) الذي جعلتموه به إلهاً أعظم الأدلة على أنه عبد، وأنه ابن البشر، فإنه قال: (ويقوم لداود ابن) وهذا الذي

(١) سقطت من ب، ج، ص.

(٢) في ج: الواحد القهار.

(٣) سقطت من ب، ج، ص.

(٤) سقطت من ج.

(٥) سقطت من ص.

(٦) معنى هذا النص نجده في سفر أشعيا وليس في سفر أرميا، كما أشار المؤلف رحمه الله (انظر: أشعيا: ٦/٩ - ٧).

(٧) سقطت من الأصل.

قام لدادو هو الذي سمي بـالله، فعلم أن هذا الاسم لمخلوق مصنوع مولود لا لرب العالمين وخلق السماوات والأرضين.

[الشَّبَهَةُ السَّابِعَةُ عَشْرَةً]

فإن قلتم: إنما جعلناه إلهًا من جهة قول أشعيا النبي (قل لصهيون يفرح ويتهلل فإن الله يأتي ويخلص الشعوب، ويخلص من آمن به ويخلص مدينة بيت المقدس، ويظهر الله ذراعه الطاهر فيها لجميع الأمم المتبددين و يجعلهم أمة واحدة، ويبصر جميع أهل الأرض خلاص الله، لأنه يمشي معهم وبين يديهم ويجتمعهم إله إسرائيل)^(١).

قيل لكم: هذا يحتاج أولاً إلى أن يعلم أن ذلك في نبوة أشعيا بهذا اللفظ من غير تحريف للفظه ولا غلط في الترجمة وهذا غير معلوم.

وإن ثبت ذلك لم يكن فيه دليل على أنه إله تام، وأنه غير مصنوع ولا مخلوق، فإنه نظير ما في التوراة من قوله:

(جاء الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران). وليس في هذا ما يدل على أن موسى ومحمد إلهين.

والمراد مجيء دينه وكتابه وشرعه ودهاء ونوره.

وأما قوله: (ويظهر الله ذراعه الطاهر لجميع الأمم المتبددين). ففي التوراة مثل هذا وأبلغ منه في غير موضع.

وأما قوله: (ويبصر جميع أهل الأرض خلاص الله لأنه يمشي معهم وبين يديهم) فقد قال في التوراة في السفر الخامس لبني إسرائيل: (لا تهابوهم ولا تخافوهם، لأن الله ربكم السائر بين أيديكم وهو محارب عنكم)^(٢).

وفي موضع آخر قال موسى: (إن الشعب هو شعبك، فقال: أنا أمضي أمامك،

(١) أشعيا: ٦٢/١٢.

(٢) الشنتية: ١/٢٩ - ٣٠.

فقال: إن لم تمض أنت أمامنا وإلا فلا تصعدنا من ه هنا، وكيف أعلم أنا وهذا الشعب أنني وجدت نعمة كذا إلا بسيرك معنا) ^(١).

وفي السفر الرابع (إن «أصعدت» ^(٢)) هؤلاء بقدرتك فيقولون لأهل الأرض الذين سمعوا منك الله فيما بين هؤلاء القوم يرونك عيناً بعين وغمامك (يقيم) ^(٣) عليهم، ويعود غمام يسير بين أيديهم نهاراً ويعود ناراً ليلاً) ^(٤).

وفي التوراة أيضاً يقول الله لموسى: (إني آتاك في غلظ الغمام لكي يسمع القوم مخاطبتي لك) ^(٥).

وفي الكتب الإلهية وكلام الأنبياء (من هذا كثير) ^(٦)، وفيما حكى خاتم الأنبياء عن ربّه تعالى أنه قال: «ولا يزال عبدي يتقرّب إلى بالسواقي حتى أحبه، فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبّي يسمع وبّي يبطش وبّي يمشي» ^(٧).

[الشّيّة الثّامنة عشرة]

ولأن قلتم جعلناه إلهاً لقول زكريا في نبوته: (افرح يا بنت صهيون لأنني آتاك وأحل فيك، (وأتراءى) ^(٨) ويؤمن بالله في ذلك اليوم الأمم الكثيرة ويكونون له (شعباً) ^(٩))

(١) الخروج ١٤/٣٣ - ١٦.

(٢) في الأصل: أضفت.

(٣) في ج، ص: يقيم.

(٤) العدد: ١٤ - ١٥.

(٥) الخروج: ٩/١٩.

(٦) في ج: كثير من هذا.

(٧) هذا النص جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، مع اختلاف في اللفظ، فلم ترد عند البخاري كلمة (أكون) وإنما كان اللفظ (حتى أحبه) ولم يرد عند البخاري خاتمة هذا النص (فبّي يسمع وبّي يبطش وبّي يمشي) وإنما ختم الحديث (ولم يرد عند البخاري ولن استعاد بّي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله تردد عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساته) (البخاري: ٣٢/٨١ - ٦٥٠٢). وأخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٢٥٦/٦.

(٨) في الأصل: اتزابا وفي ج: اتزانا وفي ص: اترايا.

(٩) في الأصل شيئاً وفي ج: شيئاً.

واحداً، ويحلّ هو فيهم، ويعرفني أني أنا الله القوي الساكن فيك، ويأخذ الله في ذلك اليوم الملك من يهودا ويملك عليهم إلى الأبد^(١).

قيل لكم: إن وجبت له الإلهية بذلك فتجب لإبراهيم وغيره من الأنبياء، فإن عند أهل الكتاب وأنتم معهم (إن الله تجلى على إبراهيم واستعلن له وتراءى له)^(٢).

وأما قوله (وأحل فيك) لم يرد الله سبحانه وتعالى حلول ذاته - التي لم تسعها السماوات والأرض - في بيت المقدس. وكيف تحل ذاته في مكان يكون فيه مقهوراً مغلوباً مع شرار الخلق؟ (كيف)^(٣) وقد قال: ويعرفون أني أنا الله القوي الساكن فيك؟ أفترى (عرفوا)^(٤) قوته بالقبض عليه، وشد يديه بالحبال، وربطه على خشبة الصليب، ودق المسامير في يديه ورجليه، ووضع تاج الشوك على رأسه، وهو يستغيث ولا يغاث؟! وما كان المسيح يدخل بيت المقدس إلا وهو مغلوب مقهور مستخف في غالب أحواله.

ولو صحت مجيء هذه الألفاظ صحة لا تدفع، وصحت ترجمتها كما ذكروه لكان معناها أن معرفة الله والإيمان به وذكره ودينه وشرعه حل في تلك البقعة وبيت المقدس، لما ظهر فيه دين المسيح بعد رفعه حصل فيه من الإيمان بالله ومعرفته ما لم يكن قبل ذلك.

وجماع الأمر أن النبوات المتقدمة والكتب الإلهية لم تنطق بحرف واحد يقتضي أن يكون ابن البشر إليها تماماً إله حق، وأنه غير مصنوع (ولا مربوب)^(٥)، بل لم يخصه إلا بما خصه به أخوه وأولي الناس به محمد بن عبد الله عليه السلام في قوله (إنه)^(٦) عبد الله رسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

وكتب الأنبياء المتقدمة وسائر النبوات موافقة بما أخبر به محمد عليه السلام، وذلك كله يصدق بعضه بعضاً، وجميع ما تستدل به المثلثة عباد الصليب على إلهية المسيح من

(١) انظر: زكريا: ١٠/٢ - ١٢ وانظر: صفيا: ١٤/٣ - ١٧.

(٢) انظر: التكوين: ١/١٧.

(٣) سقطت من ج.

(٤) في الأصل: يمزقا.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) في الأصل: هو.

اللفاظ وكلمات في الكتب فإنها مشتركة بين المسيح وغيره، كتسميته ابنًا وكلمة وروح الحق والهاً (وكذلك هو روح القدس). أما روح القدس فهي سرّ الله وأمره، وقد ورد في الكتب الإلهية لغير المسيح.

وقد أطلقت لمعان منها جبريل^(١)، ومنها: اسم الله الأعظم، ومنها: الولي^(٢)، وقد أطلقت على المسيح لأن روحه لم تخالط نطفة، والقدس هو الظاهر، ولذلك أطلق على المسيح روح الله، وهذه الإضافة إضافة تعظيم كقوله: بيت الله ونافقة الله وكما كانت الأمم الماضية يطلقون على أنفسهم أبناء الله. ومنها^(٣) القرآن الذي هو أعمّ من القرآن المنزلي على محمد الشامل لكل كتاب متزل.

وأما الروح التي بها الحياة فهي النفس على قاعدة أهل السنة، وهي: جسم لطيف وبشكل الأجسام المحسوسة تحدث، ويخرج بها إلى السماء بفرح، لا تموت ولا تفني، وهي مما له أول، وليس له آخر كالجنة والنار، والأجساد في المعاد وهي بعينين ويددين، وهي ذور يرحة طيبة أو كريهة بحسب محلها، وهي إما منعمة أو معدبة، وذلك غاية الدليل على حدوثها.

وإنما سمي المسيح روح الله لأنّه ذو روح، وجد من غير جزء من ذي روح، كالنطفة المنفصلة من الأب الحي، وإنما اختراعاً من عند الله وقدرته خالصة. وسمى كلمة الله لأنّه وجد بكلمته وأمره من غير واسطة أب ولا نطفة وهذا ظاهر^(٤).

وكذلك ما أطلق من حلول^(٥) روح القدس فيه، وظهوره في مكانه، وقد وقع في نظير شركهم وكفرهم طوائف من المنتسبين إلى الإسلام، واشتبه عليهم ما يحل في قلوب العارفين من الإيمان به ومعرفته ونوره وهداه، فظنوا أن ذلك نفس ذات الله،

(١) كما في قوله تعالى: «قل نزل روح القدس من ربكم بالحق» [التحريم: ١٠٢].

(٢) كما في قوله ﷺ «نفت الروح الأمين في روعي...»

(٣) كما في قوله تعالى: «وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا» [آل عمران: ٥٢].

(٤) هذه الفقرات كلها من قوله: وكذلك هو روح القدس... إلى قوله: وهذا ظاهر سقطت من بـ، جـ، صـ.

(٥) في الأصل: من حلول.

فقد قال الله تعالى: «وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم»^(١)
وهو ما في قلوب الملائكة وأنبيائه وعباده المؤمنين من إيمان به ومعرفته ومحبته وإجلاله
وتعظيمه، وهو نظير قوله تعالى: «فَإِنْ آمَنُوا بِمَثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدُوا»^(٢) وقوله
تعالى: «وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ»^(٣).

وقوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ»^(٤).

فأولياء الله يعرفونه ويحبونه ويجلونه أن يقال هو ما في قلوبهم، والمراد محبته
ومعرفته، والمثل الأعلى في قلوبهم لا نفس ذاته، وهذا أمر تعتاده الناس في مخاطباتهم
ومحاوراتهم، يقول الإنسان لغيره: أنت في قلبي ولا زلت في عيني، كما قال القائل:

وَمِنْ عَجْبِ أَنِّي أَحْنَ إِلَيْهِمْ
وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مِنْ لَقِيتِهِمْ وَهُمْ مَعِي
وَيَشْتَاقُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَصْلَعِي
وَتَطْلُبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا
وَقَالَ آخَرٌ:

خِيَالُكَ فِي عَيْنِي وَذَكْرُكَ فِي فِيمِي
وَقَالَ آخَرٌ^(٥): (في المعنى مفرد)^(*)

سَاكِنُ فِي الْقَلْبِ يَعْمَرُهُ
وَقَالَ آخَرٌ: (في المعنى وأجاد)^(*)

إِنْ قَلْتَ غَبْتَ فَقْلُبِي لَا يَصْدِقُنِي
أَوْ قَلْتَ مَا غَبَتْ قَالَ الطَّرْفُ ذَا كَذْبٍ
وَقَالَ آخَرٌ^(٦): (في المعنى مفرد)^(*)

(١) سورة الروم: الآية ٢٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٧.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٣.

(٤) سورة الزخرف: الآية ٨٤.

(٥) في ب، ج، ص: قلبي.

(٦) هذا الشاهد والشواهد الثلاثة السابقة ذكرها ابن تيمية رحمه الله في الجواب الصحيح ١٧٦/٢.

(٧) هذا الشاهد ذكر في الجواب الصحيح: ١٨١/٢. (*) هذه في ج فقط.

أحن إليه وهو في القلب ساكن فياعجباً ممن يحن لقلبه
 ومن غلظ طبعه، وكشف فهمه عن فهم مثل هذا، لم يكثر عليه أن يفهم من ألفاظ
 الكتب أن ذات الله سبحانه تحل في الصورة البشرية، وتحد بها وتمتزج بها – تعالى الله
 عما يقولون علوًّا كبيراً .

[الشَّبَهَةُ التِّاسِعُ عَشَرُهُ]

وإن قلت: أوجبنا له إلهيّة من قول أشعيا: «من أَعْجَبُ الْأَعْجَابِ أَنْ رَبَّ الْمَلَائِكَةَ
 سَيُولَدُ مِنَ الْبَشَرِ»^(١) .

قيل: لكم هذا، مع أن هذا يحتاج إلى صحة الكلام عن أشعيا، وأنه لم يحرف
 بالنقل من ترجمة إلى ترجمة، وأنه كلام منقطع عما قبله وبعده، تبيهه ودليل على أنه
 مخلوق مصنوع^(٢)، وأنه ابن البشر يولد منه لا من الأحد الصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ
 وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كَفُواً أَحَد﴾^(٣) .

[الشَّبَهَةُ الْعَشْرُونُ]

وإن قلت: جعلناه إلهًا من قول متى في الإنجيل: (إِنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ يَرْسُلُ مَلَائِكَتَهُ
 وَيَجْمَعُونَ كُلَّ الْمُلُوكَ، فَيُلْقَوْنَهُمْ فِي أَتْوَنٍ^(٤) النَّارِ)^(٥) .

(١) هذا النص موجود في الأسفار الحالية بمعناه لا بلغته، (انظر: أشعيا: ١٤/٧).

(٢) نجد حول هذا الكلام على هامش المخطوط الأصل وبخط الناسخ نفسه، ما نصه: «لا شك أن رب
 بمعنى صاحب وبمعنى سيد ولا شك أن الأنبياء أهل لصحبة الملائكة فهذا هو المراد منه لا ما
 توهموه من معنى الإلهية، وأما قوله: (سيولد من البشر) هو على معنيين: إما ظاهره ولا إشكال فيه،
 ووجه التعجب من ذلك أنه يولد من البشر سيد أفضل من الملائكة أو صاحب للملائكة، أو على
 مقتضى الغاز الإنجيلي وتمثيله فهو بمعنى قوله: من لم يولد من الماء والروح لن يستطيع أن يدخل
 في ملكوت الله، يعني يعمد من عمودية يوحنا ومعمودية المسيح، فافهم ذلك» (هامش ص ١١٧
 نسخة الأصل) وقد ذكرته لما فيه من توضيح .

(٣) من سورة الإخلاص.

(٤) أتون: الأتون بالتشديد الموقد، والعامة تخففه (مختر الصحاح: ص ٤).

(٥) نفس النص ليس في إنجيل متى، ومسألة مجيء ابن الإنسان تكررت في الأنجلترا، ولعل المؤلف =

قيل: هذا كالذي قبله، ولم يرد أن المسيح هو رب الأرباب ولا أنه خالق الملائكة، (ومما يشهد لذلك وأن الضمير في الهاء من الملائكة راجع إلى الله لا إلى المسيح، قول مرقوس في إنجيله في هذا الم محل في هذا المعنى: «فابن الإنسان يفضحه إذا جاء في محاربه وملائكته المقدسين»^(١) فافهم ذلك.

ويمكن أن يجعل الله المسيح سفيراً يوم القيمة بينه وبين بعض ملائكة العذاب في جميع ملوك الكفر من المتسبين لدینه من عرصات القيمة وإدخالهم النار.

والضمير في الملائكة عائد إلى الله لا إلى المسيح، وإنما القوم جهلة بمقام الربوبية ومقام النبوة ومقام الملائكة، واللسان العربي المترجم به عن لغتهم «ومن يضل الله فما له من هاد»^(٢) وحاش لله أن يطلق عليه أنه رب الملائكة (بل هذا من أقبح الكذب والافتراء، بل)^(٣) ورب الملائكة أوصاهم بحفظ المسيح وتأييده بشهادة (النبي) القائل عندهم: «إن الله يوصي ملائكته بك ليحفظوك»^(٤) ثم بشهادة لوقا أن الله أرسل له ملكاً من السماء ليقويه^(٥).

رحمه الله يشير بذلك إلى ما ورد في إنجيل متى ونصه: «ويصررون ابن الإنسان آتياً على سحاب السماء بقرة ومجد كثير، فيرسل ملائكته ببرق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الأربع الرياح من أقصاء السموات إلى أقصاها» (متى: ٣٠ / ٢٤ - ٣١) ولم يشر النص في هذا الإصلاح إلى أنهم (يلقونهم في أتون النار).

وفي الإصلاح الذي يليه نجد قصة مجيء ابن الإنسان في مجده وجميع ملائكته يجمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم من بعض، كما يميز الراعي الخراف من الجداء، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن يساره، ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا باركي أبي رثوا الملوكوت المعدّ لكم منذ تأسيس العالم... ثم يقول للذين عن اليسار اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدّة لإبليس وملائكته (متى: ٢١ / ٢٥ - ٤١).

(١) النص في إنجيل مرقوس (لأن من استحب بي وبكلامي...) فإن ابن الإنسان يستحب به حتى جاء بمجد أبيه مع الملائكة القدسين (مرقس: ٢٨ / ٨) والنص لا ينسب الملائكة لابن الإنسان، بل واضح أن ابن الإنسان يأتي بمجد أبيه ومعه الملائكة.

(٢) سورة غافر: الآية ٣٣

(٣) من قوله: وما يشهد لذلك... إلى آخر هذه الآية كلها سقطت من ب، ج، ص.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) لوقا: ٤ / ١٠.

(٦) لوقا: ٢٢ / ٤٣.

هذا الذي نطقت به الكتب فحرف الكذابون على الله وعلى مسيحه ذلك، ونسبوا إلى الأنبياء أنهم قالوا: هو رب الملائكة.

وإذا شهد الإنجيل (وأتفق)^(١) الأنبياء والرسل أن الله يوصي ملائكته بال المسيح ليحفظوه، علم أن الملائكة والمسيح (عييد الله منقادون)^(٢) لأمره ليسوا أرباباً ولا آلهة.

قال المسيح لتلاميذه: (من قبلكم فقد قبليني، ومن قبلني فقد قبل من أرسلني)^(٣).

وقال المسيح لتلاميذه أيضاً: (من أنكرني قدّام الناس أنكرته قدّام الملائكة)^(٤).

وقال للذى يضرب عند رئيس الكهنة: (اغمد سيفك، ولا تظن أنى لا أستطيع أن أدعوا الله الأب، فيقيم لي أكثر من اثنتي عشر من الملائكة)^(٥).

فهل يقول هذا من هو رب الملائكة وإلههم وخالقهم؟.

[الشبهة الواحدة والعشرون]

ولأن أوجبتم له الإلهية بما نقلتموه عن أشعيا (تخرج عصا من بيت النبي (ويخرج)^(٦) منها نور ويحل فيه روح القدس)^(٧)، روح الله، روح الكلمة والفهم، روح الحيل والقوة، روح الحلم وخوف الله^(٨)، وبه يؤمّنون وعليه يتکلون ويكون لهم الشّاج والكرامة إلى دهر الدهارين)^(٩).

(١) في ب، ج، ص: واتفاق.

(٢) في ج: عند الله منقادون، وفي ب، ص: عييد الله منقادون.

(٣) أخطأ الناسخ في نسخة الأصل ص، فكتب: من قتلكم فقد قتلني (باتّاء بدل الباء والنّص وارد بالباء في إنجيل متى: ٤٠ / ١٠).

(٤) متى: ٣٣ / ١٠. في إنجيل متى: أبي الذي في السماوات، وفي ب، ج، ص: ملائكة الله.

(٥) متى: ٥٢ / ٢٦ - ٥٣.

(٦) في ب، ج، ص: وينبت.

(٧) سقطت من ج.

(٨) النص إلى هنا في أشعيا: ٢ - ١١ / ١١.

(٩) معنى هذه البقية من النص نجدها في قول أشعيا عن هذا المنتظر «إيه تطلب الأمم ويكون محله مجدًا» (أشعيا: ١١ / ١٠).

قيل لكم: هذا الكلام بعد المطالبة بصحة نقله عن أشعيا، وصحة الترجمة له باللسان العربي، وأنه لم تحرفه التراجم، هو حجة على المثلثة عباد الصليب لا لهم، فإنه لا يدل على أن المسيح هو خالق السموات والأرض، بل يدل على مثل ما دل عليه القرآن، وأن المسيح أيد بروح القدس، فإنه قال: ويحل فيه روح القدس، روح الله، روح الكلمة والفهم، روح العجل والقوة، روح (العلم)^(١) وخوف الله، ولم يقل: تحل فيه حياة الله فضلاً عن أن يحل الله فيه (ويتحد فيه)^(٢)، ويتحذ حجاباً من ناسوته. وهذه الروح تكون مع الأنبياء والصديقين. وعندهم في التوراة أن الذين كانوا يعملون في قبة الزمان حلّت فيهم روح الحكمة وروح الفهم والعلم^(٣) وهي ما يحصل به الهدى والنصر والتأييد.

وقوله (روح الله) لا تدل على أنها صفة، فضلاً أن يكون هو الله، وجبريل يسمى روح الله، والمسيح اسمه روح الله.

والمضارف (إلى الله)^(٤) إذا كان ذاتاً قائمة بنفسها فهو إضافة مملوك إلى مالك، كيّت الله وناقة الله وروح الله، ليس المراد به بيتاً يسكنه ولا ناقة يركبها ولا روحًا قائمة به. وقد قال تعالى: «أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه»^(٥).

وقال تعالى: «وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا»^(٦).
فهذه الروح أيد بها عباده المؤمنين.

وأما قوله: «وبه يؤمنون وعليه يتوكلون» فهو عائد إلى الله تعالى لا إلى العصا التي تنبت من بيت النبوة.

وقد جمع الله بين هذين الأصلين في قوله: «قل هو الرحمن آمنا به وعليه

(١) في ب، ج، ص: الفهم.

(٢) في ج: يحدّثه.

(٣) الخروج: ٣١/٣.

(٤) سقطت من ص.

(٥) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

(٦) سورة الشورى: الآية ٥٢.

توكلنا^(١) ﴿وقال موسى لقومه: يا قوم إن كتم أمتنم بالله فعليه توكلوا إن كتم مسلمين﴾^(٢).

وهو كثير في القرآن، وقد أخبر أنه أيده الله بروح العلم وحرف الله، فجمع بين العلم والخشية، وهذا الأصلان اللذان جمع القرآن بينهما في قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾^(٣).

وفي قول النبي ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»^(٤).

وهذا شأن العبد المحسن، وأما الإله الحق رب العالمين، فلا يلحقه خوف ولا خشية ولا يعبد غيره، والمسيح كان قائماً بأوراد العبادات لله أتم القيام.

[الشبهة الثانية والعشرون]

وإن أوجبتم له الإلهية بقول أشعيا: (إن غلاماً ولد لنا (وأنبا^(٥)) أعطيناه كذا وكذا رئاسة على عاتقيه وبين منكبيه، ويدعى اسمه ملكاً عظيماً إلهاً قوياً مسلطاً رئيساً قوياً السلام في كل الدهور، وسلطانه كامل ليس له فناء)^(٦)، قيل لكم ليس في هذه البشرة ما يدل على أن المراد بها المسيح بوجه من الوجه.

ولو كان المراد بها المسيح لم يدل على مطلوبهم. أما المقام الأول: فدلالتها على محمد بن عبد الله أظهر من دلالتها على المسيح، فإنه هو الذي رئاسته على عاتقه وبين منكبيه من جهتين: من جهة أن خاتم النبوة على بعض (كتفيه)^(٧) وهو من أعلام النبوة

(١) سورة الملك: الآية ٢٩.

(٢) سورة يونس: الآية ٨٤.

(٣) سورة فاطر: الآية ٢٨.

(٤) أخرجه البخاري عن مسروق قال: قالت عائشة رضي الله عنها: «صنع النبي ﷺ شيئاً ترخص فيه وتترنه عنه قوم، بلغ ذلك النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ما بال أقوام يتزهرون عن الشيء أصنعه؟ فوالله إني أعلمهم بالله وأشدتهم خشية» (٥/٩٦ - ٧٣٠١).

(٥) في ب: وإنما، وفي ج: وأنا، وفي ص: وإننا.

(٦) أشعيا: ٦/٩ - ٧.

(٧) في ج: اكتافه.

الذى أخبرت به الأنبياء، وعلامة ختم ديوانهم، ولذلك كان في ظهره من جهة أنه بعث بالسيف الذى تقلد به على عاتقه، ويرفعه إذا ضرب به على عاتقه، ويدل عليه قوله: «رئيس مسلط قوى السلامة» وهذه صفة محمد ﷺ المؤيد المنصور المسلط رئيس السلامة، فإنّ دينه الإسلام ومن اتبعه سلم من (خزي)^(١) الدنيا وعذاب الآخرة، ومن استيلاء عدوه عليه.

وال المسيح لم يسلط على أعدائه كما سلط محمد ﷺ، بل كان أعداؤه مسلمين عليه قاهرين له حتى عملوا به ما عملوا عند المثلثة عباد الصليب، فأين مطابقة هذه الصفات لل المسيح بوجه من الوجه، وهي مطابقة لمحمد بن عبد الله ﷺ من كل وجه، وهو الذي سلطانه كامل ليس له فناء إلى آخر الدهر.

فإن قيل: إنكم لا تدعون محمداً إلهاً بل هو عندكم عبد محض، قيل: (نعم)^(٢) والله إنه ل كذلك عبد محض، والعبودية أجل مراتبه، واسم الإله من جهة التراجم جاء والمراد به السيد المطاع لا إله له المعبد الخالق الرازق.

[الشبة الثالثة والعشرون]

ولأن أوجبتم له الإلهية من قول أشعيا فيما زعمتم (ها هي العذراء تحبل وتلد ابناً يدعى اسمه: عمانوئيل)^(٣).

وعمانوئيل كلمة عبرانية تفسيرها بالعربية: إلهنا معنا^(٤).

فقد شهد له النبي أنه إله.

قيل لكم بعد ثبوت هذا الكلام وتفسيره: لا يدل على أن العذراء ولدت رب العالمين وخالق السموات والأرضين، فإنه قال «تلد ابناً» وهذا دليل على أنه نبي ، من جملة النبيين ليس هو رب العالمين^(٥).

(١) في الأصل: جزاء.

(٢) في ج: لهم.

(٣) أشعيا: ١٤/٧.

(٤) هكذا ورد تفسيرها في إنجيل متى: ٢٣/١.

(٥) سقطت من الأصل.

وأما قوله : ويدعى اسمه «عمانوئيل» فإنما يدل على أنه يسمى بهذا الاسم كما تسمى الناس أبناءهم بأنواع من الصفات والأسماء والأفعال والجمل المركبة من اسمين واسم و فعل ، وكثير من أهل (الكتاب)^(١) يسمون أولادهم عمانوئيل .

ومن علمائكم من يقول : المراد بالعنزراء هبنا غير مريم ، ويذكر في ذلك قصة ، ويدل على هذا أن المسيح لا يعرف اسمه عمانوئيل ، وإن كان ذلك اسمه ، (فكونه)^(٢) يسمى إلينا معنا أو بالله حسيبي ، أو الله وحده ، ونحو ذلك (لا يدل على أنه إله)^(٣) .

وقد حرف بعض المثلثة عباد الصليب هذه الكلمة وقال : معناها الله معنا^(٤) ، فرد عليهم بعض من أنصف من علمائهم وحكم رشده على هواه ، وهداه الله للحق وبصره من عماه ، وقال أهذا هو القائل أنا رب^(٥) ولا إله غيري أنا أحسي وأميت وأخلق وأرزق؟^(٦) .

أم هو القائل الله إنك أنت الإله الحق وحدك الذي أرسلت يوسع المسيح؟^(٧) .

قال : والأول باطل ، والثاني هو الذي شهد به الإنجيل ، ويجب تصديق الإنجيل ، وتکذيب من زعم أن المسيح إله معبود .

قال : وليس المسيح مخصوصاً بهذا الاسم ، بل «عمانوئيل» اسم تسمى به النصارى واليهود أولادها قال : وهذا موجود في عصرنا هذا . ومعنى هذه التسمية بينهم شريف القدر عند الله .

قال : وكذلك السريان يسمون أولادهم عمانوئيل ، والمسلمون وغيرهم يقولون

(١) سقطت من الأصل .

(٢) في ج : فيكون .

(٣) سقطت من الأصل ، ص ، وفي ج : جاء قبل (أو بالله حسيبي) .

(٤) نعم هكذا نص تفسير متى في إنجيله (انظر : متى : ٢٣/١) .

(٥) سقطت من الأصل .

(٦) ثنائية : ٣٩/٣٢ .

(٧) يوحنا : ٣/١٧ .

للرجل: الله معك، فإذا سمي الرجل بقوله: (الله معك) أو (الله معناه)^(١) كان هذا تبركاً بمعنى هذا الاسم^(٢).

[الشبيهة الرابعة والعشرون]

وإن أوجبتم له الإلهية بقول حقوق فيما حكاه عنه: (إن الله في الأرض يتزيا ويختلط مع الناس ويمشي معهم)^(٣).

ويقول أرميا أيضاً بعد هذا: (الله يظهر في الأرض ويتقلب مع البشر)^(٤) قيل لكم: هذا بعد احتياجه إلى ثبوت نبوة هذين الشخصين أولاً، وإلى ثبوت هذا النقل عنهم، وإلى مطابقة الترجمة من غير تحريف، وهذه ثلاث (مقامات)^(٥) يعزّ عليكم إثباتها، لا تدل على أن المسيح هو خالق السموات والأرض، وأنه إله حق ليس بمخلوق ولا مصنوع. ففي التوراة ما هو من هذا الجنس وأبلغ لم يدل على أن موسى إله، ولا أنه خارج عن جملة العبيد لله.

وقوله: «يتزيا» مثل تجلى الله وظهر واستعلن ونحو ذلك من ألفاظ التوراة وغيرها من الكتب الإلهية.

وقد ذكر في التوراة أن الله تعالى تجلى وتزيا لإبراهيم وغيره من الأنبياء، ولم يدل (ذلك على الإلهية لأحد منهم)^(٦).

ولم يزل في عرف الناس ومخاطبتهم أن يقولوا: فلان معنا وهو بين أظهرنا ولم يمت، إذا كان علمه وسته وسيرته بينهم، ووصاياه يعمل بها بينهم.

(١) سقطت من ب، ج، ص.

(٢) علق الناسخ هنا على الهمامش بقوله: (وقد رأينا بعض الناس يسمى بعض إيمائه: الله وكيل. وليس المقصود من ذلك إلا التبرك باسم الله، والإشارة إلى أنه متوكلاً على الله ومن يكن الله وكيله لا يخسر): ص ١١٩ وذكرت تعليق الناسخ من باب التوضيح.

(٣) النص بالمعنى من حقوق: ٣/٣ - ١٠.

(٤) أرميا: ٩/١٤.

(٥) في ب، ج: مقالات.

(٦) في ج: على ذلك بإبراهيم الإلهية أحد منهم.

وكذلك يقول القائل لمن مات والده: ما مات من خلف مثلك، وأنا والدك، وإذا رأوا تلميذ العالم يعلم علمه قالوا: هذا فلان باسم أستاذة، كما كان يقال عن عكرمة: هذا ابن عباس، وعن أبي حامد^(١): هذا الشافعى^(٢).

وإذا بعث الملك نائباً يقوم مقامه في بلد قال الناس: جاء الملك وحكم ورسم الملك.

وفي الحديث الصحيح الإلهي^(٣) يقول الله عزوجل يوم القيمة: (عبدي)^(٤) مرضت فلم تدعني، فيقال: يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟! قال: أما (علمت)^(٥) أن عبدي فلاناً مرض تده، (أما لو)^(٦) عدته لوجدتني عنده، (عبدي)^(٧) (جعت)^(٨) فلم تُطعمني، (فيقول)^(٩): يا رب، كيف أطعمنك وأنت رب العالمين؟! قال: أما إن عبدي فلاناً استطعمنك^(١٠) فلم تطعنه، أما لو أطعنته لوجدت ذلك عندي، (عبدي)^(١١) استقتيك فلم تسقني (فيقول)^(١٢): يا رب وكيف أسفيك وأنت رب العالمين؟! (فيقول: أما إن عبدي

(١) أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد حجة الإسلام أبو حامد الطوسي الفقيه الشافعى، اشتغل في مبدأ أمره بطبعوس ثم قدم نيسابور، ولي تدرس النظامية ببغداد ثم ارتحل إلى دمشق ومصر وعاد مرة أخرى إلى النظامية، له تصانيف كثيرة من أشهرها إحياء علوم الدين. ورغم شهرته عند العلماء وثنائهم عليه إلا أن بعضهم أخذ عليه بعض المأخذ، ولد سنة ٤٠٥ هـ وتوفي سنة ٥٥٥ هـ (الوافي بالوفيات، الصندي: ٢٧٤ / ١).

(٢) محمد بن إدريس الشافعى الفقيه المعروف.

^(٣) الحديث الإلهي هو المعروف بالحديث القدسى.

(٤) عند مسلم: يا ابن آدم.

(٥) سقطت من جميع النسخ وهي عند مسلم.

(٦) عند مسلم: أما علمت أنك لو.

(٧) عند مسلم: يا ابن آدم.

(٨) عند مسلم: استطعْمتك.

(٩) عند مسلم: قال.

(١٠) عند مسلم: أما علمت أنه استطعوك عبدي فلان.

(١١) عند مسلم: يا ابن آدم.

١٢) عند مسلم: قال.

فلاناً عطش (فاستقاك)^(١) فلم تسقه^(٢) (أما لوأسقيته)^(٣) لوجدت ذلك عندي^(٤). وأبلغ من هذا قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَ اللَّهَ يَدَ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^(٥) ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿مَنْ يَطِعُ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللَّهَ﴾^(٦).

فلو استحل : المسلمين ما استحلتم لكان استدللاهم بذلك على أن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إله من جنس استدللكم لا فرق (بينهما)^(٧).

[الشبهة الخامسة والعشرون]

وإن أوجبتم له الإلهية بقوله في السفر الثالث^(٨) من أسفار الملوك : «والآن يا رب إله إسرائيل ، ليتحقق كلامك لداود لأنه حق أن يكون آية ، سيسكن الله مع الناس على الأرض ، اسمعوا أيتها الشعوب كلكم ، ولتنصت الأرض وكل من فيها فيكون الرب عليها شاهداً ، ويخرج من موضعه ، وينزل ويطأ مشارق الأرض في شأن خطيبةبني يعقوب»^(٩).

قيل لكم : هذا السفر يحتاج فيه أولاً إلى أن يثبت ، وأن الذي تكلم بهنبي وأن هذا لفظه وأن الترجمة مطابقة له ، وليس ذلك بمعلوم . وبعد ذلك ، فالقول في هذا الكلام (القالون في نظيره مما ذكرتموه وما لم تذكروه ، وليس في هذا الكلام)^(١٠) ما يدل على أن المسيح خالق السماوات والأرض ، (كأنه)^(١٠)إله غير مصنوع ولا مخلوق . فإن قوله :

(١) سقطت من الأصل.

(٢) عند مسلم : قال : استقاك عبدي فلان فلم تسقه.

(٣) عند مسلم : أما إنك لوأسقيته.

(٤) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه : ٤٥ / ١٣ - ٤٣ .

(٥) سورة الفتح : الآية ١٠ .

(٦) سورة النساء : الآية ٨٠ .

(٧) سقطت من صن.

(٨) هذا النص نجده بالمعنى في سفر الملوك الأول ، والمؤلف رحمه الله ذكر أنه سفر الملوك الثالث ، ويبدو أن المؤلف نقل عن ترجمة اليهوديين فهم يسمون سفري صموئيل الأول والثاني ، سفر الملوك وسفر الملوك الأول في ترجمة البروتستانت هو سفر الملوك الثالث عند اليهوديين ، كما ذكر المؤلف رحمه الله .

(٩) انظر : الملوك الأول : ٨ / ٢٦ - ٢٧ .

(١٠) سقطت من الأصل.

إن الله سيسكن مع الناس في الأرض، هو مثل كونه معهم. وإذا صار في الأرض نوره وهداه ودينه ونبيه كانت هذه سكناه، لا أنه بذاته المقدسة ينزل عن عرشه ويسكن مع أهل الأرض، ولو قدر تقدير المحالات أن ذلك واقع لم يلزم أن يكون هو المسيح، فقد سكن الرسل والأنبياء قبله وبعده فما الموجب لأن يكون المسيح هو إله دون إخوانه من المرسلين. أترى ذلك للقوة والسلطان الذي كان له وهو في الأرض، وقد قلت إن قبض عليه و فعل به ما فعل من غاية الإهانة والإذلال والقهر، فهذا ثمرة سكناه في الأرض مع خلقه؟

وإن قلتم: سكناه في الأرض (مع خلقه)^(١) هو ظهوره في ناسوت المسيح قبل لكم: أما الظهور الممكן المعقول وهو ظهور محبه ومعرفته ودينه وكلامه، فهذا لا فرق فيه بين ناسوت المسيح وناسوت سائر الأنبياء والمرسلين، وليس في هذا اللفظ على هذا التقدير ما يدل على اختصاصه بناسوت المسيح.

وأما الظهور المستحيل الذي تأبه العقول والفطر والشائع وجميع النبوتات، وهو ظهور ذات الرب في ناسوت مخلوق من مخلوقاته واتحاده به وامتزاجه واحتلاطه بهذا مجال عقلاً وشرعًا. فلا يمكن أن تنطق به نبوة أصلًا بل النبوتات من أولها إلى آخرها متفقة على أصول:

[صفات الله التي اتفقت عليها جميع الرسالات السماوية]

أحدها: أن الله سبحانه وتعالى قد يوحى لأحد لا شريك له في ملكته، ولا ند ولا ضد ولا وزير ولا مشير ولا ظهير ولا شافع إلا من بعد إذنه^(٢).

الثاني: أنه لا ولد له ولا ولد ولا كفؤ ولا نسيب بوجه من الوجوه ولا زوجة^(٣).

(١) سقطت من الأصل.

(٢) قال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُنْلَهُ لَا يَمْلِكُونْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِيكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ، وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عَنْهُ إِلَّا لِمَنْ أَذْنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

(٣) اقرأ سورة الإخلاص وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا ولدًا﴾ [الجن: ٣].

الثالث: أنه غني بذاته فلا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج إلى شيء مما يحتاج إليه خلقه بوجه من الوجوه^(١).

الرابع: أنه لا يتغير ولا تعرض له الآفات من الهرم والمرض والسنن والنوم والنسيان والندم والخوف والهم والحزن ونحو ذلك^(٢).

الخامس: أنه لا يماثل شيئاً من مخلوقاته بل «ليس كمثله شيء»^(٣) لا في ذاته ولا في صفاتيه ولا في أفعاله.

السادس: أنه لا يحل في شيء من مخلوقاته ولا يحل في ذاته شيء منها، بل هو باطن عن خلقه بذاته والخلق باطنون عنه^(٤).

السابع: أنه أعظم من كل شيء وأكبر من كل شيء وفوق كل شيء وغالب على كل شيء وليس فوقه شيء البتة^(٥).

الثامن: أنه قادر على كل شيء فلا يعجزه شيء يريده بل هو الفعال لما يريد^(٦).

التاسع: أنه عالم بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ويعلم ما كان وما يكون لو كان كيف كان يكون. «وما تسقط من ورقة إلا يعلمهما ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس»^(٧) (ولا ساكن)^(٨) ولا متحرك إلا وهو يعلمه على حقيقته.

العاشر: أنه سميع بصير (يسمع)^(٩) (ضجيج)^(١٠) الأصوات باختلاف اللغات على

(١) قال تعالى: «يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد» [فاطر: ١٥].

(٢) قال تعالى: «لا تأخذن سنة ولا نوم» [البقرة: ٢٥٥].

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

(٤) الآيات التي تدل على علوه تعالى على خلقه كثيرة جداً «أَمْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ» [الملك: ١٦] «تَرْجِعُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ» [المعارج: ٤].

(٥) «وَهُوَ الْقَاهِرُ فِرْقَ عَبَادَهُ» [الأنعام: ١٨].

(٦) «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [آل عمران: ١٢] «فَعَالَ لِمَا يَرِيدُ» [البروج: ١٦].

(٧) سورة الأنعام: الآية ٥٩.

(٨) سقطت من ص.

(٩) سقطت من ب.

(١٠) في ص: صحيح.

تفن الحاجات، ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء. قد أحاط سمعه بجميع (السمواعات وبصره بجميع المبصرات، وعلمه بجميع المعلومات وقدرته بجميع) المقدورات^(١)، ونفذت مشيئته في جميع البريات، وعمت رحمته جميع المخلوقات ووسع كرسيه الأرض والسموات.

الحادي عشر: أنه الشاهد الذي لا يغيب، ولا يستخلف أحداً على تدبير ملكه. ولا يحتاج إلى من يرفع إليه حوايج عباده أو يعاونه عليها أو يستعطفه عليهم ويسترحمه لهم.

الثاني عشر: أنه الأبدى الباقى الذي لا يضمر ولا يتلاشى ولا يعدم ولا يموت^(٢).

الثالث عشر: أنه المتكلم المكلم الأمر الناهي قائل الحق وهادي السبيل^(٣) ومرسل الرسل ومنزل الكتب، والقائم على كل نفس بما كسبت من الخير والشر، ويجازي المحسن على إحسانه، والمسيء بإساءته.

الرابع عشر: أنه الصادق في وعده وخبره، فلا أصدق منه قيلاً، ولا أصدق منه حديثاً، وهو لا يخلف الميعاد^(٤).

الخامس عشر: أنه تعالى صمد^(٥) بجميع معاني الصمدية فيستحيل عليه ما ينافق صمديته.

السادس عشر: أنه قدوس سلام^(٦) فهو المبرأ من كل عيب ونقص وآفة.

السابع عشر: أنه الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه.

(١) سقطت من الأصل.

(٢) ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

(٣) ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

(٤) ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلُفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

(٥) ﴿الله الصمد﴾ [الإخلاص: ٢].

(٦) ﴿الْمَلْكُ الْقَدُوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمَهِيمُنُ . . .﴾ [الحضر: ٢٤].

الثامن عشر: أنه العدل الذي لا يجور ولا يظلم^(١)، ولا يخاف عباده منه ظلماً^(٢).
 فهذا مما انفقت عليه جميع الكتب والرسل، وهو من المحكم الذي لا يجوز أن
 تأتي شريعة بخلافه ولا يخبرنبي بخلافه أصلاً.
 ترك المثلثة عباد الصليب هذا كله، وتمسكونا بالمتشابه من المعاني والمحمل من
 الألفاظ، وأقوال من قد ضلوا من (قبل)^(٣) وأضلوا كثيراً وضلوا عن سوء السبيل.
 وأصول المثلثة ومقالتهم في رب العالمين تخالف هذا كله أشد المخالفات، وتبينه
 أعظم المباينة.

[نبوة محمد ﷺ تصديق للمرسلين عليهم السلام]

(فصل): في أنه (لو لم) يظهر محمد بن عبد الله ﷺ لبطلت نبوة سائر الأنبياء،
 فظهور نبوته تصدق (لشهادتهم)^(٤)، وشهادـة (لهم بالصدق)^(٥).
 فإن رسالـة من آيات الأنبياء قبلـه. وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى بعينـه (في قوله)^(٦)
 «بل جاء بالحق وصدق المرسلـين»^(٧).

فإن المرسلـين بشروا به وأخبرـوا بمجيئـه، فمجيئـه هو نفس صدق خبرـهم، فـكان
 مجيئـه تـصديقـاً لهم إذ هو تـأوـيل ما أخـبرـوا بهـ، ولا تـنـافـي بين هـذا وـبـين القـولـ الآخرـ: إن
 تـصـديـقـهـ المرـسـلـينـ بـشـاهـدـتـهـ بـصـدـقـهـمـ وإـيمـانـهـ بـهـمـ، فإـنهـ صـدـقـهـمـ بـقولـهـ ومـجيـئـهـ. فـشـهدـ
 بـصـدـقـهـمـ بـنـفـسـ مـجيـئـهـ، وـشـهـدـ بـصـدـقـهـمـ بـقولـهـ، وـهـذـا مـثـلـ قولـ المـسـيـحـ: «مـصـدـقاًـ لـمـاـ بـنـ
 يـدـيـ منـ التـوـرـةـ وـمـبـشـراًـ بـرسـولـ يـاتـيـ منـ بـعـدـيـ اـسـمـهـ أـحـمدـ»^(٨).

(١) «ولا يظلم ربك أحداً» [الكهف: ٤٩].

(٢) «فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً» [الجن: ١٣].

(٣) سقطـتـ منـ الأـصـلـ.

(٤) في بـ، جـ، صـ: لـنـبـوـاتـهـمـ.

(٥) في بـ، صـ: لـهـاـ بـالـصـدـقـ وـفـيـ جـ: لـهـمـ بـالـتـصـدـيقـ.

(٦) في الأـصـلـ: فـقـالـ فيـ قـوـلـهـ.

(٧) سـوـرـةـ الصـافـاتـ: الـآـيـةـ ٣٧.

(٨) سـوـرـةـ الصـفـ: الـآـيـةـ ٦.

فإن التوراة لما بشرت به وبنبوته كان نفس ظهوره تصدقًا لها، ثم بشر برسول يأتي من بعده، فكان ظهور الرسول المبشر به تصدقًا له، كما كان ظهوره تصدقًا للتوراة فعادة الله^(١) في رسالته أن السابق بشر باللاحق واللاحق يصدق السابق فلو لم (يظهر)^(٢) محمد بن عبد الله عليه السلام، ولو لم يبعث لبطلت نبوة الأنبياء قبله.

والله سبحانه وتعالى لا يخلف وعده ولا يكذب خبره، وقد كان بشر إبراهيم وهاجر ببيانات، ولم نرها تمت ولا ظهرت إلا بظهور رسول الله عليه السلام، فقد بشرت هاجر من ذلك بما لم تبشر به امرأة من العالمين غير مريم ابنة عمران بال المسيح على أن مريم بشرت به مرة واحدة وبشرت هاجر بإسماعيل مرتين، وبشر به إبراهيم مراراً.

ثم ذكر سبحانه (هاجر)^(٣)، وبعد وفاتها كالمخاطب لها على السنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ففي التوراة: أن الله قال لـإبراهيم: قد أجبت دعاك في إسماعيل وباركت عليه وكثerte وعظمته جداً جداً، وسيلد (اثني عشر عظيماً)^(٤)، وأجعله (لأمته عظيماً)^(٥)، هكذا ترجمه بعض المترجمين^(٦).

وأما في الترجمة التي ترجمها اثنان وسبعون حبراً من أحبّار اليهود^(٧)، فإنه يقول: «وسيلد اثني عشر أمة من الأمم».

وفيها «لما هربت هاجر من سارة (تزايا)^(٨) لها ملك الله وقال: يا هاجر (أمة سارة)^(٩)، من أين أقبلت وإلى أين تذهبين؟ قالت: هربت من سيدتي، فقال لها الملك:

(١) في الأصل: فعادة نبوة الأنبياء قبله والله سبحانه وتعالى. وهو كلام لا يستقيم به المعنى.

(٢) في ص: يكن.

(٣) سقطت من ج.

(٤) في ج: ابنًا عظيماً.

(٥) في التكوير: «وأجعله أمة عظيمة»، في ج: وأجعل له أمة عظيمة. التكوير: ٢٠/١٧.

(٦) كما في الترجمة التي اعتمدتتها وهي ترجمة البروتستانت.

(٧) يقصد الترجمة اليونانية (السبعينية).

(٨) الصحيح أنها (تزيا) بدون ألف، وهي من الزي: الهيئة من الناس، وقد تزينا الرجل وزينته تزية

(لسان العرب: ٣٦٧/١٤)، ويكون المعنى أن الملك ظهر لهاجر كهيئة الإنسان.

(٩) سقطت من ج.

ارجعي إلى سيدتك، وانضمي لها، فإنني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصلون كثرة،
وها أنت تحبلين وتلدين ابناً تسميه إسماعيل، لأن الله قد سمع تذليلك وخصوصك
وخشوعك، وهو يكون عين الناس وتكون يده فوق الجميع مبوسطة إليه بالخصوص، ويكون
مسكنه على تخوم جميع إخوته^(١).

وفي موضع آخر قصة إسكنها وابنها إسماعيل في بريّة فاران وفيها: «فقال الملك
يا هاجر ليفرح روعك، فقد سمع الله تعالى صوت الصبي، قومي فاحمليه، وتمسكي به،
فإن الله تعالى جاعله لأمة عظيمة. وإن الله تعالى (فتح عليها)^(٢)، فإذا بشر ماء فذهبت
وملأت المراده منه^(٣)، وسقط الصبي منه، وكان الله معها ومع الصبي حتى تربى،
وكان مسكنه في بريّة فاران»^(٤).

فهذه أربع بشارات خالصة لأم إسماعيل نزلت اثنان منها على إبراهيم واثنان على
هاجر، وفي التوراة بشارات بِإِسْمَاعِيلَ وولده وأنهم أمة عظيمة، وأن نجوم السماء تحصى
ولا يحصلون، وهذه البشرة إنما تمت بظهور محمد بن عبد الله عليه السلام وأمه، وإن بني إسحق
لم يزالوا مطرودين مشردين (خولاً^(٥)) للفراعنة والقبط حتى (أنقذهم)^(٦) الله بنبيه وكليمه
موسى بن عمران وأورثهم أرض الشام، فكانت كرسي مملكتهم، ثم سلبهم ذلك،
وقطعهم في الأرض أمماً مسلوباً عزّهم وملكتهم، قد أخذتهم سيف السودان وعلتهم
أعلاج الحمران^(٧)، حتى إذا ظهرت تلك البشارات بعد دهر طويل، وعلت وانتشرت في
آفاق الدنيا، ومدت وعلت بنو إسماعيل على من حولهم فهشموهم هشماً وطحنوهم
طحناً، وانتشروا في آفاق الدنيا، ومدت الأمم أيديهم إليهم بالذل والخصوص، وعلوهم

(١) التكوير: ١٦ - ١٢.

(٢) في التكوير: فتح عينيها.

(٣) المزاده: هي الطرف الذي يحمل فيه الماء كالراوية والقربة (لسان العرب: ٣/١٩٩)، وفي
ب، ص: المرأة.

(٤) التكوير: ٢١ - ١٧.

(٥) خولاً: أي عيada.

(٦) في ج: أبعدهم.

(٧) لعله يقصد بالسودان والحرمان الناس جمياً أسود وأحمر.

علو الشريا فيما بين الهند والحبشة والسوس الأقصى^(١) وبلاد الترك والصقالبة والخزر^(٢) وملكوا ما بين الخافقين^(٣)، وحيث ملتقى أمواج البحرين، وظهر ذكر إبراهيم على ألسنة الأمم كلها، فليس (صبي)^(٤) من بعد ظهور النبي ﷺ ولا امرأة ولا حر ولا عبد ولا ذكر ولا أنثى إلا وهو يعرف إبراهيم والد إسماعيل.

وأما النصرانية وإن كانت قد ظهرت في أمم كثيرة جليلة فإنه لم يكن لهم في محل إسماعيل وأمه هاجر سلطان ظاهر ولا عز قاهر البتة، ولا صارت أيدي هذه الأمة فوق أيدي الجميع، ولا امتدت إليهم (أيدي الأمم بالخصوص)، وكذلك سائر ما تقدم من البشارات^(٥)، ويفيد مجموعها العلم القطعي بأن المراد بها محمد بن عبد الله ﷺ وعلى أمته، فإنه لو لم يقع تأويلها بظهوره ﷺ لبطلت النبوات.

ولهذا لما علم الكفار من أهل الكتاب أنه لا يمكن الإيمان بالأنبياء المتقدمين إلا بالإيمان بالنبي ﷺ الذي بشروا به، قالوا: نحن في انتظاره ولم يجيء بعد.

ولما علم بعض الغلاة في كفره وتكتيبه منهم أن هذا النبي ولد في ولد إسماعيل أنكروا أن يكون لإبراهيم (ابن)^(٦) اسمه إسماعيل، وأن هذا لم يخلقه الله تعالى. ولا يكثر على أمة البهت وإنحصار القرود وقتلة الأنبياء مثل ذلك، كما لم يكثر على المثلثة وعباد الصليب الذين سبوا رب العالمين أعظم مسبة أن يطعنوا في ديننا، وينقضوا بنبينا ﷺ.

(١) السوس الأقصى: السوس بلدة بخوزستان فيها قبر دانيال النبي عليه السلام، والسوس: بالمغرب كورة مديتها طنجة، وهناك السوس الأقصى: كورة أخرى مديتها طرقلة، ومن السوس الأدنى إلى السوس الأقصى مسيرة شهرين (معجم البلدان).

(٢) الخزر: بالتحريك ثم بالراء، هي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدرند، والخزر اسم إقليم من قصبة تسمى اتل، واتلن اسم نهر يجري إلى الخزر من الروس وبلغار. والخزر اسم المملكة لا اسم مدينة، والخزر مسلمون ونصارى وفيهم عبادة أوثان، وأقل الفرق اليهود، على أن الملك منهم، وكان الصقالبة وكل من يجاورهم في طاعته (معجم البلدان).

(٣) بين الخافقين: أي بين أفقى المشرق والمغرب، لأن الليل والنهار يخفقان فيهما (مختر الصحاح: ص ١٨٣).

(٤) في الأصل: بني.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) في ب، ج، ص: ولد.

[نبوة محمد ﷺ أكثر إثباتاً لوجود المسيح ومعجزاته]

(فصل): ونحن نبين لهم أنهم لا يمكنهم أن يثبتوا للمسيح فضيلة ولا نبوة ولا آية معجزة إلا بإقرارهم أن محمداً ﷺ رسول الله، وإنما فمع (تكذيبهم إياه)^(١) لا يمكن أن يثبت للمسيح شيء من ذلك البتة. فنقول: إذا كفرتم يا معاشر المثلثة عباد الصليب بالقرآن وبمحمد ﷺ فمن أين لكم أن تثبتوا لعيسى فضيلة أو معجزة؟ ومن نقل إليكم عنه آية أو معجزة؟ فإنكم إنما تبعتم من بعده ما ينفي على مائتين وعشرين من السنين أخبرتم عن منام رؤى وأسرعتم إلى تصديقه، وكان الأولى لمن كفر بالقرآن أن ينكر وجود عيسى (في العالم)^(٢)، لأنه لا يقبل قول اليهود فيه، ولا سيما وهم أعظم أعدائه الذين رموه وأمه بالعظائم، فأخبار المسيح والصلب إنما شيوخكم فيها اليهود (عنهم الله)^(٣)، وهم فيما بينهم مختلفون في أمره أعظم اختلاف، وأنتم مختلفون معهم في أمره، فإن اليهود لعنهم الله، تزعم أنهم حين أخذوه وحبسوه في السجن أربعين يوماً وقالوا: ما كان لكم أن تحبسوه أكثر من ثلاثة أيام، ثم تقتلوه، إلا أنه كان يقصده أحد قواد الروم لأنه كان يداخله في صناعة الطب عندهم.

وفي الإنجيل الذي في أيديكم: أنه أخذ صباح يوم الجمعة وصلب في الساعة التاسعة من اليوم يعنيه^(٤) فمتي تتوافقون مع اليهود في (خبره)^(٥).

[اليهود ينكرون أن يكون المسيحنبياً له معجزاته وفضائله]

واليهود مجمعة أنه لم تظهر له معجزة، ولا بد من لهم آية، غير أنه طار يوماً، وقد همّوا بأخذنه، وطار على أثره آخر منهم، فعلاه في طيرانه، فسقط إلى الأرض بزعمهم.

(١) في ص، ب: تكذيبه.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) ليست في ب، ج، ص.

(٤) انظر: متى: ٢٧/٣١ - ٣٤/٢٤ مارقس: ١/٢٤ - ٢٨ لوقا: ٣٨/٣٣ - ٣٨ يوحنا: ١٩/١٨ - ٢٤ وزعمون أن الصليب كان يوم الجمعة في السابع من إبريل سنة ٣٠ م بالقرب من القدس (انظر: قاموس الكتاب المقدس: ٢/٨٨٤).

(٥) في الأصل: في غيره.

وفي الإنجيل الذي بآيديكم في غير موضع، ما يشهد أنه لا معجزة ولا آية فمن ذلك أن فيه منصوصاً «إن اليهود قالوا له يوماً: ماذا تفعل حتى ننتهي به إلى أمر الله؟ قال: (أن تؤمنوا بمن) ^(١) بعثه. قالوا له: وما آيتك التي ترينا ونؤمن بك، وأنت تعلم أن آباءنا قد أكلوا المن والسلوى بالمخاوز؟».

قال: «إن كان أطعمكم موسى خبزاً، فأنا أطعمكم خبزاً سماوياً» ^(٢). يريد نعيم الآخرة، ولو عرفوا له معجزة ما قالوا ذلك.

وفي الإنجيل الذي بآيديكم أن اليهود قالت له: ما آيتك التي نصدقك بها؟ قال: اهدموا البيت أبنيه لكم في ثلاثة أيام ^(٣)، فلو كانت اليهود تعرف له آية لم تقل هذا، ولو كان قد أظهر لهم معجزة لذكرهم بها حينئذ.

وفي الإنجيل الذي بآيديكم أيضاً أنهم جاءوا يسألونه آية فقذفهم فقال: «إن القبيلة (الفاجرة) ^(٤) الخبيثة آية فلا تعطى ذلك» ^(٥).

وفيه أيضاً: أنهم كانوا يقولون له وهو على الخشبة – بظنهم –: «إن كنت المسيح فأنزل نفسك نؤمن بك» ^(٦) يطلبون بذلك آية، فلم يفعل.

فإذا كفرتم معاشر المثلثة عباد الصليب بالقرآن، لم يتحقق لعيسى ابن مرريم (عندكم) ^(٧) آية ولا فضيلة، فإن أخباركم عنه وأخبار اليهود لا يلتفت إليها، لاختلافكم في شأنه أشد الاختلاف وعدم يقينكم لجميع أموره.

وكذلك اليهود اجتمعوا على أنه لم يدع شيئاً من الإلهية التي نسبتم إليه ادعاءها.

[اليهود نسبوا الألوهية للمسيح استهزاءً به ومحاولة لضرره]
وكان أقصى مرادهم أن يدعى ذلك ليكون أبلغ تسلطهم عليه، وقد ذكرتم السبب

(١) في ج، ص: أمر الله أن تؤمنوا بما، وفي ب: أن تؤمنوا بما.

(٢) يوحنا: ٢٨/٦ – ٣٥.

(٣) يوحنا: ١٨/٢ – ١٩.

(٤) في الأصل: الفاجرة.

(٥) انظر: متى ١٦/٤، ونصه: «جيء شرير يتلمس آية، ولا تعطى له آية».

(٦) مرقس: ٣٠/١٥.

(٧) سقطت من ب، ج، ص.

في استفاضة ذلك عليه، وهو أن أخبارهم وعلماءهم لما مضى وبقي ذكره، خافوا أن يصير عامتهم إليه، إذ كان على سنتهم قبله قلوب الذين لا غرض لهم فشنعوا عليه أموراً كثيرة ونسبوا إليه دعوى الإلهية تزهيداً للناس في أمره.

[اختلاف اليهود في المسيح عليه السلام]

ثم إن اليهود عندهم من الاختلاف في أمره ما يدل على عدم يقينهم بشيء من أخباره، فمنهم من يقول إنه كان رجلاً منهم، ويعرفون أباه^(١) وأمه وينسبوه لزنية^(٢)، (وحاشاه)^(٣)، وحاشا أمه الصديقة الطاهرة البتول، التي لم يقرعها فحل قط – قاتلهم الله أنّي يؤفكون – ويسمون أباه للزنية البنديري الرومي، وأمه مريم الماشطة، ويزعمون أن زوجها يوسف بن يهودا^(٤) وجد البنديرا عندها على فراشها أو شعر بذلك فهجرها وأنكر ابنتها.

ومن اليهود – لعنهم الله^(٥) – من رغب عن هذا القول، وقالوا: إنما أبوه يوسف بن يهودا الذي كان زوجاً لمريم، ويذكرون أن السبب في استفاضة اسم الزنيم عليه، أنه بينما هو يوماً مع معلمه (يهشوع بن برضيا) وسائر التلاميذ (فترزوا في سفر)^(٦) موضعأً، وجاءت امرأة من أهله وجعلت تبالغ في إكرامهم، فقال يهشوع: ما أحسن هذه المرأة – يرید أفعالها – فقال عيسى – بزعمهم –: لولا عمش بعينيها، فصاح يهشوع وقال: (ممزار)^(٧) – ترجمته: يا زنيم – أتنزي بالنظر وغضب غضباً شديداً، وعاد إلى بيت المقدس، وحرم

(١) انظر ما ورد في إنجيل لوقا: «وكان الجميع يشهدون له ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه ويقولون: أليس هذا ابن يوسف» (لوقا: ٤/٢٣) كما أن الأنجليل تذكر أسماء آبائه حتى إبراهيم عليه السلام، (انظر أول إنجيل متى، وإنجيل لوقا: ٣/٢٣ – ٢٨).

(٢) انظر: يوحننا: ٤/٨.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) يوسف بن يهودا: يصرح إنجيل متى أن يوسف بن يهودا زوج مريم العذراء وهو من بيت داود من بيت لحم، (متى: ١/١٦، ١/٢٠). ومارس مهنة التجارة، متى: ١٣/٥٥.

(٥) ليست في ب.

(٦) في ب، ج، ص: في سفر فترزوا.

(٧) في ب، ص: فمن.

اسمه ولعنه في أربعين قرن، فحيثُل حق (بعض)^(١) قواد الروم وأدخله بصناعة الطب فقوي لذلك على اليهود، وهم يومئذ في ذمة (قيصر طباريوش)^(٢)، وجعل يخالف حكم التوراة، ويستدرك عليها، ويعرض عن بعضها إلى أن كان من أمره ما كان.

وطوائف من اليهود – لعنهم الله – يقولون غير هذا، ويقولون إنه كان يلاعب الصبيان بالكرة فوقت لهم بين جماعة من مشايخ اليهود، فضعف الصبيان عن استخراجها من بينهم (حياة منهم – أي من مشايخهم –)^(٣) فقوى عيسى (وتخطي)^(٤) رقابهم وأخذها، فقالوا له: ما نظنك إلا زنيماً.

ومن (اختلاف)^(٥) اليهود – لعنهم الله – في أمره، أنهم يسمون أباه – بزعمهم – الذي هو خطيب مريم، يوسف بن يهودا النجار، وبعضهم يقول: إنما هو يوسف الحداد^(٦). والنصارى تزعم أنها ذات بعل، وأن زوجها يوسف بن يعقوب، وبعضهم يقول: يوسف بن (آل)^(٧).

وهم يختلفون أيضاً في آبائه، وعددهم إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فمن مقل ومن مكشر^(٨) فهذا ما عند اليهود لعنهم الله، وهم شيوخكم في نقل الصلب وأمره، وإنما فمن المعلوم أنه لم يحضره أحد من النصارى وإنما (حضره)^(٩) اليهود – لعنهم الله –

(١) سقطت من ب.

(٢) قيصر طباريوس (هكذا في إنجيل لوقا) وفي زمن هذا القيصر كان يلاطس والياً على منطقة اليهودية وهيرورووس رئيس ربع الجليل (لوقا: ١/٣).

(٣) في ب، ج، ص: حياة من المشايخ.

(٤) سقطت من ب، ج.

(٥) في الأصل: أخلاق.

(٦) من باب الاستهزاء.

(٧) في إنجيل لوقا: هالي.

والذي يقول إن زوجها يوسف بن يعقوب، هو متى (انظر: متى: ١٦/١).

والذي قال إن زوجها يوسف بن هالي، هو لوقا (انظر: لوقا: ٢٣/٣).

(٨) المقل هو (متى) حيث بلغ عدد سلسلة الآباء عنده من يوسف أبي المسيح (كما يدعى) إلى إبراهيم عليه السلام أربعين رجلاً. والمكشر هو (لوقا) حيث بلغ عددهم عنده خمسة وخمسين رجلاً. وقد أكمل السلسلة إلى آدم عليه السلام.

(٩) في الأصل: حضرهم.

وقالوا: قتلناه وصلبناه، وهم الذين قالوا فيه ما (قالوا مما)^(١) حكيناه عنهم، فإن صدقتموه في الصلب فصدقونهم في سائر ما ذكروه، وإن كذبتموه فيما نقلوه عنه فما الموجب لتصديقهم في الصلب، (وتكتذيبهم)^(٢)، وما صلبوه بل صانه الله وحماه وحفظه، وكان أكرم على الله وأوجه عنده من أن يتليه بما تقولون أنتم – قاتلکم الله – واليهود – لعنهم الله.

[اختلاف النصارى في المسيح عليه السلام]

وأما خبر ما عندكم أنتم، فلا نعلم أمة من الأمم أشد اختلافاً في معبدوها ونبيها ودينه منكم، فلو سألت الرجل وامرأته وابنته وأباه وأمه عن دينهم لأجابك كل واحد منهم بغير جواب الآخر^(٣).

ولو اجتمع عشرة منهم يتذاكرون الدين لتفرقوا عن أحد عشر مذهباً. مع اتفاق فرقهم المشهورة اليوم على القول بالثالثة وعبادة الصليب، وأن المسيح ابن مريم ليس بعد صالح (ولا رسول)^(٤) وأنه إله في الحقيقة وأنه خالق السموات والأرض والملائكة والبيان، وأنه هو الذي أرسل الرسل وأظهر على أيديهم المعجزات والأيات، وأن للعالم إلهأً هو أب والد لم ينزل، وأن ابنه نزل من السماء، وتجسم من روح القدس، ومن مريم، وصار هو وابنها الناسوتى إلهأً واحداً ومسيحأً واحداً وحالقاً واحداً ورازاً، وحيلت به مريم وولدته، وأخذ وصلب وألم ومات ودفن وقام بعد ثلاثة أيام، وصعد إلى السماء وجلس على يمين أبيه.

وقالوا: والذي ولدته مريم وعاينه الناس وكان بينهم هو الله، وهو ابن الله وهو كلمة الله.

فالقديم الأزلي خالق السموات والأرض، هو الذي حيلت به مريم، وأقام هناك تسعة أشهر، وهو الذي ولد ورضع وفطم وأكل وشرب (وتغوط)^(٥) وأخذ وصلب وشد بالحبال وسمرت يداه.

(١) سقطت من ب، ج، ص.

(٢) في ب، ج، ص: وتكتذيب.

(٣) هذا منقول عن الجواب الصحيح: ١٥٥/٣.

(٤) في ب، ج، ص: ولانبي ولا رسول.

(٥) سقطت من الأصل.

[أشهر فرقهم ومذهبها في طبيعة المسيح عليه السلام]

[اليعقوبية]:

ثم اختلفوا، فقالت يعقوبية^(١) – قاتلهم الله – وهم أتباع يعقوب البرادعي ولقب بذلك لأن لباسه كان من خروق برادع الدواب يرقص بعضها ببعض ويلبسها – إن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين، إحداهما طبيعة الناسوت والأخرى طبيعة اللاهوت، وإن هاتين الطبيعتين تربكتا فصارتا إنساناً واحداً وجوهراً واحداً وشخضاً واحداً، (وهذه الطبيعة الواحدة والشخص الواحد) هو المسيح وهو إله كله وإنسان كله، وهو شخص واحد وطبيعة واحدة من طبيعتين^(٢).

وقالوا: إن مريم ولدت الله، وإن الله سبحانه وتعالى قبض عليه، وصلب وسمر ومات ودفن ثم عاش بعد ذلك.

[الملكية]:

(فصل): وقالت الملكية^(٤) – وهم الروم، نسبة إلى دين الملك لا إلى رجل يدعى ملكايا^(٥)، وهو صاحب مقالتهم، كما يقوله بعض من لا علم له بذلك – إن الابن الأزلية

(١) اليعقوبية: من فرق النصارى الرئيسية، سميت بذلك نسبة ليعقوب البرادعي ولم تنسب له لأنه مؤسسها بل لأنها من أنشط دعاتها، وأول من أنشأ مذهبها وأعلنها بطريق الاسكندرية في متصرف القرن الخامس الميلادي، أما يعقوب فقد وجد في القرن السادس الميلادي، (انظر: محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة: ص ١٧٥).

(٢) سقطت من ج.

(٣) زاد في ج: إحداهما طبيعة الناسوت والأخرى طبيعة اللاهوت. هذا هو القول بالطبيعة الواحدة والمشيئه الواحدة، وهو اليوم مذهب الكنيسة الأرثوذكسيه. ومنها القبطية والتي تعتبر امتداداً لفرقة العقوبية.

(٤) الملكية، أو الملكانية كما تسميتها بعض المراجع، أو الملكائية – بالهمزة – كما يسميها الشهريستاني في الملل والتحل: ٦٢/٢ (مطبوعها في هامش الفصل) من أشهر فرق النصارى، وسميت بذلك نسبة إلى الملوك لأنها كما قال ابن حزم رحمة الله: مذهب جميع ملوك النصارى وأهل ممالكهم حيث كانوا حاشيا الحبشة والتوبه (الفصل، ابن حزم، ١/٤٨) والكاثوليكيه اليوم امتداد لهذه الفرقه.

(٥) في ب: ملكاً، وفي ج: ملكاناً. من الذين أخطلوا في ذلك وظنوا أن اسم الملكائية، نسبة إلى رجل اسمه ملكاً، أبو الفتح الشهريستاني رحمة الله فقد ذكر في كتابه الملل ما نصه: الملكائية: أصحاب =

الذي هو الكلمة تجسدت من مريم تجسداً كاملاً كسائر أجساد الناس، وركبت في ذلك الجسد نفساً كاملة بالعقل والمعرفة والعلم كسائر أنفس الناس، وأنه صار إنساناً بالجسد والنفس اللذين هما من جوهر الناس (إلهًا بجوهر اللاهوت كمثل أبيه لم يزل وهو إنسان بجوهر الناس)^(١) كمثل إبراهيم وموسى وداود وهو شخص واحد لم يزد عدده، وثبت له جوهر اللاهوت كما لم يزل، وصح له جوهر النascot الذي لبسه (ابن)^(٢) مريم، وهو شخص واحد لم يزد عدده، وطبيعتان ولكل واحد من الطبيعتين مشيئة كاملة، فله باللاهوتية مشيئة مثل الأب، وله بناسوتية مشيئة كمشيئة إبراهيم وداود. وقالوا: إن مريم ولدت المسيح وهو اسم يجمع اللاهوت والنascot وقالوا: إن الذي مات هو الذي ولدته مريم، وهو الذي وقع عليه الصليب والتسمير والصلب والصلب والربط بالحبال. واللاهوت لم يتم ولم يألم ولم يدفن.

قالوا: وهو إله قام بجوهر لاهوته، وإنسان قائم بجوهر ناسوته، وله المشيتان: مشيئة اللاهوت ومشيئة النascot، فأتوا بمثل ما أتى به اليعقوبية من أن مريم بزعمهم نزهوا الإله عن الموت.

وإذا تدبّرت قولهم وجدته في الحقيقة (هو)^(٣) قول اليعقوبية مع (تناقضهم)^(٤) واليعقوبية أطّرد (لكرفهم)^(٥) لفظاً ومعنى^(٦).

ملكا الذي ظهر بالروم واستولى (الممل والتحل: ٦٢ / ٢ هامش الفصل). ويبدو أن التسمية عربية أطلقها المسلمون على أصحاب هذا المذهب لأنهم من الملوك وأتباعهم وكان هذا المذهب يعرف من قبل بالمذهب الروماني.

(١) سقطت من ج.

(٢) سقطت من ص.

(٣) في ص: تنازعهم وتناقضهم.

(٤) في الأصل: لكرف.

(٥) رغم اختلاف الفريقين حول طبيعة المسيح عليه السلام، فيما تقول الملكانية (وتبعها الكاثوليكية) بالطبيعتين اللاهوتية والنascotية فهو إله تمام وإنسان تمام كما يقولون، وتقول اليعقوبية (وتبعها الأرثوذكسيّة) بالطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة للسيد المسيح رغم هذا الاختلاف إلا أنهما تتفقان على الورثة المسيح، وتتفقان على أن الكلمة اتحدت باليسوع مع اختلافهما في كيفية الاتحاد، فهو اتحاد تمازج عند الملكانية، واتحاد استحالة وانقلاب عند اليعقوبية، فالكلمة انقلب لحمًا ودمًا عندهم، ومن هنا كان كفرهم أقطع كما أشار المؤلف رحمة الله.

[النسطورية]:

وأما النسطورية^(١) (فقد ذهبوا)^(٢) إلى القول بأن المسيح شخصان وطبيعتان لهما مشيئه واحدة، وأن طبيعة اللاهوت لما وجدت بالناسوت صار لها إرادة واحدة، واللاهوت لا يقبل زيادة ولا نقصاناً، ولا يمتزج بشيء، والناسوت (ب قبل)^(٣) بالزيادة والنقصان، وكان المسيح بذلك إله إنساناً، فهو إله بجواهير اللاهوت الذي لا يقبل الزيادة والنقصان، وهو إنسان بجواهير الناسوت الذي يقبل الزيادة والنقصان. وقالوا: إن مريم ولدت المسيح بناسوته، وإن اللاهوت لم يفارقه قط.

وكل هذه الفرق استنكشفت أن يكون المسيح عبد الله، وهو لم يستنكف من ذلك، ورغبت به عن عبودية الله، وهو لم يرغب عنها، بل أعلى منازلها عبودية الله، ومحمد وإبراهيم خير منه، وأعلى منازلهما تكميل مراتب العبودية (بإله تعالى، وبإله فوز من)^(٤) رضيه أن يكون له عبداً. فلم ترض المثلثة بذلك.

وقالت الأريوسية^(٥) منهم، وهم أتباع آريوس أن المسيح عبد الله كسائر الأنبياء والرسل وهو مربوب مخلوق مصنوع.

وكان النجاشي على هذا المذهب.

وإذا ظفرت المثلثة بوحد من هؤلاء قتلوه شر قتلة، وفعلوا به ما يفعل لمن سبَّ المسيح وشتمه أعظم سب.

(١) النسطورية: أصحاب نسطور الذي كان أسفقاً للقسطنطينية، ونادي بانفصال الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية، وقد حضر مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١م، إلا أن المجمع حرمه وطرده (انظر: تاريخ الأقباط ١٧٧/١) وقد وهم الشهيرستاني رحمة الله حين قال «النسطورية: أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المؤمنون وتصرف في الأنجليل بحكم رأيه» (الملل والنحل: ٦٤/٢) ذلك لأن المؤمن توفي سنة ٢١٨هـ بينما نسطور حضر مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١م والفرق بين التارixinين حوالي أربعمائة سنة.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) في الأصل: لا يقبل.

(٤) في ب، ج، ص: فالله.

(٥) الأriوسية نسبة إلى آريوس الذي ولد في ليبيا القىروان سنة ٢٧٠م ودخل في شبابه المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية، ثم رسمه البابا (بطرس) بطريق الاسكندرية، شمامساً سنة ٣٠٧م ثم قساً وراعطاً، وكان ذكياً فصيحاً (انظر: تاريخ الأقباط: ١٥٠/١).

وكل من تلك الفرق الثلاث^(١)، عوامهم لا يفهم مقالة خواصهم على حقيقتها، بل يقولون: إن الله تخطى مريم كما يتخطى الرجل المرأة، وأحبلها فولدت له ابنًا، ولا يعرفون تلك المهيئات التي وضعها خواصهم، فهم يقولون: (الذي تدندنون حوله)^(٢)، نحن نعتقد بغير حاجة منا إلى معرفة الأقانيم الثلاث والطبيعتين والمشيئتين، وذلك التهويل والتطويل.

وهم يصرّحون بأن مريم والدة الإله، والله أبوه وهو ابن، فهذا الزوج والزوجة والولد. (وقالوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنَ ولَدًا * لَقَدْ جَعَلْتُمْ شَيْئًا إِذَا^(٤)) * تكاد السموات يتضطرن منه وتشق الأرض وتخر العجائب هذا * أن دعوا للرحمٰن ولدًا * وما ينبغي للرحمٰن أن يتَّخِذ ولدًا * إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرَّحْمَنَ عبدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدْهُمْ عَدًّا * وكلهم آتىه يوم القيمة فرداً^(٥).

فهذه أقوال أعداء المسيح من اليهود والمغاليين فيه من النصارى المثلثة عباد الصليب. (قاتل)^(٦) الله الفتى: أَنَّى يُؤْفَكُونَ.

[عقيدتنا في المسيح عليه السلام]

بعث^(٧) الله محمداً ﷺ بما أزال الشبهة في أمره، وكشف الغمة، وبرأ المسيح وأمه مما افتراء اليهود لعنهم الله وبهتهم وكذبهم، وتنزه رب العالمين وخالق المسيح وأمه مما افتراء) عليه المثلثة عباد الصليب الذين سبوا أعظم السب (— قاتلهم الله أَنَّى يُؤْفَكُون —^(٨)، وأنزل (أخاه المسيح)^(٩) بالمنزلة التي أنزله الله بها وهي أشرف منازله

(١) اليعقوبية، والملكية، والنسطورية.

(٢) تدندنون: ورد في هامش نسخة الأصل ويخط يد الناسخ، يدندنون حوله أي يقولون كلاماً لا يفهم (ص ١٢٦).

(٣) في الأصل: الذين يدندنون حوله.

(٤) إذا: أي أمراً فظيعاً (هامش نسخة الأصل ص ١٢٦).

(٥) سورة مريم: الآيات ٨٨ - ٩٥.

(٦) في الأصل: قال الله والجملة كلها ليست في ب، ج، ص.

(٧) في الأصل: فبعث.

(٨) ليست في ب، ج، ص.

(٩) في ب، ج، ص: المسيح أخاه.

فأمن به وصدقه وشهد له بأنه عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول^(١) الظاهرة الصديقة سيدة نساء العالمين في زمانها، وقررَ معجزات المسيح وأياته وأخبر عن ربه تعالى بتحليل من كفر بال المسيح في النار، وأن ربه تعالى أكرم عبده ورسوله وزنه وصانه أن ينال إخوان القردة (أمة الغضب)^(٢) منه ما زعمته النصارى أنهم نالوه منه، بل رفعه الله إليه مؤيداً منصوراً لم يشكه أعداؤه بشكواة ولا نالته أيديهم بأذى، فرفعه الله إليه وأسكنه (سماءه)^(٣)، وسيعيده إلى الأرض يتقمّب به من مسيح الضلال وأتباعه، ثم يكسر الصليب، ويقتل به الخنزير، ويعلي به الإسلام، وينصر به ملة أخيه وأولي الناس به محمد ﷺ.

فإذا وضع هذا القول في المسيح في كفة، وقول عباد الصليب المثلثة في كفة، تبين لكل من له أدنى مسكة من عقل، ما بينهما من التفاوت، وأن تفاوتهما كتفاوت ما بينه وبين قول المغضوب عليهم فيه وبالله التوفيق.

فلولا محمد ﷺ لما عرفنا أن المسيح ابن مريم (الذي)^(٤) هو رسول الله وعبده وكلمته وروحه موجود أصلاً. فإن هذا المسيح الذي أثبته اليهود من شرار خلق الله ليس بmessiah الهدى. (والذي)^(٥) أثبته النصارى من أبطل الباطل، لا يمكن وجوده في عقل ولا فطرة، ويستحيل أن يدخل في الوجود أعظم استحالات، ولو (امكن)^(٦) وجوده لبطلت أدلة العقول، ولم يبق لأحد ثقة بمعقول أصلاً، فإن استحالاته وجوده فوق استحالات جميع الحالات، ولو صحت ما يقولون لبطل العالم وأضمحلت السموات والأرض، وعدمت الملائكة والعرش والكرسي، ولم يكن بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار.

ولا يستعجب من إبطاق أمة الضلال، الذين شهد الله أنهم أضل من الأنعام على ذلك. فكل باطل ينسب في الوجود إلى أمة من الأمم فإنها مطبقة عليه. وقد تقدم ذكر

(١) البتول من النساء: المنقطعة عن الرجال لا أرب لها فيهم، وسميت العذراء بذلك لتركها التزويج (لسان العرب).

(٢) ليست في ب، ج، ص.

(٣) في الأصل: سماواته.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) في ب، ج، ص: والمسيح الذي.

(٦) في ص: صح.

إبطاق الأمم العظيمة التي لا يحصيها إلا الله عز وجل على الكفر والضلال بعد معاينة الآيات البينات. فلعماد الصليب أسوة بإخوانهم من أهل الشرك والضلال.

[جامع النصارى ودورها في التحرير]

(فصل): في ذكر استنادهم في دينهم إلى أصحاب المجامع الذي كفّر بعضهم بعضاً (ولعن بعضهم بعضاً^(١)) وتلقّيهم أصول دينهم عنهم.

بداية النصرانية وما لها:

(ونحن نذكر)^(٢) الأمر كيف ابتدأ وتوسط وانتهى حتى كأنك تراه عياناً، كان الله قد بشر بالمسيح على (لسان أنبيائه)^(٣) من لدن موسى إلى (زمن)^(٤) داود ومن بعده من الأنبياء، وأكثر الأنبياء (تبشيراً)^(٥) به داود. وكانت اليهود تنتظرون وتصدق به قبل مبعثه، فلما بعث كفروا به بغياً وحسداً، وشردوه في البلاد، وطردوه وجسوه، وهمّوا بقتله مراراً إلى أن أجمعوا على القبض عليه، وعلى قتله فصانه الله تعالى، وأنقذه من أيديهم ولم يهنه بأيديهم، وشبه لهم أنهم صلبوه، ولم يصلبواه، كما قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقُولَهُمْ عَلَىٰ مَرِيمَ بِهَتَانَأَ عَظِيمًا * وَقُولَهُمْ إِنَا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرِيمَ رَسُولَ اللَّهِ * وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ * وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍ مِّنْهُ * مَا لَهُمْ بِهِ مِّنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعُ الظُّنُونِ * وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيْنًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(٦).

وقد (اخالفوا في قوله)^(٧) ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾، فقيل: المعنى ولكن شبه لهم، للذين صلبوه، بأن ألقى شبهه على غيره فصلبوا الشبه.

وقيل المعنى: ولكن شبه (لهم)^(٨) للنصارى، أي جعلت لهم الشبهة في أمره،

(١) سقطت من ص.

(٢) في ج: نذكر وفي ص: ونحن نذكر الآن.

(٣) في ب، ص: ألسنة الأنبياء وفي ج: ألسنة الأنبياء.

(٤) في ب، ج: لدن.

(٥) في ج: بشر.

(٦) سورة النساء: الآيات: ١٥٦ - ١٥٨ .

(٧) في ب، ج، ص: اختلف في معنى قوله.

(٨) سقطت من ص.

وليس لهم علم بأنه قتل ولا صلب، ولكن لما قال أعداؤه: إنهم قتلوا وصلبوه (وأتفق)^(١) رفعه من الأرض وقعت الشبهة في (أمرهم وصدقهم)^(٢) النصارى في صلبه لتنتم الشفاعة عليهم.

وكيفما كان، فال المسيح صلوات الله عليه وسلم لم يقتل ولم يصلب يقيناً لا شك فيه، ثم تفرق الحواريون في البلاد بعد رفعه، على دينه ومنهاجه، يدعون الأمم (منبني إسرائيل)^(٣) إلى توحيد الله ودينه، والإيمان بعده ورسوله ومسيحه، فدخل كثير من الناس في دينه بين (ظاهر ومستور)^(٤): ظاهر مشهور ومحنف مستور.

وأعداء الله اليهود – لعنهم الله – في غاية (الشدة)^(٥) والأذى لأصحابه وأتباعه.

[النصرانية والدولة الرومانية^(٦)]

ولقي تلاميذ المسيح وأتباعه من اليهود ومن الروم شدة شديدة من قتل وعذاب وتشريد وحبس وغير ذلك.

[اليهود يحرضون حكام الرومان على النصارى]

وكان اليهود في زمن المسيح في ذمة الروم، الذين كانوا ملوكاً عليهم. وكتب نائب

(١) في ج: وافق.

(٢) في ب، ج، ص: في أمره وصدقهم.

(٣) سقطت من ب، ج، ص.

(٤) ليست في ب، ج، ص.

(٥) في ص: الشرور والشدة.

(٦) بين الإمام ابن القيم في هذا الفصل تاريخ النصرانية من بدايتها، وما لاقاه النصارى على يد حكام الرومان من الأذى والاضطهاد، ثم بداية انحرافات النصرانية وتنازلاتها ومحاولاتها للدولة الرومانية على حساب عقيدتها، وأشار إلى اعتناق император قسطنطين للنصرانية، حيث بدأ تدخل الدولة الرومانية في صلب العقيدة النصرانية وأكثر ما تجلى ذلك في مجمع نيقية الذي عقد برئاسة император لبحث مشكلة آريوس الذي عارض القول بآلوهية المسيح. وقد نقل ابن القيم هذا الفصل باختصار عن الجواب الصحيح نقاً عن تاريخ ابن البارقي (انظر الجواب الصحيح: ٥/٣).

وقد رجعت إلى تاريخ ابن البارقي ووجده مفصلاً هناك، (انظر: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ابن البارقي: ٩٣/١ - ٢١٩) وقد ظهر واضحًا أن ابن تيمية نقل عن تاريخ ابن البارقي، أما ابن القيم فقد نقل عن الجواب الصحيح.

الملك بيت المقدس إلى الملك^(١) يعلمه بأمر المسيح وتلاميذه، وما يفعل من العجائب الكثيرة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، فهم أن يؤمن به ويتبع دينه، فلم يتابعه أصحابه.

ثم هلك وولي بعده ملك آخر^(٢)، وكان شديداً على (تلامذة المسيح)^(٣)، ثم مات وولي بعده آخر^(٤).

[الظروف التي كتبت فيها الأنجليل]

وفي زمانه كتب (متى)^(٥) إنجيله بالعبرانية، وفي زمانه صار (مرقس)^(٦) والي الإسكندرية، فدعا إلى الإيمان بال المسيح، وهو أول شخص جعل بتركاً^(٧) بالإسكندرية، (وصير)^(٨) معه اثنى عشر قسيساً على عدة نقباء بني إسرائيل في زمن موسى، وأمرهم إذا مات البرك أن يختاروا من الاثنى عشر واحداً يجعلونه بتركاً مكانه، ويضع الاثنى عشر أيديهم على رأسه (وبياركونه)^(٩)، ثم يختارون رجلاً فاضلاً قسيساً يصيرون له تمام العدة، ولم يزل أمر القوم كذلك إلى زمان قسطنطين، ثم انقطع هذا الرسم فاصطلحوا على أن ينصبوا بتركاً من أي بلد كان من أولئك (القسيسين)^(١٠)، ثم يسموه (بابا) ومعناه أبو

(١) في الجواب الصحيح: ٥/٥ وكتب بلاطوس إلى طيباريوس، وهو هكذا في تاريخ ابن البطريق: ٩٣/١.

(٢) واسمه غابيوس عند ابن البطريق: ص ٩٣.

(٣) في ص: تلامذته.

(٤) واسمه قلوديوس قيصر (ابن البطريق: ٩٤/١).

(٥) في ب، ج، ص: مرقس، والصواب متى، قال ابن البطريق: وفي عهد قلوديوس قيصر كتب مرقس إنجيله بالعبرانية في بيت المقدس (تاريخ ابن البطريق: ٩٤/١).

(٦) سقطت من جميع النسخ وفي الجواب الصحيح: مرقس هو الذي كان يدعوا إلى الإيمان بالإسكندرية وأول بترك لها: ٦/٣ وكذلك يشير النص بعد قليل، كما بين ذلك ابن البطريق في تاريخه: ٩٥/١.

(٧) يشير تاريخ ابن البطريق إلى أن مرقس صير حانيا بطريقاً على الإسكندرية، وهو أول بطريق صير على الإسكندرية (تاريخ ابن البطريق: ٩٥/١).

(٨) في ج: وجعل.

(٩) في ج: وبياركونه.

(١٠) في ج، ص: القيس أو من غيرهم.

الآباء، وخرج مرقس إلى برقة^(١) يدعو الناس إلى دين المسيح، ثم جاء^(٢) ملك آخر فأهاج^(٣) على أتباع المسيح الشر والبلاء، وأخذهم بأنواع العذاب، وفي عصره كتب بطرس رئيس الحواريين إنجيل مرقس عنه بالروميه، ونسبه إلى مرقس^(٤) وفي عصره كتب لوقا إنجيله بالروميه لرجل شريف من عظماء الروم^(٥)، وكتب له الإفركسيس^(٦) الذي فيه أخبار التلاميذ، وفي زمنه صلب بطرس.

وزعموا أن بطرس قال له: «إن أردت أن تصلبني فاصلبني منكساً، لشلا أكون مثل سيدى المسيح فإنه صلب قائماً».

وضرب عنق بولس^(٧) بالسيف وأقام (بطرس)^(٨) بعد صعود المسيح اثنين وعشرين سنة. وأقام (مرقس) بالاسكندرية وببرقة (سبعين سنين)^(٩)، يدعو الناس إلى الإيمان بالMessiah، ثم قتل بالإسكندرية وأحرق جسده بالنار.

ثم استمرت القياصرة ملوك الروم على هذه السيرة إلى أن ملك قيصر يسمى (طيطس)^(١٠) فخرّب بيت المقدس بعد المسيح بسبعين سنة بعد أن حاصرها، وأصاب أهلها جوعاً عظيم، وقتل من كان بها من ذكر وأنثى حتى كانوا يشقون بطون الحبالى

(١) برقة: بفتح أوله والكاف، اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وأفريقيا، وهي مما افتح صلحاً، صالحهم عليها عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ: وفيات الأعيان.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) في تاريخ ابن البطريق: ومات قلوديوس قيصر، وملك بعده ابنه نارون ثلاث عشر سنة: ٩٦/١ وهكذا أيضاً في الجواب الصحيح: ٧/٣ لكنه ذكر فلوريوس بدل قلوديوس وبارون بدل نارون، ولعله خطأً مطبعي وتصحيف من النساخ.

(٤) نص على ذلك ابن البطريق: ٩٦/١ وهذا مما يرجح أن مرقس لم يكتب إنجيله.

(٥) واسمه عند ابن البطريق: ثاوفيلا، وفي الجواب الصحيح: فوفيلا.

(٦) الإفركسيس هو أخبار التلاميذ أو ما يعرف الآن بأعمال الرسل وهو مما ينسب إلى بولس.

(٧) في الأصل: عنق توكس.

(٨) في ج: مرقس.

(٩) سقطت من ج.

(١٠) تيطس هو الإمبراطور الروماني تيطس ابن الإمبراطور اسباسيانوس: وقد ملك تيطس ثلاث سنين وشهرين ونصف ومات، وقد قام بتخريب بيت المقدس سنة ٧٠ م (انظر: تاريخ ابن البطريق: ٩٨/١ - ٩٩).

ويضربون بأطفالهن الصخور، وضرب المدينة وأضرم فيها ناراً وأحصي (القتلى)^(١) فبلغوا ثلاثة آلاف ألف^(٢).

ثم ملك ملوك آخرون فكان منهم واحد شديداً على اليهود جداً^(٣)، فبلغه أن النصارى يقولون إن المسيح ملكهم وإن ملكه يدوم إلى آخر الدهر، فاشتد غضبه وأمر بقتل النصارى وأن لا يبقى في مملكته (نصراني)^(٤).

وكان (يوحنا) صاحب الإنجيل هناك، فهرب^(٥)، ثم أمر الملك بإكرامهم وترك الاعتراف عليهم.

ثم ملك بعده آخر^(٦) فأثار على النصارى بلاءً عظيماً وقتل بترك إنطاكية^(٧) وروميا، وقتل أسقف بيت المقدس وصلبه، وله يومئذ مائة وعشرون سنة، وأمر باستبعاد النصارى، فاشتد عليهم البلاء إلى أن رجمتهم الروم، وقال له وزراؤه: إن لهم ديناً وشريعة، وإنه لا يحل استبعادهم ففكّ عنهم.

وفي عصره كتب يوحنا إنجيله بالروميا^(٨)، وفي ذلك العصر رجع اليهود إلى بيت المقدس، فلما كثروا وامتلأت بهم المدينة، عزموا على أن يُملكونا منهم ملكاً، فبلغ الخبر (قيصر)^(٩)، فوجه جيشاً إليهم فقتل منهم ما لا يحصى، ثم ملك بعده آخر^(١٠)، فأخذ

(١) في ب، ج، ص: القتلى على يده وهكذا عند ابن البطريق.

(٢) نفس الرقم عند ابن البطريق وفي الجواب الصحيح.

(٣) في الجواب الصحيح: اسمه ذوما طيتوس وعند ابن البطريق دوما تيانوس بالذال لا بالذال.

(٤) في الأصل: أحد منهم.

(٥) عند ابن البطريق: هرب إلى أفسس.

(٦) عند ابن البطريق: وملك بعده نارواس قيصر ويسمى برسطيوس قيصر بروميا سنة وخمسة أشهر ومات، وملك بعده طرايانوس قيصر، ويسمى اندريانوس قيصر، وهذا الملك أثار على النصارى بلاءً عظيماً... (تاريخ ابن البطريق: ١٤٠).

(٧) إنطاكية: قصبة العواصم من التغور الشامية، بينها وبين حلب يوم وليلة، أول من بنانا انتيكس الملك الثالث بعد الاسكندر، وقد سار إليها أبو عبيدة من حلب وقد تحصن بها خلق كثير، فحاصرها من جميع نواحيها، فصالحه أهلها على الجزية وبعضهم على الجلاء، ثم نقضوا العهد، فوجه إليهم أبو عبيدة عياض بن غنم وحبيب بن سلمة ففتحاها على الصلح الأول (معجم البلدان).

(٨) عند ابن البطريق: باليونانية.

(٩) في الجواب الصحيح: ٩/٣ طبياريوس قيصر وعند ابن البطريق: طرايانوس قيصر.

(١٠) اسمه في الجواب الصحيح اندريانوس وعند ابن البطريق إيليا اندريانوس.

الناس بعبادة الأصنام، وقتل من النصارى خلقاً كثيراً. ثم ملك بعده ابنه^(١)، وفي زمانه قتل اليهود قتلاً ذريعاً، وخرب بيت المقدس، وهرب اليهود إلى مصر وإلى الشام والجبال والأغوار، وتقطعوا في الأرض وأمر الملك أن لا يسكن المدينة يهودي، وأن يُقتل اليهود^(٢) ويُستأصلوا، وأن يسكن المدينة اليونانيون، وامتلأت بيت المقدس من اليونانيين، والنصارى في ذمة الروم تحت أيديهم، فرأوهم يأتون إلى مذبلة هناك فيصلون فيها، فمنعوهم من ذلك، وبنوا على المذبلة هيكلًا باسم الزهرة، فلم يمكن النصارى بعد ذلك قربان ذلك الموضع.

[فترة رفع البلاء عن اليهود]

ثم هلك هذا الملك، وقام بعده آخر، فنصب^(٣) يهودا أسقفاً على بيت المقدس. قال ابن البطريق: فمن يعقوب أسقف بيت المقدس (الأول)^(٤) إلى يهودا هذا أسقفه هذا كانت الأساقفة^(٥) الذين على بيت المقدس كلهم (مجبوين)^(٦).

[وعاد البلاء]

ثم ولد بعده آخر^(٧) فأثار على النصارى بلاءً شديداً وحزناً طويلاً، ووقع في أيامه

(١) واسمه في الجواب الصحيح: أيليا، وهو ابن اندريانوس كما ذكر ابن تيمية عنه أخذ ابن القيم، ولم يرد عند ابن البطريق ذلك، وإنما اسم الامبراطور إيليا اندريانوس وهو الذي أصابه المرض، وهو الذي ضرب بيت المقدس، وكان هذا آخر خراب لها، وأمر أن لا يسكنها اليهود، وأسكن فيها اليونانيين وأمر أن تسمى (إيليا) باسمه (تاريخ ابن البطريق: ١٠١ / ١ - ١٠٢).

(٢) في ج: اليهود الذين على بيت المقدس.

(٣) في الجواب الصحيح عند ابن البطريق هو انطونيوس قيسر.

(٤) في ب: الأول كتاباً.

(٥) هذه الفقرة كاملة نقلها النساخ في ج من هذا الموضع ووضعها بعد أسطر بعد عبارة: قال ابن البطريق وفي زمانه.

(٦) في ج: مختونين، وكذلك عند ابن البطريق وابن تيمية (راجع تاريخ ابن البطريق: ١٠٣ / ١ والجواب الصحيح: ١٠٣ / ٣).

(٧) في الجراب الصحيح اسمه مرقس: ١٠ / ٣ قال ابن البطريق: ومات انطونيوس قيسر وملك بعده مارقس، ويسمى أوريليوس قيسر، ويسمى أيضاً انطونيوس سورس أقام تسع عشرة سنة ومات (تاريخ ابن البطريق: ١٠٤ / ١).

قطح شديد كاد الناس أن يهلكوا، فسألوا النصارى أن يتبهلو إلى الله، فدعوا وابتلهوا إلى الله فأمطروا وارتفع القحط والوباء.

قال ابن البطريق: وفي زمانه كتب بترك الإسكندرية إلى أسقف بيت المقدس وبترك إنطاكية وبترك رومية في (كتاب)^(١) فصح النصارى وصومهم، وكيف يستخرج من فصح اليهود فوضعوا فيها كتاباً على ما هي اليوم^(٢).

قال: وذلك أن النصارى كانوا بعد صعود المسيح إذا عيدوا عيد الغطاس^(٣) من الغد يصومون أربعين يوماً، (ويفطرون كما فعل المسيح لأنه لما اعتمد بالأردن خرج إلى البرية فأقام بها صائماً أربعين يوماً^(٤)).

وكان النصارى إذا أفسح اليهود عيدهم الفصح، فوضع هؤلاء الباركة حساباً للفصح ليكون فطراهم (يوم الفصح)^(٥)، وكان المسيح يعيده مع اليهود في عيدهم، فاستمر على ذلك أصحابه إلى أن ابتدعوا تغیر الصوم، فلم يصوموا عقب الغطاس، بل نقلوا الصوم إلى وقت لا يكون عيدهم مع (عيد)^(٦) اليهود.

ثم مات ذلك الملك، وقام بعده آخر^(٧)، وفي زمنه كان جالينوس^(٨) وفي زمنه ظهرت الفرس، وغلبت على بابل^(٩) وأمد^(١٠) وفارس (وتملك ازدشیر)^(١١) بن (بابك)^(١٢) في

(١) عند ابن البطريق وابن تيمية: حساب.

(٢) فصح النصارى اليوم، عند الكنيسة الشرقية في ٢٦ نيسان وعندي الكنيسة الغربية في ١٩ نيسان.

(٣) عيد الغطاس في ٦ كانون الثاني.

(٤) سقطت من ص.

(٥) في الأصل: غير يوم الفصح.

(٦) سقطت من ص.

(٧) واسمه قومودوس قيسار ابن انطونيوس (تاريخ ابن البطريق ١٠٥/٢).

(٨) جالينوس الحكم صاحب صناعة الطب: ١١/٣ الجواب. ولد بعد نبوة عيسى بمائتي سنة اتفاقاً، هكذا في مرآت الكائنات (من هامش نسخة الأصل ص ١٣٠).

(٩) بابل: اسم ناحية في العراق منها الكوفة والحلة، ويقال إن أول من سكنها نوح عليه السلام بعد الطوفان، وسكنها ملوك كثيرون منهم يخت نصر (معجم البلدان).

(١٠) آمد، وتعرف بأميد يزه، وهي من قرى بخارى (انظر: معجم البلدان).

(١١) ازدشیر بن بابل بن ساسان من أهل اصطخر: أول ملك ملك على فارس في المرة الثانية (تاريخ ابن البطريق: ١٠٦/١).

(١٢) في الأصل بابل.

(اصطخر)^(١)، وهو أول ملك على فارس في (المدة الثانية)^(٢).

ثم مات قيسروقام بعده آخر (ثم آخر)^(٣)، وكان شديداً على النصارى عذبهم عذاباً شديداً، وقتل خلقاً كثيراً منهم، وقتل كل عالم فيهم، ثم قتل من كان بمصر والإسكندرية من النصارى، وهدم الكنائس وبنى بالإسكندرية هيكلًا وسماه هيكل الآلهة.

ثم قام بعده قيسروآخر^(٤)، وكانت النصارى في زمانه في هدوء وسلامة وكانت تحت ذمة – أي تحت أيدي الروم^(٥) – .

ثم قام بعده آخر (فاثار)^(٦) على النصارى بلاءً عظيماً، وقتل منهم خلقاً، وأخذ الناس بعبادة الأصنام وقتل من الأساقفة خلقاً كثيراً (منهم وقتل كل عالم فيهم)^(٧)، وقتل بترك إنطاكية، فلما سمع بترك (بيت المقدس)^(٨) بقتله هرب وترك الكرسي .

ثم هلك وقام بعده (آخر)^(٩)، وفي أيام هذا^(١٠) ظهر (مانى)^(١١) الكذاب، وزعم أنهنبي ، وكان كثير الحيل والمخاريق، فأخذه (بهرام) ملك الفرس فشقه نصفين، وأخذ من أتباعه مائتي رجل فغرس رؤوسهم في الطين منكسين حتى ماتوا.

(١) في الجواب الصحيح: وتملك أزدشير بن ساسان بابل من أهل اصطخر وعند ابن البطريق: أزدشير بن بابك بن ساسان من أهل اصطخر.

(٢) عند ابن البطريق: ومات ترمودوس قيسروملك الروم وملك بعده برطبيتوس قيسروملك الروم ثلاثة أشهر ثم قتل، وملك بعده يوليانيوس قيسروشهرين وقتل وملك بعد سويرس قيسروعلى الروم بروميه سبع عشرة سنة: ١٠٧/١.

(٣) هكذا في الجواب الصحيح: ١٢/٣ وعند ابن البطريق وفي جميع النسخ: في المدة الثانية.

(٤) عند ابن البطريق: ومات سويرس قيسروملك بعده انطونيوس قيسروفالبيوس وهو الأصلع: ١٠٨/١.

(٥) في ب، ج، ص: وكانت أمه تحب النصارى.

(٦) في ج: فأقام.

(٧) ليست في ب، ج، ص.

(٨) سقطت من الأصل.

(٩) في ب، ج، ص: آخر ثم آخر وعند ابن البطريق: مقيسيماينوس وبعده بوبينيوس وبعده غروبيانوس.

(١٠) غروبيانوس الذي كان في زمانه بهرام بن هرمز ملك الفرس.

(١١) مانى: ولد سنة ٢٣٩ م، وأشاع أن المسيح ترك عمل الخلاص ناقصاً، وأنه هو الذي سيتمه، وهو مؤسس مذهب المانوية، ويدعى أن للكون إلهين هما إله النور وإله الظلم، وقد ادعى مانى أنه هو البارقليط (انظر: تاريخ الأقباط: ١٤٩/١).

ثم قام من بعده (فيليبيس)^(١) فآمن بال المسيح فوثب عليه (بعض قواهه فقتله)، ثم قام من بعده (ذانيقيوس)^(٢) (ويسمي دقيانوس)^(٣) فلقي النصارى منه بلاءً عظيماً وقتل منهم ما لا يحصى، وقتل بترك رومية، ثم بنى (بنكينستها)^(٤) هيكلًا عظيماً، وجعل فيه الأصنام، وأمر أن يسجد لها ويذبح لها، ومن لم يفعل يقتل، فقتل خلقاً كثيراً من النصارى، وصلبوا على الهيكل، واتخذ من أولاد عظماء المدينة سبعة (غلمان)^(٥) فجعلهم خاصةه فقدمهم على جميع من عنده، وكانوا لا يسجدون للأصنام، فأعلم الملك بخبرهم، فحبسهم ثم أطلقهم، وخرج إلى مخرج له، فأخذ الفتية كل مالهم فتصدقوا به ثم خرجوا إلى جبل عظيم فيه كهف كبير، فاختفوا فيه، وصبّ عليهم النعاص فناموا كالآموات، وأمر الملك أن يبني عليهم باب الكهف كي يموتو فأخذ قائد من قواهه صفيحة من نحاس (فيها أسماؤهم وقصتهم مع دقيانوس)^(٦) وصیرها في صندوق من نحاس (ودفنه داخل الكهف)^(٧)، وسده^(٨)، ثم مات الملك، ثم قام بعده قيصر آخر^(٩)، وفي زمنه جعل في إنطاكية بتركاً

(١) في الأصل: قواهه فقتلوه، وعند ابن البارقي، قائد من قواهه.

(٢) في ب، ج: داينتوس، وفي ص: داينتوس، قال ابن البارقي: فوثب عليه قائد من قواهه يقال له دافيروس فقتله، وغلب على الملك على الروم ستين: ١١٢/١ وفي الجواب الصحيح، ذافيروس: ١٣/٣.

(٣) ليست في ب، ج، ص ولا عند ابن البارقي. وهي موجودة في الجواب الصحيح.

(٤) ليست في ب، ج، ص.

(٥) في الأصل: علماء.

(٦) في ج: فكتب فيها قصتهم وأسماءهم، وما تم لهم مع ذانيقيوس وفي ب، ص: فكتب فيها أسماءهم وقصتهم مع دقيانوس.

(٧) في ج: ووضعه عندهم بالكهف.

(٨) لعل هؤلاء الفتية هم أصحاب الكهف الذين ذكرهم القرآن الكريم وإن كان هذا السياق الذي يرويه ابن البارقي يختلف عن سياق القصة في القرآن الكريم، لكنه ذكر أنهم سبعة غلام وسمّاهم، وهم من أولاد عظماء أنفسهم وقد رفضوا السجود للأصنام، فأمر الملك بحبسهم، ثم أطلق سبيلهم فخرجوا إلى كهف وناموا... تاريخ ابن البارقي: ١١٢/١ وقد رجح ابن تيمية رحمة الله كون القصة عن أصحاب الكهف بل نقل ما سرده ابن البارقي بعد ذلك وعند الحديث عن القيصر الذي ظهر فيه أهل الكهف بعد نومهم الطويل (انظر: الجواب الصحيح: ٣٤/٣ - ٣٦) قلت: ورجح هذا كثير من المفسرين ومنهم ابن كثير في تفسيره، فقد ذكر أن القصة حدثت زمن دقيانوس، بل أشار رحمة الله إلى أن أكثر من واحد من السلف والخلف ذكر ذلك (انظر تفسير ابن كثير: ٧٤/٣).

(٩) واسمه قلوديوس قيصر كما ذكر ابن البارقي، وقد ملك قبله اثنان: ١١٤/١.

يسمى (بولس الشمسياطي)^(١)، وهو أول من ابتدع في شأن المسيح اللاهوت والناسوت، وكانت النصارى قبله كلّتهم واحدة أنه عبد رسول مخلوق ومربي لا يختلف فيه اثنان منهم. فقال (بولس) هذا — وهو أول من أفسد (النصارى وأفسد دينهم)^(٢) — : إن سيدنا عيسى خلق من اللاهوت إنساناً كواحد منا في جوهره، أن ابتداء ابن من مريم وأنه أصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الإنسنى ، وصحبه النعمة الإلهية فحلّت فيه بالمحبة والمشيئة، ولذلك سمي ابن الله ، وقال : (إن الله جوهر واحد وأقnon واحد).

وقال سعيد بن بطريق: وبعد موته اجتمع ثلاثة عشر أسقفًا في مدينة إنطاكية، ونظروا في مقالة (بولس)، وأوجبوا عليه اللعن فلعنوه ولعنوا من يقول قوله وانصرفوا^(٣).

ثم قام قيصر آخر^(٤) (فكان)^(٥) النصارى في زمانه يصلون في المطامير والبيوت فزعًا من الروم ، ولم يكن بترك الإسكندرية يظهر، خوفًا أن يقتل ، فقام (بارون)^(٦) بتراكًا ، فلم يزل يداري الروم حتى بنى بالإسكندرية كنيسة.

ثم قام قياصرة آخر، منهم اثنان تملكا على الروم إحدى وعشرين سنة^(٧) ، فأثارا على النصارى بلاءً عظيمًا وعذاباً أليماً ، وشدة تجلّ عن الوصف في القتل والعقاب واستباحة الحريم والأموال ، وقتلا ألفاً مؤلفة من النصارى ، وعذبوا (مارجرجس)^(٨) أشد

(١) بولس الشمسياطي : في ب ، ج ، ص: بالسين لا بالشين.

(٢) في ب ، ص ، ج: دين النصارى.

(٣) تاريخ ابن بطريق: ١١٤/١.

(٤) في الجواب الصحيح: ١٥/٣ اسمه أوراغوس قيس، عند ابن بطريق، أورليوس قيس.

(٥) في الجواب الصحيح: ١٥/٣ وكان وفي الأصل: فكادت.

(٦) في الجواب الصحيح: ١٥/٣ نارون (بالثون) وهكذا عند ابن بطريق.

(٧) وهما: ديوكليتيانوس ومقسيميانوس ويسمى الكوريوس.

(٨) ذكر ابن بطريق أن هذين الامبراطورين عذباً مارجرجس وقتلاه في فلسطين (انظر: تاريخ ابن بطريق: ١١٦/١).

العذاب ثم قتلوه، وفي زمانهما ضربت (عنق)^(١) بطرس بترك الإسكندرية وكان له تلميذان^(٢).

وكان في زمانه (أريوس)^(٣) يقول: إن الأب وحده الله الفرد الصمد، والابن مخلوق مصنوع، وقد كان الأب إذا لم يكن ابن.

وقال (بطرس) لتلميذه: إن المسيح لعن أريوس فاحذر أن تقبلأ قوله، فإني رأيت المسيح في النوم مشقوق الثوب، فقلت: يا سيدى، من شق ثوبك؟ فقال لي: أريوس فاحذروا أن تقبلوا أو يدخل معكم الكنيسة^(٤).

وبعد قتل بطرس بخمس سنين صير أحد تلميذه^(٥) بترك على الإسكندرية، فأقام ستة أشهر ومات^(٦)، ولما جرى على أريوس ما جرى، أظهر أنه رجع عن مقالته، فقبله هذا البترك وأدخله الكنيسة وجعله قسيساً.

ثم قام قيسار آخر^(٧) فجعل يتطلب النصارى ويقتلهم حتى صب الله عليه (الهلاك)^(٨) فهلك بشر هلكة.

ثم قام بعده قيسaran^(٩) أحدهما ملك الشام وأرض الروم وبعض المشرق، والأخر رومية وما جاورها. وكان كالسباع الضاربة على النصارى، فعلا بهم من القتل والسببي والجلاء ما لم يفعله بهم ملك قبلهما.

(١) في ج: رقبة.

(٢) ذكر اسمهما في الجواب الصحيح، وهما: أشلا، والاكتندروس، وهكذا عند ابن البطريق.

(٣) عند ابن البطريق: وكان بالاسكندرية رجل كافر يقال له آريوس.

(٤) انظر: تاريخ ابن البطريق: ١١٦ / ١ - ١١٧ .

(٥) في الجواب الصحيح، وعند ابن البطريق: أشلا.

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) في الجواب الصحيح: ١٦ / ٣ دقيطيانوس وعند ابن البطريق: غابيوس.

(٨) في ب، ج، ص: التقدمة.

(٩) في الجواب الصحيح: أحدهما اسمه (علانيوس) والآخر (مقسطيوس): ١٧ / ٣ ، عند ابن البطريق: فيلك مكسيميانيوس الذي يسمى غلاريوس المشرق والشام وأرض الروم وملك مكسينيوس مدينة رومية وتحومها (تاريخ ابن البطريق: ١١٧ / ١).

[والد قسطنطين يتزوج القدسية هيلانة]

وملك معهما قسطنطين^(١) أبو قسطنطين، وكان ديناً مبغضاً للأصنام محبًا للنصارى، فخرج إلى ناحية الجزيرة والرها^(٢)، فنزل في قرية من قرى الرها^(٣)، فرأى هناك امرأة جميلة يقال لها (هيلانة)، وكانت قد تنصرت على يد أسقف الرها، وتعلمت قراءة الكتب فخطبها قسطنطين من أبيها فزوجها منه، وولدت قسطنطين فتربي بالرها وتعلم حكمة اليونان، وكان جميل الوجه قليل الشر محبًا للحكمة.

وكان (علانيوس)^(٤) ملك الروم حينئذ رجلاً (فاجراً شديد البأس مبغضاً للنصارى جداً كثير القتل منهم، محبًا للنساء لم يترك للنصارى بنتاً جميلة^(٥) إلا أفسدها، وكذلك أصحابه، وكان النصارى في جهد شديد معهم. بلغه خبر قسطنطين وأنه غلام هادئ قليل الشر كثير الخير كثير العلم، وأخبره المنجمون (والكهنة)^(٦) أنه سيملك ملكاً عظيماً، فهم بقتله، فهرب قسطنطين من الرها، ووصل إلى أبيه فسلم إليه الملك، ثم مات أبوه وصبّ الله على (علانيوس) أنواعاً من البلاء، حتى تعجب الناس مما ناله، ورحمه أعداؤه مما حل به فرجع إلى نفسه وقال: لعل هذا بسبب ظلم النصارى، فكتب إلى جميع عماله أن (يطلقوا)^(٧) النصارى من الحبس، وأن يكرموهم ويسألوهم أن يدعوا له في صلاتهم، فوهب الله له العافية، ورجع إلى أفضل ما كان عليه من الصحة والقدرة، فلما صحّ وقوى رجع إلى أشر ما كان عليه، وكتب إلى عماله أن يقتلوا النصارى، وأن لا يدعوا في مملكتهم نصرياناً، ولا يسكنوا له مدينة ولا قرية، فكان القتلى يحملون على العجل ويرمى بهم في البحر والصحاري.

(١) عند ابن البطريق: فسطس وهكذا في الجواب الصحيح.

(٢) الرها: أو الرهاء، مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ (معجم البلدان).

(٣) في الأصل: قرى النصارى في الرها (وفي الجواب الصحيح، يقال لها: كفرجاشر وعند ابن البطريق، كفر فخار).

(٤) في الأصل: مكستيوس وعند ابن البطريق: مكسيمييانوس المسمى غالاريوس: ١١٨/١.

(٥) سقطت من صن.

(٦) في ج: والعلماء والكهنة.

(٧) في ج: يقتلوا.

[قصة الصراع بين قسطنطين ومنافسيه]

وأما قيصر الآخر الذي كان معه^(١) فكان شديداً على النصارى، واستعبد من كان برومية من النصارى ونهب أموالهم، وقتل رجالهم ونساءهم وصبيانهم، فلما سمع أهل رومية بقسطنطين أنه مبغض للشّرّ محب للخير، وأن أهل مملكته معه في هدوء وسلامة، كتب رؤساؤهم إليه يسألونه أن يخلصهم من عبودية ملوكهم، فلما قرأ كتابهم اغتم غماً شديداً ويفي متّحراً لا يدرّي كيف يصنع.

قال سعيد بن البطريق: ظهر (له بنصف)^(٢) النهار في السماء صليب من كوكب مكتوباً حوله بهذا تغلب، فقال لأصحابه: رأيتم ما رأيته؟ قالوا: نعم، فامن حيشد بالنصرانية، فتجهز لمحاربة قيصر المذكور، وصنع صليباً كبيراً من ذهب وصيّره على (البند)^(٣) وخرج بأصحابه فأعطي النصر على قيصر، فقتل من أصحابه مقتلة عظيمة، وهرب الملك ومن (بقي من أصحابه)^(٤)، فخرج أهل رومية إلى قسطنطين بالإكيليل الذهب، وبكل أنواع اللهو واللعب، فتلقوه وفرحوا به فرحاً عظيماً، فلما دخل المدينة أكرم النصارى، وردهم إلى بلادهم بعد التّنبي والتّشريد، وأقام أهل رومية سبعة أيام (يعبدون)^(٥) للملك والصلب. فلما سمع (علانيوس) جمع جموعه وتجهز (لقتال)^(٦) قسطنطين، فلما وقعت العين في العين انهزموا، وأخذتهم السيوف، وأفلت (علانيوس) فلم يزل من قرينة إلى قرينة حتى وصل إلى (بلده)^(٧)، فجمع السحر والكهنة والعرافين الذين كان يحبهم (ويقبل منهم)^(٨)، فضرب أعناقهم لثلا يقعوا في يد قسطنطين.

(١) وهو مكستيوس كما في الجواب الصحيح، وعند ابن البطريق.

(٢) في الأصل: لهم نصف.

(٣) في ب، ج، ص: رأس البند والبند هو العلم الكبير، فارسي معرب وجمعه بنود، وقيل: من أعلام الروم يكون للقائد (لسان العرب).

(٤) سقطت من الأصل، وفي ج: الباقي من أصحابه.

(٥) في ب، ج، ص: يعيّدون.

(٦) في ص: للقتال مع.

(٧) في الأصل، بلاده.

(٨) في ج: وأمر.

[إعلان الدولة الرومانية نصرانيتها]

وتنصر قسطنطين وأمر بناء الكنائس (في كل بلد وأن يخرج^(١) من بيت المال الخراج فيما يعمل فيه أبنية الكنائس، وقام بدین النصرانية حتى ضرب بجرانه^(٢) في زمانه. فلما تم له خمس عشرة سنة من ملکه (ماج)^(٣) النصارى في أمر المسيح واضطربوا، فأمر بالمجمع في مدينة (نيقية)^(٤)، وهي التي رتبت فيها (الأمانة) بعد هذا المجمع كما سيأتي، فأراد آريوس أن يدخل معهم فمنعه بترك الإسكندرية^(٥)، وقال: إن بطرس قال لهم: إن الله لعن آريوس، فلا تقبلوه ولا تدخلوه الكنيسة.

وكان بالإسكندرية أسيوط من عمل مصر أسقف^(٦) يقول بقول آريوس فلعنه أيضاً، وكان بالإسكندرية هيكل عظيم على اسم (زحل)^(٧) وكان فيه صنم من نحاس يسمى ميكائيل، وكان أهل مصر وأهل الإسكندرية في اثنى عشر من شهر (هتور) وهو تشرين الثاني، يعيّدون لذلك الصنم عيداً عظيماً، ويدبحون له (الذبائح)^(٨)، فلما ظهرت النصرانية بالإسكندرية، أراد بتركها أن يكسر الصنم ويبطل الذبائح له^(٩)، فامتنع عليه أهلها فاحتال عليهم بحيلة وقال: لو جعلتم هذا الصيد لميكائيل ملك الله لكأن أولى، فإن هذا الصنم لا ينفع (ولا يضر)^(١٠) فأجابوه فكسر الصنم وجعل منه صليباً وسمى الهيكل كنيسة ميكائيل.

(١) سقطت من ص، ووضع الناسخ بدلاً منها عبارة مبعثرة غير صحيحة.

(٢) ضرب بجرانه: الجران: باطن العنق، وقيل مقدم العنق سمر، فإذا برك البعير ومد عنقه على الأرض قيل: ألقى جرانه بالأرض، وفي حديث عائشة: حتى ضرب الحق بجرانه «أرادت أن الحق استقام وقر في قراره» (لسان العرب).

(٣) في ص: حاج.

(٤) مجمع نيقية، كان سنة ٣٢٥ ونيقية: من أعمال استانبول على البر الشرقي، وهي المدينة التي اجتمع بها آباء الملة المسيحية، وأظهروا الأمانة التي هي أصل دينهم (معجم البلدان).

(٥) وهو آنذاك البطريرك الإسكندرس (تاريخ ابن بطريق: ١٢٤/١).

(٦) واسمه كما عند ابن بطريق - مليطيوس.

(٧) في ب، ج: رجل.

(٨) سقطت من ص، وفي ب، ج: الذبائح الكثيرة.

(٩) سقطت من ص والأصل.

(١٠) في ج: ويضر.

[آريوس قبل مجمع نيقية]

فلما منع بترك الإسكندرية آريوس من دخول الكنيسة ولعنه، خرج آريوس مستعداً عليه ومعه أسقفان^(١)، فاستغاثوا إلى قسطنطين، وقال آريوس: إنه تدعى عليّ وأخرجنـي من الكنيسة ظلماً، وسأل الملك أن يشخص بترك الإسكندرية (ليناظره قدام الملك فوجهـ قسطنطين برسول إلى الإسكندرية)^(٢)، فأشخصـ البترك وجمعـ بينـه وبينـ آريوسـ يـناظـرهـ، فقالـ قـسطـنـطـينـ لـآـريـوسـ: اـشـرـ مـقـالـتـكـ.

[مناظرة بين آريوس وبطريرك الإسكندرية]

قال آريوس: أقول: إن الأب كان إذا لم يكن الابن، ثم إنه أحدثـ الـابـنـ، وـكانـ كـلمـةـ لـهـ إـلـأـ أـنـهـ مـحـدـثـ مـخـلـوقـ، ثـمـ فـوـضـ الـأـمـرـ إـلـىـ ذـلـكـ الـابـنـ المـسـمـيـ كـلمـةـ، فـكـانـ هوـ خـالـقـ السـمـوـاتـ وـالـأـرـضـ وـمـاـ بـيـنـهـماـ، كـمـاـ قـالـ فـيـ إـنـجـيلـهـ إـذـ يـقـولـ: «وـهـبـ لـيـ سـلـطـانـاـ عـلـىـ السـمـاءـ وـالـأـرـضـ»^(٣)، (وـكـانـ هوـ الـخـالـقـ لـهـمـاـ بـمـاـ أـعـطـيـ مـنـ ذـلـكـ)^(٤). ثـمـ إـنـ الـكـلـمـةـ تـجـسـدـ مـنـ مـرـيمـ الـعـدـرـاءـ وـمـنـ رـوـحـ الـقـدـسـ فـطـرـ ذـلـكـ مـسـيـحـاـ وـاحـدـاـ فـالـمـسـيـحـ الـآنـ مـعـنـيـاـنـ كـلمـةـ وـجـسـدـ إـلـاـ أـنـهـمـاـ جـمـيـعـاـ مـخـلـوقـاـنـ.

فـأـجـابـهـ عـنـدـ ذـلـكـ بـتـرـكـ الإـسـكـنـدـرـيـةـ وـقـالـ: (تـخـبـرـنـاـ)^(٥) (أـيـمـاـ)^(٦) أـوجـبـ عـلـيـنـاـ عـنـدـكـ عـبـادـةـ مـنـ خـلـقـنـاـ أـوـ عـبـادـةـ مـنـ لـمـ يـخـلـقـنـاـ؟ـ.

قال آريوس: بل عـبـادـةـ مـنـ خـلـقـنـاـ.

فـقـالـ لـهـ الـبـرـكـ: إـنـ كـانـ خـالـقـاـ الـابـنـ – كـمـاـ وـصـفـتـ – وـكـانـ الـابـنـ مـخـلـوقـاـ فـعـبـادـةـ الـابـنـ مـخـلـوقـاـ أـوجـبـ مـنـ عـبـادـةـ الـأـبـ الـذـيـ لـيـسـ بـخـالـقـ، بلـ تـصـيـرـ عـبـادـةـ الـأـبـ الـذـيـ خـلـقـ

(١) والأسقفان: أحدهما يسمى أوماينوس أسقف مدينة نيقومودية، والآخر اسمه أوسايروس أسقف مدينة فيلا (تاریخ ابن بطريق: ١/٢٣٥).

(٢) سقطت من ج، ص.

(٣) متى: ٢٨/١٨.

(٤) في الأصل: فـكـانـ هوـ بـمـاـ أـعـطـيـ مـنـ ذـلـكـ.

(٥) في ص: تحيرنا.

(٦) سقطت من الأصل.

الابن كفراً، وعبادة الابن المخلوق إيماناً، وذلك من أفحى الأقاويل. فاستحسن الملك وكل من حضر مقالة البرك، وشنع عندهم مقالة آريوس، ودارت أيضاً بينهما مسائل كثيرة، فأمر قسطنطين البرك أن يكفر آريوس وكل من قال بمقالته، فقال له: بل يوجه الملك بشخص البتارك والأساقفة حتى يكون لنا مجمع ونضع فيه قضية، ونكفر آريوس (ونشرح الدين)^(١) ونوضحه للناس، فبعث قسطنطين الملك إلى جميع البلدان فجمع البتاركة والأساقفة، واجتمع في مدينة (نيقية) بعد سنة (وشهرين)^(٢) ألفان وثمانية وأربعونأسقاً، فكانوا مختلفي الآراء (مختلفي الأديان)^(٣).

[اختلاف المعتقدات قبل انعقاد المجمع]

فمنهم من يقول: المسيح ومريم إلهان من دون الله، وهم (المريمانية)^(٤).

ومنهم من يقول: المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار، تعلقت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى لـإيقاد الثانية منها^(٥).

ومنهم من يقول: لم تحبل مريم تسعة شهور، وإنما مرّ نور في بطن مريم كما يمر الماء في الميزاب^(٦)، لأن كلمة الله دخلت من أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، وهذه مقالة (البان)^(٧) وأشياعه.

ومنهم من كان يقول: إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد مَنْا في جوهره، وأن ابتدأ الابن من مريم وأنه اصطفى ليكون مختصاً للجوهر الإنساني صحبته النعمة الإلهية، فحلّت منه بالمحبة والمشيئة فلذلك سمي ابن الله.

(١) في ج: ونشرح آريوس الدين.

(٢) في الأصل: وشهر.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) في ج: المريمانية، وعند ابن الطريق: وهم البربرانية ويسمون المريمين: ١٢٦/١.

(٥) وهي مقالة (سبارينون) وأشياعه، كما في الجواب الصحيح: ٢٣/٣ وعند ابن الطريق، وهي مقالة سابليوس وشيعته: ١٢٦/١.

(٦) الميزاب، وزب الشيء يزب وزوبا إذا سال، والميزاب، المتعب؛ فارسي معرب (لسان العرب).

(٧) في ج، ص: البان وهكذا عند ابن الطريق.

وفي الجواب الصحيح: البان: ٢٣/٣ وهي هكذا في ب.

ويقولون: إن الله جوهر واحد وأقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس، وهذه مقالة بولس^(١) وأشياعه.

ومنهم من كان يقول: ثلاثة آلهة (لم يزل)^(٢) صالح وطالح وعدل بينهما وهي مقالة مرقيون^(٣) وأشياعه.

ومنهم من كان يقول: ربنا هو المسيح، وهي مقالة الثلاثمائة (وثمانية عشر)^(٤) أسقفًا^(٥).

قال ابن البطريق: فلما سمع قسطنطين الملك مقالاتهم عجب من ذلك، وأخلى لهم داراً، وتقى لهم بالإكرام والضيافة، وأمرهم أن يتنازروا فيما بينهم، لينظر من معه الحق فيتبعه، فاتفق منهم ثلاثة (وثلاثمائة) أسقفًا على دين واحد ورأي واحد، وناذروا بقية الأساقفة المختلفين، فلحو عليهم في المنازلة.

وكان (باقي)^(٦) الأساقفة مختلفي الآراء والأديان، فصنع الملك للثلاثمائة (وثمانية عشر)^(٧) أسقفاً مجلساً عظيماً جلس في وسطه وأخذ خاتمه وسيفه وقضيه فدفع ذلك إليهم وقال لهم: قد سلطتكم اليوم على المملكة، فاصنعوا ما بدا لكم، وما ينبغي لكم أن تصنعوا، مما فيه قوام الدين وصلاح الأمة، فباركوا على الملك وقلدوه سيفه وقالوا له: أظهر دين النصرانية، وذبّ عنه، ووضعوا له أربعين كتاباً فيها السنن والشريائع، وفيها ما يصلح أن يعمل فيه الأساقفة وما يصلح للملك أن يعمل فيها.

(١) وهو بولس السمساطي بطيريك انطاكيه وهم البوبيقانيون (تاريخ ابن البطريق: ١/١٢٦).

(٢) سقطت من ج والأصل.

(٣) قال ابن البطريق: وهي مقالة مرقيون اللعين وأصحابه، وزعموا أن مرقيون هو رئيس الحواريين وأنكروا بطرس السليم (تاريخ ابن البطريق: ١/١٢٦).

(٤) في ج: وثمانية وأربعون، وعلى هامش ب بالرقم ٣١٣ وهو الصحيح.

(٥) قال ابن البطريق: وهي مقالة بولس الرسول ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً (تاريخ ابن البطريق: ١/١٢٦).

(٦) في ج: وثمانية وأربعون.

(٧) في الأصل: بقية.

(٨) في ب: والثلاثة عشر، وفي ج: وثمانية وأربعون.

وكان رئيس القوم (والجمع)^(١) المقدم فيه بترك الإسكندرية وبترك إنطاكيه وأسقف بيت المقدس^(٢).

[من قرارات المؤتمر]

ووجه بترك رومية من عنده رجلين^(٣)، فاتفق الكل على لعن آريوس وأصحابه (ولعنوه)^(٤)، وكل من قال بمقالته، ووضعوا الأمانة وقالوا إن الابن مولود من الآب قبل كون الخلاائق، وأن الابن مع طبيعة الآب غير مخلوق.

وانتفقوا على أن يكون فصح النصارى يوم الأحد، ليكون بعد فصح اليهود، وأن لا يكون فصح اليهود مع فصحهم في يوم واحد، ومنعوا أن يكون للأسقف زوجة، وذلك أن الأساقفة منذ وقت الحواريين إلى مجتمع الثلاثمائة (والثمانية عشر)^(٥) كان لهم نساء، لأنهم كانوا إذا صبروا واحداً أسفقاً وكانت له زوجة ثبتت معه ولم تنتهي عنه ما خلا البشارة، فإنه لم يكن لهم نساء، ولا كانوا يصيرون أحداً له زوجة بتركاً.

قال: وانصرفوا مكرمين محظوظين، وذلك في سبع عشرة (سنة)^(٦) من ملك قسطنطين الملك (وأمر)^(٧) بثلاث سنن^(٨) إحداها: كسر الأصنام وقتل كل من يعبدها. والثانية: أن لا يثبت في الديوان إلا أولاد النصارى ويكونوا هم الأمراء والقواد.

(١) سقطت من الأصل.

(٢) عند ابن بطريق: الأسكندرس بطريق الإسكندرية، وأساطط بطريق إنطاكيه، ومقاريوس أسقف بيت المقدس: ١٢٧/١.

(٣) عند ابن بطريق: وجه سلساطرس بطريق رومية من عنده قسيسين اسم أحدهما (بقطر) والأخر (فيكتنيوس) ١٢٧/١.

(٤) سقطت من ج.

(٥) في ج: والثمانية وأربعون.

(٦) سقطت من ج والأصل عند ابن بطريق: في تسع عشرة سنة من ملك قسطنطين.

(٧) سقطت من ب، ج، ص.

(٨) في ب: وسن قسطنطين الملك ثلاثة سنين. وفي ج: وسن قسطنطين ثلاثة سنين. وفي الجواب الصحيح: وامر بثلاث سنن: ٢٥/٣.

والثالث: أن يقيم الناس (جمعة)^(١) الفصح فالجمعة التي بعدها لا يعملون فيها عملاً ولا يكون فيها (حرب)^(٢).

وتقدم قسطنطين إلى أسقف بيت المقدس^(٣) أن يطلب موضع المقبرة والصلب وبيني الكنائس ويببدأ بناء (بيت القبة)^(٤).

فقالت هيلانة (أمّه): إنني نذرت أن أسيّر إلى بيت المقدس وأطلب المواقع المقدسة وأبنيها، فدفع إليها الملك أمواً جزيلة، وسارت مع أسقف بيت المقدس، فبنيت كنيسة القيامة في موضع الصليب وكنيسة قسطنطين.

[مناظرة بين مانيوس الأريوس وبطريرك الإسكندرية]

ثم اجتمعوا بعد هذا مجتمعًا عظيمًا ببيت المقدس^(٥)، وكان معهم رجل^(٦) دسه بترك القسطنطينية وجماعة معه، ليسأّلوا بترك الإسكندرية، وكان هذا الرجل لما رجع إلى الملك أظهر له أنه مخالف لأريوس، وكان يرى رأيه ويقول بمقالته، فقام الرجل وقال: إن أريوس لم يقل إن المسيح خلق الأشياء، ولكن به خلقت الأشياء، لأنّه كلمة الله التي بها (خلقت) السموات والأرض، وإنما خلق الله الأشياء كلها بكلمته ولم يخلق الأشياء

(١) في الأصل: جمعهم.

(٢) في الأصل: حرث.

(٣) واسمه مقاريوس (تاريخ ابن البطريق: ١٢٩/١).

(٤) هكذا في الأصل. وفي ص: القمامدة وفي الجواب الصحيح: القمامدة المقدسة، ولعل ابن تيمية رحمة الله أطلق عليها ذلك من باب الاستهزاء لأنها أقيمت مكان مذلة، كما أشار بعد ذلك بأسطرة: ٣/٢٥، وكما ذكر ابن البطريق في تاريخه: ١٢٩/١ وفي ب، ج: القيامة والصحيح أنها القيامة وهي كنيسة القيامة المعروفة، وسميت بذلك لأنها بُنيت في المكان الذي قام فيه المسيح بعد موته — كما يزعمون —.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) هذا الرجل اسمه: مانيوس، كما ذكر في الجواب الصحيح: ٣/٢٦ أو أومانيوس كما هو عند ابن البطريق.

كلمته^(١)، كما قال المسيح في الإنجيل: كل بيده كان، كل من دونه لم يكن شيئاً^(٢)، وقال: به كانت الحياة (والحياة)^(٣) نور البشر^(٤)، وقال (العالم به يكون)^(٥) فأحرج أن الأشياء به تكونت.

قال ابن البطريق: فهذه كانت مقالة آريوس ولكن الثلاثمائة (والثمانية عشر)^(٦) أسفقاً تعدوا عليه (وحرموه)^(٧) ظلماً وعدواناً.

فرد عليه بترك الإسكندرية وقال: أما آريوس فلم تكذب عليه الثلاثمائة (والثمانية عشر)^(٨) أسفقاً ولا ظلماً لأن إله إله^(٩) قال: الابن خالق الأشياء دون الآب وإذا كانت الأشياء إنما خلقت بالابن دون أن يكون الآب لها خالقاً فقد أعطى أنه ما خلق منها شيئاً، وفي ذلك تكذيب قوله (الآب يخلق وأنا أخلق)^(١٠).

وقال: (إني أنا إن لم أعمل عمل أبي فلا تصدقوني).

وقال: (كما أن الآب يحيي من يشاء ويميته).

(١) لا شك أن مقالة آريوس عرفت، ولعل هذا أقرب ما يكون لقول (آريوس) وهذا يعني أن الله تعالى خلق الأشياء بالكلمة وهي الكلمة (كن) «إذا أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» [بس: ٨٢] وبما أن عيسى الكلمة الله فصار المعنى أن الكون خلق بالكلمة التي خلق بها المسيح وهي (كن) والله أعلم.

(٢) يوحنا: ٣/١.

(٣) سقطت من ج.

(٤) يوحنا: ٤/٤ لكن النص (فيه) وليس به.

(٥) بهذا النص لم ترد وإنما بالمعنى قوله (كل شيء به كان) (يوحنا: ٣/١).

(٦) في ج: والثمانية وأربعون وفي هامش ب: والثلاثة عشر.

(٧) في ص: جرموه.

(٨) في ج: والثمانية وأربعون.

(٩) يوحنا: ١٧/٥ والنصل الحالي (أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل).

(١٠) يوحنا: ٣٦/٥ والنصل (لأن الأعمال التي أعطاني الآب لاكمليها هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلي).

(١١) يوحنا: ٢١/٥.

ويميته قالوا: فدل على أنه يحيي ويخلق. وفي هذا تكذيب لمن زعم أنه ليس بخالق، وإنما خلقت الأشياء به دون أن يكون (خالقاً)^(١).

وأما قولك: إن الأشياء تكونت به (فإنه)^(٢) لما كنا لا نشك أن المسيح حيٌّ فعال، وكان قد دل بقوله: (إنني)^(٣) أفعل الخلق والحياة، كان قوله: «به تكونت الأشياء» إنما هو راجع في المعنى إلى أنه كونها وكانت به مكونة (ولم يكن، فتناقض)^(٤) القولان.

قال: وأما قول من قال من أصحاب آريوس: إن الأب يريد الشيء فيكونه الابن والإرادة للأب والتكونين (للابن)^(٥) فإن ذلك يفسد أيضاً إذ كان الابن عنده مخلوقاً فقد صار حظ المخلوق في الخلق (أوفي)^(٦) من حظ الخالق فيه. وذلك أن هذا أراد و فعل، وذلك أراد ولم يفعل، فهذا أوفر حظاً في فعله من ذلك، ولا بد لهذا أن يكون في فعله لما يريد ذلك، بمنزلة كل فاعل من الخلق لما يريد الخالق منه، ويكون حكمه حكمه في الجبر والاختيار، وإن كان مجبوراً فلا شيء له في الفعل (والقول)^(٧)، وإن كان مختاراً فجائز أن يطاع وجائز أن يعصى، وجائز أن يثاب وجائز أن يعاقب، وهذا أشنع في القول.

وردد عليه أيضاً وقال: إن كان الخالق إنما خلق خلقه بمخلوق (فالمحلوقي)^(٨) غير الخالق بلا شك – فقد زعمتم أن الخالق يفعل بغيره والفاعل بغيره يحتاج إلى متّم ليفعل به، إذا كان لا يتم له الفعل إلا به – والمحتاج إلى غيره (منقوص)^(٩) والخالق متعال عن هذه الكلمة^(١٠).

(١) في ج: خالقاً لها.

(٢) في ج، ص: فأنا.

(٣) في الأصل: أنا.

(٤) في ب، ص: ولو لم يكن ذلك لتناقض وفي ج: ولم يكن ذلك لتناقض القولان.

(٥) في ج: للأب.

(٦) هكذا في الجواب الصحيح: ٢٧/٣ وفي الأصل: أدنى والمعنى يختل بعبارة الأصل.

(٧) سقطت من ج، ب، ص.

(٨) في ص: فالمحلوقي.

(٩) في الأصل: متعوض.

(١٠) هذه المنازرة موجودة في تاريخ ابن الطريق: ١٣١/١ - ١٣٢.

قال: فلما دحضر بترك الإسكندرية حجج أولئك المخالفين، وظهر لمن حضر بطلان قولهم، وتحيروا وخجلوا، فوثبوا على بترك الإسكندرية فضربوه حتى كاد يموت، فخلصه من أيديهم ابن أخت قسطنطين، وهرب بترك الإسكندرية، (وصار)^(١) إلى بيت المقدس من غير حضور أحد من الأساقفة، ثم أصلح دهن الميرون، وقدس الكنائس ومسحها بدهن الميرون، وسار إلى الملك وأعلمه بالخبر فصرfe إلى الإسكندرية.

وقال ابن البطريرق: وأمر الملك بأن لا يسكن يهودي بيت المقدس، ولا يجوز بها، ومن لم يتنصر قتل، فظهر دين النصرانية وتنصر من اليهود خلق (كثير)^(٢)، فقيل للملك: إن اليهود يتتصرون من خوف القتل وهم على دينهم، فقال: كيف لنا أن نعلم ذلك منهم؟ فقال بولس البترك: إن الخنزير في التوراة حرام واليهود لا يأكلون لحم الخنزير، فأمر أن تذبح الخنازير (وتطبخ لحومها)^(٣) ويطعم منها (اليهود)^(٤)، فمن لم يأكل علم أنه مقيم على (دين اليهودية)^(٥).

قال الملك: إذا كان الخنزير حراماً في التوراة فكيف يحل لنا أن نأكله ونطعمه الناس؟ فقال له بولس: فإن سيدنا المسيح قد أبطل كل ما في التوراة (وجاء بناموس)^(٦) وبتوراة جديدة وهو الإنجيل.

وفي (إنجيله)^(٧) (إن كل ما يدخل البطن فليس بحرام ولا نجس، وإنما ينجس الإنسان ما يخرج من فيه)^(٨).

وقال بولس: إن بطرس رئيس الحواريين بينما هو يصلّي في ست ساعات من النهار، وقع عليه سبات فنظر إلى السماء قد ثفتت وإذا بيازار قد نزل من السماء حتى بلغ

(١) سقطت من الأصل.

(٢) سقطت من ب، ص.

(٣) في ب: ويطبخ لها لحمها.

(٤) سقطت من ب، ج، ص.

(٥) في ج: دينه أبي دين اليهودية.

(٦) في ج: وجاءنا بناموس آخر وفي ب: جاء بناموس آخر وفي ص: وجاء بنواميس آخر.

(٧) في الأصل: الإنجيل.

(٨) متى : ١٥/١٧ - ١٨.

الأرض، وفيه كل ذي أربع (قوائم)^(١) على الأرض من السباع والدواب وغير ذلك، وسمع صوتاً من السماء يقول له : يا بطرس قم فاذبح وكل ، فقال بطرس : يا رب ما أكلت شيئاً نجساً قط ولا سخماً قط ، فجاء صوت (شان كُل^(٢)) ما طهره الله فليس بنجس^(٣) ، وفي نسخة أخرى «ما طهره الله فلا تنجسه أنت» ثم جاء الصوت بهذا ثلاثة مرات^(٤).

ثم إن الإزار ارتفع إلى السماء فتعجب بطرس وتحير فيما بينه وبين نفسه ، فأمر الملك أن تذبح الخنازير وتطبخ لحومها وتقطع صغاراً ، (وتصير)^(٥) على أبواب الكنائس في كل مملكته يوم الأحد الفصح ، وكل من خرج من الكنيسة (يلقم)^(٦) لقمة من لحم الخنزير ، فكل من لم يأكل منه يقتل ، فقتل لأجل ذلك خلق كثير^(٧).

[المجمع الأريوسي]:

ثم هلك قسطنطين ، (وولي)^(٨) بعده (أكبر أولاده واسمها قسطنطين)^(٩) ، وفي أيامه اجتمع أصحاب أريوس ومن قال بمقالته إليه فحسنوا له دينهم ومقالتهم ، وقالوا : إن الثلاثمائة والثمانية عشر أسفقاً الذين اجتمعوا بنية قد أخطأوا (وحادوا)^(١٠) عن الحق في قولهم : إن الابن متفق مع الأب في الجوهر ، فأمر أن لا يقال هذا فإنه خطأ ، فعزם الملك على فعله فكتب إليه أسقف بيت المقدس أن لا تقبل قول أصحاب أريوس فإنهم حائدون عن الحق وكفار ، وقد لعنهم الثلاثمائة (والثمانية عشر)^(١١) أسفقاً ، ولعنوا كل من يقول بقولهم فقبل قوله .

(١) في الأصل : ققام.

(٢) في ج : بأن يأكل ، وفي ص : بأن كل .

(٣) الأعموا : ٦/١٠ .

(٤) يتضح من هذا النص أن الحكم أخذ من الرؤيا ، وقد أشار العهد القديم إلى عدم جواز العمل بالرؤيا (انظر : أرميا : ٣٣/١٦).

(٥) في الأصل : وتصير.

(٦) يأكل ويلقم.

(٧) تاريخ ابن البطريق : ١٣٣/١ - ١٣٤ .

(٨) في ب ، ج ، ص : وقام.

(٩) في الأصل : قيسر آخر.

(١٠) هكذا في الجواب الصحيح : ٣/٢٩ وفي الأصل : وحاوروا .

(١١) في ج : ثمانية وأربعون .

قال ابن بطريرق: وفي ذلك الوقت غلت مقالة آريوس على قسطنطينية وإنطاكيه والإسكندرية.

وفي ثاني سنة من ملك قسطنطين هذا صار على إنطاكيه بترك آريوسي ثم بعده آخر مثله.

(قال)^(١): وأما أهل مصر والإسكندرية وكان أكثرهم آريوسيين ومنائين^(٢)، فغلبوا على كنائس مصر فأخذوها ووثبوا على بترك الإسكندرية، فهرب منهم واستخفى، ثم ذكر جماعة من البتاركة والأساقفة من طوائف النصارى، وما جرى عليهم مع بعضهم بعضاً (وما تعصبت به كل طائفة لبتركها حتى قتل بعضهم بعضاً)^(٣)، واختلفت النصارى أشد الاختلاف، وكثرت مقالاتهم واجتمعوا عدة مجتمع (كل مجتمع)^(٤) يعلن فيه بعضهم بعضاً، ونحن نذكر بعض مجتمعهم بعد هذين المجتمعين^(٥).

[من المجمع الثالث إلى المجمع العاشر]

[مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ م]:

وكان لهم مجمع ثالث بعد ثمان وخمسين سنة من المجمع الأول بنيقية^(٦)، فاجتمع (الوزراء)^(٧) والقاد إلى الملك^(٨) وقالوا: إن مقالة الناس قد فسدت، وغلبت عليهم مقالة آريوس ومقدونيوس^(٩)، فاكتبه إلى جميع الأساقفة والبتاركة أن يجتمعوا ويوضحوادين

(١) في الأصل: قال ابن البطريرق.

(٢) منائين في ج: مبابين وفي ص: منابتين وفي ب: منابتين ولعل الأصح مانين نسبة إلى ماني الذي ولد سنة ٢٢٩ م (تاريخ الأقباط ١: ١٤٩).

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) راجع تاريخ ابن البطريرق: ١٣٥ / ١ - ١٣٦ .

(٦) وهو ما يعرف بمجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١ ، ومعروف أن مجمع نيقية عقد سنة ٣٢٥ م فيكون ما بينهما ست وخمسون سنة، لا ثمان وخمسون كما أشار المؤلف رحمة الله، وهو هكذا في الجواب الصحيح: ٣/٣ وعند ابن البطريرق: ١٤٦ / ١ .

(٧) في الأصل: الأزرا.

(٨) واسمه عند ابن البطريرق: ثاؤذوسيوس، وفي الجواب الصحيح: تذوس.

(٩) مقدونيوس: هو مقدونيوس: من الآريوسيين، عين بطريقاً للقسطنطينية سنة ٣٤٣ م وأنكر لاهوت الروح القدس (تاريخ الأقباط ١: ٦/١).

النصرانية، فكتب الملك إلى سائر (البلاد)^(١)، فاجتمع في قسطنطينية مائة وخمسون أسفيناً، فنظروا وبحثوا عن مقالة أريوس فوجدوها أن روح القدس مخلوق مصنوع ليس بإله، فقال بترك الإسكندرية ليس روح القدس عندنا غير روح الله، وليس روح الله غير حياته، وإذا قلنا (روح الله مخلوق فقد قلنا)^(٢) إن حياته مخلوقة، (إذا قلنا حياته مخلوقة)^(٣) فقد جعلناه غير حي وذلك كفر به.

فلعنوا جميعهم من يقول بهذه المقالة، ولعنوا جماعة من أساقفتهم وبطاركتهم كانوا يقولون بمقالات آخر لم يرتضوها، وبينوا أن روح القدس خالق غير مخلوق إله حق من طبيعة الأب والابن جوهر واحد وطبيعة واحدة.

وزادوا في الأمانة التي وضعها الثلاثمائة (والثمانية عشر)^(٤): «ونؤمن بروح القدس» (الرب)^(٥) (المحيي) الذي من (الأب)^(٦) مبنيق، الذي مع الأب والابن وهو مسجد له (وممجد)^(٧).

وكان في تلك الأمانة (ويروح القدس) فقط.

(وبينوا)^(٨) أن الأب والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم وثلاثة وجودة وثلاث خواص، وأنها واحدة في تثليث في وحدة، وثبتوا أن جسد المسيح بنفس ناطقة عقلية^(٩). فانقض هذا المجمع وقد لعنوا فيه كثيراً من أساقفتهم وأشياعهم.

[مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١ م]:

ثم بعد إحدى وخمسين سنة من هذا المجمع كان لهم مجمع رابع على

(١) في ج: البلاد الذي تحت كلمته.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) سقطت من ص والأصل.

(٤) في ج: ثانية وأربعون.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) في الأصل: الإله.

(٧) في ج: محمود وممجد.

(٨) في الأصل: وثبتوا.

(٩) تاريخ ابن البطريق: ١٤٥/١ - ١٤٦.

نسطوروس^(١)، وكان رأيه أن مريم ليست بوالدة الإله على الحقيقة، ولذلك كان (ابنان)^(٢) أحدهما الإله الذي هو (موجود)^(٣) من الأب، والأخر إنسان وهو (الموجود)^(٤) من مريم.

وأن هذا الإنسان الذي يقول إنه المسيح، متوحد مع ابن الإله، ويقال له: إله وابن الإله ليس على الحقيقة ولكن (موهبة)^(٥)، واتفاق الأسمين على طريق الكراهة^(٦)، فبلغ ذلك بتاركة سائر البلاد فجرت بينهم مراسلات واتفقوا على تخطيئه، واجتمع منهم مائتا أسقف في مدينة (أفسس)^(٧)، وأرسلوا إليه للمناظرة، فامتنع ثلاط مرات، فأجمعوا على لعنه بلعنوه ونفوه، (وبيتوا)^(٨) أن مريم ولدت إليها، وأن المسيح إله حق من إله حق، وهو إنسان وله طبيعتان، فلما لعنوا نسطوروس (غضب)^(٩) له بترك إنطاكيَا^(١٠)، فجمع الأساقفة الذين قدموا معه وناظرهم وقطعهم، فتقاتلوا وتلاعنوا وجرى بينهم شر، وتفاهم أمرهم، فلم يزل الملك حتى أصلح بينهم، فكتب أولئك صحيفة: إن مريم القديسة ولدت إليها وهو ربنا يسوع المسيح (الذي هو)^(١١) مع الله في الطبيعة ومع الناس في النascوت، وأقرّوا بطبيعتين، وبوجه واحد وأقْنوم واحد وأنفذوا لعن نسطوروس.

(١) نسطوروس، أو نسطور، ولد في جرمانية المعروفة الآن بمرعش في سوريا وإليه ينسب مذهب السسطورية (تاريخ الأقباط: ١/١٦٠).

(٢) عند ابن البطريرق: ابنان.

(٣) عند ابن البطريرق: مولود.

(٤) عند ابن البطريرق: مولود.

(٥) هكذا في الجواب الصحيح: (١١/٣٦) وفي الأصل، يوهبه وفي ب: يوهبه.

(٦) وهذا يشير إلى بشريّة المسيح وأنه ليس إليهاً أو ابن إله وإذا أطلق عليه ذلك فمن باب التكرير والتجمّب.

(٧) في ص: أفسس وهي مدينة دقيانوس.

(٨) في الأصل، ج: وثبتوا.

(٩) في ب، ص: تعصب.

(١٠) وهو البطريرك يوحنا كما ذكر ابن البطريرق، وكان قد تأخر عن حضور المجمع، فلما حضر وجدهم قد نظروا في مقالة نسطوروس ولعنوه ونفوه، ولم يتذمّروا وصول البطريرك يوحنا، فغضب وقال: ظلمتم نسطوروس ولعتموه باطلًا (تاريخ ابن البطريرق: ١/١٥٧).

(١١) سقطت من الأصل.

فلما لعن وفني سار إلى مصر وأقام في (أخميم)^(١) (سبع)^(٢) سنين، ومات ودفن بها، وماتت مقالته إلى أن أحياها (ابن جرما)^(٣) مطران (نصيبين)^(٤)، وبثها في بلاد المشرق فأكثر نصارى المشرق والعراق نسخة.^(٥)

وانقض ذلك المجتمع الرابع أيضاً، وقد أطبقوا على لعن نسطوروس وأشياعه ومن قال بمقالته.

[مجمع أنفس الثاني سنة ٤٤٩ م]

ثم كان لهم بعد هذا مجمع خامس، وذلك أنه كان بالقسطنطينية طبيب راهب يقال له (أوطيسوس)^(٦) يقول: إن جسد المسيح ليس هو من أجسادنا بالطبيعة، فإن المسيح قبل التجسد من طبيعتين، وبعد التجسد طبيعة واحدة، وهو أول من أحدث هذه المقالة (وهي مقالة)^(٧) اليعقوبية، فرحل إليه بعض الأساقفة^(٨) فنظره بقطنه ودحض حجته.

ثم صار إلى قسطنطينية فأخبر بتركها^(٩) بالمناظرة وبانقطاعه، فأرسل بترك قسطنطينية إليه فاستحضره، وجمع جمعاً عظيماً وناظره، فقال (أوطيسوس) إن قلنا إن للمسيح طبيعتين فقد قلنا بقول نسطوروس، ولكننا نقول إن المسيح طبيعة واحدة وأقنوم واحد، لأنه

(١) أخميم: بلد بالصعيد بمصر على شاطئ النيل، بها عجائب كثيرة من صور وتماثيل، (معجم البلدان).

(٢) في ج: تسع.

(٣) في ب، ج: ابن مصر ما وفي ص: ابن صرما وعند ابن البطريق: برصوما.

(٤) نصبيين: مدينة عامرة على جادة القوافل من المواصل إلى الشام بينها وبين الموصل ستة أيام فتحها عياض بن غنم وصالح أهلها (معجم البلدان).

(٥) انظر: تاريخ ابن البطريق: ١ / ١٥٦ - ١٥٨.

(٦) أوطيسوس وعند ابن البطريق، اوبيشوس واسمه في تاريخ الأقباط (أوطاخي) وقد كان هذا رئيساً للدير بالقرب من القسطنطينية تطرف في تعبيره في مجال الجدال مع الأرسقيين، فحكم أسقف القسطنطينية بقطعه في مجمع مكاني، فعقد هذا المجمع استئنافاً للحكم، فحكم ببراءته بعد اعترافه بتمسكه بالإيمان النيقاوي (انظر: تاريخ الأقباط: ١ / ١٧٨).

(٧) سقطت من ج.

(٨) الذي رحل إليه هو أوصابيوس أسقف درليه (تاريخ ابن البطريق: ١ / ١٧٩).

(٩) وبتركها آنذاك هو فلابيانوس (تاريخ ابن البطريق: ١ / ١٧٩).

(من طبيعتين كانتا قبل التجسد زالت عنه وصار)^(١) من طبيعة واحدة وأقوم واحد، فقال له بترك القسطنطينية : إن كان المسيح طبيعة واحدة فالطبيعة الواحدة هي الطبيعة القديمة، وهي الطبيعة المحدثة ، وإن كان القديم هو المحدث (فالذي لم يزل هو الذي لم يكن، ولو جاز أن يكون القديم هو المحدث)^(٢) لكان القائم هو القاعد والحار هو البارد، فأبى أن يرجع عن مقالته فلعنوه فاستعدى إلى الملك ، وزعم أنهم ظلموا ، وسأله أن يكتب إلى جميع البتاركة للمناقشة فاستحضر الملك البتاركة والأساقفة من سائر البلاد إلى مدينة (أفسس) ، فثبتت بترك الإسكندرية مقالة أوطيوس وقطع بترك القسطنطينية وإنطاكيه وبيت المقدس وسائر البتاركة والأساقفة ، وكتب إلى بترك رومية وإلى جماعة الكهنة فحرمهم ومعهم من القربان إن لم يقبلوا مقالة (أوطيوس) ، (وفسدة الأمانة وصارت المقالة مقالة أوطيوس)^(٣) وخاصة بمصر والإسكندرية وهو مذهب اليعقوبية^(٤) .

فافترق هذا المجمع الخاص ، وكل فريق يلعن الآخر ويحرمه ويتبأ من مقالته^(٥) .

[مجمع خلقونية سنة ٤٥٤ م]

(فصل) : ثم كان لهم بعد هذا مجمع سادس في مدينة (خلقون)^(٦) ، فإنه لما مات الملك ولـي بعده (مرقيون)^(٧) ، فاجتمع إليه الأساقفة من سائر البلاد ، فأعلموا ما كان من ظلم ذلك المجمع وقلة الإنصاف ، وأن مقالة أوطيوس قد غلت على الناس ، وأفسدت دين النصرانية ، فأمر الملك باستحضار سائر البتاركة والمطارنة والأساقفة إلى مدينة خلقون ، اجتمع فيها ستمائة وثلاثون أسقفاً ، فنظروا في مقالة أوطيوس وبترك الإسكندرية

(١) سقطت من الأصل.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) سقطت من ص والأصل.

(٤) انظر تاريخ ابن البطريق : ١٧٩ / ١ .

(٥) وكان هذا المجمع بداية الانقسام في النصرانية الذي نشأ عنه ما يسمى اليوم بالكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية وقد تم الانقسام تماماً في مجمع خلقونية ، حيث تزعمت الكنيسة المصرية القبطية الكنيسة الشرقية ، وتزعمت كنيسة روما الكنيسة الغربية .

(٦) خلقون: وفي التسخ بالحاء المهملة وهو خطأ.

ولخلقونية ويقال قدونه: التفر الذي منه المصيصة وطرسوس وغيرهما (معجم البلدان).

(٧) مرقيون: وفي ص: برقيون ، عند ابن البطريق: مرقيان .

الذي قطع جميع البتاركة، فأفسد الجميع مقالتهما، ولعنوهما وأثبتوا أن يسوع المسيح إله وإنسان، وفي المكان مع الله باللاهوت وفي المكان معنا بالناسوت، (يعرف بطبيعتين تام باللاهوت وتام بالناسوت)^(١)، مسيح واحد^(٢)، وثبتوا قول الثلاثاء (وثمانية عشر)^(٣) أسفقاً^(٤)، وقبلوا قولهم بأن الابن مع الله في المكان نور من نور إله حق (من إله حق)^(٥)، (المعروف بالطبيعتين، تام باللاهوت وتام بالناسوت)^(٦). ولعنوا آريوس، وقالوا: إن روح القدس إله، وإن الأب والابن وروح القدس واحد بطبيعة واحدة وأقانيم ثلاثة، وثبتوا قول المجمع الثالث^(٧) في مدينة أفسس، (أعني)^(٨) المائتي أسقف على نسطورس، وقالوا: إن مريم العذراء ولدت إلهًا، ربنا يسوع المسيح الذي هو مع الله (بالطبيعة ومع الناسوت بالطبيعة)^(٩).

وشهدوا أن للمسيح طبيعتين وأقنوماً واحداً (ووجهها واحداً)^(١٠)، ولعنوا نسطورس وبترك الإسكندرية، ولعنوا المجمع الثاني الذي كان أفسس^(١١)، ثم (ثبتوا)^(١٢) المجمع الثالث المائتي أسقف بمدينة أفسس أول مرة^(١٣)، ولعنوا نسطورس^(١٤)، وبين

(١) سقطت من ج، ص.

(٢) وهذا خلاف رأي الكنيسة الأرثوذك司ية ومنها القبطية، لذلك فإن الكنيسة القبطية لا تعترف بقرارات مجمع خلقديونية، لأنه قال بالطبيعتين والمشيتين للمسيح بخلاف قول الكنيسة الأرثوذك司ية بالطبيعة الواحدة والمشيّة الواحدة للمسيح، (انظر: تاريخ الأقباط: ١٧٩/١).

(٣) في ج: وثمانية وأربعون.

(٤) أي قول مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م

(٥) سقطت من ص.

(٦) موجودة في ج فقط.

(٧) وهو مجمع أفسس الأول سنة ٣٤١.

(٨) ليست في ب، ج، ص.

(٩) في ب، ج: تعالى في الطبيعة اللاهوت ومعناه في طبيعة الناسوت.

(١٠) سقطت من ص والأصل.

(١١) أي المجمع الذي عقده بطريرك أنطاكيه عقب مجمع أفسس الأول، لأنه غضب من قرار المجمع بلعن نسطورس.

(١٢) سقطت من جميع النسخ، وهي هكذا عند ابن الطريق: ١٨٢/١.

(١٣) وهو مجمع أفسس الأول.

(١٤) انظر: تاريخ ابن الطريق: ١٨١/١ - ١٨٢.

(نسطروس)^(١) إلى مجمع خلقدون إحدى وعشرون سنة فأنقض هذا المجمع، وقد لعنوا من مقدمتهم وأساقفهم من ذكرنا وكفروهم وتبأوا منهم ومن مقالاتهم.

[مجمع معارض لمجمع خلقدونية]:

(فصل): ثم كان لهم بعد هذا المجمع مجمع سابع في أيام (انسطاس)^(٢) الملك، وذلك أن (سورس)^(٣) القسطنطيني كان على رأي أوطيوس فجاء إلى الملك فقال: إن المجمع الخلقدوني (الستمائة والثلاثين) قد أخطأوا في لعن أوطيوس (وبترك الإسكندرية)^(٤)، والدين الصحيح ما قاله، فلا يقبل دين من سواهما، ولكن اكتب إلى جميع عمالك أن يلعنوا الستمائة والثلاثين ويأخذوا الناس بطبيعة واحدة ومشيئه واحدة (وأقونم واحد)^(٥)، فأجابه الملك إلى ذلك. فلما بلغ (إيليا) بترك بيت المقدس جمع الرهبان ولعنوا (انسطاس) الملك و (سورس) ومن يقول بقولهما، فبلغ ذلك (انسطاس) فنفاه إلى (أيلة)^(٦)، وبعث (يوحنا) بتركاً على بيت المقدس (لأن يوحنا كان قد ضمن له أن يلعن المجمع الخلقدوني في الستمائة وثلاثين، فلما قدم إلى بيت المقدس)^(٧) اجتمع الرهبان وقالوا: إياك أن تقبل من (سورس)، ولكن قاتل عن المجمع الخلقدوني ونحن معك، فضمن لهم ذلك وخالف أمر الملك، فبلغ ذلك الملك، فأرسل قائداً وأمره أن يأخذ يوحنا بطرح للجمع الخلقدوني، فإن لم يفعل بنفيه عن الكرسي. فقدم القائد وطرح يوحنا بالحبس فصار إليه الرهبان في الحبس، وأشاروا عليه بأن يضمن للقائد أن يفعل

(١) سقطت من ج.

(٢) وقد ملك انسطاس على الروم سبعاً وعشرين سنة وكان يعقوبساً مخالفًا لمقالة الملكية، وكان من مدينة حماة، فأمر أن تبني مدينة حماة وتحصن (تاريخ ابن البطريق: ١٩١/١).

(٣) سورس: وعن ابن البطريق، سوديرس، وكان يرىرأي ديستورس واوينتسوس وكان يقول بطبيعة واحدة وأقونم واحد ومشيئه واحدة (تاريخ ابن البطريق: ١٩٣/١) ويعقوب البرادعي تلميذه (ابن البطريق: ١٩٥/١).

(٤) سقطت من جميع النسخ.

(٥) سقطت من الأصل.

(٦) أيلة: بالفتح مدينة على ساحل بحر القلزم (الأحمر) مما يلي الشام صالح رسول الله ﷺ أهلها، وهو في تبوك على الجزيرة. (معجم البلدان) وهي تسمى اليوم (إيلات) على خليج العقبة.

(٧) سقطت من الأصل.

ذلك، فإذا حضر فليقر بلعنة من لعنه الرهبان ففعل ذلك، واجتمع الرهبان وكانوا عشرة آلاف راهب ومنهم (يدرس)^(١) و(سابا) ورؤساء الديارات فلعنوا (أوطيوسوس) و(سورس) و(نسطورس) ومن لا يقبل المجمع الخلقدوني.

وفزع رسول الملك من الرهبان، وبلغ ذلك الملك، فهم ينفي برحنا، فاجتمع الرهبان والأساقفة فكتبوا إلى اسطاس الملك أنهم لا يقبلون مقالة (سورس)، ولا أحداً من المخالفين، ولو أهربت دمائهم. وسألوه أن يكف أذاء عنهم.

وكتب بترك رومية إلى الملك بقبح فعله وبلغه^(٢)، فانفض هذا المجمع أيضاً، وقد تلاعنه فيه هذه الجموع على ما وصفناه.

[الصراع بين العيادة والملكية]:

وكان لسورس تلميذ يقال له يعقوب، ويقول مقالة سورس وكان يسمى يعقوب البرادعي، وإليه تنسب العيادة، فأفسد أمانة النصارى.

ثم مات اسطاس وولي قسطنطين، فرداً كل من نفاه اسطاس الملك إلى موضعه واجتمع الرهبان، وأظهروا كتاب الملك وعيدوا عيدها حسناً (بزعمهم وأثبتوا)^(٣) المجمع الخلقدوني بالستمائة والثلاثين أسقفاً.

ثم (ولي)^(٤) آخر، وكانت العيادية قد غلبا على الإسكندرية، وقتلوا بتركاً لهم يقال له (بولس) كان ملكياً، فأرسل قائداً ومعه عسكر عظيم إلى الإسكندرية فدخل الكنيسة في (ثياب)^(٥) البركة، وتقدم وقدس فرموه بالحجارة، حتى كادوا يقتلونه، فانصرف، ثم أظهر لهم من بعد ثلاثة أيام أنه قد أتاهم كتاب الملك، وضرب الجرس ليجتمع الناس يوم الأحد في الكنيسة، فلم يبق أحد في الإسكندرية (إلا حضر لاستماع)^(٦) كتاب الملك، وقد كان جعل بينه وبين جنده علامة إذا هو فعلها (أو وضعها

(١) في الأصل يورنس وهو بدرس.

(٢) تاريخ ابن البطريق: ١٩٣/١ - ١٩٤.

(٣) في الأصل: ونسوا، وفي ب، ج: وأثبتوا.

(٤) في ج: ملك وفي ب، ص: ولی ملك واسمه عند ابن البطريق يوستينيوس: ٢٠٠/١.

(٥) في ب، ج: ثبات.

(٦) في ج: حتى لسماع.

السيوف)^(١) في الناس، فصعد المنبر وقال: يا معاشر أهل الإسكندرية إن رجعتم إلى الحق وتركتم مقالة العاقبة، وإلا لن تأمنوا أن يرسل الملك إليكم من يسفك دماءكم، فرموه بالحجارة حتى خاف على نفسه أن يقتل، فأظهر العلامة فوضعوا السيف على كل من في الكنيسة، فقتلوا داخلها وخارجها أممًا (لا يحصون كثرة)^(٢) حتى خاض الجند في الدماء، وهرب منهم خلق كثير وظهرت مقالة الملكية^(٣).

[مجمع القسطنطينية الثاني سنة ٥٥٣]:

(فصل): ثم كان بعد ذلك مجمع ثامن بعد المجمع الخلقديوني الذي لعن فيه العقوبة بمائة سنة وثلاث سنين، وذلك أن أسقف منبج^(٤) (وهي بلدة شرقى حلب بالقرب منها، وهي محسوبة الآن)^(٥)، كان يقول بالتناسخ، وأن ليس قيامة، وكان أسقف (الرها)^(٦) وأسقف (المصيصة)^(٧) وأسقف آخر، يقولون: إن جسد المسيح خيال غير حقيقة، فحشرهم الملك إلى قسطنطينية فقال لهم بتركها: إن كان جسده خيالاً فيجب أن يكون فعله خيالاً وقوله خيالاً، وكل جسد نعانيه لأحد من الناس أو فعل أو قول فهو كذلك.

وقال لأنسق منبج: إن المسيح قد قام من الموت، وأعلمنا أنه كذلك تقوم الناس من الموت يوم الدينونة، وقال في إنجيله: لن تأتي الساعة حتى أن كل من في القبور إذا سمعوا قول (ابن)^(٨) الله يجيبوا^(٩).

(١) في ب، ج، ص: وضعوا السيف.

(٢) في ب: لا تحصى كثيرة، وفي ج: لا تحصى لكثرتها، وفي ص: لا تحصى كثرة.

(٣) تاريخ ابن بطريق: ٢٠٠ / ١.

(٤) سقطت من ب، ج والأصل.

(٥) واسم هذا الأسقف: أوريجانوس، وكان ذلك في عهد يوشينيانوس الملك (ابن بطريق: ٢٠٩ / ١)

ومنبج: مدينة كبيرة بينها وبين حلب عشرة فراسخ، وبينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، فتحها

عياض بن غنم صلحًا وإليها ينسب البحري وأبو فراس (معجم البلدان).

(٦) وأسقف الرها هو أنيا أو أيا (تاريخ ابن بطريق: ٢٠٥ / ١)

(٧) وأسقف المصيصة هو تداوس، والمصيصة: بالفتح ثم الكسر والتشديد هي مدينة على شاطئ

جيحان من ثور الشام بين إنطاكية وبلاط الروم تقارب طرسوس (معجم البلدان).

(٨) في الأصل: أني.

(٩) يوحنا: ٢٥ / ٥.

فكيف تقولون ليس قيامة؟ فأوجب عليهم الخزي واللعن، وأمر الملك أن يكون لهم مجتمع يلعنون فيه، واستحضر بتاركة البلاد، فاجتمع في هذا المجمع مائة (وأربعة)^(١) وستون أسقفاً، فلعنوا أسقف منج، وأسقف المصيصة، وثبتوا على أسقف الرها أن جسد المسيح حقيقة (لا خيالاً)^(٢)، وأنه إله تام وإنسان تام معروف بطبيعتين ومشيتين وفعلين أقnon واحد، وثبتوا المجامع الأربع التي قبلهم وبعد المجمع الخلقدوني، وأن الدنيا زائلة وأن القيامة كائنة، وأن المسيح يأتي بمجد عظيم، فيدين الأحياء والأموات كما (كان الثلاثمائة وثمانية عشر)^(٣).

[مجمع القسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠ م]:

ثم كان لهم مجمع تاسع في أيام معاوية بن أبي سفيان تلعنوا فيه، وذلك أنه كان بروميه راهب قديس يقال له (مقلمس)^(٤)، وله تلميذان فجاء إلى قسطا الوالي فوبخه على قبح مذهبة وشناعة كفره، فأمر به (قسطا) فقطعت يداه ورجلاه وزرع لسانه، و فعل بأحد التلميذين مثله. وضرب الآخر بالسياط ونفاه، فبلغ ذلك ملك قسطنطينية فأرسل إليه أن يوجه إليه من أفضلي الأساقفة، ليعلم وجه هذه الحجة ومن الذي كان (في ابتدائها)^(٥) لكي ما يطرح جميع الآباء القديسين كل من استحق اللعنة، فبعث إليه مائة وأربعين^(٦) أسقفاً وثلاث شمامسة، فلما وصلوا إلى قسطنطينية جمع الملك مائة وثمانية وستين أسقفاً فصاروا ثلاثة وثمانية وثمانية^(٧)، وأسقطوا الشمامسة^(٨) في البرطحة^(٩).

وكان رئيس هذا المجمع يترك قسطنطينية ويترك إنطاكية، ولم يكن بيت المقدس

(١) في الأصل: وأربعون.

(٢) في الأصل لا خيالاً.

(٣) في ص: قال السمانية والثمانية عشر، وفي ج: قال الثلاثمائة وثمانية وأربعون، والصواب ثلاثة وثمانية عشر كما عند ابن البطريق: ٢٠٦/١.

(٤) عند ابن البطريق: مقميروس.

(٥) في ص: ابتداءها.

(٦) عند ابن البطريق: مائة وأربعة وخمسين: ٣٤/٢.

(٧) العدد عند ابن البطريق: مائتان وأثنان وتسعون.

(٨) فبقي — كما ذكر ابن البطريق — مائتان وتسعة وثمانون أسقفاً.

(٩) لم تذكر هذه الكلمة عند ابن البطريق، بل قال: وكذلك يذكرون في الدبيخة: ٣٥/٢.

وإسكندرية بترك فعلنا من تقدم من القديسين الذين خالفوهم وسموهم واحداً واحداً،
وهم جماعة، ولعنوا أصحاب المشائة الواحدة^(١).

ولما لعنوا هؤلاء جلسوا (فلخصوا) ^(٢) الأمانة بزعمهم فقالوا نؤمن (بالتالوث) ^(٣)
الابن الوحيد الذي هو الكلمة الأزلية الدائم المستوى مع الأب الإله في الجوهر الذي هو
ربنا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين وفعلين ومشيئتين في أقنوم واحد، ووجه واحد، يعرف
تاماً بلاهوته، (تاماً) ^(٤) بناسنته، وشهدت كما شهد مجمع الخلقدونية على ما سبق أن الإله
الابن في آخر الأيام (اتخذ من) ^(٥) العذراء السيدة (مريم القدسية) ^(٦) (جسدًا) ^(٧) إنساناً
بنفسين، وذلك برحمة الله تعالى محب البشر. ولم يلتحقه اختلاط ولا فساد ولا فرقة
ولا فضل، ولكن هو واحد يعمل بما يشبه الإنسان أن يعمله في طبيعته، وما يشبه الإله أن
يعمله في طبيعته، الذي هو الابن الوحيد، والكلمة الأزلية المتجسدة، إلى أن صارت في
الحقيقة لحماً، كما يقول الإنجيل المقدس من غير أن تنتقل عن محلها الأزلي، وليس
بمتغيرة لكنها بفعلين ومشيئتين وطبعتين إلهي وإنسي، الذي بهما يكون القول الحق،
وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبها مشيئتين غير متضادتين ولا متضارعتين،
ولكن مع المشيئة الإنسانية في المشيئة الإلهية القادرة على كل شيء ^(٨).

هذه شهادتهم وأمانة المجمع السادس من المجمع الخلقدوني، وثبتتوا (ما ثبته

(١) وكان على رأس الملعونين في هذا المجتمع يوحنا مارون، ولذلك كان من آثار هذا المجتمع ظهور طائفة المارونيّين خرجنوا من جماعة كنيسة روما والقسطنطينية (محاضرات في النصرانية: ص ١٥٩).

(٢) في الأصل: فخلصوا.

(٣) في ب: بأن الواحد من الثالوث وفي ص: بأن الواحد الالهوت.

(٤) في ج: قائماً.

^(٥) في الأصل: اتحد مع.

(٦) سقطت من ج.

(٧) في الأصل: حيثئذ.

^(٨) راجع: تاريخ ابن البطريق: ٢/٣٦.

الخمس)^(١) مجتمع التي كانت قبلهم، ولعنوا من لعنوه، وبين المجتمع الخامس^(٢) إلى هذا المجتمع مائة سنة.

[المجمع العاشر]:

ثم كان لهم مجتمع عاشر لما مات الملك وولي بعده ابنه^(٣) واجتمع فريق المجتمع السادس، وزعموا أن اجتماعهم كان على الباطل فجمع الملك مائة وثلاثين أسقفاً فثبتوا قول المجتمع السادس، (ولعنوا)^(٤) من لعنهم وخالقهم، وأثبتوا قول المجتمع الخامسة، ولعنوا من لعنهم وانصرفوا^(٥). فانقرضت هذه المجتمع والحسود وهم علماء النصارى وقدماؤهم، وناقلو الدين إلى المستأذنين، وإليهم يستند من بعدهم.

وقد اشتغلت هذه المجتمع العشرة المشهورة على زهاء أربعة عشر ألفاً من الأساقفة والبلاكدة والرهبان، كلهم يكفر بعضهم بعضاً ويعلن بعضهم بعضاً.

فدينهم إنما قام على اللعنة بشهادة بعضهم على بعض، وكل منهم لاعن ملعون، فإذا كانت هذه حالة المتقدمين مع قرب زمنهم من أيام المسيح وبقاء أخبارهم فيهم، والدولة دولتهم والكلمة كلمتهم، وعلماؤهم إذ ذاك أوفر ما كانوا، واحفظالهم بأمر دينهم واهتمامهم به كما نرى، ثم هم مع ذلك تائرون حائررون بين لاعن وملعون، لا يثبت لهم قدم، ولا يتحصل لهم قول في معرفة معبودهم، بل كل منهم قد اتخذ إلهه هواء، وباح باللعن والبراءة ومن اتبع سواه، فما لظن بحالة (الماضين)^(٦) ونهاية الغابرين وزبالة

(١) في الأصل: أمانة الأربع.

(٢) ويقصد بالمجمع الخامس، مجتمع القسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠ م. وعبارة ابن البطريرق: فمن المجتمع الخامس المائة والأربعة والستين أسقفاً الذين اجتمعوا في القسطنطينية إلى هذا المجتمع السادس المائتين والتسعة والثمانين أسقفاً الذين اجتمعوا بالقسطنطينية في زمان قسطنطين ملك الروم مائة عام.

(٣) عند ابن البطريرق: ومات قسطنطين الملك المؤمن ولو في الملك ست عشرة سنة، وملك بعده ابنه يوستينيانوس على الروم، وذلك في خلافة معاوية ابن أبي سفيان.

(٤) في الأصل: وأفتنا.

(٥) تاريخ ابن البطريرق: ٢/٣٧.

(٦) في الأصل: الباقين.

الحائزين وذرية الصالين، وقد طال عليهم الأمد وبعد العهد، وصار دينهم ما (يبلغونه)^(١) عن الرهبان. قوم إذا كشفت عنهم وجدهم أشبه شيء بالأنعام، وإن كانوا في صور الأنعام، بل هم كما أنت ترى – ومن أصدق من الله قوله: ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٢).

وهؤلاء الذين عناهم الله بقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُو فِي دِينِكُمْ غَيْرُ الْحَقِّ، وَلَا تَتَبَعُوا هَوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلَّلُوا مِنْ قَبْلِ وَأَضْلَلُوا كَثِيرًا وَضَلَّلُوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾^(٣).

ومن أمة الضلال بشهادة الله ورسوله عليهم؟ وأمة اللعن بشهادتهم على نفوسهم يلعن بعضهم بعضاً، وقد لعنهم الله سبحانه وتعالى على لسان رسوله في قوله ﷺ: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحدرون ما فعلوا)^(٤) هذا والكتاب واحد والرب واحد والنبي واحد والدعوة واحدة، كلهم يتمسك بال المسيح وإنجيله وتلاميذه، ثم يختلفون فيه هذا الاختلاف المتبادر، فمنهم من يقول: إنه (الله)^(٥)، ومنهم من يقول: (ابن الله)^(٦)، ومنهم من يقول: (ثالث ثلاثة)^(٧)، ومنهم من يقول: (إنه)^(٨) (عبد)^(٩) ومنهم من يقول: إنه أقنوم (وطبيعة)^(١٠)، ومنهم من يقول: (أقئومان وطبيعتان)^(١١) إلى غير ذلك من المقالات التي حكوها عن أسلافهم، وكل منهم يكفر صاحبه.

(١) في الأصل: فيلقونة.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٤٤.

(٣) سورة المائدة: الآية ٧٧.

(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة دون ذكر «يحدرن ما فعلوا» (المسجد: ٣/٢١) وأخرجه عن عائشة وابن عباس مع ذكر «يحدرن مثل ما صنعوا» (المسجد: ٣/٢٢).

(٥) مثل العياقة ومن تابعهم كالأرثوذكس ومنهم الأقباط، الذين يقولون بالطبيعة الواحدة.

(٦) وكل طوائف النصارى اليوم تقول بأن المسيح ابن الله.

(٧) وهو مذهب الملكانية ومن تابعهم كالكاثوليك والبروتستانت.

(٨) في الأصل: الله.

(٩) للأريوسية.

(١٠) سقطت في ب، ج. وهم العياقة ومن تابعهم من الأرثوذكس وغيرهم.

(١١) وهم الملكانية ومن تابعهم من الكاثوليك وغيرهم.

فلو أن قوماً لم عرفوا لهم إلهًا، ثم عرض عليهم دين النصرانية هكذا، لتوقفوا عنه
وامتنعوا من قبوله.

فوازن بين هذا وبين ما جاء به خاتم الرسل والأنبياء، تعلم علمًا يضارع
المحسوسات أو يزيد عليها، أن الدين عند الله الإسلام^(١).

**

(١) سقطت من الأصل.

القسم الثاني نبوة محمد ﷺ

(فصل) : في أنه لا يمكن الإيمان بنبي أصلًا مع جحود نبوة رسول الله ﷺ ، وأن من جحد نبوته فهو لنبوة غيره من الأنبياء أشد جحوداً وهذا يتبع من وجوه:

أحدها: أن الأنبياء المتقدمين بشرّوا بنبوته، وأمرروا أممهم بالإيمان به ، (كما تقدم ، ومن جحد نبوته فقد كذب الأنبياء قبله فيما أخبروا به ، وخالفهم فيما أوصوا به من الإيمان به)^(١) فالصدق في ذلك من لوازم التصديق بهم ، وإذا انتفى اللازم انتفى ملزومه قطعاً ، وبيان الملازمة ما تقدم من الوجوه الكثيرة التي تفيد بمجموعها القطع على أنه ﷺ قد ذكر في الكتب الإلهية على ألسن الأنبياء . وإذا ثبتت الملازمة فانتفاء اللازم موجب لانتفاء ملزومه .

الوجه الثاني: أن دعوة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه هي دعوة جميع المسلمين قبله من أولهم إلى آخرهم .

فالذئب بدعوته مكذب بدعوته إخوانه كلهم ، فإن جميع الرسل جاؤوا بما جاء به ، فإذا كذبه المكذب فقد زعم ما جاء به باطلًا ، وفي ذلك (نكذيب)^(٢) كل رسول أرسله الله ، وكل كتاب أنزله ، ولا يمكن أن يعتقد أن ما جاء به صدق ، وأنه كاذب (مفتر)^(٣) على الله ، وهذا في غاية الوضوح ، وهذا بمنزلة شهود شهدوا بالحق فصدقهم

(١) سقطت من الأصل.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) في الأصل: مفتر.

الخصم، وقال: هؤلاء (كلهم)^(١) شهدوا عدول صادقون ثم (شهد آخر)^(٢) على شهادتهم سواء، فقال الخصم هذه الشهادة باطلة وكذب لا أصل لها، فذلك تكذيب بشهادة جميع الشهود قطعاً ولا ينجيه من تكذيبهم اعترافه بصححة شهادتهم، وأنها شهادة حق وأن الشاهد بها كاذب فيما شهد به.

وكما أنه لو لم يظهر محمد ﷺ لبطلت نبوات الأنبياء قبله، فكذلك إن لم يصدق لم يكن تصديق النبي من الأنبياء قبله.

الوجه الثالث: أن الآيات والبراهين التي دلت على صحة نبوته وصدقه أضعاف أضعف آيات من قبله من الرسل، فليس لنبي من الأنبياء آية توجب الإيمان به إلا ولمحمد ﷺ (آيات)^(٣) مثلها، أو ما هو في الدلالة مثلها، وإن لم يكن من جنسها.

فآيات نبوة محمد ﷺ أعظم وأكبر وأبهى وأدل والعلم ببنائها قطعي لقرب العهد وكثرة النقلة، (واختلاف أمصارهم وأعصارهم)، واستحالة تواترهم على الكذب، فالعلم بآيات نبوته كالعلم^(٤) (بنفس)^(٥) وجوده، وظهوره وبليه بحيث لا يمكن المكابرة في ذلك، (والنكارة)^(٦) فيه في غاية الوقاحة والبهتان، كالنكارة في وجود ما شاهد الناس، ولم يشاهده هو من البلاد والأقاليم والجبال والأنهار.

فإن جاز القدر (في ذلك كله)^(٧)، ففي وجود موسى وعيسى وآيات نبوتها أجوز وأجائز، وإن امتنع القدر فيها وفي آيات نبوتها، فامتناعه في محمد ﷺ وآيات نبوته أشد. ولذلك لما علم بعض علماء أهل الكتاب أن الإيمان بموسى لا (يتم)^(٨) مع التكذيب بمحمد أبداً، كفر بالجميع وقال «ما أنزل الله على بشر من شيء» كما قال

(١) سقطت من ج.

(٢) في ج، ص: إن آخر شهد.

(٣) ليست في ب، ج، ص.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) في الأصل: بتعيين نفس.

(٦) في الأصل والمكابرة.

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) في الأصل: يمكن.

تعالى : ﴿وَمَا قَدْرُوا اللَّهُ حَقُّهُ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًاٰ وَهُدًى لِلنَّاسِ (يَجْعَلُونَهُ قِرَاطِيسًا تَبْدُونَهَا وَيَخْفُونَ كَثِيرًا)﴾^(١) ، وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آباؤُكُمْ قُلْ : اللَّهُ ثُمَّ ذَرُوهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾^(٢) .

قال سعيد بن جبير : جاء رجل من اليهود ويقال له (مالك بن الصيف)^(٣) يخاصم النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : أَنْشَدْتُكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التُّورَةَ عَلَى مُوسَىٰ ، أَمَا تَجِدُ فِي التُّورَةِ أَنَّ اللَّهَ يَعْصُمُ الْحَبْرَ السَّمِينَ ؟ وَكَانَ حَبْرًا سَمِينًا ، فَغَضِبَ عَدُوُ اللَّهِ وَقَالَ (وَاللَّهُ) ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ . فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ (الَّذِينَ مَعَهُ : وَيَحْكُمُونَ) ^(٤) وَلَا مُوسَىٰ ؟ فَقَالَ : مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا قَدْرُوا اللَّهُ حَقُّهُ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ ، قُلْ مَنْ (أَنْزَلَ الْكِتَابَ)﴾^(٥) ... الآيات ، وهذا قول عكرمة^(٦) .

قال محمد بن كعب^(٧) جاء ناسٌ من يهود إلى النبي ﷺ وهو محتج^(٨) فقالوا :

(١) في جميع النسخ : (يَجْعَلُونَهُ قِرَاطِيسًا تَبْدُونَهَا وَيَخْفُونَ كَثِيرًا) بالباء لا بالباء وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو بن العلاء وهي التي رجحها ابن جرير الطبرى : ٥٢٥/١١ ، ويكون الكلام إخباراً عن اليهود بلفظ الغيبة.

(٢) سورة الأنعام : الآية ٩١.

(٣) في ب ، ج : مالك وفي ص : مالك بن الصيف بالضاد والصواب بالصاد كما هو عند الطبرى ، وكان من قريطة ، وهو من أخبار اليهود (تفسير الطبرى : ٥٢٤/١١) .

(٤) سقطت من ج .

(٥) سقطت من الأصل .

(٦) ليس في ب ، ج ، ص .

(٧) في الأصل : التوراة .

(٨) تفسير الطبرى : ٥٢١/١١ - ٥٢٢ (تحقيق محمود شاكر) .

(٩) هو محمد بن كعب بن مالك الأنباري ، ذكر ابن الأثير أن له صحبة (انظر : أسد الغابة : ٣٢٩/٤) .

(١٠) محتج : بالباء من الاحتباء وهو أن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره ويشده عليهما ، وقد يكون الاحتباء باليدين عوض الثوب ، (النهاية : ٣٣٥/١) ، وإذا كانت (محتج) بالجيم فهي من التجبية وأصلها أن يقوم الإنسان قيام الرا�� وقيل هي أن يضع يديه على ركبتيه وهو قائم ، وقيل : هو السجدة (النهاية : ٢٣٨/١) .

يا أبا القاسم، ألا تأتينا بكتاب من السماء، كما جاء به موسى الواحًأ يحملها من عند الله عز وجل، فأنزل الله عز وجل ﴿يُسَأَّلُ أَهْلُ الْكِتَابَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ * فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا: أَرْنَا اللَّهَ جَهْرًا...﴾ الآية^(١).

فجئـيـ رـجـلـ مـنـ الـيهـودـ عـلـىـ رـكـبـيـهـ فـقـالـ: (ما أـنـزـلـ اللـهـ عـلـىـ بـشـرـ مـنـ شـيـءـ) ^(٢) (وـفـيـ لـفـظـ) ^(٣): ما أـنـزـلـ اللـهـ عـلـيـكـ وـلـاـ عـلـىـ مـوـسـىـ وـلـاـ عـلـىـ عـيـسـىـ وـلـاـ عـلـىـ أـحـدـ شـيـءـ، ما أـنـزـلـ اللـهـ عـلـىـ بـشـرـ مـنـ شـيـءـ، فـحـلـ رـسـولـ اللـهـ ﷺ حـوـتـهـ وـجـعـلـ يـقـولـ: وـلـاـ عـلـىـ أـحـدـ) ^(٤)؟.

وذهب جماعة منهم مجاهد إلى أن الآية نزلت في مشركي قريش، فهم الذين جحدوا أصل الرسالة، وكذبوا بالرسول، وأما أهل الكتاب فلم يجحدوا نبوة موسى وعيسي، وهذا اختيار ابن جرير، قال: وهو أولى الأقاويل (بالصواب)^(٥)، لأن ذلك في سياق الخبر عنهم، فهوأشبه من أن يكون خبراً عن اليهود، ولم يجر لهم ذكر يكون هذا به متصلة (مع ما)^(٦) في الخبر عمن أخبر الله عنه من هذه الآية من إنكاره أن يكون الله أـنـزـلـ عـلـىـ بـشـرـ شـيـءـ مـنـ الـكـتـبـ، وـلـيـسـ ذـلـكـ مـاـ يـدـيـنـ بـهـ الـيـهـودـ، بلـ الـمـعـرـوـفـ مـنـ دـيـنـ الـيـهـودـ إـلـقـارـ بـصـحـفـ إـمـرـاـهـيمـ وـمـوـسـىـ وـزـبـورـ دـاـوـدـ. وـالـخـبـرـ مـنـ (أـوـلـ) ^(٧) الـسـوـرـةـ إـلـىـ هـذـاـ الـمـوـضـعـ خـبـرـ عـنـ الـمـشـرـكـيـنـ مـنـ عـبـدـةـ الـأـوـثـانـ، وـقـوـلـهـ تـعـالـىـ: (وـمـاـ قـدـرـوـاـ اللـهـ حـقـ قـدـرـهـ) مـوـصـولـ بـهـ غـيـرـ مـفـصـولـ عـنـهـ) ^(٨).

قلـتـ: ويـقـويـ قولـهـ إـنـ الـسـوـرـةـ مـكـيـةـ، فـهـيـ خـبـرـ عـنـ زـنـادـقـ الـعـرـبـ الـمـنـكـرـيـنـ لـأـصـلـ النـبـوـةـ، وـلـكـنـ بـقـيـ أـنـ يـقـالـ: فـكـيـفـ يـحـسـنـ الرـدـ عـلـيـهـمـ بـمـاـ لـيـقـرـوـنـ بـهـ مـنـ إـنـزـالـ الـكـتـابـ الـذـيـ جـاءـ بـهـ مـوـسـىـ؟ وـكـيـفـ يـقـالـ لـهـمـ: (يـجـعـلـوـنـهـ قـرـاطـيـسـ يـبـدـونـهـاـ وـيـخـفـونـ كـثـيـراـ) وـلـاـ سـيـماـ عـلـىـ قـرـاءـةـ مـنـ قـرـأـ بـتـاءـ الـخـطـابـ؟ـ.

(١) سورة النساء: الآية ١٥٣.

(٢) سقطـتـ مـنـ بـ، جـ، صـ وـلـمـ تـرـدـ كـذـلـكـ عـنـ الطـبـرـيـ.

(٣) فـيـ بـ، جـ، صـ: وـقـالـ، وـهـكـذاـ عـنـ الطـبـرـيـ.

(٤) تـفـسـيرـ الطـبـرـيـ: ١١/٥٢٢ – ٥٢٣ (تـحـقـيقـ مـحـمـودـ شـاـكـرـ).

(٥) فـيـ جـ: بالـصـوـابـ عـنـهـمـ.

(٦) فـيـ بـ: مـعـهـ.

(٧) سقطـتـ مـنـ صـ.

(٨) تـفـسـيرـ الطـبـرـيـ: ١١/٥٢٤ – ٥٢٥ (الـطـبـعـةـ الـمـحـقـقـةـ).

وهل ذلك صالح لغير اليهود؟ فإنهم كانوا يخفون من الكتاب ما لا يوافق أهواءهم وأغراضهم، ويبذلون منه ما سواه، (كما فعل ابن صوريا عند إحضار التوراة في مجلس رسول الله ﷺ للاستشهاد بنص التوراة في حكم الرجم، ووضع يده عليها، وقرأ ما قبلها وما بعدها، وإظهاره (ابن سلام)^(١) زيفه).

ولما كانوا كذلك^(٢) (احتج) عليهم بما يقررون به من كتاب موسى، ثم وبخهم بأنهم خانوا الله ورسوله، فلخفوا بعضه وأظهروا بعضه.

وهذا استطراد من ذكر جحدهم النبوة بالكلية وذلك إخفاء لها، وكتمان إلى (جحد)^(٤) ما أقرّوا به من كتابهم ياخفائه وكتمانه، فتلك سجية لهم معروفة لا تنكر، إذ من أخفى بعض كتابه الذي يقرّ بأنه من عند الله، كيف لا يجحد أصل النبوة؟ ثم احتج عليهم بأنهم قد علموا بالوحى ما لم يكونوا يعلمونه هم (ولا آباءهم)^(٥)، ولو لا الوحي الذي أنزله (الله)^(٦) على أنبائه ورسله لم يصلوا إليه، ثم أمر رسوله ﷺ أن يجيب عن هذا السؤال وهو قوله: «من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى؟».

فقال: قل الله، أي الله الذي أنزله، أي إن كفروا به وجحدوه فصدق به أنت وأقرّ به وذرهم في خوضهم يلعبون.

وجواب هذا السؤال أن يقال – (والله أعلم)^(٧) –: إن الله سبحانه وتعالى احتج عليهم بما يقرّ به (الكتابيون)^(٨)، وهم أولو العلم دون الأمم التي لا كتاب لها، أي إن جحدتم أصل النبوة، وأن يكون الله أنزل على بشر (شيئاً)^(٩)، فهذا كتاب موسى يقرّ به أهل الكتاب، وهم أعلم منكم فاسألوهم عنه.

(١) ابن سلام: هو عبد الله بن سلام.

(٢) سقطت من ب، ج، ص.

(٣) في ب، ج، ص: فاحتاج.

(٤) في ب، ج: جحد بعض.

(٥) في ج: وآباءهم.

(٦) سقطت من ص.

(٧) في الأصل فقط.

(٨) في ب: أهل الكتاب، وفي ج، ص: أهل الكتابين.

(٩) في الأصل: من شيء.

ونظائر هذا في القرآن كثيرة، ليستشهد سبحانه بأهل الكتاب على منكري النبوات والتوحيد. والمعنى أنكم إن أنكرتم أن يكون الله أنزل إلى بشر شيئاً فمن أنزل كتاب موسى؟ فإن لم تعلموا ذلك فسائلوا أهل الكتاب.

وأما قوله تعالى : « يجعلونه قرطيساً يبدونها ويخفون كثيراً » فمن قرأها بالياء فهو إخبار عن اليهود بلفظ الغيبة، ومن قرأها (بالباء)^(١) للخطاب فهو خطاب لهذا الجنس (الذين)^(٢) فعلوا ذلك، أي تجعلونه يا من أنزل عليه كذلك، وهذا من أعلام نبوته ﷺ أن يخبر أهل الكتاب بما اعتمدوا (في كتابهم)^(٣)، وأنهم جعلوه قرطيساً، وأبدوا بعضه وأخفوا كثيراً منه، (وهذا لا يعلم)^(٤) من غير (جهتهم)^(٥) إلا بowski من الله تعالى.

ولا يلزم أن يكون قوله : « يجعلونه قرطيساً » خطاباً لمن حكى عنهم أنهما قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء ، بل هذا استطراد من الشيء إلى نظيره وشبيهه (ولازمه)^(٦).

وله نظائر في القرآن كثيرة كقوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ... »^(٧) إلى آخر الآية .

فاستطرد من الشخص المخلوق من الطين وهو آدم عليه السلام إلى النوع المخلوق من النطفة وهم أولاده ، وأوقع الضمير على الجميع بلفظ واحد ، ومثله قوله تعالى : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً ، فمرت به ، فلما أثقلت دعوا الله ربها لئن آتينا صالحاً لنكون من الشاكرين ، فلما آتاهما صالحاً ، جعلا له شركاء فيما آتاهم ، فتعالى الله عما يشركون »^(٨) إلى آخر

(١) في ص: بلفظ التاء.

(٢) في ج، ص: الذي.

(٣) سقطت من ج.

(٤) سقطت من الأصل.

(٥) في الأصل: حجبتهم.

(٦) في ج: ولزومه.

(٧) سورة المؤمنون: الآيات ١٢ - ١٤.

(٨) سورة الأعراف: الآيات ١٨٩ ، ١٩٠.

الآيات، ويشبه هذا قوله: «ولئن سألهُم من خلق السموات والأرض لِيَقُولُنَّ خلقهن العزيز (العليم)^(١)* الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون * (والذي)^(٢) نَزَّلَ من السماء ماء بقدار فأناشِرنا^(٣) به بلدة ميتاً كذلك تخرجون * والذي خلق الأزواج كلها...»^(٤) إلى آخر الآيات.

وعلى التقدير، فهو لاء ولو لم يتم لهم إنكار نبوة النبي ﷺ ومكابرتهم إلا بهذا الجحد والتکذیب العام، ورأوا أنهم إن أقرروا بعض النبوتات وجحدوا نبوته (ظاهر تناقضهم وتفریقهم بين المتماثلين، وأنه لا يمكنهم الإيمان بنبی وحده نبوة)^(٥) من نبوته أظهر وأيتها أكبر وأعظم ممن أقرروا به.

وأنجح سبحانه أن من جحد أن يكون قد أرسل رسلاً، وأنزل كتبه لم يقدره حق قدره، وأنه (نسبه)^(٦) إلى ما لا يليق به، بل يتعالى ويتنزل عنه، فإن في ذلك إنكاراً لربوبيته وإلهيته وملكته وحكمته، والظن السيء به أنه خلق خلقه عبثاً باطلأً، وأنه خلاهم سدى مهملأً، وهذا ينافي كماله المقدس، وهو متعال عن كل ما ينافي كماله، فمن أنكر كلامه وتکلیمه وإرساله الرسل إلى خلقه فما قدره حق قدره، ولا عرفه حق معرفته، ولا عظمته حق عظمته، كما أن من عبد معه إلهاً غيره لم يقدره حق قدره، (معطل)^(٧) جاحد لصفات كماله ونعوت جلاله، وإرسال رسلاً وإنزال كتبه، ولا عظمته حق عظمته.

[إنكار نبوة محمد إنكار لربوبية الله تعالى]

ولذلك كان جحد نبوة خاتم (الأنبياء والرسل)^(٨) وتکذیبه إنكاراً للرب تعالى في

(١) في الأصل: الحکیم.

(٢) في الأصل: والله الذي.

(٣) أنشرنا: أحينا، وهنا عدول عن المغایبة إلى الإن bian لعلم المخاطب بالمراد (تفسير النسفي: ٤/١١٤).

(٤) سورة الزخرف: الآيات ٩ - ١٢.

(٥) سقطت من ص.

(٦) سقطت من ص وفي ج: يشبه.

(٧) في ب، ج: فلم يقدره حق قدره معطل.

(٨) في ب، ج، ص: خاتم أنبيائه ورسله.

(الحقيقة)^(١) ومحظوظاً له، فلا يمكن الإقرار بربوبيته وإلهيته وملكه، بل ولا بوجوده، مع تكذيب محمد بن عبد الله رض، وقد أشرنا إلى ذلك في المناورة التي تقدمت، فلا يجامع الكفر برسول الله صل الإقرار بالرب تعالى وصفاته أصلاً، كما لا يجامع (الكافر)^(٢) بالمعاد واليوم (الآخر)^(٣) الإقرار بوجود الصانع أصلاً، وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في موضعين (في كتابه)^(٤) في سورة الرعد في قوله تعالى: «وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجْبْ قَوْلُهُمْ إِذَا كَنَا تَرَاباً أَلَّا نَفِي خَلْقَ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ»^(٥).

والثاني في سورة الكهف في قوله تعالى: «وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظَنَّ أَنْ تَبَدِّلَ هَذِهِ أَبْدَأْ * وَمَا أَظَنَ السَّاعَةَ قَائِمَةً * وَلَمْ رَدَدْتَ إِلَى رَبِّي لِأَجَدَّنَ خَيْرًا مِنْهَا مِنْقَلْبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يَحَاوِرُهُ أَكْفَرْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رِجْلَأْ * لَكُنَا هُوَ اللَّهُ رَبُّنَا وَلَا أَشْرَكْ بِرَبِّي أَحَدًا»^(٦).

فالرسول صلوات الله وسلامه عليه إنما جاء بتعريف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله، (والتعريف)^(٧) بحقوقه على عباده فمن أنكر (رسالته)^(٨) فقد أنكر الرب الذي دعا إليه وحقوقه التي أمر بها، بل نقول لا يمكن الاعتراف بالحقائق على ما هي عليه مع تكذيب رسوله صل.

[ضلال المذاهب التي أنكرت النبوات]

[الفلاسفة]:

وهذا ظاهر جداً لمن تأمل مقالات أهل الأرض وأديانهم، فإن الفلسفة لم يمكنهم

(١) في ج: حقيقته.

(٢) في الأصل: جحد، وسقطت في ب، ج.

(٣) سقطت من ب.

(٤) سقطت من ب، ج.

(٥) سورة الرعد: الآية ٥، وموضع الاستشهاد في الآية أن الله تعالى اعتبر منكري البعث والمعاد كافرين بالله، لأنهم أنكروا جزءاً مما جاء به الرسل عليهم السلام.

(٦) سورة الكهف: الآيات ٣٥ - ٣٨، وموضع الشاهد اعتبار منكر الساعة والمعاد كافراً بربه الذي خلقه.

(٧) في الأصل: والتعريف.

(٨) في ص: رسالاته.

الاعتراف بالملائكة والجن (والمبداً) والمعاد وتفاصيلهما، وتفاصيل صفات الرب تعالى وأفعاله مع إنكار النبوات ، بل والحقائق المشاهدة التي لا يمكن إنكارها، لم يثبتوها على ما هي عليه، ولا أثبتو حقيقة واحدة على ما هي عليه البتة وهذا ثمرة إنكارهم النبوات .

فسلبهم الله إدراك الحقائق التي زعموا أن عقولهم كافية في إدراكتها ، فلم يدركوا منها شيئاً على ما هو عليه ، حتى ولا الماء ولا الهواء ولا الشمس ولا غيرها ، فمن تأمل مذاهبهم فيها علم أنهم لم (يدركوها)^(١) ، وإن عرفا من ذلك بعض ما خفي على غيرهم .

[المجوس والوثنيون]:

وأما المجوس فأفضل وأضل ، وأما عباد الأصنام فلا عرفوا الحال ولا عرفوا حقيقة المخلوقات ، ولا ميزوا بين الشياطين والملائكة ، ولا بين الأرواح الطيبة والخبيثة ، وبين أحسن الحسن وأقبح القبيح ، ولا عرفوا كمال النفس (وما)^(٢) تسعده به ، ونقصها وما تشقي به .

[النصارى]:

وأما النصارى فقد عرفت ما الذي أدركوه من معبدتهم وما وصفوه به ، وما الذي قالوه في نبيهم ، وكيف لم يدركوا حقيقته البتة ، ووصفوا الله بما هو من أعظم العيوب والنقائص ، ووصفوا عبده ورسوله بما ليس له بوجه من الوجه ، ولا عرفوا الله ولا رسوله ، والمعاد الذي أقروا به لم يدركوا حقيقته ، ولم يؤمنوا بما جاءت به الرسل من حقيقة ، إذ لا أكل عندهم في الجنة ولا شرب ولا زوجة هناك ولا حور عين يلذ بهن الرجال كلذاتهم في الدنيا ، ولا عرفوا حقيقة أنفسهم وما (تسعد به وتشقى)^(٣) ، ومن لم يعرف ذلك فهو أجرد أن لا يعرف حقيقة شيء كما ينبغي البتة .

فلا لأنفسهم عرفوا ولا لفاطرها وباريها ، ولا لمن جعله الله (سبباً)^(٤) في فلاحها وسعادتها ، ولا للموجودات وأنها جميعها فقيرة مربوبة مصنوعة ناطقها آدميها وجنهما

(١) في ج ، ب : بذكروها .

(٢) في الأصل : ولا ما .

(٣) في الأصل : وما يسعد به وما يشقى به (بالباء) .

(٤) في الأصل : سبلاً .

وملكها، وكل من في السموات والأرض عبده وملكه وهو مخلوق مصنوع مربوب فقير من كل وجه ومن لم يعرف هذا لم (يعرف)^(١) شيئاً.

[اليهود]:

وأما اليهود (لعنهم الله)^(٢) فقد حكى الله لك عن جهل أسلافهم (وعبادتهم للعجل)^(٣) وضلالهم ما يدل على ما ورائهم من ظلمات الجهل التي بعضها فوق بعض، ويكتفي ذلك عبادتهم العجل الذي صنعته أيديهم من ذهب. (ومن غباوتهم)^(٤) (وبلاطتهم)^(٥) أن جعلوه على صورة (أبله)^(٦) الحيوان، وأقله فطانة الذي يضرب به المثل في قلة الفهم، فانظر إلى هذه الجهالة والغباء المجاوزة للحد كيف عبدوا مع الله إلهآ آخر، وقد شاهدوا من أدلة التوحيد وعظمة الرب وجلاله ما لم يشاهده سواهم.

وإذ^(٧) قد عزموا على اتخاذ إله دون الله فاتخذوه ونبיהם حي بين أظهرهم، لم ينظروا موتته، وإذا قد فعلوا (فلم يتخذوه من الملائكة المقربين، ولا من الأحياء الناطقين، بل اتخذوه من الجنادات، وإذا قد فعلوا)^(٨) فلم (يجعلوه)^(٩) من الجوادر العلوية كالشمس والقمر والنجوم، بل هو من الجوادر الأرضية، وإذا قد فعلوا، فلم يتخذوه من الجوادر التي خلقت فوق الأرض عالية عليها كالجبال ونحوها، بل من جوادر لا تكون إلا تحت الأرض، والصخور والأحجار (عالية)^(١٠) عليها، وإذا قد فعلوا فلم يتخذوه من (جوهر يستغني عن الصنعة)^(١١) وإنما إنما النار وتقليله وجوهاً مختلفة، وضرره بالحديد وسبكه، بل من جوهر يحتاج إلى نيل الأيدي له بضرورب مختلفة وإنما النار

(١) في الأصل: يكن.

(٢) ليست في ب، ج، ص.

(٣) في ب، ص: وعبادتهم وفي ج: عداوتهم.

(٤) في ج: وعبادتهم.

(٥) ليست في ب، ج، ص.

(٦) في الأصل: أبلد.

(٧) معطقة على فانظر، ويكون المعنى: وانظر إذ.

(٨) سقطت من الأصل.

(٩) في ب، ج، ص: يتخذوه.

(١٠) في ج، ص: غالبة.

(١١) في الأصل: الجوادر التي تستغني عن الصيغة.

(ولإحرافه)^(١) واستخراج خبئه، وإذا قد فعلوا، فلم (يصوّغوه)^(٢) على تمثال ملك كريم، ولا نبي مرسل، ولا على تمثال جوهر علوي لا تناهه الأيدي، بل على تمثال حيوان أرضي، وإذا قد فعلوا فلم يصوغوه على مثال أشرف الحيوانات وأقواها وأشد امتناعاً^(٣) من الضيم كالأسد والفيل ونحوهما، بل صاغوه على تمثال أبلد الحيوانات وأقبله للضيم والذل بحيث تحركت عليه الأرض، ويسبق عليه بالواقي والدوالib، ولا له قوة يمتنع بها من كبير ولا صغير^(٤)، فأي معرفة لهؤلاء بمعبودهم ونبيهم وبحقائق الموجودات.

وحقيق بمن (سأل)^(٥) نبيه أن يجعل له إلهًا (فيعبد «الأصنام»^(٦) إلهًا)^(٧) مجعلولاً بعدما شاهد تلك الآيات الباهرات أن لا يعرفحقيقة الإله ولا أسماءه وصفاته ونعته ودينه، ولا يعرفحقيقة المخلوق وحاجته وفقره، ولو عرف هؤلاء معبودهم (ورسوله)^(٨) لما قالوا لنبיהם: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى ترَى اللَّهَ جَهَرًا﴾^(٩) ولا قالوا له ﴿إذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾^(١٠).

ولا قتلوا نفساً وطربوا المقتول على أبواب البراء من قتلهم ونبيهم حيّ بين أظهرهم، وخبر السماء والوحى يأتيه صباحاً ومساءً^(١١)، فكأنهم جوزوا (أن)^(١٢) يخفى هذا على الله (كما يخفى على)^(١٣) الناس.

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في الأصل: يصنعونه.

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) وهو العجل، والحديث كله بهذا الأسلوب التعجبى التهكمى عن اليهود الذين اتخذوا من حلبيهم عجلاً، واتخذوه إلهًا يعبد من دون الله.

(٥) في ج: أرسل.

(٦) في ص: فقط.

(٧) سقطت من الأصل.

(٨) في ص: ورسولهم.

(٩) سورة البقرة: الآية ٥٥.

(١٠) سورة المائدة: الآية ٢٤.

(١١) يشير بهذا إلى قوله تعالى عن بنى إسرائيل ﴿وَإِذْ قَاتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأُتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كَتَمْتُم﴾ [البقرة: ٧٢].

(١٢) في الأصل على أن.

(١٣) سقطت من ج، وفي ب: كما يخفى على الله.

ولو عرفوا معبودهم لما قالوا في بعض مخاطبائهم له: «يا أبانا انتبه من رقدتك لا تنم».

ولو عرفوه لما سارعوا إلى محاربة أنبيائهم وقتلهم وحبسهم ونفيهم، ولما تحابيلوا على تحليل محارمه وإسقاط فرائضه بأنواع الحيل.
ولقد شهدت التوراة بعدم فطانتهم وأنهم من الأغبياء^(١).

ولو عرفوه لما حجروا عليه بعقولهم الفاسدة أن (يأمر)^(٢) بالشيء في وقت لمصلحة ثم (يزيل)^(٣) الأمر به في وقت آخر لحصول المصلحة، ويبدل بما هو خير منه وينهى عنه، ثم (يبيحه)^(٤) في وقت آخر لاختلاف الأوقات والأحوال في المصالح والمفاسد^(٥)، كما هو شاهد في أحكامه القدرية الكونية التي لا يتم نظام العالم ولا مصلحته إلا بتبدلها واحتلافها بحسب الأحوال والأوقات والأماكن، فلو اعتمد طبيب أن لا يغير الأدوية والأغذية بحسب اختلاف الأزمان والأماكن والأحوال لأهلك الحرج والنسل وعد من الجهل، فكيف يحجر على طبيب القلوب والأديان أن تتبدل أحكامه بحسب اختلاف المصالح، وهل ذلك إلا قبح في حكمته ورحمته وقدرته وملكه التام وتديبره بخلقه؟!

ومن جهلهم بمعبودهم ورسوله وأمره، أنهم أمروا أن يدخلوا باب المدينة التي فتح الله عليهم سجداً، ويقولوا حطة^(٦) فيدخلوا متواضعين لله سائلين منه أن يحط عنهم خطاياهم، فدخلوا يزحفون على أستائهم بدل السجود له ويقولون (حنطاً سقماً)^(٧) أي حنطة سماء. فذلك سجودهم (وخضوعهم)^(٨)، وهذا استغفارهم (واستقالتهم)^(٩) من

(١) انظر: الشنوة: ٢٨/٣٢ (إنهم أمة عديمة الرأي ولا بصيرة فيهم).

(٢) في الأصل أن يأمروا.

(٣) سقطت من ج.

(٤) في ب، ج: ينجيه.

(٥) يشير بهذا إلى إنكار اليهود للنسخ.

(٦) يشير إلى قوله تعالى: «وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين» [القرآن: ٥٨].
والقرية هي بيت المقدس كما رأى ابن كثير رحمه الله: ٩٨/١.
باللغة العبرية.

(٧) في ص: وخشوعهم.

(٨) في ج: واستغاثتهم.

ذنوبهم. ومن جهلهم وغباؤتهم أن الله سبحانه وتعالى أراهم من الآيات آيات قدرته وعظم سلطانه وصدق رسوله ما لا مزيف عليه، ثم أنزل عليهم بعد ذلك كتابه وعهد إليهم فيه عهده وأمرهم أن يأخذوه بقوه، فيعبدونه بما فيه، كما خلصهم من عبودية فرعون والقبط، فأبوا أن يقبلوا ذلك، وامتنعوا منه، فتنق الجبل^(١) العظيم فوق رؤوسهم على قدرهم. وقيل لهم: إن لم تقبلوا طبقتكم عليكم فقبلوه من تحت الجبل.

قال ابن عباس رضي الله عنهم: رفع الله الجبل فوق رؤوسهم وبعث ناراً من قبل وجوههم وأتاهم البحر من تحتهم، ونودوا إن لم تقبلوا أرضختكم بهذا، وأحرقتكم بهذا، ولفرقتكم بهذا، فقبلوا وقالوا سمعنا (أطعنا)^(٢)، ولو لا الجبل ما أطعناك، ولما آمنوا بعد ذلك قالوا: سمعنا وعصينا^(٣)، ومن جهلهم أنهم شاهدوا الآيات، ورأوا العجائب التي يؤمن على بعضها البشر، ثم قالوا بعد ذلك: «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة»^(٤).

وكان الله سبحانه وتعالى قد أمر كليمه موسى عليه الصلاة والسلام أن يختار من خيارهم سبعين رجلاً لميقاته، (فاختارهم)^(٥) موسى وذهب بهم إلى الجبل^(٦)، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل، وقال للقوم: ادروا، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الحجاب، وقعوا سجداً، فسمعوا رب سبحانه وتعالى وهو يكلم موسى، ويأمره وينهاه، ويعهد إليه، فلما انكشف الغمام، قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة^(٧).

ومن جهلهم أن هارون عليه السلام لما مات ودفنه موسى قالت بنو إسرائيل لموسى: أنت قاتله، حسدته على خلقه ولينه من محبةبني إسرائيل له، قال: فاختاروا

(١) ننق الجبل: وهي من قوله تعالى: «إذ نتقن الجبل فوقهم» [الأعراف: ١٧١] بمعنى قلناه ورفعناه فوقهم (النسفي: ٨٤/٢).

(٢) في ج: وعصينا وهو خطأ.

(٣) سورة البقرة: الآية ٩٤، والرواية ذكرها السيوطي في الدر المنشور.

(٤) سورة البقرة: الآية ٥٥.

(٥) في ب، ج: واختار.

(٦) يشير إلى قوله تعالى: «واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا» [الأعراف: ١٥٥].

(٧) انظر: تفسير ابن كثير: ١١٦/١.

سبعين رجلاً (من بنى إسرائيل)^(١) فوقفوا على قبر هارون، فقال موسى : يا هارون ، أقتلت أم مت؟ فقال : بل مت وما قتلني أحد.

فحسبك من جهة أمة (وجفائهم)^(٢) أنهم اتهموا نبيهم ونسبوه إلى قتل أخيه ، فقال موسى : ما قتلته فلم يصدقوه حتى أسمعهم كلامه (وبرأه أخيه)^(٣) مما رموه به.

ومن جهلهم أن الله سبحانه وتعالى شبههم في حملهم التوراة وعدم الفقه فيها والعمل بها بالحمار يحمل أسفاراً^(٤) ، وفي هذا التشبيه من النداء على جهالتهم وجده متعددة منها :

أن الحمار من أبلد الحيوانات التي يضرب بها المثل في البلادة . (ومنها: أنه لو حمل غير الأسفار من طعام أو علق أو ماء لكان له به شعور ما)^(٥) ، ومنها: أنهم (حين حملوها حيث حملوها تكليفاً وقهرأً، لا أنهم)^(٦) حملوها طوعاً و اختياراً، بل كانوا كالملطفين لما حملوا لم يرثوا به رأساً.

ومنها: أنهم حيث حملوها تكليفاً وقهرأً لم يرضوا بها، ولم يحملوها رضاً و اختياراً، وقد علموا أنهم لا بد لهم (من حملها)^(٧) ، وأنهم إن حملوها اختياراً كانت لهم العاقبة في الدنيا والأخرة ، ومنها: أنها مشتملة على مصالح معاشهم ومعادهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وإعراضهم عن التزام ما فيه سعادتهم وفلاحهم إلى صدره من غاية الجهل والغباء ، وعدم الفطنة ، ومن جهلهم وقلة معرفتهم أنهم طلبوا عوض المن والسلوى^(٨)

(١) زيادة في الأصل.

(٢) في بـ: وشقائهم.

(٣) في بـ، ص: وبرأة أخيه.

(٤) وذلك في قوله تعالى : «مُثُلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التُّورَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمُثُلُ الْحَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا» [الجمعة: ٥].

(٥) سقطت من صـ، وزاد في جـ: بخلاف الأسفار.

(٦) سقطت من جـ، وفي بـ، ص: حملوها لأنهم.

(٧) في بـ، جـ، ص: ومنها.

(٨) كان ذلك من نعم الله عليهم كما في قوله تعالى : «وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلُوِيَّ كُلُّوا مِنْ طَيَّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ» [البقرة: ٥٧] ، والمن: وإن اختلفت في وصفه عبارات المفسرين فهو طعام أو شراب للذيد كان ينزل عليهم من السماء كل يوم وهم في التيه (ابن كثير: ٩٥ / ١).

اللذين هما من أطيب الأطعمة وأنفقها وأوفقها للغذاء الصالح، البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل^(١)، ومن رضي باستبدال هذه الأخذية عوضاً عن المن والسلوى لم يستكثر عليه أن يستبدل الكفر بالإيمان، والضلالة بالهدا، والغضب بالرضى، والعقوبة بالرحمة، وهذا حال من لم يعرف ربه ولا كتابه ولا رسوله ولا نفسه.

وأما نقضهم ميثاقهم وتبديلهم أحکام التوراة وتحريفهم الكلم عن مواضعه وأكلهم الربا، وقد نهوا عنه، وأكلهم الرشا، واعتداً لهم في السبت، حتى مسخوا قردة (وختازير)^(٢)، وقتلهم الأنبياء بغير حق وتكتذبهم عيسى ابن مريم رسول الله، ورميهم له ولأمه بالعظام، وحرصهم على قتله، وتفردهم دون الأمم بالخبث والبهتان، وشدة مكالبتهم على الدنيا وحرصهم عليها، وقسوة قلوبهم وحسدهم، وكثرة (سحرهم)^(٣) فإليه النهاية.

وهذا وأضعافه من الجهل وفساد العقل قليل على من كذب رسول الله، وباء بمعاداته ومعاداة ملائكته وأنبيائه وأهل ولائيته.

فأي شيء عرف من لم يعرف الله ورسله، وأي حقيقة أدرك من فاتته هذه الحقيقة، وأي علم أو عمل حصل لمن فاته العلم بالله والعمل بمرضاته ومعرفة الطريق الموصولة إليه وما له بعد الوصول إليه؟

فأهل الأرض كلهم في ظلمات الجهل والبغى إلا من أشرق (عليه)^(٤) نور النبوة، كما في المسند وغيره من حديث عبد الله بن (عمرو)^(٥) عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه

والسلوى: ما يشبه طائر السمانى، كان يبعث الله عليهم الجنوب فتحشر عليهم السلوى، وهي السمانى فيذبح الرجل منها ما يكفيه (النسفي: ٤٩/١).

(١) كما في قوله تعالى: «وإذ قلت يا موسى لن نصر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وثناها وفومها وعدسها وبصلها قال أنتبدلون الذي هو أدنى بالذى هو خيرا...» [البقرة: ٦١].

(٢) سقطت من ب، ج، ص.

(٣) في ص: سخرهم.

(٤) في الأصل: على نفسه.

(٥) في ص: عمر.

ضل»^(١) فكذلك أقول: جفّ العلم على علم الله، ولذلك بعث الله رسلاً ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، فمن أجابهم خرج إلى الفضاء والشوار، ومن لم يجدهم بقي في الضيق والظلمة التي خلق فيها، وهي ظلمة الطبع وظلمة الجهل وظلمة الهدى وظلمة الغفلة عن نفسه وكمالها وما تسعده به في معاشها ومعادها.

فهذه كلها ظلمات، خلق فيها العبد بعث الله رسلاً لإخراجه منها إلى (نور)^(٢) العلم والمعرفة والإيمان والهدى الذي لا سعادة للنفس بدونه البتة. فمن أخطأه هذا النور أخطأه حظه وكماله وسعادته، وصار يتقلب في ظلمات بعضها فوق بعض، فمدخله ظلمة ومخرجه ظلمة وقوله ظلمة وعمله ظلمة (وقصده)^(٣) ظلمة، وهو متخطط في ظلمات طبعه وهواد وجهه، (ووجهه مظلم)^(٤) وقلبه مظلم، لأنّه مبقي على الظلمة الأصلية، ولا يناسبه من الأقوال والأعمال والإرادات والعقائد إلاّ ظلماتها، فلو أشرق له شيء من نور النبوة لكان بمنزلة إشراق الشمس على (بصائر)^(٥) الخفافش^(٦).

بصائر غشاها النهار بضوئه ولاعها قطع من الليل مظلم
يكاد نور النبوة يلمع (تلك الأ بصار)^(٧) (ويحفظها)^(٨) لشدة وضعفها، فتهرب إلى
الظلمات لموافقتها لها وملاءمتها إياها.

والمؤمن عمله نور وقوله نور، ومدخله نور ومخرجه نور وقصده نور، فهو يتقلب في النور في جميع أحواله، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، مثُلُّ نوره كمشكاةٍ فيها مصباحٍ، المصباحُ في زجاجةٍ زجاجةٌ كأنها كوكبُ دُرّيٍّ، يوقُدُ من شجرةٍ مباركةٍ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مستنه: ١٧٦/٢ - ١٩٧ ، وأخرجه الترمذى في كتاب الإيمان: ص ١٨ .

(٢) سقطت من ص والأصل.

(٣) في الأصل: وقضاؤه.

(٤) سقطت من ج.

(٥) في الأصل: بصر.

(٦) الخفافش: بضم المخاء وتشديد الفاء، طائر صغير الحجم لا يطير إلاً ليلاً أو في ظلام الكهوف.

(٧) في ب، ج، ص: ذلك البصائر.

(٨) في ب، ج، ص: ويحفظها.

زيتونةٌ لا شرقيةٌ ولا غربيةٌ ، يكاد زيتها يضيئُ ولو لم تمسسَ نار ، نورٌ على نور ،
يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء علیم^(١) .

ثم ذكر حال الكفار وأعمالهم (وتقليفهم)^(٢) في الظلمات فقال : «والذين كفروا
أعمالُهُمْ كَسَرَابٌ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ، وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ
فَوْفَاهُ حِسَابٌ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ، أَوْ كَظُلْمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجْجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ
(فَوْقَهُ)^(٣) سَحَابٌ ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا ، وَمَنْ
لَمْ يَجْعَلِ اللَّهَ لَهُ نُورًا ، فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ»^(٤) .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا ، بَاطِنًا وَظَاهِرًا

وَصَلَى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّنَ وَالْمَرْسَلِينَ

وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا

إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

**
*

(١) سورة النور: الآية ٣٥.

(٢) في الأصل: وتقليباتهم.

(٣) سقطت من الأصل سهواً.

(٤) سورة النور: الآياتان ٣٩، ٤٠.

خاتمة التحقيق

بعد هذه الرحلة الطويلة الشيقة مع إمامنا العلامة ابن قيم الجوزية، ومع كتابه القيم «هداية الحيارى» لا بدّ لي أن أقف لأسجل أهم النتائج والفوائد التي توصلت إليها:
أولاً: لقد أوقفني هذا البحث على أحد الأئمة الأعلام الذين كان لهم باع طویل في التأليف والبحث بمختلف العلوم الإسلامية، وبأسلوب شيق مرغوب فيه عند القدماء والمحدثين.

ثانياً: ظهر من خلال الدراسة التي قدّمتها مدى التقدم العلمي في القرن الثامن الهجري في مصر والشام، وقد بُرِزَ ذلك في كثرة المدارس وانتشارها، وظهور أعظم المصادر والموسوعات في شتى العلوم الإسلامية واللغوية والتاريخية، فكان عصرًا متميزاً في إنتاجه للرجال وإنتجاه للكتب والمؤلفات.

ثالثاً: كان ابن القيم رحمة الله يعيش مع أحداث عصره، على وعي كامل بما يحيط به، يتّجاذب مع مطالب الأمة واحتياجاتها، يدافع عما يعتقد أنه حق، وتدعّمه أدلة الكتاب والسنة.

ويظهر ذلك بتتبع مؤلفاته التي عالجت في ثناياها المشكلات التي كانت تعيشها الأمة، فنجده يتحدث عن بعض العادات الاجتماعية المخالفة للإسلام، كال محلل في النكاح وغيره، ويتحدث عن بعض مظاهر الشرك التي كان البعض يمارسونها مثل شدّ الرجال إلى قبور الأنبياء والأولياء، والاستعانة بغير الله وبعض سطحات المتصوفة، ويجب في كتبه الفقهية عن المسائل المطروحة، ويقاوم الفرق الضالة المنحرفة، فيكتب عن الجهمية والمعطلة من الرافضة والجبرية. ويردّ على بعض الشبهات التي كان يطرحها اليهود والنصارى، وما كان منها رائجاً عند الناس من مخلفات الغزو الصليبي.

رابعاً: كتاب هداية الحيارى، كتاب قيم جداً، تميّز بخصائص لا تجدها مجتمعة في غيره مطلقاً. وحوى بأسلوبه المقنع ردوداً شافية على شبهات كثيرة يثيرها اليهود والنصارى.

خامساً: وجدت أن ابن القيم لم يكن يؤمن بأسلوب العنف والشتائم في الرد على خصميه، وإنما كان يؤمن بمبدأ دفع الشبهة بالحجّة والبرهان وبالجادل لا بالجلاد – كما أشار في مقدمته للكتاب – وكان يسلك في طريقه بالرُّد منهج «من فمك أدينك».

فقد شاهدت مئات النصوص التي استشهد بها ابن القيم من أسفار العهددين القديم والجديد مع علمه أن التحرير قد أصابها، ولكنه يرفعها حجّة في وجه المؤمنين بها المعقددين صحتها.

سادساً: أهمية هذا الكتاب تكمن في ملائمة لعصره، وفي سعته وتنوع موضوعاته، وأسلوب التسويق في قراءته، فهو يحدثك عن عقيدة أهل الكتاب بخالقهم وتحريفاتهم لكتبهم، كما يحدثك عن دلائل نبوة محمد ﷺ في كتبهم وفي غيرها، مستعملاً الدليل النقلي تارة، والدليل العقلي تارة أخرى، ويحدثك عن أصحابه رضوان الله عليهم، عن فضلهم وعلمهم وجهادهم، كما يحدثك عن قضايا دقيقة عميقه في معتقدات أهل الكتاب.

جزى الله إمامنا خير الجزاء، ووفقنا لإحياء تراثه وإبراز علمه ومؤلفاته.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فَهْرُسُ الْمَوْضُوعَاتِ

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة المحقق
القسم الأول	
دراسة حول الكتاب	
١٥	الباب الأول: ترجمة ابن القيم
١٧	الفصل الأول: عصره
١٨	(١) الحالة السياسية
٣٣	(٢) الحالة الاجتماعية
٣٩	(٣) الحالة العلمية
٤٧	الفصل الثاني: حياته
٤٧	(١) اسمه ونسبه ولقبه وكنيته
٥٠	(٢) مولده وأسرته
٥٢	(٣) نشأته ورحلته
٥٤	(٤) تأثره بابن تيمية
٥٧	(٥) أخلاقه وعبادته
٦٠	(٦) ثناء العلماء عليه
٦٣	(٧) محنته
٦٧	(٨) وفاته
٦٩	الفصل الثالث: شيوخه وتلاميذه
٧٩	الفصل الرابع: مؤلفاته
١٠٧	الفصل الخامس: ثقافته وشخصيته العلمية

الموضع	الصفحة
(١) العوامل المؤثرة في تكوين شخصيته العلمية	١٠٨
(٢) معالم ثقافته	١١١
(٣) ميزات منهجه العلمي	١٢٠
الباب الثاني: كتاب هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى	١٢٥
الفصل الأول: إثبات نسبة هذا الكتاب إلى ابن القيم	١٢٧
الفصل الثاني: موضوع الكتاب وأسلوبه وسبب تأليفه	١٣١
الفصل الثالث: مصادر الكتاب	١٣٥
الفصل الرابع: وصف مخطوطات الكتاب	١٤١
* نقد تحقيق الدكتور أحمد السقا للكتاب نفسه	١٥١
الفصل الخامس: أهمية الكتاب	١٥٧
الباب الثالث: أصول العقيدة عند اليهود والنصارى	١٦٩
الفصل الأول: أصول عقيدة النصارى	١٧١
الفصل الثاني: أصول عقيدة اليهود	١٩٧
 القسم الثاني	
تحقيق الكتاب	
مقدمة المؤلف	٢١٧
الحالة الدينية عند بعثة محمد ﷺ	٢٢٧
سبب تأليف الكتاب	٢٣٢
خطة الكتاب	٢٣٤
القسم الأول: في أجوبة المسائل	٢٣٥
المسألة الأولى فيما يمنع أهل الكتاب الدخول في الإسلام	٢٣٥
* التوزيع الجغرافي للأصحاب الديانات	٢٣٥
* الأسباب المانعة من قبول الحق	٢٤٤
المسألة الثانية فيما لو اختاروا الكفر	٢٥٦
* الهجرة إلى الحبشة	٢٥٧
* وفد من النصارى جاؤوا إلى رسول الله وهو بمكة	٢٦٣

* وفد نجران بالمدينة ٢٦٤	* قصة إسلام عدي بن حاتم ٢٦٥
* قصة إسلام سلمان الفارسي ٢٦٨	* موقف هرقل من كتاب رسول الله ﷺ ٢٧٥
* موقف النجاشي من كتاب رسول الله ﷺ ٢٧٨	* كتاب رسول الله ﷺ إلى الموقس ٢٨٠
* كتاب رسول الله ﷺ لبني الجندي ٢٨٣	* كتاب رسول الله ﷺ إلى صاحب اليمامة ٢٨٦
* كتاب رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر ٢٨٧	* موقف جمهور الناس من دعوة محمد ﷺ ٢٨٩
* إسلام عبد الله بن سلام سيد اليهود ٢٩٠	المسألة الثالثة فيما اشتهر من محو اسمه ﷺ من كتب أهل الكتاب ٢٩٦
* كتاب رسول الله ﷺ إلى أهل نجران ٣٠١	* الأدلة على ذلك الكتب السابقة لنبوة محمد ﷺ ٣٠٦
* وسائل التحرير عند أهل الكتاب ٣١١	* بشارات التوراة بنبوة محمد ﷺ الرد على تأويل بنى إسرائيل لها ٣١٦
* بشارات الإنجيل بنبوة محمد ﷺ والرد على تأويل النصارى لها ٣٢٣	* موافقة أقوال علماء المسلمين لما ورد في التوراة ٣٤٧
* مناظرة لابن القيم مع أحد رؤساء اليهود ٣٨٤	* مناظرة لأحد علماء المغرب مع بعض اليهود ٣٨٥
* أخبار أمية بن أبي الصلت ٤٠٠	* أخبار أمية بن أبي الصلت ٤٠٧
* قصة الراهب بحيرا ٤١٥	* الاستدلال بأخبار الكتابين ٤١٦
* افتراضات في التوراة تشهد بالتحريف ٤٢٦	* تناقضات في الأنجليل تشهد بالتحريف ٤٢٦
المسألة الرابعة فيما قيل إن عبد الله بن سلام وأمثاله أسلموا بالشواهد التي في كتبهم ٤٣٢	
المسألة الخامسة فيما قيل إن ابن سلام وأمثاله اختاروا الإسلام طمعاً في الرئاسة ٤٣٧	

المسألة السادسة فيما قيل إن روايات ابن سلام أولى بالأخذ من روايات عوام الصحابة	
٤٤١	* علم الصحابة وفضلهم
٤٤٢	المسألة السابعة في الفواحش فيمن هو أعلم وأفقه في الدين
٤٦٢	* فرق اليهود وتحريفاتهم لكتابهم
٤٦٨	* مسألة البياما والجالوس
٤٧٥	* أمّة النصارى وانحرافها
٤٨٠	* حقيقة المسيح عليه السلام والرد على إلهيته
٤٩٢	* شبّهات وردود
٤٩٨	* صفات الله التي اتفقت عليها جميع الرسالات السماوية
٥٢٢	* نبوة محمد ﷺ تصدق للمرسلين عليهم السلام
٥٢٥	* نبوة محمد ﷺ أكثر إثباتاً لمعجزات المسيح عليه السلام
٥٢٩	* اليهود ينكرون نبوة المسيح عليه السلام
٥٣٠	* اليهود يألهون المسيح استهزاءً به ومحاولة لضرره
٥٣١	* اختلاف اليهود في المسيح عليه السلام
٥٣٣	* اختلاف النصارى في المسيح عليه السلام
٥٣٧	* عقيدتنا في المسيح عليه السلام
٥٣٩	* مجتمع النصارى ودورها في التحرير
٥٤٠	* النصرانية والدولة الرومانية
٥٤١	* الظروف التي كتبت فيها الأناجيل
٥٤٤	* فترة رفع البلاء عن اليهود
٥٥٠	* والد قسطنطين يتزوج هيلانة
٥٥١	* الصراع بين قسطنطين ومنافسيه
٥٥٢	* إعلان الدولة الرومانية نصرانيتها
٥٥٣	* ظاهرة آريوس قبل مؤتمر نيقية
٥٥٦	* أبرز قرارات المؤتمر
٥٦١	* المجمع الآريوسي
٥٦٢	* المجتمع الذي تليت المجتمع الآريوسي

الصفحة	الموضوع
٥٧٧	القسم الثاني : نبوة محمد ﷺ
٥٨٣	* إنكار نبوة محمد إنكار لريوبية الله
٥٨٤	* ضلال المذاهب التي أنكرت النبوات
٥٩٤	خاتمة التحقيق
٥٩٦	فهرس الكتاب

□ □ □